سليمان موسى

الحَركَة العَربيَّة

المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة

١٩٠٨ - ١٩٢٤





سليمان موسى

الحركة العربية

المرحلة الاولى للنهضة العربية الحديثة

١٩٠٨ - ١٩٢٤



دار النهار للنشر

الحَركة العَربيَة

سيرة المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة

١٩٠٨ - ١٩٢٤

اهداءات ٢٠٠٢
جامعة الحسين بن طلال
الاردن

سليمان موسى

الحركة العربية

سيرة المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة

١٩٠٨ - ١٩٢٤

دار النهار للنشر ش.م.ل.
بيروت - لبنان

الطبعة الثالثة

للمؤلف

الحسين بن علي والثورة العربية الكبرى : سيرة حياة ، ١٩٥٧
تاريخ الاردن في القرن العشرين : بالاشتراك مع منيب الماضي ، ١٩٥٩
لورنس والعرب ــ وجهة نظر عربية : مناقشة تاريخية ، ١٩٦٢
لورنس والعرب ــ باللغة الانكليزية : ثلاث طبعات في بريطانيا وامريكا ، ١٩٦٦ (ترجمه إلى الانكليزية الدكتور البرت بطرس) .
آثار الاردن ــ مترجم عن الانكليزية (المؤلف لانكستر هاردنج) ١٩٦٥
الثورة العربية الكبرى : وثائق وأسانيد ، مع شروح وايضاحات ، ١٩٦٦
صور من البطولة ــ مجموعة سير لعدد من المجاهدين العرب ، ١٩٦٨
غربيون في بلاد العرب ــ ترجمة واقتباسات عن كتب أجنبية ، ١٩٦٩

دار النهار للنشر
بيروت ١٩٨٦

المحتويات

مقدمة

يعالج هذا الكتاب مرحلة مهمة من تاريخ العرب الحديث في الشطر الآسيوي . فهو يبدأ بعودة العمل بالدستور العثماني عام ١٩٠٨ وما تبع ذلك من تأسيس الجمعيات العربية القومية ؛ وينتهي عام ١٩٢٤ بانتهاء المرحلة الأولى كلها .

في المرحلة التي يعالجها هذا الكتاب ، برز شبان مثقفون مثاليون عقائديون . حملوا لواء القومية ورفعوا شعار الحرية . ولكن اولئك الشبان لم يكونوا سوى بذور قمح قليلة في أرض لم يروها ماء المطر . ثم جاء رجال آخرون فكّروا وقدّروا ووازنوا ؛ وأعدّوا العدة في سرّية تامة ؛ ثم هبّوا يحملون لواء القومية ويرفعون شعار الحرية في ميادين القتال . كان الهدف وحدة العرب الآسيويين واستقلالهم وانشاء دولة عربية كبرى تحتل مكانها الطبيعي بين دول العالم .

ولا أعتقد انني اغالي اذا قلت ان كتابي هذا يتضمن الكثير مما لم ينشر من قبل . وأعتقد انني من الكتّاب القلائل الذين استطاعوا ان يعتمدوا في آن واحد على مصادر أجنبية وعربية جديدة ويخرجوا منها بآراء ومقارنات متوازنة . ففي وثائق وزارة الخارجية البريطانية الكثير مما لم ينشر بأية لغة حتى الآن ؛ ولكن الوثائق العربية — وعلى الأخص أوراق الأمير زيد — أتاحت لي فرصة إلقاء الضوء على قضايا عديدة كانت غامضة حتى الآن . ومن سوء الحظ ان الوثائق العربية قليلة ؛ ففي عدة حالات دمّرت أنظمة جديدة أوراق الانظمة التي سبقتها ، بالاضافة إلى ان الوعي بأهمية الوثائق ما زال ضعيفا في بلاد العرب .

وأثناء العمل في هذا الكتاب توصلت إلى عدة قناعات ، منها ان الحركة العربية الحديثة بدأت بداية طبيعية باتجاهها إلى بعث الامة العربية بعثا قوميا ، وان فهم أحداث الأمس ضروري لفهم قضايا اليوم : وان الشعوب هي التي تصنع تاريخها بنفسها : وكل شعب يلقي تلك المهمة على عاتق شعب آخر ينتهي إلى الوقوع فريسة في قبضة ذلك الشعب الآخر .

ولقد كانت الحقيقة رائدي : لأن الحقيقة أجمل وأعظم وأسمى من كل زيف : ولكن اذا خيّل لأحد انني لم أقف على الحقيقة في نقطة ما ، فليحمل ذلك مني محمل حسن النية وسلامة القصد .

ويقتضيني واجب الوفاء أن أذكر بالشكر والامتنان والتقدير السادة الذين غمروني بمعروفهم ويسروا لي دراسة المصادر التي اعتمدت عليها في تأليف هذا الكتاب . ولا بدّ لي ان اخصّ بالذكر صاحب السمو الملكي الأمير زيد بن الحسين الذي سمح لي بدراسة مجموعة الوثائق والأوراق التي يملكها. وكذلك القائمين على دائرة السجلات العامة (Public Record Office) في لندن (ومن جملتها وثائق وزارة الخارجية البريطانية ، وملفّات دار الاعتماد في جدة : وملفّات المكتب العربي في القاهرة ، ومحاضر جلسات اللجنة الشرقية) . وأخص بالذكر أيضاً : المرحوم محب الدين الخطيب (القاهرة) الذي سمح لي بالاطلاع على أوراق حزب اللامركزية ومخابرات وأوراق مختلفة يحتفظ بها : والمرحوم عوني عبد الهادي الذي بقيت على صلة به عدة سنوات وأطلعني على جملة من أوراقه . كما انني مدين للمرحوم محمد الشريقي الذي أوضح لي عددا من النقاط الغامضة . وأشكر أيضاً الاستاذ البرت حوراني والاستاذة اليزابث مونرو اللذين سمحا لي بدراسة أوراق هوجارث وأللنبي وسايكس في مركز الشرق الاوسط التابع لكلية سنت أنتوني في اوكسفورد ... أما الاستاذ أكرم زعيتر فقد طوقني بجميله اذ قرأ مخطوطة الكتاب كلها وتفضل عليّ بالكثير من التصويبات والملاحظات النافعة. وأخيرا وليس آخرا أذكر ابنتي عبلة التي نسخت مسودات الكتاب على الآلة الطابعة و بذلت في ذلك الجهد الكثير .

سليمان موسى

عمان ، ٢ تموز ١٩٧٠

الفصل الاول

العرب والترك

نظرة الى الماضي : في أوائل القرن السابع للميلاد : قام النبي محمد في مكة المكرمة يدعو إلى دين الاسلام . وخلال عشرين عاماً دانت الجزيرة العربية للدين الجديد واتحدت تحت زعامة الرسول العربي . وفي ٦٣٣ أي بعد وفاة النبي بسنة واحدة ، خرجت من قلب الجزيرة العربية جيوش العرب المسلمين تغزو سورية والعراق اللتين كانتا تخضعان لأعظم دولتين في العالم يومذاك . دولة الروم البيزنطيين ودولة الفرس .

كان النصر حليف الجيوش العربية الفاتحة حتى بلغت في مدى قرن واحد (٦٣٣ – ٧٣٣) حدود الصين شرقاً وجبال البرنات في شمالي اسبانيا غرباً . ولولا ان وقف شارل مارتل في معركة بواتييه في ٧٣٢ في وجه الفاتحين العرب وصدّهم عن التوغل في فرنسا ، لكان من المحتمل ان ترتفع ألوية الاسلام في اوروبا وان يتغيّر مجرى التاريخ عما نعرفه اليوم .

اتخذ النبي محمد المدينة المنوّرة عاصمة له ، وتابعه في ذلك خلفاؤه الاربعة (الخلفاء الراشدون) إلى أن تولى مقاليد الحكم بنو أمية، فاتخذوا من دمشق عاصمة لهذه الامبراطورية العظيمة ، بعد ان انهارت الدولة الفارسية انهياراً تاماً وتراجع البيزنطيون إلى آسيا الصغرى ، وأصبح البحر الابيض المتوسط خاضعاً لسيطرة الأساطيل العربية .

ولكن بعد ٩٠ عاماً انتقل مركز الدولة من سورية إلى العراق ، وحلّت بغداد محل دمشق عاصمة للخلفاء العباسيين الذين ثاروا على الامويين وتغلبوا عليهم في ٧٥٠ للميلاد . وكان من نتيجة انتقال السلطة من الامويين إلى العباسيين . ان انفصلت الاندلس – وهو

الاسم الذي أطلقه العرب على اسبانيا — عام ٧٦٣ عن جسم الامبراطورية العربية وأصبحت دولة مستقلة . وكان هذا الحدث أول تصدّع كبير في الكيان العربي .

في اوائل القرن التاسع استولى العرب على جزيرة صقلية وجنوبي ايطاليا ؛ ولكن الخلفاء في بغداد بدأوا في الوقت ذاته يجنّدون قواتهم النظامية من فتيان الاتراك الذين كانوا يأتون بهم من تركستان ؛ وقد اتخذ هذه الخطوة الخليفة المعتصم (٨٣٣ — ٨٤٢) الابن الثالث لهارون الرشيد . ولكن كان لهذا الاجراء تأثير خطير على سير الاحداث التي وقعت بعد ذلك بعشرين سنة فقط . ذلك ان قادة تلك القوات لم يلبثوا ان شعروا بالقوة الكافية فاخذوا يطالبون بالامتيازات ، حتى بلغ بهم الأمر ان قتلوا الخليفة سنة ٨٦١ وأخذوا يملون ارادتهم على الخلفاء الذين تعاقبوا بعد ذلك ؛ ويتحكمون في مقدرات الدولة .

وعندما تبيّن لحكام وامراء الولايات البعيدة عن العاصمة ان الخليفة أصبح خاضعاً لنفوذ المماليك الاتراك ؛ بدأ ارتباطهم بمركز الخلافة يتراخى وفتر ولاؤهم وساد الاضطراب عدة ولايات .

وفي ٩٧٢ ثـــار الفاطميون أبناء عم العباسيين وانشأوا في شمالي افريقيا دولة منفصلة . ثم استولوا على مصر وجعلوا القاهرة عاصمة لهم . وهكذا أصبحت بلاد العرب وممتلكاتهم تخضع لثلاثة خلفاء : العباسي في بغداد والفاطمي في القاهرة والاموي في الاندلس .

أعقب هذا . الغزوات التي أخذت تقوم بها قبائل التركمان البدائية من مواطنها في آسيـــا الوسطى . ففي ١٠٢٩ تدفقت جموع تلك القبائل على شمالي فارس وأخذت تزحف غرباً حتى استطاع زعيمها طغرل بك السلجوقي ان يستولي على بغداد في ١٠٥٥ . وفي الوقت ذاته هاجمت قبائل التركمان دولة البيزنطيين وأخذت تتوغل في آسيا الصغرى حتى بلغت شاطىء البسفور سنة ١٠٧١ ونتج عن هذا ان بعث الامبراطور البيزنطي يستغيث باوروبا المسيحية كي تمده بالعون لصد الغزاة ؛ وهكذا بدأت الحروب الصليبية .

لقد اعتنق السلاجقة الدين الاسلامي وحملوا لواء الدفاع عن بلاد العرب والمسلمين ضد الغزوات الصليبية . وبعد السلاجقة واصل الزنكيون مهمة النضال ثم أعقبهم صلاح الدين الايوبي وهو من عائلة كردية ، حتى أخذ مدّ الغزوة الصليبية يتراجع نتيجة لمعركة حطين الشهيرة (٤ تموز ١١٨٧) .

ولكن في الوقت الذي كان المسلمون من سكان الهلال الخصيب ومصر يقاتلون الصليبيين كانت موجة اخرى من قبائل المغول المتوحشة تتجمع في أواسط آسيا ثم لا تلبث ان تنحدر غرباً باتجاه البلاد الاسلامية .

وقد زرع جنكيز خان ، زعيم القبائل ، الدمار في الولايات الاسلامية إلى الشمال من العراق ودمّر معالم الحضارة فيها خلال خمسة اعوام (١٢٢٠ – ١٢٢٥) وعلى الرغم من ذلك فلم يكن جنكيز خان سوى النذير لحفيده هولاكو السيء الذكر .

وفي هذه المرة واصل الغزاة المغول زحفهم من الشرق على العراق فاستولوا على بغداد عاصمة الخلفاء العباسيين الشهيرة ؛ ثم نهبوا المدينة وأحرقوها بعد ما قتلوا جميع سكانها (٨٠٠ الف نسمة) ومن جملتهم الخليفة، بوحشية منقطعة النظير (شباط ١٢٥٨) .

كان سقوط بغداد على أيدي المغول نهاية العصر العربي – الاسلامي ذي الحضارة الزاهرة . فقد حمل العرب والشعوب التي دانت بالاسلام مشعل الحضارة العالمية خلال نيف وخمسة قرون ، بعد انهيار الحضارتين اليونانية والرومانية . وكان العنصر العربي هو العنصر الحاكم في الاقطار الاسلامية خلال فترة تتراوح بين قرنين وثلاثة قرون، ثم انقسم العرب على أنفسهم فانتقل الحكم تدريجياً إلى أيدي عناصر أجنبية من تركمان وسلاجقة ومغول وأكراد ومماليك . ولكن العرب الذين خرج الحكم من أيديهم أعطوا تلك الشعوب تعاليم الدين السماوي الذي خرجوا من جزيرتهم للتبشير به ونشره ، وظل العرب يتمتعون باعتبار اجتماعي كبير وبمنزلة خاصة في الاقطار الاسلامية ؛ كما ان اللغة العربية ، لغة القرآن الكريم ، كانت هي اللغة السائدة التي تبلورت فيها الحضارة العربية – الاسلامية.

وهكذا نرى – كما يقول الجنرال جلوب – ان« الحضارة الاسلامية والسلطة الاسلامية سادا العالم خلال خمسة او ستة قرون . وهي الفترة التي اهملتها كتبنا التاريخية . »[1]

لم يكن يهم الغزاة المتوحشون الذين تغلبوا على البلاد الاسلامية سوى النهب والقتل والتدمير ، وكان من نتائج غزواتهم المتعاقبة أن أخذت معالم الحضارة والمدنية تتلاشى تدريجياً حتى حلّ الفقر محل الرخاء والجهل محل العلم والتخلّف محل الرقي . وهبط مستوى السكان الأصليين حتى أصبح يماثل مستوى الغزاة البرابرة الأميين .

ان قصة التوسع العربي وما رافقها وأعقبها من نجاح وفشل ومن صعود وهبوط ؛ تتضمن تاريخين مهمين أولهما سقوط غرناطة آخر المعاقل العربية في اسبانيا بيد فرديناند وايزابلا سنة ١٤٩٢ ؛ وثانيهما استيلاء العثمانيين الاتراك على سورية ومصر سنة ١٥١٧ . وابتداء من هذا التاريخ الاخير تبدأ علاقة العرب بآخر الشعوب القادمة من اواسط اسيا وهي علاقة استمرت اربعة قرون كاملة .

الاتراك العثمانيون : في النصف الثاني من القرن الثالث عشر أنشأ عثمان : زعيم احدى القبائل التركية المسلمة في اطراف الاناضول ، امارة صغيرة لم تلبث أن أخذت تتسع وتمتد تدريجياً حتى اجتازت قواتها البحر الى اوروبا فاصطدمت بالصرب والبلغار واستولت على شبه جزيرة غاليبولي وبلاد اليونان وبلغت نهر الدانوب . وظل السلاطين العثمانيون يواصلون فتوحاتهم حتى اصبح الاناضول كله تقريبا في أيديهم في مطلع القرن الخامس عشر ؛ وتطورت الامارة الصغيرة الى دولة كبيرة قوية مرهوبة . وفي سنة ١٤٥٣ سقطت القسطنطينية عاصمة البيزنطيين في يد السلطان محمد الثاني فاتخذها العثمانيون عاصمة لهم واطلقوا عليها اسم استانبول .

---

(١) Lt. Gen. Sir J. Glubb, *The Lost Centuries*, Hodder and Stoughton, 1967, p. 483.

وبعد فترة من المنازعات الداخلية، استدار السلطان سليم العثماني شرقاً فهزم شاه فارس الصفوى في ١٥١٤ ؛ وفي السنة التالية استولى على كردستان والموصل . وفي ١٥١٦ استطاع ان يلحق الهزيمة بجيش المماليك قرب حلب ويستولي على سوريا كلها ؛ ثم واصل الزحف جنوباً إلى مصر حيث هزم الجيش المملوكي مرة اخرى في كانون الثاني ١٥١٧ ولم تلبث مصر كلها ان خضعت لحكمه .

لم تكن في البلاد العربية قوة اخرى تقف في وجه العثمانيين . لذلك لم يلبثوا ان بسطوا سلطانهم عليها بالتدريج . وفي عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ – ١٥٧٤) بلغت الامبراطورية العثمانية ذروة مجدها وعظمتها اذ استولى على بلغراد وبودابست وحاصر فينّا . وفي بلاد العرب اعترف حاكم اليمن المملوكي بسيادة العثمانيين الذين لم يلبثوا ان استولوا على بغداد والبصرة (١٥٣٤) والاحساء وعدن . وشمالي افريقيا من ليبيا حتى تونس فالجزائر (١٥٥٦) ولم يبق من بلاد العرب خارج نطاق الامبراطورية سوى مراكش وقلب جزيرة العرب .

وعلى الرغم من ان العثمانيين قصّروا بصفتهم أقوى الدول الاسلامية في مدّ يد العون لعرب اسبانيا اخوانهم في الدين وأغمضوا الطرف عن سقوط مملكة غرناطة دون ان يكترثوا لمصيرها . فان سكان البلاد العربية رحبّوا بهم لرابطة الدين التي تربط بينهم . وقد كان العرب سابقاً يبتهجون كلما بلغتهم انتصارات العثمانيين ضد الاقطار المسيحية في اوروبا وخاصة عند سقوط القسطنطينية بايديهم . وكان العرب يرون ان دولة اسلامية قويّة حلّت محل دولة اسلامية اخرى . وقد استمرت هذه الرابطة الدينية تشدّ ولاء العرب للعثمانيين طوال اربعة قرون ، اذ ظل العرب يعتبرون الدولة العثمانية الدولة الاسلامية الكبرى التي تحمي ديار المسلمين من عدوان الدول غير المسلمة وترفع من شأن الاسلام .

اما القول الشائع بان السلطان سليم اتخذ لقب خليفة وبأن آخر الخلفاء

العباسيين في مصر وافق على نقل الخلافة اليه ، فقول لا توجد أدلّة على صحته ، وانما هي رواية اختلقها السلاطين العثمانيون فيما بعد لتقوية مركزهم سياسياً بعد ان انتابهم الضعف عسكرياً . [1]

لم يكن العثمانيون أكثر رقياً وحضارة من سكان البلاد العربية ،وقد ظلوا طوال اربعة قرون يحكمون باسلوب عسكري اتوقراطي ، لا تشارك الشعوب فيه بأي قسط مهما كان ضئيلا ، فهي تؤمر وعليها الطاعة ويفرض السلطان او ممثل السلطان ارادته فيضطر الناس للرضوخ مكرهين . ومن هنا فقد المواطن القدرة على الابتكار ولم يكن للانسان الموهوب عبر تلك القرون مجال لتنمية مواهبه او التعبير عنها في اي ميدان من ميادين النشاط الانساني . وكان السلطان وحكام الولايات يتمتعون بسلطات مطلقة لا يحدها أي حد فيحكمون بالاعدام ويصادرون أموال الناس ويفرضون أية عقوبة يرونها ، حسب رغباتهم واهوائهم .

اما الوظائف فقد أخذت تعطى لذوي النفوذ لا لأصحاب الكفايات. بل أخذ الموظفون يشترون الوظائف ثم يستغلونها لكسب الاموال بجميع الاساليب المشروعة وغير المشروعة . ورافق ذلك كله ضعف الحكومة المركزية واختلال نظام الجيش . وأخذ بعض الولاة يتصرفون بولاياتهم كأنما هي ممالك خاصة بهم وليس بصفتهم موظفين يأتمرون بأمر السلطان ووزرائه . اما الضرائب فكانت تجبى عن طريق المزايدة . وزاد الطين بلّة كثرة تبديل الولاة حتى ان أكثر من ثمانين والياً عيّنوا في دمشق خلال القرن السابع عشر . وكثيراً ما امتنع الوالي عن تنفيذ تعليمات الحكومة ، فكانت تلجأ إلى وال آخر وتدفعه للزحف ضد الوالي المتمرد واخضاعه او قطع رأسه ،وعندما تعجز عن تأديبه كانت تعود لاسترضائه. وفي الوقت الذي كانت فيه اوروبا تخترع المطبعة وتخترع الآلة التي تسير بقوة البخار وتتقدم بخطوات ثابتة في مختلف ميادين الاختراعات

(١) « ... ولكن لا توجد أية بينة معاصرة تثبت الادعاء بنقل منصب الخلافة . » — السير توماس آرنولد : الخلافة (لندن ١٩٢٤) ص ١٤٣ . أنظر أيضا ساطع الحصري ،البلاد العربية والدولة العثمانية ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ٤٢ — ٤٦ .

الحديثة ، ظلّت الاقطار الخاضعة للعثمانيين تتراجع القهقرى وترزح تحت نير الظلم والجهل والفقر والفساد .

وفي القرن الثامن عشر كانت الدولة العثمانية هي الدولة الوحيدة بين دول اوروبا الكبرى التي لم يكن فيها جامعة او معاهد عليا لتدريس العلوم التطبيقية . ولم تنشأ فيها دار طباعة حكومية الا سنة ١٧٢٩ . وقد استمرت هذه الدار حتى عام ١٧٥٦ ثم اغلقت ٢٨ عاما عادت بعدها للعمل ، ولكنها لم تطبع حتى سنة ١٨٢٨ سوى ٩٨ كتاباً وهذا من اوضح الادلة على تخلّف الامبراطورية العثمانية وعدم مسايرتها للنهضة الاوروبية .

وحتى منتصف القرن التاسع عشر كانت الادارة تسير على نظام اقطاعي فيتحكم الامراء والزعماء وشيوخ القبائل بعامة أبناء الشعب ، حتى ساد الجمود والركود وانتفى التجدد ، خاصة بعد ان تحولت طرق التجارة بين الغرب والشرق عن حوض البحر الابيض المتوسط عقب اكتشاف رأس الرجاء الصالح . واتبع العثمانيون سياسة العزلة والانطواء خوفاً من اوروبا ، وكانت النتيجة ان سارت اوروبا إلى الامام ووقفوا حيث هم ووقفت معهم البلاد التي يحكمونها ولم تكن هناك خطط لافتتاح المدارس او انشاء المصانع او شق الطرق او تنظيم الاقتصاد .

السعوديون والمصريون : في حوالي ١٧٤٠ ظهر الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد يدعو للاصلاح الديني والعودة إلى تعاليم الاسلام الأساسية . فالدعوة الوهابية – كما اصطلح الناس على تسميتها باسم داعيتها الاول – تشبه إلى حد كبير دعوة لوثر والمذهب البروتستانتي في الدين المسيحي . وقد استجاب امير الدرعية السعودي لدعوة الاصلاح الجديدة وأخذ يؤازرها بسيفه ويقود جميع معتنقيها في ساحات القتال . وانتشرت هذه الدعوة بسرعة فشنّ السعوديون في ١٧٩٩ غزوتهم الاولى على العراق وبعد عامين استولوا على كربلاء ونهبوها . وفي عام

١٨٠٣ استولوا على مكة وبعد سنتين استولوا على المدينة وقاموا بغزوات اخرى على العراق و الشام . وامتد توسعهم حتى أصبحت الجزيرة العربية كلها بأيديهم ، باستثناء الجزء الجنوبي الغربي ، ووصلت غزواتهم إلى نواحي دمشق .(١)

شعر السلطان العثماني بالخطر بعد ان سقطت الاماكن المقدسة في الحجاز تحت حكم سلطة مستقلة لا تعترف بسيادته الزمنية او الدينية ، وبعد أن اصبح يخشى توغل السعوديين في العراق او سورية . وهكذا اضطر السلطان ان يستعين بمحمد علي باشا والي مصر ، لعجزه هو عن تجهيز جيش يقوم بمهمة صد السعوديين واخضاعهم . وكان محمد علي الالباني رجلاً طموحاً فقام باعداد حملة عسكرية عقد لواءها لابنه طوسون ، فنزلت في ينبع عام ١٨١٠ . وعندما لم تحرز الحملة نجاحاً يذكر ، جهز محمد علي حملة ثانية وعين ابنه الاكبر ابراهيم باشا قائداً لها . وفي عام ١٨١٢ تمكن ابراهيم من الاستيلاء على المدينة المنورة ثم على مدن الحجاز الاخرى . ومضى ابراهيم في حملته فتوغل في قلب الجزيرة العربية شرقاً حتى استولى على الدرعية عاصمة السعوديين في ١٨١٧ ، وارسل الامير السعودي إلى استانبول حيث أمر السلطان باعدامه .

استولى ابراهيم في هذه الحملة على الأحساء وجبل شمر . ولكنه لم يلبث ان انسحب من كل المناطق الواقعة شرقي الحجاز بسبب صعوبة المواصلات .

وفي ١٨١٣ استولى المصريون على سواحل اليمن ثم سلموهـــا لامام صنعاء ولكنهم عادوا في ١٨٣٢ لاحتلالها . وقد حاولوا الاستيلاء

---

(١) يروي بركهارت أنه أثناء وجوده في بلدة الكرك في تموز ١٨١٢ ، وصل اليها اثنان من محصلي الضرائب التابعين لابن سعود، وان أهل الكرك كانوا قد اعتنقوا الوهابية قبل ذلك بأربع سنوات : J. L. Burckhardt. *Travels in Syria and the Holy Land*, J. Murray, London. 1822, p. 383.

على منطقة عسير الجبلية ولكن مقاومة القبائل اضطرتهم للاكتفاء بالسواحل .

وقد قام محمد علي بنقل امارة مكة من فرع الاشراف ذوي زيد إلى محمد بن عون ، بعد أن برهن هذا على مقدرته في توطيد الامن بين قبائل عسير الشمالية . ولكن محمد بن عون لم يخضع للمصريين كما كانوا يريدون ، اذ اختلف مع نائب محمد علي وذهب كلاهما سنة ١٨٣٦ إلى القاهرة لعرض اسباب الخلاف عليه . وبقي الشريف هناك اربع سنوات ظلت مكة خلالها دون امير .

ان النجاح الذي احرزه محمد علي في جزيرة العرب بالاضافة إلى نجاحه في فتح السودان وفي حرب اليونان شجعه على ان يتمرد على سيده السلطان . وهكذا جهز في مصر جيشاً كبيراً زحف بقيادة ابنه ابراهيم سنة ١٨٣١ باتجاه مدينة عكا فاستولى عليها ثم واصل الزحف شمالاً فاستولى على دمشق وحلب . وفي العام التالي الحق الهزيمة بجيش عثماني في وسط الاناضول فاضطر السلطان سنة ١٨٣٣ ان يعقد مع محمد علي اتفاقاً عينه بموجبه والياً على سورية كلها وولاية اضنه .

وهكذا اصبح محمد علي سيداً على مملكة واسعة تشمل مصر والسودان وسورية الطبيعية والحجاز واليمن .

وقد ادخل المصريون مبادىء الحكم المركزي والادارة المنتظمة في الاقطار التي استولوا عليها وعملوا على تحطيم زعامات الامراء المحليين كي يتسنى لهم الحكم بصورة مباشرة . وفي سورية اعلن ابراهيم باشا، نائب والده ، المساواة بين جميع الطوائف [1] واصلح جهاز الحكم وفرض النظام والامن . ولكن لم يدم عمر هذه المملكة طويلاً ، اذ ان الدول الاوروبية وبريطانيا بينها على وجه الخصوص لم يكن يلائم مصالحها قيام دولة فتية في الشرق الادنى تحل محل الدولة العثمانية الهرمة

---

(١) قبل مجيء المصريين لم يكن يسمح لغير المسلم أن يلبس لباساً يحاكي لباس المسلمين أو يركب الخيل أو يحمل السلاح ، بل كان مرغماً أن يرتدي لباساً أزرق اللون وعمامة سوداء ونعلاً أسود .

الضعيفة. وقد اغتنمت الدول الاوروبية فرصة قيام الثورات في سورية ضد المصريين – بسبب زيادة الضرائب وفرض التجنيد الاجبـــاري – فأرغمته عن طريق الضغط العسكري والسياسي على الانسحاب من سوريا والحجاز في ١٨٤٠ مقابل اعتراف السلطان به حاكماً على مصر وأن يخلفه أولاده من بعده .

وهكذا فشلت محاولة السعوديين من جهة ومحاولة المصريين من جهة اخرى ، في انشاء دولة قوية في بلاد العرب مستقلة عن السلطان العثماني . فقد استطاع السلطان ان يضرب السعوديين اولاً على يد المصريين واستطاع بعد ذلك ان يضرب المصريين بالدول الكبرى .

من الصعب التنبؤ بما كان يمكن ان يتطور اليه الوضع في البلاد العربية لو قُدّر النجاح لاحدى المحاولتين ، فقد كانت نهضة السعوديين قائمة على أساس مذهب ديني سلفي يتعصب له اتباعه أشد التعصب . وكانت مطامح محمد علي ناشئة عن طمع شخصي محض في السلطان والحكم والسيادة وانشاء دولة كبرى يحكمها هو وأبناؤه من بعده . ولم يكن لمطامحه علاقة بالقومية او بالعرب والعروبة .

كان ذلك منطق العصر في هذا الجزء من العالم . لم يكن العرب قد عرفوا بعد الافكار القومية الوطنية الحديثة التي كانت تسود اوروبا ؛ لذلك كانت عواطف الدين والمطامع الشخصية اقوى من المبادىء القومية يومذاك . ولكن ليس من شك في انه لو قُدّر النجاح لمحاولة محمد علي ، لتقدم اتصال العرب الآسيويين بالحضارة الاوروبية ثمانين عاماً ، بدل ان يظل الاتصال محظوراً عليهم حتى انتهاء الحرب العالمية الاولى . ولو حدث ذلك لترتبت عليه نتائج ذات اهمية كبيرة بالنسبة للعالم العربي .

محـــاولات الاصلاح والدول الاوروبية : في اوائل القرن التاسع عشر بدأت حركة الاصلاح في البلاد العثمانية ، فقضى السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ – ١٨٣٩) على الانكشاريـــة . وفي ١٨٦٤

اصدر السلطان عبد العزيز قانون الولايات الذي قسم اقطار الدولة إلى ولايات فمتصرفيات فقائمقاميات فنواحي . وقد قسمت الاقطار العربية بموجب هذا القانون إلى ولايات : حلب ، بيروت ، سورية ، بغداد ، الموصل ، البصرة ، طرابلس الغرب ، الحجاز ، اليمن ، ومتصرفيات تتبع العاصمة مباشرة هي جبل لبنان ، القدس ، دير الزور ، بني غازي . ولم يطبق قانون الولايات في الحجاز واليمن تطبيقاً تاماً بالنظر للاستقلال النوعي الذي كان امراؤهما يتمتعون به . وفي عام ١٨٧٦ تولى السلطان عبد الحميد الثاني العرش وأعلن الدستور للحد من سلطات السلطان المطلقة [١] . ولكن عبد الحميد لم يلبث في ١٨٧٨ أن علّق الدستور وأوقف مجلس المبعوثان إلى أجل غير مسمى ، وعاد لممارسة الحكم المطلق [٢] .

وقد شهدت الاقطار العثمانية اصلاحات مهمة في عهد عبد الحميد في حقول متعددة . فقد أنشئت جامعة استانبول ، وافتتحت عدة مدارس وكليات عسكرية في العاصمة وعدد من المدن المهمة (بينها دمشق وبغداد) . وفي ميدان المواصلات جرى مد عدة خطوط سكك حديد ربطت اجزاء الدولة بعضها ببعض وباوربا ايضاً . وانشئت في البلاد شبكة من خطوط التلغراف . وكثر عدد المطابع ، وازداد عدد الكتب المطبوعة . واستعانت الدولة بالالمان لادخال النظم العصرية إلى الجيش ،

---

(١) يقول الملك عبد الله ان المطالبين بالدستور وعلى رأسهم الصدر الاعظم مدحت باشا ، كانوا يعتزمون الفتك بآل عثمان واعلان الجمهورية وتعيين الشريف عبد المطلب بن غالب أمير مكة الأسبق خليفة للمسلمين . ولكن السلطان عبد الحميد عرف بالمكيدة المدبرة ، فأحبطها (مذكراتي ، ص ٢١) .

(٢) أعلن الدستور يوم ٢٣ كانون الأول ١٨٧٦ ، واجتمع مجلس النواب لأول مرة في الدولة العثمانية يوم ١٩ آذار ١٨٧٧ وكان النواب العرب فيه ١٦ نائبا (٥ عن ولاية سورية ٢ عن الحجاز ٤ عن ولاية حلب ٣ عن ولاية بغداد ٢ عن ولاية طرابلس) من مجموع ١١٨ نائبا . وفي ١٤ شباط ١٨٧٨ أقدم عبد الحميد على ايقاف المجلس ولما تمر عليه سنة واحدة .

واستعانت بالانكليز لادخال النظم العصرية إلى الاسطول [1] .

ولكن محاولات الاصلاح لم تصطدم بالمعارضة من الداخل فحسب: بل اصطدمت بمعارضة الدول الاجنبية . فالدول الكبرى المتاخمة لاراضي الدولة العثمانية وهي روسيا وبريطانيا وفرنسا ، اخذت منذ القرن السابع عشر تغتنم الفرص لاقتطاع اجزاء من ممتلكات العثمانيين . ففي ١٧٩٨ غزا نابليون مصر واستولى عليها ، ولكن الانكليز دمروا الاسطول الفرنسي فاضطر الفرنسيون إلى الانسحاب . وفي ١٨٣٠ استولت فرنسا على الجزائر . وفي ١٨٣٩ استولت بريطانيا على عدن وجعلت منها قاعدة مهمة لتموين سفنها على طريق الهند . وكانت هناك منافسات بين الدول الكبرى لعبت دورها في حياة الدولة العثمانية . فقد خاضت بريطانيا وفرنسا حرب القرم (١٨٥٤ - ١٨٥٦) كي تحولا بين روسيا والاستيلاء على استانبول . ولكن عملية الاقتطاع ظلت مستمرة على الرغم من تنافس الدول الكبرى . فقد استولت بريطانيا على جزيرة قبرص وفرضت فرنسا حمايتها على تونس في ١٨٨١ ، وفي العام التالي استولت بريطانيا على مصر ، بينما استولت روسيا على مناطق مهمة في القفقاس والاناضول . وفي ١٨٧٦ وصلت الجيوش الروسية إلى ضواحي استانبول ، ولكن الدول الكبرى أرغمتها على الانسحاب .

وعانت الدولة العثمانية كثيراً من تداخل الدول الاوروبية الكبرى في شؤونها الداخلية بحجة الامتيازات . وهذه الامتيازات كانت تمنح الدول الكبرى الحق في ان تشمل بحمايتها من تريد من مواطني الدولة العثمانية . وبما ان الدولة لم تكن تساوي في الحقوق والواجبات بين

---

(١) Bernard Lewis, *The Emergence of Modern Turkey* (O.U.P., London), 1961, pp. 181-194. وقد منحت الدولة تسهيلات لمنتسبي المدارس العسكرية حتى يتموا تعليمهم في العاصمة، وفيما بعد تولى سبعة من خريجي المدارس العسكرية العثمانية منصب رئيس الوزراء في العراق وهم: عبد المحسن السعدون وجعفر العسكري وياسين الهاشمي ونوري السعيد وجميل المدفعي وعلي جودت وطه الهاشمي .

السكان المسلمين والمسيحيين من رعاياها ، فان الدول الاوروبية وجدت حجة في تلك المعاملة المتمايزة لبسط نفوذها . فادعت روسيا حماية الارثوذكس وادعت فرنسا حماية الكاثوليك وادعت بريطانيا حماية البروتستانت واليهود . وعن طريق الامتيازات مُنعت الدولة من ان تزيد الرسوم الجمركية فوق ٨٪ . وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر استغلت الدول الاوروبية الكبرى ؛ وخاصة فرنسا وبريطانيا وروسيا ، ضعف الدولة استغلالا شنيعاً للحصول على المنافع الاقتصادية ولتعزيز النفوذ السياسي ، حتى غدت الامتيازات قيداً ثقيلاً يكبّل الحكومة العثمانية ويمنعها من اتخاذ اجراءات عديدة كانت تراها ضرورية احياناً لتنفيذ الاصلاحات . وبلغ من قوة الامتيازات ان قناصل الدول الكبرى اخذوا يستعلون على الولاة ويعملون على عزلهم احياناً . حتى ان القنصل البريطاني في دمشق تمكن من عزل الوالي علّو باشا في ١٨٤٠ قبل ان يمضي شهراً واحداً في وظيفته . فقد كتب القنصل للصدر الاعظم « بان هذا الوزير ليس هو خرج حكم بل خرج دروشة . فأرسلوا عزلوه » . وشجر النزاع بين القنصل ذاته والوالي الذي جاء ليخلف علّو باشا، وانتهى النزاع الذي استمر عاماً كاملاً بعزل الوالي. وكانت الحكومة تغض النظر عن مداخلات القناصل الانكليز خاصة، لشعورها بانها مدينة لتدخل بريطانيا إلى جانبها في قضية اخراج محمد علي من سورية .[1]

وهكذا نرى أن وضع الدولة العثمانية طوال قرنين ونيف من الزمن، كان وضعاً غريباً قد لا يكون له مثيل آخر في تاريخ العلاقات الدولية . فالدولة محاطة باعداء اقوى منها ، ولكن شدة طمع اولئك الاعداء في امتلاك اراضيها زرعت الخلاف بينهم واعطت فرصة الحياة لتلك الدولة والاستمرار في الوجود . ولم يكن ذلك بفضل قوتها الذاتية بل بسبب عدم اتفاق اعدائها على كيفية ابتلاعها .

---

(١) عبد العزيز محمد عوض ، الادارة العثمانية في ولاية سورية ، ١٨٦٤ – ١٩١٤، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٣٢٧ – ٣٢٩ .

اما بالنسبة لجزيرة العرب فقد عملت بريطانيا على احتكار النفوذ فيها حرصاً منها على تأمين خطوط المواصلات مع الهند وجعلها بعيدة عن متناول ايدي الدول الكبرى الاخرى . وهكذا نراها تعقد اتفاقية في ١٧٩٨ مع حاكم مسقط ، واتفاقية اخرى في ١٨٢٠ مع شيخ البحرين (على يد شركة الهند الشرقية) . وقد اعترف شيخ البحرين في تلك الاتفاقية بحق بريطانيا في محاربة القرصنة . وقبل ممثلاً بريطانياً في بلاده ومنح الافضلية للتجار البريطانيين . وفي تلك الاثناء عقدت بريطانيا اتفاقيات مماثلة مع شيوخ آخرين على شواطىء جزيرة العرب الشرقية . وفي ١٨٨٠ عقــدت بريطانيا مع شيخ البحرين اتفاقية جديدة قضت بنودها ان يمتنع الشيخ عن قبول معونات من اية دولة اخرى غير بريطانيا . وعقدت في ١٨٩١ اتفاقية اخرى مع سلطان مسقط . وخلاصة القول ان بريطانيا فرضت حمايتها على شواطىء الجزيرة من عدن إلى حضرموت والشواطىء الجنوبية الشرقية وعمان والبحرين . وأخيراً عقدت في ١٨٩٩ اتفاقية مع شيخ الكويت . كان الهدف منها مقاومة النفوذ الالماني والحيلولة دون انشاء مراكز يستفيد منها الالمان على شواطىء الخليج العربي .

رياح القومية : ان استبداد السلطان عبد الحميد الذي ابطل العمل بالدستور ، دفع عدداً من رجال الاصلاح والاحرار العثمانيين إلى تأليف الجمعيات السرية الطامحة إلى انشاء حكم دستوري ديموقراطي . وقد تألفت تلك الجمعيات في بعض الاقطار الاوروبية وفتحت لها فروعاً في داخل الدولة العثمانية . وعقدت الجمعيات العثمانية مؤتمرين لها في باريس اولهما في ١٩٠٢ والثاني في ١٩٠٧ ؛ وكان من جملة قرارات المؤتمر الثاني وجوب العمل على ارغام السلطان عبد الحميد على النزول عن العرش .

ومع ان الجمعيات العربية المحضة تأخر تأليفها إلى ما بعد عودة الدستور في ١٩٠٨ . الا ان التفكير القومي عند العرب يعود إلى

النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ففي هذه الفترة أخذ المثقفون العرب في سورية يؤلفون الجمعيات الادبية وينظمون القصائد الثورية ويعلقون المناشير الداعية إلى الاصلاح ويكتبون الخطب الوطنية الداعية إلى اذكاء الروح القومي ؛ ويقارنون احوال بلادهم باحوال الامم المتمدينة في اوروبا واميركا . وفي هذه الفترة غادر سورية كثيرون من المثقفين ولجأوا إلى مصر حيث وجدوا هناك المجال في ظل الحكم البريطاني للتعبير عن آرائهم بحرية لم تكن متوافرة لهم في بلادهم . وقد انشأ اولئك السوريون عدداً من أهم الجرائد والمجلات التي صدرت في العالم العربي ؛ ومن جملتها جريدتا الأهرام والمقطم ومجلات الهلال والمقتطف والمنار .

وتعتبر كتابات عبد الرحمن الكواكبي ونجيب عازوري البداية الحقيقية لأفكار القومية العربية . وقد نشر الكواكبي (١٨٤٩ – ١٩٠٣) في منفاه الاختياري بمصر كتابين هما « طبائع الاستبداد » و « ام القرى » دعا فيهما إلى ان يتولى العرب ادارة بلادهم وإلى نزع الخلافة من الاتراك واعادتها إلى العرب ؛ مشترطاً ان يكون الخليفة قرشياً وان تشمل سلطته الروحية كافة المسلمين على ان يقتصر سلطانه الزمني على الحجاز . وهذه اول مرة يتقدم فيها مفكر عربي مسلم بمشروع انشاء دولة وطنية تفصل فيها السلطة التنفيذية عن الدين؛ بينما كان المفكرون المسلمون قبل ذلك يدعون إلى إبقاء السلطة التنفيذية والزعامة الدينية مترابطتين ملتصقتين في شخص الخليفة – السلطان : دون اعتبار للتباين بين الأجناس المختلفة .

اما نجيب عازوري الذي قضى سنواته الأخيرة (١٩٠٤ – ١٩٠٦) في فرنسا ، فقد انشأ في باريس « جامعة الوطن العربي » ، وأصدر في ١٩٠٥ كتاباً سياسياً « يقظة الامة العربية » ؛ نادى فيه بانفصال العرب عن الترك وانشاء دولة عربية تضم شبه الجزيرة العربية والهلال الخصيب ، وإلى قيام خليفة عربي في الحجاز يحكم الحجاز ويتولى الرئاسة الدينية لجميع المسلمين . وشدد عازوري على ضرورة منح

الحرية الدينية لجميع المواطنين والمساواة بينهم في الحقوق والواجبات ، حتى يستطيع المسيحيون العرب ان يعيشوا حياة لا يشعرون فيها بأي لون من ألوان التفرقة .

سار عبد الحميد على سياسة اسلامية فرفع من شأن الخلافة وأبرز فكرة الجامعة الاسلامية مستهدفاً من ذلك تقوية مركزه في الداخل والخارج كي يتطلع ملايين المسلمين الخاضعين لحكم دولة اجنبية اليه رئيساً روحياً ذا سلطة دينية عليا لهم . وازداد الشعور الديني بعد ان توالى اقتطاع دول اوروبا المسيحية من الولايات الاسلامية . وكان عبد الحميد يقدّر أهمية العرب وبلادهم التي تضم أهم الاماكن الاسلامية المقدسة : مكة والمدينة والقدس . لذلك قرّب اليه كثيرين من الاشراف واستمال الزعماء الدينيين وحاول الاستعانة برجال من العناصر الاخرى دون الاقتصار على الاتراك ، فكانت الوزارة والبلاط والمجالس المختلفة تضم افراداً من الترك والعرب والارمن والالبان واليونان. وقد أصبح عدد من العرب من أقرب المقربين اليه ، وفي طليعتهم مستشاره نقيب أشراف حلب الشيخ ابو الهدي الصيادي ، وسكرتيره الثاني عزت باشا العابد والأخوان نجيب وسليم ملحمه . وفي نطاق سياسة عبد الحميد الاسلامية عمل على انشاء خط سكة حديد من دمشق إلى الحجاز من أجل تسهيل وصول الحجاج إلى الاماكن المقدسة . وقد بدأ انشاء هذا الخط في ١٩٠١ وبلغ المدينة المنوره في ١٩٠٨ وجمعت نفقاته من تبرعات المسلمين في مختلف الاقطار . وفي عهد عبد الحميد بلغت الادارة المركزية أقصى حدودها، فكان هو ورجال دولته في العاصمة يتولون تصريف جميع شؤون الاقطار الاخرى حتى الصغير منها ، ولم تكن الولايات تتمتع الا بقسط قليل من الصلاحيات الادارية .

ولكن حكم عبد الحميد المطلق ونظامه البوليسي وخنقه للحريات تمخضت بعد ثلاثين عاماً عن انقلاب عسكري أطاح به . وكانت خمس دول هي بريطانيا وفرنسا وروسيا والنمسا وايطاليا قد فرضت على السلطان ان يمنح مقدونيا ادارة خاصة تحت رقابتها ، فوجد الضباط

المنتمون إلى جمعية الاتحاد والترقي ، فرصة سانحة لتنظيم حركتهم فيها . ولم يلبث زعماء اولئك الضباط ان اعتصبوا وأرسلوا برقيات إلى السلطان يطالبون باعادة الدستور والمجلس النيابي . وعندما تبيّن لعبد الحميد ان قطاعات الجيش الاخرى تؤيد هذه المطالب ، وافق يوم ٢٣ تموز ١٩٠٨ على اعلان الحياة النيابية والدستور .

الشبان الترك : كانت هذه الحركة انقلاباً عسكرياً . ولكنه انقلاب حظي بترحيب جميع الداعين إلى الاصلاح . وقد استبشر العرب باعلان الدستور ورحبوا مع غيرهم من ابناء العناصر الاخرى بشعارات الحرية والعدالة والمساواة التي رفعها الانقلابيون . ذلك لاعتقادهم ان جميع الشعوب العثمانية سوف تتمتع في العهد الجديد بما تطمح اليه من فرصة المساواة في الحقوق والواجبات . وبادر كثيرون من العرب المثقفين إلى الانتساب لفروع جمعية الاتحاد والترقي التي افتتحت في المدن العربية الكبرى .

ولكن لم يمض وقت طويل حتى ظهر للعيان ان أقطاب جمعية الاتحاد والترقي يسيرون على سياسة عنصرية محضة يتولى فيها العنصر التركي مهمة السيادة والحكم ولا يبقى للشعوب الاخرى الا ان تسمع وتطيع . وفي ١٩١٢ طلب الأعضاء السوريون في الجمعية ان يمثلهم عضو عربي في اللجنة المركزية ولكن الترك أصروا ان يكون ممثل السوريين تركياً .[1]

وقد رافق عزل عبدالحميد عزل جميع كبار الرجال الذين كان يعتمد عليهم ومنهم عدد من العرب : وأخذت التهم توجه إلى أولئك العرب بانهم كانوا وراء مظالم السلطان . ولم يحلّ أشخاص عرب في مراكز مهمة جديدة محل اولئك المعزولين . بل ان العهد الجديد بادر إلى عزل كثيرين من كبار موظفي العهد الحميدي فكانت نسبة المعزولين من

---

(١) توفيق برو ، العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٣٨٩.

العرب عالية حتى لم يبق في وزارة الخارجية من العرب سوى موظف واحد .

وبعد عودة الدستور أجريت انتخابات نيابية واجتمع مجلس النواب في ١٧ كانون الاول ١٩٠٨ ، وكانت نسبة عدد النواب إلى عدد سكان الدولة حسب عناصرهم تدل دلالة واضحة على عدم وجود المساواة المنشودة . فقد قُدر عدد سكان الدولة ذلك العام بـ ٢٢ مليوناً (١٠,٥ عرباً و ٧,٥ اتراكاً و ٤ ملايين من اليونان والالبان والارمن والأكراد وغيرهم) . وكان هذا المجلس يضم ١٥٠ نائباً عن الولايات التركية و ٦٠ نائباً عن الولايات العربية . اما مجلس الأعيان الذي كان يتألف من ٤٥ عضواً فلم يكن فيه من العرب سوى خمسة اعضاء .[١]

لم يتسلّم الانقلابيون زمام السلطة مباشرة ولم يستطيعوا املاء ارادتهم منذ البداية : اذ لم يكن بينهم ذوو خبرة كافية في الادارة . ولكنهم

---

(١) هذا على رأي جورج انطونيوس في كتابه يقظة العرب ، ترجمة ناصر الدين الاسد واحسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٦ ص ١٧٩ . ولكن مؤلفا آخر اعتمد على وثائق تركية يعطي الجدول التالي عن تمثيل القوميات في المجالس النيابية العثمانية الثلاثة التي تألفت خلال الاعوام ١٩٠٨ – ١٩١٤ :

السنة	عدد النواب	اتراك	عرب	البان	يونان	أرمن	يهود	سلاف
١٩٠٨	٢٨٨	١٤٧	٦٠	٢٧	٢٦	١٤	٤	١٠
١٩١٢	٢٨٤	١٥٧	٦٨	١٨	١٥	١٣	٤	٩
١٩١٤	٢٥٩	١٤٤	٨٤	–	١٣	١٤	٤	–

ويقول هذا المؤلف ان النواب العرب الـ ٨٤ في مجلس ١٩١٤ كانوا يمثلون ـــ ٥,٣٢٨,٠٠٠ نسمة بينما كان النواب الاتراك الـ ١٤٤ يمثلون ١٢,٥٠٠,٠٠٠ نسمة ، ولذلك كانت نسبة تمثيل العرب عالية ولم يكن لهم ما يشكون منه من هذه الناحية . – Feroz Ahmad, *The Young Turks,* (O.U.P., London), 1969, pp. 155-6.

بينما قالت جريدة الأهرام (٢٠ أيار ١٩١٤) ان مجلس النواب ضم ٢٤٥ نائباً ، منهم ١٤٢ للترك و ٦٩ عن الولايات العربية (بينهم ٨ أتراك) – نقلا عن توفيق برو ، ص ٦٠٠ . وأرقام جريدة الاهرام تكاد تتساوى مع الأرقام التي ذكرها انطونيوس .

أخذوا يمارسون الضغط في مجلس النواب الذي كان أكثر أعضائه منهم، وبواسطة فروع جمعيتهم وتأثيرها في الرأي العام ؛ كما كان لهم نفوذ في الجيش .

وفي ١٣ نيسان ١٩٠٩ قامت ثورة مضادة في العاصمة تطالب بالغاء الدستور واتباع الشريعة المحمدية ، ولكن الجيش المرابط في ولاية مقدونيا زحف بقيادة محمود شوكت باشا [١] على العاصمة واخمد الثورة المضادة . وعلى الاثر اجتمع مجلسا النواب والاعيان وقررا خلع عبد الحميد وتولية اخيه محمد رشاد العرش ؛ وقد تم ذلك يوم ٢٧ نيسان ١٩٠٩ « ونتج عن هذا ان الاتحاديين اصبحوا منذ ذلك الحين سادة تركيا الحقيقيين » . [٢]

ولكن المصاعب التي اخذت تواجه رجال العهد الجديد كانت من الضخامة بحيث اربكتهم وحالت بينهم وبين تنفيذ الكثير من الاصلاحات التي كانوا ينوون تنفيذها. فقد أعلنت بلغاريا استقلالها رسمياً، وبادرت النمسا إلى الحاق مقاطعتي البوسنة والهرسك بها ، وأعلنت جزيرة كريت التحاقها باليونان . ولم تستطع الحكومة ان تفعل شيئاً .

وأدت سياسة الاتحاديين العنصرية إلى قيام ثورات سنة ١٩١٠ في

---

(١) كان محمود شوكت من مواليد العراق ، فقد نقل أبوه سليمان فائق (وهو تركي من القوقاس) في نطاق الوظيفة الحكومية إلى بغداد وأقام فيها . وفي العراق ولد له عدد من الابناء كان أكبرهم محمود شوكت وأصغرهم حكمت سليمان (الذي صار رئيسا للوزراء في العراق سنة ١٩٣٦) . وقد عين محمود شوكت وزيراً للحربية عند خلع عبد الحميد ثم عين صدراً أعظم في ١٩١٣ . قال مؤرخ عربي (توفيق برو) انه كان تركياً شديد المغالاة في تركيته. ولا تدل سيرة حياته العامة انه كان يميل ميلا خاصا للعرب او انه كان يعتبر نفسه عربيا ، هذا على الرغم من قول السفير البريطاني في استانبول (في تقريره السنوي إلى وزارة الخارجية البريطانية بتاريخ ٣١ كانون الثاني ١٩١٠) ان محمود شوكت « أكثر من نصف عربي » . ولم يكن محمود شوكت عضواً في حزب الاتحاد والترقي. هذا بينما جاء على لسان الشيخ رشيد رضا ان محمود شوكت كان يعتبر نفسه عربياً (راجع : مجلة المنار ، الجزء السابع ، المجلد ١٦ ، ص ٥٥٨) .

(٢) B. Lewis, *The Emergence of Modern Turkey*, p. 217.

اربع نواح من بلاد العرب : في اليمن وعسير وجبل الدروز والكرك . ومع ان الحكومة استطاعت ان تسحق الثائرين في جبل الدروز والكرك ، الا انها فشلت في اليمن وعسير واضطرت للقبول بحـــل وسط [١] . وثار الالبان ايضاً في ١٩١٠ وفي ١٩١١ ، ونتيجة للحرب البلقانية استطاعوا الحصول على الاستقلال في ١٩١٢ .

وفي ايلول ١٩١١ واجهت الحكومة العثمانيـــة امتحاناً عسيراً عندما قامت ايطاليا بغزو طرابلس الغرب وبرقه . ولم تكن الدولة تملك قوات كبيرة في تلك البلاد وكان اسطولها ضعيفاً لا يستطيع الوصول إلى شواطىء طرابلس التي فرض الطليان عليها حصارهم . ولم تكن تستطيع ارسال اية قوات برية بسبب وجود الانكليز في مصر . لذلك عمدت إلى ارسال عدد من الضباط لتنظيم المقاومة بين اهل البلاد وقيادتهم [٢] . وكان من جملة اولئك الضباط انور بك ومصطفى كمال وعزيز علي المصري وجعفر العسكري . وعندما أخذت القوات الايطالية تصطدم بمقاومة الأهلين العنيفة اخذت ايطاليا توجه سفنها الحربية لضرب

---

(١) جاء في مذكرة من السفير البريطاني في استانبول إلى وزير الخارجية البريطانية بتاريخ ٢٨ حزيران ١٩١٠ ، ان العرب على العموم شعروا بخيبة أمل شديدة عندما اكتشفوا بعد عودة الدستور ان الاتحاديين استولوا على مقاليد الحكم ، وأنهم يسيرون على ميولهم التركية وليس على سياسة اللامركزية التي كان العرب يتوقعونها ، وان ما كان يتوقعه العرب هو تطوير الولايات العربية نحو المزيد من الحرية الذاتية تحت سيادة الدولة العثمانية . أما الان فقد أخذ كثيرون منهم يعلنون زوال رابطة الخلافة وان القضية أصبحت قضية اتراك وعرب لا غير : P.R.O., F.O. 371/1007

(٢) ومما يدل على تقدير الاتحاديين لقوة الشعور الديني عند المسلمين ، والاحترام البالغ الذي يكنه المسلمون لمقام الشرافة ، البرقية التالية التي أرسلها المركز العام لجمعية الاتحاد والترقي في سلانيك إلى الشريف في تشرين الثاني ١٩١١ : « نتيجة لأعمال الطليان البرابرة في طرابلس ، ومن أجل الحفاظ على عزة الأسلام ، فان اخواننا المجتمعين في سلانيك قرروا ان من واجب صاحب مقام الامارة الجليلة أن يتبنى هذه القضية ويعلن الجهاد . ولا شك ان خطوة كهذه سوف تساهم مساهمة كبيرة في إحراز النصر.» —

Sir Ronald Wingate : *Wingate of the Sudan*, John Murray, London, 1955, p. 176.

المـدن الساحلية العثمانية ومن جملتها بيروت ، ادركت الدولة عجزها، فحلت مجلس المبعوثان في ٢٥ كانون الثاني١٩١٢ تمهيداً لعقد الصلح . وفي ايار قامت ايطاليا باحتلال جزر ايجه كي ترغم العثمانيين على سحب قواتهم من طرابلس . وبالفعل قامت الدولة في ١٧ تشرين الاول ١٩١٢ بعقد الصلح مع ايطاليا ، الذي منحت بموجبه طرابلس الغرب وبرقة استقلالهما حتى لا تضطر إلى الاعتراف بالاستيلاء الايطالي عليهما ، ثم قامت بسحب ضباطها . وقد استاء العرب كثيراً من عجز الدولة واعتبروا اتفاقها مع ايطاليا خيانة لهم : خاصة وان الحكومة العثمانية كانت قد سحبت القسم الاكبر من قواتها في طرابلس لتحارب اهل اليمن قبل الغزو الايطالي ، رغم تحذيرات نواب طرابلس وبرقة من المطامع الايطالية .

وفي ربيع تلك السنة – ١٩١٢ – اجرى الاتحاديون انتخابات نيابية جديدة استعملوا فيها جميع انواع الضغط والتلاعب . وكانت النتيجة انهم احرزوا اغلبية ساحقة في مجلس المبعوثان ولم ينجح من خارج حزبهم وانصارهم سوى اربعة مبعوثين .

ان سيطرة الاتحاديين على الحكم وفشلهم في الحرب مع ايطاليا أدّى إلى نفور الرأي العام منهم وإلى قيام اعتصاب ضدهم في الجيش ، فاستقالت وزارتهم في تموز ١٩١٢ وتألفت وزارة من المعتدلين الائتلافيين وهذه الوزارة الجديدة عمدت إلى حل مجلس النواب في شهر آب ولما يمض عليه سوى اربعة اشهر ، وقررت تطبيق الاصلاح في الولايات على اساس اللامركزية كافضل وسيلة للوقوف في وجه اطماع الدول الأجنبية .

ولكن الدولة في هذه الاثناء واجهت المزيد من النكبات ،ففي ٨ تشرين الاول ١٩١٢ اعلنت دول البلقان الاربع (بلغاريا واليونان والصرب والجبل الاسود) الحرب على الدولة العثمانية . وأثار الاتحاديون – وهم خارج الحكم – الغوغاء وملأوا النفوس بالحماسة فاضطرت الحكومة ان تخوض الحرب وتتخلى عن فكرة التفاهم السلمي . وقد

احرز البلقانيون انتصاراً كاسحاً في فترة وجيزة وبلغت جيوشهم ضواحي استانبول واستولوا على سلانيك وحاصروا ادرنه ؛ فاضطرت حكومة كامل باشا إلى توقيع الهدنة في ٣ كانون الاول ١٩١٢ خوفاً من سقوط العاصمة ذاتها .

كان انور قد عاد من طرابلس بعد ان اكتسب دعاية شخصية واسعة لقيادته حركة المقاومة ضد الطليان . وكانت حكومة كامل باشا تميل إلى الصلح مع دول البلقان الا ان الاتحاديين قاموا بهجوم على رئاسة الوزراء يوم ٢٣ كانون الثاني ١٩١٣ وقتلوا وزير الحربية واضطروا كامل باشا إلى الاستقالة . وتألفت وزارة جديدة برئاسة محمود شوكت باشا .[1]

رفضت الحكومة العثمانية شروط الصلح التي عرضتها عليها دول البلقان المنتصرة فاستؤنفت الحرب وسرعان ما سقطت ادرنه وقلاع اخرى فاضطرت الحكومة إلى طلب الهدنة في آخر ايار . وكان من حسن الحظ ان دول البلقان اختلفت على اقتسام الولايات العثمانية التي استولت عليها . ونشبت الحرب بينها في حزيران ١٩١٣ فاغتنم الاتراك الفرصة واستعادوا ادرنه . وكانت النتيجة النهائية لحرب البلقان ضياع جميع اراضي الدولة في اوروبا تقريباً ومع ذلك أعتبر أنور باشا بطلاً قومياً وأخذ الاتحاديون يحكمون البلاد ويتصرفون بمقدراتها .[2]

القومية العربية : كان انقــلاب ١٩٠٨ نقطة تحوّل خطيرة بالنسبة

---

(١) تولى حزب الاتحاد والترقي تسيير دفة الحكم ابتداء من نيسان ١٩٠٩ وحتى تشرين الأول ١٩١٨ باستثناء فترة ستة أشهر (٢١ تموز ١٩١٢–٢٣ كانون الثاني ١٩١٣) التي تولى فيها الائتلافيون مسؤولية الحكم .

(٢) بعد اغتيال محمود شوكت باشا في ١١ حزيران ١٩١٣ الف الاتحاديون الوزارة فتولى سعيد حليم باشا منصب الصدر الأعظم وتولى طلعت وزارة الداخلية . أما أنور وجمال فقد رقيا إلى رتبة أمير لواء أثر دخولهما الوزارة في كانون الثاني ١٩١٤ .

إلى الدولة العثمانية وبالنسبة إلى الشعوب التي كانت تتألف منها تلك الدولة . فقد كانت تلك الشعوب تئن من مظالم العهد الحميدي وتتطلع إلى تبديل الاحوال بأحسن منها. وعلى وجه الخصوص كان العرب والاتراك يرون والألم يحز في نفوسهم اعتداءات الدول الاوروبية المسيحية على أقطار الدولة المسلمة واغتصابها بالقوة، دون ان تكون الدولة قادرة على الدفاع وصد المعتدين . ومع ان الانقلاب قام على ايدي الاتراك ، الا ان هؤلاء أعلنوا شعارات ضخمة : حرية ، عدالة ، مساواة ، لجميع سكان الدولة دون تفريق بين أبناء جنس وجنس اوأتباع دين ودين .

ولكن تطبيق تلك الشعارات في تلك الظروف العسيرة لم يكن أمراً هيناً . وسرعان ما توصل الترك الشبان إلى الاقتناع بالفكرة القائمة على ان اصلاح الاحوال لا يمكن ان يتم الا على يد مجموعة تربطها رابطة أقوى من رابطة الدين او رابطة المبدأ . فالدين يجمعهم بالعرب ولكن العرب يرغبون في الحصول على الادارة اللامركزية في ولاياتهم . وقد حاول الشبان الترك في بداية الامر ان يجعلوا من حزبهم « الاتحاد والترقي» رابطة عقائدية ، فأنشأوا الفروع له في كافة اقطار الدولة ، ولكن سرعان ما تبين لهم ان مبادىء الحزب لا تجمع حولها الا العدد القليل من الشبان ، وان الزعماء والامراء وكبار رجال الاقطاع لا يميلون اليهم بل يميلون أكثر فأكثر إلى حزب « الحرية والائتلاف » الداعي إلى اللامركزية في الحكم . ومن هنا اقتنع شبان الترك ان الرابطة المثلى للنهوض بالدولة هي رابطة العنصر : العنصر التركي .

وهكذا أخذت الفكرة القومية تسيطر على الشبان الترك ، فعادوا لا ينظرون إلى العرب كاخوان في الدين ، بل كمستعبدين مستعمرين . وقد تفجرت النعرة القومية بصورة واضحة بعد خلع السلطان عبد الحميد وهو رأس الرابطة الاسلامية والجامعة العثمانية، وكشف رجال حزب الاتحاد والترقي عن وجوههم بعد ذلك اكثر من قبل ولم يدعوا مجالا للشك في أنهم هم الحكام الفعليون في الدولة . ويروي الدكتور أحمد قدري كيف انه وزميل الدراسة عوني عبد الهادي سمعا في استانبول

بعد اعلان الدستور ضابطاً تركياً يتحول من التغني بالدستور وتعديد حسناته إلى التحامل على كبار الموظفين العرب السابقين فيقول « الخائن عرب عزة والخـائن عرب ابو الهدى » ، بينما لم يندد بواحد من الاتراك الكثيرين الذين كانوا يخدمون عبد الحميد ، وأكثر ما أحنقهما من ذلك الضابط اضافته قومية تينك الشخصيتين إلى اسميهما . وكان رد الفعل الطبيعي البدء بتشكيل جمعية «العربية الفتاة» السرية على نحو جمعية تركيا الفتاة لكي « تنهض بواجب الدفاع عن حقوق العرب ورفع مستواهم » . وكان ذلك بعد اعلان الدستور باربعة ايام [١] .

وهكذا اقتدى العرب بالترك فأخذوا يؤلفون الجمعيات العلنية والسرية . وفي ٢٣ آب ١٩٠٩ صدر قانون يحظر قيام الجمعيات والاحزاب ذات الاهداف القومية السياسية ، فأنشأ العرب في استانبول في ١٩١٠ «المنتدى الادبي» مكاناً يلتقي فيه ابناء البلاد العربية القادمون الى العاصمة. وكان هذا المنتدى « الجمعية التي أحيت الروح القومي وبثت المبادىء السامية بين طبقات الشبيبة العربية في الآستانة وخارجها ، وكانت خطته الوحيدة نشر الدعوة للقضية القومية الوطنية .»[٢] وقيل فيه ايضاً انه «كان مباءة العروبة في عاصمة الدولة ، ففيه كان الطلاب الجدد يتلقون ممن تقدموهم في الدراسة مبادىء القومية ومراميها ، وفيه كانت تدرس وتناقش خطط الاتراك الاتحاديين الرامية إلى تسييد القومية التركية والقضاء على القوميات السائرة في الدولة . »[٣] وكان كبار رجال العرب في العاصمة يعاضدون المنتدى ويلقون فيه الخطب، ثم فتحت له فروع في مدن عربية عديدة وانتمى إلى عضويته الاف من العرب: وقد حدد رئيسه عبد الكريم الخليل بأن أركان القومية « وحدة اللسان ووحدة

---

(١) الدكتور احمد قدري ، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ، دمشق ١٩٥٦ ، ص ٦ — ٧ .

(٢) أحمد عزت الاعظمي ، القضية العربية ، بغداد (١٩٣١ — ١٩٣٤) ، جزء ٣ ، ص ٣ .

(٣) الامير مصطفى الشهابي ، القومية العربية ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٧١ .

التاريخ ووحدة الوطن ووحدة المنفعة » تتوافر كلها للأمة العربية [1] .
وظل هذا المنتدى يواصل أعماله حتى ١٩١٥ عنـــدما بطش الاتحاديون برجال العرب وأرسل جمال باشا رئيسه إلى المشنقة .

امـــا اهم الجمعيات التي لعبت دوراً مهماً وفعليـــاً في النهضة القومية العربية فهي (١) جمعية العربية الفتاة و (٢) جمعية العهد ، وهما جمعيتان سريتان كانت الاولى مقتصرة على المدنيين والثانية على العسكريين . وقد أنشئت جمعية العربية الفتاة في باريس سنة ١٩١١ وكان مؤسسوها ثلاثة من الشبان العرب الذين أتموا دراستهم العالية في استانبول ثم انتقلوا إلى باريس لاتمام دراستهم الجامعية [2] ؛ وقد اشتركوا مع زملاء آخرين لهم في تأليف الجمعية . ولم يزد عدد الاعضاء حتى نهاية الحرب على ٦٠ عضوا كان أكثرهم من ابناء سوريا الطبيعية (سوريا والاردن ولبنان وفلسطين) . وكان مبدأ الجمعية « تحرير الامة العربية حسب الاحوال والظروف خطوة فخطوه بكل الوسائل الشرعية وغير الشرعية » [3] وقد قامت الجمعية على مبادىء قومية تقدمية ودخل مسيحيون في عضويتها . [4]

اما جمعية «العهد» فقد انشأها البكباشي عزيز علي المصري في استانبول سنة ١٩١٣ : بعد عودته من طرابلس الغرب من عدد من ضباط العرب الشبان في الجيش . اما اسم العهد فقد أطلق على الجمعية على اعتبار ان دخول اي عضو فيها يشكل « عهداً » بينه وبين الله على خدمة الوطن . وكان هدف الجمعية الحصول على الاستقلال الداخلي للاقطار العربية ضمن الامبراطورية العثمانية . وكان أكثر أعضاء

---

(١) أحمد عزت الاعظمي ، المرجع المذكور آنفاً ، جزء ٣ ، ص ٢٠ .
(٢) رستم حيدر وأحمد قدري وعوني عبد الهادي .
(٣) أوراق محب الدين الخطيب ، القاهرة – عن رسالة بتاريخ ٢ كانون الثاني ١٩١٣ أرسلها عبد الغني العريسي من باريس إلى محب الدين الخطيب .
(٤) ان الدكتور زين زين ليس محقاً في قوله ان عضوية « الفتاة » كانت مقتصرة على المسلمين ، فمن الثابت أن رفيق رزق سلوم كان من الاعضاء الأوائل فيها . (راجع احمد قدري ، ص ١٣) .

الجمعية من العراقيين والسوريين وقد أنشيء لها فرعان في بغداد والموصل وانضم إلى الجمعية ٣١٥ ضابطاً من جملة ٤٩٠ ضابطاً عربياً كانوا يخدمون في العاصمة [(١)] .

وكان مركز جمعية الفتاة قد انتقل في ١٩١٣ إلى بيروت بعد ان أتم مؤسسوها دراستهم وعادوا إلى بلادهم . ثم بعد اعلان الحرب انتقل المركز إلى دمشق حيث تم الاتصال بين أركانها وأركان جمعية العهد ، وتم الاتفاق بين الطرفين على العمل معاً وتنسيق خططهما . وفي دمشق اشترك أعضاء الجمعيتين في اطلاع فيصل النجل الثالث لشريف مكة على مرامي الحركة القومية العربية . وبعد اعلان الثورة العربية بادر كثيرون من اعضاء الجمعيتين إلى الالتحاق بها سواء منهم العسكريون والمدنيون .

كانت الجمعيتان تدققان أشد التدقيق في اختيار اعضائهما كي يظل سرهما مصوناً لا يبلغ مسامع الحكومة. ومن الدلائل على حسن تنظيمهما ان الاتراك لم يعلموا بأمرهما حتى نهاية الحرب . وقد حافظ اعضاؤهما على قدسية السرّ فلم يبوحوا به ولم يش أحدهم برفيق من رفاقه رغم المحاكمات العسكرية والارهاب والتعذيب والمشانق [(٢)] .

وهناك حزب عربي آخر لعب دوراً مهماً في الحركة القومية الا وهو « حزب اللامركزية الادارية العثماني » . وقد تأسس في القاهرة في ١٩١٢ من عدد من المثقفين السوريين ؛ وهدفه السعي لتطوير اسلوب الحكم في اقطار الدولة العثمانية على اساس اللامركزية ، اي منح كل ولاية قسطاً كبيراً من الاستقلال الاداري حتى تستطيع تنفيذ

---

(١) اتهم جمال باشا ضباط الفرقة العربية المرابطة في شبه جزيرة غاليبولي بأنهم صرفوا اهتمامهم عندما كانت الحكومة مشغولة بالحرب البلقانية « إلى تعضيد وسائل الابتزاز السياسي التي قام بها الوطنيون العرب في الآستانة بدلا من القيام بواجبهم ».(مذكرات جمال باشا ، ص ٩٠) .

(٢) شنق من أعضاء الفتاة : عبد الغني العريسي ومحمد المحمصاني ومحمود المحمصاني وسيف الدين الخطيب ورفيق رزق سلوم وتوفيق البساط وعارف الشهابي وعمر حمد . ومن أعضاء العهد : سليم الجزائري وعلي النشاشيبي وأمين لطفي الحافظ .

الاصلاحات الضرورية ومقاومة اي غزو اجنبي اذا تعذرت مساعدة الدولة المركزية لها خشية ان يتكرر ما حدث في طرابلس الغرب. وطالب هذا الحزب ان يتطور تنظيم الدولة على نمط يشبه تنظيم الولايات المتحدة الاميركية ، وان تكون في كل ولاية لغتان رسميتان : اللغة التركية واللغة المحلية وان يؤدي شبان كل ولاية الخدمة العسكرية داخل ولايتهم في زمن السلم . وقد انشئت للحزب فروع في بلاد العرب ولكن فيما بعد ادين اشخاص وحكم عليهم بالاعدام لانهم كانوا أعضاء فيه .

كانت سياسة وزارة كامل باشا تقوم على الانفتاح وعلى الرغبة في تطبيق الاصلاحات في سورية والعراق على مبادىء اللامركزية . لذلك سمحت للمجلس العمومي في ولاية بيروت بالاجتماع لبحث افضل الوسائل لتحقيق الاصلاح وارسلت بلاغات مماثلة إلى بقية الولايات . وعلى الاثر تألفت جمعيات اصلاحية في بيروت وحلب ودمشق والبصرة والقدس وأخذت تعقد الاجتماعات وتدرس اوضاع البلاد ضمن الخطوط العامة لمبادىء اللامركزية .

ولكن وزارة محمود شوكت باشا عمدت إلى خنق حركة اللامركزية . وكان من أول أعمالها انها أغلقت الجمعيات الاصلاحية ، فظهرت صحف بيروت يوم ٩ نيسان وهي لا تحمل الا قرار الالغاء على الصفحات الاولى محاطاً باطار اسود ، بينما تركت الصفحات الثلاث الاخرى بيضاء .[١]

وقد أثار هذا الاجراء الذي اتخذته الوزارة الاتحادية عند العرب موجة من السخط أكثر من أي واقعة اخرى حتى ذلك الحين . وقوي بين العرب الاعتقاد بان حكام العهد الجديد لا يضمرون خيراً لهم . وزاد من هذا السخط، ما ظهر من ضعف الدولة في مقاومة الغزو الايطالي . وبعد حرب البلقان التي كانت قد انتهت في ذلك الحين إلى ضياع ست ولايات اوروبية ، وانسحاب ال ٥٥ نائباً الذي كانوا

---

(١) نشوء القومية العربية، زين نور الدين زين، الترجمة العربية، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٦٩ .

يمثلون تلك الولايات في مجلس المبعوثان ، وجد العرب ان الدولة اصبحت مقتصرة على الولايات العربية والولايات التركية مع وجود اقليات من الكرد والارمن . وقد رأى العرب عند ذاك انهم يؤلفون اكثرية سكان الدولة وانهم جديرون ان يحصلوا على قسط اكبر من المشاركة في تسيير شؤون الدولة التي هي دولتهم وفي تصريف شؤون الولايات العربية بالذات . فلا عجب ان ازداد السخط وازداد التذمر بينهم وهم يرون المعتدلين وحزب الحرية والائتلاف وقد طاردهم الاتحاديون واخرجوا كثيرين منهم من البلاد ، وقد أخذ يتصرف بمقدرات البلاد شبان اغرار تملأ جوانحهم عواطف التعصب العنصري .

ومع ان الحكومة استطاعت ان تقمع الحركة الاصلاحية في بيروت ودمشق والمدن الاخرى بالقوة ، الا انها لم تستطع ان تفعل ذلك في البصرة التي كان يتزعمها يومذاك السيد طالب رجب النقيب أبرز شخصية عراقية في تلك الفترة . وكان طالب النقيب يؤيد الاتحاديين حيناً ويؤيد خصومهم حيناً آخر لفرض زعامته واظهار نفوذه . وحاول الاتحاديون ان يزعزعوا زعامته ولكنهم لم يستطيعوا . وقد عارض قانون الولايات الجديد الذي اصدره الاتحـــاديون لانه لم يكن يتضمن اصلاحات جوهرية. واشتدّ الخلاف بينه وبينهم فقرروا اغتياله وعهدوا بهذه المهمة إلى الاميرالاى فريد بك قائد حامية البصرة ، الا ان طالباً عرف بالمؤامرة فانتدب بعض رجاله فكمنوا للضابط التركي وصرعوه هو ومتصرف البصرة برصاص بنادقهم . وبعد ذلك لم يستطع الاتحاديون الانتقام منه وكانوا يخشون ان يلجأ إلى الانكليز القريبين في الكويت ، فآثروا مجاملته وغضّوا النظر عن تمرده وبقي الموقف مائعاً في البصرة حتى نشوب الحرب العالمية .

المؤتمر العربي الاول : كان عدد من الشبان العرب في باريس — ومن بينهم بعض أعضاء جمعية العربية الفتاة — يتتبعون سير الأحداث في بلادهم. وبعد ان تنكر الاتحاديون لفكرة الاصلاح التي أقرتها وزارة الائتلافيين

قرّروا الدعوة إلى عقد مؤتمر يعلنون فيه المطالب العربية » ويصارحون العالم كله بان اللامركزية هي قوام حياة العرب وأنهم شركاء في هذه المملكة بل هم الأكثرية المطلقة فيها. »[1]

وبعد مراسلات متعددة مع القاهرة وبيروت ورجال الاصلاح العرب فيهما تقرر عقد المؤتمر في باريس حتى يستطيع المؤتمرون ان يلفتوا نظر الرأي العام إلى مطالبهم . وكانت النية تتجه في البداية إلى ان يعالج المؤتمر القضايا المتعلقة بسوريا فقط ثم قرر ان يعالج القضايا العربية كلها[2] . وبعد اعداد الترتيبات وحضور الوفود من سوريا والقاهرة عقد المؤتمر جلساته الاربع في باريس خلال ايام ١٨ — ٢٣ حزيران ١٩١٣ وقد اشترك فيه ممثلون من حزب اللامركزية في مصر وعن جمعية بيروت الاصلاحية وعن المهاجرين السوريين في الولايات المتحدة والمكسيك وعن العرب المقيمين في. باريس وكان نصف اعضائه تقريباً من المسيحيين ، وأنتخب لرئاسته الشيخ عبد الحميد الزهراوي وانتخب المحامي اسكندر عمون،وهو من زعماء موارنة لبنان ، نائباً للرئيس . وكان جميع اعضاء المؤتمر من ابناء سوريا الطبيعية باستثناء عضوين عراقيين .

وقد اتخذ المؤتمر القرارات التالية التي تعبّر تعبيراً تاماً عن اتجاهات الطليعة العربية ذات التفكير القومي :

١ — ان الاصلاحات الحقيقية واجبة وضرورية للمملكة العثمانية فيجب ان تنفذ بوجه السرعة .

٢ — من المهم ان يكون مضموناً للعرب التمتع بحقوقهم السياسية وذلك بان يشتركوا في الادارة المركزية للمملكة اشتراكاً فعلياً .

---

(١) جريدة المؤيد ، القاهرة ، ٢٧ اذار ١٩١٣ .

(٢) هذا ما قاله المرحوم توفيق السويدي رئيس الوزراء العراقي الأسبق للمؤلف في مقابلة أجراها معه في بيروت بتاريخ ١٤ ايلول ١٩٦٦ ، وكان هو طالبا في باريس فأقنع زملاءه بأن يطلقوا على المؤتمر اسم « المؤتمر العربي » بدل « المؤتمر السوري » .

٣ – يجب ان تنشأ في كل ولاية عربية ادارة لا مركزية تنظر في حاجاتها وعاداتها .

٤ – يطلب المؤتمر تنفيذ وتطبيق مطالب ولاية بيروت التي صودق عليها في ٣١ كانون الثاني ١٩١٣ وهي المطالب القائمة على مبدأين أساسيين : توسيع سلطة المجالس العمومية وتعيين مستشارين اجانب .

٥ – اللغة العربية يجب ان تكون معتبرة في مجلس النواب العثماني ، ويجب أن يقرر هذا المجلس كون اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية .

٦ – تكون الخدمة العسكرية محلية في الولايات العربية الا في الظروف والاحيان التي تدعو للاستثناء الاقصى .

واتخذ المؤتمر قرارات اخرى بشأن تبليغ الحكومة العثمانية وحكومات الدول الصديقة للدولة العثمانية هذه القرارات ، واشترط على الاعضاء المنتمين إلى لجان الاصلاح ان يمتنعوا عن قبول اي منصب في الحكومة وان تكون القرارات المتخذة « برنامجاً سياسياً للعرب العثمانيين » .

وخلاصة القول ان المؤتمر طالب بالاصلاح واعادة تنظيم علاقة الحكومة المركزية بالولايات من اجل تقوية الدولة العثمانية لا من اجل الانفصال عن الاتراك [١] .

كان لهذا المؤتمر اهمية خاصة من حيث انه أخرج المسألة العربية من الصعيد المحلي ضمن اطار الشرق الادنى إلى الصعيد الدولي . وقد زار وفد من اعضاء المؤتمر السفير العثماني في باريس وقدموا له نسخة من قراراتهم كما زاروا وزير الخارجية الفرنسية وسفارات عدد من الدول الكبرى لهذه الغاية .

حاول الاتحاديون في بادىء الامر ان يهونوا من شأن المؤتمر والقائمين به ، وقد سافر من سورية إلى استانبول وفد من انصار الاتحاديين ضم محمد باشا العظم وعبد الرحمن باشا اليوسف والامير شكيب

---

(١) اللجنة العليا لحزب اللامركزية ، المؤتمر العربي الأول ، القاهرة ١٩١٣ ، ص ١١٣ – ١٢١ .

ارسلان والشيخ اسعد الشقيري [1] : وهناك انضم اليهم الشريف علي حيدر وزعماء آخرون وتقدموا جميعاً إلى الحكومة يعلنون ان اعضاء مؤتمر باريس لا يمثلون سوى انفسهم وانهم يعملون بوحي الدول الاجنبية. ولكن التأييد الشعبي الذي لقيه المؤتمر في سورية والعراق ومصر ، والدعاية التي رافقته في صحف اوروبا، أجبر الاتحاديين إلى التراجع عن خطة التجاهل واللامبالاة خشية أن تتسع شقة الخلاف وتتطور الامور تطوراً ليس في مصلحتهم . وحدث ان اغتيل محمود شوكت باشا قبل عقد المؤتمر باسبوع فازدادت مخاوف الاتحاديين وجنحوا إلى التفاهم مع العرب ريثما يتمكنون من الإجهاز على خصومهم الائتلافيين من الاتراك أنفسهم .

وهكذا أرسل الاتحاديون إلى باريس مدحت شكري بك سكرتير اللجنة المركزية لحزب الاتحاد والترقي ، من أجل التفاوض مع رجال المؤتمر . وفي باريس تمّ الاتفاق على الاصلاحات التي يقبل بها العرب ؛ ثم عاد مدحت شكري وعبد الكريم الخليل إلى استانبول حيث تمّ التوقيع على الشروط النهائية من قبل طلعت بك وزير الداخلية عن الحكومة وعبد الكريم الخليل عن الشبيبة العربية .

جاء الاتفاق في ١٣ مادة : وأهم ما فيه منح المجالس العمومية في الولايات صلاحيات تنفيذية وجعل التدريس باللغة العربية في كافة مراحل الدراسة مع تدريس اللغة التركية في الصفوف الثانوية . وأن تكون الخدمة العسكرية للجنود العرب داخل بلادهم في أوقات السلم ؛ وأن يدخل الوزارة ثلاثة من العرب على الاقل ؛ وأن يشترك العرب في المجالس والهيئات واللجان الرئيسية في الحكومة وفي الوظائف العالية ، وان يكون من العرب خمسة ولاة وعشرة متصرفين ؛ وأن يعيّن في مجلس الاعيان اثنان من العرب من كل ولاية . وان يعيّن مفتشون متخصصون من الاجانب في الدوائر والمصالح التي تحتاج إلى

---

(١) يقول الأمير شكيب ارسلان أن الوفد سافر بموجب أمر صدر من استانبول . أنظر مذكراته : سيرة ذاتية ؛ دار الطليعة ـ بيروت ١٩٦٩ ، ص ١١٠ .

خبرتهم ، وتكون المعاملات الرسمية في البلاد العربية باللغة العربية .[1]

اشترط الاتراك إبقاء هذه الشروط مكتومة حتى لا يطالب أبناء العناصر الاخرى بشروط مماثلة . ولكن رئيس حزب اللامركزية أرسل النص إلى جريدة المقطم في القاهرة فنشرته ، وعندئذ أعلنت جريدة « طنين » التركية تكذيباً لخبر الاتفاق وقالت ان الحكومة ترغب في اجراء «الاصلاح لا عملاً بالاتفاق المزعوم بل برغبة خالصة منها.»[2] وبتاريخ ٥ آب صدرت ارادة سلطانية بمواد الاصلاح التي قررتها الوزارة فكانت أقل مما تم الاتفاق عليه .

وعندما أعلنت الحكومة الارادة السلطانية قابلها بعض العرب بالابتهاج ، ولكن الاصلاحيين لم يغتبطوا بالتعديلات الكثيرة وبالتحفظات التي وضعتها الحكومة .

وهكذا تهيأ للاتحاديين بعض ما أرادوه فانقسم العرب إلى فئتين فئة تؤيد وفئة تعارض . ولكن يمكن القول ان جواً من التفاهم ساد العلاقات بين العرب والترك وأقيمت حفلات التكريم من الجانبين دليلاً على عودة المياه إلى مجاريها . على ان حزب اللامركزية أصدر بياناً اعلن فيه انه لا يرضى بأقل من الاصلاحات التي اتفق عليها الطرفان لانه « لا يوجد عربي يعقل معنى الحياة والوجود يرضى ان يكون مكانه من هذه الدولة مكان العبد المملوك من المالك ، والمسود من السيد . »[3]

واتخذت الحكومة بعض الاجراءات الرامية إلى تطبيق بعض الشروط الاصلاحية . ولكنها كانت أقل بكثير مما تم الاتفاق عليه . اما التعيينات من العرب فقد شملت في الغالب انصار الاتحاديين . ولكن من ناحية اخرى عمد الاتحاديون إلى إحالة كبار الضباط العرب في الجيش على التقاعد وأخذوا يبعدون الشبان من الضباط العرب من وحداتهم في سوريا والعراق واستانبول إلى المناطق البعيدة . وقام انور باشا بتنفيذ هذه

---

(١) جريدة المقطم ، القاهرة ، رقم ٧٣٨٨ ، ١٥ تموز ١٩١٣ .

(٢) جريدة الاهرام ، القاهرة ، رقم ١٠٧٨٠ ، ١٥ آب ١٩١٣ .

(٣) مجلة المنار : القاهرة ، المجلد ١٦ ، ج ١١ ، ص ٨٤٩ — ٨٧٩ (نص البيان) .

الاجراءات بعد ان تسلم منصب وزير الحربية .

وكان عزيزعلي المصري في تلك الاثناء يعقد الاجتماعات في منزله بالعاصمة ويكثر من الاتصال بالضباط العرب الشبان ، فاستراب الاتحاديون به وأرادوا ان ينقلوه إلى منطقة اخرى فرفض النقل وقدم استقالته من الجيش . وكانت بينه وبين انور باشا وزير الحربية خصومة منذ ان كانا يقاتلان الطليان في طرابلس الغرب . وبعد ايام من استقالة عزيز علي أصدر انور باشا أمراً باعتقاله في شباط ١٩١٤ بتهمة سوء التصرف بأموال كان أنور قد سلمها اليه . وأثار اعتقال عزيز علي واحالته للمحاكمة امام مجلس عسكري ضجة كبيرة بين العرب ، وتدخلت السفارة البريطانية في استانبول بشأنه بناء على توصية اللورد كتشنر ، فاستصدر أنور ارادة سلطانية بالعفو عن عزيز علي بعد ان كانت المحكمة العسكرية قد أصدرت بحقه حكم الاعدام . وطلب اليه ان يغادر استانبول فغادرها إلى مصر . ولكن الاتحاديين خلال ذلك لم يتوصلوا إلى معرفة سر جمعية « العهد » التي كان عزيز علي مؤسسها ورئيسها [١] .

وبقيت العلاقات بين العرب والترك على هذه الحال حتى اعلنت الحرب العالمية ودخلت الدولة العثمانية فيها . ومن دلائل حنق الاتحاديين على القائمين بالمؤتمر العربي وعلى حزب اللامركزية انهم اغتنموا فرصة الحرب فشنقوا اكثر الذين استطاعوا القبض عليهم من أعضائها ، وحكموا على الباقين غيابياً بالاعدام .

---

(١) تبعث سيرة عزيز علي على الحيرة. فعندما صدر الأمر اليه بالانسحاب من طرابلس الغرب نفذ الأمر بحذافيره ورفض أن يترك للمجاهدين العرب شيئاً من السلاح مما أثار حنقهم عليه وكادوا يبطشون به . وعلى أثر عودته إلى استانبول بعد ذلك أنشأ جمعية « العهد » الداعية للقومية العربية بين الضباط العرب في الجيش حتى أصبح « معبود الضباط العرب » كما قال لورنس رغم أنه كان في السابق عضواً في جمعية الاتحاد والترقي . وفي ١٩١٦ أنضم للثورة العربيـــة ولكنه ظل يحلم بانشاء دولة ثنائية من العرب والترك ، وأعلن فيما بعد انه – كمسلم – لم يكن مرتاحاً لمحاربة الاتراك .

مناطق نفوذ : على الرغم من أن الدول الاوروبية الكبرى كانت تتنافس على النفوذ والامتيازات في اقطار الدولة العثمانية ، فانها عمدت خلال ١٩١٣ و ١٩١٤ إلى تنسيق مصالحها في تلك الاقطار ، وذلك بعد انهزام الاتراك امام دول البلقان . وهكذا دخلت تلك الدول في مباحثات بعضها مع بعض لتنسيق تلك المصالح وتعيينها . وبالنتيجة تم الاتفاق على ان تحصل روسيا على منطقة نفوذ اقتصادية تشمل الولايات الشرقية ، وان تكون سورية منطقة نفوذ لفرنسا ، والعراق ومنطقة الخليج منطقة نفوذ لبريطانيا العظمى ، وآسيا الصغرى وولاية حلب منطقة نفوذ لالمانيا . وقد عقدت الحكومة العثمانية اتفاقيات مع الدول المذكورة كان آخرها بتاريخ ١٥ حزيران ١٩١٤ مع بريطانيا (اي قبل مقتل ولي عهد النمسا باسبوعين) ، وقد نزلت الحكومة العثمانية بموجب تلك الاتفاقية عن حقوقها في قطر والبحرين وحضرموت وعدن والمشيخات العربية الاخرى ، واعترفت باتفاقية بريطانيا مع شيخ الكويت .

ومن هذه الاتفاقيات يتبين ان الدول الكبرى اقتسمت مناطق النفوذ في اقطار الدولة العثمانية بالتراضي فيما بينها . وبعلم الحكومة العثمانية نفسها . حتى اذا انهارت الدولة العثمانية لسبب من الاسباب تقدمت تلك الدول لاحتلال المناطق المخصصة لها دون تنافس قد يؤدي إلى نشوب حروب بينها .

ومما يثير الدهشة ان حزب الاتحاد والترقي الذي عقد هذه الاتفاقيات مع دول اوروبا الكبرى ، لم يوافق على منح سكان الولايات العربية الاصلاحات التي كانوا يطالبون بها من أجل تقوية أنفسهم لمقاومة المطامع الاجنبية .[١]

---

(١) تفصيلات هذه الاتفاقيات في : ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، بيروت ، الطبعة الثالثة . ١٩٦٥ . ص ص ١٩٣ – ٢٢٧ . وقد اقتبس الحصري معلوماته عن كتاب تركي من تأليف يوسف حكمت بايور الذي استند في تأليفه على محفوظات وزارة الخارجية التركية .

الشريف حسين : يتمتع الأشراف بمنزلة سامية بين العرب والمسلمين فهم آل النبي محمد وأحفاده وهم من قبيلة قريش ذات المكانة الرفيعة في التاريخ العربي والاسلامي وهم يعرفون ايضاً بالهاشميين نسبة إلى هاشم الجد الاعلى للنبي محمد . وقد ظلت منزلتهم السامية موضع الاحترام والاعتبار طوال القرون منذ فجر الاسلام . وعندما استطاع القادة العسكريون غير العرب ان يتولوا مقاليد الامور من ايدي الخلفاء العباسيين في القرن التاسع الميلادي ، عادت السلطة في الحجاز وأقطار الجزيرة الاخرى إلى امرائها التقليديين ، وتولى الحكم في الحجاز واليمن امراء من الاسرة الهاشمية ، وظلت مقاليد الحكم في أيديهم منذ ذلك الحين طوال عدة قرون .

ولما كان الحجاز قطراً فقيراً بطبيعته وأكثر اراضيه صحارى لا ينبت فيها نبات ولا تنزل فيها الامطار الا نادراً ، فقد كانت الموارد الرئيسية لاهله تربية الجمال وتقديم الخدمات للحجاج المسلمين الذين يفدون بالالآف كل عام لزيارة الحرمين الشريفين في مكة والمدينة . ومن هنا كان امراء الحجاز يعترفون بالسيادة الاسمية للخلفاء العباسيين في بغداد ويذكرون اسماءهم أثناء أداء الصلاة ، لكي تصل إلى بلادهم عاماً بعد عام الهبات المختلفة وخاصة الحبوب . وكان الحجاز يعتمد كثيراً على ما يصل اليه من الاقطار العربية المجاورة وخاصة العراق وسوريا ومصر ، من صدقات وهبات . وبعد انهيار الخلافة العباسية في بغداد ، أخذ الحجاز يعتمد على سلاطين المماليك في مصر حتى أصبح لهؤلاء نفوذ قوي ابتداءً من اوائل القرن الخامس عشر .

وعندما افتتح السلطان سليم العثماني مصر أرسل رسولاً منه إلى شريف مكة بركات يبلغه ان السلطان يقره على امارته اذا هو وافق على الدعاء له في الكعبة.وكانت هذة الرسالة الودية المبطنة بالتهديد كافية لان يبعث بركات ابنه (ابو نمي) إلى مصر ليعلن للسلطان سليم ولاءه . وسرّ السلطان سليم بذلك وأقرّ بركات على الامارة ورتب ارسال الهدايا والصدقات والحبوب إلى مكة سنوياً بصورة منتظمة . وبركات هو الذي

أضاف في الدعاء للسلطان عبارة « خادم الحرمين الشريفين » .

كان الحجاز يتمتع بالاستقلال الداخلي التام في شؤونه وتكاد سيادة العثمانيين عليه تكون اسمية . وكان كبار الاشراف يختارون اميرهم فيصدر السلطان فرمانا بتعيينه بصورة شكلية . ولكن بعد مدة من الزمن حدثت خلافات بين الاشراف مما فتح الباب لتدخل الحكومة المركزية . ثم أخذ السلاطين ينتدبون موظفين اتراكاً يمثلونهم في المدن الرئيسية كما بدأت اقامة حامية عثمانية في جده أثناء مرور القوات في طريقها إلى اليمن . وكان امراء مكة على صلة وطيدة بأبناء عمومتهم امراء صنعاء الذين لم يعترفوا بسيادة السلطان وتمكنوا من صد حملات العثمانيين العسكرية .

وخلال القرن الثامن عشر ازداد نفوذ العثمانيين في الحجاز ، وصار أكثر موظفي الادارة منهم . ولكن مدى السلطة الفعلية كان يعتمد على قوة الشريف الشخصية او ضعفه .

على أن احتلال السعوديين للحجاز في اوائل القرن التاسع عشر وما تبع ذلك من نزول الحملة المصرية في الحجاز وانتصارها ، عمل على تغيير الوضع كلياً . فقد عمل محمد علي على توطيد حكمه بصورة مباشرة وأبقى حامية عسكرية كبيرة في الحجاز . وعندما اضطر محمد علي إلى الانسحاب من الحجاز بعث العثمانيون بقوات عسكرية حلّت محل القوات المصرية المنسحبة وارسلوا واليا من قبلهم إلى جده في ١٨٤٠ . ولكن الشريف محمد عون احتفظ بالسلطة الفعلية في يده وكرّس جهوده لاسترجاع المناطق التي كانت تخضع لنفوذ أسلافه في القرن الثامن عشر . وعندما عاد السعوديون إلى البروز زحف الشريف على نجد والقصيم واضطر الامير السعودي ان يعلن تبعيته للسلطان وأن يدفع خراجاً سنوياً لخزينة الدولة قدره عشرة الاف ريال وشجع محمد عون على قيام امارة آل الرشيد وقاد جيشاً عثمانياً إلى عسير واليمن واضطر الثائرين إلى اعلان الطاعة للدولة .

ولكن لم يلبث العثمانيون ان ألقوا القبض على هذا الشريف ونقلوه إلى استانبول (في ١٨٥١) خشية ان تحدثه نفسه بطردهم من البلاد . واثناء

اقامته في المنفى ولد لابنه علي في ١٨٥٣ ولداً أطلق عليه اسم حسين .

انتقل الوالي العثماني من جده إلى مكة وأصبح يمارس سلطات فعلية ، فانخفضت صلاحيات الأشراف في الثلث الاخير من القرن التاسع عشر إلى ادنى حد بلغته منذ تسعة قرون . وبعد فتح قناة السويس في ١٨٦٩ زادت قدرة العثمانيين على تعزيز قواتهم في جزيرة العرب عن طريق البحر فأخذوا يجلبون المزيد من الجنود ويوطدون سلطانهم ويشجعون الاشراف على التنافس فيما بينهم لكي تبقى لهم هم اليد العليا والنفوذ الاول .

في ١٨٨٢ عيّن الشريف عون الرفيق عم الحسين اميراً لمكة ، وكان رجلاً سيء الادارة ظالماً غريب الاطوار ، وسرعان ما اختلف مع الوالي واستصدر امراً من السلطان بعزله . ودفعت سوء ادارة عون الرفيق عدداً من كبار رجال الدين في الحجاز إلى ان يكتبوا شكاوى ضده للسلطان عبد الحميد ، فبادر الشريف إلى وضع بعضهم في السجن ونفى البعض الاخر . وارسلت الحكومة لجنة تحقيق برئاسة احمد راتب باشا ولكن الشريف رشا رئيس اللجنة بستة الاف جنيه ذهباً فكتب تقريراً يؤيد فيه وجهة نظره ويبرئه مما اتهم به . ولم يلبث ان عُين واليا مكان الوالي المعزول .(1)

كان الشريف حسين أول من صدر الامر بابعاده عن الحجاز ، فقد استنكر المظالم التي كانت تفدح عواتق الناس . وكان الموظفون الأتراك يشتركون مع رجال الشريف في ايقاع تلك المظالم . وفترت العلاقات بينه وبين عمه واختلفا . واتهم بالتحريض على ارسال الشكاوى إلى السلطان ، فتلقى ذات يوم مذكرة من الوالي يبلغه فيها ان السلطان

---

(1) في مقابلة لي مع الشيخ محمد ناصيف في مدينة جدة بتاريخ ٦ آذار ١٩٦٧ ، حدثني عن هذه الواقعة. وسألته: هل قبل الباشا صرة النقود الذهبية التي أرسلها اليه الشريف حالما نزل من الباخرة في جدة ؟ فأجاب ضاحكا : قبلها فقط ؟ لقد عد قطع النقود واحدة بعد اخرى لكي يتأكد من ان الرسول أوصل المبلغ المرسل كاملا اليه . والشيخ محمد ناصيف من علماء الحجاز الأعلام .

يطلب اليه الشخوص إلى العاصمة . ولم يكن هناك بدّ من تلبية الدعوة فغادر الحجاز في ١٨٩٣ ولم تلبث أوامر النفي حتى صدرت بحق الرجال الآخرين من كبار رجال الدين كما ذكر اعلاه .[١]

كان الشريف حسين عند نفيه إلى استانبول في الاربعين من عمره ، لم يطق السكوت على الظلم والابتزاز فاحتج على ذلك وعارضه رغم ان عمه كان يشارك في الظلم ويسكت عليه . وفي السنة التالية لحق به اولاده الثلاثة علي وعبد الله وفيصل .

أقام الحسين في العاصمة العثمانية مدة ستة عشر عاماً. وعلى الرغم من ان السلطان عبد الحميد قال له انه انما استدعاه لينشئه ويرجو منه ان يخدم الدولة ويخدمه : وعلى الرغم من انه عينه عضواً في شورى الدولة ، فان اقامته هناك كانت « اقامة جبر واكراه » . وكانت « نفياً وتغريباً بناء على معارضته سياسة الظلم والاعتساف بالحجاز . وأخذ الاموال الطائلة من الحجاج بشتى الاسباب : تلك السياسة التي اختطها ولاة الحجاز والامير عون الرفيق . »[٢]

انصرف الحسين إلى العناية بأولاده والاشراف على تعليمهم . وكانت زوجته قد توفيت قبل نفيه بأربع سنوات فاتخذ في العاصمة زوجة ثانية من عائلة تركية مرموقة فانجبت له ابنه الرابع زيد وثلاث بنات .

كان الحسين رجلاً عميق الغور شديد التكتّم والحذر قليل البوح بآرائه الشخصية . وكان واقفاً على الاساليب السائدة في عصر السلطان عبد الحميد . ومع ان منزله في استانبول كان « مأوى أحرار الناس من العثمانيين ومتظلمة العرب للمذاكرة فيما هم فيه »[٣] الا ان السلطان لم يجد عليه مأخذاً طوال السنوات التي قضاها هناك . ثم ان الحسين كان بطبعه ورعاً شديد التدين والتقوى حسن السيرة مستقيماً مترفعاً عن

---

(١) راجع ما كتبه الملك عبد الله عن استدعاء أبيه الحسين إلى استانبول في العدد الخاص من مجلة الهلال ، القاهرة ، نيسان ١٩٣٩ .

(٢) الملك عبد الله : مذكراتي (القدس ١٩٤٥) ص ١٧ الطبعة الأولى .

(٣) الملك عبد الله ، مجلة الهلال ، القاهرة ، نيسان ١٩٣٩ .

الدنايا ، ولهذا كان دائماً محاطاً بالاعتبار والاحترام من كبار رجال العاصمة سواء منهم العرب والاتراك . ولم يعرف عنه الا الرزانة وقوة الشخصية وشدة الغيرة على الدولة والاسلام . وكان الرأي السائد انه رجل متقدم في السن لا ينطوي صدره على مطامع شخصية .

وهكذا مضت الاعوام الستة عشرة وجاء الانقلاب وأعلن الدستور وبلغ رجال العهد الجديد ان شريف مكة علي (ابن عم الحسين) تباطأ في اعلان الدستور وتلكأ الوالي ايضاً في ذلك، فصدر الأمر بعزلهما وتعيين الشريف عبد الاله عم الشريف المعزول للمنصب الشاغر. وكان الشريف عبد الاله يقيم في استانبول وهو شيخ متقدم في العمر ضعيف البنية انهكت جسمه الامراض ، فلم يلبث ان توفي وهو يستعد للسفر إلى الحجاز .

عندئذ سعى حزب الاتحاد والترقي لتنصيب الشريف علي حيدر – من فرع الاشراف ذوي زيد وهو الفرع المنافس للاشراف من ذوي عون الذي ينتمي اليه الشريف حسين – بينما قدّم الحسين مذكرة إلى السلطان والصدر الاعظم كامل باشا يطالب بتعيينه في المنصب الذي شغر بوفاة عمه وعزل ابن عمه على أساس أنه أكبر افراد العائلة الهاشمية سناً وأحقهم بمقام آبائه . وفي اليوم الثاني (١ تشرين الثاني ١٩٠٨)استدعاه السلطان وعيّنه في منصب الامارة« وكان من شأن هذا التعيين أنه أغضب حزب الاتحاد والترقي عليه ، فكان مبدأ الخلاف بينه وبين كل حكومة اتحادية . »[1]

وقد صدر مع الفرمان السلطاني بتعيينه اميراً لمكة ، فرمان آخر باسناد رتبة الوزارة اليه .

ومن الجدير بالذكر ان الاتحاديين لم يقبضوا على زمام السلطة مباشرة بعد الانقلاب ، وقد ظل السلطان عبد الحميد والصدر الاعظم يتمتعان

---

(١) الملك عبد الله ، مذكراتي ، القدس ١٩٤٥ ، ص ص ١٨ – ٢٠ . وهذا يناقض ما ذكره بعض المؤرخين العرب ، ومن جملتهم جورج انطونيوس ، من ان الاتحاديين هم الذين عينوا الشريف حسين ضد رغبة السلطان عبد الحميد .

بالنفوذ الأقوى في شؤون الدولة الى ان خلع السلطان عبد الحميد[1]. وربما كان الاتحاديون يميلون إلى تعيين الشريف علي حيدر اعتقاداً منهم أنه أكثر ميلاً اليهم من الشريف حسين ، ولكن لم يكن للاتحاديين أية حجة في معارضة تعيين الشريف حسين هذا بالاضافة إلى ان منصب امارة مكة خاص بالاشراف وهو منصب تقليدي له صفة دينية خاصة .

وبعد ان استعد الشريف حسين للسفر ذهب لتوديع السلطان فاختلى به على انفراد وباح له بمخاوفه على الدولة والملك من الاتحاديين ، فأجابه الحسين بان الحجاز سيكون موالياً له ، وانه اذا شعر بما يبعث على القلق فما عليه الا ان يحضر إلى الحجاز فيقوم الشريف عندئذ باخضاع رقاب العصاة . وقد اغرورقت عينا السلطان بالدمع وأجاب بان الوقت لذلك لم يحن .

ثم جاء الصدر الاعظم لتوديعه في الميناء وقدّم اليه مذكرة يؤكد له فيها ان امارة الحجاز مرتبطة مباشرة بمقام الخلافة ، وان اعلان الدستور لا يؤثر في حقوق الامارة التقليدية ، وان العلاقة بين الامير والحكومة ستبقى على أساس التعامل القديم[2] . وهكذا غادر الحسين منفاه عائداً إلى بلاده ليقوم بمهام المنصب الخطير الذي أسند اليه ، وقد عقد العزم ان يحافظ على كل الصلاحيات المنوطة به ويقوم بواجب المحافظة على تقاليد منصبه الذي كان يوازي — بحسب ترتيب الأهمية في مناصب الدولة العالية — منصب الصدر الاعظم وخديوي مصر ، ولم يكن يتقدم على هؤلاء في نظام التشريفات سوى ولي العهد ذاته .

عندما وصل الحسين إلى الحجاز كان الوضع في الجزيرة العربية ، كما يلي :

١ — اليمن : وقد انهك الاتراك بالثورات التي كان الائمة الزيديون

---

(١) بعد اعلان الدستور تولى منصب الصدر الأعظم : سعيد باشا (٢٤ تموز — ٥ آب ١٩٠٨) وكامل باشا (٦ آب ١٩٠٨ — ١٣ شباط ١٩٠٩) وحسين حلمي باشا (١٣ شباط ١٩٠٩ — ١٣ نيسان ١٩٠٩) .

(٢) الملك عبد الله ، مذكراتي ، ص ص ٢٧ — ٢٨ .

يتولون قيادتها ضدهم . وكان الامام يحي يتولى الزعامة المحلية الوطنية في الجبال بينما كان الاتراك يسيطرون على السواحل .

٢ — عسير : وقد وطد الادريسي زعامته في جبالها بينما ظل الاتراك يسيطرون على السواحل .

٣ — امارة حايل في نجد الشمالية (جبل شمرّ) ويتولى حكمها آل الرشيد .

٤ — امارة السعوديين في نجد الجنوبية وعاصمتها الرياض .

٥ — بريطانيا العظمى في عدن . اما مدى علاقاتها التعاهدية مع شيوخ المناطق الساحلية من لحج إلى الكويت فلم تكن واضحة للرأي العام في الاقطار العثمانية .

بلغ الشريف حسين مدينة جدة في ٣ كانون الاول ١٩٠٨ فاستقبله فيها وفد من حزب الاتحاد والترقي . وخطب رئيس الوفد مرحباً « بالامير الدستوري » ومعرباً عن أمله بأن الامير سيضرب صفحاً عن الاصول الادارية القديمة ويعمل بروح العصر والتجدد . ولكن الحسين ردّ على الوفد رداً عنيفاً بقوله انه حظي بمقام أسلافه على الشريطة التي بايع بها الشريف ابو نميّ السلطان سليم الاول — اي الاستقلال الداخلي — وطلب اليهم ان ينصرفوا إلى اعمالهم : وأفهمهم انه ينوي ان يحكم البلاد بنفسه . وكانت فروع جمعية الاتحاديين « منبثّة في الحجاز ، وجلّ أعضائها من المجاورين الأتراك والتتار والافغان وخليط من امم اسلامية غير عربية ؛ يأمرون وينهون فيخضع لهم الولاة وغيرهم من رجال الدولة ... » [1] . لذلك لم يأبه لهم الشريف فضعفت مكانتهم بعد ذلك . وفي ١٩١١ ماتت أنديتهم في مكة وجـــدة « ميتة طبيعية » [2]

---

(١) الملك عبد الله ، مجلة الهلال ، القاهرة ، نيسان ١٩٣٩ . والمجاورون هم أولئك الذين يفدون من مختلف أرجاء العالم الاسلامي إلى مكة المكرمة بقصد الانقطاع إلى العبادة في جوار الحرمين الشريفين .

(٢) Gooch and Temperley, *British Documents on the Origins of the War, 1898-1914*, Vol. X, pt. II, 1938, p. 829.

بدأ الحسين العمل بهمة ونشاط منذ اليوم الاول لوصوله ؛ بل انه ارسل برقية يعين فيها نائبه في المدينة المنورة وهو ما يزال في عرض البحر . وقد عقد مجلساً عاماً في مكة المكرمة قبل ان يضع ملابس الاحرام . وسرعان ما قبض على زمام الامور في الحجاز بحزم وجرأة لم تتوافر في أسلافه ؛ وأخذ يتصل بجميع طبقات الشعب يستمع إلى ظلاماتهم ويحل منازعاتهم بنفسه . وكأن الطاقة الكامنة في نفسه والتي ظلت حبيسة طوال ستة عشر عاماً انطلقت من عقالها فلم يكن يمل او يكل من العمل ؛ رغم أنه عندما تولى الامارة كان في الخامسة والخمسين من العمر . وقد بذل جهوداً كبيرة لكي يسود الامن في البلاد ، وكان حريصاً على الفصل بنفسه في جميع القضايا مهما كانت صغيرة وخاصة بين البدو ؛ حتى أجمعت قلوب الناس على احترامه وسماع كلمته والامتثال لزعامته .[1]

كان التقليد المتبع في عهود الامراء الذين سبقوا الحسين ، ان يتولى الشريف شؤون البدو والقبائل وان يتولى الوالي والمحاكم شؤون الادارة في المدن . وأكثر ما كان يهم الحكومة العثمانية في الحجاز تأمين مواسم الحج وتوطيد الامن ومنع التعديات على الحجاج . وعلى الرغم من ان خط سكة الحديد وصل إلى المدينة المنورة قبيل تعيين الشريف حسين ، الا ان الحاجة ظلت ماسة لاستمرار ولاء القبائل . فالقسم الاعظم من سكان الحجاز هم من قبائل البدو التي تقطن الاراضي الوعرة ولا تخشى عقاب الحكومة اذا هي جنحت للعدوان في ذلك العهد الذي لم تكن السيارات او الطائرات معروفة فيه . لهذا كله كانت الحكومة تقدم العطايا المالية لشيوخ البدو وتعاملهم باللين والحسنى عن طريق الشريف

---

(١) قال الاستاذ هوجارث في مقالة نشرها عن الملك حسين بعيد زيارته له في جدة ، ان الملك يشتغل بشؤون الحكومة ما معدله ١٤ — ١٥ ساعة يوميا ، وأنه يميل إلى البساطة في كل شيء ، ويتجنب الفخفخة والترف ولا يهتم بالتملق ويهوى معالجة الأمور بنفسه ... ولا يسمح لأحد بتولي المسؤوليات مهما كانت صغيرة ، ووزراؤه ليسوا أكثر من كتبة سجلات . وهو يقابل بنفسه أصحاب القضايا ويفصل في كل الأمور (النشرة العربية ، ملحق خاص ، رقم ٢ ، ١ آذار ١٩١٨) الملف — F.O. 882/13

الذي كان يستعين بهيبته التقليدية لضمان ولأئهم ، فاذا فشل اللين والمال قام الشريف بحشد القبائل الموالية وزحف بها على القبيلة المتمردة لاخضاعها. كما ان البدو كانوا يستفيدون مادياً من مواسم الحج بنقل الحجاج وأمتعتهم بين مكة والمدينة على جمالهم.لذلك كانت الحكومة العثمانية بأشد الحاجة إلى حسن نية الامير وولائه كيلا تتمرد القبائل وتعتدي على الحجاج القادمين من مختلف بقاع العالم . وقد حدث في موسم الحج الاول الذي وقع بعد تولي الحسين منصب الامارة ، ان امير الحج الشامي عبد الرحمن باشا اليوسف اراد ان يبرهن عن ولائه لحزب الاتحاد والترقي فأبى الرجوع بالحجاج عن طريق البر بحجة اضطراب حبل الامن كي يثبت عجز الامير الجديد . ولكن الحسين تعهّد بتأمين الحجاج وترك الباشا المذكور يسافر بحراً من جده إلى سورية . وانتدب اخوه الشريف ناصر وابنه عبدالله لايصال موكب الحجيج من مكة إلى المدينة فدمشق . فأعطى الشريف برهاناً على كفايته وسيطرته على القبائل .

كانت الطريقة التي اتبعها الحسين لخضد شوكة الوالي وعدم تمكينه من توثيق علاقاته بالأهلين ، انه كان « لا يترك واحداً من الاهالي يتقاضى في قليل او كثير الا عنده سواء في ذلك الأحوال الشخصية والحقوق المدنية »[1] وساعده على ذلك خبرته الواسعة التي اكتسبها قبل نفيه إلى استانبول واهتمامه الحقيقي بحل القضايا بالاساليب التي تناسب عقلية اهل البلاد وترضيهم ، حتى كسب ثقتهم واستولى على قلوبهم بدهائه . وساعده على ذلك ضعف الولاة اذ كانت الحكومة تبعث منهم من يمثل ضعف العزيمة والخور والخرق ، فاذا حدثت أحدهم نفسه بمعاكسة الشريف أوعز إلى اعيان الحجاز ان يكتبوا للعاصمة بالشكايات ضده فلا يلبث ان ينقل او يعزل. وخلال فترة امارة الحسين التي سبقت اعلان الثورة (١٩٠٨ – ١٩١٦) تعاقب على منصب الولاية ستة اشخاص هم المشير كاظم باشا (وهو الذي أشرف على انشاء خط سكة

---

(١) حسين محمد ناصيف ، ماضي الحجاز وحاضره ، القاهرة ١٣٤٩ ﻫ (١٩٣٠ م) ص ١٦ .

الحديد وقد استقال) والفريق فؤاد باشا (وقد عزل بشكوى من الحسين) وحازم بك (نقل إلى ولاية بيروت) وأحمد نديم ومنير باشا ووهيب بك وغالب باشا .

وبعد ان وطد الحسين نفوذه في الحجاز وكسب ولاء الاهلين وثقتهم سواء منهم البدو والحضر، حوّل اهتمامه إلى بسط نفوذه على قبيلتي عتيبه وحرب أكبر قبائل الجزيرة العربية . وكانت مضارب هاتين القبيلتين تنتشر في وسط الجزيرة بين نجد والحجاز. وكان الحسين عند تولّيه الامارة قد كتب إلى اميري نجد ابن السعود وابن الرشيد يقول لهما ان له وكلاء في العاصمة وانه على استعداد لقضاء مصالحهما بواسطة اولئك الوكلاء فاجابه الاميران بالشكر وعبارات المجاملة من مثل : انت مثل والدنا ونحن مثل اولادك وتحت امرك وطاعتك. ومن المعلوم ان ذينك الاميرين كانا يتوليان الحكم في امارتيهما بقوة عصبيتهما القبلية ونفوذهما الشخصي ولم يكونا معينين من قبل السلطان. ثم كتب الشريف يطلب من ابن سعود ان يدفع لخزينة الدولة ضرائب متأخرة. وعندما لم يتلق جواباً مرضياً بادر فأعدّ حملة سنة ١٩١٠ وزحف شرقاً حتى بلغ القصيم في نجد وأسر سعد شقيق عبد العزيز آل سعود . وكانت النتيجة ان ابن سعود اعطى الشريف وثيقة خطية انه يعترف بسيادة الدولة العثمانية . وأطلق الشريف سراح الامير المأسور ، وعاد إلى الحجاز بعد ان حقّق هدفه وهو اعتراف ابن سعود بسيادة الدولة واعترافه بتبعية قبيلة عتيبة للشريف . اما ابن الرشيد فلم يعمد الشريف إلى مهاجمته بسبب ولائه للدولة منذ البداية .

وفي ١٩١٠ واجه العثمانيون ثورة كبيرة قام بها الامام يحي في اليمن ومحمد الادريسي في عسير . وقد تمكن الامام يحي من الاستيلاء على صنعاء فأرسل العثمانيون ضده حملة كبيرة بقيادة عزت باشا. واستطاعت الحملة ان تسترد صنعاء ولكن خسائرها في المعدات والرجال كانت فادحة بينما ظل الامام معتصماً في الجبال يهدد القوات التركية بجموعه . واستشار الاتراك الشريف حسين فنصحهم بان يتفقوا مع الامام على

اية شروط تكون مقبولة لديه كيلا يضطروا إلى مواجهة ثورة اخرى في المستقبل . وفي الوقت ذاته كتب الشريف إلى الامام يحثه باسم الرابطة الاسلامية على الاتفاق مع الدولة . وعمل الاتراك بنصيحة الشريف وعقدوا اتفاقية مع الامام في آب ١٩١١ اعترفوا فيها برئاسته في صنعاء والجبال . وظل الامام وفياً لهذه الاتفاقية حتى انتهاء الحرب العالمية الاولى .

اما في عسير فقد كان الموقف مختلفاً اذ ان الادريسي كان على صلة بالطليان في اريتريا . وقد ثارت ضده موجة من الأستياء عندما اتضحت تلك الصلة يوم ضربت السفن الحربية الايطالية الحاميات العثمانية في ساحل عسير اثناء الحرب في طرابلس . هذا بالاضافة إلى ان الاتراك سحبوا قسماً من قواتهم في طرابلس لمواجهة الثورة في اليمن وعسير رغم علمهم باستعدادات الطليان لغزو طرابلس . وقد أحرز الادريسي بعض النجاح في ثورته وضرب الحصار حول بلدة ابها، البلدة الرئيسية في عسير ،وذلك في اواخر ١٩١٠ بينما كانت ترابط فيها قوة تركية . وهكذا وجدت الحكومة نفسها مضطرة للاستعانة بالشريف حسين من أجل اخماد ثورة الادريسي .(١)

غادر الشريف مكة في نيسان ١٩١١ على رأس قوة من النظاميين الاتراك ومن قبائل البدو ومعه ابناه عبدالله وفيصل وعدد من زعماء الاشراف. وقبل سفره القى خطاباً في اعيان مكة وأشرافها قال فيه انه «يسافر مع اولاده وقبائله بأمر جلالة السلطان، لتضحية نفسه في سبيل

---

(١) في رسالة شخصية من الشريف حسين إلى أخيه ناصر عضو مجلس الأعيان في استانبول بتاريخ ٢٥ شباط ١٩١١ ان الحكومة وجهت « اصلاح سنجق عسير إلى عهدتنا بعد أخذ فكرنا في ذلك » وانه سيجتمع في جدة بعزت باشا القائد العام في اليمن وعسير وأنه أخذ يستعد للحملة بحشد رجال القبائل من حرب وعتيبة ومطير ، وطلب حضور نجله عبد الله (عضو مجلس المبعوثان) من العاصمة للاشتراك في الحملة وفهم الشريف من وزارة الحربية « بأن الصدر عرّف جميع المأمورين بامتثال أمرك » . (الرسالة من أوراق الشريف ناصر المحفوظة لدى حفيده الشريف.ناصر بن جميل في عمان .)

بلاده ووطنه وسلطانه ، الذين نذر نفسه لخدمتهم . » [١]

بذل الشريف محاولات لعقد التفاهم بين الادريسي والدولة، ولكن الادريسي رفض الشروط التي عرضت عليه ، فاشتبك معه الشريف في عدة معارك أصيب في احداها ابنه عبدالله بجراح . وبعد شهرين من القتال تمكن الشريف من إلحاق الهزيمة بقوات الادريسي وفك الحصار عن ابها في تموز ١٩١١ ، بعد ان عانى المحصورون فيها الويلات خلال عشرة اشهر ومات اكثر من خمسة الاف شخص جوعاً رغم ان الناس اكلوا القطط والكلاب . وبعد ذلك عاد الشريف إلى الحجاز بينما اعتصم الادريسي في الجبال . واثناء وجود الشريف حسين في ابها احتفل بذكرى اعلان الدستور فخطب الشريف خطاباً يدل على شدة اخلاصه للدولة العثمانية اذ قال يخاطب المحتفلين « اعلموا علم اليقين انه لولا وجود هذه الدولة العثمانية وشدة اعتناء خلفائها بالامة الاسلامية ... لاختطفتكم الدول الاجنبية اختطاف الذئاب للغنم المنفردة . » [٢]

وقد استاء الشريف من الفظائع التي كان الجنود الاتراك يرتكبونها في عسير من احراق القرى وتقتيل الابرياء والتمثيل بالموتى . وكان ذلك الاستياء بداية التفكير عند الشريف في الانتقاض على الترك . [٣]

---

(١) جريدة الأهرام ، ٨ أيار ١٩١١ .

(٢) تجد تفاصيل حملة عسير في كتاب : الرحلة اليمانية تأليف الشريف شرف بن عبد المحسن البركاتي (الطبعة الأولى : القاهرة ١٩١٢) .
ورغم تصريحات الشريف المتكررة باخلاصه للسلطان فان نشاطه وتفرده بالعمل فسرت بانها اتجاه نحو التمرد — هذا على الاقل بالنسبة للمراقبين الاجانب . لاحظ ما جاء في تقرير السفير البريطاني في باريس إلى وزير الخارجية البريطانية بتاريخ ١٤ ايار ١٩١١ . (أي بينما كان الشريف في طريقه لمقاتلة الأدريسي) : « الثورة في اليمن مستمرة والخسائر في الأرواح بين القوات التركية المرسلة لاخمادها عظيمة جدا ، وشريف مكة الاكبر يبدي اشارات على اتجاهه لنزع النير التركي . »
Gooch and Temperley, Edit., *British Documents on the Origins of the War, 1898-1914,* Vol., X, part II, London, 1938, p. 40.

(٣) الملك عبدالله: المرجع المذكور آنفاً، ص ص ٥٨—٦٦، وفيها تفاصيل عن حملة عسير .

ونشب خلاف في أبها بين الشريف ومتصرف عسير سليمان شفيق باشا بسبب رفض هذا الاخير الائتمار بما يشير به الشريف . وكان ذلك الخلاف والفظائع التي شاهد الجنود والضباط الاتراك يرتكبونها ، سبباً في عودة الشريف إلى الحجاز قبل تصفية ثورة الادريسي . وكان الشريف قد اتخذ في عسير ترتيبات ادارية وعيّن من قبله عدداً من المأمورين بحيث اعتقد المتصرف التركي ان الشريف يرمي إلى توطيد حكمه هو لا توطيد حكم الدولة . ويقول الجنرال علي فؤاد : [1]

« كان سليمان باشا يرى ان امير مكة لم يرم في تجريدته إلى اعلاء كلمة الدولة العثمانية ، بل رمى إلى اغتنام الفرصة السانحة من جراء عصيان الادريسي ،وبسط سلطانه في ارجاء عسير وتمكينه له باتخاذ القوى العثمانية ظهيرة لمقاومة الحكومة العثمانية نفسها . وقد رأى المتصرف انه لا مناص من سلوك الخطة السالفة بصفة كونه ممثل الحكومة هناك ، بعد ان شاهد من اعمال الامير ما كشف له عن نيته وكان فيه مقنع له ، فوصفه بانه ادريسي مجهز بالبنادق والمدافع . »

وعندما غزا الطليان طرابلس الغرب وبرقة في ايلول ١٩١١ تشجع الادريسي فعاد للهجوم وزوده الطليان بالأسلحة وقامت سفنهم الحربية بضرب المعاقل والحاميات التركية في شواطىء عسير واليمن . واستعانت الدولة بالشريف مرة اخرى فأرسل حملة جديدة بقيادة ابنه فيصل وذلك في ربيع ١٩١٢ وبقي فيصل في عسير أكثر من سنة وهو يضيّق على الادريسي في الشمال بينما تضيّق عليه القوات النظامية من الجنوب . وفي آذار ١٩١٣ أسرت قوات الشريف قائد الادريسي مصطفى العطار ولكن ظل الوضع مائعاً ولم يستطع احد الفريقين احراز نصر حاسم على الآخر .

---

(١) الجنرال علي فؤاد ، كيف غزونا مصر ، ترجمه من التركية إلى العربية الدكتور نجيب الأرمنازي ، بيروت ١٩٦٢ ، ص ٧٧ . وكان علي فؤاد قد اشترك في الحملة على اليمن وعسير وأثناء الحرب العظمى عين رئيسا لأركان حرب جمال باشا في سوريا.

وقد حاول الشريف مرة اخرى في ١٩١٣ ان يتوسط بين الادريسي والدولة ، ولكن بذور الارتياب في أهداف الشريف أخذت تنمو في نفوس الاتراك فرفضوا الوساطة ومنذ ذلك الحين أخذ موقفهم منه يتشدد ويغدو أكثر صلابة ، على الرغم من القول ان الإتحاديين وعدوا الشريف ان يجعلوا أحد ابنائه اميراً على عسير اذا تحقق له القضاء على الادريسي واخماد ثورته [١] .

كان الشريف حسين يعمل خلال ذلك كله بما يمليه عليه اعتقاده المخلص وهو ان مصلحة العرب والاتراك واحدة ضمن الرابطة العثمانية، وكان يرى انه يعرف المصلحة العليا للدولة العثمانية بمجموعها مثله مثل سواه من كبار المسؤولين في العاصمة . نستدل على ذلك من رسالة بعث بها الشريف حسين إلى اخيه ناصر (عضو الاعيان) في استانبول . وقد طلب منه أن يبلغ الصدر الأعظم :

يا سيدي ودهم يخسفوا بنا الأرض رغماً عنما نحن قائمين لهم من الخدمات المهمة . ما هو من جهة الامارة . لا ، لا يا سيدي ، بل لمقام الخلافة التي هي الان الوحدة الاسلامية.. لكن يا اخي كان يقتضي اذا سمعت مثل هذا تروح لحضرة الصدر أو مستشاره وتقول له بلغنا كذا وأنا متأسف بأنكم تسعون في خروج الحجاز من أيديكم. وهو الان أول ولاية في الخضوع والسكوت . ويلزم تعلمون ان الدولة ليست محصورة في الترك بل لنا النصيب الأعظم في الشور وحق الرأي فيما يتعلق بأساسها. فما نراه أصلح نعمل به وما نراه مضر ومخالف بمنافعها فنرده بالمراجعة لهم فيه . ما هو لكسب شهرة أو منفعة ذاتية بل لخدمة جماعة المسلمين ... خلاصة يا أخي انت ما أرسلناك تصير اعيان ، أنت من طرفي اذا سمعت مثل هذا تروح تستوضح الصدارة والسراية عن مثل هذه المواد وتعرضه عليها ... ايش يقدروا يسووا فيك . ولا خردله ، يكن معلوم . [٢]

وهذا الموقف الصلب كان متفقاً كل الاتفاق مع موقف زعماء العرب الاصلاحيين الذين كانوا ينادون باللامركزية وبأن تنال الولايات العربية قسطاً كبيراً من أسباب الحكم الذاتي . باعتبار ان العرب يغارون

---

(١) توفيق علي برو ، العرب والترك ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٢٤٧ .
(٢) أوراق الشريف ناصر : الرسالة غير مؤرخة ولكن ارجح انها تعود إلى ١٩١٣ .

على الدولة مثل غيرة الترك وأنهم شركاء في تحمل المسؤولية ضمن نطاق الجامعــة العثمانية — الاسلامية . وكان من الطبيعي ان يتطلــع الزعماء العرب إلى الشريف بعد ان أصبح الحاكم الفعلي للحجاز وظهر استقلاله في الرأي واضحاً للعيان وعدم انصياعه للاتحاديين . لذلك نرى خمسة وثلاثين نائباً من الأعضاء العرب في مجلس المبعوثان يوجهون للشريف المذكرة التالية :

إلى السند المعظم والشريف الأعظم حسين باشا أمير مكة ادامه الله .

نحن نواب العرب في مجلس المبعوثان ، نترك على امارة مكة ، ونعترف لك دون سواك بالرئاسة الدينية على جميع الاقطار العربية، لأنك الآن خلاصة بيت الرسول صلى الله عليه وسلم . واجماعنا هذا هو بالنيابة عن اهل بلادنا نجهر به عند الحاجة . والله يحفظك لامتك ويساعدك لدفع الشر عن دينك .(١)

وجاء في الرسالة التي بعث بها طالب النقيب زعيم ولاية البصرة مع هذه المذكرة ، قوله :

صارحني أعــداء لغتنا وامتنــا ولا سيما خليل بك [رئيس مجلس النواب] بما في نفوسهم ، وهو انهم سوف يقتادوننا إلى المشانق كما تساق الأغنام إلى المسالخ ، اذا كنا نحن العرب لا نوافقهم على آرائهم ونسير بأوامرهم . ولقد بلغ صدى هذا الوعيد مسامع النواب العرب ، فهاجت حفيظتهم واشتد أحتجاجهم حتى ان المجلس اضطر إلى توقيف جلسته هذا اليوم .... ان نواب العرب كافة يؤيدون مولاي بكل قواهم وألسنتهم وقلوبهم .. ونحن نعترف بغيرتكم على ديننا وامتنا ، وانا مستعدون للقيام إلى جانبكم اذا قمتم لخلع هذا النير الذي أثقل كاهل العرب وسعيتم لانتشالهم مما هم فيه من الظلم والعبودية واني مرسل اليكم وثيقة امضاها ذوو الشجاعة والاقدام من اخواننا العرب يعرضون أن تدافعوا عن حقوق أمتكم ، ويعترفون لكم بالخلافة التي عليها وحدها أن تسهر على مصالح بلاد العرب جمعاء .. (٢)

---

(١) ثورة العرب، تأليف أحد أعضاء الجمعيات العربية (أسعد داغر)، القاهرة ١٩١٦ ص ٧٨.
Khairallah, K.T., *Les Regions Arabes Liberees*, Paris, 1919, pp. 32-33.

(٢) أحمد عزت الاعظمي ، القضية العربية ، أسبابها ومقدماتها وتطوراتها ونتائجها ، بغداد ١٩٣٢ ، الجزء الرابع ، الطبعة الأولى ، ص ص ٩٣ — ٩٥. وسليمان فيضي، في غمرة النضال ، بغداد ١٩٥٢ ، ص ص ٨٧ — ٨٨ . وتقول هذه المصادر ان المذكرة ورسالة طــالب تعود إلى ١٩١١ ولكنني أرى ان القرائن ترجح ١٩١٣. واتجاه تفكير العرب نحو اشراف مكة قديم ، نجد مثالا على ذلك فيما كتبه مستر «سكين» القنصل البريطاني في حلب بتاريخ ٣١ تموز ١٨٥٨ في تقريره إلى السفارة =

حظ العرب مع الأتراك : يقال ان الاتراك العثمانيين كانوا يتصرفون كمسلمين أكثر مما كانوا يتصرفون كأتراك ، وان الصبغة الاسلامية كانت غالبة عليهم وعلى دولتهم أكثر من الصبغة التركية العنصرية . ويستدل على ذلك بأن جميع سلاطينهم من عثمان إلى وحيد الدين كانوا يحملون اسماء عربية باستثناء اثنين هما اورخان وبيازيد ، وان اللغة التركية كانت تكتب بحروف عربية وبقيت كذلك حتى استبدلها مصطفى كمال بحروف افرنجية ، وان أعلامهم وأختامهم كانت تحمل عبارات عربية من القرآن ، وان السفن العثمانية كانت تحمل اسماء عربية الخ [1] وهذا صحيح دون شك اذا أخذنا المظهر الخارجي للامور ، ولكن رغم هذا فانهم في الواقع كانوا يتصرفون كفاتحين وسادة ، وكانت المناصب العالية والسلطة الفعلية دائماً في أيديهم . ثم انهم كانوا المسؤولين كلياً عن الأقطار التي حكموها سواء منها التركية والعربية ، ومن هنا فهم يتحملون مسؤولية تخلف تلك الأقطار عن اللحاق بركب الحضارة الاوروبية .

كانت اللغة التركية — وكانت تكتب بحروف عربية — اللغة الرسمية للدولة ، لذلك كان يشترط في الموظفين حتى في الولايات العربية ان يعرفوا اللغة التركية، وكان يشترط في أعضاء مجلسي المبعوثان والاعيان ان يعرفوا اللغة التركية . وفي المدارس الرسمية كان التعليم بالتركية حتى ان المعلمين الأتراك كانوا يرسلون لتعليم اللغة العربية في الأقطار العربية،وأرسلت الحكومة ذات عام ٤٠٠ طالب إلى اوروبا لتحصيل العلوم العالية فلم يكن منهم سوى اثنين من العرب . وقد بدأ هذا كله في عهد

= البريطانية في استانبول » .. ويظهر كذلك ان السكان المسلمين في سوريا الشمالية يطوون جوانحهم على أمل الانفصال عن الامبراطورية العثمانية وتأليف دولة عربية جديدة تحت ملكية أشراف مكة . « — F.O. 78/1389, No. 20 of 31st July, 1858, enclosure in No. 33 of 7th Aug., 1858.

(١) زين زين ، نشوء القومية العربية ، ص ص ١ — ١٨.

عبد الحميد ثم تشدد الاتحاديون فيه ، بينما كانت اللغة العربية قبل ذلك تعتبر لغة رسمية في الأقطار العربية . وبلغ من ذلك التشدد ان المعلمين الأتراك كانوا يشرحون قواعد اللغة العربية باللغة التركية . حتى في مكة المكرمة كان قضاة الشرع من الاتراك . (١)

هذه السياسة ألحقت الضرر بالعرب أكثر من ابناء العناصر الاخرى في الدولة ، فالروم والأرمن والبلغار كانوا يتمتعون بامتيازات تسمح لهم بانشاء مدارس خاصة وبالتدريس فيها بلغاتهم القومية. ولما لم يكن للعرب أية امتيازات فقد كانوا مضطرين لتلقي العلم باللغة التركية في المدارس الرسمية . ومن المفارقات ان المدارس الاجنبية ومدارس الطوائف المسيحية في بلاد العرب كانت تعطي الدروس بالعربية دون التركية ، ومن هنا كانت أكثر اهتماماً باللغة العربية من مدارس الدولة .

لذلك كانت امتيازات الدول الاجنبية الباب الذي بدأ منه إنشاء مدارس الإرساليات وخاصة في سوريا . ومن أهم المعاهد التي أُنشئت ضمن هــذا النطاق الكلية السورية للبروتستانت في ١٨٦٦ وهي الكلية التي تطورت فيما بعد فصارت الجامعة الاميركية ، وكذلك جامعة القديس يوسف في ١٨٧٥ ؛ وكلتاهما في بيروت . وكان القرن الثامن عشر قد شهد انشاء ثلاث مطابع في سورية . حتى ان الملك عبدالله يعتقد ان التعليم في سوريا ولبنان ربما كان يفوق اي درجة في تركيا العثمانية نفسها بنسبة ١٠٪ . وكان من ابرز مظاهر النهضة التعليمية في بلاد العرب انه ظهر خلال فترة ١٩٠٨ – ١٩١٤ حوالي ستين صحيفة في بيروت وحوالي اربعين في بغداد . ومع ان أكثرها لم يستمر في

---

(١) يقول محب الدين الخطيب في نبذة كتبها عن سيرة حياته (٥٣ صفحة) إن اللغة العربية « كانت تعلم من كتاب باللغة التركية مؤلف للتلاميذ الترك بمدارس الاناضول والروم ايلي ومفروض تعليم العربية به في جميع المدارس الأميرية بالبلاد العربية العثمانية من أقصى اليمن فالحجاز إلى العراق والديار الشامية وطرابلس الغرب » . ويقول أيضا ان العرب كانوا يقارنون بين اصرار الدولة على التعليم واجراء المحاكات والمعاملات الرسمية باللغة التركية بينما كان التعليم في مصر والسودان بالعربية ، ويخرجون من المقارنة بشعور السخط والاستغراب (ص ٤ و ٣٢) .

الصدور طويلا الا ان هذه الارقام تدل على الوعي الناشيء عن التعليم .[1]

والواقع ان اتصال الأقطار العربية بالثقافة الاوروبية يبدأ منذ غزوة نابليون لمصر سنة ١٧٩٨ ، وما تبع ذلك من انشاء مدارس الارساليات في سوريا ، واحتلال الانكليز لمصر حيث وجد الأحرار والمثقفون السوريون ملجأ يعبّرون فيه عن أفكارهم.ومع ان السلطان عبد الحميد كان يحاول لم شعث جميع العناصر في دولته تحت لواء الجامعة العثمانية، ورغم محاولاته لجمع الترك والعرب والكرد والألبان تحت لواء الجامعة الاسلامية ، الا ان المثقفين في الدولة العثمانية المتشربين مباديء الثورة الفرنسية كانوا يرون أن أساليب عبد الحميد لا تقدم الحلول الناجعة لتخليص السفينة من الغرق : فلا بدّ من دستور ولا بدّ من مجلس نواب ، ولا بد من الاتصال بالحضارة الغربية اتصالاً وثيقاً ومباشراً حتى تنهض البلاد من كبوتها .

و جاء الدستور وتولى الاتحاديون زمام الامور . وقد حاولوا في البداية تقليد عبد الحميد ظاهراً في سياسة الجامعة العثمانية ولكن الشعور القومي الذي رفعوا شعاره انتقل بصورة طبيعية إلى أبناء العناصر الاخرى. لقد ذرّ قرن القومية ولم يكن بالمستطاع اعادة عقارب الساعة إلى الوراء .

أخذ الاتحاديون يسنّون القوانين الجديدة لمصلحة العنصر التركي « ليهيمن على سائر العناصر فيسلبها ما كان لها من امتيازات نالتها يوم ان كانت الدولة على شكلها القديم » حتى ان ٨٠٪ من الاموال العامة

---

(١) بشأن حالة اللغة العربية والتعليم والصحافة في بلاد العرب راجع (١) توفيق برو ، ص ص ١٣ — ٢٤ ، ٩٨ — ١٠٠ ، ١٦٦ و ٦٠٧ . (٢) ساطع الحصري ، ص ص ٨٣ — ٨٦ . ٩٥ — ٩٦ . (٣) الملك عبد الله ، ص ص ١٠٨ — ١٠٩ .
(٤) هولت ، ص ٢٤٤ . (٥) اندرسون ، المسألة الشرقية ، لندن ١٩٦٦ ، ص ٢٧٧ .
(٦) البرت حوراني ، الفكر العربي في عصر النهضة ، الترجمة العربية ، دار النهار للنشر ، بيروت ١٩٦٨ ، الفصل ١١ .

كان ينفق على البلاد التي هي تركية محض . ولم يكن للعرب من مقاعد الوزارة الا وزارة الاوقاف — وليس هذا دائماً . فاذا قال العرب « نحن وأنتم أهل الاسلام . قالوا : نعم ، ولكن نحن السادة وانتم التبع . » حتى ذهب كثيرون إلى القول ان ظلم عبد الحميد كان عدلاً محضاً اذا ما قيس بما ارتكبه الاتحاديون من صلب وتشريد وادارات عرفية وصولات في اليمن وبلاد الشام .(1)

وذات يوم وقف نائب دمشق شكري العسلي في مجلس المبعوثان يعدد المظالم اللاحقة بالعرب فقال فيما قال :

> هل من المعقول ان الامة العربية التي منها صاحب الاختراعات والاكتشافات في انجلترا وامريكا ، ومنها عضو في مجلس أعيان الولايات المتحدة الاميركية ، ووال على جزائر الفيليبين ، ونظار في الوزارة المصرية ، هل من المعقول ان امة كهذه ليس فيها شبان أكفاء لوظيفة مقيد في دائرة الصدارة أو مميز قلم الداخلية (عربدة وضجيج) . ان في نظارة المالية فقط ١١١ تركيا و ١٣ يهوديا ، و ١٠ من الارمن و ٤ من الروم وليس فيها عربي واحد .(2)

وقد زاد في تقليل ثقة العرب بالاتحاديين واخلاصهم ان قادتهم كانوا من الماسونيين ، وان نفوذ اليهود كان متغلغلاً في صفوفهم . بل ان اولئك القادة كانوا ينتمون إلى عناصر ليست تركية محضة : فانور ابن رجل بولندي ، وجاويد ينتمي إلى اليهود الدونمة (يهود سلانيك الذين اعتنقوا الاسلام حديثاً) وطلعت من نَوَر البلقان الذين اعتنقوا الاسلام ، واحمد رضا من اصل نصفه شركسي والنصف الآخر مجري .

ولا شك ان التمييز الذي اخذ يلمسه العرب في عهد الاتحاديين فعل فعله في اثارة نقمتهم . ففي العهود السابقة كان العربي — اذا ما

---

(1) الملك عبد الله ، مذكراتي ، ص ص ٢٣ — ٢٤ و ٥٥ . ويرى الملك عبد الله أن عبد الحميد لم يكن ظالما وانما كان حذراً متحوطاً .

(2) جريدة المؤيد ، ٦٣٣٤ ، ٨ نيسان ١٩١١ (نقلا عن توفيق برو ، ص ٢٨٥) . ولا عجب أن يكون شكري العسلي أحد الذي بعث بهم جمال باشا إلى المشنقة .

تثقف بثقافة الاتراك وجعل نفسه واحداً منهم – يجد سبيله احياناً إلى منصب عال في الجيش او الوظائف المدنية او بطانة السلطان [1] ، ولكن عندما جاء الاتحاديون عزلوا الكثرة الساحقة من كبار الضباط والموظفين العرب بسبب عنصرهم العربي وعينوا في المناصب الشاغرة اتراكاً ، حتى لم يبق في الجيش كله سوى ضابط عربي واحد برتبة لواء (زكي باشا الحلبي) . لقد ظهرت في عهد الاتحاديين سيادة العنصر التركي اكثر من ذي قبل ، فلم يعد حتى للعرب الذين يجيدون اللغة التركية مجال للمشاركة في وظائف الدولة القيادية . وتطلع العرب فوجدوا ان ليس لهم من الدولة الا التبعية . وعندئذ بدأ قادة الفكر فيهم يتطلعون إلى الانفصال عن الاتراك وإلى انشاء دولة عربية يستعيدون بها امجاد امتهم التالدة .

من هو العربي : كان عربياً . في مفهوم رجـال الحركة القومية العربية ، كل من آمن ببلاد العرب وطنا له وبالعرب اخوانـاً له دون اعتبار لدينه او مذهبه . وقد تجلت في هذا المفهوم فكرة التسامح التي عرف بها العرب منذ أقدم العصور . ولم تقم الحركة القومية العربيـة الحديثة على اي مبدأ عنصري أو تعصبي او ديني . ومنذ البداية قامت التشكيلات الحزبية على اشتراك العرب المسلمين والمسيحيين ، يستثنى من ذلك جمعية « العهد » لا لشيء الا لان المسيحيين كانوا معفيين من الخدمة العسكرية قبل اعلان الدستور في ١٩٠٨ .

وحدث في ١٩١٣ ان رئيس أحـد فروع حزب اللامركزية في سورية ، كتب إلى مركز الحزب في القاهرة يقول انه وزملاءه

---

(١) خذ مثلا على هذا ما قاله الملك عبد الله في مذكراته ، ص ٤٨ ، من ان رضـا الركابي أثناء توليه منصب محافظ المدينة المنورة كان « لا يتكلم الا باللغة التركية » . وبما قالته جرترود بل في هذا المجال « لقد كانت المناصب العليا ، قبل الدستور وبعده ، تكاد تكون جميعها بعيدة عن متناول أبناء العرب » . مذكرة حول اتفاقية سايكس – بيكو ، حزيران ١٩١٧ – (P.R.O., F.O. 882/3)

في الفرع قرروا ان لا يقبلوا انتساب اي شخص لا يدين بالاسلام . وبتاريخ ٢٥ آب ١٩١٣ بعث حقي العظم سكرتير حزب اللامركزية رسالة جوابية قال انه يعبر فيها عن رأيه وراي رئيس الحزب رفيق العظم . ومما جاء فيها قوله ان المسيحيين هم اخواننا في الجنسية واللغة والتابعية والمصالح :

لا عبرة بما يتشدق به البعض من الذين أعمى الله بصائرهم وقلوبهم من ان مد يد الاخاء إلى غير المسلمين كفر أو أنه يؤدي إلى تسليم البلاد إلى الاجانب ، فان هؤلاء اما منافقون أو جاهلون – ولا أقول خونة كما يقولون هم عنا نحن طلاب الاصلاح – لا يعرفون مصلحة بلادهم ولا يرون ابعد من انوفهم . فبجهلهم هذا وجمودهم سيكونون الايدي العاملة لضياع البلاد والعياذ بالله . زد على كل ذلك ان حزبنا مؤلف من المسلمين وغير المسلمين وعليه اعيد رجائي بموافقة الرئيس باسم الوطن والبلاد ان تسعوا أولا لادخال من تأمنون جانبه وتثقوا بصفاء ضميره من المسيحيين والدروز والاسرائيليين أعضاء بالحزب ، حتى يكون حزبنا في سورية مؤلفا من جميع العناصر . وقد سارت جميع فروع الحزب في بلادنا على نفس هذه الخطة . ثانيا ان تسعوا للتأليف بين قلوب المسيحيين والاسرائيليين والطوائف الاسلامية ... (١)

ان اشتراك المسيحيين في التشكيلات القومية العربية مسألة معروفة جيداً . ولكن اشتراك اليهود في تلك التشكيلات ونظرة القوميين العرب في ذلك الحين إلى وضع اليهود في بلاد العرب جديرة بالبحث والتأمل .

لقد كان القوميون العرب من مسلمين ومسيحيين يطمحون إلى انشاء دولة عربية مستقلة يتمتع فيها جميع سكان البلاد –بغض النظر عن دينهم وعقيدتهم – بالمساواة التامة في الحقوق والواجبات .ومن هذا المبدأ نرى الدكتور نسيم ملّول احد سكان يافا اليهود ينضم عضواً عاملاً إلى تشكيلات حزب اللامركزية منذ ١٩١٣ (٢) ونرى محمد الشنطي أحد معتمدي اللامركزية الناشطين يكتب من فلسطين إلى مركز الحزب في القاهرة بانه ادخل بعض اليهود في عضوية اللامركزية (٣) .

(١) أوراق محب الدين الخطيب ، القاهرة .
(٢) تضم أوراق محب الدين الخطيب عددا من رسائل الدكتور نسيم ملول .
(٣) أوراق محب الدين الخطيب ، القاهرة .

ونرى من رسالة بعث بها رفيق العظم رئيس اللامركزية إلى محمود المحمصاني في بيروت بتاريخ ٢٠ حزيران ١٩١٤ ما يلقي الضوء على موقف العرب يومذاك من اليهود الوطنيين واليهود الصهيونيين . وقد جاء في هذه الرسالة :

..... لما أسسنا حزب اللامركزية وقمنا بالحركة العربية ، بادر الصهيونيون فأرسلوا إلى مصر احد زعمائهم ليختبر حالتنا ، وهو الذي حضر مؤتمر باريس ، وقابلنا وتفاوض معنا في مركز اليهود بازاء الحركة العربية ، فأفهمناه اننا جماعة مبدأنا الديموقراطية وعندنا ان كل أبناء الوطن السوري سواء في الحقوق والواجبات ، وان اليهود اذا تجنسوا بالجنسية الوطنية كانوا كغيرهم من أبناء هذا الوطن ، على شرط أن تحدد هجرة الصهيونيين إلى البلاد ، وأن لا يبقى منهم شخص أجنبي لا يتجنس بالجنسية العثمانية ، وأن يعلموا في مدارسهم اللغة العربية ويعلموا أبناء البلاد في هذه المدارس إلى غير ذلك من الشروط . (١)

ونشرت « الجمعية الثورية العربية » بعيد بدء الحرب بياناً وجهته إلى « العرب من اولاد قحطان » ، اكدت فيـــه على ان المسلمين والمسيحيين واليهود سواء في العروبة والوطنية . ومما جاء في ذلك البيان :

أيها العرب ! حذروا اهل اليمن وعسير ونجد والعراق من كيد أعدائكم ، واتفقوا في الولايات السورية والعراقية مع أبناء جنسكم ووطنكم . ليكن المسلمون والنصارى واليهود منكم يدا واحدة في العمل لمصلحة الامة والبلاد ، انكم تقطنون أرضا واحدة وتستثمرون أرضا واحدة وتتكلمون بلغة واحدة ، فكونوا أيضا امة واحدة ويدا واحدة .... تساعدوا واتحدوا وتعاضدوا . ولا تقولوا : أيها المسلمون ، هذا نصراني وهذا موسوي ، فكلكم عيال الله . والدين لله وحده ... وأنتم أيها العرب من النصارى والموسويين ، ضعوا يدكم في يد اخوانكم المسلمين العرب .... (٢)

---

(١) المرجع ذاته .

(٢) ايضاحات ، ص ص ٢٥ – ٢٨. والجمعية الثورية العربية لم تكن واضحة الهوية، وقيل انها كانت تضم عزيز علي المصري وحقي العظم ، وقيل ان حقي العظم وحده كان مسؤولا عن ارسال هذا البيان وأمثاله من مصر إلى سورية .

ولم تكن فكرة اعتبار اليهود الوطنيين عرباً ، مقتصرة على اعضاء حزب اللامركزية بل كانت ايضاً الفكرة السائدة لدى اعضاء جمعية العربية الفتاة . ففي وصية عبد الغني العريسي التي كتبها بعد القبض عليه وهو في طريقه إلى الحجاز في اواخر شهر تموز ١٩١٥ ، عبارات تدل بوضوح على ان التعصب الديني والعنصري كان بعيداً كل البعد عن أذهان القوميين العرب .

قال العريسي يخاطب ابناء الامة العربية : « التمس منكم ان لا تفترقوا فرقاً وطوائف. فاليوم لا مسيحي ولا مسلم ولا يهودي ولا درزي ولا وثني ، بل الجميع عرب ومن العرب وللعرب ...»[1]

يتجلى من هذا كله بعد العرب المسلمين من رجال اليقظة الحديثة عن التعصب الديني والعنصري ، وايمانهم بمبدأ « الدين لله والوطن للجميع » . وقد كان اولئك الرجال على استعداد لقبول جميع اليهود المقيمين في بلاد العرب واعتبارهم مساوين لهم في الحقوق والواجبات غير مشترطين الا ان ينبذوا جنسيات الدول الاجنبية ويعتبروا انفسهم شركاء في الوطن مع ابنائه الآخرين . وسنرى فيما بعد ان الشريف حسين سار على هذا المفهوم عينه ، فدعا إلى اعتبار اليهود المقيمين في البلاد العربية وطنيين مثلهم مثل غيرهم من فئات السكان . ولكن هذا كله كان قبل ان تطل الصهيونية بمشاريعها القائمة على اقتلاع العرب من ديارهم .

---

(١) ثورة العرب ، ص ٢٤٤ .

الفصل الثاني

الحرب العالمية وتأثيراتها

محادثات عبدالله – كتشنر : كان الامير عبدالله ، ثاني أنجال الشريف حسين أمير مكة المكرمة ، عضواً في مجلس المبعوثان العثماني عن مكة ، وقد احتفظ بمقعده النيابي منذ انعقاد المجلس الاول في ١٩٠٩ حتى اعلان الثورة العربية في ١٩١٦ . ولما كان الامير قد عقد أواصر الصداقة مع الخديوي عباس حلمي الثاني في ١٩٠٩ – عندما قام الخديوي بأداء فريضة الحج ورافقه الامير أثناء اقامته في الحجاز – فقد اعتاد ان يمرّ بالقاهرة في غدوه إلى استانبول ورواحه منها فيقضي في ربوعها اياماً بانتظار سفر الباخرة وينزل اثناء ذلك ضيفاً على الخديوي . ومن المعلوم ان علاقات الاشراف ذوي عون باسرة محمد علي تعود إلى ايام غزو المصريين للحجاز ، عندما تعاون معهم الشريف محمد بن عون فأقطعه محمد علي ثلاثة آلاف فدان من أراضي مصر ظلّ أحفاده يتوارثونها ويستغلونها من بعده .

وحدث في ربيع ١٩١٢ ان الامير عبدالله زار القاهرة بينما كان في طريق عودته من استنبول إلى الحجاز ، وحلّ ضيفاً على الخديوي في قصر عابدين . وذات يوم جاء اللورد كتشنر يزور الخديوي في مكتبه بسراي القبّة ، وكان الامير عنده ، فتمّ التعارف بينه وبين كتشنر . وبعد عبارات المجاملة والتعارف استأذن الامير وخرج . ولكن لورد كتشنر لم يلبث ان لحق بالامير إلى قصر عابدين زائراً – يرافقه سكرتيره الشرقي المستر رونالد ستورس . فاستقبله الامير وهو يخشى ان تؤثر الزيارة في سياسة والده مع الاتراك . وبعد أن جلس اللورد قال مخاطباً الامير : انني أود ان أبلغك رضى الحكومة البريطانية عن استتباب الامن

في الحجاز والترتيبات المعمول بها لرفاهية الحجاج وتأمين راحتهم منذ ان تولى والدك الشريف حسين منصب امارة مكة . فشكره الامير وقال انه سيبلغ هذا لأبيه .

وبعد ان انصرف كتشنر ذهب الامير لزيارة المندوب السامي العثماني وأخبره بما حدث ، وطلب منه ان يبلغ الباب العالي في استانبول الخبر كيلا يكون هنالك مجال للتأويل، ثم استأذن منه برد الزيارة. وبعد يومين قام الامير بزيارة اللورد كتشنر في الوكالة البريطانية، فأبدى كتشنر اهتماماً ملحوظاً بشؤون الحجاز ، وسأل عن شكل ادارته وعن العلاقات بين الوالي والشريف ومدى محاولات الموظفين الأتراك التدخل في المسائل الدينية . ولم يشعر الامير انه يملك الحرية للاجابة بتوسع كاف على أسئلة اللورد النفاذة، الا انه حاول أن يعطيه فكرة عامة عن الوضع في الحجاز. وقد ترك كتشنر انطباعاً طيباً في نفس الامير الذي أعجب بشخصيته القوية، ولكن لم يكن للحديث الذي دار بينهما اي طابع سياسي خاص.[1]

مرت سنتان على هذه المقابلة ، ظل الامير عبدالله خلالهما يزور القاهرة في طريقه إلى استانبول وعودته منها ، وكان يجتمع اثناء زياراته

---

(١) نجد بعض الاختلاف بين ما رواه الملك عبد الله في مذكراته عن اجتماعاته باللورد كتشنر ، وبين ما كتبه جورج انطونيوس لمجموعة وثائق الخارجية البريطانية من معلومات استقاها من الملك عبد الله نفسه . ومن الواضح ان ما جاء في المذكرات لا يضع حدا فاصلا بين اجتماع الامير بكتشنر في ١٩١٢وبين اجتماعه به ثانية في١٩١٤. (راجع الملك عبد الله ، مذكراتي ، ص ص ٧١ — ٧٣ ، والمجلد العاشر ، القسم الثاني ، من الوثائق البريطانية عن أسباب الحرب ، ص ص ٨٣١ — ٨٣٢ ، لندن ١٩٣٨). ويقول الأمير شكيب ارسلان — أحد زعماء العرب البارزين الذين ظلوا على ولائهم للاتراك — ان مداخلات الشريف مع الانكليز في أمر الثورة تعود إلى سنة ١٩١٢ عندما توجه أحد الامراء المصريين إلى لندن مفوضاً اليه أن يسعى في اتفاق بين الانكليز والعرب ، على ان تقدم بريطانيا للعرب السلاح ويتقضوا هم على الدولة ، ويكونوا حلفاء لبريطانيا في المستقبل . وقد عرض ذلك الأمير المصري هذا الاقتراح على وزارة الخارجية البريطانية فتلكأت في قبوله . (راجع تعليقات الأمير شكيب على كتاب لوثروب ستودارد، حاضر العالم الاسلامي ، ترجمة عجاج نويهض ، القاهرة ١٩٣٣ ، المجلد ٤ ، ص ٣٩٧) .

بالمستر ستورس الذي كان يحسن اللغة العربية ويشترك مع الامير في الاعجاب بالادب العربي القديم . وأخيراً جاء يوم قام فيه الامير بزيارة اللورد كتشنر زيارة ذات هدف سياسي.

تمّت تلك الزيارة يوم ٥ شباط ١٩١٤ ، بعد ان ذرّ قرن الخلاف بين الشريف حسين والاتحاديين وجاء وهيب إلى الحجاز . والرسالة التالية التي بعث بها اللورد كتشنر إلى السير ادوار جراي وزير خارجية بريطانيا ، والتي كتبت في اليوم التالي للزيارة (٦ شباط) تعطينا فكرة واضحة عما دار في ذلك الاجتماع :

« يقيم الان في القاهرة ، في زيارة قصيرة ، الشريف عبدالله ابن شريف مكة ، وقد جاء لزيارتي يوم امس .

« لقد طلب مني ان أبعث اليكم بتحيات والده ، وقال ان الاحوال في الحجاز لا تسير كما يجب ان تسير بسبب ما حدث مؤخراً من تعيين وال تركي جديد يجمع في يده بين الصلاحيات المدنية والعسكرية ، بالاضافة إلى انه لا يتعاطف مع الشعب ولا يقوم بتصريف أعماله بالتعاون الوثيق مع ابيه ، سواء في تصريف الشؤون الداخلية للأراضي المقدسة او فيما يتعلق برفاهية وأمن الحجاج المسلمين القادمين من جميع أرجاء العالم ، وهو ما كان من صميم مسؤوليات ابيه أمير مكة منذ أمـــد طويل .

« وقد رغب اليّ ان اسألكم ، عما اذا كنتم — في حالة بلوغ هذا الخلاف مرحلة الحرج ، وفيما اذا حاولت الحكومة التركية أن تعزل أباه من منصب امارة الاماكن المقدسة الوراثي — سوف تستعملون مساعيكم الحميدة مع الباب العالي لمنع تنفيذ تلك المحاولة . وقد أوضح الشريف عبدالله ان اباه كان دائماً يفعل كل ما في وسعه لمساعدة الحجاج الهنود المسلمين الذين توثقت أواصر الصداقة بينه وبين كثيرين منهم . ثم صرّح بعزم ثابت انه في حالة اقدام الحكومة التركية بالفعل على عزل والده فان قبائل الحجاز سوف تقاتل دون الشريف وسوف يترتب على ذلك قيام حالة حرب ضد القوات العسكرية التركية . وقد عبرّ عن

أمله انه اذا ما نشأت ظروف كتلك الظروف ، فان الحكومة البريطانية لن تسمح للتعزيزات بالمرور بحراً بقصد منع العرب من ممارسة الحقوق التي تمتعوا بها منذ أقدم الأزمان في بلادهم وأراضيهم حول الأماكن المقدسة .

« وأبدى الامير رغبته ايضاً ان تبقى ملاحظاته هذه سراً مصوناً وان لا يُعرف عنها أي شيء بحال من الاحوال في استانبول ، وسألني كذلك عما اذا كنتم ستبعثون إلى ابيه برسالة ما . وكان جوابي انني اعتقد أن من غير المحتمل ان تبعثوا برسالة ما . » [1]

ونحن نملك الان نص التقرير الذي بعث به الامير عبدالله لابيه في ٧ شباط ١٩١٤ بعد يومين من اجتماعه بكتشنر ، وهو يؤيد في مجمله تقرير كتشنر . ومن هذا التقرير نرى ان الامير كان في طريقه إلى استانبول لكي يبلغ المسؤولين فيها شكوى ابيه من تصرفات الوالي الجديد وهيب بك ، وأنه كان مفوضاً من قبل ابيه ببحث الموقف مع الخديوي عباس ومع اللورد كتشنر ايضاً . وقد شجع الخديوي الامير بان يزور اللورد كتشنر وقام ياور الخديوي بترتيب الاجتماع . وجاء في تقرير الامير :

« ... ذهبت اليه [كتشنر] فقابلني بأحسن قبول وسألني عن الحالة بالحجاز فأجبته بأنكم أعلم بها من كل احد .... وباحثته في الموضوع على حسب التعليمات التي تلقيتها من ولي النعم بمكة حرفياً ، وزدت عليها ما استنتجته من الأمر الكريم الذي تلقيته اخيراً عما فعله الوالي الجديد . فأجابني في الحال انه سيكتب تلغرافياً وبدون تأخير بأن يجب على انجلترا عدم المساعدة على تغيير حالة الحجاز وأميرها . وأضاف عليها باننا لا نريد المداخلة في حقوق أحد ، ولكن حيث ان الحجاز محل حج رعايانا فينبغي ان نلاحظه . »

ويمضي الامير في تقريره فيقول ان اللورد كتشنر رد له الزيارة

---

(١) الوثائق البريطانية عن أسباب الحرب (١٨٩٨ – ١٩١٤) ، المجلد العاشر ، القسم الثاني ، لندن ١٩٣٨ ، ص ٨٢٧ .

يوم ٧ شباط ومعه سكرتيره رونالد ستورس ، وقال له انه كتب لمرجعه بما ذكره له الامير ، فأوضح له الامير ان الشريف ما يزال على ولائه للسلطان ولكن السلطان أصبح دون سلطة فعلية . فاذا حاول الاتحاديون الذين اغتصبوا سلطة السلطان ان يعتدوا على حقوق الشريف ، « فلا سبيل عن الدفاع » . وأجاب كتشنر بانه لا يعتقد ان الاتحاديين يجرؤون على الاعتداء على الشريف . وخرج كتشنر ، ولكن لم يلبث ستورس ان عاد يقول للامير « أيّاً ما اردتم من الخدمات سنقوم بها حسب رغبتكم وشرّفونا للوكالة حتى نتحادث في الموضوع . »

وكان الخديوي عباس يعاضد الشريف في مساعيه ، على أمل ان يقوّي نفوذه الشخصي في بلاد العرب ويتزعم اتحاداً عربياً ضد الاتراك . فقد جاء في تقرير الامير عبدالله ذاته ان الخديوي استدعى يوم ٦ شباط اسماعيل حقي بك السكرتير الاول للمندوب السامي العثماني وطلب منه ان يحذّر حكومته من مغبة اتخاذ أي اجراء مخالف لرغبات الشريف في الحجاز . وانه لا يسعه السكوت على ذلك . وقال انه لن يسمح لعبدالله بالسفر الا اذا قدمت الحكومة تأكيدات مقنعة بحسن نيتها . وكان اسماعيل حقي قد زار الامير مرتين إثر زيارة الامير لكتشنر كي يؤكد حسن نية الاتحاديين تجاه الشريف ، ثم أبرق لحكومته بما أنبأه به الخديوي .

وفي تقرير ثان بتاريخ ١٥ شباط من الامير عبدالله لوالده ، نراه يقول ان اسماعيل حقي تلقى من الصدارة في استانبول برقية جوابية أبلغ للخديوي نصّها التالي ، بحضوره هو :

« منير باشا أجري تقاعده حسب المقررات العسكرية الأخيرة ، والوالي تبدل لتوحيد الوظيفة حتى تسهل الأمور الادارية كما تكرر الطلب بذلك من الامارة الجليلة . حضرة الأمير الحالي اعتماد الدولة عليه وأمنيتها منه لم يحصل فيها أدنى تغيير ، وتبديله لم يُتصور ولن يُتصور . أوضحوا هذا لعبدالله بك » . [1]

---

(١) منير باشا هو قائد القوات العسكرية في الحجاز والوالي بالوكالة .

ولكن الخديوي حضّ الامير على عدم الثقة بالاتحاديين وبما يقولونه. اما عن الانكليز فقد قال لعبدالله « انا لا آمنهم في بلادي ولكن آمنهم في البلاد العربية وخصوصاً في جهتكم ، لانهم لا يتصور ان يحتلوا بلادكم لانهم يخافون غضب رعاياهم من المسلمين ، ولذلك هم يخدمونا بلا خوف منهم . وقد أسسّنا معهم الأساس فينبغي لنا ان نتشبث في قطع الكلام وأخذ القول اللازم منهم » . وهكذا أقتنع الخديوي عبدالله بان يتصل بستورس ويعرض عليه أمرين :

١ – اذا اضطرنا الاتحاديون للدفاع عن بلادنا ، فأنتم تمنعونهم من ضرب سواحلنا وانزال العساكر فيها وتفتحون لنـــا طريق بورسودان للمخابرات والمناقلات .

٢ – مقابل ذلك نسهل لكم التجارة ونرجحكم عل كلي الدول .

وطبقاً لنصيحة الخديوي اتصل عبدالله هاتفياً بستورس فجاءه هذا على الفور. وعندما عرض عليه عبدالله ما اقترحه الخديوي قال ستورس:

– نعم هذه فكرتي التي أسعى اليها منذ عشر سنوات ؛ ولكن ماذا نفعل اذا قال الترك عليكم اعادة الامن ؟

وأجاب عبدالله :

– لا تظن انت ولا حكومتك ان مراجعتنا هذه ناشئة عن حاجتنا اليكم ، ولكننا أحببنا إحاطتكم علماً بالموقف لعلمنا باهتمامكم الناشىء عن كثرة عدد رعاياكم المسلمين ؛ ونحن خشينا اذا لم نخبركم ان تتخذوا من ذلك وسيلة للاعتراض والتداخل . ان الحجاز قادر على دفع الترك وغير الترك بقوته الحالية . ولا تظنوا اننا سنضطر للخضوع حتى لو حاصرنا الترك وحاصرتمونا معهم . اننا سادة بلادنا وسنخرج منها كل ذي تابعية أجنبية .

وكان جواب ستورس : ان تعهدكم بالمحافظة على الامن في البلاد يكفي . ثم قال انه لا بد له من عرض الامر على اللورد كتشنر .[1]

---

(١) التقريران من أوراق الأمير زيد بن الحسين . وقد حرصت على نقل العبارات كما وردت في النص الأساسي .

ومن الواضح ان عبدالله سأل ستورس في هذه المقابلة بالذات عما اذا كانت الحكومة البريطانية تستطيع ان تبيع والده اثني عشر مدفعاً رشاشاً او نصف هذا العدد على الاقل من أجل ان يتمكن الشريف من مقاومة اجراءات الاتحاديين المحتملة بقوة السلاح [1] .

يبدو أن الامير غادر القاهرة إلى استانبول بعد ايام قليلة من هذه المقابلات دون أن يحصل على جواب شاف من كتشنر . ويبدو ان الامير — او الخديوي — عبرّ عن خشيته مما قد يدّبره له الاتحاديون عند وصوله — اي الامير — إلى تركيا . فكتب كتشنر رسالة للسفير البريطاني في استانبول يقول فيها « متى احتاج الامير عبدالله الباخرة الحربية المخصصة للسفير البريطاني فاجعلوها تحت امره » . وسلّم ستورس هذه الرسالة للامير . وقال له ان فيتز موريس ترجمان السفارة البريطانية في الاستانة سيأتي لمقابلتك في ازمير ولتسلم هـــذا الكتاب منك وسيضع باخرة تحت تصرفك لتبحر بها اذا شئت . وأرجو ان تعلم انه اذا دافع سمو الشريف عن حقوقه بالحجاز فالحكومة البريطانية التي ليس لها أي حق بالتدخل في شؤون داخلية لدولة صديقة ، لا ترضى ابداً بدوام اية حركات تسببها تركيا ضد السلام السائد الان في بلاد الحج . [2]

وسافر الامير إلى استانبول وبحث مع الصدر الاعظم والوزراء في الخلاف القائم بين ابيه والحكومة العثمانية حول تمديد خط سكة الحديد من المدينة إلى مكة ، كما بحث تصرفات وهيب بك الوالي الجديد . تلك التصرفات التي اشتمّ الشريف منها روح العداء والكيد .

وبعد ان قضى الامير في استانبول حوالي شهرين غادرها في منتصف شهر نيسان يحمل تطمينات الحكومة تجاه والده وعروضها بشأن تمديد سكة الحديد إلى مكة . وفي طريق عودته قضى اياماً في القاهرة ضيفاً على الخديوي عباس حلمي ، واتصل خلال ذلك بستورس وبحث معه

---

(١) رونالد ستورس ، مشرقيات ، ص ص ١٢٢ — ١٢٣ : ومن الواضح ان ستورس — مثله مثل الملك عبد الله — نسي ان الأمير قدم عرضه في شباط وجدد بحثه في نيسان .

(٢) الملك عبد الله ، مذكراتي ، ص ص ٨٠ — ٨١ .

موضوع مساعدة الانكليز للشريف اذا ما تردى الموقف بينه وبين الاتحاديين . وأجاب ستورس بناءً على تعليمات كتشنر « ان عرب الحجاز يجب ان لا ينتظروا منا اي تشجيع ، وان مصالحنا الوحيدة في الجزيرة العربية هي سلامة الحجاج الهنود وراحتهم . »[1]

ولم يجتمع الأمير بكتشنر هذه المرة ، ولا بدّ ان يكون ذلك قد نشأ عن نصيحة السفير البريطاني في استانبول من ان اجتماعات كهذه لا تسر الباب العالي ، وخاصة بعد ان خاضت الصحف التركية في موضوع المقابلات السابقة وتساءلت عما يمكن ان يكون قد دار خلالها من أحاديث .

بهذه الكيفية جرت الاتصالات الاولى بين الشريف حسين والانكليز، وكان الدافع اليها ما ظهر من سوء نية الاتحاديين تجاه الشريف وخشيته من ان يعمدوا إلى عزله بالقوة . اي ان اهتمامات الشريف حتى ذلك الحين كانت مقتصرة على الاحتفاظ بما حقق للحجاز من استقلال داخلي . ومع ان رد الفعل البريطاني كان سلبياً الا انه لم يكن رفضاً قطعياً جافاً بل ترك الباب مفتوحاً لاتصالات أخرى في المستقبل. وتكمن أهمية الاتصالات التي تمت في شباط ونيسان[2] في أنها فتحت أذهان الانكليز إلى احتمال

---

(١) الوثائق البريطانية عن أسباب الحرب ، المجلد العاشر ، القسم الثاني ، ص ٨٣١ . رسالة من لورد كتشنر إلى السير تيريل السكرتير الخاص يومذاك للسير ادوار جراي ، وزير الخارجية البريطانية بتاريخ ٢٦ نيسان ١٩١٤ .

(٢) بتاريخ ٤ نيسان ١٩١٤ كتب كتشنر إلى السير ادوارد جراي يقول : « ... نحن لا يمكننا أن تغيب عن أنظارنا الاهتمامات التي يتوجب على بريطانيا العظمى ان توليها دائما للأماكن المقدسة ، بسبب موسم الحج السنوي الذي يشترك فيه الاف من مسلمي الهند ,كثيرون من المصريين . ان رفاهية أولئك الحجاج ، وبالاخص سلامتهم ترتبط ارتباطا وثيقاً باستمرار الأمن والنظام في المناطق موضوع البحث ، وبوجود علاقة طيبة بين الأتراك والعرب الذين أثارت عداءهم دون شك سياسة المركزية التي انتهجها الأتراك خلال السنوات القليلة الفائتة ، وأثار عداءهم على الاخص الاقتراح الرامي إلى تمديد مواصلات خط سكة الحديد مما سيؤدي إلى خسارة مالية كبيرة للبدو الذين يعتاشون من تأجير جمالهم . » (المصدر السابق، ص ٨٣٠- ٨٣١) .

وقوع صراع علني بين الشعبين الاسلاميين الكبيرين : العرب والاتراك وإلى ما يمكن ان يحمله ذلك الصراع المتوقع من امكانات للسياسة البريطانية في الشرق الاوسط .

وقد كان اللورد كتشنر أبعد البريطانيين صيتاً في بلادالعرب يومذاك: فهو الذي أعاد فتح السودان وتولى منصب قائد الجيش المصري لمدة أحد عشر عاماً (١٨٨٩ - ١٩٠٠) وبعد ان قضى كتشنر أحد عشر عاماً اخرى قائداً عاماً في الهند عـــاد في ١٩١١ إلى مصر ليحتل منصبه الرفيع معتمداً وقنصلاً عاماً لبريطانيا . وكان كتشنر ذا معرفة وخبرة بالبلاد العربية ويتوق إلى مدّ النفوذ البريطاني إلى الشرق من قناة السويس لتأمين طرق المواصلات بين بريطانيا وامبراطوريتها الواسعة في الهند . ولكن الحكومة البريطانية كانت تعلم ان انظار الدول الكبرى تتركز على ما تبقى من أقطار الدولة العثمانية ؛ وان معاضدتها للشريف في قيامه بالتمرد على حكومة السلطان قد تجرّ إلى نزاع علني مع الدول الكبرى . لهذه الأسباب اعتذر كتشنر للامير عبدالله دون ان يغلق باب الأمل كلياً في وجهه .

الاتحاديون والشريف : لم يكن الشريف على وئـــام مع الاتحاديين لأسباب عديدة . فمع انه هو وأبناؤه ؛ كمـــا قال الأمير عبد الله لاسماعيل حقي في القاهرة « خدمناهم مدة سنتين وهم ما تمشي لهم سفينة في البحر الأحمر تحمل رايتهم اثناء الحرب . وطرحنا لهم الادريسي ، فما يمكن ان يكون غير هذا أمر يثبت صداقتنا»[1] ؛ الا ان الاتحاديين لم يكونوا يعتقدون ان تلك الصداقة كانت خالصة مبرأة من المطامع والمطامح الشخصية . كانوا يرون ان الشريف يخدمهم لكي يخدم نفسه في الوقت ذاته : لقد ساعدهم في حرب عسير ولكنه أراد ان يضم المناطق المستخلصة من الادريسي إلى الحجاز ويتولى ادارتها ، وقام بغزو نجد واقنع الامير

(١) أوراق الأمير زيد - رسالة من عبد الله إلى ولده الحسين بتاريخ ٧ شباط ١٩١٤.

السعودي بالاعتراف بسيادة السلطان ولكنه في الوقت نفسه بسط نفوذه الشخصي على عدد من القبائل خارج الحجاز . على ان الخلاف الرئيسي تركزّ على ادارة الحجار ذاته : فالشريف يرى ان السلطان ولاه الامارة حسب الشروط القديمة ، اي ان يتولى الشريف ادارة الحجاز ويعترف بسيادة السلطان ، بينما كان الاتحاديون يرون ان الحجاز ولاية من ولايات الدولة عليها ان تخضع للقوانين والانظمة التي تصدرها الحكومة المركزية — مثل الولايات العثمانية الاخرى .

ففي ربيع ١٩١٣ أصدر الاتحاديون قانوناً جديداً للولايات يقضي من جملة ما يقضي بتنفيذ أحكام التجنيد الاجباري . وقد عارض الشريف في تطبيق هذا القانون محتجاً بان الحجاز بلد مقدس له مكانة خاصة ووضع ممتاز ولا يجوز ان يطبّق فيه ما يطبق على غيره من أقطار الدولة الاخرى . وفي أواخر ١٩٠٨ وصل خط سكة الحديد إلى المدينة المنورة، واتجهت نية الحكومة إلى مواصلة تمديده حتى يبلغ مكة عن طريق جده.ولكن الشريف عارض ذلك محتجاً بأن تمديد الخط إلى مكة يقضي على أسباب المعيشة لعدد كبير من سكان الحجاز بدوهم وحضرهم الذين اعتادوا ان يؤجروا الجمال لنقل الحجاج وأمتعتهم بين المدينتين المقدستين في الذهاب والاياب . وأعلن ان قطع اسباب معيشة اولئك الناس سوف يدفعهم إلى شق عصا الطاعة على الحكومة التي تقضي مصلحتها العليا ان يستتب الأمن في الحجاز .

واستمر الأخذ والرد بين الشريف وحكومة الاتحاديين حتى اوائل ١٩١٤ عندما صممت الحكومة على انتهاج سياسة الحزم في الحجاز . (بعد ان اتبعت سياسة القوة والشدة تجاه الاصلاحيين في بيروت والبصرة ودمشق والمدن العربية الاخرى) . وكان بدء العمل بالسياسة الجديدة تعيين وال جديد هو الميرالاي (الزعيم) وهيب بك.

كان وهيب بك ضابط ركن من أصل الباني يؤمن بمبادىء حزب الاتحاد والترقي ايماناً تاماً وتدفعه حماسة الشباب إلى معالجة الامور بالحزم

والعزم والصلابة . وقد جمعت له الحكومة بين سلطة الوالي وسلطة القائد العام للقوات العسكرية في الحجاز حتى تكون في يده السلطتان الادارية والتنفيذية . كما ان الحكومة عززت قواتها العسكرية في الحجاز بسبع كتائب مشاة أرسلتها مع وهيب بطريق البحر ، فبلغ ميناء جده هو والتعزيزات في شهر كانون الثاني ١٩١٤ .

جاء وهيب كما يقول الملك عبدالله « متنمراً » . وبمجرد وصوله أظهر وهيب تشدداً في اجراءاته وتصرفاته وأخذ يشجع شراذم الاتحاديين في الحجاز وأكثرهم من المجاورين . وطلب ان تناط جميع أحكام داخلية البلاد بالحكومة وان لا تكون للشريف علاقة بها . وأخذ يتدخل في القضايا الناشئة بين البدو وكانت من صميم صلاحيات الشريف . ثم أذاع انه ما جاء الا لتطبيق قانون الولايات على الحجاز ولتمديد خط السكة في المدينة إلى مكة ، وانه اذا مانع الشريف الحالي في تنفيذ هاتين المسألتين فالشريف علي حيدر مستعد للتنفيذ . « ولا وصل هو الا ليلزم الشريف حده ، او معه واحد فداوي لاجل يقتل الشريف . وكثر الهرج والمرج في البلاد حتى ان دولة ولي النعم حرر ما حرر للمراكز العالية وأوراهم ان من بعد الان المسؤولية هي على عاتقه [وهيب] وهو [الشريف] خالي منها ما دام هذه حركاته ونواياه . ولهذا اشتد الكرب وبلغ العربان ذلك فهاجوا وماجوا » . وقد بدأ الهياج على الطريق بين جدة ومكة اذ أخذ الجمالة الذين كانوا يعملون على نقل البضائع والمواد الغذائية من ميناء جدة إلى مكة ، حوالي اربعة الاف حمل جمل من جدة ولم يوصلوها إلى أصحابها في مكة . فهاج تجار مكة والاهلون وهرعوا إلى الشريف فأرسل رجاله إلى قبائل البدو التي يعمل ابناؤها عادة في نقل البضائع على طريق جدة — مكة وأقنعهم بضرورة اعادة الأحمال المفقودة فأعادوها الا القليل . هذا على الرغم من ان الشريف كان قد اعتكف في منزله وتوقف عن النظر في القضايا بعد ان أبلغ الحكومة في استانبول انه لا يتحمل مسؤولية ما يحدث في الحجاز . وأرسل وهيب إلى التجار يقول لهم ان الحكومة مسؤولة عن الامن ويجب عليهم ان يلجأوا اليه

في المستقبل . ثم طلب اهل مكة وجدة للدخول في سلك الجندية فامتنعوا . وطلب الجنود غير النظاميين (عسكر بيشة) الذين كانوا يخدمون مع الشريف لكي يقوم جنوده بتدريبهم على الاصول العسكرية النظامية ، ولكن هؤلاء رفضوا التحول عن اسلوب الخدمة التقليدي بالنسبة لهم . وهكذا ظل طريق جدة مغلقاً لا تسمح القبائل بالسير عليه . ثم قام رجال القبائل بنهب قافلة لتاجر هندي وقتلوه ونجا مدير الطائف التركي – وكان مسافراً مع القافلة – من القتل بصعوبة . وسطا عدد من الاشقياء على زورق محمل بالارز والحبوب في ميناء جده ونهبوا ما فيه وحطموه . ونتج عن ذلك ان الوالي اتهم الشريف بتدبير هذا الهياج . ولكن أعيان مكة ورجال الدين فيها قاموا يبرقون للحكومة المركزية احتجاجاً على الوالي وشكوى من تصرفاته . وتأزم الموقف ، فقطع البدو خطوط التلغراف بين جدة ومكة وصادروا البريد . ورأى وهيب ان الوضع أصبح خطيراً ينذر بانفجار أشد ، فذهب إلى الشريف يعتذر ولكن الشريف أبى قبول الاعتذار . وخرج من جدة عدد من الجنود الاغرار يقصدون مكة فهاجمهم البدو وقتلوا خمسة منهم وفرّ الباقون . وساد الاضطراب في بلدة جدة وضواحيها . ورافق ذلك ارتفاع الاسعار في مكة . ثم قام الشريف فأرسل ابنه فيصل إلى جدة لردع البدو وبثّ الاطمئنان في نفوس الاهلين(١) .

واستمرت الازمة حوالي اسبوعين حاول وهيب بك خلالهما ان يفتح طريق جدة – مكة بالقوة ، ولكن قبائل البدو هاجمت القوة التركية ومعها الدفتردار (أكبر موظف مالي في الولاية) وقائد رجال الدرك وحاصرتها على الطريق كما حاصرت النقاط العسكرية بين جدة ومكة . وامتنع سكان الاودية المحيطة بمكة من جلب الخضار والفواكه والسمن والاغنام اليها . وتجمهر أهل مكة حول دار الحكومة ينادون بعدم تغيير

---

(١) هذه التفاصيل عن رسالة قديمة غير مؤرخة بين أوراق الأمير زيد . ارجح ان كاتبها هو الأمير علي، أكبر أنجال الشريف حسين. وقد بعث بها – بعد وصول وهيب – إلى أخيه عبد الله الذي كان في طريقه إلى استانبول .

امتيازات الحجاز وعدم تمديد خط سكة الحديد . وأثناء ذلك جاء الشريف إلى الوالي فهتفت الجماهير تأييداً له . ودخل الامير على الوالي وقال له : « ها أنت ترى رغبة الشعب الحجازي في التمسك بحقوقه القديمة وبالشروط التي بويع بها السلطان سليم الاول بالخلافة . فان أحببت عدم اعتبار هذا وكانت في يدك أوامر من الدولة بتطبيق قانون الولايات على هذه البلاد وسلخ امتيازاتها . فأرنا هذه الاوامر التي لم تأتني عنها من الباب العالي اي اشارة . واذا كان المقصود اجراء تبديل في الامارة : فهذا انا سأبقى هنا إلى حين تأتي الباخرة التي سأسافر بها من جدة لئلا يقع ما تسند تبعاته الي . »

ولم تفرج الازمـــة الا بورود برقية جوابية من الصدر الاعظم للشريف تؤكد بعدم الاخلال بحقوق الامارة وبامتيازات الحجاز : وان الحكومة لا تلح في الوقت الحاضر على مد الخط الحديدي . ولم تلبث الأحوال أن هدأت بعد أن تُليت البرقية في المسجد وأحيط الناس علماً بمضمونها .[1]

اما وهيب فقد « زين لحكومة الاستانة توجيه حملة اليه [الشريف] مؤيداً دعواه ببعض الحوادث والاعمال . فأجابته الحكومة إلى طلبه . ولكن محمود باشا الشركصولي حملها على العدول . غير ان هذه الفكرة وحدها كانت كافية لإثارة أمير مكة واذكاء نار غضبه.»[2]

حدثت هذه الازمة في شباط ١٩١٤ بينما كان الامير عبدالله يقضي اياماً في القاهرة وهو في طريقه إلى استانبول . وكان من الطبيعي ان يتعاظم قلق الامير ويحسب حساب العواقب وما قد يعمد الاتحاديون إلى اتخاذه من اجراءات .

وكان هدف الامير عبدالله من السفر إلى استانبول ان يشترك في

---

(١) الملك عبد الله ، مذكراتي ، ص ص ٧٩ - ٨٠ .

(٢) الجنرال علي فؤاد ، ص ٧٨ .(الفريق محمود باشا جورروك صولي وزير البحرية حتى شباط ١٩١٤ ثم وزير النافعة بالتبادل مع جمال باشا ، وهو أحد الوزراء الأربعة الذين استقالوا لمعارضتهم في دخول الحرب .)

جلسات مجلس المبعوثان الجديد (في دورته الاولى التي ستفتح في ١٤ ايار ١٩١٤) ويتباحث مع أركان الحكومة في الخلاف القائم بينها وبين والده حول تمديد سكة الحديد . وعند وصوله أجرى مباحثات مع الصدر الاعظم ووزيري الداخلية والحربية . وقد عرض طلعت بك وزير الداخلية على الشريف الشروط التالية كي يوافق على تمديد الخط ويتعاون مع الحكومة في تسهيل المصاعب المتوقع قيامها نتيجة لذلك :

١ – ثلث دخل الخط للشريف ينفقه كما يشاء .

٢ – بقاء الشريف اميراً على الحجاز مدى حياته وتكون الامارة من بعده لأولاده .

٣ – توضع تحت امر الشريف القوة العسكرية الكافية لتأمين تنفيذ تمديد خط السكة .

٤ – تضع الحكومة تحت يد الشريف ربع مليون جنيه ينفقها على قبائل البدو .

وطلب وزير الداخلية من الامير أن يعود إلى الحجاز ويعرض هذه الشروط على الشريف ، فإن قبل كان به « وان رفض فلا عتب » . وفي هذا تهديد واضح بان الحكومة في حالة رفض الشريف ستتخذ الاجراءات التي تراها مناسبة . اما بشأن شكوى الامير من تصرفات الوالي واعتدائه على صلاحيات الشريف ، فقد قال وزير الداخلية ان الحكومة لا تبالي بان تغيّر الولاة شهراً بعد شهر ؛ وان ما يهمها هو تنفيذ السياسة التي تضعها .

وبعد يوم من هذه المحادثة التي جرت بحضور الصدر الاعظم ، غادر الامير عبدالله استانبول عائداً إلى الحجاز ليعرض شروط الحكومة على ابيه . (١)

عاد عبدالله في أواخر شهر نيسان إلى الحجاز ؛ فمرّ بالقاهرة وقابل ستورس الذي قال له ان صداقة بريطانيا التقليدية لتركيا تحول دون

---

(١) الملك عبد الله ، مذكراتي ، ص ص ٨١ – ٩٠ .

تقديم اية مساعدة لعرب الحجاز . وجـاء في رسالة كتشنر التي سبقت الاشارة اليها إلى السير وليم تيريل « يبدو ان الشريف غير راض عن نتيجة زيارته لاستانبول وعن تصميم الحكومة التركية على تمديد خط السكة إلى مكة لاعتقاده ان ذلك يعني قتلاً اقتصادياً لسكان الجزيرة العربية الذين يملكون الجمال . وسوف يكون مفيداً مراقبة التطورات اذ يبدو ان العرب متحمسون كثيراً » . [1]

ولم يوافق الحسين على عروض الاتحاديين واعتبرها « رشوة » فأبرق إلى الصدر الأعظم يقول انه لا مطامع شخصية له ولكنه يود ان يبعث بابنه عبدالله مرة اخرى حاملاً معه اقتراحات يعتقد ان تمديد خط السكة بموجبها يمكن ان يتم « بدون ان يمس مدار معيشة العشائر و سكان البلاد المقدسة الاسلامية . » [2]

وعاد عبدالله مرة اخرى إلى استانبول في اواخر شهر تموز [3] فقابل الصدر الاعظم وأبلغه الاقتراحات التالية من الشريف حسين :

« انا خادم الخليفة ولست بمعارض فيما يرى جلالته عمله . واني مستعد للتنفيذ حالا . ولكن اذا كان اتمام بناء الخط وتأمين ولاء العشائر ومعاشهم هو ما يريده جلالته وتريده الحكومة ، فلذلك وسائل لا تقتضي ربع المصروف الذي بينّه لي عبدالله ، وهي — اي الوسائل — اللازمة لايجاد المشاريع التي تأتي بعد التفكير مع لجنة اترأسها انا — اي الشريف نفسه — ومن المناسب ان يكون فيها صاحب الدولة والسماحة شيخ الاسلام او أي وزير من الوزراء . وان كانت الرغبة منصرفة إلى اقامة الانشاء تحت اي شرط يكون ، فينبغي توظيف فرقة عسكرية بكاملها

---

(١) الوثائق البريطانية عن أسباب الحرب ، المجلد العاشر ، القسم الثاني ، ص ٨٣١ .

(٢) الملك عبد الله ، مذكراتي ، ص‌ص ٩٠ — ٩١ .

(٣) في رسالة خاصة من فيصل إلى والده بتاريخ ١٥ تموز ١٩١٤ عبارات تدل على أهمية المباحثات بين الحكومة والشريف.فقد كتب فيصل من استانبول يقول«اما ممشا سيدي عبد الله فهم تلقوه هنا بكمال المسرورية . وما أدرى من اين استعلموا ذلك ، حيث أن كل ما رأيت واحد منهم مثل طلعت بك والرئيس وناظر الحربية (وهو بالخاصة يقبل الاقدام) يخبروني بحركته قبل أن اخبرهم . وسيكون وصوله فصل الخطاب » .

على طريق السكة واشغال المياه والقرى بين المدينتين . ثم بعد ذلك تكون البداية في العمل . »[1]

وصل الامير بينما كانت الأزمة التي نشأت بسبب مقتل ولي عهد النمسا تتصاعد يوماً بعد يوم حتى بلغت ذروتها يوم ١ آب باعلان الحرب العظمى . وحالما بدأت الحرب أبلغ طلعت بك وزير الداخلية الامير ان عملية تمديد خط السكة يجب تأجيلها في الظروف الراهنة. وطلب منه ان يسافر حالا إلى الحجاز لاعداد المتطوعين اذ قد تضطر الدولة لدخول الحرب . وقال أنور باشا للامير : اننا نريد متطوعين من العرب ليشتركوا في الجهاد . فسأله الامير : واين يجاهد المتطوعون ؟ فأجاب انور : نريد ان نسترد القفقاس ومصر . وخرج الامير من وزارة الحربية والطبول تدق والمنادي ينادي بالتعبئة العامة . ولم يلبث ان غادر العاصمة بحراً هو وأخوه فيصل عائدين إلى الحجاز ومعهما نواب الحجاز الآخرون ، بعد ان انتهت دورة مجلس المبعوثان يوم ٧ آب ١٩١٤ .

اتصالات السوريين ببريطانيا وفرنسا : كان هناك فريق من متنوري العرب وزعمائهم يرون انه لا ضير من الاستعانة بإحدى الدول الكبرى لنزع النير التركي عن اعناقهم . ولا بد ان يكون الباعث على اعتناق اولئك الأشخاص فكرة الاستعانة بدولة أجنبية هو يأسهم من حدوث اصلاحات حقيقية في البلاد العربية ما بقيت سيطرة الاتراك قائمة. ويجب ان لا يغرب عن بالنا ان الدولة العثمانية نفسها لم تكن مطلقة الاستقلال حرة التصرف في شؤونها، بل كانت تعاني الأمرّين من الامتيازات ومن نفوذ الدول الاجنبية وتداخلاتها. وكان الاتراك يبحثون عن وسيلة يتخلصون بها من القيود التي تكبّل أيديهم وتحدّ من استقلالهم في العمل، فعرضوا ان يتحالفوا مع فرنسا ثم مع بريطانيا ، وعندما تمنعت الدولتان عن ذلك رأوا انهم مضطرون للتحالف مع المانيا وللدخول في الحرب العامة إلى جانبها . وقد كان العرب والاتراك المسلمون أسوأ الناس

---

(١) الملك عبد الله ، مذكراتي ، ص ٩٢ .

حظاً بين سكان الدولة العثمانية ، اذ بينما كان أبناء الأجناس والأديان الاخرى كالارمن واليونان والروم – مثلهم مثل المسيحيين واليهود – يستطيعون اللجؤ إلى حماية دولة أجنبية ترعى مصالحهم وتفتح لهم المعاهد ، كان العرب والاتراك المسلمون لا يستطيعون اللجؤ إلى مثل تلك الأساليب ولا تسمح لهم الدول الكبرى بالحرية الكافية لتنظيم البلاد .

لقد كان ضعف الدولة وعجزها واضحان كل الوضوح سواء للاتراك او للعرب ، ومن هنا فقد كان العرب الذين يتصلون بدولة اجنبية طلباً لمعاضدتها ، يعتقدون باخلاص انهم بذلك انما يؤدون واجباً وطنياً ، وان تصرفهم ذاك لا يخدش شعورهم القومي ولا يتعارض مع عقيدتهم الدينية .

وتقول الوثائق البريطانية ان جماعة أكثرهم من دروز ومسلمي لبنان ودمشق . اتصلوا بالقنصل البريطاني في بيروت في اواخر عام ١٩١٢ طالبين ان تقوم الحكومة البريطانية بمساعدة العرب في نضالهم ضد الاتراك ، وأن وفداً من وجهاء المسلمين السوريين قاموا في العام ذاته بزيارة كتشنر في القاهرة يطلبون ان تعمل بريطانيا على الحاق سوريا بمصر شريطة ان تتمتع سورية بادارة مستقلة . ولما كان كتشنر يقدر أهمية مدّ النفوذ البريطاني في بلاد العرب فقد تقبّل هذه العروض بلباقة [١] : اي انه لم يرفضها وترك الباب مفتوحاً بالنسبة لحكومته ولمقدمي تلك المطالب . [٢]

وفي حزيران ١٩١٣ لم يجد أعضاء المؤتمر العربي في باريس اي حرج في ايفاد اشخاص من بينهم إلى وزارة الخارجية الفرنسية وسفارات الدول

---

(١) الوثائق البريطانية عن أسباب الحرب (١٨٩٨ – ١٩١٤)، المجلد١٠ ، القسم٢ ، ص ص ٨٢٤ – ٨٢٥ (نقلا عن جريدتي الطان والفيجارو) .

(٢) لم تقتصر الاتصالات على السوريين ، اذ ان السيد طالب النقيب تقدم في ١٩١٢ بعروض للانكليز في مصر والهند – أنظر كتاب لونجريج عن العراق : IRAQ, 1900 to 1950, (O.U.P., London), 1953, p. 45 وأيضاً تقرير من كلايتون إلى سايمس بتاريخ ٥ آذار ١٩١٧ ((F.O. 882/14))

الكبرى ، كي يقدموا لها نسخاً من القرارات التي اتخذوها .[1]

وفي ٢٤ شباط ١٩١٤ كتب السفير البريطاني في استانبول إلى وزير خارجية بريطانيا ان عدداً من الضباط العرب في العاصمة العثمانية زاروا السفارة «مستفهمين عما سيكون عليه موقف الحكومة البريطانية في حالة قيام ظروف معينة .[2] وقد حدثت حركة الضباط العرب هذه عندما كان عزيز علي المصري في السجن ينتظر صدور الحكم عليه . وقدّم عدد من العرب المدنيين عرائض بشأن عزيز علي إلى السفارات الاجنبية في استانبول[3] وقد حدثت أزمة اعتقال عزيز علي ومحاكمته في الوقت الذي بلغ فيه الخلاف ذروته بين الشريف حسين والاتحاديين .

وقد نشر جمال باشا في ١٩١٦ نصوص بعض المخابرات التي عثر عليها في قنصليتي فرنسا بدمشق وبيروت على أساس ان ما جاء فيها يشكّل ادانة جرمية بحق الاشخاص الذين اتصلوا بموظفي القنصليتين. ففي المذكرة التي بعث بها المسيو بومبار سفير فرنسا في استانبول وتاريخها ١٥ كانون الثاني ١٩١٣ نرى السفير يقول ان شفيق بك المؤيد نائب دمشق السابق قام بزيارة له للبحث في القضية السورية بعدما حلّ بالدولة العثمانية من هزائم في البلقان . وسأله عما اذا كان اهتمام فرنسا يقتصر على المسيحيين في سورية ام يشمل المسلمين كذلك « الذين اعتادوا أن ينظروا إلى فرنسا نظرة وطن ثان » . وقد بحث شفيق المؤيد مع السفير عن الاصلاحات الواجب تنفيذها في ميدان الادارة بسورية وعن اللامركزية ، وعن قلب ولايات سورية الثلاث إلى امارة ، وعن عدم قبول الاتراك في الوظائف العمومية في الولايات السورية . ثم سأل السفير عما اذا كانت فرنسا مستعدة لسوق جيش الى حلب اذا ما قامت

---

(١) الوثائق البريطانية... ص ٨٢٦ (مع نص القرارات باللغة الفرنسية). وقال القائم بالأعمال في السفارة البريطانية أن أعضاء الوفد طلبوا منه ارسال القرارات إلى وزارة الخارجية البريطانية .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨٢٨ .

(٣) أسعد داغر ، مذكراتي على هامش القضية العربية ، ص ٥١ .

الحكومة العثمانية باستعمال القوة العسكرية لاجل ابقاء سورية تحت سلطتها وربقتها . وكان جواب السفير النصح بان يعمل الاصلاحيون على الحصول على الاصلاحات بالتفاهم مع الحكومة العثمانية . ثم قال ان شفيق المؤيد سوف يسافر إلى مصر حيث سيكرر للمندوبين الانكليز فيها بياناته ذاتها ، وبعد ذلك يسافر إلى بيروت لتوحيد مساعيه مع الاصلاحيين فيها.[1] ويتضح من هذه المذكرة ان شفيق المؤيد لم يكن يطلب من فرنسا الا المساعدة على معاضدة سورية في طلبها الاصلاح على أساس اللامركزية . هـذا اذا كانت أقوال شفيق المؤيد قد نُقلت نقلاً أميناً .

وهناك نص المذكرة التي بعث بها قنصل فرنسا في بيروت بتاريخ ٢٢ نيسان ١٩١٣ والتي جاء فيها ان شفيق المؤيد زاره بعد مجيئه من مصر وحدثه من المسألة السورية وبأنه يريد السفر للشام وهناك « سيتشبث بتأسيس حزب اللامركزية لا حزب الاصلاح ويشترك مع اللامركزيين في مصر ».[2] ومن هذا يتضح ان شفيق المؤيد كان يسعى للاصلاح على طريقـة اللامركزية ، دون ان يتطرق لطلب حماية الدول الاجنبيـة او للانفصال عن الدولة العثمانية .

وقد جاء في الاعترافات المنسوبة لعبد الغني العريسي — والتي لا بدّ ان تكون قد أُخذت تحت التعذيب الشديد او زورّت على لسانه — عن المنتدى الادبي في استانبول قوله : « والغاية من تأسيسه ان يجمع كل الطلاب العرب ويبث فيهم فكرة القومية ونهضة العرب بأية واسطة كانت ولو بمساعدة الدول الاجنبية التي تؤدي إلى احتلال او حماية .»[3]

واتهم الاتراك شكري العسلي بأنه اتصل بالفرنسيين ، وأن الامير

---

(١) ايضاحات عن المسائل السياسية التي جرى تدقيقها بديوان الحرب العرفي المتشكل بعاليه (لبنان) نشرت من قبل القائد العام للجيش الرابع . مطبعة الطنين ، استانبول ، ١٣٣٤ (١٩١٦) ، ص ص ٥٢ — ٥٣ .

(٢) المصدر السابق، ص ٥٧ .

(٣) ايضاحات ، ص ٦ .

عمر الجزائري جاء بشكري العسلي إلى القنصل الفرنسي في دمشق وعرّفه به ، وفي تلك المقـابلة أعطى شكري العسلي للقنصل اسماء عدد من « الذين يمكنهم ان يقوموا بخدمة » .

واستمر هذا النوع من الاتصالات إلى ما بعد اعلان الحرب العالمية الاولى ، عندما نشطت السلطات البريطانية في مصر للاتصال برجال الجمعيات العربية والتعرف على آرائهم ومطامحهم ومشاريعهم للمستقبل . ويمكن القول بكثير من الثقة ان قادة الحركة العربية كانوا يعتقدون انه من الضروري الاستفادة من تعضيد الدول الاجنبية من أجل الحصول على الاستقلال الذاتي ضمن الامبراطورية العثمانية ، والاستعانة بالمستشارين الاجانب من أجل النهوض بالبلاد العربية [1] دون أن يبحثوا جدياً في أمر الانفصال عن الاتراك . وظل هذا الرأي هو الرأي السائد الغالب حتى بدأ جمال باشا موجة الاعدامات في سوريا ، فاقتنع العرب نتيجة لذلك بانه لا بد لهم من الانفصال وتكوين دولة عربية مستقلة .

العثمانيون يدخلون الحرب : أطلق على منطقـة البلقان قبيل نشوب الحرب العظمى اسم «برميل البارود». كما شاع في الدوائر الديبلوماسية للدول الاوروبية الكبرى تلقيب الدولة العثمانية باسم «رجل اوروبا المريض». ولقد كان «الرجل المريض» الشغل الشاغل لدول اوروبا الكبرى منذ ان دبّ في جسمه الوهن. وكلما ازداد ذلك الوهن كلما اقترب برميل البارود من النار.

---

(١) نصت المادة السابعة من مطالب جمعية بيروت الاصلاحية التي قدمت للحكومة العثمانية بتاريخ ٣١ كانون الثاني ١٩١٣ على أن « تعين الحكومة المركزية مستشارين من الاجانب» لدوائر الشرطة والمالية والتجارة والجمرك والبريـد والتلغراف، ومفتشاً أجنبياً عاماً لكل لواء من الولاية بالاضافة إلى تعيين مستشارين لدوائر العدلية والنافعة والمعارف والبلدية . (راجع مواد اللائحة الأساسية التي قررتها الجمعية الاصلاحية البيروتية في «ثورة العرب» ، ص‌ص ٦٢ — ٦٧). وكان من بين قرارات المؤتمر العربي في باريس مطالبة الحكومة العثمانية بتعيين مستشارين أجانب في ولاية بيروت ، كما نص الاتفاق اللذي أعقب المؤتمر العربي على تعيين مفتشين متخصصين من الأجانب في الدوائر والمصالح التي تحتاج إلى خبرتهم (راجع الصفحات ٣٧—٤٠) .

ومن المفارقات التاريخية ان ضعف الدولة العثمانية ساق الدول الاوروبية بصورة مباشرة إلى الحرب لسبب بسيط وهو ان تلك الدول لم تستطع الاتفاق على اقتسام تركة « الرجل المريض » . ونتيجة لعدم حدوث الاتفاق طال عمر الدولة العثمانية مدة لا تقل عن قرن من الزمن او اكثر .

كانت الكثرة العظمى من سكان منطقة البلقان من العنصر السلافي الذي ينتمي هو والعناصر الروسية إلى أصل واحد . من هنا نشأت روح العداء بين دولة الصرب السلافية وبين دولة النمسا الجرمانية التي كانت تسيطر على مناطق أغلبية سكانها من العنصر السلافي . لذلك كان تحرير مقاطعتي البوسنة والهرسك من النير العثماني بمثابة عود الكبريت الذي أشعل فيما بعد برميل البارود . فالسلافيون سكان البوسنة والهرسك والسلافيون سكان دولة الصرب لم يروا في استيلاء النمسا على مقاطعتي البوسنة والهرسك في ١٩٠٨ سوى تبديل حاكم أجنبي تركي بحاكم أجنبي أخر جرماني .

وظل الحقد القومي يغلي في نفوس السلافيين ضد الحكم النمسوي حتى تفجر ذلك الحقد يوم ٢٨ حزيران ١٩١٤ عندما أقدم شاب من البوسنة فأطلق النار على ولي عهد النمسا في بلدة سراجيفو وأرداه قتيلاً هو وزوجته . ومن هنا تفجرت الازمة الاوروبية وتصاعدت حمى التوتر بين الدول المعنية تصاعداً مطرداً حتى اندلعت نار الحرب . فأمبراطورية النمسا – المجر اعتبرت دولة الصرب مسؤولة عن هذه الجريمة المنكرة ووجهت اليها انذاراً لم يستطع الصربيون قبوله ، فأعلنت النمسا الحرب على الصرب يوم ٢٨ تموز . ثم تتابعت الاحداث بسرعة لم تتح لحكام الدول الكبرى فرصة استيعاب الخطى الخطيرة التي أخذوا ينزلقون إلى اتخاذها يوماً بعد يوم : فالمانيا التي أعطت النمسا تأكيدات بالمعاضدة لم تكن تعتقد ان روسيا سوف تغامر بالحرب كي لا تسمح بسحق دولة الصرب السلافية ، وروسيا لم تكن تعتقد ان الالمان سوف يغامرون بالحرب من أجل ان يتاح للنمسا تحطيم القومية السلافية . وهكذا أعلنت روسيا التعبئة العامة يوم ٣١ تموز ، وفي ١ آب أعلنت المانيا

الحرب على روسيا وفي ٣ آب بدأت الحرب بين المانيا وفرنسا حليفة الروس . وفي ٤ آب دخلت بريطانيا الحرب ضد المانيا بعد أن اخترقت هذه حياد البلجيك في عملية الهجوم على الاراضي الفرنسية . وهكذا وخلال اسبوع واحد من الزمن ، دخلت دول اوروبا الكبرى في حرب طاحنة استمرت اكثر من اربع سنوات ، فوقفت دول الحلفاء وهي روسيا وفرنسا وبريطانيا ومعها صربيا والبلجيك في صف بينما وقفت دولتا الاتفاق المانيا والنمسا في الصف المقابل . وفيما بعد دخلت تركيا وبلغاريا في صف دول الاتفاق بينما انضمت ايطاليا ورومانيا والولايات المتحدة الاميركية واليابان إلى صف دول الحلفاء .

لا بدّ للمرء ان يتساءل عن الاسباب التي حدت بالرجال الذين كانوا يتولون مقاليد الحكم في دولة بني عثمان إلى الدخول في الحرب العالمية . لقد ذاق اولئك الرجال أنفسهم مرارة الهزيمة في الحرب البلقانية في اوروبا وعلى يد ايطاليا في طرابلس الغرب . كانوا يعرفون جيداً ضعف بلادهم وعدم استعدادها وقلّة مواردها بالنسبة إلى دول اوروبا الكبرى ذات القوى العسكرية الهائلة والموارد المادية الضخمة . ولكن بالرغم عن معرفتهم تلك فانهم اختاروا ان يزجوا ببلادهم في معمعان حرب طاحنة على اوسع نطاق عرفه العالم حتى ذلك الحين . فمن هم اولئك الرجال الذين ساقوا بلادهم إلى الحرب ؟ وما هي الدوافع التي حفزتهم لاتخاذ تلك الخطوة الخطيرة ؟

بعد اغتيال محمود شوكت باشا أصبحت « المملكة العثمانية في قبضة الاتحاديين ، والاتحاديون في قبضة المركز العام ؛ والمركز العام في قبضة الحكام الثلاثة [طلعت وانور وجمال] . وكان الثلاثة في قبضة أنور يسوقهم سوقاً عنيفاً . اما مقام السلطنة والقوى التشريعية وحزب الاتحاد والترقي والحكومة الرسمية والصحافة والرأي العام — فلم تكن الا أشباحاً ماثلة وخيالات مصوّرة . »[1]

(١) الجنرال علي فؤاد باشا، كيف غزونا مصر، الترجمة العربية، بيروت ١٩٦٢، ص٣١.

كان أنور ذا شخصية قوية وقد تلقى دراسته العسكرية في المانيا ثم خدم ملحقاً عسكرياً فيها بضع سنوات، فمن الطبيعي ان يكون معجباً بالمانيا مؤمناً بتفوقها في المجال العسكري على دول اوروبا الاخرى .

« وكان أنور يرى ان الحلفاء تقاسموا بلاد الدولة فيما بينهم قبل الحرب، ففرنسا وانكلترة تقاسمتا سورية وفلسطين منذ سنة ١٩١٢ ، ولو خرجت روسيا ظافرة لأخذت استانبول . وقد عرض الغربيون على المانيا ان يتقاسموا الدولة معها . وهكذا صار طلعت وأنور يقولان : ان تأبيّنا الانضمام إلى المانيا نخشى امّا ان تنتهي الحرب بالاتفاق علينا ، والمانيا من الجملة لاننا لم نف بحلفنا معها ، واما ان ينتصر الحلفاء فيقع تقسيمنا ، فعلى الحالين نكون من الخاسرين . اما اذا فازت المانيا فنتخلص من خطر الحلفاء واذا هُزمت المانيا فلن يصيبنا أكثر مما سيصيبنا لو أهملنا الانضمام اليها . هذا مع انهما لم يتوقعا ان تُهزم المانيا . »[1]

ولكن الامير شكيب ارسلان يرى ان طلعت كان صاحب النفوذ الاقوى وليس أنور . كان طلعت رجلاً عصامياً رُقّي في مدة عشر سنوات وأقل من مأمورية تلغراف سلانيك إلى الصدارة العظمى بسبب الانقلاب . ولقد تصرفت جمعية الاتحاد والترقي « بزمام السلطنة عشر سنوات تامة ، وتصرف طلعت بزمام الجمعية هذه المدة ، وكان هو دائماً روح هذه الجمعية ورئيسها الفعلي . كان هو المرجع الأول والأخير في الدولة من قبل ان يتولى الصدارة . وكان رجلاً خارقاً العادة في ذكائه ومضائه وحزمه وعزمه. ولم يكن طلعت ممن حصلوا العلم في المكاتب العالية ولكنه كان يستفيد من معاشرة زملائه المتعلمين ، ويسدّ جورة جهله بغزارة فهمه وسرعة لحظه . »[2]

وكان جمال باشا ثالث الثلاثة المتسلطين . وقد وصفه الامير شكيب ارسلان بالذكاء وسرعة الفهم ومضاء العزم، ولكنه كان سريع الانفعال

---

(١) الامير شكيب ارسلان ، تعليقات على ترجمة كتاب حاضر العالم الاسلامي ، المجلد الرابع ، ص ٣٦٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٨٧ .

متكهرب الأعصاب متنفجاً متغطرساً جباراً مفتوناً بأن يوصف بالجبروت محباً للانتقام والبطش ، « جنت الدولة جناية كبرى على نفسها وعلى العرب والترك معاً بان سلمته زمام سورية مدة الحرب تسليماً مطلقاً ، مع ما في نحيزته من الاستعداد للاستبداد والنشوة بخمرة النهي والأمر ، فمضى في شهواته وأهوائه غير حاسب ولا مراقب ولا ناظر إلى شيء من العواقب....ولم يكن من غروره يعتقد أصلاً بأن بلاد العرب يمكن ان تخرج من يد تركية . فكان ذلك من الأسباب التي حملته على الجور ، والعسف ، وارهاف الحد ، وارهاق الخلق . ولما خرج الشريف حسين على الدولة بقي مدة أيام وهو لا يصدق الخبر . . . وكان يعلل ذلك بكون الشريف لا يجرؤ على هذا الأمر ، وان رهبة الشريف من جمال تمنعه منه » .[1]

اما الجنرال علي فؤاد فيقول أن أنور وجمال ثملا غروراً بحميا المنزلة الرفيعة التي أحرزاها بسبب الانقلاب . وقد انقلب أنور نتيجة لذلك من رجل كريم الخلق لين الجانب إلى حاكم قاهر فغاضت بشاشته واكفهرت أسارير وجهه وقر قراره على ان يفعل ما فعل قيصر . « وكان أنور يرى ان الله خلقه ليجري على يديه بعض خوارق العادات ، ولا يخالجه شك في ذلك ، ويرى ان هذه الحرب هي أفضل وسيلة ينبغي التوسل بها ليبلغ مطامحه وشهواته ، وينفذ تلك الخوارق التي قُدر لها ان تجري على يديه.. » ولقد كان أنور ما يزال شاباً في الثالثة والثلاثين من العمر عندما تولى وزارة الحربية وقيادة الجيش ، فاعتقد جازماً ان المانيا سوف تربح الحرب وانه خليق ان يكسب لبلاده نصيباً من شرف الانتصار في ميادين القتال ، فقال بعد احدى المناورات العسكرية « ان الجيش العثماني سيغسل عنه العار الذي أورثته اياه حرب البلقان . »[2]

فاذا كان هذا رأي زعيم عربي ظل على ولائه للعثمانيين حتى انتهاء الحرب ، وكان من أصحاب الحظوة لدى اولئك الثلاثة المتسلطين ،

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣٩٠ .

(٢) علي فؤاد باشا ، كيف غزونا مصر ، ص ص ٢٦ و ٢٧ و ٣٤ .

ورأي ضابط تركي كبير عرف أنور وجمال معرفة وثيقة وكان رفيق سلاح لهما . فما بالك بآراء اولئك الذين ذاقوا من مظالم الاتحاديين ؟

وليس من شك في صدق وطنية رجال تركيا الفتاة وشدة غيرتهم على رفع شأن بلادهم ووضعها في مصاف الدول الاوروبية الراقية . ولكن فورة الحماسة والغلو في العنصرية العرقية دفعتهم إلى الانحراف عن مبادىء الحرية والعدالة والمساواة التي رفعوها شعاراً لهم في بادىء الامر ، فلم يلبثوا ان طغوا وبغوا وتجبروا وخنقوا الحريات وجرّوا البلاد إلى الهزيمة .«وفي فترة ثماني سنوات ١٩٠٨ – ١٩١٥ انحدر قادة الاتحاديين كما يبدو من مثاليين إلى غيلان . »[١] وكان من غرور جمال انه تصور ان افتتاح مصر متيسر له ببضعة الاف من الجنود، فهزم هزيمة شنيعة، وكان من غرور انور انه ظنّ نفسه عبقرياً في الفنون الحربية فتولى في كانون الثاني ١٩١٥ قيادة جيش تركي كبير للهجوم على الروس ، ونتج عن ذلك ان لحقت به في موقعة (ساريكاميش) هزيمة ساحقة لم يُصب بمثلها جيش آخر بين جيوش الدول المتحاربة طوال فترة الحرب . وقد استعملت شجاعته وعزيمته اللتان لا شك فيهما حتى اللحظات الاخيرة من الصراع ، لاضعاف وافقار بلاده .[٢]

بذل الاتحاديون جهوداً مخلصة للخروج من سلاسل القيود التي كانت تكبّل البلاد ، فتباحثوا مع الدول الكبرى لوضع علاقاتها معهم على أساس اتفاقيات محددة ؛ وأوفدوا حقي باشا الصدر الاعظم الاسبق إلى لندن في النصف الاول من سنة ١٩١٣ لتحديد مناطق النفوذ البريطانية في خليج البصرة . وأثناء مباحثات لندن عرض الاتراك على الحكومة البريطانية عقد حلف دفاعي بين الدولتين او أن يتاح لهم الدخول في الحلف الثلاثي المعقود بين بريطانيا وروسيا وفرنسا، ولكن السير ادوارد جراي وزير الخارجية البريطانية اعتذر عن قبول العرض في مذكرة مؤرخة في ٢ تموز ١٩١٣ . وكان من رأي السفير البريطاني في

(١) Arnold J. Toynbee, *Acquaintances*, O.U.P., London, 1967, p. 241.

(٢) Anderson, *The Eastern Question*, London 1966, p. 315.

استانبول ان حلفاً كهذا سيؤدي إلى « توحيد اوروبا ضدنـــا وسيكون مصدر ضعف وخطر لنا ولتركيا . » وقد سبق للاتراك ان تقدموا بهذا العرض اثناء غزو الطليان لطرابلس الغرب ، فردت عليهم بريطانيا في حينه بالاعتذار . [1]

وفي تموز ١٩١٤ قام جمال باشا بزيارة رسمية لفرنسا وعرض على الحكومة الفرنسية عقد تحالف معها ومع بريطانيا مشترطاً ان تضمن الدولتان اراضي تركيا من مطامع الروس . ولكن هذا العرض قوبل بالاعتذار بينما كانت نيران الحرب توشك ان تشتعل .

وكان من رأي جمال باشا ان روسيا هي « العدوة الوراثية للامبراطورية العثمانية ، وأقصى ما تطمح اليه هو الاستيلاء على الآستانة ومن المستحيل حملها على العدول عن هذه الأمنية ، ولم تبق للنمسا وايطاليا مطامع اخرى بعد ان أوقعتا بنا كل ما استطاعتا من الاذى ، اما المانيا فهي الدولة الوحيدة التي ترغب في رؤية تركيا عزيزة الجانب ، اذ ان تركيا تشكل كسراً للطوق الحديدي الذي يحاول اعداء المانيا تطويقها به . وقد عرضت علينا تحالفاً على اساس المساواة في الحقوق . » [2] ورأى سادة الدولة العثمانية في ذلك العرض القائم على اساس التساوي بين ند وند ، فرصة نادرة لا بدّ من اغتنامها .

وهكذا أثمرت مساعي المانيا الدائبة التي استمرت عدة اعوام ، فتم التوقيع على معاهدة تحالف سرية بينها وبين تركيا بتاريخ ٢ آب ١٩١٤ اي في اليوم التالي لنشوب الحرب بين المانيا وروسيا . ومع ان المحالفة حتمت على تركيا الاشتراك في الحرب إلى جانب المانيا . الا ان الاتراك رأوا ان استعداداتهم العسكرية غير كافية فاستمهلوا حليفتهم وأعلنوا الحياد وشرعوا في التعبئة العامة بحجة الاحتفاظ بالحياد .

وقام الحلفـــاء بمساع لدى الاتراك بعد اعـــلان الحرب فعرضوا

---

(١) الوثائق البريطانية ... ، المجلد العاشر ، القسم الاول ، لندن ١٩٣٦ ، ص ص ٩٠١ – ٩٠٢ .

(٢) مذكرات جمال باشا ، الترجمة العربية ، القاهرة ١٩٢٣ ، ص ص ١٩٠ – ١٩٢ .

في شهر آب على تركيا التعهد بضمان حيادها وسلامة اراضيها لمدة ٣٠ عاماً اذا وقفت على الحياد مع الوعد بتعديل الامتيازات الاجنبية ، ولكن الاتراك اشترطوا شروطاً من أهمها :

١ — الغاء الامتيازات .

٢ — اعادة الجزر التي استولت عليها اليونان .

٣ — حلّ المسألة المصرية .

٤ — اعطاء تأكيد بان تمتنع روسيا في المستقبل عن التدخل في شؤون تركيا الداخلية .

٥ — الحصول على معونة فعلية من قبل بريطانيا وفرنسا فيما لو شنّت روسيا هجوماً على الاراضي العثمانية .

وعند نشوب الحرب أعلنت بريطانيا حجز الباخرتين الحربيتين « عثمان » و « رشادية » اللتين كانت تركيا قد أوصت على صنعهما في الاحواض البريطانية . وكان ردّ الفعل في نفوس الاتراك عنيفاً جداً رغم ان بريطانيا أعلنت انها ستسلم الباخرتين بعد انتهاء الحرب . وزاد الموقف تعقيداً ان الطرادين الالمانيين « غوبن » و « برسلاو » لجأا بعد ذلك بايام قلائل إلى المياه العثمانية هرباً من البوارج البريطانية . ولم تلبث الحكومة العثمانية أن أعلنت انها ابتاعت الطرادين وأطلقت عليهما اسمين جديدين « ياوس » و « مديلي » وان بحارتهما دخلوا في خدمة السلطان . وعلى الاثر أعفي أمير البحر البريطاني (لمبس) وضباطه من الخدمة وعيّن أمير البحر سوخون الالماني قائداً عاماً للاسطول العثماني .

لقد فسّر الاتحاديون رفض بريطانيا وفرنسا عقد تحالف معهم بان مطامع روسيا في عاصمتهم استانبول وفي المضائق ما تزال قائمة. وبمقارنة بسيطة اكتشفوا ان مصالح بلادهم تكمن في الوقوف إلى جانب المانيا ، فروسيا اقتطعت أراضي شاسعة من ممتلكات الدولة وحرضت الارمن دائماً وشجعت السلافيين في البلقان على الثورات المتتالية ، وفرنسا استولت على الجزائر وتونس ، وبريطانيا استولت على مصر والسودان وشبه جزيرة سيناء وقبرص وعدن وفرضت وجودها في الكويت

والمشيخات الاخرى في خليج البصره . وها هي الدول الثلاث ما تزال تصر على بقاء الامتيازات البغيضة . بينما لم تكن المانيا قد استولت على شبر واحد من اراضي العثمانيين .

اما خلاصة الدوافع التي حدت بالاتحاديين إلى عقد التحالف مع المانيا ثم إلى الدخول في الحرب ؛ فقد عبّر عنها جمال باشا في مذكراته. اذ قال :

« ومما لا ريب فيه ان أملنا الاوحد كان تحرير أنفسنا عن طريق الحرب العالمية من كل القيود والامتيازات التي طالما هدمت استقلالنا وجعلته اسماً بلا مسمى ، لنعيش في المستقبل احراراً مستقلين كسائر الشعوب الحرة المستقلة ، فندخل في بلادنا وبمحض ارادتنا الاصلاحات التي تحتم المقتضيات المحلية ادخالها. وكما ان الغرض الاسمى الذي كنا نرمي اليه انما هو ان نلغي الامتيازات ونقذف بنظام لبنان الاساسي من حالق ، كذلك كنا نريد بمسألة الاصلاحات الأرمنية ان نتخلص من الاتفاقية التي حملنا ضغط روسيا على ابرامها. اننا انما خضنا غمار الحرب أملاً في ان نحيا في المستقبل حياة حرة مستقلة خليقة بشعب ابي . » (١)

وفي اوروبا دارت معارك طاحنة على الجبهتين الشرقية والغربية ، وبسبب تلك المعارك لم يستطع الاتحاديون البقاء على الحياد سوى ثلاثة أشهر فقط . وقد كانت هناك معارضة من قبل المعتدلين داخل الوزارة حتى اللحظات الاخيرة ، وكان جمال باشا نفسه في بادىء الامر من المعارضين للتحالف العسكري مع المانيا بدليل انه لم يحط علماً بمعاهدة التحالف الا بعد توقيعها . وقد شجعت الانتصارات التي أحرزها الالمان ضد الفرنسيين والانكليز والبلجيك في الميدان الغربي وضد الروس في الميدان الشرقي ، اولئك المقتنعين بتفوق المانيا العسكري على أعدائها . ويبدو أن أنور ورفاقه لم يستطيعوا تفسير الهزيمة التي حلّت بالالمان في معركة المارن (ايلول ١٩١٤) على انها تعني ان تفوق

---

(١) المصدر السابق ، ص ص ٤٩٩ — ٥٠٠ .

الجيوش الالمانية ليس سوى وهم من الاوهام . بينما كان من شدة شعور الالمان بالضغط انهم أخذوا بدورهم يلحّون على حليفتهم تركيا كي تدخل الحرب إلى جانبهم من أجل تخفيف الضغط عنهم ولحمل روسيا وبريطانيا على ابقاء قوات كبيرة في القوقاز ومصر . وبلـغ من شدة ذلك الالحاح ان مساعي السفير الالماني في استانبول بلغت « صفة الامر » كما يقول جمال باشا .

في ٩ ايلول ١٩١٤ عمد الاتحاديون إلى الغاء الامتيازات الاجنبية والنظام الخاص بجبل لبنان.(١) واستفحل شأن الالمان في الجيش والاسطول، ثم سمح انور لامير البحر الالماني سوخون ان يتجول بالطرادين الالمانيين في البحر الأسود ، فاغتنم هذه الفرصة وهاجم الاسطول الروسي والموانىء الروسية ، كي يضطر الدولة العثمانية إلى الاشتباك في الحرب . وعلى الاثر طلبت روسيا مطالب ثقيلة بحثها مجلس الوزراء العثماني. ورفض مجلس الوزراء العثماني المطالب الروسية فأعلنت روسيا الحرب على تركيا وتبعتها فرنسا وبريطانيا في ذلك . ولم يوافق اربعة من الوزراء على دخول الحرب فاستقالوا : ومن جملتهم الوزير العربي الوحيد سليمان البستاني وزير الزراعة . (٢)

العرب والترك عند بدء الحرب : رأينا كيف زجّ حفنة من زعماء حزب الاتحاد والترقي بالدولة العثمانية في غمار الحرب العظمى . فلقد استتب الامر لهذا الحزب بعد ان طورد المعارضون مطاردة عنيفة حتى أصبحوا بين شريد في الخارج او سجين . ونتيجة الأساليب الانتخابية الملتوية ، أصبحت الأكثرية المطلقة في مجلس المبعوثان تتألف من

---

(١) النظام الخاص بلبنان كان نتيجة ضغط الدول الكبرى، وفرنسا على الاخص، على الحكومة العثمانية بعد مذابح سنة ١٨٦٠ التي قتل خلالها كثيرون من المسيحيين في لبنان ودمشق .

(٢) الوزراء الآخرون الذين استقالوا لعدم موافقتهم على دخول الحرب هم جاويد بك وزير المالية، وشوروك سولو محمود باشا وزير النافعة، واسكان افندي وزير البريد والتلغراف .

الاتحاديين ومن مشايعيهم يوافقون على ما تراه قيادة الحزب سواء كان ذلك خطأ ام صواباً .

وفيما نعلم حتى الان لم يجرؤ — او لم يهتم — أحد من زعماء الاقطار العثمانية على معارضة دخول الدولة في الحرب ، اللهم سوى الشريف . فعندما عاد ابناه عبدالله وفيصل في شهر آب ١٩١٤ إلى الحجاز وحدثاه عن الاتجاه الواضح عند زعماء الاتحاديين نحو الدخول في الحرب إلى جانب المانيا ، بادر فبعث إلى السلطان محمد شاد برسالة استعرض فيها حالة اوروبا ، وقال في رسالته :

تعلمون جلالتكم ان الحرب البلقانية قد انتهت على ما انتهت عليه ، وان الدولة الان في خاجة إلى تجهيزات واستكمالات حربية لم تتم إلى الآن ، وانه في الدخول إلى جانب المانيا الخطر العظيم ، حيث اسلحة الدولة كلها من المانيا وكذلك عتاد هذه الاسلحة ، وان المعامل بالطوبخانة العثمانية لا تكفي امداد الجيوش بالعتاد اللازم ، ولا تستطيع امداد الجيوش بما يمكن ان تخسره من مدافع وأنواع الاسلحة الاخرى . عدا هذا فالاقطار المترامية إلى الجنوب من جسم الدولة ، كالبصرة واليمن والحجاز ، هذه البلاد المحاطة من كل ناحية بقوات مستعدة من الدول المعادية البحرية ستصبح في أحرج المواقف . وربما اتكلت الدولة في الدفاع على حمية أهلها وهم ليسوا منظمين ولا مسلحين بالشكل الذي يستطيعون معه مقابلة جيوش اوروبا المنظمة . وانني استحلف جلالتكم بالله ان لا تدخلوا الحرب ، وان تعلموا بانني اعتقد في كل من يرى الحرب إلى جانب الالمان عدم التميز والخيانة الكبرى . [١]

ولم تكن هذه الرسالة التحذير الوحيد الذي قدمه الشريف للسلطان وحكومته في استانبول . فعندما اعتزم الاتحاديون ان يدخلوا الحرب إلى جانب المانيا ، جاء الوالي وهيب بك إلى الشريف يقول له ان وزيري الداخلية والحربية يرغبان في استطلاع رأي الشريف في اشهار

---

(١) الملك عبد الله ، مذكراتي، ص ص ٩٨ — ٩٩ .

الحرب ضد روسيا وبريطانيا . فقال الشريف انه لا يرى الاجابة شفوياً على سؤال شفوي بل يود ان يُوجه اليه السؤال كتابياً حتى يعطي عليه جواباً مكتوباً . ولكنه قال للوالي « اني لست بالخائن حتى اشير على الدولة بأن تدخل هذه الحرب التي لا ناقة لها فيها ولا جمل ، ونحن محاطون هنا بالدول العظمى البحرية . وانتم ستشغلكم جيوش روسيا وجيوش الانكليز بمصر مع انكم غير متصلين بحليفتكم المانيا من البر ، وصربيا معادية ورومانيا معادية . »

وكان جواب الوالي : هي ورقة زرقاء نريد ان نقذف بها على ميز الميسر (أي مائدة القمار) .

وهنا هتف الشريف بعبارة ذات معنى كبير : عجيب ! أبالامة تقامرون؟

ولم يلبث الشريف ان تلقى في شهر آب برقية من الصدر الاعظم وبرقية من وزير الحربية يسألانه عن رأيه في دخول الحرب إلى جانب المانيا وعما اذا كان باستطاعته تأمين الهدوء في عسير واليمن اذا دخلت الدولة الحرب. فأحالهما على رسالته السابقة للسلطان ثم نصحهما بعدم دخول الحرب ضد روسيا وفرنسا وبريطانيا لان عملاً كهذا «خرق» عظيم وخيانة للامانة . وان البلاد بأجمعها لا ترضى عن حرب ضد هذه الدول ، وانهم إن كانوا عزموا على هذا، فقبل نشوب الحرب يجب عليهم أن يزودوا الجيش الخامس في اليمن بما يكفيه لثلاث سنوات وباحتياطي لما يطلب من مجاهدين ؛ وكذلك العمل للفرقة العسكرية بعسير وكذلك بالحجاز . وانه يجب الاسراع في هذه المدة بخزن المؤن في الولايات لمدة لا تقل عن خمس سنوات ، وان لم يفعلوا هذا فهم سيضعون هذه البلاد في أحرج مركز قد يفضي بهم إلى ما لا تحمد عقباه » .

وكان الجواب الذي تلقاه الشريف على هذه النصيحة الأمينة المخلصة: ان الدولة قد فكرت في كل شيء . وشكراً . [1]

---

(١) الملك عبد الله، مذكراتي، ص ص ٩٩ — ١٠٠. وتقرير ستورس عن حديث الشريف له وللكولونيل ولسون والكولونيل بريمون وممثل ايطاليا في جدة يوم ١٠ كانون الأول ١٩١٦ (P.R.O., F.O. 686/6, Part I) .

ولكن يظهر ان الاتحاديين اعتقدوا أن الشريف لا يعبرّ فيما قاله عن الرأي العام في البلاد ، فاكتفوا بالاغلبية الساحقة في مجلسي المبعوثان والاعيان ، التي قال جمال باشا انها وافقت على الحرب وأعربت عن ثقتها بالحكومة ، ومن هنا اعتبروا ان الامة بأسرها تؤيد الحكومة في سياستها الخارجية .[1] ولو عقـــل الاتحاديون لادركوا ان مجلس نواب نجح أكثرية أعضائه بفعل الضغط والتزوير لا يمكن أن يكون أكثر من « خاتم مطاط » يستعمله أصحابه كلما اقتضى الامر وانه لذلك لا يمكن ان يعبّر عن رأي الامة . هذا مع العلم ان دورة مجلس المبعوثان انتهت يوم ٧ آب ١٩١٤ وعلى أثر انتهائها عاد النواب إلى مناطقهم . وقد ساق طلعت وانور الدولة إلى الحرب ثم عرضوا على النواب وجهة النظر الرسمية من انهم اضطروا اضطراراً لخوض غمارها ، فوافق النواب على اساس سياسة الامر الواقع .

ومهما يكن من أمر ، فان العرب ، عندما اشتركت الدولة العثمانية في الحرب،عقدوا العزم ان يتناسوا خلافاتهم مع الاتراك وان يشدوا أزر الدولة بكل الوسائـــل ويتعاونوا معها بكل ولاء واخـــلاص . وقد اندفع شبان العرب للخدمة في الجيش واوقفوا نشاطاتهم السياسية التي تتعارض مع التعاون المطلق في ظروف الحرب وتوقفوا عن المطالبة بالاصلاحات . يتضح كل هذا من رسائل بعض الزعماء العرب التي تعود إلى تلك الفترة . فقد كتب عبد الكريم الخليل رئيس المنتدى الادبي في استانبول رسالة خاصة بتاريخ ٦ آب ١٩١٤ إلى احد اصدقائه في مصر قال فيها :

> انا على وشك السفر إلى سورية لان التدابير التي اضطرت حكومتنا السنية إلى اتخاذها درأ لخطر الحرب العظمى ، تقضي على كل عثماني مخلص لدولته وامته ان يبذل جهده في سبيل تنفيذها على أحسن ما يرام . وستكون مهمتي في سورية جمع كلمة الامة على شد أزر الحكومة والسعي لمنع كل ما يحتمل وقوعه من أسباب النفور بين العناصر العثمانية . وقد وعدتني الحكومة بأن تشد أزري في هذه المهمة

---

(١) أحمد جمال باشا ، مذكرات ، ص ٢٣٢ .

وتجيبني إلى كل المطالب العادلة التي أطلبها منها باسم الامة العربية او باسم الافراد من أبنائها . فلتكن كلنا يداً واحدة لانقاذ الدولة من عواقب الحرب الاوروبية واظهار الوحدة العثمانية بأتم مظاهرها لتتمكن من منع اعتداء الدول الغربية علينا والخروج من هذه الازمة الحرجة أرفع شأناً وأعلى مقاماً . (1)

وكتب احمد مختار بيهم أحد زعماء بيروت الاصلاحيين وعضو مؤتمر باريس العربي ، بتاريخ ٢٦ تشرين الاول ١٩١٤ اي قبل خمسة ايام فقط من دخول الدولة العثمانية في الحرب . وقد جاء في هذه الرسالة :

ألغينا أحزابنا السياسية وتناسينا اختلافاتنا الداخلية لأن المصلحة المشتركة تقضي بذلك . وسوف يرى اخواننا الترك ولا سيما الاتحاديون من أعمالنا في هذه الحرب ما يظهر لهم عظم اخلاصنا للعرش العثماني وتفانينا في خدمة الوطن المشترك . ونحن الان على أحسن ما يرام مع حزب الحكومة الذي أظهر وطنية عظيمة في هذه الأزمة الشديدة وسنظل كذلك ان شاء الله إلى الابد . (2)

لقد تناسى العرب كل خلافاتهم مع الترك بعد دخول الدولةالعثمانية في الحرب ، وانضموا اليهم قلباً وقالباً دفاعاً عن الوطن المشترك ، فخاض جنودهم غمار المعارك في العراق والقوقاس والدردنيل والقنال ومات منهم عشرات الالوف في ميادين القتال واشتركت الامة العربية مع جميع الشعوب العثمانية في دفع الضرائب والاموال ... » (3)

وقد جاء في خطاب وجهه السيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار وأحد أركان حزب اللامركزية إلى مسلمي سورية ، ونشر في جريدة الاهرام بتاريخ ١٦ ايلول ١٩١٤ قوله :

أشكرلكم ما أظهرتموه من النجدة والهمة في الاخلاص والطاعة للدولة وبذل الأنفس والاموال والثمرات لها ، والكف عن طلب الاصلاح منها ، وتقديركم

---

(١) أحد أعضاء الجمعيات العربية ، ثورة العرب ، ص ١٢٩ .
(٢) المصدر السابق، ص ١٢٨ .
(٣) المصدر السابق، ص ١٣٦ .

الحال الحاضرة قدرها ، حتى أنكم ساهمتم في هذا أرقى أمم الأرض التي سكتت عن جميع مطالبها ومنازعاتها الداخلية ... (١)

وبعد حوالي أربعين عاماً كتب أحد أعضاء الجمعيات السرية يقول: «وأستطيع أن أجزم الان بأنه لم يكن بين العرب يوم اعلان تلك الحرب من فكر في الانتقاض على الترك او الاساءة اليهم ، بل كان تفكيرهم كله منصباً على محاولة منعهم من الاشتراك فيها والتعاون معهم على اجتناب ويلاتها ودرء أخطارها .» (٢)

وفي شباط ١٩١٥ نرى الامير سعيد الجزائري أحد زعماء سورية المحافظين يحض الشريف على ضرورة تأييد الدولة ، رغم اكتشاف مؤامرة وهيب لاغتيال الشريف ، ورغم ان الامير سعيد كان في طريق عودته من القنفذة إلى دمشق بعد ان تغاضب والضابط الالماني فافيوس . و قد سجل الامير سعيد نص الحوار الذي دار بينهما حول هذا الموضوع :

سعيد – انت تعلم ان الصليب يحارب الهلال اليوم ، وانت ابن رسول الله ، فيجب ان تكون على وفاق مع الخليفة العثماني .

الشريف – ولكن الاتحاديين كفرة لا يتبعون تعاليم الدين ، ولقد قاوموني وحاول الوالي وهيب باشا قتلي ...

سعيد – ولكنك يا شريف انت ثاني رجل في الدولة العلية بعد الحكومة ، واذا حدث للحكومة حادث فلا أحق منك ان يتقلدها ، لنسبك من رسول الله ولمقامك العظيم عند جميع المسلمين . ومن لنا امير غيرك اذا أصيب الخليفة ؟

الشريف – ابداً ! ابداً ! لا أطمع بالملك ، ولا أطمع بمنصب يزيد عن حماية الكعبة الشريفة .

وانتهت المحادثة بان فوّض الشريف الامير سعيد ان يعمل على تحسين العلاقات بينه وبين جمال باشا .

وقال الامير سعيد ان الشريف بلغ به الحنق والغيظ أقصى حد حتى

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٣٧ .
(٢) أسعد داغر ، مذكراتي على هامش القضية العربية ، ص ٧٠ .

ان اعضاءه اخذت تختلج وهو يتحدث عن مؤامرة وهيب لاغتياله .[1]

جمال باشا في سورية : لم يكن أحمد جمال باشا يحتل بين زعماء الاتحاديين مركزاً رئيسياً ، بدليل ان توقيع المعاهدة مع المانيا يوم ٢ آب ١٩١٤ تمّ دون علمه . وقيل انه كان معارضاً لدخول الحرب إلى جانب المانيا ، ولكن موافقته السريعة على المعاهدة التي تمت دون علمه ، وعلى الحرب التي أشعل شرارتها أنور باشا والاميرال سوخون تدل اما على عدم معارضته او على عدم تقيده بمبادىء سلوك ثابتة .

وبعد اعلان الحرب بعشرة ايام عُيّن جمال باشا قائداً للجيش الرابع في سورية مع احتفاظه بمنصب وزير البحرية . ويبدو أن أنور باشا وزير الحربية ووكيل القائد العام (القائد العام هو السلطان) أراد ان يتولى هو قيادة الجيش الذي سيهاجم روسيا في القفقاس وأن يرمي البريطانيين في مصر بزعيم آخر من زعماء الاتحاديين فاختار جمال باشا لهذه المهمة. وقيل ان انور وطلعت أرادا ان يتخلصا من جمال خوفاً من غدره.

لقد أصبحت سورية ذات أهمية عظمى بعد اشتراك الدولة في الحرب . فالحصار البحري الذي ضربه الحلفاء على السواحل لم يبق سبيلاً للمواصلات بين الأناضول وسائر بلاد العرب ، الا بواسطة الطرق البرية . فولايات البصرة وبغداد والموصل تعتمد على طريق حلب ، وسائر ارجاء الجزيرة العربية تعتمد على الطرق المارة بدمشق . ومن هنا رأى مجلس الوزراء العثماني ان يعهد بالمحافظة على هذه المنطقة المهمة ذات الشرايين الحيوية إلى قائد قوي الشكيمة مع منحه سلطات فوق العادة يستطيع بواسطتها ان ينظم المسائل الادارية والاقتصادية وفق متطلبات الحركات العسكرية . وقد وقع الاختيار على جمال باشا الذي رؤي ان الصفات المطلوبة تتوافر في شخصه .

ومهما يكن من أمر فان أنور باشا دعى جمالا وناشده باسم الوطن ان يوافق على تولي قيادة الجيش الرابع في سورية وتنفيذ عملية الهجوم على قناة السويس . ووافق جمال باشا على عرض زميله انور ، ولم يلبث

(٣) الأمير سعيد الجزائري ، جهاد نصف قرن ، ص ص ٥٤ — ٦٢ .

ان غادر استانبول يوم ٢١ تشرين الثاني قاصداً سورية فبلغ دمشق يوم ٥ كانون الاول . وكان يتمتع بسلطات واسعة ظل يحكم سوريا بموجبها مدة ثلاث سنوات حكماً يكاد يكون مطلقاً .

حلّ جمال باشا كقائد للجيش الرابع محل زكي باشا الحلبي الذي كان أحد الضباط العرب القلائل ممن يحملون رتبة لواء في الجيش العثماني . وكان ذنب زكي باشا، وهو من خريجي الكليات العسكرية العالية في المانيا ، انه اعتذر عن الموافقة على القيام بحملة سيناء وقناة السويس ، اذ كان من رأيه ، أن من المستحيل نجاح الحملة بالاستعدادات العسكرية الهزيلة التي كانت الدولة العثمانية تمتلكها حينذاك . واشار إلى ضرورة مدّ خط سكة الحديد في الطريق التي سيسلكها الجيش الزاحف لضمان تموينه وارسال التعزيزات (وهذا ما فعله الجيش الانكليزي في ١٩١٦ اذ أخذ يزحف ويمد سكة الحديد في المسافات التي يستولي عليها) . اما كيف اراد انور باشا ان يغزو مصر عبر منطقة شاسعة تمتد ٥٠٠ كيلومتر – من نابلس إلى قناة السويس – دون ان يوفر للقوات الزاحفة خط مواصلات فعّال وتموين ثابت ، فمسألة يُعتقد ان الذي أوصى بها لم يكن سوى الكولونيل فون كريس الالماني الذي كان يبحث عن وسيلة يستطيع العثمانيون بواسطتها تخفيف الضغط عن بلاده الام : المانيا . لذلك كان زكي الحلبي يرى ان هجوماً دون استعدادات كافية لن يكون نصيبه الا الفشل الذريع ، وأن الأجدر بالقيادة العامة ان تعزز أسباب الدفاع عن سورية في وجه القوات التي قد يعمد الانكليز او الفرنسيون إلى انزالها بدل الاقدام على مغامرة عسكرية لا يتوافر فيها الحد الادنى من الشروط الضرورية .

وكانت مكافاة زكي الحلبي على رأيه العسكري السليم انه أُعفي من قيادة الجيش الرابع وأرسل إلى المانيا بصفة مندوب عسكري لدى القيادة العامة الالمانية. وفي اليوم الذي وصل فيه جمال باشا إلى دمشق غادرها زكي باشا وسار به القطار ساكناً ساكتاً ، لم يشعر بخبره الا قليل من الناس .[1]

---

(١) علي فؤاد ، كيف غزونا مصر ، ص ٥٣ .

لقي جمال باشا في سورية أثناء مروره من حلب إلى حماه إلى حمص فبعلبك فدمشق حفاوة بالغة وتكريماً عظيماً . وكان الشعراء يتلون قصائد الترحيب به . وخلع عليه الناس لقب « فاتح مصر » . وكان يبدو لمن يحيطون به واثقاً كل الثقة من انه سيحقق تلك الامنية التي تجول في اذهان الناس . وقد وصف علي فؤاد بك رئيس اركان حرب جمال باشا الذي رافقه في هذه الرحلة حفاوة الأهلين في المدن التي مروا بها ، فقال:

وقد استقبلنا في دمشق استقبالا حافلا ليس فيه زيادة لمستزيد ، فأزينت المدينة احتفاء بقدوم فاتح مصر وتراكض الالوف من الناس إلى موقف القطار ، وفيهم رجال الدولة وقادة جندها وسادة البلاد وعلماؤها وخطباؤها وشعراؤها وقناصل الحكومات فيها ، وذبحت الاضاحي وألقيت القصائد التي هي أشبه شيء بأحاديث المناجاة وانصرف الناس مبتهجين متحمسين، وكان يوماً لا نظير له . [١]

ووصف جمال نفسه ترحيب أهالي سورية بقدومه فقال انهم « أظهروا وطنية كبرى واخلاصاً ، وقد امتلأ قلبي سروراً اذ رأيت وشعرت ان غالبية العرب لا تحجم عن بذل ما يطلب منها من التضحيات في تلك الحرب لتحرير الخلافة الاسلامية . » [٢]

وبمجرد وصوله إلى دمشق أخذ جمال باشا يتقرب من الاصلاحيين العرب ويسعى لاستمالتهم فاتصل بزعمائهم وقربهم اليه ، وخاصة عبد الكريم الخليل رئيس المنتدى الادبي الذي أوعز اليه الاتحاديون ان يغادر استانبول ويذهب إلى سورية كي يحضّ المواطنين فيها على تعضيد الحكومة في سياستها وعلى الانخراط في سلك الجندية . وأصبح عبد الكريم الخليل قريباً جداً من جمال باشا خاصة بعد ان أخذ يجمع المتطوعين من ابناء طائفته (الشيعة) في جهات صور وصيدا للدفاع عن السواحل السورية ضد كل غزو يحتمل ان يقوم به الاعداء . وأخذت جريدة المقتبس

---

(١) المصدر السابق ، ص ص ٥٢ — ٥٣ .
(٢) جمال باشا ، مذكرات ، ص ٢٤٩ .

لصاحبهامحمد كرد علي وجريدة المفيد لصاحبها عبد الغني العريسي ،[٢] (وكانت هذه جريدة جمعية العربية الفتاة) تحضان المواطنين على تعضيد الحكومة ومؤازرتها .

وفي اوائل شهر كانون الثاني ١٩١٥ ألقى جمال خطاباً في حفلة حضرها عدد من رجال العرب وشبانهم . وقد جاء في هذا الخطاب قوله يخاطب ابناء العرب :

« اعملوا على ترقية العرب والعروبة . جددوا مدنيتكم ... ان البرنامج الذي عقد حزبنا عزيمته على تنفيذه لاصلاح حالة العرب لأوسع كثيراً مما قد يخطر ببالكم . ولست لاوجس شراً من بقاء العرب والترك متحدين وخاضعين لخليفة واحد بل من انفصال أحدهما عن الآخر كشعبين مستقلين . يجب علينا ان نعمل ونعمل كثيراً لادراك هذه الغـــاية .. واليوم أراني قادراً على ان اؤكد لكم ان الامـــاني التركية والاماني العربية لا تتعارضان مطلقاً . فالترك والعرب ليسوا سوى اخوان في غايتهم الوطنية وربما أكمل بعضهم مجهود بعض . ان غرض رجال تركيا الفتاة هو ايقاظ الشعور الوطني في الامة التركية وتدريب مواطنيهم على العمل وتحريرهم من النير السلافي وتقويتهم . »

ثم دعا الشعبين العربي والتركي إلى الابتعاد عن النزاع والخلاف فيما بينهما باعتبار انهما يشكلان عمودين للاسلام وخلافهما سوف يؤدي إلى سقوطهما . لذلك يجب ان يحب العرب والترك بعضهم بعضاً ليجنوا ثمار مجهوداتهم المشتركة .[١]

ولكن جمال باشا عمد في الليلة ذاتها إلى اصدار أمر بتفريق مجموعة تتألف من ثمانين شاباً عربياً كانوا يتلقون تدريباً عسكرياً ليكونوا ضباطاً. فقد أزعجته أناشيدهم الوطنية الحماسية في تلك الليلة فأمر بحل المجموعة وارسال أفرادها إلى ميادين القتال في الدردنيل والقوقاس وبأن يوضعوا في خطوط النار . وبعد انتهاء الحرب لم يعد من هذه المجموعة سوى

---

(١) جمال باشا ، مذكرات ، ص ص ٢٤٠ - ٢٤٣ .

افراد قلائل. كان ذلك الامر ناتجاً عن ان اولئك الشبان أنشدوا النشيد الوطني العربي :

نحن جند الله شبان البلاد نكره الذل ونأبى الاضطهاد

بأصوات جهورية حتى كاد السقف يتزلزل فوق الرؤوس ، كما قال جمال .

أحدث خطاب جمال باشا – كما يقول – تأثيراً كبيراً في النفوس وقابله الاصلاحيون بالارتياح التام . ثم جاءه أعيان دمشق جماعات جماعات وأقسموا بالقرآن ان يكونوا على ولاء تام للحكومة وان يبذلوا كل ما في الوسع من مساعدة دفاعاً عن حقوق الاسلام ضد الانكليز والفرنسيين . ويقول ان سياسته التي أراد اتباعها في سورية كانت سياسة صفح وتسامح، ولم يترك فرصة الا انتهزها ولا وسيلة الا لجأ اليها لتوحيد الأفكار والمشاعر في الأقطار العربية كلها .

ولم تقتصر صلاحيات جمال على قيادة الجيش الرابع ، فقد تلقى عند وصوله إلى دمشق برقية من وزير الحربية يضع فيها الفرقة العسكرية المرابطة في الحجاز تحت تصرفه ، فأبرق بدوره إلى وهيب بك يأمره بالحضور إلى معان مع الكتائب النظامية والمتطوعين العرب من أجل الاشتراك في الحملة ضد الانكليز في مصر .

ويقول جمال باشا انه طلب من الشريف حسين ان يعزز فرقة الحجاز بقوة مساعدة بقيادة أحد أبنائه أو أن يتولى هو قيادة الحملة القادمة من الحجاز – من نظاميين ومتطوعين – ويلحق بالجيش. فأجاب الشريف انه سيرسل نجله الأكبر علي على رأس المتطوعين ليرافق وهيب والقوات النظامية .

وهكذا رأى الشريف ان يغض الطرف عن موقف البرودة الذي كان بينه وبين الاتحاديين عموماً، ورأى الاتحاديون أن يتجاوزوا عن الشكوك التي كانت تساورهم في درجة اخلاص الشريف . وعندما أبلغ « انهم يتشرفون بتفويض قيادة التجريدة اليه ، أجاب ان الافضل

عنده ان لا يبرح مكة ليدافع عن الخطة الحجازية اذا اعتدى عليها الخصوم ». [1]

وفي ١٥ كانون الاول ١٩١٤ غادرت فرقة الحجاز مكة بقيادة وهيب وغادرها المتطوعون بقيادة الامير علي . وبلغت التجريدة المدينة المنورة بعد اسبوعين . وهنا فضّل الامير علي ان يبقى في المدينة للدفاع عنها فأجيب بالموافقة على مضض ، بينما واصل النظاميون زحفهم شمالاً إلى معان .

ويقول علي فؤاد ان الاتراك لم يكونوا مطمئنين كل الاطمئنان لموقف الشريف حسين منهم – رغم انه عاهدهم على الدفاع عن الحجاز . ولكنهم رأوا ان يتناسوا ما كان بينه وبينهم من خلاف وان يحملوا عرضه على محمل النية الحسنة ويستفيدوا من اشتراكه عملياً في الحرب ، بالنظر إلى حراجة الموقف واحتياجهم لهدوء البلاد في الداخل من أجل توجيه القوى والموارد المتوافرة لديهم لانجاح الحملة على مصر . ولما لم يكن في وسعهم ان يفعلوا شيئاً ضد الشريف لو أعلن الثورة حينذاك ، فقد كان من رأي علي فؤاد ان يغتنموا الفرصة ويسرعوا بانقاذ قواتهم النظامية ، بحجة تجريدة مصر ، حتى لا تبقى دون تموين وتعزيز اذا ما وقعت الثورة . وهكذا فان وزن جميع الاحتمالات جعل الاتراك يعتقدون ان الحكمة وأصالة الرأي تقضيان عليهم بمعاملة الشريف بالتي هي أحسن واجلال رأيه ومعاملته بالحرمة والثقة . وانطلاقاً من هذا الرأي لم يبق في الحجاز من القوات النظامية سوى لواء ضعيف . [2]

وسارت الاستعدادات للحملة على قدم وساق ، وجمع الاتراك عدداً كبيراً من الجمال ؛ وساعد ابن السعود في تزويدهم بالجمال من أقصى أعماق نجـــد وكذلك فعل ابن الرشيد . وفي فجر يوم ٢ شباط ١٩١٥ وقع الهجوم على القناة واستمر القتال طوال النهار ، ولكن لم يكن هناك بصيص من الامل في النجاح ؛ فأصدر جمال باشا أمره

---

(١) علي فؤاد ، كيف غزونا مصر ، ص ٨٠ .
(٢) المصدر السابق ، ص ص ٧٦ – ٨٠ .

بالانسحاب إلى بير السبع . وكانت تراود الاتحاديين الآمال بان تتمكن قواتهم من الوصول على حين غرّة إلى الضفة الغربية من قناة السويس وتحتفظ برأس جسر عليها مدة من الوقت تتيح للمصريين ان يهبّوا ثائرين في وجه المحتلين البريطانيين ، ولكن العدد القليل من الجنود الذين استطاعوا عبور القناة وقعوا في الأسر ، ولم تقم في مصر الثورة المتوقعة .

وقد أشاد جمال باشا ببسالة الجنود العرب الذين اشتركوا في الحملة بقوله « وقد ساد بين رجال الحملة – لا فرق بين الاتراك والعرب – شعور العطف الاخوي . ولم يكن بينهم من يضنّ بحياته دفاعاً عن اخوانه . والواقع ان الحملة الاولى على القناة كانت برهاناً ساطعاً على ان غالبية العرب الساحقة انضموا إلى الخلافة بقلوبهم وجوارحهم . اما العرب الذين تألفت منهم الفرقة الخامسة والعشرون فقد أدّوا واجبهم بمنتهى الاهتمام والاخلاص ... ولكن مسألة المسائل التي تعتبر على جانب عظيم من الأهمية هي انه لم تحدث حادثة خيانة واحدة او فرار بين عرب سورية وفلسطين الذين تكونت منهم وحدهم فرق المؤونة . »[1]

وعاد جمال باشا إلى دمشق بعد اخفاقه الذريع . ولكن اخفاقه لم يحل بينه وبين الظهور بمظهر الفاتح المنتصر « فأمر بتزيين دمشق بالرايات والانوار الكهربائية واستعرض الجيش . »[2]

ولكن مذكرات جمال التي كتبها في المانيا سنة ١٩١٩ ليبرر بها سياسته الخرقاء ، تلك السياسة التي كانت السبب الأكبر في فصل العرب عن الاتراك ، لا يمكن ان تؤخذ وثيقة صادقة أمينة عن تطورات الوضع في سورية وبلاد العرب . ومن الواضح ان جمال سار على سياسة التعاون والوئام مع العرب خلال الاشهر الستة الاولى بعد توليه القيادة في سوريا ، ولكنه لم يلبث ان قلب للعرب ظهر المجن وظهر على حقيقة طبيعته الشرسة

---

(١) جمال باشا ، مذكرات ، ص ٢٦٤ و ص ٢٨٠ .

(٢) فائز الغصين ، مذكرات (القسم الثاني) ، جريدة القبس ، دمشق ، ١٩٣٥

الغادرة في نيسان ١٩١٥ [1] . فلماذا بدّل مسلكه ؟ وما هي الدوافع التي أملت عليه اتباع سياسة البطش والشدة دون مبرر ؟ يبدو جلياً ان الدوافع التي دفعت جمال هي الدوافع ذاتها التي تملي على الحكام المتسلطين اتخاذ اجراءات مماثلة كلما حاق بهم الفشل والخذلان : يلجأون إلى الاقتصاص من المواطنين الأبرياء لتبرير فشلهم ولتحويل الأنظار عن سوء تدبيرهم ولالقاء عبء الملامة على عواتق الاخرين .

وهكذا أدّى إخفاق جمال في قناة السويس إلى البطش بالزعماء الاصلاحيين في سورية ، اذ كانوا هم أكثر المواطنين ملاءمة ليكونوا الضحايا التي تتحمل وزر إخفاقه وهزيمته .

عهـــد الارهاب : ما زال احمد جمال باشا يُعرف حتى الان في سورية بلقب «السفّاح» وهو لقب أطلق عليه بعد ان تحوّل عن سياسة التعاون والثقة بالعرب إلى سياسة البطش والقتل والتشريد والارهاب . وقد برهنت الأحداث فيما بعد ان سياسة اللين التي اتبعها جمال في بادىء الامر لم تكن سوى مرحلة مؤقتة أثناء الحملة على مصر . اما بعد فشل الحملة فقد أخذ جمال ينفذ المشروعين اللذين جاء يحملهما معه بالاتفاق مع طلعت وأنور « الاول الغاء امتيازات متصرفية جبل لبنان واخضاع سكانها للسيادة العثمانية المباشرة، والثاني القضاء على الفكرة العربية التي اختمرت في النفوس وتتريك العرب . » [2]

وقد بدأ جمال عهـــد الارهاب بأن عمـــد في شهر نيسان ١٩١٥ الى اعتقال بعض الشبان العرب والزعماء الاصلاحيين وإحالتهم للمحاكمة امام محكمة عسكرية الفها لهذه الغاية في بلدة (عاليه) بلبنان . وجرت

---

(١) تقول بعض المصادر ان اعتقال رجال القافلة الأولى بدأ في شهر نيسان ١٩١٥ ، و ليس في حزيران كما قال جمال في مذكراته – راجع : أدهم آل جندي ، شهداء الحرب العالمية الأولى ، دمشق ، ١٩٦٠ ، ص ٢٠٢

(٢) عزيز بك (رئيس استخبارات الجيش الرابع)، سورية ولبنان في الحرب العالمية ، تعريب فؤاد الميداني ، ص ١٢٨ .

المحاكمات بصورة سرية فلم يطلع أحد على ما دار فيها وما وجّه خلالها للمتهمين من تهم . وتوقع الناس ان يُطلق سراح المعتقلين بعد فترة وجيزة لان احداً لم يكن يعرف عنهم ما يستوجب الادانة ولان بعضهم كانوا يعتبرون من اصدقاء جمال باشا نفسه ومن المتعاونين معه قلباً وقالباً ، ولكن دهشة الناس كانت عظيمة حقاً عندما أعلن نبأ تنفيذ الاعدام شنقاً في ساحة البرج في بيروت بأحد عشر شخصاً صباح يوم ٢١ آب ١٩١٥ بقرار أصدرته المحكمة العسكرية وصدّق عليه جمال باشا . وهم : عبد الكريم الخليل ، صالح حيدر ، مسلّم عابدين ، نايف تللو ، محمود المحمصاني ، محمد المحمصاني ، عبد القادر الخرسا ، محمود العجم ، سليم عبد الهادي، نور الدين القاضي ، علي الارمنازي .

وحكم بالاعدام ايضاً على حافظ السعيد (نائب يافا في مجلس المبعوثان) والشيخ سعيد الكرمي (مفتي قضاء طولكرم) ولكن خُفّض الحكم إلى السجن المؤبد لتقدمهما في السن . وقد مات الاول في السجن . وبينما كان حسن حمّاد في طريقه للمثول أمام المحكمة — بسبب تأخر وصول اشعار المحكمة بطلبه — قرأ اسمه في الصحف بين من صدر الحكم باعدامهم ، فتوارى عن الانظار في دمشق حتى انتهت الحرب . [1]

وقد حكمت المحكمة العسكرية بالاعدام غيابياً على أكثر من سبعين شخصاً من أبناء سورية ولبنان وفلسطين ، كان أكثرهم يقيم في مصر .

وكان لتنفيذ الأحكـــام في هؤلاء الرجال رجّة عظيمة في بلاد الشام ، فقد كان بعضهم ينتمي إلى عائلات كبيرة (مثل صالح حيدر رئيس بلدية بعلبك وسليم عبد الهادي) بينما كان عبد الكريم الخليل قد أحرز شهرة واسعة ومكانة مرموقة في استانبول كرئيس للمنتدى الادبي . اما محمد المحمصاني فقد كان خريج مدرسة الحقوق بباريس ومحرر جريدة المفيد وأحد مؤسسي جمعية الفتاة. وكان علي الارمنازي

---

(١) روى الأستاذ أكرم زعيتر قصة حسن حماد المثيرة في خمسة اعداد من جريدة « الحياة » البيروتية ، حزيران ١٩٦٣ .

يصدر جريدة العاصي في حماه . ووقع النبأ على جماهير الناس وقوع الصاعقة، اذ لم يصدق أحد إن هؤلاء الشبان من الخونة .

وكانت السلطات العثمانية قد قامت بعد اشتراكها في الحرب بتفتيش قنصليات بريطانيا وفرنسا في دمشق وبيروت . ولم تجد السلطات في قنصليّي بريطانيا اية اوراق ، اما في قنصليّي فرنسا فقد وجدت اوراقاً بينها مخابرات تتعلق ببعض الاشخاص العرب الذين أسندت اليهم التهم في المحاكمة الاولى والثانية . وهناك اوراق اخرى صادرتها سلطات الرقابة العثمانية وهي عبارة عن رسائل بعث بها حقي العظم سكرتير حزب اللامركزية من مصر إلى محمود المحمصاني في بيروت بعد اعلان الحرب العظمى . (١)

ويقول جمال باشا انه يوم وصوله إلى دمشق سلمه خلوصي بك والي سورية وثائق ضبطت في القنصلية الفرنسية وأن هذه الوثائق تدين عدداً من رجال سورية . ولكن خشية من ان تؤدي احالة اولئك الرجال للمحاكمة إلى ان يظن المسلمون في مصر والهند والجزائر والمغرب ان الاتراك تملكتهم سورة الانتقام ، وفي ذلك ما فيه من الخطر على حركة الوحدة الاسلامية ، فقد تقرر إرجاء النظر في الموضوع كله وعدم إثارته كلياً . ويقول جمال انه بالرغم من ان الوثائق المضبوطة كانت تدين عدداً من كبار وجهاء العرب ، الا انه كان موقناً أنهم سيدركون في النهاية ان الحرب العامة ليست الا مسألة حياة او موت للعالم الاسلامي، وأنهم سيقلعون يوماً ما عن غيهم ، فقرر « بنية خالصة » الا يتخذ اجراءات ما ضدهم .

بعد هذا استدعى جمال عبد الكريم الخليل والدكتور عبد الرحمن الشهبندر وعبد الغني العريسي ومحمد كرد علي ، وبسط لهم خطة

---

(١) كان أعضاء اللامركزية والفتاة يتبادلون الرسائل بين مصر وسورية بواسطة البريد الفرنسي . فقد كان من جملة امتيازات فرنسا أن تفتح مكاتب بريد مستقلة لها في موانىء الدولة العثمانية مثل بيروت ويافا والاسكندرية. وكان العرب يستغلون هذه المكاتب البريدية للافلات من رقابة السلطات العثمانية .

الحكومة وأكّد ان تحرير العالم الاسلامي من النير الاجنبي يمكن تحقيقه اذا انتصرت الدولة العثمانية ؛ فوافقوه على أقواله وأقسموا بالله وبشرفهم ان يظل عرب سورية وفلسطين موالين للحكومة طوال مدة الحرب . وقد أركن جمال إلى الاصلاحيين ووضع ثقته فيهم حتّى انه طلب من الدكتور الشهبندر وعبد الكريم الخليل ان يزورا الجنود العائدين من القناة فدعاهما إلى القدس وبقيا مع الجيش ثلاثة اسابيع .

ويقول جمال إنه ذات يوم من شهر أيار ١٩١٥ طلب من عبد الكريم الخليل ان يبين له السر في ولاء الاصلاحيين في سورية بينما كان رفاقهم في مصر يشنّون الحملات العنيفة على الحكومة العثمانية ويختلقون الاكاذيب ضدها . فاضطرب عبد الكريم واقترح ان يسافر إلى مصر ليشرح سياسة جمال في سورية كي يحمل اللامركزيين على تغيير خطتهم .

أثار هذا الاقتراح الشكوك في نفس جمال باشا وتبادر إلى ذهنه انه لا بدّ ان تكون هناك شبكة منتظمة لتأمين الاتصالات والتنقلات بين سورية ومصر رغم حالة الحرب وأخطارها . وفي ذلك الوقت كانت الحملة البريطانية — الفرنسية في شبه جزيرة غاليبولي تبذل قصارى الجهد للتقدم نحو العاصمة العثمانية ، وقد أرسل جمال ثلاث فرق (الثامنة والعاشرة والخامسة والعشرين) من سورية إلى ميدان الدردنيل ، ولم تبق في سورية الا قوات قليلة لا تكفي للدفاع عنها اذا ما نزلت قوة بريطانية — فرنسية اخرى على الساحل السوري . ويغدو الخطر أعظم كبيراً اذا كان هناك اتفاق بين الاهالي وبين القوات الغازية ، مما قد يؤدي إلى ان تفقد الدولة « سائر ولاياتها العربية » . وقد ازداد ارتياب جمال عندما سأل عبد الكريم الخليل كيف يستطيع الوصول إلى مصر . فأجابه هذا جواباً يدل امّا على الثقة التامة أو على السذاجة : سأجد وسيلة للوصول إلى هناك .

وعلى أثر هذه المحادثة جاء الشيخ اسعد الشقيري مفتي الجيش

الرابع [١] وأنبأ جمال ان كامل بك الاسعد نائب بيروت يود ان يدلي اليه بمعلومات . وعندما استدعي هذا الاخير لمقابلة جمال باشا في القدس صرّح له بان رضا بك الصلح وعبد الكريم الخليل يقومان بتنظيم عصيان في جهات صور وصيدا .

بناء على هذه الوشاية أصدر جمال باشا أمره باعتقال افراد القافلة الاولى من الزعماء والاصلاحيين العرب وحوّلهم للمحاكمة أمام المحكمة العسكرية بتهمة « التحريض على الثورة المسلحة بمساعدة الاعداء » . ولكن مما يثبت بصورة قاطعة ان مسألة تنظيم العصيان لم تكن الا فرية كاذبة هو ان كتاب « ايضاحات » الذي أصدره جمال باشا وبيّن فيه أسباب الحكم على الزعماء السوريين . لم يتضمن اشارة واحدة إلى العصيان المزعوم بل كانت جرائم المحكوم عليهم لا تتجاوز الانتساب إلى حزب اللامركزية .

لا شك في ان التحسب من نزول حملة عسكرية من جنود الحلفاء في الساحل السوري ، كان من أكبر الدوافع التي حدت بجمال باشا إلى اتخاذ قراره الخطير باعتقال اولئك الاصلاحيين واحالتهم إلى المحاكمة ثم الحكم عليهم بالاعدام ، ولم تكن الحجج الاخرى التي تذرع بها جمال باشا الا من قبيل التماس الاعذار . وقد قيل ان انتصار الترك في الدردنيل وصدهم الحملــة البريطانية — الفرنسية في غاليبولي وعدم تمكينها من التقدم — أعطى للاتحاديين الفكرة بأنهم والمانيا لا بدّ منتصرون في الحرب : ومن الافضل ان يتخلصوا من الحركة القومية العربية ويقضوا عليها وهي ما تزال في المهد ، مغتنمين فرصة الحرب وأحكامها الاستثنائية لتنفيذ مآربهم . [٢]

وفي العبارات القليلة التي فاه بها عبد الكريم الخليل وهو يقف إلى

---

(١) راجع ما جاء عن الشيخ اسعد الشقيري بصدد اعتقال فارس الخوري (فارس الخوري ، حياته وعصره ، حنا خباز وجورج حداد ، بيروت ١٩٥٢ ، ص ص ٢٩ — ٣٠)

(٢) أمين سعيد ، الثورة العربية الكبرى ، الجزء الأول ، ص ص ٦٢ ، ٧٦ .

جانب المشنقة قبل لحظات من اعدامه ما يدل على اخلاصه واخلاص رفاقه للاتراك :

« اشهدكم ايها القوم اننا لم نأت أمراً فرياً يوجب وقفتنا هذه . واني آسف على ما اظهرته من الاخلاص للدولة منذ نشوب الحرب . ولكن الاتحاديين أبوا الا ان يعلنوا عداءهم لهذا العنصر الكريم الذي لا يملك من أمره شيئاً . فاذا كان جمال باشا يتهمنا باضرام الثورة لاستقلال العرب فلا بدّ من ضحايا لهذا الاستقلال ، ولنكن نحن أول هذه الضحايا . انني أعرف السبب الحقيقي الذي شنقني جمال باشا لأجله وسيعرفه التاريخ. »[1]

بعد تنفيذ حكم الاعدام في رجال القافلة الاولى استقرّ جمال باشا في دمشق وأخذ يؤدب المآدب لكبار القوم ويتصل بالمشايخ ويقربهم اليه محاولاً تسكين الأفكار والخواطر ، بينما عمد إلى اقصاء من بقي في سورية من الضباط العرب فلم يبق واحداً منهم بل أرسلهم جميعاً إلى ميادين القتال المختلفة .

ووقع خلاف بينه وبين خلوصي بك والي سورية الذي احتجّ على تصرفات جمال وحكمه الاستبدادي وطلب إيقافه عند حدّه أو أن يؤذن له بالسفر ، فجاءه الجواب بأن يعود إلى العاصمة .

لقد عمد جمال إلى التصديق على أحكام المحكمة العسكرية بالاعدام ثم أمر بتنفيـــذ الحكم دون الحصول على موافقة السلطان ووزير الداخلية ، وحجته في ذلك ان الحالة العامة في سورية كانت تستدعي عملاً حازماً يوطد هيبة الحكومة في نفوس الأهلين .

ويرى علي فؤاد باشا « أن جمال باشا لم يكن مخطئاً في اجراءاته الخاصة بتنفيذ حكم الاعدام برجال القافلة الاولى . فقد كان في موقف حرج يبرّر عمله . ولو لم يقدم على عمل ما عمله ، لما استطاع أن يسيطر على الموقف ويحول دون اتساع نطاق الثورة ، وكانت تهدد البلاد

---

(١) أمين سعيد ، المصدر السابق ، ص ٨٥ .

العثمانية في البقعة العربية منها . لقد كان عليه ان يقف عند هذا الحد خصوصاً وقد لمس تأثير عمله في البلاد . فقد هابه رجال الحركة الثورية ووقفوا جانباً . ولكنه لم يفعل ذلك بل واصل الكتابة إلى أنور باشا وطلعت باشا ملحاً بطلب تخويله السلطة اللازمة لمحاكمة جميع الذين وردت أسماؤهم في الأوراق التي صودرت في القنصلية الفرنسوية ؛ وهذا خطأ فادح ارتكبه وجعل العرب يمقتونه حتى لقبوه بلقب سفاح سورية . وهم على حق »[1] . وقد ظل جمال يهول بخطر نشوب ثورة عارمة تهدد سلامة كيان الدولة ، حتى أذن له زميـــلاه طلعت وأنور وخولاه الصلاحيات التي طلبها .

وفي هذه الاثناء سادت موجة الارهاب من اعتقال ونفي واعدام . وكان نخلة باشا المطران أحد وجهاء بعلبك بين من لاقوا حتفهم . فقد وجد الاتراك في القنصلية الفرنسية بدمشق رسالة من القنصل يقول ان نخلة المطران زاره ومعه بعض أعيان البلاد يطلبون مساعدة فرنسا لضم قضاء بعلبك إلى متصرفية جبل لبنان . هذا هو الجرم الذي قررت المحكمة العسكرية بناء عليه نفي نخلة المطران إلى ديار بكر ، وبعد التشهير به في شوارع دمشق سيق إلى منفاه «وأثناء الطريق قتل بأمر من الحكومة .»[2]

وترامت إلى اسماع الناس أنباء المزيد من الاعتقالات في خريف ١٩١٥ ، وأخذت المحكمة العسكرية في بلدة عاليه تحقق مع المتهمين واحداً بعد واحد . وبالرغم عن ان الاوراق التي ضبطت في القنصلية الفرنسية لم تذكر سوى اسماء ثلاثة اشخاص ممن حوكموا في القضية الثانية وحكم عليهم بالاعدام — الا ان جمال اغتنم الفرصة لاعتقال كل من اشتبه في ان له ميولاً وطنية ، وقدمه للمحاكمة .

---

(١) نقلا عن امين سعيد ، الثورة العربية الكبرى ، الجزء الأول ، ص ص ٧٦ — ٧٧ .

(٢) أثناء ثورة نيسان ١٩٠٩ ضد الاتحاديين لجأ جمال وأنور وطلعت وجاويد إلى دار نخلة المطران في استانبول واختبأوا فيها حتى زال الخطر عليهم . وكان القتل مكافأته على أيدي زعماء الاتحاديين (فائز الغصين ، مذكراتي عن الثورة العربية ، ص ٤٨) .

وكان اعضاء المحكمة العسكرية ضباطاً يسترشدون في أعمالهم بأوامر جمال باشا نفسه » وكانوا يكتفون في الغالب بدرس نفسية القادم وأخلاقه وأطواره ، فاذا تبينوا انه من الاذكياء الذين يخشى جانبهم أشاروا إلى ذلك في جانب اسمه فيأمر الباشا باعدامه للتخلص منه ، ومعنى ذلك ان الكفاءة وعدمها كانت القاعدة في إصدار الأحكام بالنسبة لأكثر المتهمين. ومعظم الذين نجوا من قبضة الديوان العرفي هم من الذين تظاهروا بالبله ، او أنكروا نسبتهم العربية ، او قدموا هدايا ثمينة لرجال التحقيق فشهدوا ببلاهتهم او جاءوا بوسائط اخرى . وقد اعترف شكري بك نفسه (رئيس المحكمة العسكرية) ان الحكم في القضية الكبرى (اي الحكم على رجال القافلة الثانية) عُدّل أربع مرات بأمر جمال باشا ، فكان في كل مرة يخرج اناساً من قائمة المعدمين ويدخل غيرهم . وأخيراً أبلغه بشكله النهائي يوم ٥ ايار ١٩١٦ فنُفّذ كما أمر . »[١]

ويقول الامير شكيب ارسلان ان جمال باشا حينما « صمم على شنق المعتقلين ، استدعى شكري بك رئيس ديوان الحرب العرفي إلى دمشق وسلمه اسماء ٤٠ شخصاً يجب الحكم عليهم بالاعدام . فراوده شكري بك كثيراً ودافع كثيراً فهدده بالقتل كما قال . ولما قال له ان وجدانه لا يرتاح إلى الحكم بالموت الا على ثلاثة وبالاكثر على خمسة ، استحضر اعضاء الديوان وهم ضباط شبان لا يخرجون على ارادته . وكانت النتيجة الحكم على ٢١ فقط . »[٢]

اما الجنرال علي فواد فيروي حقيقة ما حدث على الوجه التالي :

في شهر نيسان ١٩١٦ جاء إلى مقر أركان الجيش في فندق فكتوريا بدمشق ، المقدم شكري بك ، رئيس ديوان الحرب بعاليه ، وقال : ان محاكمة المتهمين انتهت ، وهيئة الديوان كونت فكرة صريحة عن

---

(١) أمين سعيد ، الثورة العربية الكبرى ، جزء ١ ، ص ٧٥ .
(٢) مجلة المنار ، القاهرة ، ١٩٢٢ ، مجلد ٢٣ ، الجزء ٢ ، ص ١٣٢.

حقيقة القضايا . انهـا مقتنعة بان عدد الذين يمكن الحكم عليهم بالاعدام لا يتجاوز الثلاثة أو الاربعة على أكثر تقدير . ومع ذلك ، رأت الهيئة ان تعرض الامر إلى قائد الجيش قبل ان تكتب قرارها النهائي في هذا الشأن . ولذلك جاء رئيس الديوان ومعه قائمة باسماء المتهمين ، وقد كتب حذاء كل اسم رأي هيئة الديوان في الحكم الذي يجب أن يصدر في حقه .

وبما ان علي فؤاد كان يعرف اتجاهات أفكار جمال باشا ، ولا يجهل روح العنف والقسوة التي يتصف بها ، فقد قال لشكري بك :

« عندما تعرض القائمة على الباشا تضرع اليه لكي لا يتشدد في الأحكام ، واذا اقتضى الامر قل له : ارجوك يا باشا فكرّ في التاريخ . »

وذهب شكري بك من غرفة رئيس الاركان إلى غرفة جمال باشا ، ولكنه عاد بعد نحو خمس دقائق ، وهو مصفرّ الوجه ، وحكى ما حدث .

يظهر ان الباشا كان قد اطلع على القضية بواسطة رجاله الموجودين في عاليه ، ولذلك عندما دخل عليه شكري بك ، سأله بلسان جاف : ماذا ؟

وأجابه شكري بك : ان ديوان الحرب أنهى المحاكمات ودوّن رأيه في هذه القائمة ، وانا جئت للعرض والاستئذان .

وقدم القائمة التي كان يحملها . فتناول جمال باشا الورقة منه ، ودون ان يقرأ ما هو مكتوب فيها ، أخذ يكتب حذاء كل اسم الحكم الذي يريده هو : اعدام ، اعدام ، اعدام .

ورأى رئيس المحكمة ان يعمل بتوصية علي فؤاد ، فقال : يا باشا ، ارجوك ، فكرّ في التاريخ .

ولكن جمال باشا صاح في وجهه قائلاً :

– التاريخ ؟ فليتحطم على رأسك .

وعاد شكري بك إلى عاليه ، وصدرت أحكام الاعدام على واحد

وعشرين شخصاً وفقاً لاوامر الباشا . [1]

ومن هذا يتبين ان ١٧ أو ١٨ من أحكام الاعدام التي تم تنفيذها في ٦ ايار ١٩١٦ كانت مخالفة لرأي أعضاء المحكمة العسكرية .

يتضح من هذا كله ان جمال باشا لم يكن يقصد في عهد الارهاب الذي فرضه على سورية ، ان يتتبع خطى الخونة ويقتص من المتآمرين كما يزعم ،وانما كان يقصد ان يغطي على هزيمته من جهة وان ينتقم من الاصلاحيين من جهة اخرى . اما العدالة والقانون فقد ألقى بهما جانباً ولم يحسب لهما أدنى حساب ، بل كان همّه ان يشنق عدداً كافياً من المثقفين المستنيرين الذين تجرأوا قبل الحرب ونادوا بالعروبة .

وهكذا أفاقت بيروت وأفاقت دمشق صباح ٦ ايار ١٩١٦ واذا أعواد المشانق في ساحة البرج (تعرف الان باسم ساحة الشهداء) وساحة المرجة (وتعرف الان باسم ساحة الشهداء ايضاً) تحمل أجساد عدد من رجال النهضة العربية وشبانها ، بعد ان اقتيدوا في ساعة الفجر الباكر ليؤدوا ضريبة الوطن والحرية. ففي دمشق أُعدم عبد الحميد الزهراوي (عضو مجلس الاعيان ورئيس مؤتمر باريس العربي) وشفيق المؤيد (عضو المبعوثان سابقاً) والامير عمر الجزائري وشكري العسلي (عضو المبعوثان سابقاً) وعبد الوهاب المليجي الانكليزي (أحد كبار الموظفين) ورشدي الشمعة (عضو المبعوثان سابقاً) ورفيق رزق سلّوم (كاتب وشاعر وعضو الفتاة) . وفي بيروت أُعدم الكولونيل سليم الجزائري والكولونيل امين لطفي الحافظ وعبد الغني العريسي (صاحب جريدة المفيد) والشيخ أحمد طباره (صاحب جريدة الاتحاد العثماني) والامير عارف الشهابي وتوفيق البساط وسعيد عقل (رئيس تحرير جريدة النصير) وجلال البخاري وسيف الدين الخطيب (عضو محكمة) وباترو باولي ومحمد الشنطي وجرجي الحداد والدكتور علي عمر النشاشيبي وعمر حمد .

---

(١) ساطع الحصري ، مجلة العربي ، العدد ٣٠ ، ايار ١٩٦١ (نقلا عن مذكرات الجنرال علي فؤاد المطبوعة باللغة التركية سنة ١٩٥٤) .

ومن أشد جوانب هذه المأساة فظاعة ان جمال باشا أمر باعدام عبد الحميد الزهراوي دون محاكمة ، اذ لم تكن تجوز محاكمته الا بأمر من السلطان . وقد اقتيد إلى المشنقة دون ان يعرف التهمة الموجهة اليه . وأسقط جمال باشا اسمه من البلاغ الذي نشره يوم ٧ ايار ١٩١٦ باسماء الشهداء وأسباب اعدامهم .

وقد روى عدد – بين عرب واتراك – ممن شهدوا تنفيذ أحكام الاعدام في رجال القافلة الاولى والثانية ، كيف تقدم اولئك الرجال نحو المشانق برباطة جأش وثبات وقوة جنان ؛ وهم يعلمون انهم انما يدفعون ضريبة الدم من أجل رفعة شأن الامة التي ينتمون اليها . ومن أوقع الصور الوصفية في النفس اثناء ذلك الموقف الرهيب ما جاء به فالح رفقي آتاي مدير مكتب جمال باشا الخاص،اذ قال يصف إعدام رفيق رزق سلّوم في دمشق :

« انه كان مثالياً حقيقياً ، قابل الموت بوجه ضاحك بسّام . كان آخر من سيقوا إلى المشنقة . ستة اشخاص كانوا قد صاروا قبله جثثاً هامدة تتدلى من بين أعواد ست من المشانق . وعندما وصل إلى رأس الميدان ، ورأى المشنقة الفارغة ، قال مبتسماً :

– يظهر ان موقفي هناك .

وأخذ يسير نحوها . ولكنه عندما قرب من المشانق ورأى جثة عبد الحميد الزهراوي المتدلية من المشنقة الاولى أخذ طوراً جدياً ، وسلّم عليها صائحاً :

– مرحباً ، يا أبا الحرية .

وعندما صعد على كرسي المشنقة لمح بين الحاضرين شاباً تركياً كان زميله في كلية الحقوق في استانبول ، فوجّه اليه عبارة وداع .

حقاً ان السير نحو الموت ، دون حقد ودون أسى ، لهو من أصعب الامور » .[1]

---

(١) مجلة العربي ، العدد ٣٠ أيـار ١٩٦١ (نقلا عن كتاب فالح رفقي آتاي ، جبل الزيتون ، الذي نشر باللغة التركية في ١٩٣٥) .

وقرن جمال باشا هذه الاحكام الاجرامية بأحكام نفي وابعاد شملت حوالي ٣٠٠ أسرة من أسر سورية الطبيعية، فقد أمر بارسال أفراد تلك الاسر بين رجال ونساء وأطفال إلى الاناضول بعد مصادرة أملاكهم فلم تبق مدينة من مدن الاناضول الا ونزلتها عائلة عربية أو أكثر . وعلّل جمال باشا هذه الاجراءات بأنها تدابير احتياطية وبأنه أراد ان يتصرف تصرفاً انسانياً فأرسل النساء والأطفال مع الرجال لكي يعيشوا بشكل عائلة ولا يكونوا بحالة سيئة ؛ لانه لو ارسل الرجال فقط لكان هذا تبعيداً ولحرموا من السعي والاكتساب ورؤية عائلاتهم والرياسة عليها . (١)

وقد حكمت المحكمة على أشخاص آخرين بالسجن مدداً متفاوتة . ومع ان جمال باشا أعلن حل المحكمة العسكرية بعد تنفيذ أحكام الاعدام يوم ٦ ايار الا انه لم يلبث ان اعتقل في شهر حزيران امير اللواء شكري الايوبي (وكان موظفاً مدنياً يومذاك) وشكري القوتلي (رئيس جمهورية سوريا فيما بعد) وفارس الخوري (نائب دمشق يومذاك ورئيس وزراء سوريا فيما بعد) وامير اللواء عبد الحميد القلطقجي ، وأشخاصاً آخرين بتهمة التآمر لاشعال ثورة عربية طلباً للانتقام من جمال باشا. وأحيل هؤلاء إلى محكمة عسكرية فحكمت ببراءتهم. ولكن جمال باشا ، عندما حمل اليه رئيس المحكمة القرار لتصديقه ، رمى به في وجهه قائلاً : اخرج من هنا فأنا أريد حكماً بالعقوبة لا بالبراءة . وجرت المحاكمة مجدداً فحكم بالاعدام على شكري الايوبي واثنين آخرين . ولكن من حسن حظهم ان الحكومة المركزية في العاصمة كانت قد أدركت – نتيجة اندلاع الثورة العربية – ما ارتكبه جمال باشا من فظائع وظلم فحدّت من سلطاته وقررت ان ترسل جميع قرارات الاحكام في القضايا السياسية إلى ديوان التمييز العسكري . وعندما عُرضت اوراق الحكم على هذا الديوان قرر نقضها « لان الجرم

---

(١) ايضاحات ، ص ١١٤ .

المنسوب اليهم لم يخرج إلى حيز التنفيذ » . ورغم ذلك أصرّ جمال باشا على ان يبقى اولئك الاشخاص رهن الاعتقال ، فظلوا في السجن إلى ما بعد مغادرته سورية . واثناء التحقيق حاول شكري القوتلي الانتحار خوفاً من ان يضعف تحت وطأة التعذيب فيعترف ، ولذلك أقدم على قطع شريان معصم يده ، ولكن الطبيب اكتشف أمره قبل ان ينزف دمه فانقذه من الموت .

ان كتاب «ايضاحات» يعزو إلى من أعدموا تهماً مختلفة منها الانتماء الى جمعيات عربية أخصها حزب اللامركزية الذي زعم انه كان يهدف إلى: (١) تأسيس خلافة في مصر تحت حماية الانكليز(٢) جعل سورية تحت حماية فرنسا وبريطانيا (٣) ايجاد امير مسلم مستقل في سورية . وقد اعتمدت الأحكام على الاوراق التي وجدت في قنصليتي فرنسا وعلى الرسائل التي ارسلها حقي العظم من مصر وعلى الاعترافات . ولكن البينات لم تكن توجب الحكم بالاعدام – لو كانت هناك عدالة . فلم يثبت للمحكمة ان احداً ممن اعدموا قام بعمل مادي ضد الحكومة ، وعلى فرض ان المحكومين فكروا بالانتقاض على الدولة فانهم لم يتجاوزوا نطاق التفكير إلى نطاق العمل الفعلي . والوثائق التي وجدت في القنصليتين لا تذكر سوى اسماء شفيق المؤيد وشكري العسلي والامير عمر الجزائري ، ولم ينشر الاتراك دفاع أي واحد من هؤلاء الثلاثة عن نفسه،ومن المحتمل ان تلك الوثائق لم تنقل أقوالهم نقلا أميناً رغم أن ما جاء فيها لا يبرر اطلاق تهمة الخيانة عليهم. واما الاعترافات فقد أخذت نتيجة للتعذيب ولم يبح أحد من المحكومين بمعلومات جديدة الا ما كان معروفاً للمحققين . ولو كان هناك اعترافات حقيقية لباح المتهمون بأسماء زملائهم في جمعية « الفتاة » و « العهد ». والدليل على ذلك ان اشخاصاً مرموقين مثل علي رضا الركابي وياسين الهاشمي ورستم حيدر – من زعماء الفتاة والعهد – ظلوا يعملون مع الاتراك حتى نهاية الحرب دون ان يشتبهوا بأمرهم ، وأحيل الدكتور أحمد قدري إلى المحاكمة

مرتين ولكن المحققين لم يجدوا أدلة تدينه فأطلقوا سراحه .

لقد عمد جمال باشا إلى تنفيذ الأحكام قبل ان يرسل اوراق المحاكمة إلى العاصمة لدراستها ولاستحصال الارادة السلطانية ، استناداً إلى قانون خاص أصدرته الحكومة العثمانية في بدء الحرب وهو يخوّل قادة الجيوش تنفيذ أحكام الاعدام على الفور عندما تقتضي ذلك سلامة الوطن . ولكن ذلك القانون وضع لمعالجة الحالات المستعجلة التي قد تحدث في ميادين الحرب والتي تستلزم التنفيذ فوراً . ومن البديهي ان استناد جمال باشا إلى ذلك القانون في تنفيذ الاعدام بأشخاص في قضايا سياسية تعود إلى ما قبل الحرب – وقد استغرق النظر فيها حوالي عشرة اشهر– هو استناد باطل ولا يجوز بوجه من الوجوه .

حتى كتاب « ايضاحات » والوثائق التي نشرت فيه لاثبات التهم الموجهة إلى الرجال الذين نفذ حكم الاعدام فيهم – لم يؤد الغاية المنشودة منه وقوّى الانتقادات التي أثيرت ضد جمال باشا : حتى ان طلعت باشا منع توزيع الكتاب بعد طبعه ولكن جمال باشا ذهب إلى العاصمة محتجاً وأقنع زميله بتوزيع الكتاب .

اما التهمة الرئيسية التي ذكرها جمال باشا في البيان الذي نشره بتاريخ ٧ ايار ١٩١٦ وهي انتماء المحكوم عليهم إلى جمعية اللامركزية « التي غايتها ومقصدها سلخ سورية وفلسطين والعراق عن راية السلطنة العثمانية وجعلها امارة مستقلة » [١] ، فقد كانت تناقض برنامج اللامركزيين المعروف لدى السلطات التركية والذي كان يدعو إلى الاصلاح والحكم اللامركزي وليس إلى الانفصال ، علماً بان حزب اللامركزية كان معروفاً من قبل الدولة ولم يكن في برنامجه ما يوجب اية مسؤولية . [٢]

---

(١) بيان جمال باشا في كتاب ثورة العرب ، ص ص ١٦٤ – ١٦٧ .

(٢) أحمد قدري ، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ، ص ٤٣ . وساطع الحصري ، مجلة العربي ، عدد ٣٠، ايار ١٩٦١ .

وقد ادرك كثيرون من الاتراك مدى الاساءة التي اقترفها جمال باشا في انتهاج سياسة العنف والبطش في سورية مما أدى إلى قيام العرب بالثورة ؛ فقدم عدد من النواب بعد انتهاء الحرب مذكرة إلى رئاسة الوزراء طلبوا فيها محاكمته على الجرائم التي ارتكبها في سورية .

أضف إلى كل مـا سبق ان التهم التي نسبت للمحكوم عليهم (الانتساب لحزب اللامركزية بصورة رئيسية والاشتراك في مؤتمر باريس) تعود إلى ما قبل الاتفاق الذي عقد بين العرب والترك في ١٩١٣ ، ويعود جانب منها إلى ما قبل صدور الارادة السلطانية في ٢٩ كانون الثاني ١٩١٣ بالعفو عن جميع الجرائم السياسية التي ارتكبت قبل هذا التاريخ .

ويتباهى جمال باشا بالقول في مذكراته ان أحكام الاعدام التي نفذها في ايار ١٩١٦ هي التي حالت دون نشوب ثورة ما في سورية خلال العامين ونصف العام اللذين أعقبا اعلان الشريف حسين الثورة ، وان مبادرته إلى تنفيذ أحكام الإعدام كان له تأثير كبير في المحافظة على سلطة الحكومة وسطوتها ونفوذها في بلاد سممتها الدعاية الانكليزية والفرنسية عدة سنوات . [1] وهو يوجه أشد اللوم للشريف حسين على اعلانه الثورة، دون أن يلوم نفسه على انه بقسوته وحبه لسفك الدماء وقلة تبصره ، اقترف جرائم القتل ضد أشخاص أبرياء مخلصين ، فدفع الشريف للثورة ودق اسفين الشقاق بين شعبين مسلمين جمعتهما راية واحدة طول اربعة قرون .

وفيما قاله الامير شكيب ارسلان عن غرور جمال باشا وكيف زاد غروره باطلاق حريته في العمل بمـا شاء فخرج عن دائرة المعقول في كثير من الامور ، ووصل إلى ان صار يجمع اعيان بلدة بلدة ويحصي عددهم ، وينفي منهم ١٠ بالمائة آخذاً اياهم بالقرعة او ترتفع الاوراق إلى قيمة الذهب ... ما يعطي الدليل على خطل السياسة التي اتبعها وخطأ

---

(١) مذكرات جمال باشا، ص ص ٢٨٢ — ٢٨٣ .

زميليه طلعت وانور بالذات في تخويله الصلاحيات المطلقة . ويعدّد الامير شكيب اخطاء جمال « وجنايته الكبرى على العرب والترك فيما فعله » على النحو التالي :

اولاً — ان فريقاً من الذين قتلهم ابرياء من خيانة الدولة ولم يكن لهم ذنب سوى وجودهم في الحزب المعارض لجمعية الاتحاد والترقي . والقانون العثماني لا يعرف الاتحاد والترقي بل السلطنة العثمانية .

ثانياً — ان فريقاً آخر منهم لم يوجد عليهم وثائق خطية ولا قرائن قطعية تذهب في جزائهم إلى درجة القتل . وقد برّر جمال هذا العمل بأنه من باب « القتل السياسي » مع انه كان الأولى بهؤلاء ان يتركوا إلى حكم القانون فيحكم عليهم بحبس او نفي على حسب درجة جرمهم .

ثالثاً — لم يكن من حسن السياسة ان يفعل جمال هذا اثناء الحرب حتى ولو كان الذين حكموا مجرمين حقاً .

رابعاً — ان الالوف الذين نفاهم إلى الاناضول مع عيالهم وخرّب بيوتهم ، وامات كثيرين منهم في الغربة ، لم يكن منهم مائة شخص يدرون ما هي السياسة .[١]

وقد أدان جمال نفسه بنفسه فيما يتعلق بالتهم التي وجهها للزعماء والمثقفين العرب الذين حكم عليهم بالاعدام . فقد أثبت نصّ فقرة جاءت في خطاب القاه أحمد مختار بيهم عندما ذهب وفد من أعضاء المؤتمر العربي في باريس إلى وزارة الخارجية الفرنسية في حزيران ١٩١٣ ، وهي « اننا نحترم الفرنسيين ولكن لا نرضى ان يكونوا رؤساء علينا بل نرغب معاضدتهم في اصلاح أحوالنا بشرط ان نبقى عثمانيين . وليس السوريون كما قيل لكم انهم يفتحون صدورهم لفرانسة . »[٢]

وجاء في كتاب « ايضاحات » ان عبد الغني العريسي قال في

---

(١) تعليقات على ترجمة كتاب « حاضر العالم الاسلامي » ، المجلد الرابع ، ص ص ٣٩٠ — ٣٩٢ .

(٢) جمال باشا ، مذكرات ، ص ٤٧٤ . و« ايضاحات » ، ص ٦٠ .

اعترافاته ان بيشون وزير خارجية فرنسا ، كتب بعد ذلك إلى جميع القناصل الفرنسيين في البلاد العثمانية يقول : « تحقق لدينا ان الحركة الاصلاحية قد انقلبت علينا من تصريح الوفد ، ولذلك أظهروا أنفسكم انكم تساعدونها لاكتساب قلوب الاهلين ، وفي الخفاء اسعوا لقتلها .»[1]

والارجح ان يكون الاتراك قد وجدوا ما كتبه بيشون بين الاوراق التي صادروها من قنصليتي فرنسا في بيروت ودمشق – وليس في اعترافات العريسي – بدليل ان جمال باشا في مذكراته يقول ان بيشون أبرق نص تصريح احمد مختار بيهم إلى المسيو بومبار السفير الفرنسي في استانبول[2] .

وما تزال سورية ولبنان حتى اليوم تقيمان ذكرى يوم ٦ ايار عاماً بعد عام ، باسم يوم الشهداء ، فيترحم المواطنون على الشهداء ويذكرون بشعور المرارة حكم الارهاب الذي فرضه جمال باشا طول ثلاث سنوات .

دعوة السوريين للشريف : ماذا كان يدور في أذهان القوميين العرب عندما دخلت الدولة العثمانية الحرب ؟

للاجابة على هذا السؤال يجب ان نستعرض تطورات الاحداث منذ اعلان الدستور : شهر العسل القصير ، ثم بروز الاتجاه العنصري عند الاتراك ، ثم رد الفعل عند العرب والمطالبة بالاصلاحات ، ثم مؤتمر باريس العربي ، ثم الاتفاق الرسمي وشهر العسل القصير الثاني ، ثم حادثة القبض على عزيز علي ، ثم خيبة الامل المرة عند تطبيق الاصلاحات .

أجل . كان الشعور السائد قبيل نشوب الحرب ودخول العثمانيين فيها هو الشعور بخيبة الأمل . وبالرغم من رضى بعض الاصلاحيين بما حصلوا عليه كخطوة اولى ، فان أكثر الاصلاحيين نقموا على

---

(١) ايضاحات ، ص ٦٠ .

(٢) جمال باشا ، مذكرات ، ص ٤٧٤ .

الاتراك مماطلتهم في التنفيذ وتمييعهم للقرارات التي تمّ الاتفاق عليها ، ومحاولاتهم ضرب العرب بعضهم ببعض . كان هنالك شيء من التجاذب : شدّ وإرخاء ، وحيرة وتخوّف ، علماً بان الكثيرين من الزعماء التقليديين بين العرب كانوا يناصرون الحكومة والسلطان ويتهمون الاصلاحيين بأنهم من أنصار الدول الاجنبية او على الاقل بأنهم شبان أغرار تنقصهم التجارب والحنكة والشعور بالمسؤولية ، ولا يمثلون الا أنفسهم .

الاصلاحيون من جهة والمحافظون التقليديون من جهة اخرى ، كانوا يمثلون الاتجاهين البارزين الرئيسيين في سورية والعراق . وبالاضافة إلى هؤلاء ، كانت هناك فئات — وخاصة في لبنان — ترى انه لا صلاح ولا نفع يُرتجى من دولة هرمة نخر سوس الفساد جذورها وفروعها ، وأثبتت الحوادث مرة بعد مرة عجزها عن القيام باصلاحات شاملة تنهض بالبلاد من رقدتها وتبثّ فيها روح التجدد والرقي والحضارة . ولكن أصحاب الاتجاه الاخير كانوا أقلية ضئيلة ، لكنها أقلية يعتدّ بها.

وعندما اشتعلت نار الحرب استدعت جدية الموقف الخطير اعادة النظر في الوضع كله وتقييمه على ضوء الاخطار الراهنة والمحتملة . ان العرب كثيراً ما يعملون بمضمون المثل الشعبي القائل « انا وأخي على ابن عمي ، وانا وابن عمي على الغريب » . فاذا كان المطالبون بالاصلاح ارادوا ان يحصل العرب على نوع من الاستقلال الاداري من ابناء عمهم الاتراك ، فان الموقف أصبح مختلفاً بوجود طرف ثالث متمثل في الدول الكبرى التي أصبحت حالة الحرب قائمة بين الدولة وبينها . ولما كان الاصلاحيون عموماً من المثقفين المتنورين المطلعين على ألاعيب السياسة الدولية وعلى أطماع الدول الكبرى ، فقد رأوا ان الواجب الوطني والواجب الديني — اذا اعتبرنا ان اكثرية الاصلاحيين من المسلمين — يقضيان عليهم بالوقوف مع الدولة قلباً وقالباً وتأييدها ومعاضدتها في ظروف الحرب . ومن هذا المنطلق اتخذت اللجنة العليا لجمعية العربية الفتاة في اجتماع عقدته ، بعيد دخول الدولة في الحرب ، القرار التالي :

نتيجة لاشتراك الاتراك في الحرب ، فقد أصبح مصير الولايات العربية في الدولة العثمانية معرضاً لمخاطر شديدة ، لذلك يجب بذل جميع الجهود لضمان حريتها واستقلالها . وقد عقدنا العزم أيضا انه اذا تحقق ان للدول الاوروبية مطامع في هذه البلاد ، فان الجمعية ملزمة بالعمل إلى جانب الاتراك من أجل مقاومة التدخل الاجنبي مهما اختلف شكله أو نوعه . (١)

وكان اعضاء « العهد » يرون الرأي ذاته ، خاصة بعد ان تلقوا من عزيز علي مؤسس جمعيتهم من مكان اقامته في مصر ، رسالة يحذّرهم فيها من الاتيان بأي عمل عدائي ضد الدولة العثمانية لان خطر الغزو الاجنبي ماثل جداً والواجب الوطني يقضي عليهم ان يقفوا إلى جانب الاتراك طوال ايام الحرب .

وفي اوائل ١٩١٥ جرى في دمشق اتصال بين اعضاء « الفتاة » وياسين الهاشمي العضو البارز في جمعية العهد دخل ياسين نتيجته عضواً في الفتاة وأصبح همزة الوصل بين الجمعيتين الرئيسيتين . وكان لهذا الاتصال بين الجمعيتين وتنسيق عملهما وخططهما آثار بعيدة المدى ، إذ شعر الفريقان بمزيد من القوة الناتجة عن تعاون المدنيين والعسكريين من القوميين العرب الطامحين إلى مستقبل يجدّد فيه المجد العربي .

ومع ان اعضاء الفتاة — واعضاء العهد كذلك — قرروا العمل باخلاص مع الاتراك في ظروف الحرب ، الا انهم كانوا يتطلعون دائماً إلى جلب مزيد من الاعضاء الاقوياء ذوي النفوذ ، خارج نطاق المثقفين والمثاليين من أبناء المدن وخارج نطاق الضباط في الجيش . لذلك نراهم يضمون الشيخ نوري الشعلان زعيم قبيلة الرولة الكبيرة والتي كانت تسيطر على الصحراء السورية بين دمشق ونجد ، وابنه نواف ، وفواز الفايز شيخ قبيلة بني صخر ، ونسيب الاطرش أحد زعماء جبل الدروز البارزين ، ثم ضموا اليهم أمير اللواء المتقاعد علي رضا باشا الركابي

---

(١) جورج انطونيوس ، يقظة العرب ، ص ٢٣٧ (الترجمة) وأحمد قدري ، مذكراتي ، ص ٣٨ .

الذي كان ناقماً على الاتراك – مثله مثل كثيرين من امراء الالوية العرب الذين أحيلوا على التقاعد في عهد الاتحاديين .

كان التوسع والخروج عن نطـاق المثقفين والضباط ينطوي على مخاطر كبيرة ، ولكنه في الوقت ذاتـه كان يفتح آفاقـاً من الاحتمالات المشجعة . وقد ازدادت مطامح اولئك الحزبيين بعد الحصول على هؤلاء الحلفاء ، فأخذوا يبحثون عن حلفاء أكبر وأكثر أهمية ، ولم يطل بحثهم اذ سرعان ما جاء فيصل النجل الثالث لشريف مكة إلى دمشق ، فراؤا في وجوده بينهم فرصة ذهبية ينبغي اغتنامها .

كان ذلك في آذار ١٩١٥ ، بينما كان التعاون بين العرب والاتراك على افضل ما يكون.وقد وصل فيصل إلى دمشق في طريقه إلى استانبول ليعرض شكاوى ابيه من تصرفات وهيب بك والي الحجاز .

ففي شهر كان الاول ١٩١٤ بينما كان وهيب والامير علي يسيران من مكة إلى المدينة على رأس الجنود النظاميين والمتطوعين ، بقصد الاشتراك في الهجوم على قناة السويس ، سقطت محفظة الاوراق السرية الخاصة بوهيب وكانت في عهدة أحد أخصائه العرب ، فعثر عليها أحد رجال الامير علي وسلمها للامير ففتحها واطلع على ما فيها . وكم كانت دهشة الامير عندما تحققت الظنون التي طالما ساورته وساورت اباه واخوانه حول اخلاص الاتحاديين وصدقهم . فقد كانت المحفظة تتضمن مخابرات بين الوالي وحكومته تدور حول الفتك بالشريف وأولاده والقضاء على استقلال الحجاز النوعي .

وأرسل الامير علي المحفظة وما فيها من أوراق إلى ابيه الشريف حسين في مكة ، فلم يلبث ان جاءه الامر ان يتوقف في المدينة ولا يتابع الزحف شمالا مع وهيب والقوات النظامية . وبالفعل اعتذر الامير عن مواصلة الزحف في المدينة . اما الشريف فقد أرسل برقية إلى الصدر الاعظم يقول انه يود ان يوفد نجله فيصل لعرض بعض المسائل المهمة شخصياً بالنيابة عنه . وجاء الجواب بالايجاب من الصدر الاعظم ،

فبادر الشريف بايفاد فيصل بعد ان زوده بالتعليمات الكافية .

كان لايفاد فيصل هدفان أحدهما ظاهر وهو عرض شكوى الشريف من وهيب وثانيهما خفي وهو الاطلاع على قوة الحركة العربية في دمشق .

فعندما أعلنت الحكومة العثمانية التعبئة العسكرية قبل اشتراكها في الحرب ، كان فوزي البكري أحد الذين شملهم التجنيد ، فسافر من دمشق إلى مكة لتأدية الخدمة العسكرية في حرس الشريف [١] . وحينما علم اركان « العربية الفتاة » بازماع فوزي البكري على السفر إلى مكة ، اطلعوه على سرّ جمعيتهم – وكان أخوه الاصغر نسيب قد انضمّ من قبل إلى عضويتها – وقبلوه عضواً معهم وحملوه رسالة شفهية فحواها ان الزعماء الوطنيين في سورية والعراق ومن بينهم ضباط كبار في الجيش العثماني ، يسعون « لانهاض العرب من كبوتهم ولاستعادة مجدهم الغابر ، ولنيل الاستقلال فيما اذا لم تتمكن الدولة العثمانية من اصلاح الادارة اصلاحاً حقيقياً يجعل البلاد بمأمن من استيلاء الاجانب الذين يتحينون الفرص لاحتلال هذه الديار واستعمارها ، اذ ان كل عربي أصبح مدركاً غايات الاتحاديين السيئة وقصدهم الجنوني بتتريك العناصر غير التركية . » [٢] فهل يوافق الشريف على التعاون معهم وهل يوافق بالتالي ان يتولى قيادتهم ، وإذا وافق على التعاون فهل يستقبل وفداً

---

(١) تعود الصداقة بين الاشراف وآل البكري إلى سنة ١٩٠٩ عندما جاء عدد من الاشراف ومن جملتهم الشريف ناصر شقيق الحسين والأمير عبد الله – لتأمين سفر الحاج الشامي إلى دمشق وحلا في ضيافة عطا باشا البكري. وكان من أثر هذه الصداقة ان الشريف حسين استصدر ارادة من السلطان تجيز لشبان آل البكري أن يؤدوا الخدمة العسكرية في مكة حينما يدعون اليها . وفوزي هو أكبر انجال عطا البكري .

(٢) فائز الغصين، مذكراتي عن الثورة العربية ، صص ٢٠٢ – ٢٠٣ . وكان الركابي والهاشمي والعريسي على رأس الذين اتخذوا القرار بايفاد فوزي البكري إلى الشريف .

منهم في مكة أو يرسل إلى دمشق مندوبين عنه يثق فيهم للاتفاق على الخطوات التالية ؟

وهنا يتبادر إلى الذهن السؤال التالي : لماذا اتجه القوميون العرب إلى الشريف حسين ولم يتجهوا إلى زعيم آخر من زعماء العرب .

الواقع ان اتجاه القوميين العرب إلى الشريف كان الامر الطبيعي في تلك الظروف . لقد كان الشريف أقوى الزعماء العرب ، وكان أكثرهم صلة بالحركة العربية خاصة لوجود ابنيه عبد الله وفيصل عضوين في مجلس المبعوثان ، وكانت المواصلات بين دمشق والحجاز أسهل منها بين دمشق وأية حاضرة عربية اخرى ، وكانت انباء الخلاف الذي نشب بين الشريف والاتحاديين تجعل مسألة تعاونه مع القوميين أمراً متوقعاً . أضف إلى كل هذا طموح الشريف الذي لم يكن خافياً على الاتراك والعرب ومكانته الدينية العظيمة التي تجعل لقيادته وزناً مهماً على نطاق دولي .

وهكذا غادر فوزي البكري دمشق فبلغ مكة في أواخر شهر كانون الثاني ١٩١٥، وحلّ ضيفاً على الحسين وقصّ على مسامعه أنباء وجود جمعيات عربية قوية منظمة في سورية تتطلع إلى زعيم كبير يتولى قيادتها .

وافق وصول فوزي البكري العثور على محفظة وهيب وأوراقه السرية . وكانت رسالتا كتشنر الاولى والثانية ما تزالان تتمثلان في ذهن الشريف . فجاء العرض الجديد يفتح المزيد من آفاق التفكير للشريف . ولكنه بالحذر التقليدي الذي اكتسبه خلال اقامته الطويلة قريباً من بلاط السلطان عبد الحميد ، لم ينبس ببنت شفة عندما أبلغه فوزي الرسالة واكتفى بتسريح نظره من النافذة كأنه لم يسمع شيئاً .

أقام فيصل في دمشق أربعة أسابيع ، حلّ خلالها ضيفا في منزل آل البكري ، وعلى الرغم من ان استقبال جمال باشا له كان فاترا ، الا ان اجتماعه بأركان الجمعية كان سهلاً ميسوراً خلال الزيارات الترحيبية

التي أخذ يقوم بها أعيان دمشق على عادة الشرقيين التقليدية . ولم يلبث زعماء « الفتاة » و « العهد » حتى أطلعوا فيصل على دخائل نفوسهم وعلى تنظيماتهم وآمالهم وأمانيهم ، خاصة بعد ان وافق فيصل على الدخول عضواً في الفتاة والعهد وأقسم اليمين بالاخلاص لمبادئهما وأهدافهما وأطلعهم فيصل بدوره على مضمون الرسالتين اللتين تلقاهما أبيه من كتشنر . وكانت أكثر اجتماعات فيصل بأعضاء الجمعيات تتم حوالي منتصف الليل . بعد أن ينفض الزائرون العاديون .

ولم يكتف أعضاء الفتاة بانضمام فيصل اليهم ، بل أوفدوا أحد أقطابهم يوسف حيدر إلى المدينة المنورة فاجتمع فيها بالأمير علي وأطلعه على وجود الجمعية وحلّفه يمين الدخول فيها . [1] وأوفدت الجمعية أيضاً الشيخ كامل القصاب إلى مكة – بعد أن برأته المحكمة العسكرية – فاجتمع بالشريف حسين وحدثه عن مظالم الاتراك وحرّضه على الثورة . وبقي كامل في مكة إلى ما بعد اعلان الثورة .

وخلال تلك المرحلة كان القوميون وغيرهم من قادة البلاد يرون ان التعاون مع الاتراك هو الخطة المثلى . وقد أيّد عدد من الزعماء مبدأ الاستمرار على هذه الخطة في اجتماع عقدوه في آذار ١٩١٥ في منزل شكري باشا الايوبي ، حينما أجمعت آراؤهم « على وجوب مساعدة الدولة في حربها وعلى تأليف عصابات من أهل البلاد للدفاع عنها يوم يضطر الترك إلى الانسحاب . »

وغادر فيصل دمشق إلى استانبول فبلغها في أواخر شهر نيسان ١٩١٥ وقد استقبله كبار رجال الدولة بحفاوة وعقد عدة اجتماعات مع الصدر الاعظم ومع طلعت وأنور ، وعرض شكاوى والده من استمرار الدسائس ضده ، وعرض الأوراق التي وجدت في محفظة وهيب بك وكرّر المطالبة بعزله . وكانت الأوراق التي عرضها فيصل دامغة تبعث على الحرج الشديد . ويبدو أن وهيب شرح فيها ما وصفه جمال

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣٨ .

فيما بعد بأصالة في الرأي عندما أشار بأنه « من اللازم ارسال فرقتين على الاقل إلى مكة لخلع الشريف وتولية خلف له »[1] . وكانت الأجوبة التي تلقاها فيصل تبعث على الاطمئنان . فوهيب لن يعود إلى الحجاز (وبالفعل عُيّن قائداً للجيش الثاني في استانبول) وسيعين وال جديد تكون أول واجباته التعاون التام مع الشريف . والحكومة لا تريد من الشريف الا ان يعلن تأييده لدعوة الجهاد ويشترك في الحرب اشتراكاً فعالا ، وعندئذ ستحل جميع القضايا حسب ما يرغب . وقد كتب الصدر الاعظم وطلعت وأنور رسائل إلى الشريف بهذا المعنى[2] .

وخلاصة القول ان فيصل نجح في مهمته إلى حد بعيد اذ اقتنع الاتحاديون بضرورة التعاون مع الشريف ، وقدموا لفيصل هدايا ثمينة وخمسة الاف جنيه ذهبا لينفق منها على المتطوعين الحجازيين الذين سيشتركون في الحملة الثانية على قناة السويس (تبرع فيصل عند عودته إلى دمشق بألف ليرة منها لصندوق العربية الفتاة) . وظن الاتحاديون أثناء الازمة ان عبد الله هو الذي يحرّض أباه ضدهم ، فعرضوا عليه وزارة الاوقاف ثم ولاية اليمن ولكنه رفض العرضين[3] .

وفي أواخر أيار عاد فيصل إلى دمشق ، فاستقبله جمال واحتفى به بناء على تعليمات حكومته . ثم مضى معه إلى القدس وأقام في ضيافته عدة أيام . وعند عودة فيصل إلى دمشق أطلعه أعضاء (الفتاة) و (العهد) على نص الميثاق الذي وضعوه أثناء غيبته ، ويتضمن شروط العرب لعقد اتفاق مع بريطانيا والدخول إلى جانبها في الحرب ، وطلبوا اليه

---

(١) جمال باشا ، مذكرات ، ص ٤٠٢ .

(٢) جاء في مصدر آخر ان الشريف أرسل فيصل إلى استانبول بناء على طلب أنور باشا وان أوراق وهيب عثر عليها بعد سفر فيصل وفيها أقوال مهينة بحق الشريف وبحق الشعب العربي فأرسلها حسين إلى فيصل. وعندما اعتذر طلعت وأنور ان الحكومة لا علم لها بما جاء في تلك الأوراق ، قال فيصل : كيف تطلبون مساعدة الشريف كل هذا الوقت وأنتم تكتبون مثل هذه العبارات؟ فكرر طلعت وأنور الاعتذار .(راجع ما سجله ستورس عن حديث الشريف حسين بتاريخ ١٠ كانون الأول ١٩١٦ – F.O. 686/6)

(٣) تقرير من لورنس في ٢٦ نيسان ١٩١٧ – F.O. 686/6, II .

أن يقدمه إلى والده كي يجعله أساسا لمفاوضاته مع بريطانيا . وفيما يلي نص الميثاق :

١- إعتراف بريطانيا العظمى باستقلال البلاد العربية الواقعة ضمن الحدود التالية :

شمالا - خط مرسين - أضنه إلى ما يوازي خط العرض ٣٧ شمالا ، ثم على امتداد خط بيرجيك - اورفه - ماردين - مديات - جزيرة ابن عمرو - العمادية إلى حدود ايران شرقا .

شرقا - على امتداد حدود ايران إلى خليج العرب جنوبا .

جنوبا - المحيط الهندي (باستثناء عدن التي يبقى وضعها الحالي كما هو) .

غربا - على امتداد البحر الاحمر ثم البحر الأبيض المتوسط إلى مرسين .

٢- الغاء جميع الامتيازات الاستثنائية التي منحت للاجانب بمقتضى الامتيازات الأجنبية .

٣- عقد معاهدة دفاعية بين بريطانيا العظمى وهذه الدولة العربية المستقلة .

٤- تقديم بريطانيا العظمى وتفضيلها على غيرها من الدول في المشروعات الاقتصادية [١] .

لهذا الميثاق أهمية كبيرة ، لا من حيث ان الشريف حسين اعتمده أساساً للمفاوضة مع بريطانيا العظمى فحسب ، بل لأنه أول قرار تتخذه جماعة مسؤولة من العرب بانشاء دولة عربية مستقلة متحدة تستعين على توطيد كيانها بعقد معاهدة دفاعية مع بريطانيا ، ومنح بريطانيا الافضلية بين الدول في المشروعات الاقتصادية . لقد منح هذا الميثاق بريطانيا العظمى كل ما كانت تطمح اليه لضمان مصالحها وتأمين طرق مواصلاتها مع الشرق [٢] .

---

(١) جورج انطونيوس ، يقظة العرب ، ص ٢٤٣ .

(٢) « لا يستطيع أي مواطن بريطاني أن يقرأ هذه الشروط في يومنا هذا دون أن يتألم قلبيا ، لأن الشروط (وهي أول عرض يتقدم به القوميون العرب في المفاوضات) أعطت بريطانيا العظمى كل شيء كان يمكن أن ترغب فيه . » - (الجنرال جلوب ، بريطانيا والعرب ، لندن ١٩٥٩ ، ص ٦٠ .)

كان فيصل يدرك ما تنطوي عليه هذه المقترحات من خطورة ، فكرر الاسئلة على زملائه حول امكاناتهم واستعداداتهم الحقيقية للقيام بحركة عملية . ورداً على تلك الأسئلة « أفهموه أنهم مستعدون للعمل ولاضرام ثورة عربية في سورية لتحرير البلاد العربية الخاضعة لتركيا ، لأنهم وثقوا أنها ستكون معرّضة لاحتلال أجنبي لما شاهدوه من تصرفات الترك ولما كان يصلهم من أخبار الحرب في اوروبا ، وقالوا انهم لا يطلبون منه الا أن يكون قائداً لهذه الثورة وزعيما » .

أما الجواب الذي تلقاه فيصل من الزعيم ياسين الهاشمي (أركان حرب الفيلق الثاني عشر) فقد ترك أثراً عميقاً في نفسه . اذ سأله فيصل بعد مناقشة طويلة عما يطلبونه من الحجاز وعن نوع المساعدة التي يقترحونها . فأجابه ياسين بقوله :

ـ لا نطلب شيئا ولا نحتاج إلى شيء ، فعندنا كل شيء . وما عليك الا أن تقودنا وتسير في الطليعة .

وقال فيصل . اننا متفقون مع رؤساء القبائل الحجازية وهم مخلصون لنا ومستعدون للعمل معنا . وكان جواب ياسين : لا حاجة لنا بهم ، فعندنا كل شيء .

كان ياسين ذا شخصية قوية توحي بالثقة التامة ، فلا عجب أن يكون لموقفه الحازم « أثر عميق في نفس فيصل ، لأنه موقف شخص يملك صفة التكلم باسم قوى الجيش المرابط في سورية وهو الذي يتألف بأكثريته من العرب . » (١)

لقد كان لموقف القوميين العرب أثر كبير في انحياز الشريف إلى فكرة اعلان الثورة على الاتراك . وفيما بعد أشار فيصل إلى تأثير أعضاء الجمعيات في اعلان الثورة ، في خطاب ألقاه في دمشق يوم ٥ ايار ١٩١٩ بقوله : « ولا شك ان المسؤول في الحركة الثورية العربية هو

---

(١) أمين سعيد : الثـــورة العربية الكبرى ، الجزء الأول ، ص ١٠٩ . واحمد قدري ، مذكراتي ، ص ٤٦ . (وكانت الفرق ٢٥ ، ٣٥ و٣٦ المرابطة في سورية يومذاك تتألف من الجنود العرب .)

أولاً والدي ثم الحجازيون الذين قاموا بها فعلاً . أما السوريون فأنهم مسؤولون عنها معنىً لأنهم شوّقوا الحجازيين لهذه الحركة ... لهذا قام [والدي] بالحركة بعد ان أتيت إلى سورية وقابلت بعض الرجال الذين منهم كثيرون في مجلسنا هذا سواء من البدو أو من الحضر . » [1]

وقد اجتمع فيصل أثناء اقامته الثانية في دمشق بعدد آخر من زعماء السوريين والبدو والدروز الذين انضمّوا إلى الحزبيين العرب ، وأقسم كل من قابل فيصل يمين الولاء لحركة الاستقلال العربي والمبايعة بالزعامة للشريف حسين . واشترك المدنيون – بدواً وحضرا – والعسكريون في التعهد بأن يهبّوا هبة رجلٍ واحد اذا وافقت بريطانيا العظمى على تحقيق الشروط الواردة في ميثاق دمشق. ولتأكيد ذلك العهد أعطى الشيخ بدر الدين الحسني أكبر علماء دمشق وعلي رضا باشا الركابي رئيس البلدية ختميهما الذاتيين لفيصل كي يسلمهما لأبيه برهاناً على موافقتهما . نيابةً عن السوريين على كل اجراءٍ يتخذه الحسين . وقد بلغت الحماسة والتفاؤل بعدد من السوريين حداً دفعهم إلى الاعتقاد « ان لا لزوم للوفاق مع انكلترا ... » [2]

---

(١) أمين سعيد ، الثورة العربية الكبرى ، الجزء الثاني ، ص ص ٢٦ – ٢٧ .

(٢) قال فيصل في « خواطر خاصة » كتبها في تشرين الثاني ١٩١٩ ، ما يلي : « ... لقد كان والدي وجميع من قام بالحركة الأخيرة يرى ان الاتفاق مع انكلترا يكفي لتأليف الوحدة العربية . أتيت من الشام وأخبرته بذلك بعد أن عرضت عليه عهود الجمعيات والأشخاص وأنبأته بأنهم يؤملون بأن جلالته يسعى في هذا الاتفاق بالشرائط التي تكفل الوحدة والاستقلال . وكان أكثرية القائمين بالنهضة في الشام يرون ان لا لزوم حتى للوفاق مع انكلترا ، بل أنهم كانوا يقولون نحن نثور على الأتراك ونطردهم ونؤمن استقلالنا . وان أتانا أحد من الخارج فنحن نقاومه . ولكن الفكر والتأني يقضيان بخلاف ذلك . وبما ان الموقف كان حرجاً وكان الحلفاء على أبواب الآستانة وكانت الأخبار تنبيء بخطورة الموقف، وخوفاً من وقوع الاتراك في أيدي الحلفاء ، والعرب معهم ، وبالنتيجة يكون دمار العنصرين العربي والتركي ، فوالدي بعد الاصرار اللذي توجه اليه من الجمعيات الدمشقية بدأ يفاوض الانكليز . ولا خف في عمله كما أراد اخواننا المذكورون ، بل انه قدم شروطه وبدأت المذاكرات .... » – (أوراق الأمير زيد) .

وهكذا عاد فيصل إلى مكة في النصف الثاني من حزيران ونقل لأبيه الشريف حسين تفاصيل قيامه بالمهمتين اللتين كلّفه بهما : الاتصال بالقابضين على زمام الحكم في استانبول وبرجال الجمعيات في دمشق [1] .

هنا وجد الشريف حسين نفسه أمام مسؤولية كبيرة تتجاوز القطر الحجازي وتتجاوز المصالح الذاتية للاسرة الهاشمية . وتمثلت في ذهن الشريف رؤى متعاقبة : أمجاد الامة العربية ، ومدنيتها ، وتاريخها العظيم وفتوحاتها الواسعة والدور القيادي الذي لعبته قبيلة قريش في السير دائماً في طليعة العرب منذ مجيء النبي محمد ، وما قام به الملوك والخلفاء العظام من أبناء هذه القبيلة خلال حقب التاريخ المتتالية من أعمال مجيدة — تمثلت كل هذه الرؤى في ذهن الشريف حسين وهو يتطلع إلى حاضر العرب التاعس وهم على ما هم عليه من ضعف وتفرقة وخضوع لسيادة شعب آخر غريب . نعم هناك الرابطة الدينية ، وهي رابطة يكنّ لها الشريف أعظم اعتبار ، ولكن الرابطة الدينية أصبحت ثانوية في نظر هؤلاء الشبان أعضاء جمعية الاتحاد والترقي الذين سلبوا السلطان — الخليفة حقوقه التقليدية ، وأخذوا يحكمون البلاد العربية على طريقة المستعمرين الاوروبيين دون مراعاة لروابط الدين المشترك .

نخطىء اذا اعتقدنا ان العرب كانوا راضين مغتبطين بالخضوع للاتراك ولمن سبقهم من الشعوب الغريبة ، ولكنهم كانوا مغلوبين على أمرهم مضطرين للخضوع والاذعان لقوم يملكون قوة عسكرية لا يملكونها هم . ولم تلح فرصة الا وحاول العرب اغتنامها لنزع النير الاجنبي . وخلال ذلك كان العرب يجدون شيئاً من العزاء ، في رابطة

---

(١) يقال ان فيصل في تلك الفترة لم يكن متحمساً للقيام بالثورة . وقد تأثر أثناء اقامته في استانبول بالرأي السائد بين أوساط العسكريين الأتراك وهو ان المانيا ستكسب الحرب . وقد لاحظ فيصل ان الرأي العام في سورية لم يكن مهيأ لقيام ثورة ضد السلطان . كما انه عند عودته من استانبول بدأ نقل القوات العربية إلى خارج سورية ، ولهذه الأسباب كلها نصح أباه بالتريث : (راجع تقرير لورنس بتاريخ ٨ كانون الثاني ١٩١٧ — F.O. 686/6, Part II) .

الدين التي تربط الاتراك بهم . ومع ذلك كان العرب يتطلعون دائما إلى الاستقـلال عن اخوانهم في الدين وإلى أن يكونوا سادة في بلادهم . نجد نموذجاً على هذه النزعة فيما قاله شريف مكة سنة ١٨٤٠ لسائح فرنسي : « ما اشقّها علينا من حال أن نُكره اكراهاً ، ونحن فروع الشجرة النبوية المباركة ، على حناية رؤوسنا لهؤلاء الباشوات الأدنياء الذين كان غالبهم من قبل عبداناً نصارى ، فما استطاعوا بلوغ كراسي الحكم وتقلدوا أزمّة الأعمال الا بأحطّ الذرائع وأشين الوسائل . »[١]

لقد كانت التفاصيل التي نقلها فيصل للحسين عن وجود يقظة قومية في سورية ، وعن اتجاه رجال تلك اليقظة القومية اليه كي يتزعمهم ويقود خطواتهم لانشاء دولة عربية متحدة ومستقلة — ذات تأثير عظيم في نفس الشريف حسين . ولقد بلغ من قوة ذلك التأثير أنه أخذ يفكّر بجد أكثر من قبل ، بمعاودة الاتصال بممثلي الحكومة البريطانية في مصر .

العَلَم العربي : تعود بـداية التفكير بالعلم العربي الحديث إلى الأيام الاولى للمنتدى الأدبي في استانبول ، أي إلى الأعوام ١٩٠٩ — ١٩١١ . فقد بحث بعض الشبان العرب من مؤسسي المنتدى الأدبي ، في مسألة العَلَم القومي للعرب ، وتوصلوا إلى القول بأن عَلَم المستقبل يجب أن يتألف من ألوان أربعة هي : الأبيض والأسود والأخضر والأحمر ، التي جمعها بيتٌ شهيرٌ من الشعر العربي يتغنّى بأمجاد العرب التالدة ، وهو بيت كان أولئك الشبّان يكثرون من التمثّل به وترديده :

بيضٌ صنائعنا ، سودٌ وقائعنا   خضرٌ مرابعنا ، حمرٌ مواضينا

كان أولئكُ الشبان يشعرون بضرورة وجود علم قومي لهم ، على الرغم من أنهم لم يكونوا يومذاك يفكرون جديا بالانفصال عن

---

(١) لوثروب ستودارد ، حاضر العالم الاسلامي ، (الترجمة) ، المجلد الرابع ، ص ٨٣

الدولة العثمانية . وقد مضوا في ذلك الموضوع إلى حد أنهم صنعوا راية بهذه الالوان الأربعة ورفعوها داخل بناية المنتدى الادبي ، بعد أن كتبوا تحتها بيت الشعر المذكور أعلاه . وقد عبر الشاعر العراقي معروف الرصافي عن مشاعر أولئك الشبان في هذه المسألة في قصيدة ألقاها ذات يوم في المنتدى وقال فيها :

ان الحقيقة قالت لي وقد صدقت　لا ينفع العلمُ الا فوقه علَمُ[1]

وظل هذا الموضوع يشغل أذهان الشبان من حملة الفكرة العربية حتى تبلور في قرار مهم اتخذه المركز الرئيسي لجمعية العربية الفتاة . ففي شهر آذار ١٩١٤ عقد أعضاء المركز الرئيسي للفتاة اجتماعا في مكتب جريدة (المفيد) في بيروت ؛ واتخذوا قرارا بأن يتألف علم الدولة العربية المستقلة من ثلاثة ألوان : الابيض ويرمز للدولة الاموية والاسود ويرمز للدولة العباسية والاخضر ويرمز للدولة الفاطمية . وفي ١٨ آذار كتب محمد المحمصاني ، عضو الفتاة ، رسالة خاصة إلى زميله في الجمعية محب الدين الخطيب (المقيم في القاهرة يومذاك) جاء فيها ما يلي (الفقرتان الثانية والثالثة من الرسالة) .

٢ ـ «قررت (اتاء) أيضا في جلستها الأخيرة أن يكون شعارها الالوان الثلاثة التي تمثل الدول العربية الثلاث : أخضر فأبيض فأسود .

٣ ـ وقررت تكليفك بعمل ختم لها بحرفي ع ف (عين ، فاء) مع صورة نخلة ، تاركة لحسن ذوقك انتخاب شكل ذلك الختم . »[2]

وقد عرض محب الدين الخطيب هذه الرسالة على زملائه في حزب

---

(١) انني مدين بهذه المعلومات للمرحوم توفيق باشا السويدي رئيس وزراء العراق الأسبق (أثناء مقابلة أجريتها معه في بيروت يوم ١٤ ايلول ١٩٦٦) . وكان السويدي من أعضاء المنتدى الادبي . راجع أيضا مذكرات السويدي التي نشرت بعد وفاته (مذكراتي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ٢٤) . وبيت الشعر الأول من قصيدة لصفي الدين الحلي .

(٢) (اتاء) هو الرمز الذي كان أعضاء الفتاة يرمزون به إلى جمعيتهم كي يبقى سرها مصوناً . أما الحرفان (ع ف) فهما الحرفان الاولان من اسم الجمعية (العربية الفتاة) ـ رسالة المحمصاني والجواب عليها بين أوراق محب الدين الخطيب ، القاهرة .

اللامركزية العثماني فرد سكرتير ذلك الحزب برسالة بعث بها إلى المحمصاني جاء فيها ان أعضاء اللامركزية استحسنوا فكرة ألوان العلم العربي وقرروا الأخذ بها . أما أعضاء العربية الفتاة في بيروت فقد مضوا شوطا بعيدا في تنفيذ قرارهم ، اذ أخذوا يستعملون شارات تحمل تلك الالوان الثلاثة : الأخضر والأبيض والأسود . [١]

وقد استهل حزب اللامركزية بيانه الذي نشره بعنوان (الصرخة الثالثة) ، ووجهه إلى أبناء الامة العربية ، بالعبارات التالية التي تتضمن اشارات واضحة إلى ألوان العلم العربي : « سلاما أيتها الامة . سلام برّ امين ، يظلله في (سواد) الليل (بياض) الضمير و (خضرة) الامل اليقين . » [٢]

وعندما أعلنت الثورة العربية في الحجاز (١٠ حزيران ١٩١٦) لم تكن الظروف قد سمحت لقادتها بتصميم العلم العربي القومي ؛ لذلك رفع الثوار علم الاشراف التقليدي وهو يتألف من قطعة قماش ذات لون واحد هو الاحمر الداكن (العنابي) . وأبلغ الشريف حسين زعيم تلك الثورة مواصفات العلم إلى المندوب السامي البريطاني في مصر يومذاك السير هنري مكماهون ، وطلب اليه إعطاء التعليمات للسفن البريطانية والحليفة في البحر الاحمر ان لا تتعرض بسوء للقوارب العربية التي ترفع ذلك العلم ، وأبلغه أيضاً ان هذا العلم « مؤقت » وانه سيصار فيما بعد إلى وضع علم رسمي تبلغ مواصفاته إلى جميع الدول المحاربة [٣] .

---

(١) رسالتا حقي العظم بتاريخ ١٦ ايار و ٣ تموز ١٩١٤ (كان حقي العظم سكرتير حزب اللامركزية) . كتاب « ايضاحات » ، ص ص ٧٣ -٧٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٩٨ .

(٣) رسالة الشريف إلى المندوب السامي بتاريخ ٢٣ شعبان ١٣٣٤ (الموافق ٢٤ حزيران ١٩١٦) في الملف الموجود في مكتب السجلات العامة في لندن ، بين ملفات وزارة الخارجية البريطانية تحت رقم Public Record Office, F.O. 141/461 وبرقية المكتب العربي في القاهرة إلى الجنرال كلايتون بتاريخ ٧ تموز ١٩١٦ ، F.O. 882/4 No. IG. 851 .

والتفّ حول الشريف حسين عدد من أعضاء الاحزاب العربية السرية ، فحدثوه عن ألوان العلم العربي التي كانت آراؤهم قد استقرّت عليها قبل نشوب الحرب العالمية الاولى وقبل نشوب الثورة العربية ، واقترحوا عليه أن يتخذ منها العلم القومي للدولة العربية الكبيرة التي كانوا يؤملون قيامها ، فوافق الشريف على الأخذ بالفكرة وعمل على تنفيذها [1] . وقد نشرت جريدة « القبلة » بيانا رسميا جاء فيه انه قد تقرر رفع العلم العربي ذي الألوان الأربعة ابتداء من يوم ٩ شعبان ١٣٣٥ هـ ، وهو يوم الذكرى الاولى لقيام الثورة . وقال البيان ان العلم الجديد يتألف من مثلث أحمر اللون (عنّابي) تلتصق به ثلاثة ألوان أفقية متوازية هي الأسود من فوق ثم الأخضر ثم الأبيض . وأوضحت (القبلة) ان اللون الاسود هو رمز راية « العقاب » التي كان النبي (صلعم) يرفعها في حروبه ؛ وهو اللون ذاته الذي اتخذه العباسيون شعارا لهم ، وان اللونين الأخضر والأبيض كانا أيضا من الشعارات التي رفعها العرب قديما ، وان اللون الأحمر العنّابي هو لون الراية التي اعتاد الاشراف أن يرفعوها منذ عهد الشريف (أبي نمي) الذي عاصر السلطان سليم العثماني . وقالت « القبلة » ان ألوان العلم الجديد « جامعة لرموز الاستقلال العربي في كل أدواره التاريخية . » [2]

وقد أشار الدكتور أحمد قدري في مذكراته إلى أن « العربية الفتاة » هي التي أوحت للشريف حسين باتخاذ ألوان العلم العربي الأربعة المعروفة [3] . كما ان جعفر العسكري رئيس وزراء العراق الأسبق يذكر في مذكراته المخطوطة انه في ١٩١٧ ، أثناء أقامته أسيراً عند الانكليز في مصر ؛ عرض عليه الجنرال كلايتون نموذجاً للعلم العربي

---

(١) رسالة خاصة من السيد محب الدين الخطيب الى المؤلف بتاريخ ٢١ ايار ١٩٦٦ .

(٢) القبلة ، العدد ٨٢ ، ٧ شعبان ١٣٣٥ (٢٨ ايار ١٩١٧) ص ٣ . والقبلة هي الجريدة الرسمية التي أصدرتها الحكومة العربية التي تألفت في الحجاز بعيد اعلان الثورة العربية . وكان يحررها السيد محب الدين الخطيب .

(٣) هذا العلم بالذات هو العلم الذي يرفعه الفلسطينيون ويتخذونه شعاراً لهم .

وقال له « هذه هي رايتكم العربية بألوانها الأربعة . لقد أعدّ الملك حسين تصميمها بنفسه . » [1]

ومنذ ذلك الحين ، ظلت هذه الألوان الأربعة وحتّى يومنا هذا ، تؤلف ألوان أعلام عدد من الدول العربية بسبب الجذور القومية التاريخية التي تستند اليها . وقد برزت هذه الالوان في تصميمات مختلفة : فالعلم العربي الذي رفعه المنتدى الادبي – على حد قول مذكرات توفيق السويدي – كان بسيطاً في تصميمه ، يتألف من مستطيلات أربعة متوازية هي الأبيض من فوق ثم الاسود ثم الاخضر ثم الاحمر . أما الدولة السورية الاولى التي بدأت رسمياً في ٨ آذار ١٩٢٠ فقد اتخذت علم الثورة العربية ولكنها أضافت عليه نجمة سباعية بيضاء في وسط المثلّث باعتبار انها الدولة العربية الاولى التي تنبثق عن الدولة الام (الحجاز) [2] . واتخذت الدولة العراقية التي تألفت عام ١٩٢١ علم الثورة العربية ايضا ولكنها أضافت اليه نجمتين سباعيتين في وسط المثلث على اعتبار انها الدولة الثانية التي تنبثق عن الدولة الام . ورفعت امارة شرقي الاردن العلم السوري ذاته على اعتبار انها جزء من سورية الطبيعية . ولكن حدث تبديل في التصميم ، اذ وضع اللون الابيض في الوسط ووضع اللون الاخضر من تحت . ويعود السبب إلى ان ضباط الجيش احتجوا بأن اللون الابيض لا يبدو واضحاً من بعيد اذا بقي في الطرف حتى ليبدو جزءاً من الافق ، وان وضع اللون الأبيض في الوسط يساعد أكثر على تمييز ألوان الراية [3] .

كل هذا ينفي الزعم الذي ظهر قديماً في كتاب عن حياة السير

---

(١) الدكتور زين نور الدين زين ، نضال العرب في سبيل الاستقلال ، ص ٢٥ .

(٢) ان المؤتمر السوري المنعقد في دمشق – الذي قرر قيام هذه الدولة – كان يمثل أقطار سورية الطبيعية (سورية الان ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن) ، وقد اعتبرها ممثلة لهذه الاقطار كلها .

(٣) هذا ما حدثني به أمير اللواء محمد علي العجلوني الذي كان من مؤسسي الجيش العربي الاردني .

مارك سايكس من انه هو الذي وضع ألوان العلم العربي واقترحها على الشريف حسين [١] ، ذلك الزعم الذي أخذه بعض الشعوبيين العرب (او الجهلاء) على انه حقيقة واقعة ، بينما نجد مما تقدم ان العلم العربي الحديث كان من تصميم الطلائعيين العرب من رواد النهضة القومية منذ أوائل هذا القرن ، وعلى رأسهم أعضاء جمعية (العربية الفتاة) أشهر الجمعيات العربية القومية في عصرنا . أما سايكس فقد تبرع بتقديم عدد من التصاميم للعلم العربي بألوانه الأربعة التي سبق ذكرها . وهناك رسالة منه بتاريخ ٢٢ شباط ١٩١٧ إلى ريجنالد ونجت تتضمن اقتراحاً بعلم عربي جديد يحل محل العلم الاحمر الذي رفعته الثورة خلال عامها الاول ، وقد أرفق برسالته أربعة تصاميم مختلفة لكي يقع الاختيار على واحد منها [٢] . وربما كان سايكس أثناء جولاته في البلاد العربية ولقاءاته الكثيرة مع أعضاء الجمعيات العربية — وخاصة في مصر — قد عرف بما استقر رأيهم عليه من هذه الناحية فقدم اقتراحه هذا . وقد يكون حدّث الشريف حسين بهذا الشأن أثناء اجتماعه به في ميناء جدة (الحجاز) في أوائل ايار ١٩١٧ — ولكن لم أستطع العثور في مكتب السجلات العامة في لندن على أية مراسلات تدل على هذا — وحتى لو تبين فيما بعد بوجود مراسلات مع الشريف بشأن اقتراح سايكس ، فمن الثابت قطعاً أن أعضاء الجمعيات العربية هم الذين فكروا بألوان العلم العربي واستقر رأيهم على استعمالها واتخاذها شعارا لهم ، قبل نشوب الحرب وقبل اتصال سايكس بالقضية العربية بسنين عديدة .

---

(١) راجع كتاب **Shane Leslie, *Mark Sykes, His Life and Letters;* (Cassell & Co. Ltd. London, 1923), p. 274.** ومارك سايكس هو ند جورج بيكو الفرنسي ، وقد اشترك كلاهما في وضع اتفاقية سايكس — بيكو المعروفة .

(٢) **Public Record Office, London, F.O. 882/16.**

الفصل الثالث

العرب على مفارق الطرق

عروض من بريطانيا : لم تكد تمضي ستة أشهر على رفض البريطانيين تزويد الشريف بعدد قليل من قطع السلاح الخفيف ، حتى حدث تبدل تام في موقفهم فجاؤا يعرضون على الشريف عرضاً أكبر بكثير من مجرد تزويده بالسلاح . ذلك ان الصداقة التقليدية بين الدولة العثمانية وبريطانيا والتي احتج بها البريطانيون في شباط – نيسان ١٩١٤ ، أخذت تتحول منذ نشوب الحرب خطوة بعد خطوة إلى حالة عداء ، ولم يبق في ايلول ١٩١٤ كثير من الشك في ان الاتراك سوف ينضمون إلى جانب المانيا .

في ذلك الصيف كان اللورد كتشنر يقضي اجازة في بريطانيا ، وعندما نشبت الحرب في أوائل آب بادر إلى العودة إلى مقر عمله في مصر ولكن رئيس الوزراء استدعاه وهو في عرض البحر وعينّه وزيرا للحربية . وفي أوائل ايلول عندما أخذت تصرفات الاتحاديين تدل على أنهم سينضمون إلى جانب المانيا ، تذكر ستورس تلك المحادثات التي أجراها مع الشريف عبد الله ، وتصور ان احتمالات حدوث نزاع بين العرب والاتراك ما تزال قائمة ، فكتب مذكرة بعث بها إلى لورد كتشنر في رسالة خاصة . وفي مذكرته تلك اقترح ستورس الاتصال بالشريف على أساس « اننا اذا ما بادرنا إلى التشاور مع مكة في الوقت المناسب ، فمن المحتمل أن نحقق ؛ ليس حياد الجزيرة العربية فحسب بل التحالف معها في حالة حدوث عدوان عثماني . »[1]

---

(١) رونالد ستورس ، مشرقيات ، لندن ، ١٩٤٥ ، ص ١٤٨ .

كان كتشنر يدرك أهمية العامل الديني اذا ما نشبت الحرب بين الخليفة العثماني وبريطانيا ، لان بريطانيا كانت تحكم عددا كبيرا من المسلمين في الهند ومصر والسودان : وكان أغلب أفراد الجيش الهندي من المسلمين . لذلك اهتم بالبحث عن طريقة يمكن الرد بها على دعاية العثمانيين الدينية واعلان الجهاد ، كما اهتمت الحكومة البريطانية بقضية وصول الحجاج إلى الحجاز حتى لا يترك المجال للدعاية القائلة ان اشتراك بريطانيا في الحرب ضد الخليفة أدى إلى منع الحجاج من الوصول إلى الاماكن المقدسة . وعلى الرغم من انهماك كتشنر في العمل فقد أدرك أهمية الاقتراح الذي بعث به ستورس ، فحصل على موافقة زملائه الوزراء بشأن الاتصال بالشريف حسين . وفي ٢٤ ايلول ١٩١٤ أرسلت وزارة الخارجية إلى الممثل البريطاني في القاهرة البرقية التالية التي كتبها لورد كتشنر بخط يده :

أبلغ ستورس أن يبعث مع رسول يتم اختياره بعناية وبصورة سرية ، برسالة مني إلى الشريف عبد الله غايتها التحقق مما اذا كان سيقف هو وأبوه وعرب الحجاز معنا أو ضدنا ، فيما اذا كان النفوذ المسلح الحالي للالمان في استانبول سوف يضطر السلطان والباب العالي ضد ارادتهما إلى القيام بأعمال عدوانية واعلان الحرب على بريطانيا العظمى .

ووقع الاختيار على تاجر مصري اسمه علي البزّار (او علي أصغر) ليحمل رسالة كتشنر التي ترجمت إلى العربية . وقد غادر الرسول مدينة القاهرة يوم ٥ تشرين الأول ١٩١٤ فبلغ مكة المكرمة وبعد ان سلّم الرسالة عاد إلى القاهرة يوم ٣٠ تشرين الاول وهو يحمل رسالة جوابية من الأمير عبد الله إلى ستورس . وقد جاء في رسالة عبد الله ما يلي :

. . . أنت تعلم اننا اذا لم نستمر في التمسك بالخلافة الاسلامية فلا يمكن تصور أننا نستطيع الوفاء بالتزامات لأية جهة أخرى . وهذا يرتكز على أمرين كلاهما مهم : اولا الديانة ، وثانيا امتناع الخلافة عن التدخل في مصالح بلادنا وابتعادها عن

المس بامتيازاتنا القديمة .ان احتمال حدوث أي شيء يمكن أن يتعارض مع هذين المبدأين الرئيسيين ، أجبرنا على وقوف هذا الموقف الحرج خوفا من أن نتهم بإحداث صدع في الاسلام والتسبب بقيام ثورة فيه . اننا سوف نستمر في الالتزام بهذا الموقف وحده حتى يحدث ما يقتضي تبديله. اما الاشارة التي وردت في رسالتكم ، فاننا وجميع أعيان الحجاز متفقون واياكم بشأنها ، ولهذا السبب تقتضي الضرورة النظر اليها بما تستحق من اعتبار وأهمية . وفوق هذا فبما ان حكومة بريطانيا العظمى تعتبر في نظر العالم الأسلامي، ثاني دولة اسلامية كبيرة ، وبما ان الحجاز لا يمكن مقارنته بأية بلاد أخرى في العالم بسبب أهميته الدينية ، فان المحافظة على قدسيته وعلى قوميتنا وجميع حقوقنا وتقاليدنا حتى الصغير منها ، هي مسألة حياة او موت بالنسبة لنا ، ولا يمكن أن نبخل بأرواحنا لحمايتها والدفاع عنها . وبناء عليه فان أهل الحجاز سوف يقبلون ويرتضون اتحاداً أمتن مع بريطانيا العظمى وحكومتها نتيجة اهمال استانبول الشنيع للدين وحقوق الحجاز ، وفشل الادارة التركية واهمالها الكلي لتعزيز الديانة ماديا وأدبيا ، خارجيا او داخليا . وان بريطانيا العظمى سوف تحتل المكان الأول في نظرهم ما دام انها تحافظ على حقوق بلادنا وحقوق شخص سمو أميرنا الحالي وسيدنا وحقوق امارته واستقلالها من جميع النواحي دون أية استثناءات أو تحفظات ، وما دام انها تعاضدنا ضد أي عدوان خارجي وخاصة ضد الاتراك فيما اذا رغبوا في تعيين شخص آخر لمقام الامارة بقصد خلق نزاع داخلي – وهو المبدأ الذي يسيرون عليه – شريطة أن تضمن حكومة بريطانيا العظمى هذه المبادىء الأساسية بوضوح وخطيا . اننا ننتظر استلام هذه الضمانة في أقرب فرصة .. (١)

ونرى من أقوال علي البزار عن رحلته الأولى إلى الحجاز ان الشريف حسين كان حينذاك في الطائف ؛ وان وكيله الشريف شرف كان يقوم بجميع الأعمال التي يجب أن يقوم بها الوالي العثماني ، وبدا للرسول كأن أحداً من الأهلين لا يرفع شكوى للوالي بل وجد الوكيل يفصل في شكاوى الأهلين ومظالمهم ويعالج قضاياهم المختلفة ويبت في كل أمر بسرعة وصرامة . وبعد أن أقام الرسول بضعة أيام في مكة عاد الشريف اليها هو وابناؤه وسلم الرسول الرسالة للأمير عبد الله واجتمع بالشريف وأبنائه الأربعة . ومما قاله له الشريف « للدولة العثمانية علينا حقوق ونحن لنا حقوق عليها . لقد حاربت حقوقنا ولست أنا

(١) P.R.O., F.O. 371/6237, p. 8. : مترجم عن الانكليزية .

مسؤولا أمام الله اذا هي حاربت حقوقنا كما اني لست مسؤولا أمام الله اذا نحن تبعا لذلك أخذنا نقاومها ..... مدوا لنا يد المساعدة ونحن لن نساعد أبدا هؤلاء الظالمين . انما على العكس سوف نساعد هؤلاء الذين يعملون الخير ... ». وكان من رأي الرسول أنه بالاضافة إلى ميل قادة العرب الطبيعي نحو انكلترا ، فأنهم كانوا يعتقدون ان من غير الممكن أن تلحق المانيا بها الهزيمة . وزيادة في الحذر فان جواب عبد الله لم يسلم للرسول الا بعد أن صعد على ظهر السفينة في ميناء جدة[1] .

وأرسلت دار الاعتماد في القاهرة إلى وزارة الخارجية برقية بتاريخ ٣١ تشرين الأول ، تبلغها فيها بوصول رسالة عبد الله وتقول ان الرسالة « ودية وملائمة » وان الأمير يطلب وعدا خطيا « بأن تمتنع بريطانيا العظمى عن التدخل في المسائل الداخلية في الجزيرة العربية وان تضمن الأمير ضد العدوان الاجنبي والتركي . »

وفي اليوم ذاته تلقت دار الاعتماد من وزارة الخارجية رسالة ثانية من لورد كتشنر تتضمن نص الرسالة التي يجب ارسالها باسمه إلى الشريف عبد الله . وكانت حالة الحرب قد وقعت ذلك اليوم بين بريطانيا والدولة العثمانية . وبالنظر لأهمية هذه الرسالة وما تضمنته من عهد قاطع واشارات إلى « حرية العرب المطلقة ... في جميع أنحاء المعمورة » وإلى تأييد « خلافة عربية » ؛ وبالنظر إلى الاختلاف المهم في النص الانكليزي والنص العربي فاننا ندرج فيما يلي النص الذي أرسلته وزارة الخارجية والنص العربي الذي تلقاه الشريف حسين والذي ما يزال محفوظا حتى اليوم : ترجمة النص الانكليزي :

لقد اشترت المانيا الحكومة التركية بالذهب ، على الرغم من ان انكلترا وفرنسا وروسيا ضمنت سلامة الامبراطورية العثمانية اذا بقي الاتراك على الحياد في الحرب . ان الحكومة التركية ضد ارادة السلطان وبسبب الضغط الالماني —

---

(١) راجع تقرير الرسول كما سجله ستورس في كتابه Orientations (مشرقيات) ص ص ١٥٠ — ١٥٢ .

قد ارتكبت اعمالا عدوانية بغزوها حدود مصر بعصابات مسلحة من الجنود الاتراك .
فاذا كان أمير مكة يرغب في مساعدة بريطانيا العظمى في هذا الصراع ، فان بريطانيا العظمى تقبل – وهي تعترف بالمقام المقدس والفريد للأمير حسين (مع الالقاب) وتحترمه – ان تضمن استقلال وحقوق وامتيازات الشرافة ضد كل اعتداء أجنبي خارجي وخاصة من قبل الاتراك . وحتى الان كنا ندافع عن الاسلام في شخص الاتراك اما من الان وصاعدا فسندافع عن الاسلام في شخص العرب الكرام [هذه الفقرة اضافتها دار الاعتماد على النص المرسل من لندن] .
واذا قامت الامة العربية بمساعدة انكلترا في هذه الحرب التي فرضت علينا من قبل الاتراك ، فان انكلترا سوف تضمن ان لا يقع أي تدخل داخلي في جزيرة العرب وان تقدم للعرب كل مساعدة ضد الاعتداء الأجنبي الخارجي .
ومن الممكن أن يتولى شخص عربي من أصل طيب منصب الخلافة في مكة أو المدينة ، وبهذا يمكن أن ينشأ الخير باذن الله من كل الشر الذي يحدث الان .

أما النص العربي الذي تسلمه الشريف فكما يأتي :

......وبعدفان الذي رأيناه أصبح صحيحاً وتم الا وهو ان المانيا قد اشترت الحكومة التركية بالمال غير ملتفتة إلى الاتحاد الانجليزي الفرنسي الروسي المتكفل بابقاء المملكة العثمانية على ما كانت عليه من عدم التجزئة لو داومت تركيا على الحياد ابان هذه الحرب . ان الحكومة التركية قد اكتسبت يداها أعمالا حربية ضد ارادة مولانا السلطان لغزو الديار المصرية بدون أن يحملها أحد على العداء، وكان كل ذلك بضغط المانيا عليها ، وهي اليوم حاشدة فرقا مسلحة متبوعة بعساكر من الاتراك في العقبة لغزو الديار المصرية . ومع كل هذا فان الغاية الوحيدة التي يتطلبها العرب الا وهي الحرية قد أصبحت اليوم نفس ما تسعى وراءه دولة بريطانيا العظمى ايضا . فلو ان سيادتكم وكافة العربان تساعد انجلترة في مثل هذه المحاربة والنزاع الذي اضطرتنا تركيا بنفسها اليه فان انجلترة تعدكم وعدا صريحا بان لا تتداخل في الأمور الدينية وما عداها بأي صفة كانت ، ثم ان دولة بريطانيا العظمى لمناسبة وضعها تجلةواحترام قدسية مقام صاحب الشرف والسيادة والدكم الأمير حسين الشريف المحفوف بالعناية الالهية تضمن استقلال وكافة حقوق وامتيازات وسلطة واشراف سيادة الشريف ضد كل عداء وتجاوز خارجي ، وعلى الاخص فيما يقوم به العثمانيون من العداء ضد سيادته . واننا لغاية يومنا هذا قد حمينا الاسلام وصادقناه في شخص الاتراك ، ولكننا من الان فصاعدا ستكون حمايتنا للاسلام ومصادقتنا له باسم العرب الاشراف . وعسى الله أن يمن على المؤمنين بخليفة عربي الاصل والحسب والنسب ويشرف على البقعتين

المباركتين بيت الله الحرام والمدينة المنورة وبذلك يبدل يومئذ ربك الشر بالخير . فلو استحسن شريف سيادتكم توصيل بشائر شروق شمس حرية العرب المطلقة لكافة أتباعكم ومحاسيكم في جميع الاقطار والبلدان أو بالحري في جميع أنحاء المعمورة كان ذلك هو المستحسن لدينا . وتقبلوا في الختام فائق الاحترام اللائق بالمقام الشريف .[1]

تلقى الشريف هذه الرسالة السياسية المهمة بقبول حسن : خاصة لورودها من اللورد كتشنر نفسه « الذي لم يكن هناك شخص آخر أرفع مكانة منه في نظر سكان البلاد العربية . »[2]

وعندما عاد علي البزار إلى القاهرة يوم ١٠ كانون الأول ١٩١٤ حمل معه جواب الأمير عبد الله (دون تاريخ) :

« بعد تقديم الاحترام تلقيت رسالتكم المؤرخة ١٢ ذي الحجة ١٣٣٢ (١ تشرين الثاني ١٩١٤) بيد التقدير والاعتبار : وقد اتخذناها أساسا للعمل ومستندا للحاضر والمستقبل . وبناء على هذه الرسالة وبالنظر إلى اخلاصها وملاءمتها ، فان بلادنا أخذت تتمسك بمقترحاتكم تمسكا تاما ، وتتعهد ان تنفذ بكل أمانة ما قلناه في رسالتنا السابقة وما نؤكد عليه في رسالتنا الحالية : وقد ابتعدت منذ تلك الرسالة عن كل ما لا يلائم مصالحكم المادية والمعنوية . وأكثر من هذا فاننا ساعون في تثبيط عزيمة من يحاول الحاق الضرر بتلك المصالح — أي شخص ممن يقيمون خارج ولاية الحجاز .

واذا كنتم تستطيعون أن تدركوا وضعنا الحرج في تحمل مسؤولية الأمر وانكم ستعرفون اننا نفعل ما هو أكثر أهمية من مجرد اجراء ما فرضته الطبيعة علينا بغض النظر عما لو حدثت هذه المفاوضات او لم تحدث ، وعما لو تمّ التوصل إلى اتفاقية اما لا . ان تعاليم الدين الذي

---

(١) الثورة العربية الكبرى ، وثائق وأسانيد ، تحرير سليمان موسى ، دائرة الثقافة والفنون ، عمان ١٩٦٦ ، ص ص ١٥ — ١٦ . (نشر النص الكامل لهذه الرسالة عن أوراق الأمير زيد) .

(٢) P.R.O., F.O. 371/6237, p. 9 .

هو أصل كل عمل ، تمنعنا من القيام بعمل في الحال . ولكن عندما يحين الوقت المناسب ، وهو غير بعيد ، فاننا لا نستطيع الا ان ننفذه ، حتى ولو لم تكن تلك الدولة العثمانية مشغولة بالحرب ، وحتى لو أنها حشدت ضدنا كل جيوشها .

وفي الختام اذكركم اننا نعمل بموجب قوله تعالى « وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم . »[1]

وقد أرسلت دار الاعتماد برقية إلى وزارة الخارجية في اليوم الذي وصل فيه علي البزار ضمنتها خلاصة جواب الشريف ، كما يلي : « عاد الرسول من رحلته الثانية إلى مكة وهو يحمل الجواب من الشريف عبد الله . لقد كتبت الرسالة باسلوب ودي وهي تؤكد المشاعر المعلنة سابقا نحو بريطانيا العظمى . ويعلن فيها بوضوح ان أباه لا ينوي اتباع سياسة معادية لمصالحنا . .

وفي رسالة شفوية ، أكد شريف مكة نفسه بقوة أن مشاعره الودية أشد حرارة بكثير مما يبدو في الرسائل ، ولكنه أشار إلى أن مركزه في العالم الاسلامي والموقف السياسي الحالي في الحجاز يجعلان من المستحيل عليه أن ينفصل عن الاتراك في الحال ، مع انه ينتظر مبررا معقولا كي يفعل ذلك . »[2]

وقد سجل الرسول ما قاله له الشريف ذات ليلة في مكة خلال رحلته الثانية . وجاء على لسان الشريف قوله ان مقترحات البريطانيين جاءت متأخرة ، ولو ان بريطانيا وافقت على طلبه الأول لكانت الأمور أفضل . « وسيأتي اليوم الذي نطلب فيه منها أكثر مما تعد الان لنا وربما كان ذلك غير بعيد » . وقال الشريف ان تركيا تضغط على العرب أكثر مما يستطيعون احتماله ، وانه يعارض مشاريع الاتراك وقد قاوم توزيع النشرات الدعائية على زعماء القبائل والحجاج ،

---

(١) مراسلات مع شريف مكة الأكبر . P.R.O., F.O. 371/2768, p. 3. وهذه ترجمة النص الانكيزي المترجم بدوره عن الأصل العربي المفقود .

(٢) الملف P.R.O., F.O. 371/6237, p. 9.

ولو لم يستجب الوالي لرأيه لقطع العلاقات بالتأكيد مع الدولة . ومن المحتمل أن تنشأ أسباب تؤدي إلى قطع العلاقات في أي يوم . وقال أيضا انه بسبب نفوذه السياسي فإن القوات السورية قد اقتربت من حافة العصيان وسوف تسمع انكلترا عن أعماله ان لم يكن الان ففي المستقبل . ثم أبدى الشريف الأسباب التي تحول دون قيامه بالثورة في الحال بقوله : « ان الأمر الوحيد الذي يمنعني من الثورة ضد الدولة العثمانية هو العالم الاسلامي الذي يتطلع الي الان ويشعر بانزعاج مني ، وخاصة في الظروف الراهنة . وهناك سبب آخر وهو انني لا أستطيع ان أنسى أفضـــال الاسرة المالكة علي . ولكن مقاليد السلطة انتقلت من أيدي هذه الاسرة » . ثم طلب الشريف أن تفك بريطانيا الحصار عن الشواطىء وأن تسمح باستيراد الحبوب . وأبدى حنقه على عدم مراعاة الاتحاديين لفرائض الدين وان اهمالهم للدين يعطيه حرية الخروج على طاعتهم . وأعلن ان الحكومة « أصبحت لا شيء سوى أنور وعصابته . ولذلك فاننا صرنا غير مرتبطين معهم بأية رابطة » . وأخيرا قال انه سيؤجل العمل إلى وقت آخر للأسباب التي شرحها [1] .

بهذا انتهت المرحلة الثانية من الاتصالات بين بريطانيا والشريف . ففي المرحلة الأولى (شباط – نيسان ١٩١٤) اعتذرت بريطانيا عن مساعدة الشريف محتجة بصداقتها التقليدية للدولة العثمانية ، وفي المرحلة الثانية (ايلول – تشرين الثاني ١٩١٤) اعتذر الشريف عن القيام بالثورة ضد الدولة لأنه لا يجد المبرر الكافي أمام العالم الاسلامي . وسوف نرى ان الحوادث سوف تتتابع في داخل الدولة العثمانية ، وان العلاقات بين العرب والاتراك سوف تتدهور تدريجيا بفعل سياسة الاتحاديين حتى تبلغ القناعة الوجدانية مداها عند الشريف بأنه وقومه يقفون على مفترق الطريق ، وأنه أصبح من المستحيل على العرب أن يستمروا في الرضوخ للاستبداد الاتحادي .

---

(١) النص الكامل لما سجله علي البزار على لسان الشريف في الملف P.R.O., F.O. 371/2768, pp. 3-4.

وكانت المرحلة الثانية ذات فائدة عظيمة ، اذ حصلت بريطانيا على وعد من الشريف بأنه لن يؤيد سياسة الجهاد الديني الذي نادى به الاتحاديون ، وحصل الشريف على وعود مهمة تتعلق بحرية العرب وعدم التدخل في الشؤون الدينية وتحبيذ الخلافة العربية . وعلى الرغم من أن هذه الوعود صيغت بأسلوب عام ، الا انها كانت على جانب كبير من التأثير في نفس الشريف وابنائه ، لأنها كانت أول عرض جدي قاطع من دولة عظمى بالوقوف إلى جانب العرب اذا هم هبّوا للمطالبة باستقلالهم .

ولا ينتقص من قيمة ما تمّ التوصل اليه في هذه المرحلة ، أن طلبات الشريف في جواب عبدالله الأول اقتصرت على الحجاز . ذلك لأن رسالة كتشنر الاولى ذاتها اقتصرت بدورها على الشريف وعرب الحجاز لا أكثر . بل اننا نلاحظ في برقية دار الاعتماد إلى وزارة الخارجية بتاريخ ٣١ تشرين الاول ان الشريف طلب وعدا خطياً « بأن تمتنع بريطانيا العظمى عن التدخل في المسائل الداخلية في الجزيرة العربية وأن تضمن الأمير ضد العدوان الأجنبي والتركي » . ولو كنا نملك النص العربي الأساسي لرسالة عبد الله الجوابية لكان بمقدورنا فهم مطالب الشريف ربما بصورة أوضح مما فهمها الشخص الذي ترجمها إلى الانكليزية . وعلى كل حال فان برقية دار الاعتماد واضحة في أن مطالب الشريف تجاوزت الحجاز إلى الجزيرة العربية كلها — ان لم تكن إلى كافة بلاد العرب — وبهذا المفهوم جاءت رسالة كتشنر الثانية تعرض على الشريف أن يقوم هو وكافة العرب بالاشتراك في الحرب إلى جانب بريطانيا ومقابل ذلك تقدم بريطانيا « **العرب كل مساعدة ضد الاعتداء الاجنبي الخارجي** » . اما الاشارة الصريحة للخلافة فقد اعتبر الشريف — وهو على حق في ذلك — ان بريطانيا التي يخضع لحكمها مائة مليون مسلم — أي أكثر من ثلاثة أضعاف المسلمين الذين تضمهم الدولة العثمانية — تؤيد انتقال الخلافة من الاتراك إلى العرب ، وتؤيد الحسين شخصياً في تولي ذلك المنصب الخطير .

ومن المهم أن نذكر ان موقف الشريف والعرب بالنسبة للاتحاديين

لم يكن قد تبلور بعد في تشرين الثاني . كانت الدولة قد دخلت الحرب إلى جانب المانيا وهي خطوة كان الشريف يعتقد انها حماقة وخيانة . ولكن الأمر كان قد صدر لوهيب بك بأن يغادر الحجاز على رأس معظم القوات النظامية ويتجه شمالا نحو قناة السويس، وهذا ما أعطى للشريف فرصة الانفراد بحكم البلاد تقريبا . وعلى الرغم من خلافاته السابقة مع وهيب والاتحاديين ، فان هؤلاء كانوا في تلك الفترة يعطونه الحلاوة من طرف اللسان ويناشدونه ان يتعاون معهم باسم الاسلام وباسم أخذ الثأر من الدول التي عُبّيء الرأي العام في البلاد كلها ضدها — روسيا وفرنسا وبريطانيا .

لقد كان الشريف رجلاً عميق الغور حذراً بعيد النظر ، خبر حلو الحياة ومرّها ، ودرس أحوال الدولة العثمانية دراسة عميقة أثناء الستة عشر عاما التي قضاها في استانبول . وكان مطلعاً إطلاعاً وثيقاً على الحركة العربية بحكم منصبه ، وللمكانة السامية التي يحتلها بين زعماء العرب البارزين ، ثم عن طريق أبنيه عبد الله وفيصل من خلال عضويتهما في مجلس المبعوثان . حقا ان الشريف بحذره الشديد ، لم يكن مرتبطا بأية حركة عربية معيّنة حتى ذلك الحين ، لأن ذلك الارتباط كان سيهدد المنصب الرسمي الذي يحتله في جهاز الدولة . ولكنه كان يعلم أن كثيرين من العرب الاصلاحيين والقوميين يتطلعون اليه ويعلقون عليه الآمال .

ان برقية النواب العرب إلى الشريف التي مرّ ذكرها تعطينا فكرة طيبة عن مكانته كزعيم . ومع اننا لا نعرف ان الشريف أجاب على تلك البرقية ، الا اننا نستطيع أن نقدّر شعوره الداخلي بما يتوقعه العرب منه حتى دون أن يكون بينه وبين أحزابهم اتصال مباشر . ثم ان دخول الأمير عبد الله في ربيع ١٩١٤ عضوا في جمعية « الجامعة العربية » يحمل الدليل على أن الشريف وابناءه كانوا يحملون هموم اليقظة العربية وينتظرون الفرصة التي تتيح لهم أن يحملوا مشعل تلك اليقظة بصورة حاسمة وايجابية وفعّالة . ان بعد نظر الشريف ورجاحة عقله وعمق

تفكيره كانت كلها تقف بينه وبين الاقدام على اتخاذ خطوة متهورة طائشة غير مضمونة النتائج . واذا ما مكّن الشريف لنفسه في الحجاز فهو انما يمكّن بذلك أسباب القوة المادية التي تتيح له ان يعمل بفعالية من أجل خير العرب خارج القطر الحجازي .

عهود علنيـــة ورسائل خاصة : عندما أصبحت حالة الحرب قائمة يوم ٣١ تشرين الاول ١٩١٤ بين الدولة العثمانية من جهة والحلفاء من جهة اخرى ، « أصبح الهدفان الرئيسيان للسياسة البريطانية في الجزيرة العربية :

١ – ابقاء طريق المواصلات البريطانية مفتوحة بين الشرق والبحر الأبيض المتوسط عن طريق البحر الاحمر وقناة السويس .

٢ – اتخاذ اجراءات فعّالة داخل أراضي الدولة العثمانية وخارجها ، لابطال المساعي التركية الرامية إلى إثارة حرب جهاد اسلامية . »[1]

ولتحقيق الهدف الأول اتخذت السلطات البريطانية في بلاد العرب تدابير عسكرية لحماية طريق المواصلات البحرية من عدن حتى قناة السويس ، وفرضت الحصار على شواطىء الجزيرة العربية من جهة الغرب . وبهذه التدابير أصبح اتصال القوات العثمانية المرابطة في الجزيرة العربية مقطوعا مع العالم الخارجي . وكانت تلك القوات تتألف يومذاك من أربع فرق : الفرقه ٢٢ في الحجاز والفرقة ٢١ في عسير والفرقتان ٣٩ و ٤٠ في اليمن .

ولتأمين الهدف الثاني اتجـــه رأي المسؤولـــين البريطانيين إلى اعطاء التأكيدات اللازمة للسكان المسلمين داخل الاقطار الخاضعة لحكم الدول الحليفة ، وخلاصتها ان هذه الدول تعتزم احترام مشاعر المسلمين الدينية وعدم التعرّض لأماكنهم المقدسة في الجزيرة العربية، وكذلك العمل على نشر أنباء هذه السياسة بين أكبر عدد ممكن من سكان الدولة العثمانية وخاصة في بلاد العرب .

---

(١) المكتب العربي في القاهرة، ٢٩ تشرين الثاني ١٩١٦ ، الملف P.R.O., F.O. 371/6237

من هذا المنطلق السياسي أصدرت حكومة الهند بيانا بتاريخ ٢ تشرين الثاني ١٩١٤ بدأته بالقاء مسؤولية نشوب الحرب بين الدولة العثمانية والحلفاء على عاتق الاتراك ، ثم قالت : « ان حكومة جلالته خولت نائب الملك أن يعلن جهاراً التصريح التالي فيما يتعلق بالاماكن المقدسة في بلاد العرب ، ومن ضمنها المساجد والمزارات المقدسة في العراق وميناء جدة ، حتى لا يكون هناك أي سوء فهم في أذهان رعايا جلالته المخلصين من المسلمين حول موقف جلالته في هذه الحرب التي لا دخل للمسائل الدينية فيها . ان هذه الأماكن المقدسة وجدّة لن تكون عرضة للهجوم او الايذاء من قبل القوات العسكرية والبحرية البريطانية اذا لم يحدث أي تدخل ضد الحجاج القادمين من الهند لزيارة الأماكن المقدسة والمزارات المذكورة . وبناء على طلب حكومة جلالته ، فان حكومتي فرنسا وروسيا أعلنتا تأكيدات مماثلة . »

وقد أصدرت الحكومة البريطانية تصريحين مماثلين في مصر والسودان أحدهما بتاريخ ١٨ تشرين الأول والثاني بتاريخ ١٤ تشرين الثاني ١٩١٤ .

وهذا التصريح الثاني جاء في برقية ارسلتها وزارة الخارجية إلى المندوب السامي في القاهرة وتضمنت عهداً مطاطاً يشمل الجزيرة العربية كلها ، وينص على :

> ان حكومة جلالته لا تنوي القيام بأية عمليات عسكرية أو بحرية في جزيرة العرب أو ضد موانئها الا اذا أصبح من الضروري القيام بتلك العمليات لحماية المصالح العربية ضد عدوان من الاتراك او من سواهم ، أو لمناصرة أية محاولة يقوم بها العرب لتحرير أنفسهم من الحكم التركي .

وفي اوائل سنة ١٩١٥ أعدّ السيد علي الميرغني رئيس طائفة الختمية ورئيس قضاة الشرع في السودان مذكرة بشأن الموقف الذي يتوقع المسلمون ان تقفه بريطانيا منهم ، وقدّم الميرغني المذكرة إلى السير ريجالند ونجت الحاكم العام في السودان ، فرفعها بدوره إلى وزير الخارجية

في لندن . وبتاريخ ١٤ نيسان١٩١٥ ارسل السير ادوارد جراي وزير الخارجية إلى المندوب السامي في القاهرة برقية أشار فيها إلى مذكرة الميرغني وقال انه يخوّل ونجت ان يذيع التصريح التالي بشأن سياسة الحكومة البريطانية تجاه الجزيرة العربية والاماكن الاسلامية :

... ان حكومة جلالته سوف تجعل من خططها الأساسية أن تتضمن شروط الصلح بقاء شبه الجزيرة العربية والاماكن المقدسة الاسلامية فيها تحت سلطة دولة مستقلة ذات سيادة . ولكن من غير الممكن في هذه المرحلة تعيين الأراضي التي يجب أن تتضمنها هذه الدولة تعيينا تاما . ان حكومة جلالته ترى أن مسألة الخلافة مسألة يجب أن يفصل فيها المسلمون أنفسهم دون تدخل من الدول غير الاسلامية . واذا ما قرر المسلمون أن ينشئوا خلافة عربية فمن الطبيعي ان تحترم حكومة جلالته ذلك القرار، ولكن للمسلمين أن يتخذوا ذلك القرار.

ان هذا التصريح البالغ الاهمية — الذي أُعطي قبل ان يبدأ الشريف مراسلاته مع بريطانيا — ألزم بريطانيا بتعضيد نشوء دولة عربية مستقلة . « وهذا التصريح أتاح لزعيم عربي كبير هو السيد علي الميرغني ان يلعب الدور المساعد الذي لعبه في المفاوضات مع الشريف . »[1]

ورأى مكماهون من حسن السياسة ان يؤجل اذاعة هذا التصريح على عامة الناس حتى يتم ابلاغه للشريف.وقد قام السير ونجت بابلاغ النص للسيد الميرغني فأرسله هذا بدوره إلى الشريف حسين . وبعد ذلك قامت السلطات البريطانية في أواخر شهر حزيران بنشر وتوزيع التصريح على نطاق واسع في مصر والسودان والجزيرة العربية .

في ٧ ايار١٩١٥أبرق الكولونيل كلايتون الى السير ونجت يسأله عما اذا كان بالامكان ايجاد وسيلة أمينة لبدء المخابرات مع الشريف ، فردّ ونجت في اليوم التالي يقول انه اذا رفع الحصار عن ميناء جدة فيما يتعلق بشحن المواد الغذائية من السودان ، فسيكون بمقدوره ان يجد رسلاً يعتمد عليهم لتوصيل الرسائل للشريف .

---

(١) الملف P.R.O., F.O. 371/6237, p. 11.

ان المصادر العربية تركت لنا نصوص تلك التصريحات الرسمية او مقتطفات منها، والنصوص العربية التي نشرت على العرب تعطي تأكيدات أقوى وأوسع بكثير من نص وزارة الخارجية البريطانية .

ففي جده قامت احدى الطائرات بالقاء منشور صادر من الحكومة البريطانية،واوضح المنشور أسباب نشوب الحرب بين بريطانيا والاتراك ثم قال ان الحكومة البريطانية « قررت انه عند انتهاء الحرب ستجعل بين شرائط الصلح ومواده الرئيسية ان تكون شبه جزيرة العرب والاراضي المقدسة التي فيها مستقلة والا يضم شبر منها إلى اراضينا وأراضي أية دولة اخرى . ومعنى ذلك ان استقلال بلادكم وتمتعها بالحرية أصبح محققاً لا ريب فيه .... كما انا نعدكم وعداً صادقاً ستصيرون بحول الله وقوته امة متمتعة بكل معاني الاستقلال . »[1]

وقد تسرّب عدد من تلك المناشير إلى سورية . ولا بدّ ان العرب الذين اطلعوا على تلك المناشير في سورية والعراق فهموا ان العهد الذي تضمنه التصريح الرسمي يشمل الاقطار العربية كلها . لاحظ الفقرة التالية من المنشور الذي أثبت نصه الكامل الامير شكيب ارسلان ، وقد نشر باسم « جورج الخامس ملك بريطانيا وامبراطور الهند . »

لا يداخلكم ريب من جانبنا وترقبوا سنوح الفرصة المناسبة فهي آتية لا ريب فيها ، وعندها تخلعون عنكم رداء الظلم وتنفضون عن كاهلكم غبار الاستبداد . وانا لا نألو جهداً في مد يد المساعدة اليكم . كما انا نعدكم وعداً صادقاً بأنكم ستصيرون بحول الله وقوته امة متمتعة بكل معاني الاستقلال .[2]

وعلى ضوء تصريح وزارة الخارجية قام السيد الميرغني بإعداد مذكرة طويلة بتاريخ ٦ ايار ١٩١٥ قال فيها انه من الضروري ان تذيع بريطانيا بياناً رسمياً لايضاح رأيها ومقاصدها بشان الخلافة الاسلامية ، لان

---

(١) حسين بن محمد ناصيف ، ماضي الحجاز وحاضره ، ١٣٤٩ هـ (١٩٣٠ م) ص ص ٢٢ — ٢٤ .

(٢) ترجمة كتاب حاضر العالم الاسلامي ، ص ص ٢٨٣ — ٢٨٥ (النص الكامل للمنشور)

تصريحاً كهذا من شأنه تبديد المخاوف التي قد تساور اذهان المسلمين حول هذه المسألة . ثم قال ان مركز الخلافة يجب ان يكون في بلاد العرب ومضى يقول :

ان الرجل الذي يحق له أن يتولى مقاليد السلطة ويصبح الخليفة العربي يجب أن يجمع بين صفتي القوة والمقدرة . وفي الجزيرة العربية كثيرون من الزعماء والقادة المعروفين – بينهم اشراف ينتمون إلى قريش القبيلة التي ينتمي اليها النبي – ومن المحتمل أن يكون هناك أكثر من واحد منهم يطمح إلى تولي مقاليد السلطة ليصبح خليفة المسلمين المعترف به .

انني اعتقد ان شريف مكة وأميرها الحالي هو الرجل الأنسب لهذا المنصب السامي ، بسبب أهمية مركزه الديني في الحجاز الذي يضم الحرمين الشريفين اللذين يقدسهما ويحترمهما كل المسلمين في جميع أنحاء العالم . ويمكن أن نضيف ان شريف مكة وأميرها وثيق القرابة بالنبي ويحترمه المسلمون جميعا احتراما عظيما ، وهذا كله يعطيه الأولوية الضرورية بسبب مركزه الجليل .

وأبدى السيد الميرغني في هذه المذكرة رأيه بان بريطانيا أكثر الدول قدرة على دعم الخليفة العربي بصورة غير مباشرة ، حتى يبايعه المسلمون في مصر والهند والسودان . واذا تردد بعض الزعماء العرب في الجزيرة في الاعتراف بالخليفة الجديد ، فانهم سيعمدون حتماً إلى مبايعته عندما يصبح قوياً بما فيه الكفاية ، وعندما يعترف به جميع مسلمي العالم خليفة لهم .[1]

وكانت الحكومة البريطانية قد ارسلت في شباط ١٩١٥ ثلاثين الف كيس شعير إلى ميناء جده كي يصنع منه الحجاج طعاماً لهم ، ولكن السلطات العثمانية استولت على الشحنة وتصرفت بها ، فامتنعت بريطانيا بعد ذلك عن ارسال الحبوب إلى الحجاز . وفي ٢٢ ايار أعلنت السلطات البريطانية في مصر انها ستعيد فتح التجارة مع جدة ، حتى لا يسبب الحصار . « ضيقاً للحجاج الأبرياء والمواطنين المسالمين في الحجاز»

---

(١) تجد النص الكامل للمذكرة التي قدمها الميرغني إلى ريجنالد ونجت حاكم السودان في الملف F.O. 882/13 .

هذا هو السبب الظاهر اما السبب الحقيقي فهو فتح باب المخابرات مع الشريف .

وهكذا أعيد فتح باب التجارة بين السودان وميناء جدة ، وكتب السيد علي الميرغني في اوائل حزيران ١٩١٥ رسالة إلى الشريف حسين وبعث بها مع رسول خاص. وقد حمّل حاكم السودان العام الرسول الرسالة الشفهية التالية إلى الشريف :

> توجد مبالغ مختلفة من المال مستحقة للقائمين على شؤون الحرمين الشريفين ، من الهند ومصر ، وترغب الحكومة البريطانية أن ترسلها لكم . هل تستطيع أن تقترح واسطة امينة لنقل هذه المبالغ اليك ؟ وهل تستطيع أيضاً أن ترتب طريقة أستطيع بواسطتها أن أتبادل الرسائل معك دون مجازفة بوقوعها في أيد غريبة ؟ توجد لدي مسائل مهمة أود أن أخابرك بخصوصها . (١)

غادر الرسول ميناء سواكن يوم ١٩ حزيران ١٩١٥ وعندما بلغ جده وجدان العرب قطعوا الطريق المؤدي إلى مكة فلم يصل اليها الا في النصف الثاني من آب. ثم مضى إلى الطائف حيث كان الشريف يقيم وسلمه رسالة الميرغني ونقل اليه رسالة حاكم السودان.وقد عمل الشريف ترتيباً لوصول المخابرات من السودان إلى الحجاز . وبعد بضعة ايام أعطى الشريف للرسول رسالتين إلى السيد الميرغني . وعاد الرسول إلى السودان يوم ٢١ ايلول ، وقد أفاد ان الشريف يملك « السلطة الحقيقية والفعّالة » في الحجاز .

لم تتضمن رسالة الشريف المؤرخة في ٣ ايلول ١٩١٥ سوى عبارات المجاملة ، اما الرسالة الثانية وهي دون توقيع وغير مؤرخة فقد جاء فيها ان مشاعر الأهلين الدينية والقومية تدفع كل واحد منهم الى التضحية بحياته على ان يعيش تحت سيادة المانيا وعبيدها . ويضيف : « أوضحنا في السابق رغبات البلاد وجميع ابناء جنسنا في وجه الظروف الراهنة ، حتى يمكن اغتنام اول فرصة لتحقيق النتيجة المنشودة . لقد طفح الكيل

---

(١) تقرير عن أقوال الرسول (ج) بتاريخ ٢١ ايلول ١٩١٥ – (الملف F.O. 882/12)

بسبب الاعمال الشريرة ضد العقيدة والمبادىء الاساسية » . ثم يقول انه لا غنى له عن الاخذ بنصائح الميرغني الحكيمة واقتراحاته الصائبه .[1]

وكان السيد الميرغني قد ارسل للشريف قبل دخول الاتراك في الحرب رسالة يوضح له فيها اهمية اتحاد زعماء الجزيرة العربية ويحضه على العمل في ذلك السبيل . ولسبب ما لم يتلق الميرغني الجواب الذي بعث به الشريف . وبعد ان اشترك الاتراك في الحرب وكتب الميرغني رسالة ثانية يقول فيها انه لم يتلق جواباً على رسالته الاولى، ويقول انه لا بد ان يتعرض سكان الحجاز للضيق وانه وحاكم السودان صديقان ، فهل يود الشريف ان يعرّفه عما اذا كان الحاكم يستطيع ان يمد له يد المساعدة .

في ذلك الحين كانت سياسة بريطانيا العلنية ترمي إلى انشاء دولة اسلامية مستقلة في بلاد العرب،لكي تحل محل الدولة العثمانية كي لا يتهم المسلمون دول الحلفاء بانها عملت على تدمير الدولة الاسلامية الوحيدة التي كانت تتمتع بالاستقلال،ولكي يتطلع المسلمون إلى الخليفة الذي يجلس على عرشها كزعيم ديني لهم . ولكن بريطانيا لم تكن قد توصلت إلى تعيين الاقطار التي يجب ان تشتمل عليها تلك الدولة . نجد هذا كله فيما قاله جراي لكامبون في آذار ١٩١٥عندما فاتحه هذا بموضوع الاقطار العثمانية في آسيا :

> لقد اشترطنا مسبقا انه عند اختفاء الاتراك من استانبول والمضائق ، يجب أن تكون — لمصلحة الاسلام — وحدة سياسية اسلامية مستقلة في مكان آخر . ومن الطبيعي أن يكون مركز تلك الوحدة في البلاد الاسلامية المقدسة ، وان تشتمل على الجزيرة العربية . ولكن يجب أن نتفق فيما بيننا على المناطق الاخرى التي تشتمل عليها تلك الوحدة .[2]

فلا عجب ان يفهم الشريف من هذه التصريحات الرسمية ومن

---

(١) P.R.O., F.O. 882/12, letter «B».

(٢) Grey, vol. III, pp. 211-12.

رسائل كتشنر التي سبقتها ان الحكومة البريطانية قد وضعت خطة ثابتة تقضي بان تنشأ في الجزيرة العربية كلها – وليس في الحجاز فقط – دولة اسلامية كبيرة مستقلة تماماً لكي تحل محل الدولة العثمانية التي لن تحتفظ بكيانها الراهن بعد انتهاء الحرب . ولكن الشريف في ذلك الحين كان قد بدأ اتصالاته الجدية مع القوميين العرب الذين يمثلون سورية والعراق ، فكان من الطبيعي ان تتجه مطامحه ومساعيه – كزعيم عربي يعترف بزعامته العرب والانكليز – إلى ان تشمل الدولة العتيدة كلاً من سورية والعراق .

اتصالات جـانبية : عندما نشبت الحرب بين الحلفاء والدولة العثمانية جعل المسؤولون البريطانيون نصب اعينهم ان يفصلوا العرب عن الاتراك بكل وسيلة من الوسائل . وفي الوقت الذي كانت الحملة الهندية تنزل في جوار البصره ، كان رسل بريطانيا يجرون الاتصالات مع الشريف حسين في الحجاز وابن السعود في نجد والادريسي في عسير ، ينثرون الوعود من جهة ويحرضون من جهة اخرى ويعلنون ان النصر النهائي في الحرب سيكون لبريطانيا العظمى وخلفائها من جهة ثالثة .

بالاضافة إلى هذه النشاطات العسكرية والديبلوماسية، أخذ المسؤولون البريطانيون في مصر بالذات يعقدون الاتصالات مع الزعماء العرب الموجودين في القاهرة لجس النبض والتعرف على الاتجاهات والبحث عن احتمالات العمل الجدي . وكان البادىء بهذه الاتصالات موظفان كبيران اولهما الكولونيل جلبرت كلايتون [1] وثانيهما المستر رونالد ستورس السكرتير الشرقي لدار الاعتماد في مصر .

---

(١) كان كلايتون يشغل ثلاث وظائف آنذاك : معتمد السودان في القاهرة ورئيس المخابرات السياسية ورئيس الاستخبارات العسكرية (رقي فيما بعد إلى رتبة جنرال) . كان ذا خبرة واسعة بالسياسة العربية وظل يتقلب في مناصب خطيرة في مصر وفلسطين حتى توفي في بغداد عام ١٩٢٩ بعد أن قضى فيها ستة أشهر مندوبا ساميا للعراق .

ففي مصر كانت يقيم عدد من الزعماء السوريين ذوي النفوذ والزعامة وعلى الأخص أقطاب حزب اللامركزية : رفيق العظم والشيخ رشيد رضا واسكندر عمون . وكان لحزب اللامركزية اتصال وثيق بالاتجاهات السياسية في سورية عن طريق فروعه المنتشرة في المدن الكبيرة. وكان اولئك الزعماء وكثيرون من رفاقهم قد اختاروا منذ عدة سنوات ان يعملوا من اجل بلادهم في مصر حيث لا تطالهم ايدي السادة الحاكمين في استانبول وحيث يتاح لهم قسط أكبر من حرية العمل . ونرى مثالاً على صلة اولئك الزعماء باقرانهم ممن كانوا يعملون في سورية ، في ان جمعية الفتاة أوفدت في شهر آب ١٩١٤ محمد المحمصاني أحد اعضائها البارزين إلى مصر للبحث مع اعضاء اللامركزية فيما يجب ان يكون عليه موقف العرب . وبعد التداول قرر اولئك الزعماء انهم لا يستطيعون البت في الامر وانه يجب عليهم التشاور مع امراء العرب في الجزيرة العربية وأخذ رأيهم حول الموقف الموحد الذي يتوجب على العرب جميعاً ان يتخذوه في حالة اشتراك الاتراك في الحرب . وقد عاد محمد المحمصاني إلى بيروت بينما انتدب حزب اللامركزية السيد محب الدين الخطيب للسفر إلى نجد والعراق بقصد الاجتماع مع ابن السعود وطالب النقيب . وفي شهر تشرين الاول ١٩١٤ سافر محب الدين ومعه بدوي من نجد يُدعى عبد العزيز العتيقي . وعند وصوله إلى الكويت قامت السلطات العسكرية البريطانية باعتقاله وساقته إلى البصرة ليقضي سبعة أشهر في المعتقل ، أطلق بعدها سراحه وأعيد إلى مصر دون ان يعرف سبب اعتقاله . (١)

---

(١) حمل الخطيب معه رسالة تقديم وتعريف من الشيخ رشيد رضا ولكن لم تكن للانكليز أية علاقة بمهمته ، وهو يظن ان أسباب اعتقاله تعود إلى خشية السلطات الانكليزية في العراق من أن يقوم بتحريض ابن السعود ضدها . أما محمد القلقيلي الذي سافر إلى سورية وفلسطين فقد كان محررا في جريدة الكوكب التي كانت السلطات البريطانية في مصر تصدرها لأغراض الدعاية . ولم يكن له علاقة باللا مركزيين . (هذا يناقض ما جاء به أمين سعيد في الثورة العربية الكبرى ، المجلد الاول ، ص ١٢٩ ونقله عنه ايلي خضوري في كتابه : انكلترا والشرق الاوسط ، ص ٦٢) .

وفي تشرين الاول ١٩١٤ أوفدت الفتاة عضواً آخر إلى مصر هو الشيخ كامل كريم القصاب لاجراء مزيد من المداولات ، فجاء هذا إلى القاهرة وبحث مع اعضاء اللامركزية تطورات الموقف فأجمع الرأي على ان دخول الدولة العثمانية في الحرب لن يكون من مصلحة العرب سواء انتصر الالمان ام الحلفاء . وعاد القصاب يحمل هذا الرأي إلى زملائه ولكن الدولة العثمانية كانت قد دخلت في الحرب حينذاك فألقي القبض عليه عند وصوله إلى دمشق وسيق إلى محكمة عاليه ، ولكنه استطاع ان يقنع المحكمة ببراءته . وبعد خروجه من السجن سافر إلى الحجاز وبقي مع الشريف حسين .

وقد بدأ المستر ستورس اتصالاته باقطاب حزب اللامركزية منذ نشوب الحرب وأخذ يسألهم عن خططهم وآرائهم ، فكان الجواب انهم على استعداد لتأييد كل حركة ترمي إلى استقلال العرب مهما كان شأنها . وبعد محادثات عديدة تم الاتفاق على ان يكتبوا شروطهم الخاصة باستقلال العرب فاذا وافقت بريطانيا عليها وأعلنتها رسمياً بادروا هم للسعي إلى ايقاد الثورات في البلاد العربية . وكتب اللامركزيون بيانهم فأرسلته السلطات إلى لندن ولكنه أعيد من هناك مشوهاً ومبتوراً ، فرفضه اللامركزيون وامتنعوا عن العمل . [1]

وكان قرار بريطانيا بتاريخ ١٨ كانون الاول ١٩١٤ بسط حمايتها على مصر صدمة لحملة الفكرة العربية المقيمين هناك ، اذ تبادر إلى أذهانهم ان الادعاء القائم على ان بريطانيا لم تخض الحرب الا دفاعاً عن حرية الشعوب المظلومة — ليس الا من باب التمويه والخداع . بل ان بعضهم فكر بمغادرة مصر والسفر إلى استانبول للكشف عن حقيقة نيات بريطانيا خوفاً من ان يخدع العرب في سورية والعراق بوعود الحلفاء . [2]

وجرت اتصالات اخرى مع عزيز علي المصري . فعلى قول كلايتون

(١) امين سعيد ، الثورة العربية الكبرى ، الجزء الأول ، ص ص ١٢٨ — ١٢٩ .
(٢) أسعد داغر ، مذكراتي على هامش القضية العربية ، ص ٧٧ .

كان عزيز علي قد اتصل به عند بدء الحرب وعرض عليه مشروعاً للعمل في العراق . وقد ابلغ كلايتون دار الاعتماد بعرض عزيز علي ولكنها لم تتخذ اية اجراءات . ولكن في منتصف تشرين الثاني ١٩١٤ أبلغت وزارة الخارجية بالمسألة فأبرقت إلى مصر :

يجب منح الحركة العربية كل تشجيع ممكن . يمكنكم ارسال عزيز علي إلى العراق للقيام بتنظيم اذا رأيتم ان في ذلك فائدة ، على أن يعطى ألفي جنيه أو حوالي ذلك . انه يستطيع أن يخبركم بالنتائج . واذا تمكن من بدء أية حركة بين العرب فان مزيدا من التعضيد يمكن أن يقدم له .

وتم الاتفاق بين كلايتون وعزيز علي أن يتصل هذا الاخير بصديقه في العراق (الارجح انه نوري السعيد) [١] .

ومما يجب الاشارة اليه ان الانكليز في الشرق لم يكونوا يصدرون في تصرفاتهم نحو العرب عن مدرسة واحدة ذات اتجاه واحد، بل كانت هناك مدرستان ، الاولى في القاهرة وتقول بالتعاون مع العرب ومنحهم بعض الشروط لكسب تعاونهم والثانية في الهند والخليج والبصرة وتقول بالفتح العسكري وعدم منح أية وعود او شروط ذات صبغة عامة ، وان كان لا بدّ من اتفاقيات فلتكن مع كل زعيم محلي على حدة . ويبدو اختلاف نظرة المدرستين في المعاملة التي عومل بها السيد طالب النقيب على أيدي رجال المدرسة الهندية .

كان طالب النقيب كما وصفه المستر لونجريج « مقتدراً ، جذاباً ، لا يتقيد بالمبادىء ، رجل دولة طموحاً ؛ زعيم عصابة ووطنياً .» [٢] وقد تقلب بين الولاء للاتحاديين والعداء لهم حتى وطد زعامته في البصرة ، وهو الذي توسط بين ابن السعود والدولة العثمانية وكان من نتيجة وساطته عقد معاهدة ١٥ ايار ١٩١٤ بين الطرفين . وفي تلك الفترة دخل طالب في مفاوضات مع الانكليز في الخليج بواسطة شيخ المحمرة .

---

(١) P.R.O., F.O. 882/2.

(٢) العراق ١٩٠٠ – ١٩٥٠ ، الفصل الثاني ، ص ٤٥ .

ولكن الانكليز ساورتهم الشكوك فيه ولم يطمئنوا له . وعندما احتلت الحملة الهندية مدينة البصرة بادر السير برسي كوكس — المقيم السياسي في الخليج ورئيس الضباط السياسيين في الحملة الهندية — إلى نفيه إلى الهند . وقيل ان ذلك يعود إلى أنه رفض أن يتعاون معهم الا اذا تعهدوا بمنح البلاد شيئا من الحقوق . وقد بقي طالب في المنفى حتى سنة ١٩١٧ عندما سمح له بالمجيء إلى مصر « بناء على التماس الملك حسين من السلطات البريطانية .»[١] ومن المعتقد ان طالب النقيب كان يطمح إلى أن يتعاون مع السلطات البريطانية شريطة أن يتولى هو امارة ولاية البصرة وربما ولاية بغداد معها ، ولكن تلك السلطات لم تكن لتطمئن إلى ثباته وولائه في المستقبل قياسا على تقلبه مع السلطات العثمانية .

لم تكن السلطات البريطانية في الحملة الهندية تريد شريكاً لها في حكم البلاد حاضرا ومستقبلا ، وقد رفضت التعاون مع جميع الوطنين العرب الذين عرضوا التعاون المشروط معها . ان تلك السلطات التي زجت بالسيد محب الدين الخطيب في السجن فعلت الشيء ذاته تقريبا مع نوري السعيد . فقد كان نوري ضابطـاً في الجيش العثماني ومن أعضاء حزب العهد ، وقد لفت نشاطه وحماسته اللذان أبداهما عند اعتقال عزيز علي ، انظار الاتحاديين فأصدروا أمراً باعتقاله ، ولكنه كان أسرع منهم في العمل اذا غادر استانبول متنكرا على باخرة فرنسية تقصد القاهرة . ولم يلبث نوري طويلا في القاهرة بعد مجيء عزيز علي اليها ، فغادرها إلى البصرة ولجأ في حزيران ١٩١٤ إلى حماية طالب النقيب الذي كان حينذاك حاكم البصرة الفعلي لا يستطيع المأمورون الاتراك أن يقوموا بعمل لا ينال رضاه [٢] . وبعد ان احتل البريطانيون

(١) مذكرات سليمان فيضي ، ص ٢٤٣ .

(٢) غادر نوري السعيد مصر هو ورفيقه في حزب العهد الدكتور عبد الله الدملوجي ، وبعد وصولهما إلى البصرة كتبا إلى ابن السعود يقولان انهما وعدداً من رفاقهما يستعدون للعمل من أجل بلادهم ، فدعاهما ابن السعود للمجيء إلى الرياض . وقد أصيب نوري بمرض أضطره إلى ملازمة المستشفى بينما سافر الدكتور الدملوجي وقضى عدة سنوات في خدمة ابن السعود .

البصرة ذهب نوري السعيد لمقابلة برسي كوكس وحدثه عن العرب ومطامحهم ، ولكن برسي كوكس أرسله إلى الهند نفياً وتغريبا وبقي هناك مدة أحد عشر شهراً « كانت وزارة الهند لا تعرف شيئاً عن الحركة العربية . كانت تعرف الخليج الفارسي فقط »[1] . ثم كتب إلى صديقه عزيز علي فسمحت له السلطات البريطانية بالذهاب إلى مصر في كانون الاول ١٩١٥ حيث اشترط عليه الا يشتغل بالسياسة .

كانت مدرسة الحكومة الهندية تقول بحكم البلاد العربية التي يمكن انتزاعها من العثمانيين على أسلوب الحكم المطبق في الهند ذاتها ، لكي يمكن منح تلك البلاد حكما منتظما مباشراً قويا لا تعوقه دواعي العنعنات التقليدية المحلية . ومن هذا المنطلق كانت تلك الحكومة تعمل لحسابها في الجزيرة العربية :فهي تمد نفوذها من عدن نحو عسير فتعقد معاهدة مع الادريسي في ٣٠ نيسان ١٩١٥ وتمد ذلك النفوذ من خليج البصرة فتعقد معاهدة مع ابن السعود في ٢٦ كانون الأول ١٩١٥ [2] . أما تطبيق الحكم المباشر فقد كان في العراق حيث ظلت حكومة الهند تدير العمليات الحربية مستقلة عن وزارة الحربية البريطانية إلى ما بعد حصار كوت الامارة وتسليم تاونسند للاتراك في نيسان ١٩١٦.اذ تبين قصورها في القيام بما تتطلبه تلك الحملة من إعدادات ضخمة ، فتولت وزارة الحربية السيطرة التامة على الحملة في تموز ١٩١٦ .

وعندما بدأ جمال باشا عام ١٩١٥ سياسة البطش والتنكيل في سورية ، بادر الدكتور عبد الرحمن الشهبندر إلى الفرار من دمشق سيرا على قدميه فوصل إلى البصرة بعد رحلة استغرقت ثلاثة أشهر . وعندما قدم الشهبندر نفسه لبرسي كوكس رفض هذا ابقاءه في العراق وطلب اليه أن يلحق بأصدقائه في مصر . وبالفعل سافر عن طريق الهند ووصل إلى مصر في كانون الأول ١٩١٥ .

---

(١) هذا قول نوري السعيد ، لونجريج ، العراق ، ص ٢٦ .

(٢) صودق على المعاهدة مع الادريسي في ٦ تشرين الثاني ١٩١٥ ، وعلى المعاهدة مع ابن سعود في ١٨ تموز ١٩١٦ .

ولم ييأس المسؤولون البريطانيون في مصر من امكان الاستفادة من الزعماء العرب الموجودين في القاهرة ولم يقطعوا حبل الاتصال معهم. وبينما كانت المراسلات تدور مع الشريف حسين خلال سنة ١٩١٥ كان ستورس وكلايتون يستطلعان آراء اولئك الزعماء — دون أن يبوحا لأحد منهم بسرّ المراسلات مع الشريف. وعندما جاء الفاروقي [١] في تشرين الأول ١٩١٥ إلى مصر أطلعه البريطانيون كما أطلعوا عزيز علي على العرض المحدّد الذي عُرض على الشريف فوافق عليه كلاهما [٢] وكان الانكليز يرغبون أن تجتمع كلمة العرب على اتفاق عام ذي خطوط عريضة حتّى يكون للثورة حين قيامها ضد الاتراك تأثير فعّال ودوي بعيد داخل البلاد العربية وخارجها.

ومع ان اتفاق العرب كان يلائم خطط البريطانيين عندما كان يجري الاستعداد للثورة ضد الاتراك، الا ان مكماهون — مثلا — كان يرى ان تباعد كلمة العرب « يجعل مسألة قيام اتحاد عربي أقلّ احتمالا من أن يصبح أمراً مربكا لنا في المستقبل ». بل ان مكماهون كان يرى أن تنظيم مجموعة عربية تنظيما شاملا ضد الاتراك سيكون عملا « غير حكيم ». لهذا اتجهت خطط البريطانيين للحصول على أية مساعدة فعالة يمكن لكل جماعة عربية أن تقدمها منفردة للمجهود الحربي.

ولما كانت هذه الخطط قد أحرزت نجاحا فيما يتعلق بالشريف وابن السعود والادريسي، فقد اتجهت أنظار رجال بريطانيا إلى اثارة

---

(١) محمد شريف الفاروقي : ولد في الموصل سنة ١٨٩١ وتخرج من المدرسة العسكرية في استانبول ضابط مشاة. انضم إلى جمعية العهد ثم إلى العربية الفتاة. اعتقله الاتراك في حلب وحقق معه جمال باشا نفسه، وعندما أطلق سراحه أرسل إلى جبهة القتال في غاليبولي قائدا لسرية مشاة. وهناك اجتاز خط القتال وسلم نفسه للقوات الانكليزية التي نقلته إلى مصر بناء على طلبه. بعد اعلان الثورة اشترك في العمليات العسكرية ثم عينه الشريف حسين ممثلا له في القاهرة، ولكنه في عام ١٩١٧ استغنى عن خدماته. قتل غيلة في العراق أثناء ثورة ١٩٢٠.

(٢) رسالة خاصة بتاريخ ٣٠ تشرين الاول ١٩١٥ الى تيريل والمقصود هنا ما جاء في رسالة مكماهون المؤرخة ٢٤ تشرين الاول ١٩١٥. P.R.O., F.O. 882/2

اعتصاب في صفوف الجنود والضباط العرب في الجيوش العثمانية . ورأوا أن أفضل السبل لتحقيق ذلك هو الاتفاق مع جمعية العهد التي يمثلها عزيز علي والفاروقي . وبالنظر إلى أن الشريف كان يحاول إثارة الاعتصاب في سورية ، فقد ركز الانكليز همهم على تشجيع قيام اعتصاب مماثل في العراق .

ولكن عزيز علي والفاروقي طلبا « تأكيداً محدداً للسياسة البريطانية تجاه بلاد العرب »(هنا يستعمل مكماهون كلمة Arabia أي « جزيرة العرب » بينما يقصد بلاد العرب). اذ كانا يعتقدان ان تأكيدا من هذا النوع هو مسألة ضرورية لنجاح مساعيهما مع العناصر العربية في الجيش العثماني العامل في العراق . وعبّر مكماهون عن اعتقاده بأن عزيز علي والفاروقي سوف يرضيان بالتأكيدات التي أعطيت للشريف .

وقد أجابت وزارة الخارجية في ٢٢ آذار ١٩١٦ بان اللورد كتشنر كان قد اقترح ان يرسل الفاروقي إلى العراق ولكن كلايتون عارض ذلك . وانه بالامكان ارسال الفاروقي الان اذا لم يكن لكلايتون اعتراض ، وفيما بعد يمكن ارسال عزيز علي اذا رأى كلايتون فائدة في ذلك ، رغم ان كتشنر يشك في امكانات الاستفادة من عزيز علي . وفوضت وزارة الخارجية مكماهون باعطاء التأكيدات شريطة أن لا تتجاوز التأكيدات المعطاة للشريف [1] .

ولكن وزارة الخارجية عادت تحذّر مكماهون في ٥ نيسان ١٩١٦ من مغبة اعطاء تأكيدات لافراد لا يُعرف مدى نفوذهم ، ومعاملتهم كنظراء للشريف الذي قال في مذكرته الاولى انه يتكلم بالنيابة عن « مملكة الشريف العربية » وقال في رسالته المؤرخة في ١ كانون الثاني ١٩١٦ بأنه يمثـل قرارات ورغبات قومه وأنـه ينطق باسمهم . وقالت وزارة الخارجية ان تأكيدات تعطى لأفراد مثل عزيزوالفاروقي ستجعل من الصعب على الشريف أن ينجح في فصل العرب في الجيش

---

(١) برقية مكماهون إلى وزارة الخارجية في ٢١ آذار ١٩١٦ وجواب وزارة الخارجية — P.R.O., F.O. 371/2767.

العثماني عن الاتراك وجلبهم إلى جانبه بأعداد كبيرة .

وفي آذار ١٩١٦ ذهب لورنس، ضابط الاستخبارات ،من القاهرة إلى البصرة ليبحث امكانات العمل على ايقاد ثورة عربية في العراق . وتباحث لورنس مع كوكس فوجده « جاهلا كل الجهل موضوع الجمعيات العربية والسياسات التركية » . وسمع كوكس يشكو من ان مكماهون بحث موضوع العراق مع الشريف . وأبدى كوكس معارضة شديدة في مجيء الزعماء العرب من مصر إلى العراق [1] .

وفي البصرة أخذ لورنس يبحث عن رجال الأحزاب العرب بقصد تشجيعهم على القيام بحركة ضد الاتراك . وقاده البحث إلى سليمان فيضي عضو مجلس المبعوثان وسكرتير الجمعية الاصلاحية فاستدعاه وعرض عليه العمل على تنظيم ثورة عربية بعد أن أكّد له أن بريطانيا « بدون شك عازمة على افساح المجال للشعوب العربية كي تتمتع باستقلالها وتنال حقوقها ، بشرط أن يساهم العرب أنفسهم في الحصول على ذلك الاستقلال . وأن يبرهنوا على رغبتهم فيه . وهناك على ما أعتقد وسيلة واحدة لتحقيق ذلك ، الا وهي الثورة ، فاذا أعلن العرب الثورة على الاتراك وحاربوهم بجانب الجيوش البريطانية ، فسيكون لهم الاستقلال والحرية . أما اذا قبعوا في دورهم ، آملين أن تمنحهم بريطانيا الاستقلال بعد نصرها ، فذلك أمر غير معقول ، خاصة لأن بريطانيا مسؤولة أمام حلفائها عن تصرفاتها تجاه الشعوب الخاضعة للحكم العثماني . اذن فلا بدّ من الثورة لتنال البلاد العربية استقلالها » .

ولكن تحريضات لورنس ووعوده بأن يقدم له الأموال الطائلة والأسلحة لكي يجمع المحاربين حوله ، لم تكن مجدية ، اذ اعتذر سليمان فيضي بأنه رجل حضري لا تعضده عشيرة ولا زعامة تقليدية له ، وبأنـــه شخصيا لا يرى « مبررا الى الانتقام من الترك . اذ ليس بيننا وبينهم عداء ، وانما العداء مستحكم بينهم وبينكم فحسب » ،

---

(١) برقية من لورنس في ٨ نيسان ١٩١٦ – F.O. 882/15

وان العرب كانوا يطالبون بالاصلاحات الداخلية ولم يكونوا يطلبون الانفصال عن الترك . وقال ان العراقيين أصبحوا يكنون شعور العداء لبريطانيا « بعد الذي لمسوه من معاملة سيئة وازدراء مشين على أيدي رجالها العسكريين » . وبناء على نصيحة لورنس استشار سليمان فيضي أصدقاءه مولود مخلص وعلي جودت وعبد الله الدليمي (ضباط عراقيون من أعضاء حزب العهد وقد وقعوا في أسر القوات البريطانية) فوافقوه على صواب الخطة التي اتخذها برفض القبول بتكليف لورنس . وعندما اقترح سليمان فيضي على لورنس أن يتصل بطالب النقيب لأنه أقدر من يقوم بهذه المهمة في جهات البصرة أجابه هذا بأن الحكومة البريطانية لا ترغب في ذلك .[1]

واقتنعت وزارتا الخارجية والحربية بأنه سيكون بمقدور الشريف فصل العناصر العربية في الجيش العثماني في سورية والجزيرة العربية وجلبها إلى جانبه ، ومن هنا رأتا ان من المرغوب فيه القيام بحركة مماثلة في العراق . وقد أوكلت هذه المهمة إلى لورنس إلى حد ما . وسمحت وزارة الخارجية في آذار ١٩١٦ بذهاب عزيز علي والفاروقي إلى البصرة للعمل على تحقيق تلك الغاية . ولكن الجنرال ليك لم يوافق على حضورهما بحجة ان وجودهما في العراق سيكون « مربكاً وغير مرغوب فيه » ، وأن الآراء التي يحملانها « تقدمية كثيراً » بحيث لا تناسب منطقة تخضع للاحتلال العسكري .[2]

ورأت وزارة الخارجية أن يستدعى طالب النقيب من الهند إلى البصرة لأن تعاونه « أمر حيوي لتحقيق النجاح » ولكن حكومة الهند لم توافق على ذلك . وأثناء المباحثات التي جرت في القاهرة مع المسؤولين البريطانيين من جهة ومع عزيز علي ونوري السعيد والفاروقي والشهبندر ورشيد رضا من جهة اخرى ، قيل لهؤلاء ان بريطانيا « غير مستعدة في الوقت الحاضر أن تفعل أكثر من إعطاء تأكيدات عامة حول الاستقلال

(١) مذكرات سليمان فيضي، بغداد ١٩٥٢ ، فصل «لورنس في العراق» ، ص ص ٢٠٨-٢٢٦ .
(٢) برقية ليك بتاريخ ٣٠ آذار ١٩١٦ - F.O. 882/13

العربي» ، وان بريطانيا تريد أولا أن ترى طبيعة الحكومة التي ستقوم في العراق ومقدرتها على تنفيذ « التأكيدات التي يمكن أن تعطيها لنا » . واقتصر الأمر على اعطاء « وعد بسيط بأن نفعل كل ما بوسعنا لمساعدة الاستقلال العربي » . وأخيراً قر القرار أن يذهب عزيز علي ونوري السعيد والشهبندر إلى البصرة ، لكي يتعاونوا مع لورنس على ايجاد حركة عربية تعمل في المجال العسكري عملا يساعد عمليات الجيش البريطاني . ولكن كل هذه المشاريع فشلت أمام تصلب حكومة الهند ورفضها التعاون مع العرب [1] .

الشريف وابن السعود : من الأهمية بمكـــان بحث موضوع علاقة الاشراف والسعوديين ، لما له من التأثير في مجرى الأحداث التي جرت في الجزيرة العربية أبان الحرب العالمية وبعدها ، ولما كان لتلك العلاقات من تأثير في اخفاق الملك حسين في انشاء المملكة العربية الموحدة التي كانت الهدف الأكبر من ثورته ضد الاتراك . لقد كانت هنالك ضغائن قديمة تعود إلى ما قبل قرن من الزمن : ضغائن عائلية ومذهبية . ففي أوائل القرن التاسع عشر هاجم السعوديون الحجاز — وهم يحملون رايات المذهب الوهابي — وانتزعوه من أيدي الاشراف امرائه التقليديين ، وظلوا يحكمونه حتى جاء المصريون وأخرجوهم .

وكان امراء آل الرشيد (زعماء قبائل شمّر) قد اغتنموا فرصة ضعف السعوديين فبسطوا سيطرتهم على أكثر مناطق نجد ، وتمكن كبيرهم محمد بن الرشيد عام ١٨٩١ من الانتصار على السعوديين في معركة حاسمة قيل انها أعظم معركة حربية تقع في الجزيرة العربية منذ عهد الخلفـــاء الراشدين . ونتج عن المعركة خروج امراء آل سعود من نجد كلها ولجوئهم إلى الكويت . وفي ١٩٠٣ خرج الأمـــير

---

(١) راجع P.R.O., F.O. 371/2768 ؛ ورسالة خاصة من القاهرة إلى لورنس بتاريخ ٢٦ آذار ١٩١٦ — F.O. 882/15

الشاب عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود غازيا من الكويت فاستولى على الرياض عاصمة أبيه وأخذ يمد سلطانه بعد ذلك شيئا فشيئا .

وها هو نجم عبد العزيز يتألق رويداً رويـــداً في سماء الجزيرة العربية فتتوالى غزواته في نجد ، لا يكاد يحط رحاله من غزوة حتى يهب إلى غزوة اخرى ، فتدين له القبائل العاصية وتتسع دائرة ملكـــه سنة فسنة ، وهو يتذرع لكل ذلك بعزيمة جبـــارة وشجاعة خارقة ودهاء عظيم .

في بادىء الأمر سارت العلاقات بين الشريف حسين وعبد العزيز سيراً حسنا . لقد كانت الصحراء الواسعة تفصل بين نجد والحجاز من جهة ، ومن جهة أخرى كانت نجد مسرحاً لنزاع عائلي عميق الجذور بين آل سعود في نجد الجنوبية وآل الرشيد في نجد الشمالية . لذلك انصرف الشريف في العامين الاولين لامارته (١٩٠٨ – ١٩٠٩) إلى توطيد نفوذه بين قبائل الحجاز وكسب ولائها ؛ وإلى التمكين لنفسه في مدن الحجاز على حساب الوالي التركي ومأموريه .

ولكن الأحداث التي كانت تقع في نجد وعسير اضطرت الشريف حسين إلى الاهتمام بها . فقد استعانت به الدولة كي يساعدها على توطيد نفوذها وهيبتها لدى الادريسي وابن السعود [(١)] . ومن جهة اخرى استعانت به قبيلة عتيبة (وهي من أكبر قبائل الجزيرة العربية وكانت منازلها في نجد والحجاز) شاكية من ان ابن السعود أخذ يرسل جباته يطلبون الزكاة منها . وبما ان القبيلة التي تدفع الزكاة لأمير ما تصبح بطبيعة الحال تابعة له ، فان شيوخ القبيلة أبلغوا الشريف بطلب ابن السعود وقالوا انهم يعتبرون أنفسهم من أتباعه هو (الشريف) .

---

(١) بعث سعدون المنصور شيخ قبائل المنتفك في العراق برسالة مؤرخة في ١٢ ايار ١٩١٠ إلى الصدارة العظمى يشكو فيها من غزوات الوهابيين . ومما جاء في الرسالة قوله « ان هؤلاء الوهابيين يعتبرون ان جميع المسلمين الذين لا يتبعون مذهبهم ، غير مؤمنين . وان علماء نجد الوهابيين يعطون جماعتهم فتاوى مؤداها ان ممتلكات غير الوهابيين غنائم شرعية وأرواحهم مباحة ».– P.R.O., F.O. 371/1007

في تلك الفترة كان الشريف مؤمنا بضرورة معاضدة الدولة العثمانية حتى تتمكن من رد عدوان الدول الاوروبية ولا توزع قواها بين إخماد الفتن الداخلية ورد الاعتداءات الخارجية . كان الشريف حينذاك يقول بأنه يجب « على كل مسلم تقوية خليفة المسلمين ولو بعقال بعير . »[1]

وفي باديء الأمر كتب الشريف إلى ابن السعود يقول له أنه يريد استعادة حقوق الاشراف القديمة في تولي السيادة على قبيلتي عتيبة وحرب بجميع عشائرهما . ولم يوافق ابن السعود على ما أراده الشريف ولم يسر له[2] . ثم جمع الشريف جيشا من البدو والحضر في أواخر تموز ١٩١٠ وزحف شرقـــا إلى القصيم فنزل « القويعية » من منازل عتيبة حيث تمكن من أخذ سعد الاخ الاصغر لعبد العزيز أسيراً ، ومن هناك رحل الشريف إلى موقع « الشعرا » ومنها إلى موقع قريب من « الوشم » .

يبدو أن أنباء خروج الشريف إلى الشرق لم تبلغ ابن السعود بسرعة ، اذ انه في الوقت الذي كان فيه الشريف يزحف نحو منازل عتيبة الشرقية . بعث بأخيه سعد ليجمع الزكاة من تلك القبيلة بالذات ويطلب إلى رجالها أن يحتشدوا ويصادموا الشريف ولا يسمحوا له بالتوغل في نجد[3] .

---

(١) محمد جميل بيهم ،العهد المخضرم في سوريا ولبنان، دار الطليعة، بيروت١٩٦٨ ،ص ٣٠ .

(٢) يملك المؤلف نص عدد من الرسائل المؤرخة في ٢٣ شعبان ١٣٢٨ (٣٠ آب ١٩١٠) ، وهي موجهة من عبد العزيز آل سعود إلى سليمان بن جبرين شيخ « القويعية » وعبد الله بن مسعود شيخ « الشعرا » وبعض الشيوخ الآخرين . وفي بعض هذه الرسائل يطلب تسليم الزكاة إلى أخيه وفي بعضها الآخر يطلب ان يهبوا جميعا للقتال معه « تجردون نفر عام ولا يتريض منكم أحد ... لكن والله ما يذكر لي واحد متخلف أن أكون عقوبة الله عليه . والله الله في العجلة غاية ما يكون . وتزهبوا زهاب عشرين يوم ولا توقفون في ذلك لازم . »

(٣) جاء في تقرير من القنصل الانكليزي في جدة بتاريخ ١١ حزيران ١٩١٠ ان الشريف طلب من ابن السعود ان يدفع المبالغ المستحقة على ناحية القصيم منذ ثلاثين عاما ومقدارها ٩٠٠ ليرة في السنة، ولكن ابن السعود لم يجب على الرسالة– P.R.O., F.O. 371/1007

عندما أقبل سعد إلى مضارب قبيلة عتيبة ، خرجت عليه فصيلة من رجال تلك القبيلة فقبض عليه أفرادها وأخذوه أسيرا إلى الشريف حسين وسلموه الرسائل التي كان يحملها . ولم يكن الشريف يقصد الاشتباك مع ابن السعود في قتال ، ولكنه كان يريد أن يكرهه على القبول ببعض الشروط . وقد أدرك ابن السعود انه لا يستطيع حشد قوات كبيرة لمهاجمة الشريف بسبب تفرق القبائل في حر الصيف بين عيون الماء المتباعدة ولأن شهر رمضان الذي يصوم فيه المسلمون كان قد بدأ . أما الشريف فقد كتب رسالة إلى عبد العزيز ينبئه بوجود أخيه سعد « ضيفا » عنده . وتوسط في الصلح محمد بن هندي شيخ مشايخ قبيلة عتيبة . وتضمنت رسالة الشريف المطالب التي يريد موافقة ابن السعود عليها وقبوله بها . وفي ١٢ رمضان ١٣٢٨ (٥ ايلول ١٩١٠) أجاب ابن السعود على رسالة الشريف يقول انه وقع على المطالب التي طلبها الشريف « حرفاً بحرف » وانه سيبعث بها مع ابن عمه عبد العزيز بن تركي ومحمد بن هندي . ووقع رسالته « خادم الدولة والملة والوطن : أمير نجد ورئيس عشائرها . »

وبعد يومين بعث عبد العزيز برسالة ثانية إلى الشريف يظهر منها اهتمامه بمصير أخيه وخشيته عليه . والرسالة تتراوح بين اللطف والعنف ، وبين الخضوع والتهديد وتبدو فيها حنكة عبد العزيز الديبلوماسية :

أدام الله لنـــا وجودكم . تفهم انك والد وانا ولد ، وان الأمر اللي تبيه (تبغيه) مني انك مدركه وهو السمع والطاعة وامتثال أمركم الدقيق والجليل . وتفهمون ان ربطة سعد ما هي علينا سهلة ... ووالله الذي لا رب سواه فلو ان سعد من دونه ثلاثين طابور وهو مربوط وان المقصود تأميل للعواقب موت أو حياة، والله ما يأخذ خمسة الا متخالط شرنا وشر اللي حبسه . والله ما أخرنا الا احترامكم ودورة رفقتكم . وانا نحن نكون عيال وانت أبونا واننا نرى عصيانكم ومكابرتكم نقص في العقل والدين ... انا معاهدك بالله على السمع والطاعة وعلى ما ملكت يدي من نجد باديه وحاضره أن حنا خدام الله ، ثم لكم وتحت حماية الله وحمايتكم وان حنا ما نخالف شوفتكم لا باطن ولا ظاهر ... ومن طرف عتيبة تفهم ادام الله وجودك اني قد عرفت سعادتكم سابقا بخطي ان أبرك أيامي وأسعدها اليوم اللي يفرق بيني وبين عتيبة . ولو ما لكم بهم ملحظ فيا دون أمر مرضيكم وحنا ما لنا فيه لازم . وأنتم ان

أحبيتو المقاربة بيننا ونتنازل حنا وياكم ونتواجه فمن السمع والطاعة ، وان احبيتوا الجواب بينكم وبين ولدكم سعد فما تعاطيتم عليه أنتم واياه فلكم عليه وجهي وامان الله . وعجلنا الطارش موجب امتثال أمركم وانتظار خدمتكم ... » .

وتوالت الرسائل بين الشريف وعبد العزيز خلال الفترة التي كان سعد فيها أسيرا عند الشريف . ومع احدى الرسائل بعث عبد العزيز ثلاثا من جياد الخيل هدية للشريف وقال ان :

غايتنا نبي نقرب أنفسنا منكم فاننا هنا حاسبين أنفسنا من خواصكم ، والله ثم لكم ، والا هديتنا لحضرتكم رؤوسنا وما تحت أيدينا» . وفي رسالة أخرى بتاريخ ٨ ايلول ١٩١٠ نفى عبد العزيز التهم والتظلمات التي يلقيها أهل القصيم ورجال قبيلة عتيبة ضده عند الشريف وطلب من الشريف أن لا يصدق أقوال أعدائه فيه ، ثم قال «والان ابنكم وخادمكم ومملوك فضلكم ثاني نفسه سامع مطيع لله ثم لحضرتكم لأدنى واحد من أهل القصيم او من عتيبة يدعي علي بأدنى شيء منه ظلم فكما تأمرون أفعل امتثالا لأمر الله ثم أمركم . وجميع ما زوروه على حضرتكم دواه الكذب المقابلة ، فان كنت المجرم فأنا تحت أمركم كما تأمرون افعل ومصطبر لادبكم ... وانا والله وبالله وتالله ان رضاكم وامتثال خدمتكم عندي أعز من رضا عبد الرحمن [يعني أباه] وخدمته ، ثم انا معطيكم عهد الله وأمان الله اني ولدك السامع المطيع ما أخلف شوفتك في جميع الأوامر » . ثم نفى أن يكون قصد محاربة الشريف أو مكابرته وان قدومه إلى تلك الجهات لم يكن بقصد الاتيان بأمر يغضب خاطر الشريف « انما هو تقرب لخدمتكم ... ونحن بانتظار تدبير الله ثم تدبيركم وتحت الأمر ...

وفي النهاية وقع عبد العزيز على الوثيقة التالية :

« هذا ما تعهد بانفاذه والعمل بموجبه حضرة ... الأمـــير عبد العزيز السعود لحضرة أمير مكة الحسين باشا بن علي باشا .

« اولا — عدم التعرض لعتيبة كافة بحال من الاحوال ... أو كل ما يحسب ويعد من التعرض عليهم من زكاة او خلافه .

« ثانيا — عدم أخذ الباج منهم بأي صورة كانت من أي قرية أمدّوها ، واذا وقع منهم ما يخالف يخبر فيه .

« ثالثا — اطاعتي لأمير مكة بأي أمر يأمره حسبما تقتضيه حقوق

ومنافع الدولة العليّة كما ذكرت في كتابي السابق .

« رابعا — القصيم وهو بريده وتوابعها فهو على خيرة أهلها اذا جـاءت منهم مضبطة بأنهم مختارين امارة الامير عبد العزيز المومى اليه صاحب هذا العهد فيبقى تحت يده ويدفعون ثلاثة الاف مجيدي سنويا باسم الخزينة العامرة السلطانية بمكة المكرمة،وان ما جاء منهم مضبطه فيتعين أمير برضاهم ويدفعون المبلغ المذكور.ويكون وصول المضبطه في أواخر شهر شوال ١٣٢٨ [أي تشرين الأول ١٩١٠] .

« هذا ما تقرر وتعهد بانفاذه حضرة الامير عبد العزيز السعود وأشهد على نفسه بانفاذ جميع ما ذكر بشهادة من وضعت أسماؤهم أدناه.

خادم الدولة والملّة والوطن   محمد بن عبد الرحمن
أمير نجد ورئيس عشائرها   السعود
عبد العزيز السعود

سعد بن عبد الرحمن
السعود

الشيخ عبد الله بن   محمد بن سعود بن عيسى
عبد اللطيف

عبد الله بن ابراهيم العسكر

١٧ رمضان ١٣٢٨ هـ (يوافق ١٠/٩/١٩١٠)

ولم يلبث الشريف ان أطلق سراح الأمير المأسور فعاد إلى أخيه ومعه خالد بن لؤي ، وأرسل عبد العزيز رسالة يودع بها الشريف ويأسف لأنه لم يجتمع به . وقد قيل ان ابن السعود كتب ما كتب على أساس انها « قصاصة ورق تنفع الشريف عند الترك ولا تضر كاتبها »[1] ولكن اذا دققنا في الأمر رأينا أن هذه الوثيقة كانت تعهدا واضحا جديا تمّ نتيجة مفاوضات . ولا شك ان الشريف حملها على ذلك

---

(١) امين الريحاني ، تاريخ نجد الحديث ، ص ١٧٣ .

المحمل وعاد إلى بلاده وهو يعتقد كل الاعتقاد بأن الأمير السعودي مخلص في انفاذ ما تعهد به ، يدل على هذا رسالة بتاريخ ١٦ ايار ١٩١١ بعث بها الشريف إلى عبد العزيز يطالبه فيها بالوفاء بما تعهد به ويطلب منه الا يتخذ لجوء أبناء عمه الثائرين عليه (العرائف) حجة و « حيلة على نقض ما جاء بيننا » . وعلى كل حال فان الحملة التي قادها الشريف وسعت منطقة نفوذه حتى أواسط الجزيرة ورفعت من مكانته عند العرب وعند الاتراك على السواء .

ومما يؤسف له ان حسين وعبد العزيز لم يلتقيا وجها لوجه ، اذ كان من المحتمل لو تم لقاؤهما أن يفهم كل منهما الآخر فهما يساعد على تجنب الخلافات التي نشبت بينهما فيما بعد . وقد شغل الحسين في ١٩١١ بقيادة حملة عسير لمساعدة الحكومة على اخضاع الادريسي . وفي شباط ١٩١٢ أرسل الشريف رسالة إلى الامام عبد الرحمن والد عبد العزيز ، فأجابه عبد العزيز برسالة مؤرخة في ١١ آذار ١٩١٢ أبدى فيها حرصه على استجلاب رضى الشريف واتهم أخصامه بالقاء الدسائس وزرع الفتن . ثم أبدى طاعته وولاءه للدولة العثمانية بقوله « ولنا أمل بأن تكونوا واسطة قوية بيننا وبين متبوعنا حكومتنا الشوروية لتعرضوا اخلاصنا وخدماتنا الصادرة في المراضي االلوكية ودولتنا الدستورية . وتروني حاضر مستعد مع عموم أهالي نجد لجميع تكاليف تأمروني بها . أفدي السدة العثمانية بعزيز روحي . » وقال انه يبعث بالرسالة مع معتمده صالح باشا العذل لكي يبحث معه في جميع المسائل التي تهمهما . وأشار إلى قبيلة عتيبة التي كانت من أهم أسباب الخلاف بينهما فقال « وقد سبق التعريف لجنابكم مرارا بأن ليس لنا مرام بها ذي العشيرة الخبيثة عتيبة وجميع البوادي ، اذا عينوا من يتلقى أقوالهم الخبيثة دسوا الدسائس الفاسدة . »

وفي ١٩١٣ كتب الشريف إلى الأمير السعودي يحضه على الولاء للدولة العثمانية التي ازدادت اعتداءات الدول الاوروبية عليها ، فأجابه يؤكد الاخلاص ويقول « اطلعت مما جرى على الدولة العلية من

الكفار الاجانب وتسلطهم على بلاد المسلمين مما يطول شرحه من الضغط والاستبداد . ولا يخفى جنابكم اني ولله الحمد مسلم متين الدين محب للعرب عموما ولذاتكم خصوصا . وبما ان جنابك أبو العرب ومسلم عثماني يلزم مثل هذا اليوم اتفاق جميع المسلمين وترك الضغائن والاختلاف فيما بينهم ، وأن يكونوا يدا واحدة بالتعاضد على أعداء الله وعدوهم تحت الراية العثمانية . »

ولكن بينما كان عبد العزيز يرسل الرسائل الودية للشريف يؤكد اخلاصه له وللدولة ، كان لا يفتأ يقود الحملات على كل من لا يدين له بالطاعة من القبائل المجاورة ويوسع حدود نفوذه وحكمه . ولم تكن عبارات عبد العزيز اللينة تجوز على الشريف الذي كان يرى الافعال غير الاقوال ، يدل على ذلك أنه رد صالح العذل خائبا دون مباحثات ورد معه الخيول التي جاء بها هدية من نجد ، اذ كان عبد العزيز قد أرسل في ذلك الحين بالذات سرية مع أخيه محمد اغارت على بعض عربان عتيبة المتشيعة للشريف حسين [1] . وكتب جمال باشا الذي كان واليا يومئذ على بغداد رسالة إلى عبد العزيز يقول انه يود أن يتوسط بينه وبين الشريف . وعندما أرسل ابن السعود أحد رجاله لمقابلة جمال استقبله هذا بالتهديد والوعيد وقال انه يستطيع أن يخترق نجد من الشمال إلى الجنوب بطابورين ، وأمام هذا التحدي اعتزم ابن السعود أن يستولي على الاحساء التي كانت الحاميات العثمانية ترابط فيها ، وبالفعل تمّ له ذلك في ربيع ١٩١٣ وساعد رجال الحاميات على الرحيل إلى البحرين ومنها إلى البصرة . وهكذا مدّ ابن السعود حدود امارته إلى مياه الخليج ، ولم يكن يعلم يومذاك ان تلك المنطقة تعد من أغنى مناطق العالم بالنفط .

وجاءت للشريف رسالة من استانبول تحمل الشكوى المرّة من هجوم ابن سعود على منطقة تحكمها الدولة العثمانية حكما مباشرا . فكتب

---

(١) سعود بن هذلول ، تاريخ ملوك آل سعود ، الرياض ، ١٩٦١ ص ٩٨ .

الشريف جوابا يقول فيه « ابن سعود جاني منه مركوب يتعذر انه ما أخذ الحسا الا لا يأخذه الغير ، وان أهله هم الذين كلفوه وطلبوه وانه خادم الدولة وتحت أمرها » . وهكذا نجد الأمير السعودي يتصرف بديبلوماسية تزري بديبلوماسية الدهاقنة العريقين من رجال السياسة وبدهاء يفوق دهاء الباب العالي . فهو ينفذ ويقدم ويفتح بينما يبعث بالرسائل الودية ويعلن الطاعة والولاء . أما الاشارة إلى « الغير » فلا بدّ ان يكون الشريف ووزراء السلطان قد فهموا انها تعني « الانكليز » الذين كانوا قد عقدوا الاتفاقيات مع الكويت والبحرين والمشيخات الاخرى في الخليج . فلا عجب أن يكون لسان حال الشريف ووزراء السلطان : بعض الشر أهون من بعض: وابن السعود أهون من الانكليز.

وفي رسالة من الأمير السعودي بتاريخ ١٣ شباط ١٩١٤ إلى الشريف يقول ان رسول الشريف وصل إلى الرياض وتباحث معه ، وانه — ابن السعود — يعمل الان على ثلاث قواعد (١) الشفقة على جمع كلمـــة الاسلام (٢) حب التقرب من سيادتكم (٣) العرب بين هاو وغاو، ولا بدّ من جمع كلمتهم بأسباب الله ثم أسبابكم . ثم يقول للشريف ان قبائل الاحساء اشتعانت به على تهدئة الاحوال هناك ، ويسوق اليه خبر اجتماعه في العقير بمعتمدي بريطانيا في البحرين والكويت ، وانهما طلبا اليه اعطاءهم التأمينات من ناحية التجارة وبأنه أجابهم انه يحافظ على أموالهم ورعاياهم كما يحافظ على رعاياه . ثم أنبأه المعتمد ان الدولة العثمانية أعطت لبريطانيا امتيازات في قطر وعمان وسألاه عن رأيه فأجاب « ان هذه بلداننا وبينهم وبين جدي فيصل أقوال ولا بدّ من مراجعة هذا الأمر مرة اخرى » . وقال انه بيّن للمعتمدين صداقته لأنه « صرنا واياهم جيران . »

ثم أرسلت الدولة العثمانية وفدا برئاسة السيد طالب النقيب زعيم البصرة لمفاوضة ابن السعود فعقد مع أعضاء الوفد عدة اجتماعات قرب الكويت انتهت إلى التوقيع بتاريخ ١٥ ايار ١٩١٤ على معاهدة من

اثني عشرة مادة وقعها والي البصرة من جهة و « عبد العزيز باشا السعود والي وقائد نجد » من جهة اخرى . وفي هذه المعاهدة اعترف السلطان بأن ولاية نجد تقع تحت حكم ابن السعود وابنائه من بعده ، وان ابن السعود يستطيع الاستعانة بضباط عثمانيين لتدريب قواته ، ويتعهد برفع العلم العثماني في جميع الأماكن المهمة في الولاية . ولا يسمح له بالتدخل في الشؤون الخارجية أو أن يجري مخابرات بشأنها أو أن يمنح امتيازات للاجانب وعليه أن يستعمل الطوابع العثمانية في الولاية . ونصت المادة ١٢ على انه اذا دخلت الدولة العثمانية في حرب مع دولة أجنبية أو حدث اضطراب داخلي في أية ولاية ، وطلبت الحكومة من والي نجد قوة تعاضد قواتها ، فعليه أن يعد قوة كافية مع مؤنها وأسلحتها وأن يستجيب للطلب بأسرع ما يستطيع . [1] واعترفت الدولة بابن السعود متصرفا على الاحساء .

ولكن الحرب العالمية التي اشتعلت نارها في اوروبا لم يلبث لهبها ان امتد إلى الشرق عندما قرر الاتحاديون خوض غمارها إلى جانب المانيا . وتبادل الامراء العرب الرسائل بشأن الموقف الجديد . وكان موقف الشريف وموقف عبد العزيز ، موقف التربص والحذر وترقب التطورات . وأرسل الاتحاديون طالب النقيب مرة اخرى لمقابلة ابن السعود واقناعه بوضع المادة الثانية عشرة من المعاهدة المعقودة بين الدولة وبينه موضع التنفيذ . وقيل من جهة اخرى ان الاتحاديين حرضوا ابن للسعود على مهاجمة الشريف الذي كان النزاع بينه وبينهم قد بلغ ذروته خلال سنة ١٩١٤ . ولكن البريطانيين كانوا قد احتلوا البصرة بينما كان طالب النقيب يفاوض ابن السعود ، فاعتذر له هذا بأنه لا يستطيع مجاهرة البريطانيين العداء بعد ان احتلت جيوشهم البصرة .

---

(١) عثرت السلطات البريطانية التي استولت على البصرة في تشرين الثاني ١٩١٤ على نسخة من هذه المعاهدة بين أوراق والي البصرة . راجع أمين سعيد : تاريخ الدولة السعودية ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ص ٥٨ – ٦٠ .

وتوسط مع السير برسي كوكس كي يعود السيد طالب إلى البصرة ، فسمح له كوكس بالعودة ولكنه لم يلبث أن أرسله أسيراً مكرما إلى الهند .

بعد ان احتل البريطانيون البصرة ، جاء الكابتن شكسبير الوكيل السياسي في الكويت إلى نجد واجتمع للمرة الثالثة بابن السعود . وقد أجرى شكسبير عدة مباحثات مع ابن السعود تناولت علاقاته مع الشريف . وجاء في رسالة مؤرخة في ١٧ كانون الثاني ١٩١٥ بعث بها شكسبير إلى السير برسي كوكس قوله :

> اذا كان سلطان تركيا سوف يزول ، فان الخلافة ستؤول – بموافقة المسلمين الجماعية – إلى أسرة النبي ، التي يمثلها في الوقت الراهن شريف مكة . واذا ما بلغت الأمور هذا الحد ، فإن الشريف سيحصل على تعضيد ابن السعود . (١)

وفي ١٩ كانون الثاني أرسل شكسبير رسالة ثانية إلى كوكس قال فيها ان ابن السعود تسلم قبل يومين رسالة من الشريف واخرى من ابنه عبد الله مفادهما ان الاتراك طلبوا من الشريف اعداد قوة للاشتراك في الحرب ، ويسألانه رأيه . وقال ابن السعود لشكسبير انه سيحاول اقناع الشريف بأن الاتراك ليسوا أصدقاء له وانه أرسل للشريف جوابا صباح ذلك اليوم يقترح عليه فيه البقاء على الحياد وان يحتج بأن الانكليز سيهاجمون جدة اذا هو أعلن الجهاد وتعاون مع الاتراك تعاونا فعالا ، وانه هو – ابن السعود – احتج بعذر مماثل كيلا يورط نفسه . وكان من رأي شكسبير في هذه الرسالة انه اذا أعلن الشريف الجهاد فان ابن السعود سيجد نفسه مضطرا للاشتراك فيه ولتلبية الدعوة إلى الجهاد مع قبائله (٢)

في هذه الفترة بعث ابن السعود برسائل مماثلة الى جيرانه الأدنين من أمراء العرب : الشريف حسين وابن الرشيد وشيخ الكويت ، قال فيها :

---

(١) الملف P.R.O., F.O. 882/15

(٢) الملف P.R.O., F.O. 371/6237

« قد علمتم ولا شك بوقوع الحرب فأرى أن نجتمع للمذاكرة علنا نتفق فننقذ العرب من أهوالها ، ونتحالف ودولة من الدول لصون حقوقنا وتعزيز مصالحنا . »[1]

وكان جواب ابن الرشيد « اني من رجال الدولة ، فاحارب اذ حاربت واصالح اذا صالحت . »

وكان من غرائب سياسة تلك الفترة انه في الوقت الذي كانت الحكومة العثمانية توفد طالب النقيب لمفاوضة ابن السعود في ربيع سنة ١٩١٤ كان والي البصرة يعقد اجتماعا مع ابن الرشيد ويحرضه على الاستعداد لحرب ابن السعود ويقدم له عشرة الاف بندقية وأموالا وذخائر .

لقد حدث ذلك قبل عقد معاهدة ١٥ ايار مع ابن السعود ، ولكن النبأ لم يبلغ ابن السعود الا بعد أشهر فاضطرب وقلق وهو يعلم مقدرة الاتحاديين على اللعب المزدوج ورأى في تعزيز خصمه ابن الرشيد عملا لا يمكن اغتفاره او التجاوز عنه . ومن هنا اعتزم ابن السعود أن يغزو ابن الرشيد . وسواء أحدث ذلك نتيجة لتحريض شكسبير أم بسبب العداوة التقليدية بين آل سعود وآل الرشيد ، ام ان ابن السعود خرج يرد هجوم ابن الرشيد عليه — وهذا ما تختلف عليه المصادر — فان جيشي الطرفين اصطدما في منطقة القصيم التي تقع في وسط المسافة بين الرياض وحايل ، في واقعة « جراب » الشهيرة يوم ٢٤ كانون الثاني ١٩١٥ . وعلى الرغم من عنف المعركة فانها لم تنته إلى نتيجة حاسمة واعتبرها كل من الطرفين نصراً له. ولكن الكابتن شكسبير لقي حتفه في المعركة، اذ أبى الا ان يشترك فيها رغم ان ابن السعود الحّ عليه في أن لا يرافقه إلى ساحة القتال . لقد كان جواب شكسبير : لا يجوز أن يقال ان رجلا انكليزيا قرب من ساحة القتال بين ابن السعود صديق بريطانيا وابن الرشيد عدوه ، ورجع جبانة وخوفا .

---

(١) أمين الريحاني ، تاريخ نجد الحديث ، بيروت ١٩٢٨ ص ١٩٦ .

ولم يكن غريبا أن تدل برنيطة الضابط الانكليزي عليه ، فقد أبى أن يستبدل بها لباس الرأس العربي التقليدي ، وأصر على التمسك بتقاليد الفروسية .

ولكن في الوقت ذاته كان الشريف حسين قد أرسل في أواخر شهر كانون الاول ١٩١٤ ابنه عبد الله على رأس حملة ، في اتجاه القصيم . وقد أبلغ الشريف ابن السعود سلفا بتوجه عبد الله . وادعى الشريف فيما بعد ان وجود عبد الله قريبا من (جراب) هو الذي انقذ ابن السعود وحال دون ملاحقة ابن الرشيد له . ولكن الأمر المؤكد هو ان حملة عبد الله أدّت إلى توطيد نفوذ الشريف مجدداً بالنسبة إلى قبيلة عتيبة وأطراف القصيم .

وفي صيف ١٩١٥ ثارت قبيلة العجمان في الاحساء ضد ابن السعود فزحف ضدها بقوة من رجاله يحاول تأديبها ، ولكن العجمان ألحقوا به الهزيمة وقتلوا أخاه سعدا وأصابوه هو بجراح . واغتنم ابن الرشيد الفرصة فهاجم القصيم يريد احتلاله ، ولكن الشريف أرسل ابنه عبد الله مرة اخرى إلى نجد ليصد ابن الرشيد ، وعندما بلغ هذا زحف الجيش الشريفي ارتد إلى جبل شمر وعاد عبد الله إلى الحجاز [١] .

نرى من هذا ان العلاقات كانت ودية للغاية بين الشريف وابن السعود . وقد أصيب ابن السعود بضائقة فأرسل إلى الشريف في شهر تشرين الأول رسالة يقول فيها ان القتال الذي دار بينه وبين العجمان وما أصاب البلاد من أرزاء ، أوقعه في ضائقة مالية . وطلب من الشريف أن يقرضه ستة الاف ليرة . واستجاب الشريف للطلب فبعث له في كانون الاول بألفي ليره وقال انه سيحاول تدبير بقية المبلغ المطلوب ويرسله اليه رغم ما هو والحجاز فيه من ضائقة شديدة [٢] .

---

(١) امين الريحاني ، تاريخ نجد الحديث ، ص ٢٠٤ .

(٢) رسالة ابن السعود بتاريخ ١٠ تشرين الأول ورسالة الشريف بتاريخ ٩ كانون الأول ١٩١٥ والنص موجود لدى المؤلف .

ولكن في هذه الاثناء تلقّى ابن السعود دعوة من السير برسي كوكس يرجوه أن يوافيه إلى ساحل الاحساء للمفاوضة ، وتم اللقاء ودارت المفاوضات التي انتهت يوم ٢٦ كانون الاول ١٩١٥ بعقد معاهدة مؤلفة من سبع مواد اعترفت فيها بريطانيا بالأمير عبد العزيز آل سعود أميرا على نجد والاحساء والقطيف وسواحلها ، وتعهدت بمعاونته ضد من يعتدون على بلاده وحمايته ؛ بينما تعهد ابن السعود بأن يمتنع عن كل مخابرة أو اتفاق مع أية دولة أجنبية وبأن يتبع نصائح بريطانيا ولا يتخلى عن جزء من بلاده أو يمنح امتيازات دون رضا الحكومة البريطانية ؛ وأن يمتنع عن التدخل في شؤون الكويت والبحرين وقطر وعمان وبقية المشيخات التي تشملها بريطانيا بحمايتها . وقد اعتبر ابن السعود هذه المعاهدة تحالف وتبادل منافع لا أكثر . وقد قـدم له الانكليز ٢٠ ألف جنيه نقدا والف بندقية كان في أشد الحاجة اليها ، وأخذوا يدفعون له خمسة الاف جنيـه كل شهر (واستمروا في ذلك حتى آذار ١٩٢٤) . وهكذا أصبحت معظم المناطق المأهولة في جزيرة العرب مرتبطة في آخر سنة ١٩١٥ بمواثيق حماية مع حكومة الهند ، ولم يبق منهـا خارج تلك المواثيق سوى الحجاز واليمن وامـارة ابن الرشيد.

وكتب برسي كوكس مذكرة عن الاجتماع الذي عقده مع ابن السعود يوم عقد المعاهدة ، وتطرق إلى ما دار بينهما من حديث حول علاقات ابن السعود مع الشريف ؛ فذكر ان الأمير السعودي قال له ان علاقاتهما الراهنة « عادية جدا وودية ، ولكن الشريف في حقيقة الأمر شخص متقلب ولا يمكن الاعتماد عليه أبدا » . امـا بشأن تقدم عبد الله مؤخرا باتجاه القصيم فقد أبدى ابن السعود رأيه بأن الشريف ربما أرسل ابنه للاصطياد في المياه العكره بعد ان علم بأمر النزاع بينه وبين العجمان ، ولكن عبد الله عند وصوله إلى القصيم أدرك أن ابن السعود قد تغلّب على العجمان فتخلى عن أية مشاريع يمكن أن

تكون قد خطرت له مما لا يتفق وحسن الجوار ، وكل ما فعله انه عاقب فخذا من قبيلة عتيبة رفض أن يدفع الزكاة ، ثم عاد إلى بلاده .
أما بشأن مسألة الخلافة في حالة انحلال الدولة العثمانية ، فقد قال ابن السعود انه من المعقول أن ينادي الشريف بنفسه خليفة ، « ولكن ذلك لن يبدل وضعه بين الزعماء الآخرين ، الذين لن يقبلوا أن يمارس الشريف أية سلطة عليهم » . وكان من رأي ابن السعود أن كل زعيم من زعماء العرب سوف يستمر في ادارة شؤون بلاده وقبائله مثلما كان الوضع في السابق ؛ مع فرق واحد هو أنهم سيرتاحون في المستقبل من مظالم الاتراك [1] .

أما المؤرخون العرب الذين كان مصدرهم الرئيسي ابن السعود نفسه فيقدمون لنا معلومات اضافية حول هذا الموضوع . لقد حاول السير برسي كوكس في أول اجتماع له مع ابن السعود « ان يغريه باعلان الحرب على الأتراك ؛ وان بريطانيا تساعده بالمال والسلاح ؛ ولكنه اعتذر عن ذلك بأنه ما دام ابن الرشيد في نجد ؛ فأنه لا يستطيع أن يقوم بدور فعال ، ولكن الشريف حسيناً ، يمكن أن يقوم بهذا العمل ، ولا سيما ان ابناءه عليا وفيصلا وعبد الله ، كانوا متصلين بالعالم الخارجي ؛ وسأكفيكم انا ابن رشيد فأنه سينضم إلى الاتراك لا محالة ؛ فوافق السير برسي كوكس على ذلك . » [2]

وبالاضافة إلى ما تقدم تحدث السير برسي كوكس عن انتقال الخلافة إلى العرب واتخذ المجاملة سبيلا إلى غرضه فعرض المنصب على ابن سعود قائلا « ان حكومة جلالة الملك تستحسن ذلك وتساعد على تحقيقه » . ولكن ابن السعود أجاب « لا ذوق لي بالخلافة . واني لا أرى من هو أجدر بها من الشريف حسين » . وأثناء المفاوضات اشترط أن لا يتكلم الشريف باسم العرب ويدعي انه ملك العرب ؛ فقُبل الشرط حبا

(١) P.R.O. F.O. 882/8. والمذكرة بتاريخ ٢٦ كانون الاول ١٩١٥ .
(٢) حافظ وهبه ، خمسون عاما في جزيرة العرب ، القاهرة ، ١٩٦٠ ص ١١٧ .

وكرامة [1] .

أما الجانب الآخر للموضوع فيبدو منه ابن السعود صديقاً للاتراك . وها ان جمال باشا يلتمس العذر لابن السعود بأنه على الرغم من قربه « من الانجليز الذين كان في استطاعتهم ايصال الاذى اليه ، كان شخصا نافعا جدا لنا اذ أرسل الجمال للجيش وسمح بتصدير التجارة من بلاده إلى سورية . » [2] كان ذلك في أواخر ١٩١٤ عندما أرسل الاتراك وفداً من المدينة المنورة إلى ابن السعود ومع الوفد عشرة الاف ليرة [3] . لقد اعتذر ابن السعود بأنه لا يستطيع مقاومة الانجليز . ولكن من المرجح ان العشرة الاف ليرة كانت ثمنا للجمال التي يذكرها جمال باشا .

وقيل ان غالب باشا والي الحجاز أدرك في ١٩١٥ شيئا مما كان يبطنه الشريف بسبب مجيء الرسل ورواحهم من بور سودان إلى الحجاز ، فأرسل إلى ابن السعود رسالة مؤداها :

« انك تعلم بأعمال الشريف وأنا الان أزيدك علما أنه يفاوض الانكليز وهو على وشك أن يخون الدولة ويفتح لأعدائها الحرمين . فاذا قدمت إلى الحجاز أسلمك الحرم وأساعدك بكل ما لديّ من قوة . وكان جواب ابن السعود » انه والحسين يد واحدة . » [4]

ومع انني لا أستطيع قبول كل هذا على علاته لأنه لا ينسجم بعضه مع بعض ، الا ان ايضاح الجوانب المختلفة يمكن أن يساعد على اعطاء فكرة أكثر وضوحا عن ديبلوماسية تلك الأيام في الجزيرة العربية .

وفي نهاية ١٩١٥ نرى أن ابن السعود قد انحاز إلى جانب بريطانيا وعقد مع حكومة الهند معاهدة صداقة كان أهم ما فيها بالنسبة اليه الحصول على المال والبنادق لتدعيم موقفه وتثبيت أركان حكمه . وبالنسبة اليه كان العدو المباشر هو ابن الرشيد أمير نجد الشمالية الذي

---

(١) امين الريحاني ، تاريخ نجد الحديث ، ص ص ٢٠٧ – ٢٠٨ .
(٢) مذكرات سياسي تركي ، ص ٢٨٢ .
(٣) امين الريحاني ، تاريخ نجد الحديث ، ص ١٩٦ .
(٤) امين الريحاني ، تاريخ نجد الحديث ، ص ص ٢١٠ – ٢١١ .

أعلن انحيازه التام للاتراك . لقد كانت العداوة بين أمير الرياض وأمير حايل عميقة حقا بحيث لم يكن أحد منهما يلجأ إلى اخفائها . أما بالنسبة للشريف ، فعلى الرغم من أنه أرسل ثلاث حملات إلى اطراف القصيم لضمان تبعية قبيلة عتيبة له – وذلك خلال الصراع الدائر بين ابن السعود وابن الرشيد على حكم المنطقة الواقعة بين الرياض وحائل – فان ابن السعود كان حريصا على اكتساب صداقة الشريف مثلما كان الشريف حريصا على اكتساب صداقته . وقد صرح لشكسبير وبرسي كوكس بأن الشريف حسين أجدر زعماء العرب بمنصب الخلافة . وكان الشريف بدوره يعتقد ان الصراع بين ابن السعود وابن الرشيد يشكّل سبباً قوياً لثبات علاقات الصداقة بينه وبين ابن السعود،وان تلك الصداقة سوف تغدو متينة وطيدة عندما يعلن الشريف الثورة ضد الاتراك حلفاء ابن الرشيد . لم يكن الشريف يحسب ان بريطانيا الّتي يتفاوض معها عقدت معاهدة مع ابن السعود . وان تلك المعاهدة أتاحت لابن السعود مزيدا من حرية العمل لمصلحته هو . حتّى ولو ان تلك المصلحة دفعته للاختصام مع الشريف وابن الرشيد على السواء .

جوانب أخرى للوضع : كانت الاخطار الّتي تهدد المواصلات البحرية لبريطانيا في البحر الاحمر حقيقة وجدّية . ففي ١٩١٥ جاء الاتراك بالغام صنعت في اوروبا ونقلوها بالقطار إلى معان ومن هناك إلى العقبة وزرعوها في مدخل الخليج قرب جزيرة تيران . ومع ان الاسطول البريطاني تمكن في الشهر التالي من انتشال ثمانية منها الا ان احتمالات زرع الالغام في البحر الاحمر ظلت تشكل خطرا مستمرا حتّى قيام الثورة العربية وتراخي قبضة الاتراك على سواحل الحجاز .

وفي كانون الثاني ١٩١٥ غادرت دمشق بعثة المانية يقودها ضابط الماني كبير يدعى فافيوس الذي أعطاه الاتراك اسم عبد الكريم باشا . وكان قصد البعثة أن تذهب إلى اليمن ومن هناك تحاول الانتقال إلى المستعمرات الالمانية في افريقيا . وكلّف جمال باشا الأمير سعيد

الجزائري أن يرافق البعثة فرافقها بالقطار حتى محطة العلا ، ومن هناك سارت على ظهور الجمال حتى الوجه (لم يسمح للبعثة بالوصول إلى المدينة لأنه لا يجوز لغير المسلمين الوصول إلى المدينة ومكة) . وسافرت البعثة من الوجه في قوارب شراعية فبلغت جدة ومنها إلى القنفذة ، وهناك اعتزم الأمير سعيد أن يفترق عن البعثة لأن الضابط الالماني لم يكن يعامله باللياقة المطلوبة ، فعاد أدراجه شمالا عن طريق مكة .

وفي آذار ١٩١٥ حدثت حادثة عمقت الخلاف والشكوك بين الشريف والاتحاديين وزادت من الشعور بعدم الثقة بينهما . فقد كان الطراد أمدن الالماني قد أغرق في عرض البحار ولكن عددا من بحارته نجوا على ظهر زورق وظلوا يمخرون عباب البحر إلى أن بلغوا ساحل عسير رغم مراقبة الاسطول البريطاني للشواطىء . وقد اتصل نبأ البحارة بالمأمورين الاتراك في الليث فعملوا على ارسالهم مع أدلاء إلى جدة . وفي الطريق هاجمهم البدو من قبيلة حرب وحصل اشتباك بين الطرفين قتل فيه ستة من الالمان واثنا عشر رجلا من البدو . وبلغ النبأ الشريف فأرسل ابنه عبد الله مع قوة كافية فأنقذ الالمان وأوصلهم إلى جدة وأقام لهم حفلة تكريمية ، ثم أرسل معهم قوة من رجاله إلى احدى محطات سكة الحديد شمالي المدينة فسافروا بالقطار إلى دمشق . وقد استاء زعماء الاتراك من هذا الحادث استياء عظيما لأنه أظهر لحلفائهم الالمان ان الامن غير مستتب في أراضي الدولة . ووصلت العاصمة شكاوى من مأموري الاتراك في عسير تقول ان الشريف أبلغ بسفر البحارة من الليث إلى جدة وانه أجاب بالموافقة على سفرهم وان الامن سائد في طريقهم . ورد الشريف على تلك الشكوى بأنه لم يكن يعلم بنبأ أولئك البحارة وان اهمال المأمورين الاتراك احاطته علما بسفرهم هو المسؤول عما حدث من خسائر في الأرواح بين الطرفين ، وانه لا غرابة في أن يهاجم البدو أولئك الاجانب بعد ان أعطيت الأوامر الشديدة لسكان السواحل عند بدء الحرب أن يضربوا كل أجنبي غريب يصادفونه اذا اشتبهوا في أمره ولم يكن مصحوبا بأشخاص رسميين .

ويدل على شك الاتراك في أن للشريف ضلعا في هذه الحادثة ما جاء في مذكرات جمال باشا من انه وقع في نفسه « ان هؤلاء البدو ما هجموا ذلك الهجوم الا بايعاز من الشريف حسين وأنه أراد بذلك العمل التقرب من الانجليز والتظاهر للعرب برغبته في منع الكفار من دخول الأماكن المقدسة »[1] ومهما يكن من أمر فقد برهن الشريف في هذه المسألة للاتراك « أنه هو السيد الحقيقي للبدو في الحجاز وليسوا هم . »[2]

وفي آذار ١٩١٦ قام الاسطول البريطاني بضرب حصون الاتراك في الوجه واملج . ولكن لم تنقطع محاولات الالمان لانشاء قواعد لهم على سواحل اليمن من أجل الاتصال عبر البحر الاحمر بقواتهم في أفريقيا . وقد وصلت في ايار ١٩١٦ جماعة منهم يتراوح عدد أفرادها بين ٦ و ٩ ضباط بقيادة الكابتن موللر ، وكانوا قادمين من اليمن في طريقهم إلى سورية . وعند وصولهم إلى الشمال من جده هاجمهم البدو وقتلوهم .

وقد أدى نشوب الحرب إلى قيام ضائقة شديدة في الحجاز . ومن المعروف أن وضع الحجاز الجغرافي والاقتصادي والديني جعله ذا صفة خاصة في نظر جميع الحكومات الاسلامية التي تعاقبت على حكم جزيرة العرب منذ فجر الاسلام . وبسبب ذلك الوضع الخاص كان أهل الحجاز معفيين من الضرائب بسبب فقرهم وضآلة مواردهم . وقد وصف القران الكريم الحجاز بأنه واد « غير ذي زرع » . بل ان الحجازيين كانوا معفيين من الخدمة العسكرية بالنظر لصفة بلادهم الدينية .

أعلنت الحرب قبل موسم الحج بثلاثة أشهر تقريبا ، وعندما دخلت الدولة العثمانية فيها ضرب البريطانيون حصارا على جميع شواطىء البحر الاحمر الخاضعة للاتراك ومنعوا شحن الحبوب من مصر

---

(١) ص ٣٦٦ .

(٢) هوجارث ، الجزيرة العربية ، اوكسفورد ١٩٢٢ .

إلى الحجاز . ونتج عن الحصار أنه لم يحضر موسم الحج لسنة ١٣٣٣ هـ سوى عدد قليل من الحجاج الذين جاؤا من الاقطار العربية المجاورة . ولما كان أهل الحجاز يعتمدون في حياتهم الاقتصادية على ما ينفقه الحجاج في البلاد ، فقد اشتدت الضائقة . ولكن الناس صبروا وصابروا على أمل أن تنفرج الحال قريبا . وطالت أيام الحرب واستهلك الأهلون كل ما أدخروه في الماضي : فاستعانوا بالشريف فكاتب الحكومة وبسط لها ما يعانيه أهل الحجاز من ضيق وسالها المعونة فاعتذرت بظروف الحرب . وضاق الناس ذرعا حتى اضطروا أن ينزعوا أبواب منازلهم وخشب سقوفها لبيعها بأثمان بخسة في سبيل الحصول على ما يسد الرمق « فضجت الناس وهلك مئات من الجوع » . وقال الشريف أنه ظل وأهل منزله سنتين يأكلون الدخن .[١]

وبعد بضعة أشهر على فرض الحصار عاد الانكليز وسمحوا لأصحاب القوارب العرب أن يستوردوا من موانىء مصر الحنطة والمواد الغذائية الاخرى . وأرسلت السلطات البريطانية في مصر شحنة حبوب على أساس أنها من صدقات الاوقاف التي يقصد منها اغاثة الفقراء في البلاد المقدسة ؛ ولكن السلطات الرسمية في الحجاز وضعت يدها على الشحنة . وساورت نفوس المسؤولين الاتراك الشكوك في حقيقة الدوافع التي حـدت بالانكليز إلى ارسال تلك الحبوب، وكتب فيصل من دمشق إلى أبيه الشريف يقول « الحكومة متشوشة من وصول الأرزاق الأخيرة إلى جدة وهم متعجبون من فسح الانكليز للأرزاق المذكورة » . وكان رفع الحصار بتوصية من السير هنري مكماهون اذ كان من رأيه ان ابقاءه يزرع العداء في نفوس الأهلين نحو بريطانيا ولا يعطي أية فائدة . ولكن رفع الحصار لم يحدث الا بعد أن جرت المخابرات الاولية مع الشريف والتي أعطى الشريف خلالها تأكيدا بأنه لن يؤيد الدعوة إلى الجهاد تأييداً عملياً . أما جمال باشا فيقول انه لم

---

(١) امين الريحاني ، ملوك العرب ، الجزء الأول ، بيروت ١٩٢٩ ، ص ٦٢ .

ير غضاضة في استيراد الحبوب من مصر ، نظرا للمجاعة التي أوشك أن يقع فيه بدو الحجاز وأهلوه وسكان الأماكن المقدسة ... وكنت أحسب ان الانجليز لم يعاملوا أهل الحجاز تلك المعاملة الاستثنائية الا حرصا على اكتساب صداقة مسلمي الهند وافريقيا وان الشريف حسين انما أراد اجتناب تنفير الانجليز منه »[1] . ويضع جمال باشا اللوم على الشريف حسين دون أن يذكر شيئا عن التدابير التي كان يقوم باتخاذها لتموين أولئك الذين كانوا يموتون جوعا في الحجاز .

هكذا كان الوضع في الحجاز عام ١٩١٥ . أما بالنسبة لليمن فقد بقي الامام يحي على ولائه للدولة العثمانية والتزم به.طوال مدة الحرب. وبقي الادريسي في عسير على عدائه والتزم به حتى النهاية . وقد قالت القوات التركية في اليمن بهجومين على القوات البريطانية : الاول على مؤقع الشيخ سعد قرب عدن وقد استولت عليه الا انها لم تلبث أن تراجعت عنه أمام هجوم معاكس ؛ والثاني الاستيلاء على سلطنة الحج في تموز ١٩١٥ وبلوغ ضواحي عدن . وبقيت لحج تحت سيطرة الاتراك حتى نهاية الحرب .

وقامت القيادة البريطانية في عدن بالتفاوض مع الادريسي إلى أن تم عقد معاهدة بين حكومة الهند البريطانية وبينه في ١٣ نيسان ١٩١٥ . وقد تعهدت بريطانيا بمساعدة الادريسي وحمايته ودفع اعانة مالية له مقابل تعهده بأن لا يتعامل مع أية دولة اخرى.ولا تختلف هذه المعاهدة عن المعاهدة التي عقدتها حكومة الهند بعد ثمانية أشهر مع ابن السعود . وكان الهدف منها دفع الادريسي لمحاربة الفرقة التركية المرابطة في عسير . وقد جمع بالفعل جيشا من قبائل البدو وزحف به على اللحية ولكنه لم يستطع اختراق تحصيناتها البدائية وظل الاتراك يحتفظون بأكثر مواقعهم حتى نهاية الحرب .

وعندما اعتزم الشريف أن يقوم بالثورة ضد الاتراك قام بمحاولة

---

(١) مذكرات جمال باشا ، ص ٣٦٧ .

لجمع كلمة امراء العرب في الجزيرة العربية . وكان جواب الادريسي بتاريخ ١٥ اذار ١٩١٦ محبذا لدعوة الشريف وللقيام في وجه الاتراك ، ومما جاء فيه قوله :

> اني مستعد لمن يريد الاتفاق والوفاق معي سواء كان الامام يحي أو غيره . وهذا عين ما أدعو له من أول يوم . ولا أعلم اني فاجأت رئيسا بحرب أو فتنة . ولكن الترك لما اضطروا إلى المساعدة في قتالنا استمالوا بعض الرؤساء حتى ضموكم في هذه المحنة جنبا لجنب . ومع ذلك فنقول عفى الله عما سلف وأهلا بمن يطلب منا وفاقا واتفاقا . (١)

ولكن العداء بين الادريسي والامام كان عميقا جدا بحيث استحال عقد أي نوع من التفاهم بينهما . فالامام كان شديد الكراهية للاجانب الاوروبيين لا يأمن جانبهم ولا يثق بهم ولا يقبل أن تكون له أية علاقة معهم . وهكذا نرى أنه وابن الرشيد التزما جانب الاتراك حتى النهاية ، بينما وقف ثلاثة من امراء العرب إلى جانب بريطانيا : الادريسي في عسير وابن السعود في نجد والاحساء ، والشريف في الحجاز .

المحاولة الأخيرة : عندما عاد فيصل إلى مكة في ٢٠ حزيران ١٩١٥ وقدم تقريره لأبيه عن الاحوال في سورية وعن استعداد رجال النهضة فيها للقيام بثورة تشترك فيها الوحدات العربية في الجيش ، عقد الشريف مع أبنائه علي وعبد الله وفيصل مؤتمرا في الطائف استعرضوا فيه الموقف من جميع جوانبه ووجدوا أنفسهم حيال الحقائق التالية (١)فرصة سانحة قد لا يجود الزمن بمثلها مرة اخرى لتحقيق الاستقلال والوحدة للعرب (٢)الدعوة التي وجهتها بريطانيا على لسان وزيرها الكبير اللورد كتشنر إلى العرب كي يهبوا للثورة من أجل تحقيق ذلك الهدف (٣) الاستبداد التركي في سورية الذي كان جمال باشا قد استهله باعتقال رجال القافلة الاولى من الاحرار (٤) الضيق الذي أخذ يستحكم في الحجاز

---

(١) أوراق الأمير زيد .

سبب الحرب . ازاء هذا كله رأى الشريف قومه العرب يقفون على مفترق طرق في ساعة فاصلة من ساعات التاريخ ، وشعر بثقل المسؤولية القومية الملقاة على عاتقه باعتباره الزعيم الذي تطلعت اليه عيون الاحرار السوريين والعراقيين وهم ممثلو الحركة العربية يومذاك . وفكّر طويلا في أي طريق يسلك : هل يظل على تمسكه بالولاء لهذه الدولة التي جرّها شبان أغرار إلى هذه الحرب الضروس . أم هل يخطو الخطوة الكبيرة الحاسمة بعد أن بغى أولئك الشبان وقطعوا جميع أسباب الولاء ؟

لم يكن اتخاذ القرار أمرا هينا ، ولكن الشريف قرر أن لا يهمل الفرصة المتاحة ، فاعتزم أن يضع المطالب العربية أمام بريطانيا حتى يكتشف بصراحة حقيقة سياستها تجاه العرب دون الاكتفاء برسالتي اللورد كتشنر ، وحتى يستوثق من الخطوة التالية التي سيتعين عليه أن يخطوها ، وتبلور ذلك القرار في المذكرة الاولى التي أرسلها الشريف إلى القاهرة في تموز ١٩١٥ .

واستبقى الشريف ابنه عبد الله إلى جانبه طوال الأشهر الستة التي دارت فيها المراسلات المهمة مع السير هنري مكماهون ، بينما عاد علي وفيصل إلى المدينة بقصد طمأنة الاتراك من جهة وإعداد قوة المتطوعين من جهة ثانية .

وازداد ميل الشريف إلى إعلان الثورة بعد أن تلقى رسالة مكماهون المؤرخة في ٢٤ تشرين الاول ١٩١٥ وأرسل جوابه عليها في ٥ تشرين الثاني . فعقد العزم على أن يبعث ابنه فيصلاً مرة اخرى إلى دمشق بقصد ظاهر هو أن يكون طليعة المجاهدين الذين سيشتركون في الحملة الثانية على الانكليز في مصر ، وقصد آخر خفي وهو الاعداد في سورية لقيام الثورة عندما تتم الترتيبات لذلك في الحجاز وسورية .

وصل فيصل إلى دمشق في أوائل شهر كانون الثاني ١٩١٦ على رأس خمسين فارسا من رجاله . وقد اتخذ كالعادة من دار البكري مكان اقامة له وخصّص له جمال باشا مكتبا في قيادته ، أما رجاله فقد أقاموا في مزرعة القابون التي كانت ملكا لعائلة البكري وتقع في

ضواحي دمشق . ولكن فيصلاً لم يلبث حتى تبين ان الموقف قد تبدل تبدلا خطيرا عما كان عليه قبل سبعة أشهر . فقد كان جمال باشا خلال هذه الفترة قد نقل جميع الكتائب العربية المرابطة في منطقة دمشق — حلب ؛ إلى ميادين القتال البعيدة ونقل معها أكثر أصدقائه الضباط أعضاء جمعية « العهد » . ليس هذا فحسب ، بل جيء بكتائب تركية صميمة لتحل محل الكتائب العربية .

أخذ فيصل يعد العدة لمجيء ١٥٠٠ متطوع من الحجاز بينما أخذ يرسل التقارير تباعا إلى أبيه عن التطورات في سورية . وفي بادىء الأمر لم يفقد الأمل في امكان القيام بالثورة في سوريا على أيدي البدو والقرويين وبمساعدة قوة المتطوعين اذا اقتضى الأمر .

وقد بلغت غطرسة الاتحاديين حدها الأقصى عندما انسحبت الحملة البريطانية — الفرنسية من شبه جزيرة غاليبولي في كانون الثاني ١٩١٦ ؛ فخيل اليهم انهم لا بد منتصرون في الحرب هم وحليفتهم المانيا . لذلك نجد جمال باشا يستعمل أقصى درجات الشدة ويحكم سوريا بالحديد والنار اعتقادا منه ان العرب يتطلعون إلى فرصة ملائمة للقيام بالثورة المسلحة .

وفي شهر شباط ١٩١٦ جاء أنور باشا وزير الحربية إلى دمشق ومنها سافر بالقطار إلى المدينة المنورة يصحبه جمال باشا والأمير فيصل . وقد دعي الشريف للقدوم إلى المدينة والاجتماع بالوزيرين ولكنه اعتذر عن ذلك وأرسل لكل منهما سيفا مرصعا . وقيل ان الاتحاديين كانوا ينوون اعتقاله وعزله عن منصبه لو انه لبي الدعوة . وأثناء زيارة أنور وجمال للمدينة اقترح أحد رجال فيصل أن يطلق النار عليهما كبداية للهجوم على المدينة والاستيلاء عليها ، ولكن فيصل شجب ذلك الاقتراح قائلا ان الرجلين يُعتبران ضيفين وأنه من العار عند العرب أن يغدر المضيف بضيوفه مهما بلغت العداوة بينه وبينهم .

وتعطينا الرسائل التي كان فيصل يبعث بها إلى ابيه فكرة واقعية عن تطورات الوضع في سورية . ويصف فيصل الوضع في احدى

رسائله بقوله « أهل الشام في ضيق ويأس عظيم من الحالة الحاضرة » .
وفي رسالة اخرى (كتبت على ورقة من النوع الخفيف جداً وطويت على بعضها بحجم ٥ × ٧ سنتيمترات لكي يسهل على الرسول اخفاءها) تدل القرائن انها كتبت في اذار ١٩١٦ نرى فيصل يقول لابيه ان أرضروم ووان وبتليس قد سقطت في أيدي الروس وان قنصل المانيا زاره واعترف له بسقوط ارضروم ، وان خسائر الجيوش العثمانية باهظة جداً وانه يخشى ان يتقدم الروس إلى ديار بكر . « هذه الطامة التي اجبرتني على الرجوع لمشاهدة الحالة رأي العين لانها ان تمت ستجعل البلاد العربية باسرها مفتوحة لكل طارق بدون حامي او محامي » .
ويضيف فيصل قائلاً انه في الوقت الذي يجري قتل سكان ثلاث ولايات اسلامية عن آخرهم مع الأطفال والنساء انتقاماً لمذابح الارمن ، يقوم قادة الدولة بتزيين المدن التي يدخلونها او يخرجون منها كانهم منتصرون .
ثم يحضّ فيصل اباه على انشاء قوة عسكرية « حتى نتمكن على الدفاع عن امهات البلاد العربية ومفاتيح الحرمين الشريفين » وان انشاء تلك القوة هو من « الضرورات القطعية » . ثم عبر عن خشيته البالغة من ان يؤدي تقدم الروس الى فصل الاناضول عن بلاد العرب دون ان تكون هناك قوة عربية تقف في وجههم . ثم يقول فيصل ان الجيش الرابع قد ارسل خمسة الاف جنيه إلى المدينة ليجهز الشريف المتطوعين بها اما السلاح للمتطوعين فان الاتراك عاملون على « جمعه من أيدي العسكر حيث ان ما لديهم ، وعقبه ترسل » . وأخيراً « النوري هنا وتواثقنا والعمل جاري والله يكون في العون ولا يمكن عمل شيء بدون قوة تمثل سيدنا . »[1]

وهناك رسالة اخرى مؤرخة في ٩ آذار وقد بعث بها نسيب البكري صديق فيصل الحميم وممثل الحزبيين العرب إلى الشريف من المدينة ،

(١) سقطت أرضروم في شباط ١٩١٦ وبتليس في أوائل آذار ١٩١٦ ، والرسالة بخط فيصل نفسه ولكنها دون توقيع أو تاريخ زيادة في الحيطة .

وكان قد رافق فيصلاً اليها ولكنه لم يعد معه إلى دمشق . وفي هذه الرسالة يقول نسيب انه تباحث مع علي نجل الشريف الاكبر « بشأن البرنامج للخلافة وتأسيس دعائمها » . ثم يعرض انهما اتفقا على ضرورة عرض المطالب العربيـــة على الاتراك ، فاذا وافقوا على تلك المطالب « نأخذ الدراهم والسلاح منهم وترسلون القوة مضاعفة اي يزاد لكل هجان مردوف مسلح ، وبعد وصولها الشام ننتظر سنوح الفرصةاللازمة ونشعركم بذلك للقيام بسورية والحجاز » محتجين بان الثورة سببها «ضياع بلاد الاسلام»على ايدي الاتحاديين.واذا ماطلت الحكومة في تلبية المطالب « ننتهز الفرصة المناسبة ونخرج على الحكومة يداً واحدة » . اما اذا رفضت الحكومة مطالب العرب فان فيصل سيضطر إلى مغادرة سورية « تاركاً قوى متعددة لا سايس لسياستها ولا مدبراً لشؤونها ، تهمل بلا نظام ولا انتظام ويخرب لا سمح الله ما بني منذ عدة سنين لان اليوم محور الحركة السورية هو سيادة فيصل بك » . ثم يشرح نسيب البكري للشريف التدابير التي اتخذها جمال باشا لنقل القوات العربية والضباط العرب إلى ميادين القتال ، ورغم ذلك فالجمعية لا تزال قائمة وقد جددت الروابط مع زعماء الدروز الذين اشترطوا ان تشترك قبائل البدو في الحركة . اما نوري الشعلان فقد قال لفيصل انه ما يزال على العهد ولكنه يرى الانتظار والتربص.ثم يشير نسيب الى الضرر الذي سينجم عن عودة فيصل إلى الحجاز لانه « محور الحركة اليوم بسوريا وعودته الان إلى الحجاز مضرة جداً بصوالحنا جميعاً. » واخيراً يقول انه وعلي تذاكرا في ان تنزل قوة بريطانية في الساحل السوري وتقطع خط الرجعة في ساحل اسكندورنة على ان يتم ذلك قبل بدء الثورة بشهر واحد على الاقل . [١]

يبدو واضحاً من هاتين الرسالتين الاتجاهات التي كانت مفتوحة امام ذهن الشريف في آذار ١٩١٦ . وليس من شك في ان زحف الروس

(١) النص الكامل في : الثورة العربية الكبرى ، وثائق وأسانيد ، تحرير سليمان موسى ، ص ٤٨ — ٥١ .

باتجاه ديار بكر وسقوط ثلاث ولايات اسلامية في ايديهم وانكسار الجيوش العثمانية قد ازعجه وأثار مخاوفه من ان تنهار الدولة العثمانية قبل ان يتاح للعرب ان يطلقوا رصاصة واحدة دعماً لمطامحهم الاستقلالية. ولا بدّ ان قول فيصل ان البنـادق التي سترسل للمتطوعين في المدينة سوف تجمع من ايدي الجنود النظاميين، قد أعطى للشريف فكرة واضحة بان الدولة تكاد تلفظ انفاسها عجزاً وافلاساً. ومع انه قيل للشريف ان القوات العربية النظامية أُرسلت إلى ميادين القتال البعيدة، الا ان احتمالات القيام بالحركة في سورية على ايدي قبائل البدو والدروز كانت ما تزال قائمة. وأخيراً وليس آخراً فان نزول حملة بريطانية قوية على ساحل سورية وقطعها الامدادات من الاناضول إلى بلاد العرب، يمكن ان يكون عملاً حاسماً يعوّض عن تمرّد القوات النظامية العربية التي كانت الخطة الاساسية تقوم عليها.

ومن هنا نرى الوضع الذي وجد الشريف نفسه فيه، عندما اعتزم ان يخرج عن دور الصمت والحذر والملاينة الذي كان يسير عليه من قبل مع الاتراك، وان يقدّم اليهم مطالبه الأوليـة دون ان يشعرهم بوجود تفاهم بينه وبين السوريين.

وكان انور باشا – بعد عودته إلى استانبول – قد ارسل في اوائل اذار برقية إلى الشريف يكرر الطلب باعلان الجهاد المقدس في اقطار الاسلام من مكة، باسم الخليفة، على روسيا وبريطانيا وفرنسا. ورأى الشريف عندئذ انه لم يعد ثمة مجال لمزيد من المسايرة والسكوت. فبعث في ١٦ آذار إلى الصدر الاعظم وأنور باشا بالبرقية التالية:

> ان خروج الدولة العلية منصورة من الحرب الحاضرة يتوقف على اشتراك جميع العناصر العثمانية فيها ولا سيما العرب، والجانب الأهم من ميادين القتال في بلادهم، وتأييدهم لها قلبا وقالبا في نضالها.
>
> ويلوح لي ان ارضاء الشعب العربي يتوقف على مداواة قلبه الذي جرحه اتهام عدد كبير من أبنائه، بتهم سياسية مختلفة والقبض عليهم ومحاكمتهم أمام المحاكم العسكرية، بالدواء الآتي:
>
> ١ – اعلان العفو العام عن المتهمين السياسيين.

٢ – إنالة سوريا ما تطلبه من نظام لا مركزي وكذلك العراق .
٣ – جعل امارة مكة وراثية في أولادي . واعتبار الشرافة معترفا لها بحقها الموروث والمتفق عليه من عهد السلطان سليم .
فاذا قبلت هذه المطالب فان الامة العربية تقوم بواجبها عن اخلاص . وأتعهد أنا بحشد القبائل العربية للجهاد ، بقيادة ابنائي في ميداني العراق وفلسطين . كما انه على الدولة التأثير على ابن رشيد لينضم إلى الجهاد.واذا لم تقبل هذه المطالب ، فأرجوكم أن لا تنتظروا مني الاشتراك في حرب كنت نصحت بأن لا تثار ولا تشق . وسأكتفي بالدعاء للدولة بالنصر والظفر .

ورد الصدر الاعظم وكذلك انور باشا بالبرقية التالية :

وصلت برقيتكم الهاشمية : القائلة ان احراز النصر يكون باشتراك جميع أبناء الامة قلبا وقالبا.ولما كان طلب اعلان العفو عن بعض المتهمين ، وتطبيق نظام اللامركزية في سوريا واستبقاء امارة مكة في شخصكم السامي وفي أولادكم ، خارجا عن اختصاص سيادتكم فالاستمرار في طلبه ليس من مصلحتكم في شيء .

واننا نبلغكم انه لا بد أن ينال الموقوفون عقابهم . كما ان حقوق سيادة ملجأ الخلافة ستبقى في الحجاز على ما كانت عليه قبلا ، وكما هي في جميع الممالك الشاهانية . ونلح عليكم بأن تستدعوا ولدكم علي الموجود في المدينة إلى مكة فورا ، وترسلوا المجاهدين الذين وعدتم بارسالهم إلى دمشق ، ليكونوا بقيادة ولدكم فيصل بك . وبديهي انه سيظل ضيفا على الجيش الرابع حتى نهاية الحرب . وان لم تنفذوا هذا فالنتيجة بحقكم لا تكون مسرة .

وعلى الفور أبرق الشريف للصدر الاعظم وانور باشا بما يلي :

ليس لي مـــا أقوله سوى النصيحة الأخيرة في برقيتي وبها ضمان انحياز العرب إلى صفوفكم بقلوبهم . أما ابني فيصل فلم أبعثه اليكم وأنا اعتقد اني أراه مرة أخرى . فافعلوا ما شئتم .

وبعد يومين تلقى الشريف البرقية التالية من الصدر الاعظم :

بعد التأمل رأينا شكر سيادتكم على أجوبتكم . فاذا بعثتم بالمجاهدين إلى الشام ، فقد اشعرنا جمال باشا ليذاكر نجلكم الشريف فيصل بك فيما يتعلق بالمجرمين السياسيين .

وكان جواب الشريف :

انني ممتن على تلطفكم بالجواب . أما المجاهدون فقد أصروا على عدم السفر الا اذا حضر فيصل ليأخذهم . فان كانت الرغبة حقيقية فابعثوا به ليستصحبهم .

ورد الصدر الأعظم بما يلي :

سيتوجه الشريف فيصل بك إلى المدينة ليستصحب المجاهدين ويعود بهم إلى الشام. وانا لنرجو أن تسترجعوا نجلكم الشريف علي بك من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة لعدم امتزاجه مع المحافظ

وكان جواب الشريف

عند وصول الشريف فيصل بك سيترك الشريف علي بك المدينة المنورة . (١)

وكان موقف الدولة يومذاك يتأرجح بين بين ، فمع ان الحملة البريطانية الفرنسية على غاليبولي كانت قد أرغمت على الانسحاب ، ومع ان الجيش العثماني في العراق كان يومذاك يحاصر جيش الجنرال تاونسند في كوت الامارة — الا ان تقدم الجيوش الروسية في الاناضول والحشود البريطانية في البصرة وقناة السويس وخطر نزول حملة جديدة من الحلفاء في السواحل السورية ، كان يقضّ مضاجع الوزراء والقادة الكبار العثمانيين ويحول بينهم وبين التفكير في الاقدام على عزل الشريف من منصبه . وكان الزعماء الاتراك يعلمون حق العلم ان رجلاً قوي الشكيمة كالشريف حسين ما كان ليتقبل العزل راضياً . اما اللجوء إلى القوة فقد كان امراً بعيد المنال في تلك الايام الحرجة . لهذا كله آثروا استعمال اللين مع الشريف ومداراته ظاهرياً دون ان يخضعوا لشرط من شروطه .

---

(١) مذكرات الملك عبد الله ، ص ص ١٠٥ — ١٠٧ ؛ وأمين سعيد ، الثورة العربية الكبرى ، الجزء الاول ، ص ص ١١٠ — ١١١ .

ولم يكن جمال باشا الحاكم بأمره في سورية بعيداً عن مجرى الحوادث ، وقد ارسل[1] انور باشا نص برقية الشريف إلى جمال ففهم هذا منها الجانب التهديدي ولخصها كما يلي :

اذا كنت حقـا ترغب في التزامي جانب الهدوء والسكينة فينبغي الاعتراف باستقلالي في سائر الحجاز من تبوك إلى مكة ، وجعلي أميرا وراثيا فيه. كما ينبغي أيضا العدول عن محاكمة العرب المتهمين ، واعلان العفو العام في سورية والعراق .

وفي الوقت ذاته كان فيصل يرجو جمال ان يظهر للمعتقلين شيئاً من السخاء والتسامح . واستدعى جمال فيصـلاً بحضور علي فؤاد بك رئيس اركان حرب الجيش الرابع ، وبدأ معه الحديث بمـا كان من تدخلات اخيه علي في اعمال محافظ المدينة . وبما ابـداه هو — جمال — من استعداد للمحافظة على حقوق الشرافة . ثم اشار إلى ان لابيه منافسين من بين اسرته وبعضهم في استانبول يعملون صباح مساء لاثارة الشكوك في نفوس رجال الحكومة ضده ، وان ابـاه يسير الان في الطريق الخطأ التي تعطي منافسيه الحجة التي ينتظرونها .

قال جمال هذا وناول فيصل البرقية فقرأها بلهفة شديدة ثم قال معتذراً :

— لا بدّ ان هذه البرقية نشأت عن سوء تفاهم كبير ، واني اؤكد لك ان ابي لا يقصد الاساءة وانت تعلم انه لا يجيد اللغة التركية ، وربما كتبها بالعربية فجاء مترجم غير قدير فترجمها إلى التركية ترجمة محرّفة .

بعد هذه المحادثة ارسل جمال باشا برقية مطولة الى الشريف يمكن اجمالها فيما يلي :

برقيتـك إلى أنور باشا . ليس من المستطاع العفوّ عن أشخاص قامت البراهين على خيانتهم، لان الحكومة التي تصفح عن الخونة خليقة بأن يتهمها الجمهور بالضعف ، وقد يغري الصفح أشخاصا آخرين بالخيانة وطعن الدولة والملة

طعنة نجلاء . أما طلبك أن تكون الامارة وراثية في أسرتك فقد جاء في وقت ينبغي أن تنصرف فيه كل الجهود إلى غرض واحد لا ثاني له الا وهو احراز النصر النهائي . ولو افترضنا ان الحكومة استجابت لطلبك الان رغبة منها في مصادقتك فماذا يمنعها أن تعاملك بمنتهى الشدة بعد أن تنتهي الحرب ؟ ان رجال الحكومة الحالية الذين تجرأوا على القيام في وجه عبد الحميد لن يصفحوا عمن يجترىء على شل أيديهم في هذه الحرب التي دخلوها لمصلحة العالم الاسلامي .

وفي نيسان تلقى جمال باشا رد الشريف الذي لم يخف فيه ما كان لبرقيته من أثر سيء في نفسه ، والذي كرر فيه طلبه اصدار العفو العام لمصلحة الحكومة .

واستدعى جمال فيصلاً مرة اخرى وأطلعه على رد ابيه وأنذره بحدة انه اذا لم يكف عن تدخله فلا بد من استعمال القوة ضده. ثم قال :

— انني لا استطيع ادراك القصد من تلك اللهجة التي استعملها ابوك في الايام الاخيرة ولا المسلك الذي سلكه اخوك في المدينة . لقد كانت علاقاتنا معك ودية هنا ، فبماذا يمكننا ان نفسر مسلك اخيك ؟ ففي الوقت الذي يجري فيه تجهيز ١٥٠٠ متطوع لحملة القناة نرى اباك يظهر نزعات انفصالية. فاذا اردتم ان تظلوا اصدقائنا فعليكم مراعاة قوانين الصداقة اما اذا كنتم ذوي غايات اخرى فالاولى ان تلجأوا إلى السلاح وتجنحوا الى ثورتكم في الحال وبذلك تنتهي تلك المهزلة ويصبح كل منا عدواً للاخر ظاهر العداوة . واذا كنتم لا تضمرون الشر فاكتب لاخيك علي ليحضر إلى دمشق في الحال وليكف في المستقبل عن الاعتداء على سلطات المحافظ .

ويقول جمال باشا ان فيصلاً تأثر لهذه اللهجة الحاسمة وعلا وجهه الاصفرار وأجابه بما يلي :

— عفواً ياصاحب السعادة . كيف يخطر لك ان تعزو الينا امثال هذه التهم ؟ وكيف يمكن ان نكون خونة ونحن من الرعايا المخلصين للخليفة؟ كن موقناً باني سأسوي الخلاف القائم بين اخي والمحافظ بصري باشا ، وسأكلفه بالحضور لتقبيل يديك .

لقد سارت مخابرات الشريف مع فيصل والسوريين من جهة ومع الانكليز من جهة اخرى طي الكتمان الشديد وفي نطاق السرية التامة ، رغم ان تلك المخابرات استمرت أكثر من سنة ونصف سنة . لم يتقدم واش واحد يبوح لجمال باشا بالسر الخطير مع ان الذين اشتركوا في حفظه كانوا كثيرين ، وهذا يخالف المثل القائل « كل سرّ جاوز الاثنين شاع » . ولو كشف السر لسارت الأحداث سيراً مختلفاً عما نعرف ولسجل التاريخ قصة غير القصة التي نقرأها اليوم . اما جمال باشا فقد ظل يعتقد ان الشريف لن يجسر على رفع راية الثورة ، لذلك كانت حسرته عظيمة جداً عندما فوجيء بأنباء قيامها . وقد سجل في مذكراته ما يدل على حسرته وغيظه . اذا قال :

واني وأيم الله لو علمت ذلك وقتئذ [ترقب الشريف الفرصة الملائمة للقيام بالثورة] لكنت أمرت غير متراخ بالقبض على فيصل في دمشق وعلى أخيه في المدينة ، ولأرسلت فرقة تركية على جناح السرعة إلى مكة للقبض على الشريف حسين وأولاده والقضاء على تلك الثورة المشؤومة في مهدها . ولكن ماذا عساي كنت أفعل في تلك الظروف ولم تكن لدي بعد البراهين الكتابية على التدابير الجنائية التي كان يقوم بها أولئك الأشخاص . (١)

ان محاولة الشريف الاخيرة ردع الاتحاديين عن غيّهم جديرة بان تُعطى حقها من التقدير . فقد تمثلت شجاعته وتمثل اخلاصه في انه طالب الاتحاديين علناً بمحاسنة العرب واعلان العفو عن احرارهم المعتقلين ومنح سورية والعراق نظام الحكم اللامركزي والكف عن سياسة البطش والإرهاب ، وبتحذيره اياهم من سوء العاقبة اذا هم لم يفعلوا ذلك . ومن الواضح ان الشريف كان يعرف قسوة زعماء الاتحاديين وميلهم لسفك الدماء وكان يعرف ان ابنيه (علي وفيصل) تحت خطر الاعتقال او القتل ، وان القوات العسكرية المحيطة بمكة تستطيع – رغم ضعفها – ان تحاصر قصره وربما تعتقله او تفتك به قبل

---

(١) جمال باشا ، مذكرات ، ص ٢٨٨ .

ان يتاح له حشد رجال القبائل لمؤازرته . ورغم كل هذه المحاذير اراد ان يبرىء ذمته امام الله والتاريخ ، فقدم مطالبه — وهي مطالب العرب — جهاراً وبصراحة . ولكن طلعت وانور وجمال لم يأخذوا تحذيرات الشريف بالجدية الكافية ولم يعيروها الاهتمام الذي تستحقه . وكان اعدام شهداء ٦ ايار ١٩١٦ « القشة التي قصمت ظهر البعير » اذ أيقن الشريف بعد جريمة القتل المتعمدة تلك ان أسباب الخلاف أصبحت أكبر وأوسع من ان ترتق . وانه يتوجب على العرب ان يبحثوا عن مستقبلهم بعيداً عن الاتراك وليكن ما يكون .

اما ماذا كان في نية الشريف ان يفعل لو استجاب الاتحاديون لطلباته ، فأمر لا نستطيع التكهن به . هل كان يعتقد ان الاتحاديين لن يستجيبوا لمطالبه وان رفضهم سيكون مفيداً باعطائه المبرر للقيام بالثورة ؟ هل كان ينوي ان يقف عند حدّ الحصول على مطالبه لو استجاب الاتحاديون لها ، ولا يمضي قدماً في مشاريعه الثورية ؟ قد يسهل علينا تقدير موقف الشريف اذا ذكرنا انه كان رجلا محافظاً بطبعه شديد التمسّك بأهداب الدين ، يحسب حساب ما سيقوله التاريخ وما سيوجه اليه من اتهام اذا هو خطا خطوة غير صحيحة . لقد كان له من منصبه الكبير وانتمائه إلى النبي محمد وكونه رأس الاسرة الهاشمية ، ما يحمله على إعمال الفكر وانعام النظر في كل عمل يقوم به. وكان من اهم ما يشغل باله ان لا يرفع راية الثورة الا بعد أن يستنفد جميع الوسائل المتاحة له ، وبعد ان يحصل على البرهان القاطع ان زعماء حزب الاتحاد والترقي لا يضمرون الخير للعرب والاسلام — والعرب مادة الاسلام .

وقد تحقق كل هذا عندما رفض الاتحاديون مطالبه بلهجة من يقول : انتبه لنفسك والا فسيأتيك الدور !

الفصل الرابع

مراسلات الحسين - مكماهون

كتبت آلاف الصفحات في موضوع هذه المراسلات التي تعتبر أكثر المراسلات السياسية شهرة وإثارة للجدل في تاريخ العرب الحديث . وعلى الرغم من ان الحقائق الأساسية في هذه المراسلات أصبحت معروفة لجميع المهتمين بالموضوع منذ ١٩٣٩ عندما أقدمت الحكومة البريطانية على نشرها [١] وعلى نشر تقرير اللجنة العربية البريطانية التي قامت بدراستها [٢] - على الرغم من كل ذلك . فان الوثائق والبينات الجديدة التي كشف النقاب عنها منذ ذلك الحين . تلقي دون شك المزيد من الضوء على الظروف التي أحاطت بها وعلى - وهو الأهم - كيفية فهم المسؤولين البريطانيين يومذاك لمضمونها .

من المهم أن نعرف ماذا كان يخالج نفس الشريف حسين عندما أرسل مذكرته الأولى في تموز ١٩١٥ إلى المندوب السامي البريطاني في القاهرة . لقد كانت رسالتا اللورد كتشنر ومنشورات الحكومة البريطانية الرسمية ورسائل السيد علي الميرغني : كافية لاقناع الشريف بان الحجاز بعيد عن أخطار الحملات العسكرية من قبل الحلفاء ؛ وبعيد كذلك عن الوقوع تحت الاحتلال الاجنبي فيما لو لحقت الهزيمة بالأتراك وحلفائهم . أما مشكلة الجوع والفاقة في الحجاز فلم تكن - رغم خطورتها - من الأسباب الرئيسية التي دفعت الشريف إلى فتح

---

(١) Cmd. 5957, Correspondence between Sir H. McMahon and the Sherif Hussein of Mecca, London, 1939.

(٢) Cmd. 5974, Report of a Committee set up to consider certain correspondence between Sir H. McMahon and the Sherif of Mecca, London, 1939.

باب المراسلات مع بريطانيا . وفيما يتعلق بالصلاحيات في ممارسة حكم الحجاز ، نرى أن الشريف أصبح في ١٩١٥ أقوى سلطانا من الوالي التركي وأعظم نفوذا خاصة بعد نقل وهيب بك وتعيين الفريق غالب باشا مكانه وهو رجل مسالم طيب القلب . وقد روى محمد عريفان الذي حمل مذكرة الشريف الاولى إلى القاهرة ان الأمير عبد الله طلب منه أن يؤكد لستورس « اننا الان لسنا تحت أمر الاتراك ولكن الاتراك تحت أمرنا . »[1]

من هذا كله نرى أن الشريف عندما أرسل مذكرته الأولى ، لم يكن يحمل هم الحجاز وحده بل هموم الاقطار العربية كلها إلى الشرق من الحدود المصرية . لقد اتجه القوميون العرب في سورية اليه وبايعوه بالزعامة وألقوا على كاهله مسؤولية قيادة العرب نحو الوحدة والاستقلال. ولما لم يكن بمقدور العرب أن يحققوا هذين الهدفين دون معاضدة خارجية ، فقد استقر رأي الشريف وأبنائه وزعماء القوميين العرب في سورية على التفاوض مع بريطانيا العظمى ، من أجل توفير الدعم الدولي والمعونة المادية التي لم يكن للعرب غنى عنهما . وكان اختيار بريطانيا من بين دول الحلفاء هو الأمر الطبيعي ، فبريطانيا هي الدولة الأكثر حضورا في المنطقة : في مصر والسودان وعدن والخليج والبصرة ؛ وهي الدولة التي تتمتع عند العرب بالسمعة الطيبة : خلافا لفرنسا التي كان لاسلوب حكمها في تونس والجزائر سمعة سيئة ؛ وخلافاً لروسيا التي عرفت بعدائها للاسلام ؛ فضلا عن عدم وجود حدود مشتركة تربط بين فرنسا وروسيا من جهة وبلاد العرب من جهة اخرى .

ان حضور بريطانيا القوي في المنطقة وما كان واضحاً من ضعف الدولة العثمانية وفقرها ؛ جعلا الزعماء العرب يعتقدون ان النصر في الحرب سيكون من نصيب بريطانيا وحلفائها ؛ وانه لذلك يجدر بالعرب أن لا يبقوا مكتوفي الأيدي في ذلك الصراع الجبار ينتظرون مجيء سيد

---

(١) أقوال ابن عريفان كما سجلها ستورس في ١٨ آب ١٩١٥ : Statement of M. Oreifan, 18 Aug. 1915, P.R.O., F.O. 882/19

جديد يحكم بلادهم بدل السيد الذي سيأفل نجمه . وعلى الرغم من ان البريطانيين كانوا يومذاك يقفون موقف الدفاع في مصر ، وعلى الرغم من استيلاء الاتراك على سلطنة لحج في أوائل تموز ١٩١٥ وتهديدهم عدن ذاتها ، وعلى الرغم من ان حملة غاليبولي وحملة العراق لم تحرزا انتصارات باهرة – فان الشريف كان يعتقد ان طول الانتظار قد يؤدي إلى كارثة وانه لا بد من اجراء اتصالات جدية مع الحكومة البريطانية – على الأقل لسبر غورها ومعرفة نياتها الحقيقية نحو العرب معرفة الثقة والاستيقان .

وليس من شك في ان حملة الارهاب والاعتقالات التي بدأها جمال باشا في سورية منذ شهر نيسان ١٩١٥ ، واقتناع السوريين بأن الاتحاديين يضمرون الشر كل الشر للعرب ، وبأنه في مقدورهم القيام بثورة ناجحة في سورية بالتعاون مع الحجاز – كل ذلك حفز الشريف إلى قطع حبل الانتظار والترقب وارسال مذكرته الأولى .

كتبت هذه المذكرة في الطائف حيث سلمها الشريف بحضور أبنائه الأربعة إلى رجل يثق به كل الثقة وهو الشيخ محمد بن عريفان من قبيلة حرب . وكان ابن عريفان يملك بعض القوارب التي تنقل البضائع والحبوب بين السودان والحجاز على أسس تجارية . وقد وقع اختيار الشريف عليه لأن كثرة أسفاره مع قواربه تبعد الشبهة عنه . أما المذكرة فقد كانت بخط الأمير عبد الله ولا تحمل توقيعا أو تاريخا . وانما أرفقت برسالة شخصية من الأمير عبد الله إلى المستر رونالد ستورس وهي الاخرى لا تحمل توقيعا ولكنها مؤرخة في ٢ رمضان ١٣٣٣ الموافق ١٤ تموز ١٩١٥ .

أشار الأمير عبد الله في رسالته الخاصة إلى ان المذكرة تتضمن الشروط المقترحة بشأن القضية العربية . وإلى ان الشعب بأجمعه يميل إلى بريطانيا بحكم المصالح المشتركة ، وحث الأمير صديقه ستورس على أن يعمل كل ما في وسعه كي تقبل الحكومة البريطانية الشروط العربية . وطلب أن يكف الانكليز عن القاء المناشير واذاعة الشائعات لأن موقف العرب أصبح الان محددا ، كما طلب أن يفسح المجال للحكومة المصرية

كي ترسل هبة الحبوب التي اعتادت ارسالها في السابق إلى أهل المدينتين المقدستين مكة والمدينة ، قائلا ان ارسال هبات السنة الحالية والسنة السابقة سيكون له أثر فعّال في توطيد المصالح المشتركة . وعندما سلم الأمير عبد الله الرسالتين إلى ابن عريفان قال له « قل لستورس ان كلمتنا هي كلمة شرف وسوف ننفذها حتى ولو كلفنا ذلك حياتنا »[1] .

أما المذكرة ، والتي وصفها البعض بأنها « ماجناكارتا » العرب ، فقد بنيت على أسس ميثاق القوميين العرب في دمشق . وتنبع أهميتها من طبيعة مرونتها الدبلوماسية من جهة . ومن حيث كونها الأساس الذي بدأت به المفاوضات بين الجانبين العربي والبريطاني ، من جهة ثانية . لقد وضعت المذكرة الشروط التي أبدى العرب استعدادهم للاتفاق مع بريطانيا على أساسها . فاذا أردنا اعطاء حكم صحيح وعادل على المراسلات كلها . وجب علينا أن نلاحظ التعديلات التي طرأت على بنودها المختلفة سواء منها ما تعلق بالحدود او بالامتيازات والتنازلات.

كتب الشريف المذكرة باسم العرب والامة العربية ، وبعث هو بها إلى الحكومة البريطانية متخذاً صفة الناطق باسم العرب المعبر عن أمانيهم . ويمكن تلخيص الشروط التي عرضتها المذكرة لعقد اتفاق بين العرب وبريطانيا العظمى على النحو التالي :

لقد قرر العرب جميعا أن يفوزوا بحريتهم المطلقة وأن يحكموا أنفسهم بأنفسهم . ولما كان العرب يفضلون مساعدة بريطانيا على سواها ويشعرون ان من مصلحة بريطانيا مساعدتهم ، فأنهم يعرضون الشروط الأساسية التالية لعقد الاتفاق بين الطرفين مع تأجيل المسائل الثانوية لمفاوضات تجري في المستقبل :

١ـ تعترف بريطانيا العظمى باستقلال البلاد العربية التي يحدها : شمالا خط مرسين ـ اضنة الموازي لخط ٣٧° الذي تقع عليه برجيك ـ اورفيه ـ ماردين ـ مديات ـ جزيرة ابن عمرو ـ عمادية ، حتى حدود فارس ،

---

(١) أقوال ابن عريفان كما سجلها ستورس في المصدر السابق .

وشرقا حدود فارس إلى خليج البصرة ، وجنوبا المحيط الهندي (باستثناء عدن التي ستحتفظ بوضعها الحالي) ،وغربا البحر الاحمر والبحر الأبيض المتوسط حتى مرسين . وتوافق بريطانيا على اعلان خلافة عربية .

٢ – تعترف حكومة الشريف العربية بأفضلية بريطانيا في جميع المشاريع الاقتصادية في البلاد العربية .

٣ – يقوم الفريقان المتعاقدان بمعاونة بعضهما البعض إلى أقصى حد لمجابهة أية قوة أجنبية يمكن أن تهاجم أحد الفريقين . ولا يعقد الصلح دون موافقة الفريقين .

٤ – يتشاور الفريقان اذا دخل أحدهما في نزاع مسلح مع طرف ثالث .

٥ – تعترف بريطانيا بالغاء الامتيازات الاجنبية في البلاد العربية ، وعليها أن تساعد حكومة الشريف على دعوة مؤتمر دولي لتصديق ذلك الالغاء .

ثم طلبت المذكرة الجواب على هذه الاقتراحات خلال ثلاثين يوما ؛ وقالت المذكرة ان الشعب العربي سيحتفظ لنفسه بحرية العمل اذا لم يتلق جوابا خلال هذه المدة .

مما هو جدير بالملاحظة تركيز المذكرة على « الامة العربية » و «الشعب العربي» وعلى « استقلال البلاد العربية » ، وربطها بين البلاد العربية و « حكومة الشريف العربية » كنتيجة منطقية للتطورات المتوقعة في المستقبل .

وقدمت المذكرة لبريطانيا شروطا في غاية السخاء مقابل اعترافها باستقلال العرب وتقديمها المعونة العسكرية لهم . فقد وافقت على منح بريطانيا الأفضلية في جميع المشاريع الاقتصادية فضلا عن قبول جميع أنواع المعاونة من بريطانيا وحدها خلال خمسة عشر عاما . فقد كان الشريف يدرك ان الدول تعمل طبقا لما تمليه مصالحها ، وكان يدرك ان البلاد العربية المتخلفة في مجالات الحضارة العصرية لا بدّ لها من الاستعانة بدولة متقدمة . ولهذا عرض على بريطانيا أن تتولى تقديم

المعونة في المشاريع الاقتصادية للبلاد العربية كلها . ويتضح من روح الاقتراح ان الشريف كان يتصور علاقة أشبه ما تكون بالتحالف الوثيق بين العرب وبريطانيا . يشتمل فيما يشتمل عليه قيام بريطانيا بتقديم المعونة والمشورة والخبرة في جميع الميادين من اقتصادية وفنية وعلمية وعسكرية وثقافية في منطقة واسعة ذات أهمية استراتيجية كبيرة

هذه هي الرسالة التي حملها الشيخ محمد عريفان من الطائف والتي وصل بها عن طريق السودان إلى الاسكندرية في ١٨ آب ، اي ان الرحلة استغرقت أكثر من شهر .

وكان من رأي الرسميين الانكليز في مصر ان مذكرة الشريف تضمنت نقطتين أساسيتين :

١ — اقتراح الشريف عقد معاهدة مع بريطانيا العظمى .

٢ — اعتبار الشريف نفسه ناطقا باسم الامة العربية كلها ، في شبه الجزيرة وسورية والعراق ، وبأنه الخليفة والحاكم العتيد لامبراطورية عربية (١) .

ولكن أولئك الرسميين لم يحملوا مذكرة الشريف محمل الجدية الكافية ، يدل على هذا الملحوظات التي كتبها رونالد ستورس تعليقا على المذكرة . فقد أشار ستورس إلى التشابه التام بين اقتراحات الشريف وبين آراء الشيخ رشيد رضا ، وأبدى رأيه بأن الشريف وضع شروطه من عندياته دون أن يتلقى تفويضات من أصحاب الحل والعقد الآخرين في بلاد العرب ، وبأن الشريف يعرف انه يطالب بأكثر مما يحق له أن يطالب به او يؤمل في تحقيقه أو يملك القوة على توقعه . وقال ستورس اخيرا ان الشريف — مثله مثل أبناء دينه الآخرين — يحتمل أن يعدل لهجته عندما تسقط استانبول . (٢)

---

(١) Summary of Historical Documents from the Outbreak of War between Great Britain and Turkey, 1914. Arab Bureau, Cairo, p. 15.

(٢) ملحوظة ستورس على رسالة الشريف الاولى بتاريخ ١٩ آب ١٩١٥ P.R.O., F.O.– 882/19.

بهذا المفهوم ابرق مكماهون في ٢٢ آب إلى وزارة الخارجية بخلاصة رسالة الشريف ، واقترح أن يرسل له جوابا يرحب فيه بما قاله الشريف من توافق المصالح بين بريطانيا والعرب ويؤكد على ما جاء في رسالة اللورد كتشنر ، ويقول له ان مسألة بحث الحدود سابقة لأوانها . ووافقت وزارة الخارجية على اقتراح مكماهون فبعث إلى الشريف برسالته الجوابية المؤرخة في ٣٠ آب ١٩١٥ . وقد استهل مكماهون رسالته بحشد مجموعة من الألقاب الطنانة وعبارات التمجيد والتبجيل واستهلك ذلك قرابة خمسين كلمة . أما صلب الرسالة فقد تضمن الشكر على عواطف الشريف نحو بريطانيا وتأكيد أقوال اللورد كتشنر حول رغبة بريطانيا « في استقلال بلاد العرب وسكانها مع استصوابنا للخلافة العربية عند اعلانها » . بعد هذا حاول مكماهون أن يدور حول النقطة الأساسية عدة دورات دون أن يمسّها مباشرة . فقال ان البحث في مسألة الحدود سابق لأوانه ، لأن الحرب ما تزال قائمة وما تزال أغلب المناطق موضوع البحث تحت الاحتلال التركي . ثم أشار مكماهون إلى أن بعض العرب ما يزالون يتعاونون تعاونا وثيقا مع الاتراك والالمان . وأبدى استعداده لارسال الحبوب والصدقات المقررة من مصر عندما يعين الشريف المكان التي يمكن تسليمها فيه . واختتم الرسالة بمجموعة اخرى من عبارات المجاملة .

هذه الرسالة الاولى من مكماهون تنم على موقف الحكومة البريطانية حتى ذلك الحين تجاه العرب . فبريطانيا لم تكن مستعدة لتجاوز التصريحات التعميمية التي صدرت في السابق حول عطفها على العرب ومودتها للمسلمين . وكان مكماهون يعتقد ان الشريف لا يمثل سوى الحجاز ، ومن المحتمل أن يرضى بتأجيل مسألة حدود البلاد العربية . لذلك لا بد أن يكون قد دهش عندما تلقى رسالة الشريف الثانية المؤرخة في ٩ ايلول ١٩١٥ .

استهل الشريف رسالته بالاعراب عما لمسه في جواب مكماهون من « الغموض وآثار الفتور والتردد في مادتنا الجوهرية » وهي مسألة

الحدود . ثم عاد يؤكد للحكومة البريطانية « اعترافنا بأرجحيتها في عموم الكيفيات والشؤون في أي حالة وصورة كانت » . وأدرك الشريف ان مكماهون لم يفطن إلى الأهمية التي يعطيها العرب لقضية الحدود فأوضح له ان الحدود التي طلبها في مذكرته لا تتعلق بشخص واحد بعينه يمكن البحث معه في شأنها وترضيته بعد انتهاء الحرب؛ بل تتعلق بـ « أقوامنا » الذين يرون ان حياتهم الجديدة التي يطمحون اليها « مربوطة بتلك الحدود والتخوم » . وقد رأى العرب أن يبحثوا أمر حدود دولتهم العتيدة مع بريطانيا « محل ثقتهم واعتمادهم » ؛ وهم يعتقدون ان اتحاد مصالحهم مع بريطانيا جدير أن يحفز بريطانيا على معاضدتهم ومعاونتهم في تأسيس حياتهم المقبلة . كما انهم يطلبون البت في هذه المسألة حتى لا يصطدموا في المستقبل بمعارضة من بريطانيا أو من أحد حلفائها . بالاضافة إلى انهم اقتصروا في مطالبهم على الأقطار المأهولة بهم . وأراد الشريف أن يفهم مكماهون أن طعم الخلافة الذي طرحه معتقدا ان بريقه سيخلب به — الشريف — ليس هو الطعم الذي يبحث عنه هو وقومه بقوله « والله يرحم الخلافة ويحسن عزاء المسلمين فيها » . وكرر مرة ثانية القول ان الحدود المقترحة ليست مطلبا شخصيا من قبله : وانما هي مطالب قومه الذي يعتقدون « انها من الضروريات الحياتية والاقتصادية » . ثم أشار إلى ما قاله مكماهون من ان بعض العرب يساندون الاتراك وقال ان هذا لا يــبرر « الفتور والتردد اللذين لاحظهما في جوابه». وعاد يؤكد ثالثة ان الحدود المطلوبة « هي حياتنا المادية والمعنوية والادبية » . ولكي لا يجعل مجالا للشك في نفس مكماهون بأن المطالب التي قدمها الشريف هي مطالب الشعب العربي ؛ فأنه أعلن ان جميع العرب حتى أولئك الذين يقول مكماهون انهم وضعوا أنفسهم تحت أوامر الاتراك والالمان — ينتظرون نتيجة هذه المباحثات . وأوضح الشريف أخيرا الطريقة التي يمكن اتباعها لارسال الحبوب العائدة للاوقاف الاسلامية « والتي هي من الاوقاف الخاصة ولا علاقة لها بالسياسة » . وقال ان ارسال هذه الحبوب سيكون برهانا على

ما أعلنته الحكومة البريطانية من ان عداءها موجه إلى حزب الاتحاد والترقي وليس إلى المسلمين . وفي هذا الطلب الأخير أظهر الشريف اهتمامه الشديد بالحصول على الغوث السريع لعامة الناس الذين أضنكهم العوز واستفحلت بينهم المجاعة حتى أخذوا يموتون بسبب فقدان ما يسد الرمق .

وبعث الشريف مع رسالته بملحق قال فيه ان الامير عبد الله ذهب إلى نجد في ٢ ايلول على رأس قوة « لكي يقوم ببعض الاصلاحات المهمة » وقال ايضا « انه من الطبيعي ان البلاد عندما تعلن استقلالها ، سواء وافقتم على مطالبها ام لا ، فانها سوف تخبركم بذلك . » [١]

وقد وصل رسول الشريف إلى القاهرة يوم ١٧ تشرين الاول وفي اليوم التالي أبرق مكماهون بخلاصة الرسالة إلى وزارة الخارجية ، ثم أتبع هذه البرقية ببرقية اخرى قال فيها ان الرسول أفاد بأن الشريف تأثر كثيرا لان الانكليز لم يمنعوا الحجاج من أداء فريضة الحج ولم يوقفوا ارسال المحمل ، وتلقى الان مسؤولية الضائقة التي يعانيها أهل الحجاز على رؤوس الاتراك . » وقد استشاط الشريف غضبا للأنباء التي بلغته عن قيام الأتراك بشنق ١٥ وجيهاً عربياً في حمص وحماة ... وقد استدعى الأتراك ابنه الثالث فيصل كي يساعدهم في سورية . وهو سيمضي إلى هناك على شرط صريح وهو أن تكون له حرية الاتصال بجميع الزعماء العرب في سورية ... » [٢]

في هذه الاثناء كان الشريف يتبادل الرسائل ايضا مع السيد علي الميرغني . ففي ٢٨ تموز ١٩١٥ غادر السودان رسول يحمل رسالة من الميرغني يطلب فيها من الشريف أن يوضح مطالبه . وأبلغ الرسول الشريف رسالة شفهية من السير ريجنالد ونجت حول نيات بريطانيا الودية تجاه عرب الحجاز وبحث سبل تبادل المخابرات في المستقبل

---

(١) ملحق رسالة الشريف في P.R.O., F.O. 882/19 .

(٢) برقية مكماهون رقم ٦٢٦ تاريخ ٢٠ تشرين الأول١٩١٥ — P.R.O., F.O. 141/461

ومسألة ارسال الحبوب والنقود التابعة للاوقاف . وعقد الرسول عدة اجتماعات مع الشريف وأولاده ، كرّر الرسول خلالها ما سمعه من أقوال المسؤولين البريطانيين حول مودتهم للعرب وأهل الحجاز . ثم عاد الرسول إلى السودان يحمل رسالة من الشريف إلى الميرغني ، وأفاد عند عودته ان الشريف يتمتع بسلطة نافذة في الحجاز كله وان هناك عوزاً شديدا يحيق بالبلاد رغم المساعدات التي يوزعها الشريف على العائلات الأكثر فقرا من سواها .

لم تتضمن رسالة الشريف إلى الميرغني والمؤرخة في ٢٥ آب ١٩١٥ شيئا ذا أهمية سياسية ، ولكنه قال في ملحق لها دون توقيع « ان بلادنا هادئة وقد عقد أهلها العزم على أن يدفعوا عن بلادهم كل شر يمكن أن يمس شرف البلاد وديانتها ومقدساتها . انهم عازمون على الدفاع عن البلاد ضد كل من يحاول الاعتداء على سلامتها » . ثم أشار بكلمات عنيفة إلى « الكذابين التعساء » الذين يعتدون بين الحين والآخر على شرائع الدين . وأشار إلى خشيته من اتهام المسلمين له بتمزيق وحدة المسلمين اذا هو قام بثورة . وقال انه ينتظر حتى يتبين أهون الشرين . وأشار الشريف إلى ما يسببه توقف وصول الحجاج من ضيق في الحجاز وخاصة بالنسبة للمجاورين ، ولذلك فهو سيعتمد على الميرغني في محاولاته النبيلة مع الحكومة المصرية بشأن الصدقات والهبات المستحقة للأماكن المقدسة والتي ترا كمت على مدى عامين . وأشار إلى حوادث كربلاء ضد الاتراك ليبرهن على ان أهل البلاد العربية متحدون وانه ينطق باسمهم ويعبر عن أمانيهم . وفي هذا الملحق عين الشريف الحدود التي يطلبها العرب لانشاء دولتهم المقبلة وهي ذات الحدود التي عينها في مذكرته الأولى إلى مكماهون .

وفي رسالة اخرى (دون تاريخ أو توقيع) بعث بها الشريف إلى الميرغني في منتصف ايلول ١٩١٥ — أي بعد رسالته الثانية إلى مكماهون — نجد توكيدا لموقف الشريف وايضاحا لوجهة نظره . فهو يقول ان الحالة العامة التي يجد العرب أنفسهم في خضمها حاليا جعلتهم يبحثون

أمر مستقبلهم بقصد المحافظة على طهارة دينهم وعلى شرفهم وحياتهم ، ومن هنا فانهم تقدموا بعدة مطالب من جملتها تحديد المناطق التي يقيم فيها العنصر العربي . وبما ان الحكومات تعاون بعضها البعض . وبما ان الرأي العام العربي يميل إلى الحكومة التي تحكم مصر – فقد تم الاتصال بتلك الحكومة . وعندما تحصل البلاد على أمانيها فان تلك الحكومة « سيكون لها حق السبق والأولوية فيما يتعلق بكل شيء يمكن أن تحتاج اليه البلاد من الخارج » .

وأشار الشريف إلى الجواب الذي تلقاه بأن بحث مسألة الحدود سابق لأوانه «ولكن بما انالأمر ليس كذلك وبماانه منالأهمية القصوى والضرورة الحتمية ان نفصل في هذا الان خشية أن نفشل في الحصول على ما نريد وتكون النتيجة عكسية عندما نأتي في المستقبل ونصر على هذه الحدود . وبما ان المسألة ذات طابع حيوي يتعلق بصميم حياتنا ووجودنا – فقد أصررنا على الحصول على ايضاحات اخرى بشأن هذه الحدود حتى نعرف آراء تلك الحكومة » . وقال الشريف ان اتجاهاته محصورة ضمن هذه الدائرة : وانه لا مطمع له بالالقاب الضخمة : وطلب من الميرغني أن يساعد في اقناع المسؤولين البريطانيين بعدالة المطالب العربية . وقال ان طلب الانكليز تعديل الحدود المقترحة سيكون مزعجا ، لأن العرب سيعتبرون طلب التعديل دليلا على « النية المبيتة لافنائهم وتدمير دينهم ووحدتهم » ، وسيدفعهم ذلك إلى الاستجابة لدعوة الجهاد بحماسة شديدة [1] .

وصلت رسالة الشريف إلى الميرغني فقدمها هذا بدوره إلى حاكم السودان العام السير ريجنالد ونجت . وفي ٢٩ تشرين الاول أبرق ونجيت إلى كلايتون بخلاصة ما جاء في الرسالة ، وقال ان الشريف يؤكد على أهمية اتخاذ قرار ايجابي من قبل الحكومة البريطانية بشأن حدود البلاد العربية ، وان العرب لن يقبلوا أية تعديلات وانهم سيعتبرون الاصرار

(١) رسالة الشريف إلى الميرغني في P.R.O., F.O. 882/12 .

على التعديلات بمثابة العزم على تدمير ديانتهم وسلامتهم القومية . وان عدم موافقة الحكومة البريطانية على بمسألة الحدود يمكن أن يدفع العرب إلى معسكر الاعداء فيصبح بذلك اعلان العثمانيين للجهاد الديني أمراً نافذ المفعول .

في هذه الاثناء حدث تطور مهم في نظرة الانكليز تجاه ادعاء الشريف انه يمثل العرب وتجاه وجود حركة قومية منظمة في صفوف المثقفين والضباط العرب . وقد نشأ ذلك التطور نتيجة المعلومات التي أدلى بها الملازم الاول محمد شريف الفاروقي الذي قطع خط النار في غاليبولي وسلم نفسه للقوات البريطانية في ٣ ايلول ١٩١٥ طالبا أن يعتبر ضيفا لا أسيرا ، وان ينقل إلى مصر كي يدلي بما لديه من معلومات سياسية مهمة . وقد استجاب الانكليز إلى طلبه فنقلوه إلى مصر حيث اجتمع به الكولونيل كلايتون عدة اجتماعات كتب عنها مذكرة طويلة بتاريخ ١١ تشرين الاول . وقد تحدث الفاروقي عن جمعيتي « العربية الفتاة »[1] و « العهد » وتنظيماتهما وعن ان أعضاء هاتين الجمعيتين أقسموا اليمين « على أنهم سوف يحققون هدفهم وينشئوا خلافة عربية في شبه الجزيرة العربية وسورية والعراق مهما كان الثمن وتحت أية ظروف مضحين في سبيل ذلك كل جهودهم وكل ما يملكون ، وحياتهم اذا اقتضى الامر » . وقال الفاروقي ان جمعية الفتاة ذات قوة كبيرة ونفوذ عظيم في جميع أنحاء الاقطار العثمانية ، وانه لا الاتراك ولا الالمان تجاسروا على قمع نشاط الجناح العسكري (العهد) منها رغم علمهم ان ذلك الجناح يقف موقفا سلبيا منهم . وقال الفاروقي ان أعضاء الجمعية قرروا أنهم لا يستطيعون التريث أكثر مما تريثوا ، ولذلك عقدوا العزم على أن يعرضوا على انكلترا تعاونهم الفعال مقابل أن تتعهد انكلترا بمعاضدتهم في مسعاهم لتحقيق الاستقلال .

---

(١) ورد اسمها في مذكرة كلايتون « فتاة العرب » .

ولكن الفاروقي – حسبما جاء في مذكرة كلايتون – لم يلتزم بطلب الاستقلال التام ، فقال ان أعضاء الجمعية يطلبون أن تساعدهم انكلترا « كي يحصلوا على قدر معقول من الاستقلال والحكم الذاتي في تلك الاقطار العربية التي تستطيع انكلترا الادعاء بأن مصالحها فيها أعظم من مصالح حلفائها »،وانه لن يرضيهم استقلال شبه الجزيرة العربية وحدها ، ولكن من المحتمل أن ينال رضاهم ان يحصل العراق وفلسطين على الحكم الذاتي « تحت ارشاد وسيطرة بريطانيا » . أما بشأن سورية فان أعضاء الجمعية يعرفون مطامع فرنسا فيها . ولكن السكان المسلمين سيقاومون بشدة احتلالا فرنسيا وانهم سيطلبون وساطة انكلترا في الحصول على أفضل الشروط ، ومن المؤكد ان يتشددوا في أن تكون دمشق وحلب وحماه وحمص داخلة في الاتحاد العربي . وعلى حدّ قول الفاروقي « ان مشروعنـــا يضم جميع الاقطار العربية ومن جملتها سورية والعراق ، ولكن اذا لم نستطع الحصول على الكل فاننا نريد الحصول على أكثر ما يمكننا الحصول عليه » . وأوضح الفاروقي ميل العرب للانكليز وثقتهم بهم أكثر من ثقتهم بالالمان والأتراك ثم قال « ونحن نفضل أن نحصل من انكلترا على وعد بالنصف على أن نحصل من تركيا والمانيا على وعد بالكل . اننا سوف نقبل شروطا معقولة من انكلترا ولكننا لن نرضى من أية دولة اخرى الا القبول ببرنامجنا كاملا. أما اذا أصمّت انكلترا أسماعها عن المطالب العربية فان العرب لا يستطيعون البقاء على الحياد وسيرمون بثقلهم إلى جانب تركيا والمانيا ليؤمنوا أفضل الشروط التي يمكن تأمينها . (وهذا الشرط الأخير يشبه تماماً ما قاله الشريف في رسالته إلى الميرغني) .

وقد أشار كلايتون في مذكرته إلى ضرورة حصول بريطانيا على صداقة الرأي العام الاسلامي وان « الجهاد » فشل نتيجة لموقف العرب السلبي منه . وقال ان مقترحات الشريف تشبه مقترحات الفاروقي وان الجواب التملصي الذي وصله أثار الشكوك في ذهنه فرد عليه بسرعة غير عادية معبرا عن دهشته لتردد السلطات البريطانية في بحث مسألة

الحدود . » وليس من شك في ان موقف الشريف هو موقف أكثرية الشعوب العربية » . ثم أشار إلى أن أعطاء جواب ملائم على المقترحات العربية يحتمل أن يضمن صداقتهم على الاقل . وان الجمعية العربية سوف تعمل على توسيع عمليات الشريف في الحجاز حتى تمتد إلى سورية وفلسطين وإلى بغداد والموصل [١] .

هذا خلاصة ما جاء في مذكرة كلايتون . ومن الواضح ان الفاروقي كان وثيق الاطلاع على تشكيلات جمعيتي « العربية الفتاة » و « العهد » وعلى برنامجهما، ولكنه لم يكن مفوضا من قبلهما باجراء أية محادثات بل فرّ من الجيش العثماني وسلم نفسه للجيش البريطاني بدافع من مبادأته الشخصية . ومن السهل أن نتهم الفاروقي بأنه تجاوز حدوده في الأقوال التي أدلى بها ، ولكننا لا نجد في افادته التي كتبها في ١٢ ايلول ١٩١٥ بعيد وصوله إلى مصر ولا في الملحوظات التي كتبها نعوم شقير أحد كبار موظفي الحكومة المصرية والذي وضع الفاروقي تحت اشرافه — لا نجد ذكرا للتنازلات التي أوردها كلايتون في مذكرته .

لقد أعطى الفاروقي في افادته نبذة عن حياته وعن انضمام « العهد » إلى « الفتاة » في دمشق أوائل سنة ١٩١٥ ثم عن اعتقاله في حلب والتحقيق معه بشأن التنظيمات العربية السرية . وأشار الفاروقي إلى تصريحات الانكليز العلنية « بأنهم سوف يساعدون العرب ضد الاتراك » وتأثير تلك التصريحات فيه وفي رفاقه بحيث أخذوا يذيعون في كل الاوساط « ان الانكليز اصدقاؤنا وعضدنا للحصول على استقلالنا ، واننا على استعداد أن نعطيهم مقابل مساعدتهم كل الامتيازات التي لا تمس موارد بلادنا الأساسية واستقلالنا » . وقال ان هدفه وهدف رفاقه الرئيسي هو « الاستقلال الكامل » ، انه عند انضمام « العهد » إلى « الفتاة » تبين ان أعضاء الجمعية الأخيرة «سبق وقدموا ولاءهم إلى شريف مكة واعتبروه خليفة ، نابذين الولاء لرشاد سلطان تركيا .

---

(١) تجد الاجزاء الأساسية في مذكرة كلايتون في .P.R.O., F.O. 371/6237, pp. 30-31

ولذلك كان أول عمل لنا بعد الانضمام إلى تلك الجمعية اننا أرسلنا ضابطا إلى شريف مكة ، قدّم له الولاء نيابة عن جميع ضباط جمعيتنا ، ونبذنا ولاءنا لرشاد » . وقال انهم علموا عندئذ ان الانكليز وافقوا على ان يؤسس الشريف امبراطورية عربية ، دون تعيين حدودها ، فاقترح أعضاء الجمعيتين في دمشق أن يكون خط مرسين — ديار بكر« الحد الشمالي لامبراطورية الشريف » . وبعد العودة من القناة ، أمر جمال باشا بأن تنقل الفرقة ٢٥ المؤلفة من العرب إلى استانبول . وعند وصولها إلى حلب خطب الضابط عز الدين السروجي في الشارع العام أمام الجنود طالباً اليهم أن يعودوا إلى منازلهم وأن لا يحاربوا من أجل الاتراك الذين يظلمون العرب . وعلى الأثر قام الأتراك باعتقالات وتحقيقات ، واتفق الضباط فيما بينهم أن يحاول كل واحد منهم الفرار والذهاب إلى شريف مكة في أول فرصة . وقال الفاروقي ان الحكومة العربية المقبلة ستقوم على أسس القومية وليس على أساس الدين « واننا نعتمد ايضا على كلمة الشرف التي أعطتها بريطانيا العظمى للعالم بأنها تحب العرب وسوف تساعدهم لنزع نير الاتراك » . وقال ان ٩٠٪ من الضباط العرب في الجيش العثماني هم من أعضاء الجمعية. وأعلن قائلا : « انني لست مخولا أن أبحث معكم رسميا برنامجنا السياسي » ، ورغم ذلك وعد أن يجري مع الانكليز مباحثات اذا شاؤا وأن يحاول في المستقبل اقناع رفاقه بالموافقة على الشروط التي يتم الاتفاق عليها بينهم وبينه . ثم قال ان الحكومة التي سينشئونها سوف تقوم على المبادىء التالية :

« ١ — عقد معاهدة صداقة مع الانكليز ، تقوم اذا أمكن على أساس تبادل المنافع .

٢ — تدار الاقطار العربية على مبادىء اللامركزية ، وكل قطر تديره الحكومة الأكثر ملاءمة له على أن يكون خاضعا للحكومة المركزية ، أي لمقام الخلافة .

٣ — يكون الشريف حسين أمير مكة الخليفة والسلطان في

الامبراطورية الجديدة ، وهو الشخص الذي سبق وقدمنا له الولاء ونبذنا ولاءنا لسلطان تركيا رشاد .

٤ ـ ستقوم امبراطوريتنا الجديدة على أسس القومية وليس الدين . على الرغم من ان رأسها سيكون خليفة . انها ستكون امبراطورية عربية وليس اسلامية .

٥ ـ سيتمتع المسيحيون العرب والدروز والنصيرية بالحقوق ذاتها التي سيتمتع بها المسلمون ،أما اليهود فسيحكمون بموجب قانــون خاص . »[١]

أما نعوّم شقير فيقول في الملحوظات التي كتبها عن الفاروقي وافادته،ان الفاروقي « واقع تحت سيطرة موضوع الاستقلال العربي وتأسيس امبراطورية عربية »وله ثقة وطيدة بنفسه وبالجمعية التي ينتمي اليها ، ويعتقد اعتقاداً جازماً انهم يستطيعون في الحال ان يؤسسوا حكومة توطد السلم والهدوء في شبه الجزيرة العربية وسورية والعراق . وهو يعترف بأنهم في بادىء الامر سيحتاجون إلى مساعدة دولة اوروبية تزودهم بالأسلحة والذخائر والمستشارين والمفتشين في النواحي المالية والادارية، وانهم سوف يطلبون هذه المساعدة من انكلترا وحدها. ومقابل هذا فانهم سيعقدون معاهدة صداقة مع انكلترا يمنحونها بموجبها جميع الامتيازات التي لا تؤثر في استقلالهم التام والموارد الأساسية في بلادهم . » وعندما سئل عن سبب ادخال العراق وسوريا مع شبه الجزيرة العربية ، أجاب بأن هذه الاقطار الثلاثة تؤلف بلاداً واحدة وجميعها مأهولة بالعرب . »[٢]

ان افادة الفاروقي التي لخصتها أعلاه ، والتي كتبها بنفسه ، يجب أن تعتبر المصدر الرئيسي لآرائه وأفكاره . وفيما أعلم فان هذه الافادة مع

---

(١) النص الكامل لافادة الفاروقي في P.R.O., F.O. 882/13 .

(٢) ملحوظات نعوم شقير بتاريخ ١٢ ايلول ١٩١٥ في P.R.O., F.O. 882/15 .

الرسالة التي بعث بها بعد حوالي ثلاثة أشهر إلى الشريف حسين — وهي الرسالة التي سأعرض لها فيما بعد — تشكلان المرجع الوحيد المباشر لأقوال الفاروقي . أما ما جاء في مذكرات وبرقيات كلايتون — ومارك سايكس فيما بعد — فهو ما فهماه هما من أقواله . فاذا قدّرنا مصاعب الترجمة والاحتمال المعقول من أن ما قاله الفاروقي فهمه كلايتون او سايكس فهماً لا يطابق قصده هو — رجح لدينا ان أقوال الفاروقي الشفهية فُسرّت بأكثر مما تحتمل . واذا قارنا بين افادة الفاروقي التي كتبت في ١٢ ايلول ورسالته إلى الشريف بتاريخ ٥ كانون الأول ، وجدنا ان الفاروقي ظل متمسكا برأي واحد،وأن ما قيل على لسانه ليس جديرا بأن يؤخذ على علاته كوثيقة لا يأتيها الباطل .

ولكن الآراء التي عزيت للفاروقي كانت ذات تأثير في صياغة التأكيدات التي أعطيت للشريف . ولعلّه من السهل القول انه لولا آراء الفاروقي لحصل الشريف على وعود أفضل ، ولكن ليس من المستبعد ايضا انه لولا الكلام الكبير الذي صدر عن الفاروقي حول قوة الجمعيات العربية في الجيش العثماني لما أعطى الانكليز العهود التي قطعوها .

وهكذا بعث مكماهون في ١٢ تشرين الاول نسخة من افادة الفاروقي إلى وزارة الخارجية ؛ كما أرسل الجنرال ماكسويل مذكرة كلايتون المتعلقة بالفاروقي إلى اللورد كتشنر ،قائلا ان « المسألة ذات أهمية كبيرة وتتطلب المعالجة في الحال . »[١]

وفي ١٦ تشرين الاول أبرق ماكسويل إلى كتشنر يقول ان مكماهون بعث إلى وزارة الخارجية مقترحات العرب المقدمة بواسطة شريف مكة ، ولكنه لم يؤكد على وجود جمعية عربية ذات نفوذ تعمل في الجيش التركي . وحث ماكسويل على ضرورة التوصل إلى اتفاق عاجل مع العرب حتى تضم الجمعية العربية جهودها ضد الاتراك

(١) P.R.O., F.O. 882/13.

والاتحاديين . ثم حذر من ان عدم الاتفاق مع العرب سوف يؤدي إلى انضمامهم إلى جانب الاتراك ، وهذا « سوف يزيد زيادة مادية مصاعبنا في العراق والجزيرة العربية ومع السنوسي ايضا، ويجعل غزو مصر أكثر يسراً » . ثم أبدى ماكسويل رأيه بأن عهد التعميمات الغامضة ولى وانقضى ، ونصح بالاقتراب من وجهة النظر العربية والضغط على الفرنسيين كي يتساهلوا . وعاد للتحذير من اضاعة الوقت اذ « من المحتمل أن يتحد الاسلام ضدنا الا اذا قدمنا اقتراحاً محدداً ومقبولاً لشريف مكة في الحال »[1] .

وفي اليوم التالي بعث كتشنر البرقية التالية إلى ماكسويل :

> ان الحكومة مهتمة إلى أقصى حد بمعالجة المسألة العربية بصورة تكون مرضية للعرب . أرجو أن تخبرني برقياً ماذا يريدون وابحث الموضوع مع مكماهون . ويجب أن تفعل كل ما بوسعك لمنع أي تحول في ولاء العرب التقليدي لانكلترا .[2]

أما مكماهون فقد أبرق يوم ١٨ تشرين الاول إلى وزارة الخارجية بخلاصة رسالة الشريف المؤرخة في ٩ ايلول ، وأرسل في اليوم ذاته برقية شخصية إلى السير ادوارد جراي وزير الخارجية قال فيها ان الفاروقي أفاد في محادثات اخرى معه ان القوميين العرب يقفون على مفترق الطرق ، وان المانيا وعدتهم بتحقيق جميع مطالبهم ، وانهم سوف يلقون بثقلهم إلى جانب المانيا اذا لم نعطهم نحن في الحال تأكيداً مرضياً لهم . وكرر مكماهون ما جاء في برقية ماكسويل من انه اذا انحاز العرب إلى جانب المانيا فمن المحتمل أن يقف جميع مسلمي الشرق ضد الحلفاء ، بينما سوف يؤدي تعاونهم الفعّال إلى تسهيل سير الحملة العسكرية في العراق وسورية . ثم زعم مكماهون ان الفاروقي يرى ان القوميين العرب سوف يقبلون تأكيداً على النحو التالي :

---

(١) P.R.O., F.O. 882/13.

(٢) P.R.O., F.O. 882/13. Telegram No. W.O. 8784 of 17 Oct. 1915.

حيثما تستطيع بريطانيا العظمى أن تعمل دون الحاق الضرر بمصالح حلفائها الحاليين ، فانها تقبل بمبدأ استقلال بلاد العرب [١] ضمن الحدود التي عرضها شريف مكة ، تحت ارشاد بريطانيا وسيطرتها . وعندما يحين الوقت الملائم فان انكلترا سوف تعطي العرب مشورتها وتساعدهم على أن يؤسسوا في المناطق اياها أشكال الحكومات الأكثر ملاءمة لها . ولسوف يعترف العرب في هذه المنطقة بنفوذ بريطانيا العظمى وحدها وسوف يعملون تحت ارشاد وسيطرة بريطانيا ، وسوف يعترفون بأولوية المصالح البريطانية . ولتحقيق هذه الغاية يعترف العرب بالموظفين البريطانيين من ممثلين ومستشارين ممن تدعو الحاجة إلى توظيفهم لضمان حسن سير الادارة ، ولكن سوف يستمر الزعماء العرب في تولي شؤون الحكم في شبه الجزيرة العربية ذاتها . وتتعهد انكلترا بضمان سلامة الاماكن المقدسة ضد كل اعتداء خارجي وتعترف بأنها مصونة لا يجوز انتهاك حرمتها . ان احتلال فرنسا لمناطق (districts) حلب وحماة وحمص ودمشق ذات العروبة المحضة سيجد مقاومة من قبل العرب بقوة السلاح . ولكن اذا أستثنيت هذه المناطق فالفاروقي يظن ان العرب سوف يقبلون بعض التعديل على الحدود الشمالية – الغربية التي اقترحها شريف مكة . أما بشأن ولاية البصرة ، فالفاروقي يوافق على ضرورة وجود ترتيبات خاصة لنوع من السيطرة البريطانية بالنظر لمصلحة بريطانيا العظمى هناك . واذا ما أخذنا بعين الاعتبار رسالة الشريف على ضوء الآراء التي أبداها الفاروقي ، فمي رأيي ان الشريف والقوميين العرب لن يحتمل أن يقبلوا أقل من الخطوط العريضة لهذه التأكيدات . [٢]

لا أدري كيف استطاع مكماهون أن يوفّق في ذهنه بين كلمة « استقلال » وكلمتي « ارشاد وسيطرة »،وكيف لم يجد بينهما أي تناقض ، وكيف افترض ان الفاروقي وافق على أن تستقل البلاد العربية « تحت ارشاد بريطانيا وسيطرتها »،وان الشريف سيقبل توكيداً يتضمن هذا التناقض السخيف ! ولكن يبدو ان جراي وزير الخارجية لاحظ التناقض ، فردّ على مكماهون يوم ٢٠ تشرين الأول ، بالبرقية التالية :

انك مخول باعطاء تأكيدات ودية ضمن الخطوط التي اقترحتها في برقيتك الشخصية بتاريخ ١٨ تشرين الأول مع التحفظ المقترح فيما يتعلق بحلفائنا .

---

(١) هنا يستعمل مكماهون كلمة Arabia بمعنى بلاد العرب وليس شبه الجزيرة العربية .

(٢) P.R.O., F.O. 371/6237, pp. 17-18.

ولكي نحصل على موافقة العرب، فيجب – الا اذا كان ذلك ضروريا – ان لا تشتمل التأكيدات على الشرط القائل بأن على العرب أن يعترفوا بأولوية المصالح البريطانية وبأن عليهم أن يعملوا تحت ارشاد بريطانيا الخ. ان شرطاً كهذا يمكن أن يعطي في فرنسا انطباعاً بأننا لا نرمي إلى تأمين المصالح العربية فحسب بل أيضاً لتوطيد مصالحنا ذاتها في سورية على حساب الفرنسيين . أما بشأن الاماكن المقدسة في الحجاز والعراق ، فلا توجد أية مصاعب من هذه الناحية ، ويمكنك أن تتكلم حولها دون تحفظ . ولكن التحفظ العام الذي تقترحه ضروري إلى أقصى حد ، وخاصة فيما يتعلق بالحدود الشمالية – الغربية . العراق ، بالنظر إلى المصالح الخاصة في منطقة بغداد والمنطقة التي استولينا عليها فعلا ، فان المنطقة المقترح اخضاعها للنفوذ البريطاني – أي ولاية البصرة بالذات – بحاجة إلى توسيع . ان هذا دون شك لن يضر مصالحنا مع الزعماء العرب .
ان إعطاء تأكيد يؤدي إلى الحيلولة دون انحياز العرب إلى صفوف أعدائنا ، هو الأمر الأكثر أهمية ، وبما ان المسألة مستعجلة والوقت لا يسمح ببحث صيغة اتفاق كاملة ، فانني يجب أن أترك المجال لحسن تقديرك في هذا الموضوع . واذا لم يكن التأكيد المطلوب أكثر دقة وتحديدا وفي هذه الحال يمكنك اعطاءه ، فان أبسط خطة يمكن اتباعها هي اعطاء تأكيد باستقلال العرب ، يمكن أن تضيف اليه انهم اذا أرسلوا مندوبيهم فاننا سنباشر في الحال بحث مسألة الحدود. وعليك أن تحيط السردار علماً بكل ما يجري . (١)

وعلى أساس هذه البرقية بعث مكماهون برسالته المؤرخة في ٢٤ تشرين الأول ١٩١٥ إلى الشريف حسين . وهي دون شك أهم حلقة في سلسلة مراسلات الحسين – مكماهون :

بدأ مكماهون رسالته بقوله ان ما لاحظه الشريف من فتور وتردد حول مسألة الحدود لم يكن مقصودا ، وانه بناء على اهتمام الشريف سارع في ابلاغ حكومة بريطانيا العظمى وانه بالنيابة عن حكومته يبلغ الشريف التصريحات التالية :

---

(١) نص البرقية رقم ٧٩٦ في P.R.O., F.O. 371/6237, p. 18; and F.O 141/461 وقد كتب جراي نفسه مسودة هذه البرقية ووقعها الورد كتشنر بالحروف الأولى من اسمه بينما أضاف عليها ممثل عن وزارة الهند الفقرة المتعلقة بمنطقة بغداد – البصرة. راجع ما كتبه السير جيوفري فيرلونغ بشأن هذه البرقية في كتابه عن حياة موسى العلمي *Palestine Is My Country*, (John Murray, London), 1969, 226-227

«ان ولايتي مرسين واسكندرونة واجزاء من بلاد الشام الواقعة في الجهة الغربية لولايات دمشق الشام وحمص وحماة وحلب لا يمكن أن يقال انها عربية محضة . وعليه يجب أن تستثنى من الحدود المطلوبة .

مع هذا التعديل وبدون تعرض للمعاهدات المعقودة بيننا وبين بعض رؤساء العرب نحن نقبل تلك الحدود .

وأما من خصوص الاقاليم التي تضمها تلك الحدود حيث بريطانيا العظمى مطلقة التصرف بدون أن تمس مصالح حليفتها فرنسا ، فاني مفوض من قبل حكومة بريطانيا العظمى ان أقدم المواثيق الاتية وأجيب على كتابكم بما يأتي :

١ ــ انه مع مراعاة التعديلات المذكورة أعلاه فبريطانيا العظمى مستعدة بأن تعترف باستقلال العرب وتؤيد ذلك الاستقلال في جميع الاقاليم الداخلة في الحدود التي يطلبها دولة شريف مكة .

٢ ــ أن بريطانيا العظمى تضمن الأماكن المقدسة من كل اعتداء خارجي وتعترف بوجوب منع التعدي عليها .

٣ ــ وعندما تسمح الظروف تمد بريطانيا العظمى العرب بنصائحها وتساعدهم على ايجاد هيئات حاكمة ملائمة لتلك الاقاليم المختلفة .

٤ ــ هذا وان المفهوم ان العرب قد قرروا طلب نصائح وارشادات بريطانيا العظمى وحدها وان المستشارين والموظفين الاوروباويين اللازمين لتشكيل هيئة ادارية قويمة يكونون من الانكليز .

٥ ــ أما من خصوص ولايتي بغداد والبصرة فان العرب تعترف ان مركز ومصالح بريطانيا العظمى الموطدة هناك تستلزم اتخاذ تدابير ادارية مخصوصة لوقاية هذه الاقاليم من الاعتداء الاجنبي وزيادة خير سكانها وحماية مصالحنا الاقتصادية المتبادلة » .

وعزز مكماهون هذا التصريح بقوله أنه يرى فيه برهانا على رغبة بريطانيا في الاستجابة لرغبات أصدقائها العرب ، وبان المأمول أن يتم التوصل إلى عقد « محالفة دائمة ثابتة معهم ويكون من نتائجها المستعجلة

طرد الاتراك من بلاد العرب وتحرير الشعوب العربية من نير الاتراك... ».
واختتم الرسالة بقوله انه طلب من الرسول محمد بن عريفان أن يبلغ الشريف « بعض المسائل المفيدة التي هي من الدرجة الثانية من الأهمية . »

ان رسالة مكماهون التي بعث بها إلى وزارة الخارجية بتاريخ ٢٦ تشرين الأول حول موضوع رسالته إلى الشريف حسين، يجب أن تُقرأ مع تلك الرسالة، كي يفهم القارىء مقاصد مكماهون ومعاني رسالته إلى الشريف . فقد كتب مكماهون يقول انه أعطى تصريحا قاطعا بأن بريطانيا العظمى سوف تعترف بمبدأ الاستقلال العربي في المناطق ذات العروبة المحضة ، وانه استثنى بصورة قاطعة مرسين والاسكندرونة « وتلك المناطق الواقعة على الشواطىء الشمالية السورية التي لا يمكن القول انها عربية وهي المناطق التي فهمت انه أعترف بمصالح فرنسا فيها » . وأضاف مكماهون يقول انه في الوقت الذي اعترف فيه بأن تكون « مدن دمشق وحماه وحمص وحلب داخلة ضمن نطاق الاقطار العربية » فقد حاول أن يحتاط لما يحتمل أن تدعيه فرنسا في تلك الاماكن عن طريق تعديل عام مفاده ان بريطانيا العظمى تستطيع فقط أن تعطي تأكيدات تتعلق بالأراضي التي تستطيع أن تكون فيها مطلقة التصرف بدون أن تمس مصالح حليفتها فرنسا » . وانتهى مكماهون إلى القول ان رسول الشريف محمد بن عريفان أبلغ شفهياً بمضمون الرسالة التي حملها « كي يسهل على الشريف فهمها » كما أعطيت له تأكيدات شفهية أخرى تتضمن التعاطف والتعضيد [1] .

يمكن أن تتضح لنا مقاصد مكماهون من رسالته إلى الشريف اذا أمعنا النظر في النقاط التالية :

١ — ان كلمة « ولاية » لم ترد في رسالة مكماهون بمعنى اسم المنطقة الادارية الذي كان العثمانيون يطلقونه على « ولايات » دولتهم ،

---

(١) رسالة مكماهون إلى وزارة الخارجية رقم ١٣١ PR.O., F.O. 371/6237

بل وردت بمعنى « ناحية » أو « جهة » أو « منطقة » . فلم تكن في الدولة العثمانية ولاية مرسين ولا ولاية اسكندرونة ، ولا ولاية دمشق ؛ ولا ولاية حمص ، ولا ولاية حماة . إن مرسين ميناء تقع في « ولاية اضنة »، ودمشق وحمص وحماة مدن كبيرة في « ولاية سورية » واسكندرونة ميناء في ولاية حلب . حقا كانت هناك « ولاية حلب » ولكن رسالة مكماهون لم تقصد هذا المعنى بدليل ان الاجزاء الواقعة إلى الغرب من ولاية حلب ، هي البحر لان ولاية حلب كانت تضم الجزء الشمالي من الساحل السوري . المقصود اذاً – وهذا ما فهمه الشريف – استثناء الأراضي الواقعة على الشاطىء السوري الشمالي غربي المدن الأربع الكبيرة : دمشق وحمص وحماة وحلب ، أي المنطقة الساحلية الممتدة من صور إلى الاسكندرونة .

٢ – لقد وافق مكماهون على الاعتراف باستقلال العرب ضمن الحدود التي طلبها شريف مكة في مذكرته الاولى ، مع استثناء مناطق معينة حرص أن يشير اليها ويعينها . وكل ما لم يستثنه مكماهون بالتحديد الواضح يبقى بطبيعة الحال ضمن المناطق التي اعترفت بريطانيا العظمى بأنها عربية ومستقلة .

٣ – استثنت بريطانيا مناطق في الجزء الشمالي – الغربي من سورية بسبب « مصالح حليفتها فرنسا » وبزعم ان تلك المناطق « لا يمكن أن يقال انها عربية محضة » . وهذا هو ما فهمه الشريف تماما .

٤ – سورية – أو بلاد الشام – في ذلك الحين كانت تعني تلك المنطقة الجغرافية والتاريخية التي تمتد من جبال طوروس شمالاً إلى شبه جزيرة سيناء جنوبا ، وكانت تضم جزءاً من ولاية حلب وولاية بيروت وولاية سورية وسنجق لبنان وسنجق القدس ، وهي المنطقة ذاتها التي قسمت نتيجة لتسويات ما بعد الحرب العالمية الاولى إلى سورية (بما في ذلك سنجق اسكندرونة الذي أعطته فرنسا لتركيا سنة ١٩٣٨) ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن .

٥ – ان رسائل مكماهون كتبت في الاصل باللغة الانكليزية ، ثم

ترجمت إلى العربية والنص الانكليزي الذي ترجمت عنه كلمة « ولاية » هو « district » أي ان المعنى المقصود أصلا بهذه الكلمة لا ينصرف إلى التقسيمات الادارية العثمانية .

٦ — تحمل رسالة مكماهون إلى وزارة الخارجية حول رسالته الجوابية إلى الشريف ، الدليل القاطع ان المناطق المستثناة هي مرسين والاسكندرونة (أي هذين الميناءين ذاتهما) والمناطق الساحلية في شمالي سورية ،وانه خشي أن تمتد مطامع فرنسا إلى أجزاء اخرى فاحتاط لذلك بعبارة ان التأكيدات تشمل فقط الأجزاء التي تكون فيها بريطانيا « مطلقة التصرف بدون أن تمس مصالح حليفتها فرنسا » .

٧ — مع مراعاة التعديلات المذكورة أعلاه وبدون التعرّض للمعاهدات المعقودة مع بعض رؤساء العرب فان بريطانيا العظمى تعترف باستقلال العرب « في جميع الاقاليم الداخلة في الحدود التي يطلبها دولة شريف مكة » .

علينا أن نلاحظ هنا أن الشريف كان يجهل أمر التوقيع على معاهدة بريطانيا مع الادريسي (نيسان ١٩١٥) ولم تكن المعاهدة مع ابن السعود قد وقعت بعد (٢٦ كانون الاول ١٩١٥) . ونكاد نجزم ان الشريف كان يومذاك يعتقد ان المعاهدات المشار اليها تقتصر على الكويت والبحرين وبعض المشيخات الاخرى في خليج البصرة . ومن الواضح ان حكومة الهند لم تعرض على ابن السعود عقد معاهدة معه ، الا لكي تفوّت على الشريف فرصة المطالبة في المستقبل بادخال تلك المنطقة ضمن الاقاليم التامة الاستقلال .

٨ — يستعين العرب بنصائح بريطانيا ويقبلون مساعدتها وارشاداتها ويقتصرون على المستشارين والموظفين الانكليز .

٩ — فيما يتعلق بولايتي بغداد والبصره فالعرب يعترفون بأن مصالح بريطانيا « تستلزم اتخاذ تدابير ادارية مخصوصة لحمايتهما من الاعتداء الاجنبي وزيادة خير سكانها وحماية مصالحنا الاقتصادية المتبادلة » .

ونفهم من هذا ان بريطانيا لم تستثن ولايتي بغداد والبصرة من منطقة الاستقلال العربي.ولكن التدابير المخصوصة التي أشار اليها مكماهون تجعل ذلك الاستقلال كلاما لا معنى له،وتظهر التناقض الفظيع الذي حاول مكماهون أن يغطيه بالعبارات المطاطة .

وصلت رسالة مكماهون إلى مكة المكرمة بتاريخ ٢ تشرين الثاني ١٩١٥ فلم يلبث الشريف ان أجاب عليها برسالته المؤرخة في ٥ تشرين الثاني . وقد تضمن جواب الشريف النقاط التالية :

١ — التخلي عن « ادخال ولايات مرسين واضنه في أقسام المملكة العربية» . أما بشأن « ولايتي حلب وبيروت وساحلهما فهي ولايات عربية محضة » . واذ ان الشريف فهم من تحفظات مكماهون ان مصالح فرنسا المشار اليها تنحصر في جبل لبنان (وأكثر سكانه مسيحيون) فقد مضى إلى القول انه « لا فرق بين العربي المسيحي والمسلم فأنهما ابنا جد واحد » . أي ان الشريف رفض فكرة التخلي عن حلب وبيروت وساحلهما ورفض الاعتراف بمصالح فرنسا فيهما . وكرر طلبه الأساسي بأن تكونا ضمن المنطقة العربية المستقلة لأن جميع سكانهما عرب رغم ان دين بعضهم هو المسيحية (لاحظ هنا ان الشريف استعمل كلمة «ولايات» بمعنى « جهات » و « نواحي ») .

٢ — أصر الشريف على ان الولايات العراقية عربية خالصة العروبة ، ولكنه بناء على ما أورده مكماهون من ضرورة حمايتها من الاعتداء الاجنبي ولصيانة « تلك الحقوق الممزوجة بحقوقنا بصورة كأنها الجوهر الفرد » قال انه يمكن أن يرضى بأن تبقى الجهات التي كانت القوات البريطانية تحتلها يومذاك (أي ولاية البصرة بوجه التقريب) تحت الاحتلال البريطاني « إلى مدة يسيرة ».واشترط الشريف أن يكون ذلك الاحتلال لقاء مبلغ مناسب من المال تحتاج المملكة العربية العتيدة اليه لتوطيد دعائمها . وهنا قال الشريف انه يحترم اتفاقات بريطانيا « مع مشايخ تلك الجهات » ، أي جهات البصرة فحسب .

٣ – استوضح الشريف عما اذا كان يحتمل أن تعقد بريطانيا العظمى الصلح مع الاعداء دون علم العرب ، وطلب أن لا تتخلى بريطانيا عن العرب .

٤ – وافق الشريف على أن يستعين العرب بالموظفين والمستشارين الانكليز ، ولكنه اشترط أن لا يتدخل هؤلاء في الشؤون الداخلية ، أي ان يكونوا مستشارين لا غير .

٥ – اذا قبلت هذه الشروط فان العرب سيلقون بثقلهم إلى جانب بريطانيا العظمى .

ان التأكيدات التي أعطاها مكماهون في رسالته المؤرخة ٢٤ تشرين الاول بشأن ولايتي البصرة وبغداد ، لم تجد قبولا لدى وزارة الهند . ففي ٥ تشرين الثاني أرسلت وزارة الخارجية إلى مكماهون نص احتجاج شديد اللهجة من وزير الهند ، مؤداه ان « التأكيدات تمضي إلى أبعد مما فكرت فيه وزارة الهند . والعرب غير محبوبين لدى أهل الهند الذين يعتبرون العراق مكافأة لهم على أتعابهم . والمعلومات التي تملكها وزارة الهند تقول ان الشريف شخص لا يؤبه له ، وأن العرب غير متحدين ، وانه لا محل للامال المعقودة على قيام ثورة في الجيش وفي جهات اخرى . ويقال ان الزعيمين الصديقين ابن سعود والادريسي ، هما ضد الشريف بينما الزعماء الاصدقاء للشريف مثل ابن الرشيد يميلون إلى الاتراك . »[١]

وفي هذه الأثناء كان محمد بن عريفان قد وصل إلى السودان وبعده إلى القاهرة ، وقد أفاد انه التقى بالأمير عبد الله في مكة فأعطاه رسالة مكماهون وأبلغه الرسالة الشفوية التي كان يحملها . وكان عبد الله قد عاد لتوه من نجد يصحبه عدد من زعماء القبائل الذين أقنعهم بالانفصال عن حملة ابن الرشيد التي كانت متجهة إلى جهات العراق للعمل ضد الانكليز . وعلم ابن عريفان من عبد الله ان الضابط الالماني اوبنهايم

---

(١) P.R.O., F.O. 882/12.

اعيد من المدينة المنورة مطروداً بعد أن وصل اليها .

وفي هذه الأثناء حدث حادث كاد يؤدي إلى افتضاح سرّ المخابرات الجارية بين الشريف والانكليز . ففي ذات يوم من أيام شهر تشرين الاول وصلت سفينة حربية من السفن البريطانية إلى مرسى طوال بين جده ورابغ ورست هناك . وعندما ذهب شيخ البلدة إلى قائد السفينة يستفهم منه عن أسباب مجيئه ، أبلغه هذا انه ينوي احتلال ذلك الموقع بناء على ترتيب مسبق مع ابن عريفان . وأبلغ الشيخ نبأ هذا الحادث إلى الشريف كما قام البدو بتفتيش منزل ابن عريفان في قرية كاظمه . ثم وصل النبأ إلى أسماع المسؤولين الاتراك فأثار شكوكهم وأخذوا يشددون الرقابة على الشواطىء . وعلى الأثر طلب الشريف أن لا يتكرر هذا الحادث البالغ الخطورة.[1] وهذه الواقعة تدل على أهمية وجود أجهزة استخبارات ذات كفايةعالية، فلو كان الاتراك يملكون جهازا استخبارات قديراً في الحجاز لكان من المحتمل أن يتوصلوا إلى سرّ الثورة التي كان الشريف يعمل على إعدادها،وربما كان في مقدورهم أن يحولوا دون قيامها .

كان ترتيب تنقلات ابن عريفان يقضي بأن يبحر من شاطىء الحجاز إلى ميناء بور سودان وهناك يسلّم رسالته ، فيبادر الانكليز إلى ترجمتها ترجمة اولية ويبرقون بمضمونها إلى ونجت في الخرطوم وإلى مكماهون في القاهرة . أما ابن عريفان فيواصل رحلته بالباخرة احيانا إلى الاسكندرونة وأحيانا إلى القاهرة ، أي إلى حيث يقيم المندوب السامي . لذلك كان ونجت على صلة تامة بسير المحادثات .

وخلال شهر تشرين الثاني كان مكماهون قد أبحر إلى جزيرة ملدوس لكي يجتمع باللورد كتشنر ويشترك في المباحثات التي كانت تجري لترتيب انسحاب القوات البريطانية من غاليبولي. من هنا حدث التأخير

---

(١) تقرير الرسول « ج » عن رحلته الثانية من السودان إلى مكة : P.R.O., F.O. 882/12.
وبرقية حاكم السودان العام إلى كلايتون بتاريخ ٢٩ تشرين الأول ١٩١٥ .

في الرد على رسالة الشريف. اذ لم يتمكن مكماهون من أن يبعث بملحوظاته وآرائه حول الرسالة إلى وزارة الخارجية الا بعد عودته من رحلته . وفي هذه الاثناء بعث ونجت إلى كلايتون رسالة خاصة بتاريخ ١٥ تشرين الثاني ، يعلّق فيها على رسالة الشريف وعلى احتجاج حكومة الهند حول ولايتي البصره وبغداد . وكان من رأي ونجت ان رسالة الشريف « مهمة إلى أقصى حد وتعطي البرهان القاطع انه ليس شخصا لا يؤبه له بأي حال من الأحوال . بل رجل دولة وديبلوماسي ... » . ويقول ونجت ان حجج الشريف المتعلقة بالعراق « بارعة إلى حد بعيد وتبدو لي وسيلة ممتازة للخروج من المأزق » . وأوضح انه يقصد بذلك اقتراح الشريف بأن تقوم بريطانيا بدفع مبلغ من المال مقابل احتلال ولاية البصرة مدة من الزمن . وعبّر ونجت عن أمله في أن تقبل الحكومة البريطانية طلبات الشريف على أساس أنه اذا أخفق العرب في انشاء دولتهم فان بريطانيا ستكون في حل من وعودها ، اما اذا أصبحت الدولة العربية حقيقة واقعة « فاننا نملك التأمينات الكافية للامساك بزمامها » وان بريطانيا تستطيع أن تقيم حواجز تحول بفعالية دون أن تصبح تلك الدولة الخطر المخيف الذي تخشاه حكومة الهند (١) .

وعندما عاد مكماهون من زيارته إلى ميدان الدردنيل بعث يوم ٣٠ تشرين الثاني إلى وزارة الخارجية ببرقية طويلة ضمنها اراءه في رسالة الشريف . وكان من رأي مكماهون ان رسالة الشريف مرضية من حيث الرغبة في التفاهم المتبادل ضمن شروط معقولة ، ومن حيث انها تعطي فرصة لاجابة رغبات وزارة الهند فيما يتعلق بالعراق. وقال مكماهون ان وزارة الهند ، في انتقاداتها ، تجاهلت أهمية العراق في نظر العرب ، وانه من المستحيل التوصل إلى تفاهم عام مع العرب اذا لم يُعترف بأن العراق جزء من بلاد العرب . ثم ناقش مكماهون ادعاء وزارة الهند ان

---

(١) P.R.O., F.O. 882/12.

الشريف شخص غير مهم ، وقال : « على العكس ان كل شيء يعطي البرهان انه — بسبب مركزه ونسبه وشخصيته — هو النقطة الوحيدة التي يحتمل أن تلتقي عندها قضية العرب . وعلاوة على هذا فهو ضد الاتراك إلى حد انه يقف الان تحت تهديد خطر عظيم من الاتراك على شخصه » . ومضى مكماهون يقول ان الحركة العربية الحاضرة قومية أكثر منها دينية . وعلى الرغم من وجود الشيعة العرب في العراق والمسيحيين العرب في الغرب (سورية) ، فان هذا لا يمنع امكانية التوصل إلى اتفاق . « انه سيكون من الضروري انشاء أشكال ادارية مختلفة تناسب الاحوال المحلية ، في الأجزاء المختلفة من الامبراطورية العربية . وفي نظري ان هذا وحده سوف يمنع خلق الدوله العربية المتحدة والمستقلة التي يبدو ان سلطات الهند تخشاها » . ثم ناقش الرأي القائل بأن على العرب أن يسارعوا إلى اعلان ثورتهم وقال « انه يتوجب علينا ان نفعل كل ما في وسعنا للحصول على تعاطف وتعضيد الشعب العربي ، حتى ولو كانت المساعدة التي يقدمها العرب غير فعّالة ، فالوضع الخطير الذي يواجهنا في العراق ومصر ، يجعل حرمان الاتراك من مساعدة العرب أمراً في غاية الأهمية » .

ثم اقترح مكماهون ان يتضمن جوابه العتيد إلى الشريف (١)الموافقة علىاستثناء اضنه ومرسينمن الاراضيالعربية،(٢) الترحيب بتأكيده أن العرب مصممون على معاملة المسيحيين والمسلمين بالمساواة،(٣)الموافقة على ان ولايتي بيروت وحلب — باستثناء بقع من الارض حول مرعش وعينتاب — مأهولتان بالعرب ، ولكن بما ان لحلفائنا الفرنسيين مصالح عديدة فيهما وفي جهات سورية الاخرى فمن الضروري عمل ترتيبات خاصة لحماية تلك المصالح ، واننا لا نستطيع ان نفعل الان اكثر من ان نؤكد للشريف رغبتنا في التوصل إلى تسوية مرضية،(٤) « فيما يتعلق بولايتي بغداد والبصرة ، ان اوافق على ان نستمر في ادارة الولايات التي يأخذها البريطانيون من الاتراك بقوة

السلاح حتى يتم التوصل إلى ترتيب مقبول لدى الطرفين بشأنهما». [1]
واضاف يقول ان العرب والشريف سيرضون ببقاء هاتين الولايتين في ايدينا لعجزهم عن ادارتهما ولكن المطلوب صيغة ترضي المشاعر العربية، والعرب يرغبون اكثر ما يرغبون الحصول على تأكيد باننا سننظر في مسألة تقديم اعانة مالية على طريقة التأجير ، (٥) اؤكد للشريف ان بريطانيا العظمى لن توقع صلحاً لا يكون من جملة بنوده النص على تحرير العرب من حكم الاتراك، (٦) أوافق الشريف على رغبته في عدم الاسراع باعلان الثورة ولكن احثه على ان يبذل جهوده لمنع العرب من مساعدة العدو ، و(٧) اخبره بأننا سنقدم له مساعدة مالية واقترح تخصيص ٥٠ الف جنيه لذلك. [2]

مما هو جدير بالملاحظة على وجه التخصيص في برقية مكماهون اعترافه بعروبة سكان سورية كلها وبان اشتراط التحفظات بشأن ولايتي حلب وبيروت هو لحماية مصالح فرنسا لا لأي سبب او غرض آخر.

وردت وزارة الخارجية بعد بحث دقيق استغرق عشرة ايام ، ببرقية مؤرخة في ١٠ كانون الاول ١٩١٥ حددت فيها الجواب الذي سيرسله مكماهون إلى الشريف . وقد اوضحت البرقية « ان موقف فرنسا من سورية متصلب للغاية واملنا ضعيف بالحصول من الفرنسيين على اي تأكيد يعطي ترضية حقيقية للعرب » . ورغم ذلك بينت لمكماهون ضرورة استمرار المفاوضات مع الشريف، وخولته صلاحية الاجابة على اساس القبول بالنقطتين الاولى والثانية من برقيته. اما بشأن النقطة الثالثة فيجب ان يقال للشريف « انه بسبب وجود مصالح لجهات اخرى فان المسألة تحتاج إلى بحث دقيق من قبل حكومة جلالته وان رسالة اخرى بشأنها سترسل اليه فيما بعد » . وبشأن النقطة الرابعة قالت وزارة الخارجية انها تفضل ان يقال للشريف ان بريطانيا « تميل لاعطاء ضمان بمساعدة

---

(١) هنا أيضا استعمل مكماهون كلمة « ولاية » بمعنى « جهة » .
(٢) النص الكامل لبرقية مكماهون رقم ٧٣٦ في P.R.O., F.O. 371/6237, pp. 33-34

وحماية المملكة العربية » ولكن مصالحها في ولاية بغداد تستدعي بحثاً اوفى وادق في مستقبل العراق لا يسمح به الظرف الحاضر . ووافقت البرقية على مجمل نقاط مكماهون المقترحة ٥و٦و٧ ولكنها طلبت من مكماهون ان يوضح للشريف ان المعاهدات مع الزعماء العرب تشمل شبه الجزيرة العربية وليس اولئك المجاورين للعراق فقط . [١] ومن الملاحظ ان رد وزارة الخارجية جاء اكثر غموضاً مما اقترح مكماهون ، وان ذلك الرد تضمن عبارة « المملكة العربية » التي كان الشريف يعتبر امر تأسيسها الهدف الرئيسي من مفاوضاته .

ولكن سياق الموضوع يقتضي منا ان نتعرف على الآراء التي كوّنها السير مارك سايكس [٢] في القاهرة ، قبل ان نعرض لرسالة مكماهون الثالثة إلى الشريف ، فقد وصل سايكس إلى القاهرة يوم ١٧ تشرين الثاني في طريق عودته من العراق والهند إلى انكلترا . وخلال اقامة سايكس هذه في القاهرة اتصل لاول مرة بقضية المطامح العربية نحو الوحدة والاستقلال ، وظل اتصاله وثيقاً بقضية تلك المطامح حتى وفاته في ١٩١٩ .

بعث سايكس بعدد من البرقيات إلى لندن والبصرة خلال الايام ٢٠ — ٢٢ تشرين الثاني حول مباحثات أجراها مع الفاروقي . ففي برقيته الاولى قال انه تباحث مع الفاروقي حول مسألة مدعيات فرنسا في سورية ، وان الفاروقي ابلغه ان العرب « سوف يوافقون على عقد ميثاق مع فرنسا يُسمح لها بموجبه ان تتولى ادارة جميع المشاريع ذات الامتياز في فلسطين وسورية ».وعرّف سورية بأنها تمتد حتى دير

---

(١) P.R.O., F.O. 371/6237.

(٢) السير مارك سايكس (١٨٧٩ — ١٩١٩) عضو مجلس العموم البريطاني قام برحلات عديدة قبل الحرب في مختلف أنحاء الامبراطورية العثمانية وكتب بضعة كتب عنها . عند بدء الحرب عين بتوصية من كتشنر سكرتيرا مساعدا للجنة الدفاع الامبراطوري . ثم مثل بريطانيا في المحادثات بينها وبين فرنسا التي انتهت إلى عقد اتفاقية سايكس — بيكو . وكان وراء انشاء المكتب العربي في القاهرة .

الزور شرقاً ودرعا ومعان جنوباً ، وانه يمكن بيع خط سكة حديد الحجاز بين دمشق ومعان إلى الفرنسيين، وان العرب يوافقون على توظيف المستشارين الفرنسيين فقط في هذه المنطقة وعلى استخدام الموظفين الاوروبيين اذا احتاجوا إلى خدماتهم . ويوافق العرب على منح المؤسسات التعليمية الفرنسية تمييزاً خاصاً . اما في العراق والجزيرة فان العرب يوافقون على منح بريطانيا امتيازات مماثلة ويعترفون بان تكون بلدة البصرة والاراضي الواقعة إلى الجنوب منها تحت حكم بريطانيا مباشرة . ويوافق العرب على عقد معاهدة مع دول الحلفاء تحت شرطين رئيسيين (١) ان لا ينشيء العرب علاقات ديبلوماسية مع النمسا وتركيا والمانيا لمدة ١٥ عاماً و(٢) ان تتعهد دول الحلفاء بحماية استقلال العرب .

وبالاضافة إلى ما تقدم – يقول سايكس – فالعرب يعقدون معاهدة مع الحلفاء تضمن حرية حركة جنود الحلفاء في بلادهم ، ولكن الفاروقي اشترط مقابل هذا ان تنزل حملة عسكرية للحلفاء بين مرسين والاسكندرونة وتستولي على ممر امانوس وجبال كيلكيا ، قائلاً ان الشريف لن يقوم بالثورة الا بعد ان يتم هذا. وقد وافق سايكس على انه« يستحيل ان ندعو الشريف والعرب للقيام بالثورة الا بعد ان نستولي على الممرات المذكورة آنفاً » . وشدد الفاروقي على ضرورة انزال حملة عسكرية في الحال في خليج الاسكندرونة ، وقال انه اذا لم يفعل الحلفاء ذلك فان العرب سيضطرون إلى اعادة النظر في موقفهم خصوصاً اذا امتلأت سورية بالقوات الالمانية والتركية . واختتم سايكس برقيته هذه بقوله « انني مقتنع بضرورة اتخاذ اجراء فعال في أقرب برهة ممكنة من اجل تمكين العرب من الحركة . »

وقال سايكس في برقيته الثانية ان واجب بريطانيا نحو فرنسا والعرب يقتضي « ان نجعل العرب يمنحون الفرنسيين اكبر قسط ممكن من التنازلات ، وان نجعل الفرنسيين يوافقون على ان تكون فلسطين وممر حيفا في منطقة نفوذنا كامتياز منهم » . وقال انه يعتقد ان الشريف

سيوافق على ان تحكم بريطانيا العراق مدة من الزمن مقابل حصوله على ايرادات مالية . ثم عبرّ عن رأيه بان الدولة العربية المقترحة لن تصبح ذات قوة كبيرة ما دامت بريطانيا وفرنسا تحميانها . وقال انه اذا منحت بريطانيا العرب الفرصة التي يتطلعون اليها فهو يتصور ان حكومة سورية وفلسطين في المستقبل سوف تكون على نمط الحكم في عهد العثمانيين ، وان العرب سيقبلون استمرار حكم بريطانيا المؤقت في بغداد والبصره دون تذمر وان العرب سيطلبون مساعدة بريطانيا في الموصل واورفه . ثم حثّ الحكومة البريطانية على ان لا تدع هذه الفرصة تفوت لئلا يتفق العرب مع الاتراك .(١)

وتلقي البرقية التي بعث بها سايكس من القاهرة إلى السير برسي كوكس في البصره أضواء جديدة على الوضع في تلك الفترة . فقد نقل اليه قول الفاروقي ان « الجمعية العربية » في مصر متفقة تماماً مع الشريف ، وان خطة العرب هي تأسيس دولة عربية مستقلة او اتحاد دول ، ومشروعهم يقوم على اقناع اكبر عدد ممكن من زعماء الجزيرة العربية على القبول بسيادة الشريف » وان تؤسس دولة تقدمية تحت سيادة الشريف من ولايات : دمشق وبيروت وحلب والموصل وبغداد ؛ وسناجق : اورفه ودير الزور والقدس . وان يكون تشكيل الحكومة على اساس اللامركزية العثماني مع مجلس نواب مقره دمشق » . ولكن العرب سيعقدون اتفاقات مع بريطانيا وفرنسا ، يمنحون فرنسا بموجبها احتكار جميع المشاريع مع تسهيلات خاصة للمؤسسات التعليمية في المنطقة الواقعة غربي الفرات حتى دير الزور وفي فلسطين ، وان لا تستخدم الدولة العربية سوى الموظفين الفرنسيين في هذه المنطقة . وتُمنح بريطانيا العظمى امتيازات مماثلة في العراق والجزيرة ، بينما تخضع بلدة

---

(١) النص الكامل لبرقيتي سايكس رقم ٧٠٧ و ٧٠٩ بتاريخ ٢٠ و ٢١ تشرين الثاني ١٩١٥ ، وقد أرسلتا إلى وزارتي الحربية والخارجية : P.R.O., F.O. 371/6237, pp. 36-37

البصرة والاراضي الواقعة إلى الجنوب منها للحكم البريطاني المباشر. وقال سايكس ان سواحل شبه جزيرة العرب ستبقى عملياً مثلما كانت من قبل بسبب ان المعاهدات المعقودة مع زعمائها سوف تظل نافذة المفعول. واشار إلى ان العرب سيوافقون على استمرار الحكم البريطاني في ولايتي بغداد والبصره بسبب حاجتهم إلى الايرادات المالية وقال اخيراً انه اذا حصلت بريطانيا على هذه الامتيازات في العراق فلا حاجة للتخوف مما سيحمله المستقبل.[1]

ويلاحظ ان سايكس اراد بهذه البرقية ان يوضح الموقف لكوكس ومن ورائه حكومة الهند، ويؤكد لهم ان الاتفاق مع العرب لا يعني انسحاب بريطانيا من العراق، ولا يعني تأسيس دولة عربية متحدة وقوية تهدد المصالح البريطانية عبر الطريق الحيوي بين امبراطوريتها في الشرق وبين البلد الام.

ولكن الانصاف يقتضينا ان نذكر القارىء بما جاء في افادة الفاروقي التي سبقت الاشارة اليها، والتي نفترض انيكون السير مارك سايكس قد اطلع عليها وانعم النظر فيها — كعادة ابناء قومه — قبل ان يعقد اجتماعاته بالفاروقي. فقد جاء في تلك الافادة قول الفاروقي « انني لست مخولا أن ابحث معكم رسمياً برنامجنا السياسي » وأقصى ما وعد به هو ان يحاول اقناع رفاقه بالموافقة على اية شروط يتم الاتفاق عليهـا بينه وبين الانكليز. ثم ان مباحثات سايكس معه — ومن قبله كلايتون — لم

---

(١) النص الكامل لبرقية سايكس بتاريخ ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٥ في P.R.O., F.O. 882/13 ولا بد من القول ان سايكس اجتمع إلى عدد من السوريين في مصر بهدف الحصول على تأييدهم لنوع من انواع النفوذ البريطاني والفرنسي على بلادهم. وقد عارض فارس نمر باشا وسعيد باشا شقير مقارضة شديدة فكرة تقسيم سورية إلى منطقتي نفوذ. أما الشيخ رشيد رضا فقد قال انه يريد قيام دولة اسلامية مستقلة تحل محل الدولة العثمانية، وان « تشمل تلك الدولة جزيرة العرب وسورية والعراق تحت رئاسة الشريف ». وقد رفض رشيد رضا أي انتقاص لاستقلال تلك الدولة العربية. ولذلك نرى سايكس يتهمه بالتعصب.

تتعد طور الحديث الشفهي ، الذي يمكن ان يضطرب المعنى فيه بين ما يعنيه القائل وما يسمعه السامع ، خصوصاً اذا اضفنا إلى ذلك مصاعب الترجمة . ومن البديهي ان المرء لا يحتاط في الكلام كما يحتاط في الكتابة . ومن هنا يحق لنا ان نتساءل : كيف اتخذ سايكس من الفاروقي متحدثاً رسمياً مفوضاً عن القوميين العرب ، في الوقت الذي اعلن فيه الفاروقي خطياً انه غير مفوض من قبل رفاقه ؟

هذه النقطة جديرة بالتأمل والتروي لان جميع المصادر الرسمية البريطانية تجمع على ان الآراء التي كونها الرسميون الانكليز في مصر حول التنازلات والامتيازات التي يوافق العرب على ان يمنحوها لفرنسا وبريطانيا في سورية خاصة ، نابعة في الاصل من محادثاتهم مع الفاروقي .

وبالاضافة إلى افادة الفاروقي المشار اليها سابقاً ، نجد وثيقة اخرى ذات اهمية كبيرة بالنسبة لهذا الموضوع . وهذه الوثيقة هي اول رسالة كتبها الفاروقي من مصر بتاريخ ٥ كانون الاول ١٩١٥ وبعث بها إلى الشريف حسين . وهي — بالاضافة إلى الافادة — تعطينا فكرة واضحة عن اراء الفاروقي :

بدأ الفاروقي رسالته بتعريف نفسه وقال انه احد الضباط الذين بايعوا الشريف ، وحمل اسماءهم من دمشق إلى الحجاز الملازم الاول عبد الحميد البغدادي ، وقال انه قابل الامير فيصل في حلب وان ياسين بك الهاشمي هو الذي تفاهم في دمشق بالنيابة عن جمعية العهد مع جمعية العربية الفتاة . وعندما احس جمال باشا «بسريان روح الحركة العربية» بادر إلى اعتقال بعض الضباط العرب ونقل البعض الآخر إلى استانبول . وهناك قرر هو وياسين بك « الفرار من الاتراك إلى الانكليز لنجعلهم طريقاً للوصول إلى سيادتكم » . ويقول انه عند وصوله إلى مصر قدم للانكليز تقريراً مسهباً « وافهمتهم باني واخواني نرى ان مصالح العرب والانكليز متحدة ولهذا السبب يلزم ان نكون أصدقاء ... وذكرت لهم باننا نحن رجال ليس لنا ارب سوى الاستقلال ... ولنا ثقة بأنفسنا

واعتماد على بريطانيا العظمى التي جاهرت بود العرب والتي تحب ان تصاحب العرب اصحاب السيادة على العالم الاسلامي وتعينهم على استقلالهم لاتحاد المصلحتين» . ويقول الفاروقي انه تباحث مع الانكليز فأطلعوه على جوابهم للشريف «الذي يستثنون به غرب خط الشام وحمص وحماة وحلب ومرسين واسكندرونة معتذرين عن ذلك بان لفرنسا حليفتهم مصالح لا يسعهم ان يغضبوها لاجلنا واعتراف بريطانيا [وتعضيدها] لاستقلالنا تحت رئاسة سيادتكم مع استثناء الحدود المذكورة ومن غير المساس بمصالح فرنسا ، وما عدا المعاهدات الممضاة قبلا بينهم وبين مشايخ ورؤساء العرب ، وفيه طلب مساعدتكم [مساعدتهم؟] بشأن ولايتي بغداد والبصرة ، وان يُعترف لهم بحقوق ومصالح اقتصادية وتأمين تلك المصالح من كل خطر اجنبي وجلب مفتشين انكليز ، وانهم يمنعون كل تعدي اجنبي عن البلاد المقدسة » . ويقول الفاروقي ان الانكليز سألوه رأيه الشخصي فأجابهم بصفة شخصية « انه لا يمكن بوجه من الوجوه التنازل عن شبر أرض في سوريا واني لست أعرف في غرب خط الشام وحلب بلدا غير عربية كما يدعون . وقلت لهم لا بدّ من الاعتراف بذلك ووضع معاهدة تحالف ، وأن لا يبرم صلح الا باشتراك سيادتكم ، وأن يعترف بهذا الاستقلال جميع الدول المتفقة مع امريكا وهو يشمل سوريا والعراق وان يمدونا بالأموال والذخائر الحربية . ويمكن الاعتراف للانكليز بالمنافع الاقتصادية بالعراق وللفرنسيين بسوريا وجلب المفتشين منهم » . ثم يقول انه تحادث عدة مرات في هذا الموضوع مع السير مارك سايكس ، ويظن ان الانكليز قنعوا بأقواله .[1]

ونحن نجد في التعهد الذي اخذه الفاروقي من اثنين من شبان العرب

---

(١) نص رسالة محمد شريف الفاروقي : محمد طاهر العمري ، تاريخ مقدرات العراق السياسية ، المجلد الأول ، ص ص ٢١٩ – ٢٢٤ .

الموجودين في القاهرة عبارات تؤيد ما كتبه في افادته وفي رسالته للشريف حسين . فقد جاء في تلك الوثيقة التي كتبها الفاروقي انهما ينفضان ايديهما من خلافة السلطان رشاد « ونبايع بالخلافة الاسلامية الجليلة حضرة شريف مكة الحالي الشريف حسين وندخل عن طيب خاطر في (جمعية الفتاة العربية) التي ترمي إلى تأسيس دولة عربية تحت رئاسة حضرة الشريف ... »[1]

وتتضمن رسالة الفاروقي إلى زميليه مولود مخلص وعبد الله الدليمي (شباط ١٩١٦) تأكيداً مماثلاً للاراء التي كان الفاروقي يحملها . فقد جاء فيها قوله « اخواني لا نتنازل عن مبادئنا الاستقلالية المعروفة لديكم ... اننا الان مشغولين بجمع كلمة العرب المتفرقة تحت رئاسة الرئيس الذي اشرت لكم عنه ومشغولين ايضاً باجراء تحالف مع دولة بريطانيا العظمى في موضوع استقلال بلاد العرب جميعها ... ونحن آمنين من صداقة ومحبة رجال انكلترا لنا ونتأمل منهم اشياء كثيرة وسننال منهم ما نريد ان شاء الله .[2]

---

(٢) محمد طاهر العمري ، المصدر السابق ، المجلد الأول ص ٢٣٧ . والوثيقة بتاريخ ٧ كانون الثاني ١٩١٦ .

(١) المصدر السابق ، ص ص ٢٣٤ — ٢٣٧ ؛ وكان مولود وعبد الله في البصرة بعد وقوعهما اسيرين بيد الجيش البريطاني ، وانضم كلاهما إلى الثورة العربية عند اعلانها وكانا من قادتها البارزين . ولا بد هنا من تصحيح بعض ما جاء في كتاب ايلي خضوري ، انكلترا والشرق الأوسط ، المطبوع في لندن سنة ١٩٥٦ ، بشأن الفاروقي . وربما لم يتح لخضوري عند تأليف كتابه الاطلاع على افادة الفاروقي التي سبقت الاشارة اليها ، ولكنه اكتفى بنقل ما يؤيد وجهة نظره من رسالة الفاروقي إلى الشريف حسين بتاريخ ٥ كانون الاول ١٩١٥. وزعم خضوري (صفحة ٣٧ من كتابه) ان الفاروقي ابلغ الشريف انه قال للمسؤولين الانكليز في القاهرة « ان فرنسا وانكلترا سوف تمنحان امتيازات اقتصادية وحق الارشاد الاداري في المناطق التي تطالبان بها » ، بينما النص الصحيح لعبارة الفاروقي كما أوردناها أعلاه هو « ويمكن الاعتراف للانكليز بالمنافع الاقتصادية بالعراق وللفرنسيين بسوريا وجلب المفتشين منهم » . ويجب ان لا ننسى أن رسالة الفاروقي هذه وصلت إلى الشريف في أواخر شهر كانون الاول أي بعد شهرين من رسالة مكماهون الثانية . وسنعود إلى تفنيد مزاعم هذا المؤلف الصهيوني في الصفحات القادمة .

وكتب كلايتون بتاريخ ٨ كانون الاول ١٩١٥ مذكرة حول المسألة العربية والمباحثات المتعلقة بها. وهذه المذكرة تلقي المزيد من الضوء على الأفكار السائدة بين المسؤولين البريطانيين في القاهرة حول هذه المسألة . وكان من رأي كلايتون ان عدم وجود زعيم عربي مفرد لتنسيق الحركة العربية هو امر مفيد ، بل انه واحد من صمامات الأمان الرئيسية ضد قيام دولة عربية قويـــة متحدة . « واذا امكن كسب مختلف الزعماء واحداً واحداً إلى جانبنا ، عن طريق اعطائهم تلك الضمانات التي تطلبها الجماعة العربية ، فاننا سنكون كسبنا كسباً عظيماً جداً واختلسنا من العدو سلاحاً قوياً من الاسلحة التي يستعملها ضدنا » . وقال كلايتون ان مبدأ التعامل مع كل قطر عربي على حدة هو مبدأ مهم. وحالما يعلن اكثر الحكام استعدادهم للعمل مع الحلفاء ، فان هذا المبدأ يجب المحافظة عليه ، فبهذه الوسيلة ينتفي خطر قيام دولة عربية قوية وهو الخطر الذي تخشاه حكومة الهند .

وناقش كلايتون الفكرة القائلة بالاستفادة من العرب في مجال الهجوم على العدو ، قائلاً ان اصحاب هذه الفكرة ينسون ان الكسب الرئيسي الذي نطمح إلى الحصول عليه هو كسب دفاعي ، اي ان « نختلس من اعدائنا عونا مادياً ومعنوياً لا يقدر بثمن وهو عون يمكن ان يحصلوا عليه او انهم نجحوا في ان يوحدوا الشعوب العربية ضد الحلفاء ، بل جميع المسلمين عن طريق العرب . » (١)

ان رسالة مكماهون الثالثة المؤرخة في ١٤ كانون الاول ١٩١٥ ، جاءت حصيلة الآراء التي قدمها هو لوزارة الخارجية وكذلك الآراء التي بعث بها مارك سايكس إلى وزارتي الحربية والخارجية ،وقد تبلورت كلها في برقية وزارة الخارجية المؤرخة في ١٠ كانون الاول والتي سبقت الاشارة اليها .

---

(١) P.R.O., F.O. 882/2.

أعرب مكماهون في مطلع رسالته عن ترحيبه بموافقة الشريف على اخراج « ولايتي مرسين وأضنه من حدود البلاد العربية » ، وعن سروره لتأكيد الشريف بان الحكومة العربية العتيدة ستعمل بموجب التعاليم الاسلامية «التي تضمن حقوق كل الاديان وامتيازاتها على السواء». ثم أبلغ الشريف ان بريطانيا تعتبر موافقة « العرب » على المعاهدات التي عقدتها مع رؤساء العرب الاخرين موافقة تشمل « جميع البلاد الداخلة في حدود المملكة العربية » ، والقصد من هذا التوضيح هو الخشية ان يدعي الشريف في المستقبل انه لم يوافق الا على المعاهدات التي كان يعلم ان بريطانيا عقدتها مع بعض الزعماء في خليج البصرة . هذا مع العلم ان الشريف لم يكن يعلم شيئاً يومذاك عن اتفاق بريطانيا مع الادريسي او عن ازماعها الاتفاق مع ابن السعود ، كما سبق القول .

وفيما يتعلق بالتحفظات الخاصة بولايتي حلب وبيروت ، فان مكماهون قدم اجابة مرنة ومطاطة إذ قال ان الحكومة البريطانية دونت ما قاله الشريف عنهما بعناية تامة ، ولكنه استطرد مشيراً الى ان « مصالح حليفتها فرنسا » في الولايتين تستوجب النظر الدقيق في المسألة . ومع ذلك فانه وضع تلك المسألة على الرف عندما وعد ان يخابر الشريف بشأنهما « مرة اخرى في الوقت المناسب » .

ومثلما أجّل مكماهون البت في امر المصالح الفرنسية المدعاة في ساحل سورية الشمالي ، فانه عمد كذلك ان تأجيل البت في امر المصالح البريطانية المدعاة في ولاية بغداد (مع عدم الاشارة اطلاقاً إلى ولاية البصرة ، كأنه اعتبر ما قاله الشريف بشأنها في رسالته الاخيرة كافياً) . وقد اختار مكماهون عباراته بعناية فائقة حتى لا تستثير شكوك الشريف ، فقال ان بريطانيا « مستعدة لان تعطي كل الضمانات والمساعدات التي في وسعها إلى المملكة العربية ولكن مصالحها في ولاية بغداد تتطلب ادارة ودية ثابتة كما رسمتم » . واتخذ مكماهون حجة للتأجيل بان الحالة الحاضرة والسرعة التي تجري بها المفاوضات « تستلزم نظراً ادق وأتم » .

ومضى مكماهون يطبق تعليمات وزارة الخارجية فوافق الشريف

على رغبته في اتخاذ الحذر وعدم الاندفاع في اعلان الثورة قبل ان تتهيأ الاسباب الكفيلة بنجاحها . وطلب من الشريف ان يبذل جهوده لدى زعماء العرب الآخرين كيلا يمدوا يد المساعدة للاتراك ، وان يعمل كل ما في وسعه لجمع « كلمة الشعوب العربية إلى غايتنا المشتركة .... فانه على نجاح هذه المجهودات وعلى التدابير الفعلية التي يمكن للعرب ان يتخذوها لاسعاف غرضنا عندما يجيء وقت العمل ، تتوقف قوة الاتفاق بيننا وثباته » . والقصد من هذه العبارة واضح وهو إفهام الشريف ومن معه ان الاتفاق الحالي يقوم على مصالح متبادلة ، وانه اذا اراد العرب ان تفي بريطانيا بالتزاماتها فعليهم بدورهم ان ينفذوا قسطهم من المشارطة تنفيذاً عملياً فعالاً .

وأخيراً أبلغ مكماهون الشريف ان بريطانيا « لا تنوي ابرام اي صلح الا اذا كان ضمن شروطه الاساسية حرية الشعوب العربية وخلاصها من سلطة الالمان والاتراك . »

جاءت رسالة مكماهون هذه نموذجاً بارعاً لديبلوماسية الكلمة المنتقاة التي تغطي المتناقضات تحت ستار المرونة والغموض : تعطي وتأخذ ، وترخي وتشد ، في آن واحد ، كاليد المختبئة خلف قفاز من الحرير الناعم . فقد كررت ذكر « المملكة العربية » مرتين ، وقبلت تأكيدات الشريف عن « العرب » وابدت استعداد بريطانيا لاعطاء المملكة العربية « كل الضمانات والمساعدات » وعزمها على ان لا توقع اي صلح الا اذا نصت شروطه على « حرية الشعوب العربية » . ولكن الرسالة في الوقت ذاته اكدت مصالح بريطانيا في ولاية بغداد (مع اعتبار الاعتراف بمصالحها في البصرة امراً مبتوتاً فيه) وأكدت مصالح فرنسا في ولايتي بيروت وحلب (دون اشارة إلى ولاية سورية وسنجق لبنان وسنجق القدس) . ووسعت الرسالة الشرط القائل باعتراف « العرب » بالمعاهدات المعقودة بين بريطانيا وبين الزعماء العرب الاخرين « في حدود المملكة العربية » (حتى المعاهدة التي عقدتها مع ابن السعود بعد تاريخ هذه الرسالة باثني عشر يوماً اعتبرتها بريطانيا داخلة ضمن هذا الشرط) . ومع ان الرسالة في

الظاهر تبدو وكأنها اعطت للملكة العربية كل شيء ، الا انها في حقيقة الامر قصّت أجنحة تلك المملكة وقيدتها بسلاسل حريرية متينة بحيث لم تبق لها سبباً من اسباب النمو الطبيعي الذي تحتاج اليه دولة ناشئة . لا أحسب ان المرء يتجنى اذا قال ان المثل العربي القائل « السم في الدسم » يصدق كل الصدق على هذه الرسالة بالذات .

في الوقت الذي كان الشريف خلاله ينتظر وصول جواب مكماهون على رسالته المؤرخة ٥ تشرين الثاني ١٩١٥ ، تلقى رسالة اخرى من السيد علي الميرغني . وليس من شك في ان رسائل الميرغني كانت ذات أثر في تزيين مسألة الاتفاق مع بريطانيا وتحريض الشريف على الانتقاض على الاتراك ، خاصة وهي تضرب على وتر المساعدة البريطانية والخلافة والوحدة العربية والاستقلال . وقد كانت رسالة الميرغني هذه بتاريخ ١٥ تشرين الثاني . ويمكن اقتطاف بعض عباراتها للتدليل على ما تضمنته من عبارات الاستمالة والترغيب والتحريض :

لقد صممت بريطانيا العظمى أن تساعد العرب من أجل استرداد حكمهم وسلطانهم المختلسين واستعادة استقلالهم الضائع . لقد فقد العرب هذا منذ عدة قرون تحت فساد الحكم التركي ومظالمه ، وها هي الفرصة تلوح الان لاسترداد كل هذا . ان الفترة الراهنة أكثر الفترات ملاءمة للعرب كي ينزعوا عنهم نير الحكم التركي الثقيل ويحققوا احلامهم القومية واما لهم بالاستقلال وليجددوا مجد أسلافهم العظماء .... انها لحقيقة ناصعة ان بريطانيا العظمى بالتعاون مع حلفائها الكبار راغبة في قيام حكومة عربية قرشية تحل محل العرش التركي المتداعي الذي طفح كيل فساده وظلمه . انهم يرغبون أن تقوم هذه الحكومة القرشية وتوطد أركانها كما كانت قبل عدة قرون ولتمشي يدا بيد مع الحضارة الحديثة ، وترتفع بالعرب الكرام إلى قمة المدنية والرخاء ..... والان بريطانيا مستعدة لان تفعل أكثر من هذا . انها تحاول ان تمد يد المساعدة والعون إلى أعظم الزعماء العرب كي يحصل على الاستقلال التام وينزع نير الحكم التركي الثقيل وبذلك ينقذ الامة العربية الكريمة من مخالب ظالميها ومن قبضة اللص الالماني المستبد ، وكما تعلمون ، فالمشروع كله ذو طابع بالغ الدقة والتعقيد ، خاصة لان بريطانيا العظمى مع رغبتها في خير الاسلام والامة العربية فانها مهتمة جدا باحترام مشاعرهم الدينية والقبلية . هذا هو السبب الذي جعلها تأخذ على عاتقها أن تعمل

من وراء ستاركي تتحقق من رغائبهم لتحرير أنفسهم من الاستعباد التركي ولكي يحصلوا على الاستقلال التام لبلادهم . وبما ان الأمير الشريف هو في نظر العرب أقوى زعمائهم وأعلاهم مقاما ، فان بريطانيا مستعدة أن تعطيه كل مساعدة ممكنة .... ونتيجة لثقتنا بانك الرجل الوحيد القادر على النهوض بالعرب وتعزيز قضيتهم ، فاننا أوضحنا ايضاحا تاما للمسؤولين هنا ، كل ما نعرف .

ومضى الميرغني يقول ان الذي حدا به إلى مراسلة الشريف ثقته بان الانكليز يريدون الخير للعرب ، وان جهوده تهدف إلى خير الاسلام وتأمين شرف الخلافة الاسلامية وتعضيد العرب لحماية وحدة بلادهم . ثم ناقش الشريف بشأن مخاوفه من لوم المسلمين له اذا اعلن الثورة ، وأكد له ان احداً لن يلومه اذا قام للدفاع عن حقوقه المشروعة وحقوق العرب والمسلمين . وقال انه أعطي اقوى التأكيدات بان بريطانيا لن تتدخل في الشؤون الداخلية في بلاد العرب « ولكنها ستفعل اقصى ما في وسعها كما قلت قبلا لتقديم المساعدة المادية والمعنوية للدولة العربية حتى تقوم وتأخذ مكانها اللائق بها بين الدول الاخرى » . وقال ان بريطانيا لا تريد الا ان يهب العرب كرجل واحد وان يضحوا بمطامعهم الشخصية ، وانها ستعترف باستقلال الحكومة العربية . ثم قال ان كل هذه الحقائق « تم تأكيدها لي من قبل المسؤولين » . وأبلغ الشريف ان المسؤولين الانكليز حدثوه عن مسألة الحدود وانهم يوافقون على وجهة نظر الشريف . وليست التحفظات التي تقدموا بها الا وسيلة لحماية مصالح حيوية لهم خوفاً من ان تعتدي دولة اخرى على اراضي الدولة العربية الناشئة التي لا تملك اسطولا يحمي الشاطىء السوري . ثم فسر له قول مكماهون بان الوقت لم يحن بعد لبحث مسألة الحدود ، فقال ان المقصود هو اولاً تأسيس الدولة العربية ثم البحث معها في المسائل الثانوية . ثم حث الشريف ان يعمل على توحيد كلمة امراء العرب ، كي يدعموه ويؤيدوه من اجل القضية الكبرى . [١]

---

(١) النص الكامل لرسالة الميرغني في P.R.O., F.O. 882/18

لقد اجاب الشريف على هذه الرسالة بتاريخ ٢٨ كانون الاول ١٩١٥ . ونحن نفهم من اجابته مدى التأثير الذي تركته عبارات الميرغني في نفسه . ولكن الشريف على الرغم من تأثيره ظل متمسكاً بموضوع حدود الدولة العربية معتبراً اياه موضوعاً اساسياً وليس ثانوياً . فقد كرر القول ان الحدود المطلوبة هي الحدود التي يعتقد اهل البلاد انها حيوية لمستقبلهم « وأن المساعدة التي تقصد بريطانيا العظمى ان تقدمها لاصدقائها لا يمكن ان تكون تامة وفعالة الا اذا اقتنع العرب ان نيات بريطانيا العظمى متفقة مع مطامحهم للمستقبل ، وهذا لا يمكن ان يحدث الا اذا حصلوا على الحدود التي يطلبونها . ان المملكة العربية التي تهتم بريطانيا العظمى بتأسيسها (كما يبدو من هذه الرسالة والرسالة التي سبقتها) والتي تعرض عليها التشجيع والمعاضدة ، لا تستطيع الحياة دون هذه الحدود الطبيعية . ونحن لا نتصور ان ثروات وخصب تلك البلاد — وهي بالحقيقة ليست شيئاً اذا قيست بالممتلكات الغنية التي تحكمها بريطانيا — يجب ان تحول بين مكارم بريطانيا العظمى والاستجابة لمطالبنا » . اما بالنسبة إلى فرنسا ومصالحها فقد كان الشريف في غاية التشدد اذ قال انه « يستحيل علينا ان نعترف باية دولة اخرى في مراسلاتنا » . وقال ان العرب هم الذين اختاروه — بل اجبروه — لكي يتولى أمر مستقبلهم ، لذلك فهو لا يرى سبباً معقولاً للشرط الجديد الذي يطالبه بان يحصل على إجماع امراء العرب . [1]

ارسل مكماهون ترجمة رسالة الشريف هذه إلى السير ادوارد جراى وزير الخارجية [2] . ومن هذا نستدل على ان الميرغني كان احدى الوسائل التي استغلها الانكليز لمعرفة جميع نيات الشريف ولاقناعه بوجهة نظرهم. ولا شك ان الميرغني كان رجلاً طيب القلب يعتقد بصحة ما يقال له ، ومن المحتمل ان السير ريجالند ونجت نفسه كان مقتنعاً

---

(١) جواب الشريف في P.R.O., F.O. 371/2767

(٢) رسالة مكماهون رقم ٢٦ بتاريخ ٧ شباط ١٩١٦ .

بان ما كان يقوله للميرغني هو حقيقة السياسة التي تنوي بريطانيا السير عليها بالنسبة للعرب .

لا بد لنا هنا من ان نعرض لوجهة نظر المكتب العربي [1] في تصوره للوضع الذي انتهت اليه المفاوضات بين بريطانيا والعرب بشأن الحدود . فقد اعد الأستاذ هوجارث رئيس المكتب العربي يومذاك مذكرة مؤرخة في ١٦ نيسان ١٩١٦ بعنوان (المسألة العربية) لخّص فيها النقاط التي التقى فيها الفريقان والنقاط التي لم يتفقا عليها . ان هذه المذكرة ذات اهمية خاصة من حيث ان رجلاً قديراً كالاستاذ هوجارث هو الذي أعدّها ، ومن حيث انها في نظرنا تمثل عرضاً منصفاً ومعقولاً للوضع الناشىء عن المفاوضات بين بريطانيا العظمى والعرب .

اشارت المذكرة إلى ان جميع الرسائل التي بعث بها مكماهون إلى الشريف كانت تحظى بالموافقة المسبقة من قبل الحكومة البريطانية ، وإلى ان مكماهون بعث مع الرسول الذي حمل رسالته المؤرخة ١٤ كانون الاول ١٩١٥ برسالة شفوية إلى الشريف مؤداها انه يمكن عمل ترتيب مع الحكومة البريطانية عندما يحين الوقت المناسب ، بشأن الحصول على مبلغ من المال مقابل قيام بريطانيا بادارة العراق (ولايتا البصرة وبغداد) . وقالت المذكرة ان البحث في المسائل المتعلقة بحدود المنطقة العربية المستقلة وكيفية انشائها، تُرك جانباً بعد رسالة الشريف المؤرخة

---

(١) تأسس المكتب العربي في القاهرة في كانون الثاني ١٩١٦ وكان يضم عددا من الضباط السياسيين ذوي الخبرة في شؤون البلاد العربية ، وهو من أجهزة وزارة الخارجية البريطانية ، ولأعضائه مكانة في المسائل السياسية أكبر من الرتب العسكرية التي أعطيت لهم ومهمة هذا المكتب تقديم المعلومات عن بلاد العرب وتنسيق علاقات بريطانيا السياسية معها. وكان المكتب واسطة الاتصال بين المندوب السامي في مصر وبين الحجاز ، ومن رجاله كلايتون ، هوجارث ، كورنوالس ، سايمس ولورنس . وقد أصدر المكتب (النشرة العربية) وهي مطبوعة سرية كانت تتضمن معلومات ومقالات سياسية وعسكرية فيما يتعلق ببلاد العرب . وقد أغلق هذا المكتب في ١ تشرين الاول ١٩٢٠ .

في ١ كانون الثاني ١٩١٦ ، وان المراسلات بعد ذلك التاريخ اقتصرت على بحث الوسائل والترتيبات التي يمكن اتخاذها لقيام الثورة العربية ، وان الشريف تعهد باعلان الثورة « اعتماداً على التأكيدات التي اعطيناها فعلاً دون ان يشترط الحصول على تأكيدات اخرى » . وهنا لخصت المذكرة الوضع التعاقدي بين الفريقين على الوجه التالي :

« لم يوافق الشريف ، من جانبه ، على : —

١ — استثناء الاسكندرونة (التي تقع في ولاية حلب) او اي جزء من سورية من منطقة الاستقلال العربي .

٢ — فصل اي جزء من العراق فصلاً دائماً او حتى النزول مؤقتاً لنا عن اية منطقة ، باستثناء البصرة (المنطقة التي كانت القوات البريطانية تحتلها حتى يوم ٥ تشرين الثاني ١٩١٥) .

٣ — ان تكون هناك سيادة للعثمانيين او لأية دولة اجنبية اخرى على أي جزء من البلاد .

لم نوافق نحن ، من جانبنا ، على : —

١ — لا نتجاوز مجرد الاعتراف بالخلافة العربية ، اذا انشأها العرب انفسهم .

٢ — الاعتراف باستقلال العرب في سورية ، غربي خط حلب — حماة — حمص — دمشق ، أو في أي جزء آخر من المنطقة العربية التي لا نملك فيها حرية العمل دون الحاق الضرر بمصالح حليفتنا فرنسا .

٣ — الاعتراف بأي زعيم سياسي بمفرده في المنطقة العربية المستقلة ، او بخضوع أي زعيم عربي لاي زعيم آخر .

٤ — وضع اي مدة زمنية لاحتلالنا العراق : تحديد الشروط التي سنبقى بموجبها في اي جزء منه : او أن نقصر احتلالنا على ولاية البصرة وحدها .

٥ — الغاء امتيازات الاجانب .

اما ما تمت الموافقة عليه ، باسم بريطانيا العظمى فهو : —

١ – ان نعترف باستقلال تلك الاجزاء من المنطقة التي يتكلم اهلها العربية ، التي نملك فيها حرية العمل دون الحاق الضرر بمصالح فرنسا . وتحت شرط هذه التحفظات غير المحددة ، فالمفهوم ان حدود هذه المنطقة تمتد في الشمال عند خط العرض ٣٧° ، ثم تسير شرقاً إلى الحدود الفارسية ، وجنوباً إلى الخليج الفارسي والمحيط الهندي ، وغرباً إلى البحر الاحمر والبحر الابيض المتوسط حتى خط العرض ٣٣° ومن هناك تسير مع خط داخلي لم يعين تماماً غربي دمشق وحمص وحماة وحلب : كل المساحات الواقعة بين هذا الخط الاخير والبحر الابيض المتوسط على اية حال تم التحفظ عليها تحفظاً تاماً بقصد ان يجري في المستقبل ترتيب بشأنها بين الفرنسيين والعرب .

وقد استثنينا ايضاً ضمن المنطقة المستقلة المذكورة اعلاه .

ا – عدن والمنطقة المحيطة بها ، التي تبقى ممتلكات بريطانية .

ب – العراق (ولايتا البصرة وبغداد) على ان يؤجر لنا قسم منها ويدار من قبلنا، وان يخضع الجزء الآخر لسيطرتنا بصورة ما: ان نتولى امر اي جزء من العراق ، ليس بحق الاستيلاء والفتح بل كامتياز يمنحه العرب لنا .

٢ – ان نساعد العرب

أ – كي يحصلوا على استقلالهم في تلك البلاد

ب – ان ينشئوا ويقيموا أي نوع من أنواع الحكومات ذات الاستقلال الداخلي في المناطق المختلفة من تلك البلاد بحسب ما يناسب كلا منها .

٣ – ان نوافق على قيام خلافة عربية تحل محل الخلافة العثمانية اذا ما نجح العرب في انشاء خلافة بصورة مرضية .

٤ – ان نعطي مشورتنا للمناطق العربية ونقـدم الموظفين الذين يساعدون في ادارة تلك المناطق ، اذا رغبت في ذلك الحكومات الدستورية لتلك المناطق عند تأليفها ، وفيما عدا هذا ، لا نتدخل في الشؤون الداخلية للبلاد، شريطة انلا تنتهك الحكومات المستقلة حرمة معاهداتنا

المعقودة مع الزعماء العرب » .

واخيراً لفت هوجارث الانتباه إلى ان الشريف – رغم انه كان يخاطب بريطانيا دائماً بصفة الناطق باسم الامة العربية – لا يستند إلى تنظيم عربي شامل يضمن لبريطانيا تنفيذ التعهدات التي تعهد بها سواء في البلاد العربية كلها او في الجزء الاكبر منها . واشار هوجارث إلى ان تنظيماً كهذا غير موجود في البلاد العربية « ولا يتوقع وجوده اذا نظرنا بعين الاعتبار إلى تاريخ العرب وصفاتهم وأوضاعهم الاقتصادية.» اما أفضل ما يمكن قوله في هذا الموضوع فهو ان الشريف « يملك نفوذاً اوسع ، خارج نطاق منطقته الجغرافية ، مما يملكه اي زعيم عربي آخر : وان اسرته اكثر الاسر العربية الحاكمة استنارة وانفتاحاً ، وهو يملك موارد من مختلف الانواع اكثر من سواه ، وهو الوحيد بين الامراء العرب الذي يتمتع باعتبار روحي في ارجاء العالم الاسلامي كله». وخلص هوجارث من هذا كله إلى القول ان بريطانيا اذا شاءت ان تتعامل مع زعيم عربي واحد بشأن مستقبل الشعوب العربية فهي مضطرة ان تفضل التعامل مع الشريف، ولكن من الخطأ التعامل معه وحده، او الظن انه يمكن التأثير في جميع العرب عن طريقه . وهكذا خلص هوجارث إلى تقديم النصيحة بان تتفاوض بريطانيا مع الزعماء العرب الآخرين (امير الرياض والادريسي وامير حايل وزعماء قبائل عنزه وامام اليمن) في نطاق الخطوط العامة التي تفاوضت عليها مع الشريف . وأبدى رأيه ان مفاوضات من هذا النوع لا تتعارض مع تعهداتنا للشريف ولا يمكن ان يعتبرها هو او غيره مضرة بالقضية العربية . [1]

وقد بعث مكماهون بهذه المذكرة إلى السير ادوار جراى قائلاً

---

(١) الكوماندر هوجارث، مذكرة بعنوان (المسألة العربية) النص الكامل في P.R.O F.O. 882/2
راجع ايضا : الملحق (أ) المرفق بتقرير عن (شريف مكة والحركة العربية)
بتاريخ ١ حزيران ١٩١٦ :- Sherif of Mecca and the Arab Movement
Append., A (أوراق سايكس ، كلية سانت انتوني ، اوكسفورد) . وأيضاً :
P.R.O., F.O. 3/1/6237. pp. 37-38

انها يمكن ان توضح وضع بريطانيا العظمى الراهن تجاه الجمعيات العربية ، وانه من الافضل عدم اطلاع العرب على اي برنامج تضعه بريطانيا للحلول النهائية . ومن الغريب ان يعتقد مكماهون « انه لم تعط من قبلنا لاية جماعة من الجماعات العربية ، اية ضمانات يمكن ان تنشأ عنها اية ارتباكات في المستقبل بيننا وبين الحلفاء او بيننا وبين العرب »[1] وهذا التصريح يشبه في غرابته غرابة قول هوجارث في نهاية مذكرته بان قيام بريطانيا بالتفاوض مع الزعماء والمشايخ العرب الاخرين لا يلحق ضرراً بالقضية العربية . ولكن من اغرب الغرائب واعجب العجائب ان مكماهون الذي بعث هذه المذكرة إلى وزير الخارجية البريطانية بعد ان درسها وأنعم النظر فيها — كما نفترض — ولاحظ جيداً ان الجزء المستثنى من منطقة الاستقلال العربي ليس سوى تلك الشقة الساحلية الممتدة من خط العرض ٣٣° إلى خط العرض ٣٧° ، إلى الغرب من مدن دمشق ، حمص ، حماة وحلب — نسي فيما بعد كل هذا واعلن عام ١٩٣٧ ان الجزء المستثنى يشمل الساحل السوري كله ومن ضمنه فلسطين . ولو كان مكماهون يعتقد سنة ١٩١٦ بما صرح به عام١٩٣٧ لكان المفترض فيه ان يشجب مذكرة هوجارث ويبرز « الخطأ » الذي وقعت فيه وهو « خطأ » يتناول رقعة من الارض ليس من السهل ان يسهو مكماهون عن ذكرها او ينساها .

ان هذه الوثيقة ذات اهمية تاريخية كبيرة ، من حيث اننا نجد ان وجهة النظر البريطانية الرسمية تتفق تماماً مع وجهة النظر العربية القائلة بان رسائل مكماهون لم تستثن في تحفظاتها من سورية سوى الشقة الساحلية التي تمتد من صور جنوباً إلى الاسكندرونة شمالا ، وهي الشقة الواقعة « غربي خط حلب — حماة — حمص — دمشق » بين درجتي العرض٣٣° جنوباً و٣٧° شمالاً .هذا مع العلم بان الشريف لم يوافق اطلاقاً

---

(١) رسالة رقم ٨٣ (سري) بتاريخ ١٩ نيسان ١٩١٦ — P.R.O., F.O. 371/2768
ورسالة رقم ٣٦٠ بتاريخ ٢٠ كانون الأول ١٩١٦ — الملف CAB. 27/23

على هذا التحفظ عينه الذي وضعته الحكومة البريطانية بغية المحافظة على مصالح حليفتها فرنسا ، على الرغم من القول ان ترتيباً سيجري في المستقبل بين الفرنسيين والعرب بشأن تلك الشقة .

نصل الان إلى رسالة الشريف حسين الرابعة التي بعث بها بتاريخ ١ كانون الثاني ١٩١٦ إلى السير هنري مكماهون [1] وقد استهل الشريف رسالته بان اعرب عن سروره بوقوف مكماهون – عن طريق الفاروقي – على انباء الجمعيات العربية الساعية في سبيل الوحدة والاستقلال مما يؤكد له ان المصاعب التي عرضها الشريف ليست ناشئة عن عواطف شخصية بل هي « قرارات ورغائب أقوامنا » وانه – الشريف – ليس سوى واسطة تبليغ او تنفيذ بعد ان ألزمه قومه بهذه المهمة الزاماً . ثم عرج الشريف على مسألة التعويض عن ادارة المنطقة المحتلة في العراق وقال انه بسبب ثقته الوطيدة ببريطانيا فانه يترك أمر تقدير مبلغ التعويض « لمدارك حكمتها ونصفتها » . وتحول الشريف بعد هذا إلى موضوع « الجهات الشمالية وسواحلها » قائلاً ان جميع التعديلات التي يستطيع العرب ان يوافقوا عليها مرّ ذكرها في رسالته السابقة . وقال انه تجنب ما يمكن ان يمس التحالف البريطاني – الفرنسي ، ولكنه يرى من واجبه ان يؤكد لمكماهون بانه سيغتنم اول فرصة بعد انتهاء الحرب للمطالبة « بما نغض الطرف عنه اليوم لفرنسا في بيروت وسواحلها » . واشار إلى انه بهذا التشدد يرمي إلى صيانة المنافع البريطانية ايضاً لان جوار فرنسا سيولد مشاكل كثيرة تحول دون استقرار الاحوال، هذا فضلاً عن ان البيروتيين لن يقبلوا الانفصال قطعياً عن الدولة العربية . وقال انه يريد ان تبقى علاقة العرب ببريطانيا وحدها « بالنظر لما نعتقد ونتيقنه من اشتراك المنفعة ووحدتها » . واستطرد يقول بتأكيد قاطع « وعليه يستحيل امكان اي تساهل يكسب فرنسا او سواها شبراً من اراضي

---

(١) وصل رسول الشريف إلى السودان ومصر في منتصف شهر كانون الثاني وهو يحمل رسالة الشريف هذه ورسالته الاخرى إلى السيد علي الميرغني .

تلك الجهات » . واختتم رسالته بتأكيد عزمه على رفع راية الثورة عندما تحين الفرصة الملائمة ، مشيراً إلى انه سيعتمد على بريطانيا في امداد العرب بما يلزم من الأسلحة والذخائر ومهمات الحرب .

اعتبر مكماهون رسالة الشريف مرضية على الرغم من قوله ان الشريف سارع لاغتنام فرصة الاقتراح المتعلق بالعراق (مسألة التعويض المالي عن احتلال بريطانيا لولاية البصرة فترة من الزمن). ومع ان مكماهون اشار بايقاف المباحثات عند هذا الحد الا انه عقّب على اشتراطات الشريف بقوله « ان كل شيء سوف يعتمد ، ليس على مدى تعاون العرب اثناء الحرب ونجاح ذلك التعاون بل على طبيعة الظروف التي سوف نجد نحن والعرب انفسنا فيها عندما تنتهي الحرب » . وقال ان الجماعة العربية [1] كانت دائماً تصر على صدور تأكيد من بريطانيا العظمى بان العراق جزء من بلاد العرب. وأعرب مكماهون عن اعتقاده بان بريطانيا حصلت الان على التعاطف الفعال من قبل الشريف، وفوق هذا لا توجد اية دلائل تشير إلى اية حركة معادية لبريطانيا بين العرب وهذا دليل على فشل الدعايات الالمانية . ثم اشار إلى شروط الشريف المتعلقة بفرنسا وقال ان من الحكمة ان لا تتجاهل الحكومة البريطانية ذلك . وقال ان العرب ينظرون بنفور عميق إلى احتمال قيام ادارة فرنسية في اي جزء من الاراضي العربية . [2] ويجدر هنا ايضاً ان نلاحظ ان تعليقات مكماهون على رسالة الشريف اقتصرت على مستقبل العلاقات بين بريطانيا والعرب فيما يتعلق بالعراق، وعلى مستقبل العلاقات بين العرب وفرنسا فيما يتعلق بسورية الشمالية .

في رسالته الجوابية المؤرخة ٢٥ كانون الثاني ١٩١٦ اكد مكماهون

---

(١) ورد هذا التعبير عدة مرات في مخابرات الانكليز The Arab Party والمقصود أعضاء الاحزاب العربية الذين كان يمثلهم في مصر عزيز علي والفاروقي وإلى حد ما أعضاء حزب اللامركزية .

(٢) رسالة مكماهون إلى وزارة الخارجية رقم ١٦ تاريخ ٢٤ كانون الثاني ١٩١٦ ، المصدر السابق : P.R.O., F.O. 371/6237, pp. 39-40

للشريف انه لا يشك « في انكم تعملون لما فيه مصلحة الامة العربية وان ليس لكم غاية اخرى البتة». ثم ابلغ الشريف انه اخذ علماً بما جاء في رسالته بشأن ولاية بغداد (اعتبر موضوع ولايةالبصرة منتهياً) وان بريطانيا ستنظر في هذا المسألة « بتمام الاهتمام » عندما تنتهي الحرب . اما بشأن « الاقسام الشمالية » فلم يقل مكماهون شيئاً ذا بال بل اعرب عن رضاه لان الشريف يرغب في تجنب المساس بالتحالف بين بريطانيا وفرنسا. ثم قال ان صداقة بريطانيا وفرنسا ستزداد متانة بعد نيل النصر. اي انه اراد ان يقول للشريف بصورة غير مباشرة انه لا مجال للاعتقاد بان بريطانيا يمكن ان تصطدم بفرنسا من اجل المحافظة على المصالح العربية هذا على الرغم من ان الشريف اراد ان يقول ان العرب يريدون التعاون مع بريطانيا وحدها والاستفادة من مشورتها وخدمات رجالها وحدها ومنحها وحدها جميع الامتيازات التي لا غنى للدولة العربية الناشئة عن منحها لاحدى الدول الكبرى المتقدمة تقنياً وحضارياً ؛ وانه ليس من مصلحة العرب ولا من مصلحة بريطانيا وجود دولة ثالثة بينهما مما سيكون جرثومة للمشاكل والقلاقل . وهكذا نرى مكماهون يؤجل البت في موضوع العراق ومستقبل الشقة الساحلية من سورية الشمالية ، ويطمئن الشريف بالعبارات التي تنم على الصداقة واشتراك المصالح . وقد رحب مكماهون في رسالته بمساعي الشريف لجمع كلمة القبائل العربية ومنعها من تقديم المساعدة للاعداء ، وترك له حرية اتخاذ القرار بشأن موعد قيام الثورة .

ونرى ان الشريف في رسالته المؤرخة ١٨ شباط ١٩١٦ قد ترك جانباً مسألة العراق والشقة الساحلية من سورية وأجل البت في أمرها ، مثله في ذلك مثل مكماهون . ومن المؤكد ان الشريف اعتقد ان بريطانيا قد قبلت بوجهة نظره ، بعد ان اوضح بما لا يدع مجالاً للشك تمسكه بمبدأ قيام دولة عربية متحدة حالما تضع الحرب اوزارها . ومن المرجح انه حسب ان القوات العسكرية البريطانية والفرنسية ستضطر إلى خوض المعارك ضد الاتراك والالمان في ميدان العراق وسورية . فليس من

المعقول ان يشترط قيام العرب بادارة المناطق التي تجري فيها المعارك بين الجيوش المتحاربة ، وهذا هو التفسير الطبيعي لموافقته على ان تتولى بريطانيا ادارة البصرة ونواحيها ابان الحرب ، وقوله انه يغض الطرف مؤقتاً عن وجود فرنسا ، ما دامت رحى الحرب دائرة .

ومهما يكن من امر ، فان الشريف بدوره اعتبر جواب مكماهون مرضياً وأعرب عن « مزيد الارتياح والسرور لحصول التفاهم المطلوب والتقارب المرغوب» .وبهذه العبارة اختتم الشريف المباحثات السياسية ، وتحول في رسالته إلى بحث المسائل الاخرى التي تتعلق بالثورة العتيدة التي كان يعد لها . وما جاء في رسالة الشريف يعطينا فكرة عن مساعيه لاشعال نار الثورة في سورية والحجاز في آن واحد ، فهو يقول ان اعتسافات الاتراك أدت إلى تفريق الضباط والجنود العرب الذين كان فيصل يعتمد عليهم وان فيصل ينتظر وصول قوات جديدة إلى سورية حتى اذا كانت كثرتها من العرب بادر إلى اجراء الحركة بواسطتهم . وقال ان نجله الاكبر علي سيقوم بالحركة في المدينة المنورة متعاوناً مع فيصل ومن جملة مهامه الاستيلاء على خط سكة الحديد . ثم طلب تزويده بنقود واعداد كميات من المؤن في بور سودان لتنقل إلى جده عند بدء الحركة .

ونأتي الآن إلى آخر الرسائل السياسية التي بعث بها مكماهون إلى الشريف قبل اعلان الثورة وهي الرسالة المؤرخة في ١٠ اذار ١٩١٦ فقد أعرب مكماهون عن سروره للتدابير الفعلية التي يتخذها الشريف للقيام بالثورة ، وابلغ الشريف ان الاجراءات قد اتخذت لتحضير ما طلبه من المؤن والسلاح في بور سودان كي يتم ارسالها إلى الحجاز عند اعلان الحركة . وقال ان السفن الحربية البريطانية ستضرب بعض المراكز التركية على الشاطىء ، وطلب من الشريف ان يبلغه اية معلومات لديه عما يشاع من بث الالغام في البحر ، كما طلب اليه ان يعرقل نشاط ابن الرشيد في ارسال الجمال إلى سورية كيلا يستفيد منها الاتراك في

الهجوم على القوات البريطانية في مصر . وابلغه اخيراً نبأ الهزيمة التي لحقت بالسنوسي في الواحات الغربية ، وقال ان سقوط ارضروم في ايدي الروس سيكون في «مصلحتنا المتبادلة وخطوة عظيمة في سبيل الامر الذي نعمل له واياكم » . وقد وردت في هذه الرسالة عبارة دار حولها جدل عنيف فيما بعد بين الشريف والسياسيين الانكليز ، اذ جاء فيها قول مكماهون « وقد يسرني ان اخبركم بان حكومة جلالة الملك صادقت على جميع مطالبكم » ، فقد اصر الشريف ان هذه العبارة تعني ان بريطانيا وافقت على قبول جميع مطالبه بشأن انشاء الدولة العربية المتحدة ضمن الحدود التي طلبها ، بينما اصر السياسيون الانكليز ان هذه العبارة لم يقصد بها الا الطلبات المتعلقة بالاسلحة والمؤن التي وردت في رسالة الشريف السابقة . ومن الواضح ان الشريف اساء فهم المقصود من العبارة التي لم يقصد مكماهون بها اي معنى سياسي .

ان الرسائل العشر التي تبادلها الشريف حسين والسير هنري مكماهون والتي عرضنا لها اعلاه ، تؤلف ما اصبح يعرف منذ ذلك الحين باسم « مراسلات الحسين ــ مكماهون » . وبعد انتهاء الحرب نشرت الصحف في بريطانيا وفرنسا وبلاد العرب بعضاً منها وسمح الملك حسين قبيل وفاته سنة ١٩٣١ لجورج انطونيوس بنسخها فنشرها في كتابه « يقظة العرب » [١] ولكن الحكومة البريطانية لم تنشرها رسمياً الا في شهر اذار ١٩٣٩ اثناء انعقاد مؤتمر فلسطين في لندن ، بعد الحاح من قبل اعضاء الوفود العربية التي اشتركت في ذلك المؤتمر . وكانت الحكومات البريطانية المتعاقبة تمتنع عن نشر المراسلات بحجة ان نشرها « يخالف المصلحة العامة » . و لما كانت المراسلات قد جرى تبادلها باللغة العربية ، فقد طالب الاعضاء العرب باعادة مقارنة النص الانكليزي على النصوص العربية التي قدمت لهم بعد ان لمسوا نقصاً في بعض عباراتها ، واستجابت

---

(١) George Antonius, *The Arab Awakening*, London ,1938.

الحكومة البريطانية للطلب وتمّ الاتفاق بين اعضاء عرب وبريطانيين على التعديلات التي تمثل معنى النص العربي اقرب تمثيل ، وتضمن الكتيب الرسمي الذي احتوى على المراسلات اشارات إلى التعديلات التي أجريت بعد المقارنة . وقد قدمت الحكومة البريطانية النصوص العربية الاصلية لسبع من المراسلات واعتذرت انها لم تعثر على النص العربي للثلاث الأخرى [1] ولما كان اعضاء الوفود العربية قد احتجوا بان بريطانيا العظمى تعهدت في هذه المراسلات بان تكون فلسطين ضمن نطاق البلاد العربية المستقلة ، فقد عين المؤتمر لجنة عربية — بريطانية لدراسة المراسلات وتقديم تقرير عنها . وقد ضمّت اللجنة عن الجانب البريطاني : اللورد موم قاضي القضاة والسير جراثان بوش المستشار القانوني لوزارة المستعمرات والمستر بجّالي السكرتير الاول في وزارة الخارجية ، بينما ضمّت عن الجانب العربي كلا من : نوري السعيد رئيس وزراء العراق حينذاك وتوفيق السويدي (الذي تولى رئاسة الوفد العراقي بعد مغادرة نوري السعيد مدينة لندن) وعبد الرحمن عزام وعوني عبد الهادي وموسى العلمي وجورج انطونيوس (الأمين العام للوفود العربية) . وخلال اربعة اجتماعات (ما بين ٢٢ شباط — ١٦ اذار) . بحث اعضاء اللجنة هذه المراسلات . وقد حرص اللورد موم في بداية اجتماعات اللجنة ان يوضح انه لا يحضر اللجنة بصفته القضائية ولا يدعي حق الفصل في « هل آراء الحكومة البريطانية في الموضوع المطروح ، او اراء العرب ، هي الصحيحة » ، ولكنه يحضر كممثل للحكومة البريطانية ومهمته الوحيدة شرح آرائها وبيان حججها لا غير.

ويمكن تلخيص الحجج التي قدمها المندوبون العرب فيما يلي :

---

(١) الرسائل الثلاثة التي لم يعثر على أصلها العربي هي رسالتا الشريف حسين المؤرختين في ١٤ تموز و ٩ ايلول سنة ١٩١٥ ورسالة السير هنري مكماهون المؤرخة ٢٥ كانون الثاني ١٩١٦ . أما الرسائل السبع الاخرى فقد نشرت رسومها بالزينكوغراف في الكتاب الذي اشتمل على محاضر جلسات المؤتمر بعنوان « مؤتمر فلسطين العربي البريطاني المنعقد في مدينة لندن » ، ١٩٤٠ .

لا محل للشك في ان فلسطين كانت داخلة في الواقع في منطقة الاستقلال العربي ، وكان الفريقان المشتركان في المراسلات يقصدان في ان تكون داخلة ، وهذا واضح من نصوص المراسلات ذاتها . ذلك ان بريطانيا وضعت تحفظها المتعلق باجزاء من سورية الشمالية لحماية المصالح الفرنسية لا غير . ثم انمكماهون لم يستثن فلسطين منمنطقة الاستقلال العربي التي طلبها الشريف في البداية ، ولم يذكر اسم فلسطين على الاطلاق . اما ادعاء الحكومة البريطانية من ان عبارة ولايات دمشق وحمص وحماة وحلب « تعني الساحل السوري كله من الاسكندرونة شمالا حتى الحدود المصرية جنوباً ، فهو ادعاء لا يصح عقلا او نصاً ، لان كلمة « ولايات » هنا قصد بها ان تعني « نواحي » او « جهات » .[1]

اما الحجج التي ادلى بها المندوبون البريطانيون ، فيمكن تلخيصها فيما يلي :

لم تكن فلسطين داخلة ضمن المنطقة التي تعهدت بريطانيا فيها باستقلال العرب ، بسبب اهمية اماكنها المقدسة لدى المسيحيين والمسلمين واليهود وبسبب مصالح بريطانيا فيها ، وان ما استثناه مكماهون في عبارة « أجزاء من بلاد الشام الواقعة في الجهة الغربية لولايات دمشق الشام وحمص وحماة وحلب » يشمل فلسطين وقصد به ان يشمل فلسطين . واذا كانت فرنسا قد نزلت فيما بعد عن مطلبها الخاص بفلسطين فربما تكون فعلت ذلك نتيجة لتنازلات مقابلة من قبل بريطانيا .

---

(١) في مقابلة للمؤلف مع المؤرخ الشهير الاستاذ ارنولد تويني في لندن يوم ١٥ تشرين الثاني ١٩٦٩ قال الاستاذ تويني « لقد ظلت الحكومة البريطانية حتى سنة ١٩٢٢ تتفادى التصريح بأن فلسطين استثنيت من المنطقة التي تعهدت فيها بريطانيا باستقلال العرب ، ثم برز أشخاص درسوا المراسلات وخرجوا بالفتوى القائلة بأن الأجزاء الواقعة إلى الغرب من ولايات دمشق وحمص وحماة وحلب، تشمل فلسطين، مع انه كان واضحا لكل ذي عينين ان المقصود « مدن » دمشق وحمص وحماة وحلب وليس « ولايات » وهكذا وجدت الحكومة المبرر التنصل من عهدها للعرب ، ذلك المبرر الذي استعمله تشرشل في الكتاب الأبيض » .

والواقع ان فرنسا احتفظت بحقوقها في فلسطين بموجب اتفاقية سايكس – بيكو ، وما يزال لها صوت في مصير فلسطين بصفتها عضواً في عصبة الأمم . أضف إلى كل هذا انمكماهون وكلايتون قررا ان اخراج فلسطين من منطقة الاستقلال العربي كان مقصوداً من المراسلات وأخيراً « فان حكومة جلالته لا يسعها الا ان تنفي بقوة كل قول بنقض العهد من جانبها او جانب الحكومات البريطانية التي سبقتها » .

وعلى الرغم من ان مندوبي الفريقين لم يتوصلوا إلى اتفاق على تفسير المراسلات فيما يتعلق بفلسطين ، فان المندوبين الانكليز ابلغوا المندوبين العرب ان حجة العرب بعد عرضها وشرحها « لها من القوة اكثر مما كان يبدو من قبل » ، واضافوا إلى ذلك قولهم انهم يرون ان التفسير الصحيح للمراسلات يجعل فلسطين مستثناة من المنطقة التي تعهدت بريطانيا العظمى بالاعتراف بالاستقلال العربي فيها « ولكنهم يعترفون بان العبارة التي تضمنت هذا الاستثناء لم تكن محددة صريحة ، ولا غير قابلة للخطأ كما ظُنّ في وقتها » .

وقد اشير في النقاش إلى الكتاب الابيض الذي اصدرته الحكومة البريطانية سنة ١٩٢٢ ، والذي اعلن فيه المستر ونستون تشرشل وزير المستعمرات يومذاك ان الحكومة البريطانية تعتبر ان عبارة « أجزاء من بلاد الشام الواقعة في الجهة الغربية لولاية دمشق » (اقتصر تشرشل على هذا الجزء من العبارة ولم يورد بقيتها) ، شاملة لولاية بيروت وسنجق القدس المستقل . وكانت حجة تشرشل تقوم على القول انه ما دام ان ولاية دمشق كانت تشمل ذلك الجزء من سورية الذي أصبح يعرف فيما بعد باسم شرقي الاردن ، فان ذلك الجزء من سورية الواقع إلى الغرب من نهر الاردن هو تبعا لذلك احد الاجزاء التي استثنتها عبارة مكماهون .

وقد استشهد الاعضاء البريطانيون بتصريحين كان قد ادلى بهما كل من السير هنري مكماهون والسير جلبرت كلايتون – وهما من اقرب الناس إلى موضوع المراسلات – وقررا فيهما ان المراسلات قصد

بها اخراج فلسطين من منطقة الاستقلال العربي . اما تصريح مكماهون فقد جاء في رسالة منه نشرتها جريدة التايمس بتاريخ ٢٣ تموز ١٩٣٧ وقال فيه :

أشعر بأن من واجبي أن أقول – وأقول ذلك بلهجة التأكيد – اني لم أقصد حين قطعت العهد للملك حسين أن تكون فلسطين داخلة في المنطقة التي وعد العرب فيها بالاستقلال ... وقد كان لدي أيضا ما يحملني على الاعتقاد في ذلك الوقت بأن الملك حسين كان يعلم جيدا ان فلسطين لم تكن داخلة في العهد الذي قطعته له .

واما كلايتون فقد بعث في ١٢ نيسان ١٩٢٣ برسالة إلى السير هربرت صموئيل جاء فيها :

كنت على اتصال يومي بالسير هنري مكماهون في أثناء المفاوضات مع الملك حسين، ووضعت الصيغة الابتدائية لجميع المراسلات. وفي وسعي ان اؤيد القول بأنه لم يكن في النية قط أن تكون فلسطين داخلة في التعهد العام المعطى للملك حسين، وقد كان المعتقد في ذلك الوقت – ربما خطأ – ان العبارات الافتتاحية في كتاب السير هنري كافية في الاشارة إلى هذا الاستثناء ، وفي ظني انه كان من البديهي ان المصالح الخاصة المرتبطة بفلسطين تمنع بذل أي تعهد نهائي خالص بمستقبلها في تلك المرحلة المبكرة .

وقد ناقش السير مايكل مكدونل – قاضي القضاة في فلسطين سابقاً – بعض النقاط التي اوردها الاعضاء البريطانيون من الناحية القانونية [١] ، فقال انه لا يرى اية قيمة لما قاله مكماهون وكلايتون في رسالتيهما ، فالحكومة البريطانية هي التي كانت تعرض العروض

---

(١) بريطاني شريف أحالته حكومة الانتداب في فلسطين على التقاعد عام ١٩٣٦ قبل انتهاء مدة خدمته بعد أن أعطى حكما لصالح العرب في قضية هدم مدينة يافا القديمة على أيدي سلطات الانتداب البريطاني . وقد عمل مستشاراً للأعضاء العرب في اللجنة التي بحثت مراسلات الحسين مكماهون .

على الشريف حسين وليس هما . وما كان مكماهون سوى انبوبة تمر بها اقتراحات الحكومة البريطانية ، اما كلايتون فلم تكن مهمته سوى اعداد المشروعات الاولى للرسائل . » وبدلا من ان يكون من الواضح ان فلسطين داخلة في التحفظ الوارد في كتاب ٢٤ تشرين الاول ١٩١٥ ، نستطيع على العكس ان نقول : ان كل شيء ممكن قد عمل ، لبيان ان القصد كان ان تكون فلسطين داخلة في المنطقة التي وعد بها الشريف حسين » . وبعد ان ناقش السير مكدونل مضمون المراسلات بالتفصيل وابدى عجبه لان مكماهون لم يذكر اسم فلسطين ذات الاهمية العالمية في مراسلاته اذا كان حقاً يريد استثناءها ، مضى يناقش قول مكماهون انه كان يعتقد ان الملك حسين كان يعلم ان فلسطين لم تكن داخلة في العهد الذي قطع له ، قائلاً « ان السير هنري لا يذكر الاسباب التي يبني عليها اعتقاده هذا . فهنا ايضاً اذا عرض الامر على محكمة وطلب منها ان تفسر وثيقة تضمنت الوعد المبذول للملك حسين ، فانها لا يمكن ان تعبأ شيئاً بما يقوله ذلك الذي بذل الوعد بعد اثنتين وعشرين سنة ، من انه يعتقد ان الذي قَبِلَ الوعد فهمه على هذا الوجه ، وانما تجعل المحكمة بالها إلى الالفاظ التي استعملها الشخص الذي بذل الوعد والالفاظ التي استعملها الشخص الذي تلقى ذلك الوعد » . [1]

وكان الامير عبدالله عندما سمع من الاذاعة ما جاء في رسالة السير هنري مكماهون ، قد بادر فبعث بتاريخ ٢٥ تموز ١٩٣٧ برسالة طويلة إلى المندوب السامي في فلسطين تتضمن الاحتجاج على مضمون تلك الرسالة من ان العهود المقطوعة للملك حسين لم تشمل فلسطين ، وان الملك حسين نفسه كان يعلم ذلك . ومما قاله الامير انه كان ابّان تبادل المراسلات كاتب يد ابيه وأمين سرّه وانه يعلم علم اليقين « ان تلك العهود كانت تشمل فلسطين وان المرحوم الوالد والذين معه كانوا على

---

(١) المصدر السابق : Comd. 5974

تلك العقيدة الراسخة لم يساورهم فيها ريب » . وأصرّ الامير على القول ان الذي فهمه الشريف من المراسلات هو ان تحفظات مكماهون كانت تنصرف فقط الى لبنان والساحل المحيط ببيروت رعاية للمصالح الفرنسية « وانه لم يكن يعلم غير ذلك » . واعتبر الامير اقوال مكماهون بمثابة «التهمة الخطيرة» وقال انه لم يكن يدور بخلده ان يجرأ أحد فيعرب عن رأي الملك حسين بعد وفاته . وطلب الامير من المندوب السامي ان يعمل على تصحيح تصريحات مكماهون « حرصاً على الحقيقة وعلى التاريخ ». ثم اضاف قوله « ان حق العرب في بلادهم فلسطين صريح لا يحتاج إلى وثيقة او وعد ، فهم اهلها منذ أجيال وفي اقامة متصلة فيها ، وانهم على رغم ما اجتاحهم من حروب وتكاءدهم من خطوب لم يفرّطوا فيها ولم يتحولوا عن شبرٍ منها . »[1]

ان اهمية هذه المراسلات – بعد مرور أكثر من خمسين عاماً – لا تتعدى حدود الجدل التاريخي. ولولا الأحداث البالغة الخطورة التي وقعت في فلسطين لما أشغل السياسيون أذهانهم بتفسير عبارات مكماهون والاختلاف في صحة هذا التفسير او ذاك. ولكن المرارة التي تمتزج في قلوب العرب وتتصاعد حدّتها عاماً بعد عام منذ انتهاء الحرب العالمية الاولى ، تذكّرهم دائماً وأبداً ببداية المشكلة التي سمّمت حياتهم. واذا ما ذكر العرب بداية المشكلة برز إلى خواطرهم اسم السير هنري مكماهون اللسان الناطق باسم الحكومة البريطانية في المفاوضات التي دارت مع الشريف حسين . وبعد هذه الاعوام الطوال يجد المرء صعوبة كبيرة في ان يفهم كيف ان السير هنري مكماهون لم يكن مدركاً بأن تحفظاته كانت تقتصر فقط على الشقة الشمالية من الساحل السوري : خاصة اذا رجع إلى الرسائل والبرقيات التي تبادلها مع وزارة الخارجية البريطانية والتي تكررت فيها الاشارة إلى « الحدود الشمالية – الغربية » وإلى « الشواطىء الشمالية

---

(١) نص رسالة الأمير عبد الله في جريدة الأهرام بتاريخ ٧ آب ١٩٣٧ .

لسورية » . ويكاد يكون من المستحيل ان تجد عربياً واحداً يمكن ان يقتنع ان بريطانيا العظمى – بلسان مكماهون – لم تتعهد بان تكون فلسطين ضمن منطقة الاستقلال العربي ، وأنها حافظت على عهدها ولم تقلب ظهر المجن لاصدقائها العرب الذين وضعوا ثقتهم فيها .

الفصل الخامس

الثورة العربيّة

الخطوات التمهيدية : كان الشريف – حتّى شهر نيسان ١٩١٦ – يعتقد انه سيكون بمقدور العرب اشعال نار الثورة في الحجـاز وسورية في آن واحد . وعلى الرغم من ان آماله بقيام العسكريين العرب في الجيش العثماني بحركة تمرد قد ضعفت منذ خريف ١٩١٥ ، الا انه لم يفقد الامل في احتمال قيام اهل البلاد من سكان القرى او رجال القبائل بثورة (مثلما ثار الدروز وسكان منطقة الكرك سنة ١٩١٠). وقد كان القصد الاول من بقاء فيصل في دمشق تلك الاشهر الطوال ، ان يعمل على تحقيق هذه الخطة. وكان الشريف على استعداد ان يبعث بالمتطوعين ال ١٥٠٠ من المدينة إلى سورية – بحجة الاشتراك في الحملة الثانية ضد الانكليز في مصر – في الساعة الّتي يبلغه فيها فيصل ان السوريين مستعدون للانضمام إلى اولئك المتطوعين ورفع راية الثورة . ولقد كان وجود فيصل في سورية بمثابة خيط الامل الوحيد لاحتمال التفاف السوريين حوله كقائد وزعيم ، بعد أن فرق جمال باشا صفوف الزعماء الوطنيين بين السجون والمنافي .

وبالاضافة إلى الامل في قيام السوريين بحركة ثورية ، كان هناك الامل – بل شبه اليقين بالنسبة إلى الشريف – بان تقوم القوات البريطانية بالنزول في الساحل السوري ، مما يؤدي إلى حشد جانب كبير من جميع القوات الّتي يملكها الاتراك في سورية لمواجهة الحملة البريطانية ، وهذا بدوره يتيح المجال للسوريين كي يقوموا بثورتهم .

وكان علي النجل الاكبر للشريف قد غادر مكة في ٢٤ شباط ١٩١٦ على رأس المتطوعين ، قاصداً المدينة لبدء الحركات فيها . وكان من

رأي الشريف انه اذا تعذّر على فيصل ان يبدأ بالعمليات الحربية في سورية ، فان علي سيبدأ بها في المدينة ثم يقوم بعده فيصل في سورية . ولكن الشريف كان يخشى ان يحشد الاتراك قوات كبيرة ضد الثوار بحيث لا يكون لهم قبل بها . فشدد على مكماهون في رسالته المؤرخة ٦ اذار بانه « لا بدّ من اشتراككم بالتعرض على أحد سواحل سورية لتشجيع اهلها والقضاء على القوة التي بها » . ثم طلب فرض الحصار على شواطىء الحجاز ومنع ورود الحبوب اليه بقصد اثارة الرأي العام ضد الاتراك حتى تتهيأ نفوس الناس لقيام الثورة ، وشبّه الحصار بأنه سيكون كعملية جراحية يتألم صاحبها ساعات معدودة ثم يشفى شفاء تاما . ثم طلب ان توضع كميات من الاسلحة والعتاد واللوازم في بور سودان لتكون جاهزة تحت الطلب .

وفي ٢٩ آذار أعرب الشريف لمكماهون عن انه قطع الامل بقدرة السوريين على الثورة نتيجة تفريق الزعماء الوطنيين منهم بين السجون والمنافي ، وان الواجب أصبح الان ملقى على عاتق الحجازيين للبدء بالثورة ثم الزحف باتجاه الشمال نحو دمشق .

ولكن الشريف عاد في ١٨ نيسان يكرر على مكماهون القول بضرورة نزول حملة بريطانية في الساحل السوري وبانه « من الضروريات بل من الامور التي لا بد منها لزوم تجاوز المقدار الكافي من القوة البريطانية من النقطة التي ترى فيها السهولة والحصول على احتلال الخط الحديدي الموصل سورية بالاناضول لتسهل الحركة على صاحبنا [فيصل] بسورية للقيام بمن معه من شيعة البلاد والمملكة الذين ينتظرون الفرج من مثاقب الابر مما يقاسونه من انواع التعديات المعلومة لديكم». وقال انه اتخذ ترتيبات لقطع خط السكة بين سورية والحجاز حتى يواجه تفوق قوات الترك النظامية .(١)

---

(١) أوراق الأمير زيد : رسائل الشريف حسين إلى مكماهون بتاريخ ٦ و ٢٩ اذار ١٩١٦ و ١٨ نيسان ، وتجد ترجمة رسالتي ٦ اذار و ١٨ نيسان في P.R.O., F.O. 371/6237 وأيضا في P.R.O., F.O. 882/19

على أن مساعي الشريف الحقيقية لاشعـال الثورة في سورية ، اثارت الشكوك في نفوس المسؤولين البريطانيين حول رد الفعـل المحتمل بالنسبة للفرنسيين . ففي ٢٢ نيسان ١٩١٦ ابرق كلايتون الى ونجت يقول ان « فيصل ينوي القيام بعمليات حربية في منطقة تركناها بصورة قاطعة لفرنسا . وبالنظر لما يجاهر به الشريف من عداء للنفوذ الفرنسي ، فكيف نستطيع نحن ان نبرر للفرنسيين قيامنا بالمساعدة على ان توجد في منطقة نفوذهم قوة لا بد أن تكون معادية لاهدافهم ؟ » . واشار كلايتون الى ان الشريف يوجه أنظاره دائما الى شاطىء سورية الشمالي ، وان فرنسا سوف تفسر عمليات العرب هناك بانها موجهة ضدها وليس ضد الاتراك فحسب . وبعد ان ابدى كلايتون شكوكه في قدرة الحجازيين على القيام بعمل حربي فعال في سورية ، بعد ان تبين للشريف ان السوريين انفسهم لن يثوروا ، قال « ان المندوب السامي يشعر شعورا قويا بان علينا ان ننصح الشريف ان يقتصر في الوقت الراهن على الاستيلاء على خط سكة الحديد وطرد الاتراك من الحجاز ، ومن اليمن ايضا بالتعاون مع الادريسي » . وقال كلايتون ان هذه الخطة اقرب الى النجاح وبها « سوف نكسب ما نريد من تقديم برهان علني الى العالم الاسلامي بان الشريف ضد الاتراك . وبهذا ينتهي أمر القيام بجهاد ديني فعّال . اننا لا نريد خلق مملكة عربية متحدة وقوية تحت رئاسة الشريف أو أي شخص آخر غيره ، حتى لو كان ذلك الامر ممكنا . ان ذلك سيكون مصدر خطر وسببا لنشوب المتاعب في المستقبل بالنظر لترتيباتنا مع فرنسا وروسيا » . وأعرب كلايتون في برقيته عن سبب آخر وهو خشية الانكليز من ان يقع فيصل تحت تأثير شخصية أنور القوية فيحارب ضدهم وليس الى صفهم .[١]

ان هذه البرقية تعطينا فكرة عن الخلفية التي كانت وراء جواب مكماهون المؤرخ ٨ ايار ١٩١٦ . فقد كتب الى الشريف يقول ان الحصار

(١) P.R.O., F.O. 371/6237 ، وقد ارسل مكماهون برقية بهذا المعنى إلى الوزارة الخارجية بتاريخ ٣٠ نيسان ١٩١٦ – P.R.O., F.O. 141/461

قد فرض وان الأسلحة والذخائر والمؤن جاهزة في بور سودان تحت الطلب . ثم تحول الى الموضوع الاهم فقال « ان الحكمة تقتضي بجمع القوة في جهة واحدة وعدم توزيعها في جهات شتى ، وعليه فاني انصح لدولتكم بالحاح ان تستدعوا نجلكم من سورية وان تباشروا العمل الذي تنوونه في الحجاز والجنوب فقط في الوقت الحاضر » . وأعرب مكماهون عن أمله بان مساعي الشريف مع الادريسي والامام يحي سوف تؤدي الى نتائج مفيدة . واضاف يشدد من عزيمة الشريف قائلا « ونصرح لكم بثقتنا التامة ان سياستكم نحو العرب الكرام تتفق تمام الاتفاق مع سياستنا ، وكذلك فاننا نؤكد لدولتكم اننا على الدوام مستعدون لمساعدتكم بكل قوانا حالما تعلنون الثورة وترفعون رايتها في بلاد العرب ضد عدونا المشترك . »[1]

وهكذا نجد المسؤولين البريطانيين يعملون جاهدين لاقناع الشريف بان ينسق خططه لكي تتفق مع خططهم السياسية دون ان يطلعوه على الاسباب الحقيقية عملا بالمبدأ القائل « الغاية تبرر الواسطة » . كان المطلوب اولا ان يعلن الشريف الثورة على دولة الخلافة ، مما يخدم اغراض بريطانيا السياسية . وبكلمات الجنرال كلايتون « في الساعة التي يعلن الشريف عداءه القاطع للاتراك ، فاننا نكون قد قطعنا شوطا طويلا نحو الهدف الذي نرمي اليه وأتينا بحامي الاماكن المقدسة الى صف الحلفاء . وأكثر من هذا فان اعلان الشريف جهارا ثورته سيكون ضربة خطيرة لهيبة الاتراك في العالم الاسلامي . »[2]

وجاءت رسالة مكماهون المؤرخة في ٢٢ ايار ١٩١٦ تعمل على اقناع الشريف أكثر وأكثر بالسير على خطط تلائم خطط بريطانيا السياسية والعسكرية . فقد اعرب مكماهون عن سروره لما جاء في رسالة الشريف المؤرخة ١٨ نيسان من انه اتخذ الترتيبات للاستيلاء على خط

---

(١) رسائل الأمير زيد و P.R.O., F.O. 141/461

(٢) رسالة كلايتون بتاريخ ١٧ ايار ١٩١٦ إلى مدير الاستخبارات العسكرية في وزارة الحربية — P.R.O., F.O. 882/19

سكة حديد الحجاز ، وأثنى على خطة الشريف الأخيرة بان تقوم الثورة في الحجاز فقط ، قائلا ان عدم قدرة السوريين على التعاون في الحركة في الوقت الحاضر ربما يؤدي الى عواقب وخيمة . وأضاف مكماهون يقول ان قيام ثورة في سورية يقتضي مساعدات من الحلفاء ، وان عملية من هذا النوع تتعلق بالسياسة الحربية العامة ، يجب ان تخضع لمقتضيات خطة العمليات الشاملة التي يفصل فيها مجلس الحلفاء الاعلى للحرب » . وخلص مكماهون من هذا الى القول ان الافضل في هذه المرحلة هو الاقتصار على العمليات التي يمكن احراز النصر فيها بالموارد المتوافرة لدى الشريف .[1]

بهذه العبارات اعتقد مكماهون انه اوضح للشريف ايضاحا تاما صعوبة نزول حملة عسكرية في الساحل السوري لدعم الثورة العربية . ولكن الشريف – كما سنرى فيما بعد – ظل يصر على ان شروط اتفاقه مع بريطانيا تضمنت نزول تلك الحملة وقطع خط السكة بين الاناضول وسورية . ان مكماهون لم يقل للشريف ان نزول تلك الحملة غير ممكن وان عليه ان يقطع الامل من هذه الناحية بل كان كل مـــا قاله ان الحملة موضوع البحث تخضع لقرارات مجلس الحلفاء الاعلى للحرب . وبما ان الشريف كان يعتقد – كما يبدو – ان قرارات مجلس الحلفاء الاعلى للحرب هي رهن ارادة الحكومة البريطانية ، فانه ظل متمسكاً بنظريته القائلة ان بريطانيا تعهدت بانزال حملة في الساحل السوري وانها فيما بعد اخفقت في الالتزام بذلك التعهد وتنفيذه .

كان الشريف يخطط لكي تبدأ الثورة في شهر تموز او آب حتى يتاح للقبائل ان تتزود بالمؤن بعد موسم الحصاد الذي يصادف في شهر أيار ، بحيث يسهل على تلك القبائل الاشتراك في الثورة بعد تأمين المؤونة السنوية كالمعتاد . ولكن عاملاً جديداً طرأ على الوضع اضطر الشريف أن يبدأ قبل الموعد المحدد : وكان ذلك العامل قدوم حملة تركية قوامها

---

(١) P.R.O., F.O. 882/19

٣٥٠٠ جندي من صفوة الجنود الاتراك بقيادة خيري بك . ففي ٢ نيسان ١٩١٦ بعث جمال باشا برقية إلى الشريف ينبئه فيها ان رجال الحملة سيبدأ وصولهم إلى المدينة في غضون عشرة ايام بقصد السفر إلى اليمن . وقد أثار هذا النبأ مخاوف الشريف اذ تبادر إلى ذهنه ان هدف الحملة هو مكة وليس اليمن ، من أجل تصفية الحسابات القديمة والحديثة معه والفتك به . كان الشريف يعرف من اساليب الاتراك في مثل هذه الحالات ما جعله يرجح اساءة الظن بمقاصدهم . ولا بد انه لم يقتنع بان دولة ذات موارد محدودة مثل تركيا لا يعقل ان ترسل قوة منتخبة بهذا الحجم إلى ميدان بعيد غير حيوي كاليمن ، بينما تواجهها قوات الروس وقوات الانكليز في الميادين الاخرى — الا اذا كانت هناك اسباب مهمة جداً .

لهذا أخذ الشريف يعدّ العدة للتعجيل باعلان الثورة . وعندما طلب منه جمال باشا ان يسرع بارسال المتطوعين ال ١٥٠٠ من مكة إلى المدينة كي يسافروا إلى دمشق بالقطارات التي ستنقل جنود الحملة ، رد عليه الشريف بطلب عودة فيصل من دمشق لكي يتولى قيادتهم . وكان جواب جمال « ان غياب فيصل من قيادة الجيش مستحيل حتى ولو لفترة قصيرة » . وبعث جمال باشا للشريف بخمسة الاف ليرة كي ينفق منها على المتطوعين ، فابرق اليه الشريف يقول « وكيف استطيع توزيع الخمسة الاف ليرة بالعملة الورق التي نزلت قيمتها الان إلى ربع القيمة الرسمية ، على ١٥٠٠ مجاهد ؟ فكم سيبقي واحدهم معه من المبلغ الذي سيستلمه وكم سيترك لعائلته ؟ » . وكان جمال قد انبأ الشريف في برقيته انه سيتولى قيادة الجيش الرابع في ظل علم الخلافة المقدس للهجوم مرة ثانية على الانكليز في مصر وان قوات المانية ونمسوية سوف تشترك في الجهاد ، فرد الشريف بعبارة ذات مغزى قائلاً « ان وصول القوات النمسوية والالمانية سيفتح فصلاً جديداً في تاريخ الاسلام». ذلك ان الشريف لم يستطع ان يفهم كيف يمكن تسمية اشتراك الجنود المسيحيين في الحرب « جهاداً » !

وقد اتضح فيما بعد ان حملة خيري بك كانت تريد الذهاب إلى اليمن لتعزيز القوات الموجودة فيها والتي كانت قد استولت على لحج ، وربما كانت تهدف إلى القيام بهجوم على ميناء عدن بقصد الاستيلاء عليها . ولكن المهمة الاكثر خطورة كانت قد أُلقيت على عاتق بعثة من خبراء اللاسلكي الألمان يرأسها اليجرفون ستوتزنجن ، اذ كان عليها ان تنشىء محطة لاسلكية تفتح باب الاتصال بين القوات الالمانية الموجودة في افريقيا الشرقية وبرلين عن طريق محطة اللاسلكي التي كانت قد انشئت مؤخراً في المدينة . وكانت المحطة ستستعمل ايضاً لبث الدعـاية ضد الحلفاء في السودان والصومال والحبشة . وقد غادر اعضاء البعثة دمشق في ٢ ايار ، وعندما بلغوا محطة العلا تركوا القطـار ومضوا براً إلى الوجه . وبينما كان ستوتزنجن ورفاقه يستعدون لمواصلة السفر جنوباً ، فوجئوا بانباء قيـام الثورة فبادروا الى الفرار . وقد تمكن ستوتزنجن وبعض رفاقه من النجاة والعودة الى دمشق ، ولكن اثنين من أعضاء البعثة لم يعودا (يعتقد انهما قتلا او غرقا في البحر) وسقطت اوراقهما في ايدي البدو ثم وصلت الى الانكليز في مصر .

وخلال شهري نيسان وايار اظهر الشريف للاتراك تعاونه الكامل ، فقد ارسل قسماً من المتطوعين الى المدينة حيث تولى نجله الاكبر علي الاهتمام بهم . وأخذ الامير علي يتصرف في المدينة تصرفات ازعجت المحافظ (بصري باشا) ، اذ ان الامير أخذ يفصل في قضايا الأهلين ويكثر الاتصال بالقبائل مما اعتبره المحافظ تداخلاً في شؤون خارجة عن اختصاصه . واختلف الامير والمحافظ ، فأرسل هذا الاخير يشكو الامر إلى جمال باشا . وابرق جمال إلى الشريف حسين يطلب منه ان يستدعي ابنه ، فرد الشريف قائلاً انه سوف يستدعي علي ولكن المجاهدين يصرون على قدوم فيصل إلى المدينة كي يتولى قيادتهم . ومن هنا نشأت الفرصة الملائمة التي اتاحت لفيصل العودة إلى الحجاز .

لقد كان اعدام القافلة الثانية من الشهداء فجر يوم ٦ ايار ١٩١٦

دافعاً مهما على اقناع الشريف بالتعجيل بالثورة واقنـاع فيصل بان السوريين لم يعد في استطاعتهم الاشتراك في الثورة . وكان الشريف حسين وفيصل قد بذلا كل ما في وسعهما من المساعي والجهود مع جمال باشا ومع زميليه طلعت وأنور في استانبول من أجل الابقاء على حياة اولئك الرجال ، والحّ فيصل الحاحاً شديداً على جمال حتى أثار غضبه فتهدد وتوعد وجعل فيصل يفهم ان المشنقة ستكون من نصيب كل من تشتبه الدولة في ولائه . ولم يكن بمقدور فيصل ان يفعل شيئاً لانقاذ اصدقائه ، ولكنه لم يقطع الامل تماماً الا عندما بلغه نبأ اعدام اولئك الرجال من زعماء سورية ومثقفيها ، فخلع كوفيته وعقاله وألقى بهما على الارض بعنف وصاح بعبارته المشهورة « طاب الموت يا عرب ». لقد كانت جريمة جمال من الفظاعة بحيث لم يبق للعرب الا ان يثوروا بعد ان تنكرّ الاتحاديون للروابط التقليدية مع العرب. وبعد ان هدأ غضب فيصل وحزنه على ضحايا الطاغية ، تحامل على نفسه وأخفى عواطفـه الحقيقية وذهب يقترح على جمال أن يأذن له بالسفر الى المدينة لاستقبال المجاهدين والعودة معهم حسب تعليمات أبيه . وكم كانت دهشة فيصل عندما أجابه جمال رأساً بالموافقة على اقتراحه ، وأمر ان يصحبه وفد مؤلف من عضوين عربيين وعضوين تركيين .

غادر فيصل دمشق بالقطار يوم ١٦ أيار ١٩١٦ ولكن لم يكن بمقدوره ان يصطحب معه رجاله الخمسين – وبينهم بعض الاشراف – الذين كانوا يقيمون في القابون مزرعة اصدقائه آل البكري خشية ان يستثير شكوك جمال . وبعد ان بلغ المدينة وأقام فيها يومين طلب من صديقه نسيب البكري ان يعود إلى دمشق وقال له انه قبل قيام الثورة بثلاثة ايام سيبعث اليه ببرقية يقول فيها « ارسلوا الفرس الشقراء » ، رمزا إلى ان الثورة ستقوم وان عليه ان يبادر مع الحجازيين الخمسين إلى النجـاة بانفسهم حالما تصل اليهم البرقية .[1]

---

(١) وصلت البرقية فبادر الرجال الخمسون إلى مغادرة دمشق على خيولهم تحت جناح =

العمليات الأولى : هكذا أخذ يوم اعلان الثورة العربية يقترب بسرعة حثيثة تدفعها الأحداث الحربية والسياسية. ولم يكن بمقدور الشريف ان يستعد لذلك اليوم الاستعداد الكافي خشية ان يطلع الاتراك على الامر الذي يتهيأ له فيعملوا على احباطه . لذلك لم يحضر من السلاح الذي أعده الانكليز في بور سودان سوى كمية قليلة من البنادق والعتاد . وكان اعتماد الشريف منصباً على المفاجأة وعلى ولاء القبائل. ولم يجد بدا من الاعتماد على هذين العنصرين في الايام الاولى ريثما تعلن الثورة جهاراً فيبادر إلى الاستعانة بما تستطيع حليفته بريطانيا العظمى ان تقدم له من سلاح وعتاد . والواقع ان الثورة العربية فاجأت الاتراك على حين غرة ، فأصابهم الذهول والارتباك لاول وهلة، وتبين انهم لم يكونوا يتوقعون قيامها . وفي هذا دليل على ضعف أجهزة استخباراتهم وقلة كفايتها من جهة وعلى حسن تدبير الشريف ومبالغته في الحذر والحرص من جهة اخرى .

وقد استفاد الشريف من اعلان الثورة في فصل الصيف ، اذ ان الجانب الاكبر من القوات التركية كانت قد غادرت مكة وجوّها الحار – كعادتها كل سنة – إلى بلدة الطائف وهي مصيف الحجاز على بعد ٧٠ ميلاً إلى الشرق . ورافق تلك القوات الوالي والقائد العام الفريق غالب باشا واركان حربه ولم تبق في مكة سوى قوة ضئيلة نسبياً . واستفاد الشريف من طبيعة الارض الوعرة في الحجاز وعدم وجود وسائل نقل آلية لدى القوات التركية ، فتمكن رجال البدو من قطع سبل الاتصال بين الحاميات الرئيسية المرابطة في مكة والطائف وجدة والمدينة، ولم تجرؤ اياً منها على الخروج إلى الجبال الوعرة والاودية العميقة بغية الانضمام

= الغلام ومعهم اثنان من أبناء البكري ، وعندما اكتشف جمال فرارهم أرسل خلفهم مفارز من الخيالة تتعقبهم ولكنها لم تستطع اللحاق بهم. أما أولئك الرجال فقد ساروا في البيداء حتى وصلوا إلى الجوف التي كان يحكمها نواف الشعلان ومن هناك مضوا إلى الحجاز وانضموا إلى قوات فيصل بعد شهرين من قيام الثورة .

إلى الحاميات الاخرى . وهكذا استعان الشريف بحرارة الصيف ووعورة اراضي الحجاز وقلة الماء ، ليتمكن رجاله البدو المسلحون بالبنادق من مواجهة تفوق الجنود الاتراك النظاميين بمدافعهم واسلحتهم الحديثة .

وعلينا ان نذكر ان الشريف قام بالثورة في وقت لم تكن كفة الحلفاء فيه راجحة . ففي اقرب ميادين الحرب اليه كان الموقف يبدو في مصلحة الاتراك وحلفائهم . فقد استسلم جيش الجنرال تاونسند في كوت الامارة بتاريخ ٢٩ نيسان ١٩١٦ . وفي جنوبي اليمن وقناة السويس كان الاتراك يقفون موقف الهجوم والانكليز يقفون موقف الدفاع ، وكان انسحاب الانكليز والفرنسيين من ميدان الدردنيل انسحاباً أقرب ما يكون إلى الهزيمة ما يزال ماثلاً في الأذهان . ولم تكن انباء المعارك في الميادين الاوروبية تصل بسرعة إلى بلاد العرب (لم يكن الراديو قد آخترع يومذاك) . حقاً لقد كانت الجيوش الروسية في ربيع ١٩١٦ قد اجتاحت جانباً من الاناضول واقتربت من حدود البلاد العربية في الشمال ، ولكن هذا العامل كان ادعى إلى وقوف العرب إلى جانب الاتراك بالنظر إلى الخشية المتأصلة في نفوس الشعبين من قسوة الروس وتعصبهم الديني .

وباعلان الثورة العربية تجاوز معتنقو الفكرة العربية ، لاول مرة في العصر الحديث، مرحلة النظريات والمثاليات وتأليف الجمعيات السرية والتخطيط للمستقبل في همس وراء الابواب المغلقة — تجاوزوا كل ذلك إلى مرحلة العمل الجدي الفعّال جهاراً في ميادين الحرب وبقوة السلاح. وباعلان الثورة تطور العمل السياسي للقوميين العرب خلال السنوات الثماني السابقة ، حتى بلغ حدّ النضج الطبيعي بما قدموا من ضحايا في المعارك التي خاضوا غمارها طوال تسعة وعشرين شهراً متواصلة . وقد قدمت الثورة البرهان على ان العرب على استعداد للتضحية ومواجهة الموت في سبيل حرية اوطانهم . ولما كان الهدف واحداً فقد ضمت قوات الثورة ابناء الجزيرة العربية من الحجاز ونجد واليمن وابناء سورية

وفلسطين والعراق وقاتل فيها المسيحيون العرب إلى جانب المسلمين ابناء جنسهم .

كان الشريف قد وعد ان يبلغ حلفاءه الانكليز في مصر بموعد بدء العمليات الحربية ، وكان رسله يروحون ويغدون بين شاطىء الحجاز ومرفأ بور سودان . وفي ٢٣ ايار تلقى مكماهون برقية من بور سودان تقول ان الشريف عبدالله يطلب حضور ستورس بسرعة إلى شاطىء الحجاز كي يجتمع به : وان الحركة ستبدأ قريباً . ولم يلبث ستورس وهوجارث وكورنوالس ان غادروا شاطىء مصر مرسلين من قبل مكماهون . وبينما هم في عرض البحر تلقوا برقية من القاهرة تقول « وافقت وزارة الخارجية على دفع عشرة آلاف جنيه إلى عبدالله وخمسين الف جنيه لشريف مكة . شريطة ان لا يجري دفع المبلغ الكبير الا بعد اتخاذ عمل فعلي وقيام الثورة بصورة مؤكـــدة » . أي ان السلطات البريطانية المسؤولة كانت تخشى ان يقع في آخر لحظة حادث يحول دون قيام الثورة او انها لم تكن مطمئنة كل الاطمئنان للشريف. ومن هذا نفهم ان بريطانيا لم تقدم للشريف تعضيداً مادياً يؤبه له في عملية الاعداد للثورة ووضع الترتيبات لقيامها ، وكانت ثقة المسؤولين البريطانيين بالشريف أضعف من ان تتحمل المجازفة بمبلغ زهيد من المال .

وصل ستورس ورفيقاه إلى شاطىء الحجاز قرب جدة يوم ٥ حزيران وهناك التقى بهم عريفان وأنبأهم ان عبدالله يتأهب للزحف على الطائف ولذلك سيقابلهم زيد النجل الاصغر للشريف وابن عمه الشريف شاكر . وسلم عريفان لستورس رسالة من عبدالله جاء فيها « ان طلبي الوحيد منك ان تبداؤا العمليات العسكرية في سورية بأكبر قوة يمكنكم حشدها » .

وفي اليوم التالي تمّ الاجتماع مع زيد وشاكر على الشاطىء اولا ثم على ظهر السفينة (دوفرين) وتسلم ستورس قائمة طلبات من الشريف تتضمن طلب ٧٠ الف جنيه، فقال ستورس اننا لا نستطيع ان

ندفع سوى ٥٠ الفاً عند قيام الحركة الفعلية . فاجاب زيد يسعدني اذا ان أبلغك ان الثورة قد بدأت فعلاً . وكان جواب ستورس « لا عليكم. اننا عندما نتأكد من قيام الحركات فانكم ستجدون حكومة جلالته بعيدة كل البعد عن ان تكون بخيلة مقتّرة في تعاملها مع حلفائها. الا يُعلم اننا ندفع الان بضعة ملايين كل يوم إلى اولئك الذين أعلنوا صداقتهم لنا وبرهنوا على تلك الصداقة ؟ » . وقد تناول زيد موضوع القيام بحملة في سورية لتخفيف الضغط على الحجاز قائلاً ان اباه يهتم بهذه المسألة اهتماماً بالغاً . وكان جواب ستورس مماثلاً لجواب مكماهون قبل اسبوعين ومؤداه ان مجلس الحلفاء الاعلى للحرب هو الذي يضع الخطط الحربية لمختلف الجبهات . وعندما الحّ زيد للحصول على وعد بفتح جبهة ثانية ، اعتذر ستورس بانه ليس من العسكريين . وقد لاحظ ستورس ورفيقاه ان ثقة العرب بأنفسهم كانت عظيمة . [١]

اما الرسالة الشفهية التي قام زيد بتبليغها للرسميين الانكليز الثلاثة باسم الشريف فقد تضمنت القول ان الاسراع في بدء الثورة يعود إلى ان نجليه علي وفيصل وجدا من الضروري البدء بالحركات يوم الاثنين في ٥ حزيران «واعلان الاستقلال هناك باسمنا ... فوفقا للاقـــوال التي أعطيناها لحكومة بريطانيا العظمى ، واعتماداً على ما اخذناه منها من الاقوال الصريحة والايضاحات التحريرية الواضحة في كل ما هو معلوم ، فقد تقرر مفاجأتنا للاعداء بعد الاتكال على المولى عزّ وجلّ في يوم السبت الموافق ٩ شعبان ١٣٣٤ . وعليه فعند ذاك ستبلغ الحالة الواقعة رسمياً لحضرة صاحب الحشمة ملك بريطانيا العظمى مع ملوك الدول المفخمة المحالفة لحكومة حشمته المعظمة على تلغرافاتنا لحشمته بالتصديق على استقلالنا وتمامية ملكيتنا في الداخل والخارج واعتبارنا حكومة مستقلة حرة في أعمالها . » [٢]

---

(١) مشرقيات ، رونالد ستورس ، ص ١٨٢ .

(٢) أوراق الأمير زيد و P.R.O., F.O. 882/19

نأتي الان الى وصف العمليات العسكرية التي بدأ العرب بها ثورتهم في الحجاز . وقد كان بدء الثورة في المدينة قبل موعدها الرسمي المعروف ببضعة ايام. ففي اليوم الثاني من حزيران غادر الاميران علي وفيصل ومعهما المتطوعون المعسكر الذي كانوا يقيمون فيه خارج المدينة المنورة ، وعندما ابتعدوا مسافة عن المدينة انشأوا مخيما لهم وأخذ الاميران يجمعان رجال القبائل حولهما بناء على اتفاقات سابقة عقدها الامير علي مع شيوخهم اثناء اقامته الطويلة في المدينة . وقد ساهم في هذه المهمة مساهمة جليلة الشريف شحات (وكيل الشريف في المدينة) واخــوه ناصر [1] الذي احرز فيما بعد شهرة طيبة اثناء الثورة ، اذ كانت لهذين الشريفين علاقات وطيدة مع القبائل المحيطة بالمدينة . ومن ذلك المخيم بعث الامير علي الى فخري باشا (الذي كان جمال باشا قد عينه قبل شهر تقريبا قائدا عسكريا لقوات المدينة) الكتاب التالي :

> بناء على الأوامر الصادرة من أبي سيقف نقل المتطوعين إلى فلسطين . ولهذا عقدت النية على العودة بالمجاهدين إلى مكة بدلا من ضياع الوقت هنا . واني آسف لاضطراري إلى الرحيل بدون ان أودعك . فالمرجو قبول عذري .

وارسل فخري باشا كتيبة الى المعسكر ليرى ما حدث ، فألفت المعسكر خاويا على عروشه وليس فيه احد ، فادرك انها الثورة وبادر لاتخاذ الاحتياطات اللازمة ، وانبأ جمال باشا بما حدث وطلب منه ارسال التعزيزات بما امكن من السرعة .

اما في مكة وجدة والطائف فقد نشبت الثورة في يوم واحد هو يوم السبت ١٠ حزيران ١٩١٦ (٩ شعبان ١٣٣٤) وهذا هو اليوم الذي

---

(١) ناصر بن علي (١٨٩٠ - ١٩٣٤) من اشراف المدينة وأحد قادة الثورة العربية البارزين . قاد الحملة التي استولت على العقبة ، ثم كان نائب فيصل في قيادة الجحفل الذي حارب في الهجوم الكبير فدخل درعا ودمشق وحلب . وصفه لورنس بقوله « كان فاتح الطرق ، والطليعة السابقة في تحركات فيصل . هو الرجل الذي أطلق الرصاصة الأولى في المدينة والذي أطلق الرصاصة الأخيرة في المسلمية وراء حلب ... » أنظر الفصل الذي كتبه المؤلف عنه في كتابه (صور من البطولة) .

اعتبر رسميا يوم قيام الثورة العربية .

حينما بدأت الثورة كانت الفرقة ٢٢ ترابط في الحجاز وتتألف من الكتائب ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ بالاضافة الى كتيبتين من فرقة عسير (الفرقة ٢١) احداهما في القنفذة والثانية في الليث . وكان مجموع القوات التركية في الحجاز يزيد على ١٢ الف رجل مسلحين بالمدافع والبنادق الحديثة ويتولى قيادتهم ضباط مدربون تدريبا جيدا على اساليب الحرب . ففي المدينة كانت قوة الترك تتجاوز اربعة الاف جندي وضابط بقيادة فخري باشا وهو ضابط قوي الشكيمة ماضي العزيمة شديد المراس. وفي الطائف كان الفريق غالب باشا يصطاف مع اركان حربه ومعه قوة تزيد على ٣٥٠٠ ضابط وجندي مع عشرة مدافع . وفي مكة كان عدد القوات التركية يتجاوز ١٢٠٠ ضابط وجندي بقيادة درويش بك ولديها ٢٠ مدفعا ، بينما كانت قوة جدة تتألف من ٢٦٠٠ جندي وضابط ولديها ٢٠ مدفعا و ١٥ رشاشا . هذا بالاضافة الى حاميات ينبع والوجه ومحطات سكة الحديد وبعض المواقع العسكرية الاخرى .

انها قوة فعّالة دون شك ويزيد من فعاليتها وكبير خطرها ذلك الخط الحديدي الذي كان يصلها بسورية وبعدها بالعاصمة استانبول ويسهل بواسطته نقل الأسلحة والتعزيزات والذخائر والمؤن بصورة مأمونة ومنتظمة . ولا شك ان قيام الشريف بالثورة في وجه هذه القوة الكبيرة اعتمادا على البدو وعلى بضع مئات من المتطوعين الذين نالوا تدريبا بدائيا دون ان يكون لديه ضابط نظامي واحد ، ودون ان يكون لديه من السلاح سوى البنادق العادية وأكثرها قديم ومن ذات الطلقة الواحدة او مما يطلق بملح البارود — يعطي البرهان على الجرأة البالغة والعزيمة الصادقة والاستعداد لمواجهة الأخطار المخيفةوأسوأ الاحتمالات.

كانت حامية جدة اول حامية تستسلم للعرب في الحجاز ، فقد بادر اربعة الاف من رجال القبائل وأكثرهم من قبيلة حرب وهم بقيادة الشريف محسن بن منصور (ابن الشريف احمد منصور امير قبائل حرب والرئيس الاعلى لشيوخهم) في صباح يوم السبت ١٠ حزيران الى ضرب

نطاق الحصار حول الثكنات التركية في اطراف البلدة وحالوا بينها وبين الوصول الى مصادر المياه العذبة في وسط البلدة . ولم تستطع الحامية الخروج من ثكناتها لاحتلال البلدة ، كما انها حاولت الزحف نحو مكة ولكن البدو ردوها على أعقابها . وفي ١٣ حزيران اقتربت ثلاث سفن حربية بريطانية (دوفرين وفوكس وهاردنج) من الشاطىء وأصلت ثكنات الترك بقنابل مدافعها ، حتى اضطرت الحامية الى رفع راية التسليم يوم ١٦ حزيران . وبعد هذا استسلمت المواقع التركية على طريق مكة ـ جدة .

اما في مكة [1] فقد بدأ القتال في الفجر الباكر من يوم ١٠ حزيران عندما أطل الشريف من احدى نوافذ قصره وأطلق رصاصة من بندقيته، فكانت الاعلان الرسمي لبدء الثورة والاشارة المتفق عليها بينه وبين رجاله الذين كانوا قد احتشدوا اثناء الليل حول المواقع التركية الاربعة : دار الحكومة (الحميدية) ومركز (باش قرقول) وقلعة جياد وثكنة جرول . وأول عمل قام به رجال الشريف انهم قطعوا اسلاك الهاتف مع جدة والطائف ثم باشروا الهجوم ، وكان يتولى قيادتهم الامير زيد والشريف شرف عبد المحسن البركاتي . وقد رد الترك نار العرب بكل عنف وأخذوا يطلقون قنابل المدافع من قلعة جياد التي تقع على جبل مرتفع باتجاه مكامن العرب ، واختصوا دار الشريف بعدد من القنابل . واستمر القتال طوال اليوم ، وفي اليوم التالي استسلم مركز (باش قرقول) وفي اليوم الثالث ارغمت دار الحكومة وفيها وكيل الوالي على الاستسلام . وظل القتال محتدماً بين العرب من جهة وبين قلعة جياد وثكنة جرول والعرب لا يملكون مدافع تواجه مدافع الترك ، الى ان وصل محمد شريف الفاروقي قادماً من جدة ومعه مدفعان من المدافع التي غنمها العرب فيها ، وستة من المدفعيين الأسرى العرب الذين أقنعهم بمرافقته إلى مكة ، حيث

---

(١) راجع وصف القتال في مكة في جريدة القبلة العددين الاول والثاني (١٤ و ١٧ آب ١٩١٦) .

نصبهما في مواجهة القلعة وأخذ يطلق قنابلهما عليها . [1]

وبينما كان القتال ناشبا في مكة بادر المسؤولون الانكليز في مصر الى تقديم العون لحليفهم الجديد ، وفي يوم ٢٩ حزيران وصلت ثلاث سفن تحمل بطاريتي مدفعية (٦ مدافع مكسيم و٦ مدافع جبلية ١٠ ـطل) من المدفعية المصرية بقيادة الاميرالاي سيد علي ، وكميات من الاعتدة والمؤن و٣ آلاف بندقية .

نقل القـــائد المصري اثنين من مدافعه الجبلية الى مكـــة وباشر اطلاق القنابل منها على قلعة جياد حتى فتح ثغرة في جدارها تسلل منه رجال الشريف وأرغموا حاميتها على التسليم يوم ٤ تموز (بعد ان اطلقت عددا من قنابلها على الكعبة المشرفة) وبعد يومين وصلت المدافع الاخرى الى مكة فوجهت نار قنابلها الى ثكنة جرول حتى اضطرت للتسليم يوم ٩ تموز .

وقد أبدى الشريف حسين خلال الشهر الذي دار فيه القتال في مكة ، شجاعة خارقة ، اذ انه ثابر على الجلوس في مكتبه يوميا طوال النهار وردحا من الليل بينما تنصب نار المدافع والبنادق على القصر وهو ثابت لم يغير مكان جلوسه . وقد دخلت احدى القنابل غرفته وهو جالس فمرت على قيد شبر منه واخترقت اساس الغرفة وهو لا يعبأ بها . وظلت فرقته الموسيقية تعزف امام القصر يوميا ، وحدث ان سقطت قنبلة بالقرب من العازفين فانفرط عقدهم وجلين ، ولكن الشريف أمرهم ان يواصلوا العزف ولو ماتوا كلهم ، فعادوا الى العزف تحت خطر القنابل .

اما الطائف فقد تولى الامير عبدالله مهاجمتها ، وكان قد جاء اليها في اول حزيران وليس معه سوى ٧٠ هجانا.ولكنه أخذ يحشد رجال

---

(١) في أوائل شهر تموز ١٩١٦ عين الملك حسين محمد شريف الفاروقي مندوبا له في القاهرة وقد بقي الفاروقي في هذا المنصب حتى أيلول ١٩١٧ ثم أقاله الملك وعين مكانه الشيخ فؤاد الخطيب (ايلول ١٩١٧ – ايلول ١٩١٨) وبعده الشريف شرف عبد المحسن البركاتي (حتى حزيران ١٩٢٠) ، وبعد هؤلاء عين عبد الملك الخطيب الذي بقي يمارس الوظيفة حتى مغادرة الملك حسين الحجاز سنة ١٩٢٤ .

القبائل حوله بحجة رغبته في قيادة حملة لتأديب احدى القبائل العاصية. وقد ساهم الشريف شرف بن راجح امير الطائف مساهمة كبيرة في مساعدة الشريف على حشد رجال القبائل [1] . وظل الامير طوال ثمانية ايام يزور الوالي يوميا مبالغة في طمأنته . ويبدو ان الاتراك شعروا بان الاستعدادات أضخم مما يحتاج اليه تأديب قبيلة صغيرة ، فطلب قائد الفرقة الى الوالي ان يصدر امراً باعتقال الامير على سبيل الاحتياط ، ولكن الوالي لم يكن يملك أي اثبات ضد الامير فلم يوافق . وفي ٩ حزيران أمر الامير رجاله بقطع اسلاك البرق والهاتف بين الطائف ومكة، ولكنه لم يهاجم مواقع الاتراك الا ليلة ١٢ حزيران ، وكان الهجوم عنيفا وطال الاشتباك الذي كان على دائرة واسعة حول بلدة الطائف المسوّرة . ولم تكن مع رجال الامير كميات كبيرة من عتاد البنادق الحديثة لذلك أخذ يستعين بالبنادق ذات الفتيل ، ولجأ الى إشعال النيران في الليل على رؤوس الجبال مما اوقع الرعب في قلوب الاتراك . ولو كان على رأس القوات التركية قائد حازم شجاع لما رضي ان يتخذ موقف الدفاع امام جماعات من البدو غير النظاميين . وقد قال الامير عبدالله تعليقا على

---

(١) استعان الشريف حسين بكثيرين من الأشراف في عمليات الثورة لما لهم من نفوذ معنوي بين القبائل . وكان أبرز هؤلاء الشريف شرف بن راجح (١٨٨٠ – ١٩٥٥) والشريف شاكر بن زيد (١٨٨٩ – ١٩٣٤). وقد انضم شرف بعد الاستيلاء على الطائف إلى فيصل ، وكان إلى جانبه في جميع المعارك التي خاضها بمثابة مستشار ورئيس أركان . وعندما انتقل فيصل إلى العقبة بقي شرف في (جيدا) – بين الوجه والمدينة – قائدا لقوة كبيرة تشن الهجمات على القطاع الأوسط من خط السكة . بعد الثورة تولى امارة الطائف واشترك في معركة تربة وفي المعارك الاخرى التي تلتها . وفي عام ١٩٢٦ انتقل إلى العراق وبقي إلى جانب فيصل ، وفي عام ١٩٤١ اختير وصيا على العرش العراقي ثم نفاه الانكليز إلى روديسيا ، وبعدها قضى ثلاث سنوات في سجون العراق . وفي عام ١٩٤٥ دعاه الملك عبد الله للاقامة في عمان وعينه عضوا في مجلس الاعيان . أما الشريف شاكر فقد قضى فترة الحرب إلى جانب الأمير عبد الله وكان الرجل الثاني في الجيش الشرقي . اشترك في معركة تربة ثم جاء إلى الاردن مع الأمير عبد الله واشترك في انشاء الامارة الاردنية ، وناب عن الأمير في عدة مناسبات ، كما ظل يشرف على شؤون العشائر في الاردن حتى وفاته .

الموقف في اليوم الثاني من بدء القتال « ولو خرج الوالي والقائد بقواته لكان وصل الى مكة بسلام لنفاذ العتاد الحربي كليا » [1] .

وكانت خطة الامير منع الاتراك من مغادرة الطائف لان قواته لا تستطيع مهاجمة المواقع الدفاعية المحصنة للجنود النظاميين . وبعد بضعة ايام استولى العرب على موقع امامي للاتراك وغنموا فيه مدفعين و ٢٠٠ اسير ، ونتج عن ذلك تراجع الاتراك من جميع مواقعهم الامامية وانتهاجهم سياسة المدافعة حتى ترد الامدادات من سورية . وفي منتصف تموز وصلت المدافع المصرية الى الطائف بعد ان فرغت من القتال في مكة ، فأخذت تقصف مواقع الاتراك وبدأت الكفة ترجح الى جانب العرب . وقد صمدت الحامية مئة يوم حتى يئست من وصول قوات تفك الحصار عنها وقلت عندها المؤن والذخائر ، فعمدت الى التسليم يوم ٢٢ ايلول ١٩١٦ واصبح معظم الحجاز في ايدي العرب .

وفي هذه الاثناء كان العرب قد استولوا على عدد من المواقع التركية على الساحل بمساعدة السفن الحربية البريطانية وهي الليث (٢٣ حزيران) والقنفذة [2] (٨ تموز) وينبع (٢٧ تموز) واملج (١ آب) .

ولكن النجاح الذي أحرزه العرب في جدة ومكة والطائف ، لم يكن حليفا لهم في المدينة المنورة . والسبب الاول – بل الاوحد – هو ارتباط المدينة مع دمشق بواسطة خط سكة الحديد . لقد بادر الاخوان علي وفيصل يوم ٥ حزيران الى العمل بمن احتشد حولهما من رجال القبائل ، فاتجه

---

(١) مذكراتي ، الطبعة العربية الاولى ، ص ١١٦ .

(٢) من نماذج الاذى الذي لحق بالقضية العربية من جراء تعامل وزارتين بريطانيتين بشؤون العرب ، ان السلطات المسؤولة في عدن شجعت الادريسي وعاونته في احتلال القنفذة باعتبارها داخلة في دائرة نفوذها. وقد احتج الشريف بشدة على ذلك لكون القنفذه تابعة للحجاز أصلا . وعندما طلب الانكليز من الادريسي أن ينسحب احتج ان الانسحاب سيدمر نفوذه بين قبائله . وبعد ضغط شديد ومراسلات حانقة انسحب الادريسي من البلدة ودخلت قوات الشريف اليها . ولكن تلك الحادثة سممت العلاقات بين الشريف والادريسي مدة طويلة بعد أن كانت قبل الحرب ودية للغاية .

فيصل شمالا لقطع خط السكة وتمكن من نزع كميات من القضبان على مسافة ٢٠ كيلو مترا ، بينما حاول علي ان يفرض الحصـــار على المدينة ويمنع وصول المياه اليها . وفي ٨ حزيران هاجم الاميران محطة المحيط ولكنهما اخفقا في الاستيلاء عليها ، وفي اليوم التالي استأنفا الهجوم فخرج فخري باشا لمصادمتهما على رأس قوة كبيرة فدارت معركة استمرت من الصباح حتى الظهر وانتهت بتراجع العرب الى موقع بير الماشي على بعد ٣٠ كيلومترا من المدينة . وفي الوقت ذاته بعث فخري قوة من رجاله قامت باصلاح خط السكة . وشجعه ما لقيه من فوز فسار بقوة كبيرة في منتصف حزيران فاحتل العوالي وبلغ بير الماشي فاحتلها وحصنها. وبعد هذا الاخفاق افترق الأخوان ، فسار علي بقواته الى الجنوب الغربي من المدينة باتجاه رابغ وسار فيصل الى الشمال الغربي باتجاه ينبع ، ورابطا في سلسلة التلال الوعرة التي تفصل المدينة عن الساحل .

وتابع فخري عملياته الهجومية فاشتبك مع قوات الامير علي يوم ٣ آب ، ولكن وعورة الارض ساعدت العرب على الصمود فارتد الاتراك بعد ان اصيبوا بخسائر كبيرة . وأعاد فخري الكرة يوم ١٩ آب ضد قوة فيصل فدارت معركة دامية بين الفريقين انتهت بارتداد الترك وغنم العرب عددا من الاسرى .

ومن أهم العقبات التي واجهها علي وفيصل انتقاض حسين بن مبيريك شيخ رابغ . فقد أنزلت السفن البريطانية كمية من المؤن والبنادق والعتاد على أساس ان يؤمن ايصالها لقوات الاميرين وان يشترك معهما في القتال ، ولكن لم يلبث ان تبين انه كان ميالا للاتراك ، فمنع ارسال المؤن الى الداخل وحال في آخر حزيران دون نزول بطارية المدافع المصرية التي كانت النية تتجه الى ارسالها الى الداخل لمواجهة مدافع الاتراك . ولم يلبث الشريف بعد استسلام الاتراك في مكة ان ارسل قوة بقيادة الامير زيد الى رابغ فاستولت عليها وفر ابن مبيريك الى التلال وظل طريدا حتى نهاية الحرب .

كان قيام الشريف حسين بالثورة ضربة خطيرة لهيبة الاتراك وسمعتهم، فها هو حفيد النبي وأمير الحجاز، والمسؤول عن الاماكن المقدسة؛ والرجل الذي يحظى بقدر من اعتبار المسلمين في العالم كله لا يقل عما يحظى به الخليفة نفسه – ها هو يعلن وقوفه في صف اعداء الخليفة والدولة العثمانية ويعلن انحراف قادة الدولة عن جادة الصواب وصراط الدين ويوجه التهم المتعددة اليهم . فلا عجب ان بادر الاتراك الى بذل كل ما في وسعهم لسحق الثورة وهي في المهد . وقد أصيب جمال باشا بالذهول عندما بلغه نبأ قيام الثورة ، وغضب أشد الغضب لان الشريف ضحك عليه وأفلت فيصل من بين يديه ، وكاد يرسل بنائب دمشق فارس الخوري الى المشنقة لانه لم يبلغه عبارة عابرة كان سمعها عن استعداد جماعة من الناس للانتقام لشهداء ٦ ايار كي يتلافى « الخطب قبل وقوعه . لان فيصلا كان في قبضة يدي يراوغني ويخدعني فكان في امكاني ان اقبض عليه . وكان اخوه علي في متناول يد الحكومة في المدينة . فلو انك اخبرتني كنت حجزتهما رهينة عندي فلا يجرؤ ذلك الشيخ الخرف والدهما على اعلان العصيان وولداه في قبضة يدي »[1]

ووجد جمال ان الشريف في خطابه الذي أرسله اليه يعتذر عن عدم استطاعته الاشتراك في الحملة على القناة الى ان تجاب المطالب التي طلبها في برقيته المرسلة في آذار ١٩١٦ الى الصدر الاعظم،والى ان تكف الحكومة عن اتباع خطة الابهام والغموض حياله . اما في رسالته الى الصدر الاعظم فيقول انه بسبب السياسة التي اتبعتها معه الحكومة، يجد نفسه مضطراً الى قطع العلاقات حتى تجاب المطالب التي طلبها قبل شهرين .

وقد بادر جمال الى ارسال التعزيزات من رجال وسلاح الى المدينة على الرغم من انهماكه في الاستعداد للحملة الثانية على قناة السويس[2] ،

---

(١) فارس الخوري : تأليف حنا خباز وجورج حداد ، بيروت ، ١٩٥٢ ، ص ٣٦ .
(٢) وقع هجوم الاتراك الثاني على الانكليز في ميدان قناة السويس في أوائل آب ١٩١٦ ، ولكن الاخفاق كان من نصيبه مثل الهجوم الأول .

وسرعان ما ارتفعت القوات التركية العاملة تحت امرة فخري في شهر ايلول الى ١٤ الف رجل (الفرقة ٥٨ وبقايا فرقة الحجاز ٢٢ وقوة خيري بك) مزودة بمدفعية قوية وأربع طائرات .

وفي ١ تموز ١٩١٦ صدرت ارادة سلطانية بعزل الشريف حسين (دون ابداء الاسباب) وتعيين الشريف علي حيدر اميرا مكانه . وقد وصل علي حيدر الى المدينة في اول آب ولكنه لم يبق فيها سوى ستة اشهر ، اذ عاد في كانون الثاني ١٩١٧ الى لبنان وبقي هناك سنة ونصف ثم عاد الى استانبول قبيل نهاية الحرب العالمية . (١)

وبعد ان ثبتت الثورة اقدامها بسقوط الطائف ونجاح موسم الحج ، وافق الشريف حسين على قرار اتخذه علماء الحجاز وزعماؤه والسوريون الموجودون في الحجاز يوم ٢٩ تشرين الاول ١٩١٦ (٢ محرم ١٣٣٥) بانشاء دولة عربية رسميا والمناداة بالشريف حسين ملكا على تلك الدولة بلقب « ملك البلاد العربية » . وقد قام الامير عبدالله بصفته وزير خارجية الحكومة الجديدة (٢) بابلاغ ممثلي الدول الحليفة في جدة بالخطوة الجديدة وطلب منهم الاعتراف رسميا بالوضع . وقال الامير عبدالله ان القرار اتخذ لاسباب منها (١) الرد على دعايات الاتراك واعطاء البرهان للعالم الاسلامي ان الشريف مستقل استقلالا تاما وان الحلفاء يعترفون باستقلال البلاد العربية (٢) اتخذ الشريف لقب « ملك البلاد العربية » لكي تجد الفكرة العربية متنفسا لها ولكي يلتف العرب حول الثـــورة العربية ، ولإرضاء مطامح القوميين القائلين بانشاء دولة عربية كبيرة .

---

(١) هناك كتاب باللغة الانكليزية من تأليف جورج ستت عن سيرة الشريف علي حيدر :
George Stitt, *A Prince of Arabia*, George Allen & Unwin Ltd.

(٢) من أعضائها : الأمير علي رئيساً للوزراء ، والأمير فيصل وزيراً للداخلية، وعزيز علي المصري وزيراً للحربية ورئيسا لأركان الحرب . ولكن لم يمارس أحد من هؤلاء مهام وظيفته ممارسة فعلية بسبب انهماكهم في الحرب .

وقد ابدى البريطانيون دهشتهم لان الشريف اقدم على اتخاذ هذه الخطوة دون استشارتهم. وبعد شيء من التردد صدرت التعليمات للكولونيل ولسون بتقديم التهنئة للشريف وابلاغه ان الحكومة البريطانية تتشاور في الموضوع مع حلفائها ، خاصة وان العدو لم يهزم بعد ولا تريد بريطانيا ان تتخذ موقفا يلحق الضرر بقضية الشريف في الجزيرة العربية وفي انحاء العالم الاسلامي . وبعد مباحثات بين الحكومتين البريطانية والفرنسية اتفقتا على الاعتراف بالشريف ملكا على الحجاز فقط ومخاطبته بلقب « صاحب السيادة » وليس بلقب « صاحب الجلالة »[1] وفي ١٠ كانون الاول ١٩١٦ ارسل ولسون وبريمون جواب حكومتيهما على هذا الاساس . وقد جاء في رسالة الحكومة البريطانية ما يلي :

ان الحكومة البريطانية وحكومتي فرنسا وروسيا ، مع انها تعتبر وستظل تعتبر ، سموكم الرأس الاسمي للشعوب العربية في ثورتها ضد الحكم التركي الظالم ، ويسرها علاوة على هذا ان تعترف بسموكم اعترافاً واقعياً الحاكم الشرعي المستقل للحجاز— ولكنها في الوقت الحاضر لا ترى ان الفرصة مناسبة لاتخاذ لقب بمعنى الملك قد يكون سبباً لتفريق كلمة العرب وتفكيك عرى جامعة الاتحاد بينهم في مثل هذه الظروف ، ومن ثم قد يؤثر تأثيراً سيئاً في تأسيس جزيرة العرب سياسياً ونهائياً على أساس متين ثابت الاركان .

وجاء في الرسالة ان التسوية النهائية يجب ان تتم بموافقة الحكام العرب الاخرين وهي الموافقة التي لا دليل عليها حاليا والتي يجب ان تتبع — لا ان تسبق — النصر العسكري على العدو . وامتدحت الرسالة خطة الحسين بترك مسألة الخلافة الى العالم الاسلامي ليقرر في الوقت المناسب من يحتل

---

(١) ولكن الرسائل التي كان الشريف يتلقاها من المندوب السامي والمعتمد البريطاني في جدة باللغة العربية كانت جميعها تخاطبه بلقب « صاحب الجلالة » . خذ نموذجا على هذا عنوان رسالة وجهت إلى الملك حسين بتاريخ ٢٨ آب ١٩١٨ : « حضرة صاحب الجلالة الهاشمية الحسين بن علي ملك الحجاز وشريف مكة المعظم » . وقد كرر فيها مخاطبة الحسين بكلمة « جلالتكم » سبع مرات على الرغم من ان طولها ثمانية اسطر .

هذا المنصب الخطير . [1]

واستاء الشريف من هذا الموقف وقال ان الحكومة البريطانية نادته منذ البداية بلقب الخلافة وهي ارفع شأناً من الملكية ، وان زعماء العرب جميعهم اصدقاء له باستثناء ابن الرشيد الذي تم الاتفاق بينه – الشريف – وبين ابن السعود على « محوه وإزالة اسمه . »

وقد ظلّت مسألة لقب الشريف حسين مدار مباحثات بينه وبين المسؤولين البريطانيين عدة سنوات ، وظل يحث الحكومة البريطانية على الاعتراف به ملكا على البلاد العربية وفاء بروح العهد الذي قطعته له ولكن دون جدوى . وعلى الرغم من ذلك ظل يوقع رسائله تحت لقب « ملك البلاد العربية وشريف مكة وأميرها » . وقد اصدر الشريف حسين اربعة مناشير يوضح فيها الاسباب التي دفعته الى اعلان الثورة . واهم تلك المناشير هو الاول (٢٦ حزيران ١٩١٦) ويتضمن القول بان الاتحاديين استولوا على السلطة في الدولة العثمانية وسلبوا الخليفة جميع السلطات وابتعدوا عن التقيد بالتعاليم الاسلامية ، وبانهم ساروا على سياسة عنصرية واضطهدوا العرب ولغتهم وعلقوا احرارهم على اعواد المشانق وساروا على سياسة ترمي الى قتل الروح العربية ، وبانهم اضاعوا بسياستهم الخرقاء عدة اقطار عثمانية ، وان دخولهم الحرب سيؤدي الى اضاعة البقية الباقية – لذلك وجب على العرب العمل لانقاذ انفسهم وانشاء كيان مستقل لهم . هذه هي خلاصة الاسباب الدينية والسياسية والوطنية التي برّر بها الشريف ثورته للمسلمين وللعرب . وفي المنشور الثاني (٢٠ ايلول ١٩١٦) كرر الشريف الحجج والمبررات التي تضمنها المنشور الاول ولكنه شدّد على القول ان العرب ليسوا ضد الاتراك ، وان عداءهم يقتصر على الاتحاديين الذين الحقوا الضرر بالعنصرين . وفي المنشور الثالث (٢٩ تشرين الثاني ١٩١٦) يخاطب الشريف قومه

---

(١) P.R.O., F.O. 882/5. واوراق الامير زيد: رسالة ونجت الى حسين في ٢٤ حزيران ١٩١٨ .

العرب ويعلن انه لم يقم بالثورة الا لدفع الأذى والظلم عنهم جميعا قياما « بواجب القومية والوطنية » . ولاول مرة يشير الى طبيعة العلاقة مع حلفاء العرب بالقول انها تقوم على الصداقة وعلى «المنافع المتبادلة ». اما المنشور الرابع (٧ آذار ١٩١٧) فيخاطب المسلمين عموما وعلى الاخص الاتراك والهنود ويعدد مخالفات الاتحاديين لتعاليم الدين الاسلامي ، ويقول انه ما يزال يدعو للخليفة في صلوات ايام الجمعة . وقد وزع المنشور الاول في الجزيرة العربية ومصر والسودان والحبشة والاقطار العربية والاسلامية الخاضعة لفرنسا في افريقيا ، ولكن حكومة الهند منعت توزيعه بحجة ان ما جاء فيه عن ضرب الاتراك للكعبة سوف يثير ثائرة المسلمين ضد بريطانيا وحليفها الشريف . ولذلك وزع المنشور في العراق بعد حذف العبارات المتعلقة بضرب الكعبة . وقد وقع الشريف المنشورين الاول والثاني تحت لقب « شريف مكة واميرها » اما الثالث فقد وقعه تحت لقب « ملك البلاد العربية » . وقد كتب الشريف منشوره الثاني بناء على طلب صدر في الاصل من السير برسي كوكس بقصد توزيعه على زعماء القبائل العراقية . وكتب ولسون الى الشريف يطلب منه ان يناشد العرب في العراق كي يبذلوا كل ما في وسعهم لمصادمة الاتراك وتعطيل طرق مواصلاتهم. ومن هذا نرى ان البريطانيين عملوا على الاستفادة من مناشير الشريف في العراق وفي فلسطين دعائياً وسياسياً، ولم يروا بأسا في ان يفهم الشريف من هذا كله انهم يعترفون بوجود علاقة بينه وبين العراقيين والفلسطينيين . لاحظ مثلا طلب ولسون في رسالته اياها ان يتضمن منشور الشريف الى العراقيين القول « ان بريطانيا العظمى كانت دائما صديقة العرب ولذلك فانهم بمساعدتهم الجيوش البريطانية انما يساعدون القضية القومية العربية الى حد كبير [1] »

اما عدم ترحيب المسلمين في الهند ومصر وطرابلس الغرب بالثورة

---

(١) رسالة ولسون بتاريخ ١٧ آب ١٩١٦ – P.R.O., F.O. 686/7

العربية فيعود سببه الى نفور الهنود والمصريين من الحكم البريطاني ونفور الطرابلسيين من الحكم الايطالي ومن الطبيعي ان ينسحب ذلك النفور على الشريف حليف دولتي بريطانيا وايطاليا .

ومن الخطوات المهمة التي اتخذها الشريف بعد اعلان الثورة ووقوع عدد كاف من اسرى الاتراك في يده ، انه طلب من رئيس الولايات المتحدة الاميركية – التي كانت لا تزال على الحياد – ان ينذر زعماء الاتحاديين طلعت وانور جمال بانهم اذا لم يكفوا عن اضطهاد العرب فانه سيعامل الاسرى الاتراك معاملة مماثلة [1] . وقد كان لهذا الانذار اثر حاسم ، فصدرت الاوامر المشددة الى جمال باشا ان يكف عن سياسة العسف والاضطهاد وتوقفت عمليات الاعدام السياسي تقريبا ، وأخذ الاتراك يتقربون من زعماء العرب في سورية والعراق في محاولة لوقف انتشار التحبيذ لفكرة الثورة ، وصدرت اوامر باعادة معظم المنفيين الى ديارهم .

وقد جنّد الاتحاديون أقلام عدد من الكتاب والصحافيين العرب للطعن بالشريف وتشويه المبادىء التي قامت الثورة العربية عليها . ولم يكتفوا بهذا بل ان جمال باشا اصدر فتوى بتكفير الشريف حسين وقعها مفتو ولايات سورية وحلب وبيروت وسنجق القدس [2]

مرحلة حرجة : بعد بدء الثورة عمل المسؤولون البريطانيون في مصر والسودان على تنسيق العمل مع الشريف ، فبعثوا الكولونيل ولسون حاكم مقاطعة البحر الاحمر في السودان الى جدة في ٢٤ حزيران ليدرس

---

(١) احمد عزت الاعظمي : القضية العربية ، بغداد ، ١٩٣٢ الجزء السادس ص ١١٣ – ١١٤ وصبري حماده(رئيس مجلس النواب اللبناني) مذكراته في مجلة الاسبوع العربي العدد ٣٤٥ الصادر بتاريخ ٩ تشرين الاول ١٩٦٧ و P.R.O., F.O. 882/4 .
وبما هو جدير بالذكر ان الولايات المتحدة الاميركية لم تدخل الحرب في صف الحلفاء الا في شهر نيسان ١٩١٧ ، ولكنهـــا لم تعلن الحرب على الدولة العثمانية .

(٢) محمد ابو الخير عابدين ، محمد العيسى ، مصطفى نجا وكامل الحسيني .

احتياجات العرب وامكانات تقديم المساعدة المجدية لهم ، ولم يلبث ان ثبّت في وظيفة المعتمد البريطاني لدى الشريف ورئيس البعثة البريطانية في الحجاز . وكان ولسون ملما باللغة العربية عارفا بعادات العرب وتقاليدهم وعلى قدر عظيم من الاخلاص وحسن التفهم والتعاطف ، وقد بقي في وظيفته حتى عام ١٩٢٠ عندما اضطره المرض الى العودة الى بلاده . (١)

ولم يقدم مكماهون التهنئة بنشوب الثورة الا بعد سقوط جدة في ايدي العرب وظهور البوادر التي تدل على ان الاتراك لن يكون في مقدورهم سحقها . ففي ٢٣ حزيران بعث الى الشريف برقية قال فيها « لنا الشرف ان نهنىء سموكم بحرارة واخلاص على السياسة الاستراتيجية والشجاعة التي استطعتم بها سموكم والامة العربية النبيلة ان تحرزوا الانتصار الحاسم الاول . ان نتائج هذا الانتصار اذا تابعتموها بمثابرة ، سوف تنقذكم من الظلم الذي عانيتم طويلا منه » . وبعد ان ابلغه رفع الحصار عن جدة مضى يقول « اننا من جانبنا نبحث عن افضل الوسائل لتحويل انتباه العدو في اماكن اخرى . »

ولقد اتخذ موضوع « تحويل انتباه العدو في اماكن اخرى » دورا مهما في علاقات الشريف بالانكليز ، بعد ان تعثرت العمليات الحربية حول المدينة وتحول فخري من الدفاع الى الهجوم واستطاع ان يقصي العرب عن خط سكة الحديد وان يدفعهم غربا الى سلسلة التلال المشرفة على الشاطيء . ففي هذه الفترة التي استمرت اربعة اشهر (ايلول — كانون الاول ١٩١٦) بلغ الخطر على الثورة حداً عظيماً اذ ساد الاعتقاد ان فخري سيتجاوز التلال الى الشاطيء قرب رابغ ثم يزحف جنوبا نحو مكة للاستيلاء عليهما والقضاء على الثورة في المهد . واثناء هذه الاشهر الح الشريف الحاحا عظيما على مكماهون ونجت بشأن فتح جبهة في

---

(١) كان ولسون (C.E. Wilson) المسؤول البريطاني الأول في الحجاز فيما يتعلق بالمسائل السياسية والعسكرية . توفي سنة ١٩٣٨ .

سورية وقطع خط سكة الحديد بصورة فعالة بين سورية والاناضول ، مصّراً خلال ذلك على القول ان قطع الخط في الشمال كان « احد الشروط الاساسية في اتفاقنا وان يتم ذلك خلال اسبوع من قيامنا [1] »

وكان كتشنر وزير الحربية البريطانية يحبذ فتح جبهة ثانية في الشرق لاشغال المانيا وحلفائها ، ويرى ان تكون تلك الجبهة في اسكندرونة ، لفصل الاناضول عن بلاد العرب. ولكن فرنسا الطامعة فيسورية عارضت في ذلك لانها لم تكن تملك قوات كبيرة تنزل في اسكندرونة الى جانب القوات البريطانية ولم توافق على ان تقوم حملة بريطانية بفتح جبهة مستقلة ، خشية ان يؤثر ذلك فيما بعد في مطامعها في سورية . وعندما طلب الروس في اوائل كانون الثاني ١٩١٥ تخفيف ضغط الجيوش العثمانية عنهم في جبهة القوقاس ؛ نشأ مشروع محاولة اقتحام مضائق الدردنيل والنزول في شبه جزيرة غاليبولي بغية التوصل الى نتائج حاسمة وسريعة .

وقد بدأ مشروع حملة الاسكندرونة بعد دخول الاتراك في الحرب كمحاولة من جانب الحلفاء تستهدف اشغال الاتراك عن مهاجمة قناة السويس . وفي ٤ كانون الاول ١٩١٤ كتب الجنرال ماكسويل القائد العام في مصر يقترح ذلك على كتشنر . وبعد فشل حملة غاليبولي عاد ماكسويل يكرر اقتراحه على كتشنر ، ووافق كتشنر وكذلك مكماهون، وكان من رأيهما ان نزول حملة في الاسكندرونة سيكون عظيم الفائدة لدعم زحف الحملة البريطانية في العراق وكذلك لتشجيع العرب على الثورة . ولكن معارضة فرنسا وقفت مرة اخرى عثرة في سبيل تحقيق الفكرة فلم يقدر لها ان تتحقق .

ومن الواضح ان الانكليز هم الذين ادخلوا الفكرة سابقا في رأس الشريف من انهم مصممون على انزال حملة قرب الاسكندرونة وقطع خط المواصلات بين سورية والاناضول. وحالما بدأت الثورة أخذ يلح

---

(١) رسالة من الشريف إلى المندوب السامي بتاريخ ١٠ نيسان ١٩١٧– P.R.O., F.O. 882/12

عليهم في تنفيذ ما تعهدوا به واخذوا هم من جانبهم يبحثون امكان القيام بعمل من شأنه تخفيف الضغط عن العرب . ففي ١٨ تموز ١٩١٦ ابرق مكماهون الى وزارة الخارجية يقول « ان الشريف يلح علينا بقطع خط سكة الحديد ، ويتباحث القائد العام مع المسؤولين في البحرية حول امكان القيام بهذا العمل عن طريق العقبة الى الشمال من الحجاز . »[١]

وفي ١١ ايلول نرى مكماهون يكتب الى السير ادوارد جراي قائلا « ان الشريف يلفت انتباهي باستمرار الى اخفاقنا في مهاجمة خط السكة الى الشمال من الحجاز . ولسوف يسرني عندما اصبح في وضع استطيع ان اخبره بان اجراء فعليا يتخذ الآن . ان الموضوع ما يزال بين ايدي السلطات العسكرية . »[٢]

وخلال الحديث الطويل الذي دار بين الشريف حسين وستورس في جدة يوم ١١ كانون الاول ١٩١٦ قال الشريف « انه اعتمد كل الاعتماد على كلمة الحكومة البريطانية ، وانه عندما وعدته الحكومة بأنها ستقطع خط سكة الحديد حينما يثور ، فانه رأى السبيل واضحة امامه وعمد الى العمل » . وقال انه لو عرف انالانكليز لن يعمدوا الى قطع الخط لاتخذ خططا مختلفة في الثورة ، ولكنه اقدم على العمل لعلمه ان الحكومة البريطانية تحافظ على كلمتها التي تعطيها .[٣]

ان الشريف عندما أدرك خطورة الوضع واحتمال قيام الاتراك بالزحف على مكة ، لم يكتف بمجرد الالحاح على فتح جبهة في سورية بل اخذ يطالب بمجيء قوة بريطانية من الجنود المسلمين للنزول في رابغ والحيلولة دون تقدم الاتراك . وقد كان الخطر عظيما حقا ، ففي ٣٠ آب ١٩١٦ ابرق ولسون الى المندوب السامي يقول ان الاتراك يستطيعون الزحف ب ١٢ الف جندي عدا المدافع الثقيلة والرشاشات وانهم اذا

---

(١) P.R.O., F.O. 371/6237

(٢) P.R.O., F.O. 882/9

(٣) راجع تقرير ستورس في P.R.O. F.O. 686/6 part I

عمدوا للهجوم فسيكون بمقدورهم اختراق مواقع العرب. وكان الشريف قد طلب نزول قوة من الجنود المصريين ابتداء من ٢٦ تموز كي تساعد على مهاجمة المدينة ، ولكن مكماهون اجابه باستحالة تنفيذ طلبه . كما ان الانكليز كانوا يخشون من النتائج السياسية التي يمكن ان تنشأ عن نزول قوة بريطانية في الحجاز . ونتيجة لالحاح الشريف عرض عليه الانكليز نزول قوة من جنودهم ولكن الشريف كان مترددا اشد التردد في قبول جنود مسيحيين . وعلى الرغم من تردده طلب من المندوب السامي ابقاء قوة على قدم الاستعداد في مكان قريب يسهل طلبها اذا بلغت الازمة ذروتها وتحقق زحف الاتراك فعلا . وبالفعل أعدّ الجنرال موراي لواء بريطانياً في السويس.وفي ١١ كانون الاول رأى الشريف الخطر محدقا فقدم طلبا خطيا – بناء على اصرار الانكليز – بنزول القوة البريطانية في رابغ . ولكنه في صباح اليوم التالي سحب الطلب وقال انه لا يريد الا قوة من الجنود المسلمين . وفي ٢١ كانون الاول ابرق الشريف لونجت بانه يرى ان نزول قوات اجنبية في رابغ يحمل من المخاطر السياسية ما يرجح على المكاسب العسكرية المتوقعة ، وانه لمتلك مصمم على عدم قبول تلك القوات مهما كانت النتائج . وعلى الاثر اعلن ونجت سحب اللواء البريطاني من السويس وحمل الشريف مسؤولية ما يمكن ان يحدث .

وزاد الموقف سوءا ان الانكليز ارسلوا ست طائرات الى رابغ في شهر تشرين الاول لمواجهة طائرات الالمان التي كانت تبث الذعر في نفوس البدو ، ولكنهم عمدوا الى سحبها بعد بضعة ايام بحجة ان الحماية الكافية غير متوافرة لها . وبعد الحاح من الشريف وتأكيده للانكليز انه يضع حياة ابنائه ضمانا لسلامة الطائرات [1] اعيدت الطائرات في تشرين الثاني الى رابغ ثم نقلت الى ينبع .

وفي ٦ تشرين الاول ابلغ الامير عبدالله الكولونيل ولسون ان بريمون

---

(١) راجع برقية الشريف إلى مكماهون بتاريخ ٢٠ تشرين الأول ١٩١٦ (العمري ، الجزء الأول ، ص ص ٢٩٦ – ٢٩٧) و P.R.O., F.O. 141/462

رئيس البعثة الفرنسية ابلغه بامكان ارسال قوات فرنسية من المسلمين اذا قدم الشريف طلبا بذلك . وقال عبدالله ان اباه يود ان يعرف اذا كانت الحكومة البريطانية توافق على قبول مساعدة كهذه . وقد جاء الجواب من المندوب السامي بان الحكومة البريطانية تنصح الشريف ان يشكر فرنسا على العرض وان يطلب البطاريات الجبلية ويشترط ان لا يأتي معها مدفعيون فرنسيون بحجة ان عنده من المدفعيين العدد الكافي . وقيل للشريف ان عليه اذا لم يوافق الفرنسيون على ارسال البطاريات دون رجال ان يطلب منهم ارسالها مع عدد قليل جدا من الرجال . [1] وفي ١٢ كانون الاول قال الشريف لستورس ان بريمون وبرنابي (ممثل ايطاليا) عرضا عليه قوات من المسلمين ولكنه اغلق اذنيه لكليهما لانه لا يريد ان يرتبط مع اية دولة اخرى غير بريطانيا .

وبعد استسلام حامية الطائف في ايلول قرر القادة العرب ان يبادروا الى مهاجمة المدينة من الغرب والشرق . وكانت هذه الخطة تقضي ان يزحف الامير عبدالله بقواته من الطريق الشرقي ، ولكن عدم وجود المياه على تلك الطريق اضطرته الى تأخير الزحف حتى شهر تشرين الثاني موعد نزول الامطار . وهذا هو السبب ذاته الذي كان يضطر الاتراك الى محاولة الزحف على مكة عن طريق الساحل حيث تتوافر المياه .

وفي هذه الأثناء كان العمل على انشاء قوة نظامية يسير سيراً حسناً . فقد بدأ الشريف الثورة وهو لا يملك سوى المتطوعين من البدو . وبعد اعلان الثورة طلب الشريف من حلفائه الانكليز ان يرسلوا الى الحجاز أكبر عدد ممكن من الجنود والضباط العرب الذين كانوا سابقاً يخدمون في الجيش العثماني ثم وقعوا في الاسر . وفي ٢ آب ١٩١٦ وصلت الى ميناء جدة أول قافلة من هؤلاء ، وكانت تتألف من حوالي ١٣٠ جندياً وخمسة ضباط . وعند نزولهم الى البر اختلطوا بالاسرى الاتراك الذين كانوا ما يزالون هناك ، فتأثر الجنود بأقوال اولئك الاسرى من أن الشريف جعل المسلمين يحاربون المسلمين ، فأعلن أكثرهم أنهم يريدون

---

(١) P.R.O., F.O. 686/33

العودة الى معسكرات الأسر التي جاؤوا منها . وعندما اتصل نوري السعيد (أعلى الضباط الخمسة رتبة) هاتفيا بالشريف وأبلغه بما حدث ، ردّ الشريف قائلا «يا ابني . نحن اللي ما يبغانا ما نبغاه » . وبالنتيجة لم يبق من أفراد هذه القافلة سوى ستة جنود والضباط الخمسة . (١)

وقد ارسل الانكليز مع هؤلاء الجنود اربعة مدافع هاوتزر ثقيلة جدا يعود صنعها الى سنة ١٧٩٢ ولم يستطع العرب الاستفادة منها لعدم وجود وسائط نقل لجرها في اراضي الحجاز الوعرة. واخذ الشريف يكرر الطلب ويلح في انه بحاجة الى مدافع ميدان جبلية يمكن تفكيك قطعها ونقل اجزائها على البغال والجمال الى المواقع المقصودة بين الجبال، ولكن الانكليز اعتذروا بانهم لا يستطيعون الاستغناء عن مدافع من النوع المطلوب. حتى جاء في تقرير للورنس في تشرين الثاني ١٩١٦ « فيصل طلب منذ اربعة اشهر ثلاث بطاريات من المدافع الجبلية . لم يرسل له اي مدفع فحسب ، بل انه لم يتلق جوابا خطيا او شفهيا على طلبه » . وخلال عدة اشهر ارسل الانكليز الى رابغ ٢٣ مدفعا «أكثرها بطل استعماله وهي من اربعة عشر نوعا » (٢) . وبعد هذا تتابع وصول الجنود والضباط من مصر والهند ، فتألفت منهم نواة الجيش العربي النظامي .

وعلى الرغم من تفوق القوات التركية النظامية في المدينة ، الا ان فخري باشا لم يستطع اختراق سلسلة التلال المشرفة على الشاطيء بسبب عجزه عن تأمين خط مواصلاته . وقد اندفع في احدى الهجمات حتى اشرف على ينبع ولكن رجال البدو هاجموا خطوطه الخلفية وعرقلوا مواصلاته واخذوا ينهبون قوافله. « وبعد مرور حوالي الشهرين اضطرت القوات التركية الى الانسحاب من مواضعها بصورة تدريجية ، وذلك

---

(١) ذكريات ابراهيم الراوي : من الثورة العربية الكبرى إلى العراق الحديث ، مطبعة دار الكتب ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ٨١ . ومن أوائل الضباط الذين انضموا إلى الثورة وابلوا فيها : نوري السعيد ورشيد المدفعي ومولود مخلص وعلي جودت وحامد الوادي وابراهيم الراوي وصبري العزاوي وراسم سردست وعبد الله الدليمي — وجميعهم عراقيون .

(٢) T.E. Lawrence, *Seven Pillars of Wisdom*, p. 115.

ليأسها من التغلب على العشائر وتأمين مواصلاتها . »[1]

كما ان عجز فخري عن تأمين المياه الكافية لرجاله ودوابه كان سبباً مهماً من الأسباب التي أجبرته على التراجع بل السبب الوحيد على حد قوله .[2]

ففي تلك الحرب كان الاتراك يتفوقون على العرب بقواتهم النظامية ومدفعيتهم واسلحتهم ؛ ولكنهم كانوا يحاربون في بلاد وعرة صحراوية جافة لا توجد المياه فيها الا في اماكن متباعدة . واهم من هذا ان اهل البلاد كلهم كانوا يقفون ضدهم وهم اعرف بالارض منهم واخف حركة ؛ يسهل عليهم التنقل افرادا وجماعات بين الشعاب والاودية ، بينما كان الاتراك لا يستطيعون السير الا في مجموعات كبيرة واسلحتهم الثقيلة معهم على الدواب . ولقد كانت مهمة الطرفين المتقاتلين شاقة ؛ ولكن دور القيادة في الجانب العربي كان اكثر مشقة . فكل قبيلة تقيم عادة في منطقة خاصة بها لا تتجاوزها ولا تسمح للقبائل الاخرى ان تقيم فيها . ثم ان القبائل في اغلب الحالات في خصومة بعضها مع بعض وبينها ثأرات ودماء . لذلك كان على قادة الثورة ان يستخدموا كل قبيلة في منطقتها التقليدية وان يظلوا على اتصال مع القبائل الاخرى التي لم يصل القتال اليها حتى لا تنضم الى العدو . اضف الى هذا ان البدو لم يعتادوا على الطاعة والتقيد بالانظمة والتعليمات والخطط البعيدة المدى. وقد انسحبت قبيلة جهينة ذات مرة من المعركة في ظرف حرج بقصد تناول الطعام ، وظن فيصل انها انهزمت فبادر الى الانسحاب بدوره مع من كان معه من رجال القبائل الاخرى . وكان القادة مضطرين الى ان لا يجازفوا كثيرا في شن الهجمات لان البدو لم يكونوا يحاربون باقدام الا عندما يكون املهم كبيرا بالانتصار، فاذا ما لمسوا تفوق العدو بادروا

---

(1) نوري السعيد : محاضرات عن الحركات العسكرية للجيش العربي في الحجاز وسورية ، بغداد ، ١٩٤٧ ، ص ٢٢ .

(2) هذا ما صرح به فخري باشا بعد وقوعه في الأسر . مذكرة الكابتن جارلند عن مقابلته لفخري باشا بتاريخ ٦ نيسان ١٩١٩ — P.R.O., F.O. 882/20

الى التفرق والنجاة بأنفسهم . ثم ان البدو كانوا بارعين في القتال عندما يكون القتال متفقاً مع الاحوال التي اعتادوا عليها وفي ظروف متكافئة . لذلك لم يكن بمقدورهم الاشتباك مع الاتراك في معارك مواجهة مركزة ولم يكن بمقدورهم مهاجمة المواقع المحصنة.والذي يطالع تقارير الكولونيل نيوكمب يدرك كم كان البدو عاجزين عن القيام بعمل مؤثر ضد خط سكة الحديد . فقد جاء في أحد تقاريره قوله « ان الترك يضعون في طريقنا مصاعب أقل مما يضع رفاقنا».وقال في تقرير آخر« لو ان البدو يعمدون الى ارهاق الاتراك وازعاجهم مثلما يفعلون معنا ، لما بقي تركي واحد بين المدينة ومعان . » [1] ومن هذا ندرك المهمة البالغة الصعوبة التي كان ابناء الشريف حسين والاشراف البارزون يقومون بها في قيادة البدو وتنسيق حركاتهم والعمل على الاستفادة منهم في مناجزة قوات فخري باشا النظامية .

وفي شهر ايلول وصل البيكباشي عزيز علي المصري الى الحجاز بعد اتصالات اجراها معه الفاروقي وتزكية المسؤولين الانكليز له.وقد عينه الشريف رئيساً لاركان الحرب وبعث به الى رابغ كي يتولى انشاء قوة نظامية عربية تستطيع ان تواجه قوات الاتراك النظامية . وكان عزيز علي يتمتع بسمعة طيبة بين الضباط والجنود العرب كقائد عسكري قدير وكزعيم وطني . وقد بادر عزيز الى العمل في رابغ بهمة ونشاط.وخلال الاشهر الستة التي قضاها في الحجاز وضع النواة الاولى للجيش العربي النظامي . وعزيز علي هو الذي وضع خطة تقسيم الجيش الى قسمين : قسم نظامي يحارب حسب الاساليب التقليدية ، وقسم سيار خفيف الحركة يعمل وراء خطوط الاتراك . [2]

ومن المؤسف ان الثورة خسرت خدمات عزيز علي وانه لم يستطع ان يبني مستقبله معها كما فعل كثيرون من الضباط الاخرين. واسباب انفصال

---

(١) P.R.O., F.O. 686/6, part 2.

(٢) نوري السعيد : محاضرات عن الحركات العسكرية للجيش العربي في الحجاز وسورية ، بغداد ، ١٩٤٧ ، ص ١٩ .

عزيز علي عديدة منها انه كان مثل الشريف حسين رجلا شديد المراس متصلب الرأي قوي الشكيمة ولذلك لم يتوافر بينهما الانسجام الشخصي ، ومنها ان عزيز طالب بان يحصل على « قيادة عسكرية مستقلة ».وقد كتب الكولونيل ولسون الى الشريف يقترح عليه منح عزيز صلاحيات لانشاء قوة نظامية وان يخصص له موازنة خاصة (١٥ الف جنيه شهريا) ينفق منها على انشاء تلك القوة ، ولكن الشريف لم يوافق على ذلك لانه كان يخشى ان يتكرر معه ما حدث مع السلطان عبد الحميد من انقلاب العسكريين عليه . وقد طلب عزيز من الانكليز ان يخصصوا له مبلغا من المال والاسلحة والتجهيزات وان يمنحوه صلاحية الاتصال مباشرة بهم وليس عن طريق الشريف ، من اجل ان يتسنى له انشاء القوة النظامية اللازمة ، ولكن الانكليز لم يوافقوا على ذلك [1].وفي ١٢ كانون الاول ١٩١٦ عينه الشريف حسين وزيرا للحربية ولكن ذلك التعيين لم يغير من واقع الامر . وزاد الموقف سوءا ان ضابطا ابلغ الامير علي ان عزيز علي يبحث مسائل سياسية مع الضباط ويتحدث معهم في مشروعه القديم القائل بانشاء دولة ثنائية من الاتراك والعرب تحت سيادة السلطان على منوال دولة النمسا — المجر . وبلغت الخشية من نفس الامير علي انه أمر بارتداد قواته التي كانت تهاجم المدينة بقيادة عزيز خوفاً من اتصال عزيز بفخري باشا ، ومن هنا توترت العلاقات بين الامير وعزيز . يدل على هذا ما جاء في رسالة من ولسون الى الشريف بان جعفر العسكري يضع كل اهتمامه بعمله « ولا يتداخل في الامور السياسية كما فعل عزيز » [2] . وفي آذار ١٩١٧ ذهب عزيز علي الى مصر في اجازة ولم يعد بعدها الى الحجاز . وقد تولى عزيز علي تدريب وتنظيم قوة من الجنود النظاميين يناهز عددها ١٥٠٠ رجل . [3]

---

(١) أنظر برقيات الكولونيل ولسون إلى ونجت في P.R.O., F.O. 882/6, 686/33, 34

(٢) أوراق الأمير زيد والرسالة بتاريخ ٢١ تموز ١٩١٧ .

(٣) راجع بشأن عزيز علي والثورة العربية : علي جودت ، ذكريات ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ص ص ٤١–٤٤ . ومذكرات ابراهيم الراوي، ص١٠٢ وتقرير من=

وقد يعود السبب الحقيقي في انفصال عزيز الى مسألة سياسية لم يكشف النقاب عنها حتى الان وتتعلق باتفاقية سايكس – بيكو . ذلك ان الكولونيل نيوكمب تطرق في حديث دار بينه وبين عزيز علي في اوائل آذار ١٩١٧ الى اتفاق بريطانيا مع فرنسا بشأن سورية واعتزام سايكس وبيكو المجيء الى مصر لتنسيق الاتفاق . وقد بادر عزيز علي لابلاغ الشريف حسين بما سمعه من نيوكمب . ولم يهمل الشريف الموضوع فكتب الى ولسون رسالة بتاريخ ١٦ آذار ١٩١٧ أشار فيها الى عزيز وقال « ارجو ان تكونوا قد علمتم بما دار بينه وبين الكولونيل نيوكمب من حديث . اما اذا لم يبلغكم شيء فارجو ان تحققوا وتعلموني حتى احصل على الحقائق الصحيحة بوضوح . » وأجاب ولسون في اليوم التالي على رسالة الشريف بقوله ان الكولونيل نيوكمب انبأه عن اجتماعه مع عزيز علي وانهما بحثا في الوضع العسكري وان عزيز حاول ان يتحدث في السياسة معه « ولكنني لا اذكر التفاصيل . وقد اعطيت تعليمات للكولونيل نيوكمب ان عليه عند وقوفه في رابغ ان يقول لعزيز ان عنده من الواجبات العسكرية ما يكفي وان عليه ان لا يشغل نفسه بالسياسة . وان جميع المسائل السياسية على اية حال خاصة بسموك والحكومة البريطانية . وقد قلت للكولونيل نيوكمب ايضا ان يبلغ عزيز ان سموك حليف بريطانيا العظمى التي سوف تعاضدك في المستقبل كما عاضدتك في الماضي بكل وسيلة،وان بريطانيا العظمى وحلفاءها مصممون ان لا يعقدوا الصلح الا بعد ان تهزم المانيا تماما » . وفي ١٧ اذار ابرق ولسون الى كلايتون يحيطه علما برسالة الشريف وبجوابه هو ويقول « هذا بالضبط ما كنت اخشاه . . . . انه لموقف دقيق تحتاج لمعالجته الى الحذر » . ثم يقدم ولسون توصيته الشخصية بان يجري اطلاع الشريف على الهدف الحقيقي لبعثة سايكس بيكو.(١) وكان من ثقة الشريف بصدق اقوال

– السفير البريطاني في مدريد بتاريخ ١٤ كانون الثاني ١٩١٨ الى وزارة الخارجية البريطانية عن حديث له مع عزيز علي المصري – (F.O. 371/3396) .

(١) P.R.O., F.O. 882/16.

الانكليز انه وافق على ما قاله له ولسون وقال انه لا يصدق ما بلغه من عزيز . وليس من المستبعد ان يكون لسفر عزيز علي الى مصر بعد هذه الحادثة وعدم رجوعه الى الحجاز ، علاقة وطيدة برغبة الانكليز في كتمان امر اتفاقية سايكس – بيكو التي تسرع نيوكمب وحدث عزيز علي عنها .

وفي اوائل تشرين الثاني ١٩١٦ بينما كان الخطر على أشدّه بالنسبة لاحتمال زحف فخري باشا الى رابغ ، قام الامير عبدالله على رأس قوة تقدر بأربعة الاف مقاتل بالزحف من مكة الى المدينة على الطريق الشرقي. وقد قام الامير بحركة التفاف الى الشرق من المدينة واصطدم بقوة اشرف بك التركية واسر رجالها وغنم ما معها من مال وسلاح . ثم هاجم مواقع الترك شرقي المدينة وبث الذعر والفوضى في المسالك المؤدية اليها وأجرى تخريبات في خط سكة الحديد . وهذا كله بعث الارتباك في نفس فخري باشا وادرك انه اصبح واقعا بين ثلاثة جيوش عربية ، فاضطر الى التراجع من التلال المؤدية الى رابغ وينبع لتقصير خطوط مواصلاته وتضييق دائرة عملياته . وهذا كله ادى الى انفراج الموقف الحربي بالنسبة للعرب وازال خطر قيام فخري بالزحف على مكة.وفي شهر كانون الثاني وصل عبدالله الى وادي العيص الى الشمال الغربي من المدينة واتخذه قاعدة للعمليات ضد خط سكة الحديد .

وهكذا نرى الموقف الحربي في الحجاز في اول سنة ١٩١٧ قد تحول الى وجود الاتراك ضمن دائرة حصار واسعة تتركز حول المدينة وخط سكة الحديد ، بينما كانت القوات العربية تتألف من ثلاثة جيوش(١) الجنوبي بقيادة علي ومركزه رابغ و (٢) الشرقي بقيادة عبدالله في وادي العيص و (٣) الشمالي بقيادة فيصل ومركزه ينبع . وكان مجموع تلك القوات يراوح بين٢٥ و ٣٠ الف مقاتل بينهم أقل من الفي نظامي والباقون من البدو .

وعمل الانكليز على تنسيق مساعداتهم للعرب ، وقد طلب القائد البريطاني العام في مصر ان يتولى مسؤولية المساعدات العسكرية للثورة ،

ولكن وزارة الحربية اعتذرت محتجة بكثرة الجهات المهتمة بالثورة ومن جملتها روسيا وفرنسا وبان اعتبارات سياسية عديدة تتداخل في الاعتبارات العسكرية . لذلك ظلت المسؤولية السياسية والعسكرية في يد المندوب السامي مكماهون حتى ٢٠ تشرين الاول ١٩١٦ عندما نقلت المسؤولية من مكماهون الى ونجت حاكم السودان العام وقائد الجيش المصري . ولم يلبث ونجت ان حل في اول كانون الثاني ١٩١٧ محل مكماهون في وظيفة المندوب السامي في مصر ، وظل يتولى مسؤولياته السياسية والعسكرية بالنسبة للحجاز حتى نهاية الحرب .

وارسل الانكليز عددا من الضباط العسكريين ليساعدوا الكولونيل ولسون في تقديم المشورة للثورة ، ومن بين هؤلاء الكابتن جارلند الذي كان اول من نسف قطارا على خط السكة ، وقد قام بتدريب عدد من الجنود العرب على عمليات النسف واستعمال المتفجرات ، والكولونيل نيوكمب ، والميجر جويس، والكولونيل دافنبورت والميجر هورنبي .

ولكن لورنس الذي وصل الى الحجاز في شهر تشرين الاول ١٩١٦ (برتبة كابتن وبلغ رتبة كولونيل خلال سنة ونصف السنة) هو الذي فاز بالشهرة العريضة دون زملائه ورؤسائه ممن ساهموا في عمليات الثورة العربية او كانت لهم علاقة بها . وكان لورانس واحدا من ضباط الاستخبارات الذين كانوا يعملون في مصر لالمامه باللغةالعربية ومعرفته السابقة ببلاد العرب ، وكان من جملة العاملين في المكتب العربي . ومع ان لورنس لم يكن ضابطا محترفا فانه جاء برفقة رونالد ستورس الى جدة واجتمع بالامير عبدالله ثم مضى الى رابغ وينبع واجتمع بالاميرين علي وفيصل وتعرف على الوضع السائد في الحجاز من الناحية العسكرية ، وعاد يقدم التقارير الى المسؤولين في السودان ومصر بان الحاجة لا تدعو الى نزول قوات بريطانية في الحجاز وان العرب يستطيعون الوقوف في وجه الاتراك اذا تم تزويدهم بالمدفعية والاسلحة واجهزة لاسلكي الميدان واذا حصلوا على خبرة عدد من الضباط الفنيين . ونتيجة لتلك التقارير

صدر الامر بعودة لورنس الى جيش فيصل كضابط ارتباط.[1]

وبعد ان تمركز جيش الامير عبدالله في وادي العيص واصبح يهدد جناح فخري باشا الايمن ومؤخرته تهديدا مباشرا ؛ وبعد الهجمات المعاكسة التي ظل جيشا الاميرين علي وفيصل يشنانها ضد قواته المتقدمة وعلى خطوط مواصلاته – قرّر فيصل ان يغادر ينبع ويتجه الى الشمال للاستيلاء على الوجه . وكان التفكير باحتلال الوجه يعود الى بضعة أشهر خلت . ففي ١٨ آب ١٩١٦ أكّد الكولونيل ولسون على الشريف ضرورة الاستيلاء على الوجه وجميع الثغور الساحلية؛ وقال انه يستطيع تأمين سفينة تنقل ١٠٠٠ مقاتل عربي الى الثغور . واجاب الشريف يومذاك انه سيرسل برقية الى فيصل كي يرتب الموضوع [2] ولكن فيصل بقي منهمكا في الدفاع عن ينبع حتى انفرجت الازمة في اوائل كانون الثاني ١٩١٧ .

كانت الغاية الرئيسية من احتلال الوجه هي الحصول على قاعدة تموين على الساحل الشمالي من اجل ان يتمكن العرب من مهاجمة خط السكة في الداخل . ومن المعلوم ان الانكليز كانوا يزودون القوات العربية بالمؤن ، وكانت جدة ورابغ مراكز التموين الرئيسية في الحجاز . وهكذا زحف فيصل بقواته شمالا وحملت السفن الحربية البريطانية ٥٠٠ بدوي لم تلبث ان انزلتهم مع مفرزة من جنود البحرية الانكليز غير بعيد عن الوجه ؛ وبعد ان قصفت السفن مواقع الاتراك بنار مدافعها تقدم العرب لاحتلال البلدة ولم تلبث حاميتها ان استسلمت بعد معركة قصيرة يوم ٢٤ كانون الثاني ١٩١٧ .

بعد احتلال الوجه اتخذ فيصل موقع (جيدا) مركزا لقواته في منتصف المسافة بين الشاطيء وخط سكة الحديد ؛ وأخذ هو والامير عبدالله يشنان الهجمات على خط السكة بمساعدة الضباط الفنيين من

---

(١) عالج المؤلف دور لورنس مع العرب في كتابه « لورنس العرب – وجهة نظر عربية » ، الطبعة العربية ، عمان ١٩٦٢ ؛ والترجمة الانكليزية ، لندن ١٩٦٦ .

P.R.O., F.O. 686/33. (١)

الانكليز . ومن أهم العمليات العسكرية مهاجمة قوات عبدالله محطة ابو النعم في آذار ١٩١٧، وهجوم قوات فيصل على قلعة المعظم ومحطة دار الحمراء في اذار ومحطة زمرّد في تموز . وفي الوقت ذاته بقي جيش الامير علي ومعه اخوه الاصغر زيد . الى الجنوب الغربي من المدينة لمحاصرة المدينة وشن الهجمات بين فترة واخرى .

ان استراتيجية العرب الجديدة اقنعت الاتراك بانه لن يكون في مقدورهم الزحف على مكة ولكنهم قرروا الاحتفاظ بالمدينة المنورة — رغم معارضة الالمان — محافظة على هيبتهم في انظار المسلمين . وقد كلفهم ذلك ابقاء ٢٥ الف جندي في ميدان جانبي منهم ١٤ الف في المدينة باسم « قوة حملة الحجاز » تحت قيادة فخري باشا : وقوة مختلطة (الثانية) وقوامها ٥ الاف جندي بقيادة بصري باشا وقوة مختلطة اخرى (الثالثة) وقوامها ٦ الاف جندي بقيادة جمال باشا الثالث ومركزها معان . وقد اوكلت لكل قوة منها حماية جزء معين من الخط الممتد بين المدينة ومعان . (طول الخط من المدينة الى دمشق ٨٠٠ ميل).

بعد سقوط الوجه استولى العرب على ثغري ضبا والمويلح الى الشمال منها فاصبح شاطيء الحجاز كله خاليا من القواعد التركية . وفي هذه الفترة بالذات قدر الكولونيل ولسون ان الثورة عطلت عن العمل ثلاث فرق تركية على الاقل في مرحلة حرجة واضطرت الاتراك ان يرسلوا تعزيزات الى الحجاز كما اوقفت حملة ستوتزنجن « فقضت على خطر في منتهى الجدية . كان يحتمل ان تكون له نتائج ذات تأثير مدمّر بعيد المدى بالنسبة لنا كامبراطورية » . [(١)]

العقبة وعمليات الجيش الشمالي: وكانت العقبة هي الهدف التالي بالنسبة لمخطط العرب. ذلك ان الشريف كان يعتبر العمليات العسكرية في الحجاز مقدمة اولية لتحرير سورية . فبعد بدء الثورة بنحو ثلاثة اسابيع قال الفاروقي بعد اجتماعه بالشريف ان مـا يريده الشريف

---

(١) تقرير ولسون إلى مدير المكتب العربي بتاريخ ٢٨ آذار ١٩١٧ — P.R.O., F.O. 686/34

يتألف من شقين : سياسياً ان يعترف به الحلفاء ، وعسكرياً ان يجمع اكبر عدد ممكن من الضباط والجنود العرب من معسكرات الاسر بقصد تأليف جيش نظامي والزحف على سورية بأسرع ما يمكن[١]. وفي رسالته الى مكماهون بتاريخ ٢٥ آب ١٩١٦ وجه الشريف الملامة للبريطانيين لكونهم أخفقوا في قطع خط السكة من الشمال مما أتاح للترك ان يجلبوا الامدادات « بينما كنا نخطط ان يكون القتال الان في نواحي دمشق .» [٢] .

واجاب مكماهون على برقيات ورسائل عديدة من الشريف حول اهتمامه بالتقدم شمالا برسالة مؤرخة في ١٦ ايلول ١٩١٦ قال فيها « وكما تعلمون سموكم فان الاسطول قام بكشف على الوجه والمويلح ونحن ننتظر التقارير كي ننظر في موضوع الاجراءات العاجلة بشأن النزول في العقبة.» [٣] وفي ١ آذار ١٩١٧ كتب الميجر فيكري الى مدير المكتب العربي يقول ان فيصل مهتم اشد الاهتمام بالاستيلاء على العقبة بقواته لما سيكون لذلك من تأثير طيب على السوريين، وان الحويطات طلبوا ذلك منه، وان فيصل يطلب ان تساعده السفن البريطانية بنقل رجاله بحرا . واجاب كلايتون في ٨ اذار قائلا ان تقدم فيصل الى العقبة غير مرغوب فيه حاليا خشية ان يتحول اهتمامه عن قطع خط السكة الذي هو الهدف المهم فضلا عن أن السفن غير جاهزة ولذلك لا يمكن القيام بالعملية في الوقت الحاضر [٤] . ومنذ وصول فيصل الى الوجه اخذ يكاتب قبائل الشمال وعلى الاخص الرولة والحويطات يحضهم على القيام في وجه الاتراك وقطع خط السكة بين دمشق ودرعا وعمان .

وفي ٥ نيسان ١٩١٧ استقبل فيصل في الوجه عددا من شيوخ قبائل

---

(١) برقية بتاريخ ٣ تموز ١٩١٦ من المكتب العربي في القاهرة إلى كلايتون في لندن — P.R.O., F.O. 882/4

(٢) P.R.O., F.O. 882/19.

(٣) P.R.O., F.O. 686/6, part I.

(٤) P.R.O., F.O. 882/19.

الشمال (الرولة وعنزة والحويطات وبني صخر) [1] وكان بين اولئك الشيوخ رجل قدّر له ان يلعب دورا خطيرا في دفع عمليات الثورة نحو منطقة شرقي الاردن ؛ ذلك هو الشيخ عودة ابو تايه زعيم حويطات التوايهة (الذين يقيمون عادة حوالي معان) واشهر فرسان البدو في تلك الفترة . وقد اقام عودة اكثر من شهر في معسكر فيصل يستعد للقيام بحركات حربية ضد الاتراك في منطقة معان [2] . وكان الاستعداد يعني الحصول على مال وسلاح للانفاق على الحملة وتسليحها [3] . وقد اختار فيصل الشريف ناصر لقيادة الحملة وممثلا له لدى قبائل الشمال ، فقد كان الاشراف يتمتعون باعتبار واحترام جميع القبائل وكانوا على العموم فوق الحزازات والمنافسات القبلية . ورافق الحملة ايضا إثنان من السوريين المعروفين اولهما نسيب البكري وهو مدني من عائلة مرموقة وعضو جمعية الفتاة والثاني القائد زكي الدروبي لكي يتصلا بالمدنيين والعسكريين العرب في سورية . ورافق الحملة ايضا الكابتن لورنس باعتباره خبيرا في زرع المتفجرات . وفي ٩ ايار غادر هؤلاء الرجال ثغر الوجه ومعهم ٣٥ من متطوعي البدو شبه النظاميين وكمية من البنادق والمتفجرات و٢٠

---

(١) برقية كلايتون إلى مدير الاستخبارات العسكرية في وزارة الحربية بتاريخ ١٥ نيسان ١٩١٧ في F.O. 882/6 (لنلاحظ هنا ان لورنس عـاد من وادي العيص إلى الوجه في ١٤ نيسان) .

(٢) بدأ اتصال عودة بفيصل منذ احتلال الوجه . وقد جاء في يوميات لورنس بتاريخ ١٤ شباط ١٩١٧ ان « عودة طلب السماح له بالهجوم على معان ، وسيوافق فيصل على الطلب لأنه يعتبر العمل ضد معان مفيداً من ناحية معنوية . انه لا يعتقد ان عوده يستطيع ان يفعل الكثير هناك » . P.R.O., F.O. 882/25

(٣) جاء في مذكرة كتبها الكولونيل ولسون بتاريخ ١ ايار ١٩١٧ حول خطة العمليات العسكرية المقبلة للجيوش العربية ما يلي : « في خلال عشرة أيام (اذا وصلت البنادق) سوف يتجه الشيخ عوده أبو تايه من حويطات الشرق إلى بلاده شرقي معان ، ومن المحتمل أن يرافقه الكابتن لورنس. انه سيبدأ حال وصوله أعمال التخريب ضد خط السكة إلى الجنوب والشمال من معان حسب الامكان . وسيكون هدفه الأول الاستيلاء على معان وما يتبع ذلك من الاستيلاء على المواقع من هناك حتى العقبة . وهو أيضا سيرسل أنباء عما يجري القيام به إلى الدروز والقبائل الاخرى إلى الشمال... ». P.R.O., F.O. 882/6

الف ليرة ذهبا . وسارت الحملة تقطع الصحراء شرقا ثم انحرفت الى الشمال بعد ان عبرت سكة الحديد حتى بلغت وادي السرحان بعد عشرين يوما . واتصل ناصر وعودة بقبائل تلك الانحاء وتمكنا خلال اسبوعين [1] من تجنيد أكثر من ٥٠٠ متطوع أكثرهم من الرولة والحويطات ثم زحفا بهم غربا . وقد اغارت مجموعة من هذه القوة على خط السكة شمالي الزرقاء وفجر لورنس لغما تحت عبّارة ؛ وذلك لتضليل الاتراك. ثم قامت القوة كلها بالزحف مرورا بآبار باير والجفر وعبرت سكة الحديد الى الجنوب من معان. ولم تجد القوة ان في مقدورها مهاجمة معان نفسها ولكنها اشتبكت يوم ٢ تموز في معركة عنيفة مع كتيبة تركية في موقع (ابو اللسن) غربي معان . ولاول مرة في تاريخ الثورة قام البدو بمهاجمة مواقع قوة نظامية جيدة التسليح هجوما مباشرا في وضح النهار وسرعان ما اسفرت المعركة عن مقتل ٣٠٠ من الترك ووقوع ١٦٠ اسيرا في ايدي العرب ولم يتمكن من النجاة الاعدد قليل من افراد الكتيبة. ولا شك ان الفضل في كسب هذه المعركة يعود الى بسالة عودة .

وبادر العرب للسير مباشرة بعد انتهاء المعركة باتجاه الغرب . وخلال الايام الثلاثة التالية استولوا على ثلاثة مواقع تركية واسروا جنود حامياتها. وفي يوم ٦ تموز كان ثغر العقبة في ايديهم بالاضافة الى ٧٨٠ اسيرا بينهم ٣٥ ضابطا ؛ ولم يكن قتلى العدو يقلون عن ٦٠٠ رجل .

ارسل ناصر ينبيء فيصل بالنصر الذي احرزه بينما قطع لورنس مع ثمانية من البدو صحراء سيناء حتى بلغوا ميناء السويس . وطلب

---

(١) ادعى لورنس انه خلال هذين الاسبوعين قام وحده برحلة إلى داخلية سورية مرورا بتدمر وبعلبك ودمشق وجبل اللجاة وجبل الدروز والأزرق . ولكن المؤلف يعتقد -نتيجة تحريات واسعة – ان لورنس لم يقم بتلك الرحلة اطلاقا ، كما ان تقريره الذي ضمنه ذلك الادعاء يتضمن أخطاء وتناقضات كثيرة.وبين أوراق محب الدين الخطيب الرسالة التي بعث بها الشريف ناصر إلى فيصل يوم فتح العقبة،وهي تقرير واف عن عمليات الحملة منذ مغادرتها الوجه حتى دخول العقبة وكذلك الاتصالات التي أجراها مع قبائل البدو والدروز وغيرهم . والرسالة لا تذكر لورنس الا مرة واحدة في صدد القول انه ذهب مع سرية زعل بن مطلق إلى جهة الزرقاء .

لورنس تزويد حامية العقبة العربية بالمؤن والنقود في الحال ثم اجتمع بكلايتون واستدعاه الجنرال اللنبي لمقابلته . وقد كان استيلاء العرب على العقبة نقطة تحول خطيرة في حياة لورنس؛ اذ انه قدم تقريرا فهم منه المسؤولون البريطانيون في مصر انه هو الذي خطط لهذا الانتصار وهو الذي قاد العرب ودفعهم الى تحقيق هذا الانجاز الكبير . وكان اللنبي قد وصل الى مصر قبل مدة قصيرة ليتولى قيادة الحملة البريطانية التي كان يطلق عليها اسم «قوة الحملة المصرية» محل الجنرال موراي بعد ان اخفق هذا في هجومه على غزة في شهر اذار . وقد اعتبر اللنبي سقوط العقبة في ايدي العرب حلفاء بريطانيا فألا حسنا ، وتبادر الى ذهنه ان انتشار الثورة العربية في سورية الشرقية : سيكون عاملا عظيم النفع للزحف البريطاني نحو سورية من الجنوب . وكان لورنس قد استعد لمثل هذه الفرصة النادرة فطلب تخصيص مئتي الف جنيه ذهبا ميزانية مستقلة توضع تحت تصرفه هو لينفق منها من اجل توسيع نطاق الثورة . وبعد قليل قال اللنبي يعد لورنس «حسناً ، سوف افعل من اجلك ما استطيع.»[1] ثم مضى لورنس الى كلايتون وقال له «ان الاستيلاء على العقبة تم طبقا لخطتي وبجهدي ومسعاي» . وطلب ان يكون الضابط البريطاني المسؤول في العقبة ، ولكن كلايتون رفض ذلك وعين الميجر جويس مسؤولا عن البعثة العسكرية البريطانية في جيش فيصل .

وقرر المسؤولون البريطانيون في مصر ان يجعلوا عمليات العرب في العقبة وجهات معان ضمن مسؤولية جيش الجنرال اللنبي لتنسيق الخطط العسكرية في الميدان السوري . وقرر اولئك المسؤولون الاتصال بالملك حسين للحصول على موافقته من اجل نقل جيش فيصل الى العقبة واخراج ذلك الجيش من نطاق عمليات الحجاز التي يشرف عليها الملك الى نطاق ميدان الجنرال اللنبي . وأسندت المهمة الى لورنس النجم الصاعد في مصلحة الاستخبارات . وحمل لورنس رسالة من ونجت الى الملك وسافر الى (جيدا) فأخذ رسالة اخرى من فيصل يوصي فيها بالانتقال الى العقبة .

---

(1) T.E. Lawrence, *Seven Pillars of Wisdom*, p. 322.

وواصل لورنس رحلته الى جدة وهناك بعث ولسون رسالة بتاريخ ٢٢ تموز الى الملك في مكة يرجو منه ملاقاتهما في منتصف الطريق بين مكة وجدة (لتعذر وصول المسيحيين الى مكة المكرمة)للبحث في الخطط المقبلة . وجاء الملك الى جدة بعد يومين ، ووافق على ما عرضه ولسون ولورنس عليه من مقترحات معلنا ثقته ببريطانيا واطمئنانه لنياتها الطيبة نحو العرب . (وقد اجرى لورنس مع الشريف مباحثات سياسية سيأتي الحديث عنها فيما بعد).

وأخذت قطعات الجيش الشمالي تنتقل برا وبحرا الى العقبة ابتداء من اوائل آب وهي تشمل حوالي ١٥٠٠ نظامي بقيادة جعفر العسكري[١] وتضم مفرزة فرنسية. وفي ٢٣ آب وصل فيصل الى العقبة وانتشرت القوات العربية في التلال الواقعة بين معان والعقبة . وكان عودة ابو تايه قد تولى مسؤولية صد الهجمات التي قام بها الاتراك حتى وصول قوات الجيش الشمالي .

فوجيء الاتراك بسقوط العقبة في ايدي العرب ، فصمموا ان يبذلوا كل ما في وسعهم لاستعادتها ولعلمهم ان عودة ابو تايه هو الذي كان على رأس العملية وهو الذي ادارها ، فقد ارسلوا اليه الرسل يغرونه بالانتقاض على الشريف والانضمام الى صفهم ويعدونه بالاموال الطائلة وبمركز مرموق . ولكن عودة رفض ان ينقض عهده مع الشريف [٢]

---

(١) جعفر العسكري (١٨٨٤ – ١٩٣٦) عراقي تخرج من المدرسة الحربية في استانبول ثم اوفد في بعثة تدريبية إلى المانيا . وفي سنة ١٩١٥ قاد قوات السنوسي في برقة في عدة معارك ضد القوات الانكليزية حتى وقع في الاسر . وحاول الفرار فسقط وكسرت رجله . وعندما بلغته أنباء الثورة العربية تطوع في حزيران ١٩١٧ للخدمة فيها وعينه فيصل قائدا لقواته النظامية . أثناء العهد الفيصلي عين حاكما لعمان ثم واليا على حلب . وفي العراق عين وزيرا للدفاع ثم رئيسا للوزراء ثم سفيرا للعراق في لندن. اغتيل غدرا في أول انقلاب عسكري في العراق سنة ١٩٣٦ . كان جعفر يجيد عدة لغات وقد درس الحقوق في لندن وحصل على اجازة المحاماة .

(٢) نتج عن هذه المراسلة سوء تفاهم طريف . فقد كان للانكليز في قيادة الترك في معان عميل سري يزودهم بالمعلومات عن خطط الاتراك وهو الذي أبلغ قيادتهم في مصر بأن عودة يراسل الاتراك بشأن الانضمام إلى صفوفهم وتسليم العقبة،فأرسل كلايتون=

واسرع الاتراك الى حشد قواتهم في معان وجلبوا بضع طائرات ، ثم زحفوا باتجاه العقبة في منتصف آب ولكن عودة ابو تايه ورجال القبائل صدوهم ولم يمكنوهم من التقدم . وبعد وصول قوات فيصل الى العقبة ارسل مفارز منها الى وادي موسى (البتراء)والى غرندل والى التلال المشرفة على العقبة . وفي ايلول جاء الانكليز بعدد من الطائرات التي اخذت تغير على معان رداً على طائرات الترك التي كانت تغير على العقبة.

وانتقل الى العقبةالميجر جويس وأنشأ فيهاقاعدة للتموين والامدادات. وكانت سفينة حربية بريطانية قد رابطت في مينائها لحمايتها فيما اذا نجح الاتراك في هجومهم المعاكس وتمكنوا من اجتياز التلال المشرفة عليها من الشرق . اما لورنس فقد قام خلال شهري ايلول وتشرين الاول بعمليتين ناجحتين ضد الخط الحديدي . الاولى الى الجنوب من محطة المدورة وقد نسف فيها قاطرتين وعبارة يوم ١٩ ايلول وقتل البدو وأسروا وجرحوا من الاتراك حوالي ١٧٠ رجلا . والثانية على الكيلومتر ٥٠٠ جنوبي معان وقد نسف فيها قاطرة يوم ٦ تشرين الاول . وقام البدو من قبيلة بني عطية بهجوم قوي على خط السكة حول تبوك فاحتلوا مسافة من الخط مدة اربعة ايام (١٨ — ٢١ تشرين الاول)ونزعوا كمية من القضبان وألحقوا بالعدو خسارة ٢٥٠ رجلاً بين قتيل وأسير .

ودارت عدة معارك بين الاتراك والجيش الشمالي في خريف ١٩١٧، ففي ايلول شنت كتيبة تركية هجوما على مواقع العرب في دلاغة ولكنها اضطرت للتراجع بعد معركة عنيفة. وفي اواخر الشهر ذاته استولى العرب على الشوبك ونزعوا جانبا من خط السكة الفرعي (الذي كان الاتراك ينقلون عليه خشب الاشجار التي يقطعونها من غابة الشوبك ليستعملوه وقودا للقطارات)، ولكن الاتراك قاموا بهجوم معاكس فردوهم الى وادي موسى . وفي ٢١ تشرين الاول قاد جمال باشا الثالث حملة قوية

— برقيتين إلى لورنس في جده ينبئه بالأمر ، فعاد لورنس إلى العقبة ليتحقق مما حدث . والوثائق البريطانية لا تعطي اسم ذلك العميل ولكنها ترمز اليه بحرف (ي) فقط — P.R.O., F.O. 882/7

على العرب في وادي موسى تعززها الطائرات والمدفعية الثقيلة، وبعد معركة حامية استمرت يوما كاملاً اضطر الاتراك للانسحاب بعد ان خسروا ٤٠٠ رجل بين قتيل واسير وجريح . وكانت القوة العربية المدافعة اصغر بكثير من قوة جمال باشا .

وفي ٢ تشرين الثاني وصل الامير زيد الى العقبة على رأس ١٥٠٠ نظامي وظل الى جانب اخيه فيصل في ميدان شرقي الاردن حتى انتهاء الحرب .

وعلى الرغم من شدة البرد في فصل الشتاء لتلك السنة [١] الا ان العمليات الحربية استمرت على أشدّها . ففي اواخر تشرين الثاني اشتبك العرب والاتراك في معركة حامية قرب القويرة انتهت بارتداد الترك الى الوراء . واستأنف العرب القتال فاجلوا الاتراك عن وهيدة وتمكنوا من الاحتفاظ بها على الرغم من الهجمات المعاكسة .

وكان الجيش البريطاني بقيادة الجنرال اللنبي قد احرز انتصارا حاسما على الاتراك في جنوبي فلسطين اذ تمكن من الاستيلاء على غزة وبير السبع ويافا في شهر تشرين الثاني وأخذ يستعد للتقدم نحو القدس . وقد ادركت القيادة التركية العليا خطورة الوضع في الجبهة العربية حتى ان قائد معان اثناء الشهر ذاته «شبه موقف العرب تشبيها مطابقا للواقع بانه اكال (غنغرينا)بدأ في الاصبع (المدينة)فاذا لم يقطع فسوف ينتشر في اليد (معان)وبالنهاية يصل الى الذراع (سورية) »[٢] . ولكن فخري باشا عارض بشدة الاقتراح بالانسحاب من المدينة وقال ان ذلك سيعني نهاية الدولة العثمانية.والواقع ان الاتراك لم يكن بمقدورهم سحب قواتهم من المدينة لو ارادوا ذلك بسبب قلة القطارات وندرة الوقود وقطع العرب للخط .

---

(١) جاء في (النشرة العربية) ان عشرة من أفراد الجيش الشمالي ماتوا من البرد في يوم واحد . وقد استقال أحد كبار الضباط العرب من منصبه احتجاجا على عدم توافر المهمات والمعدات اللازمة لجنوده .

(٢) P.R.O., F.O. 371/3393, p. 4.

ومن الدلائل على ان العرب كانوا يحملون قسطا طيبا من عبء القتال في الحرب ضد تركيا ، ما جاء في مذكرة بعث بها ونجت الى وزارة الخارجية بتاريخ ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ من ان القوات التركية التي يحتجزها العرب بين معان والمدينة تزيد على ٢٠ الف رجل يملكون ٩٠ مدفعا رشاشا وحوالي ١٠٠ مدفع (عدا حاميات عسير واليمن). وهذه القوات ليست معطلة عن القيام بعمليات حربية فحسب ، بل انها في حالة بالغة السوء .. » [١]

وقال كلايتون في رسالة منه الى جويس بتاريخ ٣٠ تشرين الاول «ان سير العمليات الحربية حول معان حتّى الان ، هو بالضبط ما كان مطلوبا أكثر من أي شيء آخر ، وقد ادّى الى اقصى التأثير . لقد سارت العمليات افضل مما كان متوقعا لها ، والقائد العام مغتبط تماما بالنتيجة التي تمّ الوصول اليها حتّى الان اي خلق ذعر واسع واحتجاز عدد كبير من الرجال .. »وقال ايضا في مذكرة بتاريخ ١٣ تشرين الثاني ان القوات التي تواجه العرب تزيد على ٢٣ الفاً ، وقد كبدت الثورة العربية العدو بين قتلى وأسرى وجرحى ومرضى ما يساوي فرقة كاملة . وان الاحتفاظ بهذه القوات وارسال التعزيزات والمؤن لها يوميا يشكّل مساعدة مباشرة للحملة الفلسطينية . [٢]

وقد استعان الانكليز بنفوذ الملك حسين في الميدان السياسي ايضا . فكتب ونجت اليه يقول «لا حاجة بي للقول انه سيكون من اعظم العوامل المساعدة اذا انت عقدت علاقات معهم (عرب سيناء وفلسطين الجنوبية) واذا شرحت لهم حاجاتنا ومقاصدنا واعطيتهم التعليمات كي يقدموا لنا كل ما في وسعهم من عون . [٣]

وعندما استولى الانكليز على غزة وبير السبع طلبوا من الامير فيصل ان يرسل احد الاشراف لبث الدعاية لهم بين عرب فلسطين ، فبعث

---

(١) P.R.O., F.O. 882/7.

(٢) P.R.O., F.O. 882/7.

(٣) رسالة ونجت بتاريخ ٢٤ كانون الثاني ١٩١٧ في P.R.O., F.O. 882/19

اليهم الشريف عبدالله بن حمزة . وكتب كلايتون في ١٧ تشرين الاول الى فيصل يقول «ان الشريف يتحرك الان باتجاه العوجا لكي يتصل من هناك بشيوخ القبائل البدوية في تلك الناحية بقصد القيام بالمهمة التي خصصت له الا وهي تأمين تعاون البدو ضد عدونا المشترك . انني واثق من ان الشريف عبدالله بن حمزة ، مستعينا بما يحمله اسمكم من وزن ، سوف ينجح في شرح الموقف الحقيقي لهؤلاء الناس ويظهر لهم الطريق السوي الذي يجب ان يسلكوه . »[١]

وقد قام الشريف عبدالله بالدعاية اللازمة وهي ان الانكليز والعرب حلفاء وان مصلحة الامتين واحدة ، وان هدف العرب من تحالفهم مع الانكليز هو انشاء دولة عربية متحدة ومستقلة تشمل فلسطين بلادهم بطبيعة الحال . والقت الطائرات البريطانية على الاهلين في مدن فلسطين منشور الشريف حسين الثاني (المؤرخ في ٢٠ ايلول ١٩١٦)ومنشورا آخر وجهه الشريف الى «جميع العرب »عامة والى العرب العاملين في الجيوش العثمانية قال فيه :

« سمعنا بمزيد الأسف أنكم تحاربوننا نحن الذين نجاهد في سبيل المحافظة على أحكام الدين الأسلامي الشريف من التغيير والتحريف ، ولتحرير العرب قاطبة من حكم الأتراك . ونحن نعتقد أن الحقيقة الخالصة لم تصل اليكم ، لذلك أرسلنا لكم هذا الاشعار ممهورا بمهرنا لتؤكدلكم أننا نحارب لأجل غايتين شريفتين هما حفظ الدين وحرية العرب عامة .... هلموا للانضمام الينا ، نحن الذين نجاهد لاجل الدين وحرية العرب حتى تصبح المملكة العربية كما كانت في عهد أسلافكم .

وهذا المنشور الذي كان موقعا باسم «حسين بن علي، شريف مكة المكرمة واميرها وملك البلاد العربية» ألقي على عرب فلسطين مع مقدمة من «الجيش الانكليزي في فلسطين » وجه فيها الخطاب الى الضباط والجنود العرب في الجيش التركي في فلسطين طلب اليهم فيها ان يفروا من الجيش العثماني وينضموا الى الجيش البريطاني ، «وستجدون معنا

---

(١) P.R.O., F.O. 686/36.

مندوبين من قبل شريف مكة وملك الحجاز الحالي فيستقبلونكم وتساعدونهم أنتم في تحرير العرب .[1] »

وتبدو المعاني الكامنة وراء هذا المنشور في رسالة خاصة بعث بها الجنرال اللنبي وقال فيها :

« اننا نستفيد من صور شريف مكة والمنشور الذي وضعه ، كوسيلة من جملة الوسائل التي نستعملها لاقناع العرب بالتخلي عن الاتراك . ان طائراتنا تلقي هذه الأوراق – مع علب السجائر – فوق خطوط الاتراك . أما المنشور فهو عبارة عن نداء من الشريف للعرب كي يتخلوا عن الاتراك وينحازوا للقتال ضدهم من أجل تحقيق حرية البلاد العربية واستقلالها . ونتيجة لهذه الدعاية يأتي كثيرون من العرب الينا » . (٢)

ولكن اللنبي لم يكن يعلم عندما كتب رسالته هذه ان حكومته سوف تصدر بعد ثلاثين يوما لا اكثر تصريحا رسميا تفتح فيه ابواب جزء من البلاد العربية الى شعب اجنبي غريب .

وبينما كان اللنبي يستعد لمواصلة الزحف نحو القدس ، طلب من لورنس ان ينسف احد الجسور الرئيسية الى الغرب من درعا خلال ايام ٥ – ٨ تشرين الثاني بقصد تعطيل مواصلات الاتراك الخلفية اثناء قيام اللنبي بهجومه. وقد فعل فيصل كل ما في وسعه لانجاح الخطة فبعث الشريف علي الحارثي مع لورنس وطلب من عبد القادر الجزائري ان يساعد ايضاً في انجاح الخطة ، واستعان الشريف علي برجال بني صخر والسراحين على تنفيذ المهمة. ولكن حرس الجسر اكتشفوا المهاجمين وهم يحاولون زرع المتفجرات في اعمدة الجسر ، فاضطر لورنس وجماعته الى التراجع. واثناء عودتهم

---

(١) جريدة فلسطين، يافا، العدد الصادر بتاريخ ٩ كانون الأول ١٩٣٣. والمنشور دون تاريخ ولكنه يعود إلى سنة ١٩١٧ (أوراق الاستاذ اكرم زعيتر). راجع بهذا الصدد: **J.M.N. Jeffries, *Palestine, The Reality;* Longmans, Green & Co., London, 1939, p. 211. Also Nevill Barbour, *Nisi Dominus*, London, George G. Harrap & Co., Ltd., p. 169.**

(٢) رسالة النبي بتاريخ ٣ تشرين الأول ١٩١٧ في **Brian Gardner, *Allenby*, Cassell ,London, 1965, p. 141**

نسف لورنس قطارا . وعاد الجميع الى الأزرق حيث انشأ الشريف علي الحارثي قاعدة لتأمين الاتصال بين جيش الثورة وسورية .[1]

وعلى الرغم من مصاعب القيام بعمليات في فصل الشتاء ، فقد عمد فيصل الى اعداد حملة نحو الشمال عين اخاه زيد قائدا لها . وفي اواخر كانون الاول زحفت ثلاثة ارتال على شكل كماشة كان اثنان منها يستهدفان الطفيلة والثالث هدفه الشوبك . وقد حققت هذه الحملة أهدافها واستولى العرب على الطفيلة في ١٤ كانون الثاني ١٩١٨ بعد ان استولى احد الارتال بقيادة نوري السعيد على محطة جرف الدراويش . وكانت خسائر الترك حوالي ٤٥٠ رجلا بين قتيل واسير . وفي ٣ كانون الثاني استولت قوات فيصل على موقع ابي اللسن على بعد ١٥ ميلا الى الجنوب الغربي من معان .

واضطربت القيادة التركية لسقوط الطفيلة وصممت على استردادها بسرعة . ولتحقيق هذه الغاية غادرت عمان حملة يزيد عددها رجالها على الف جندي وضابط بقيادة الاميرا لاي حامد فخري بك ومعها مدفعان ضخمان ورشاشات . وبعد ان اجتازت هذه القوة وادي الحسا واقتربت من الطفيلة اشتبكت معها القوة العربية بقيادة الامير زيد يوم ٢٥ كانون الثاني ١٩١٨ في معركة استمرت يوما كاملا . واسفرت المعركة عن هزيمة ساحقة للقوة التركية التي قتل قائدها وحوالي ٤٠٠ من رجاله ووقع في الاسر حوالي ٢٥٠ رجلا وغنم العرب المدفعين والرشاشات واكثر اسلحة العدو ودوابه واعتدته . ويعود الفضل في كسب هذه المعركة الى اهل الطفيلة والقرى المحيطة بها والى فرسان البدو الذين دعموا قوة زيد النظامية الصغيرة في مصادمة الحملة التركية المتفوقة في السلاح والتنظيم . وقد حضر لورنس هذه المعركة وكتب

---

(١) ادعى لورنس انه بعد عودته إلى الازرق غادرها متخفيا إلى درعا لاكتشاف تحصيناتها وان القائد التركي هناك القى القبض عليه وجلده بالسياط ثم استطاع أن يفلت منه ويعود إلى الازرق . والمؤلف يعتقد ان هذه القصة مختلقة من أساسها (راجع كتابه عن لورنس ، ص ص ١١١ – ١٢٩) .

عنها تقريرا اعطى فيه الفضل لنفسه مع ان المصادر العربية المختلفة تشير الى ان دور لورنس كان ثانويا .[1]

وتابع العرب انتصارهم في الطفيلة بالهجوم بعد ثلاثة ايام على قوة للترك في غوز المزرعة كانت تعمل على نقل المؤن في سبعة قوارب شراعية عبر مياه البحر الميت الى القوات التركية في اريحا . وقد فاجأتهم قوة عربية على حين غرة ، فاستسلم الاتراك الستون واغرق العرب قواربهم في ماء البحر .

وعمد الاتراك خلال شهر شباط الى حشد قوة هجومية كبيرة تدعمها عناصر المانية وطائرات بقصد استعادة المواقع التي خسروها . وزحفت القوة التركية في رتلين بدءاً من خط سكة الحديد باتجاه الطفيلة. وبعد اشتباكات استمرت خمسة ايام استعاد الاتراك الطفيلة يوم ٧ اذار وانسحب زيد الى الشوبك . ولكن ضغط الجيش البريطاني الذي كان قد استولى على اريحا في ٢١ شباط وقام بهجمات قوية على مواقع الاتراك قرب نهر الاردن في اوائل اذار ، اضطرهم الى الانسحاب من الطفيلة في ١٨ اذار فعاد العرب اليها . وقام الجيش البريطاني بهجوم على عمان والسلط فاستولى على هذه الاخيرة في ٢٥ اذار ولكنه لم يلبث ان أرغم على الانسحاب منها .

وفي شهر نيسان قام الجيش الشمالي بهجوم شامل على معان بقصد الاستيلاء عليها وقطع المواصلات بين دمشق والمدينة بصورة نهائية . وقد بدأت عمليات العرب يوم ١١ نيسان اذ تحرك رتل من النظاميين بقيادة نوري السعيد تعاضده قوة من رجال الحويطات ومفرزة المدفعية الفرنسية بالهجوم على محطة غدير الحاج جنوبي معان فاستولى الرتل عليها. وفي ١٢ نيسان قام جعفر العسكري على رأس رتل ثان تدعمه مفرزة

---

(١) بين أوراق الأمير زيد تقريران أرسلهما إلى أخيه فيصل : الأول كتب يوم المعركة والثاني بعدها بيومين ولم يذكر في كليهما اسم لورنس بل قال ان « جنودكم البواسل طردت العدو وكسرته » . وطلب ترفيع رتبة الضابطين راسم سردست وعبد الله الدليمي لما أبدياه في المعركة من شجاعة .

من المدفعية العربية بالهجوم على محطة الجردون شمالي معان فاستولى عليها. وبهذا أصبحت معان مقطوعة عن الاتصال . وأخذ العرب يدمرون خط السكة وهم يتقدمون نحو البلدة .

وفي ١٣ نيسان قام مولود مخلص بهجوم مفاجيء على مواقع الاتراك الدفاعية في تلول السمنات جنوبي غربي معان فاستولى عليها ولكنه أصيب بجراح خطيرة اثناء المعركة . وفي اليوم التالي اتصلت الوحدات العربية الثلاث بعضها مع بعض وتولى جعفر القيادة العامة . بعد هذا قرر فيصل القيام بهجوم على معان ذاتها ،وبعد تمهيد بالمدفعية زحف المشاة يوم ١٥ نيسان من تلول السمنات فاحرزوا تقدما طيبا واستمر الهجوم في اليوم التالي. وفي يوم ١٧ نيسان وصل العرب الى محطة سكة الحديد بعد قتال عنيف ولكنهم اضطروا الى التراجع نتيجة نفاد عتاد المدافع التي كانت تغطي هجوم المشاة . وبالنظر للخسائر الفادحة (حوالي ٣٠٠ بين قتيل وجريح) اعطى فيصل الامر بالتراجع الى تلول السمنات . وقد وقع في ايدي العرب خلال هذا الاسبوع من المعارك حوالي ٤٠٠ اسير تركي . وفي ١٩ نيسان استأنفت قوة من العرب بمساعدة البعثة العسكرية البريطانية الهجوم على خط السكة جنوبي معان ، وخلال بضعة ايام امكن الاستيلاء على سبع محطات وتخريب مسافات من خط السكة يبلغ طولها مئة كيلو متر ، وبهذا قطع الاتصال نهائيا بواسطة السكة بين معان والمدينة المنورة .

وفي هذه الاثناء قامت القوات البريطانية بحملة ثانية الى الشرق من وادي الاردن فاستولت على السلط في ٣٠ نيسان وبلغت ضواحي عمان ، ولكنها اضطرت للانسحاب يوم ٣ ايار تحت ضغط هجمات الاتراك المعاكسة .

اما الى الشمال من معان فقد استولى العرب على بضع محطات واستولوا على قطاعات من خط السكة ، ولكن الاتراك جلبوا امدادات قوية من عمان فاستطاعوا اصلاح الخط واعادة الاتصال مع معان . وكان الامير زيد يتولى ادارة العمليات العسكرية الى الشمال من معان . وظل العرب والاتراك يقومون بهجمات متبادلة على الخط والمحطات في هذا

القطاع طوال اشهر ايار وحزيران وتموز ويخوضون معارك عنيفة اثناء ذلك، دون ان يتمكن احد الفريقين من احراز نصر حاسم .

وفي ٨ آب قامت قوة بريطانية من جيش الجنرال اللنبي بمهاجمة محطة المدورة والاستيلاء عليها وتدمير مواقعها الحربية .

كان فيصل يضع دائما نصب عينيه هدف التقدم نحو دمشق ، لذلك نراه في ايار ١٩١٨ يطلب من ابيه ان يرسل الامير عبدالله الى جبهة معان ليتولى القيادة فيها ، حتى يتاح له - فيصل - ان يذهب الى الشمال ويفتتح جبهة جديدة ضد الاتراك . ولكن الملك حسين رفض اقتراح فيصل قائلا ان القوات المحاصرة للمدينة يجب ان تبقى في مواضعها حتى يستسلم فخري باشا [1] . وفي الشهر التالي جددت القيادة البريطانية هذا الاقتراح على الملك ، اذ اعتبرت ان قوات الاتراك في المدينة اصبحت عاجزة عن القيام بعمليات فعالة بعد التدمير الواسع في خط السكة . وبدا للانكليز انه يمكن تجميع القوات العربية النظامية كلها تحت قيادة فيصل بحيث يتكون لديه جيش نظامي قوامه عشرة الاف جندي ، يستطيع به القيام بعمليات هجومية على نطاق واسع . وعلى هذا تم تكليف لورنس ان يأخذ على عاتقه مهمة اقناع الملك حسين بالموافقة على نقل النظاميين في جيشي علي وعبدالله الى جيش فيصل . واعطي لورنس رسالتا توصية من ونجت واللنبي فحملهما ومضى الى جدة .

وقد جاء في رسالة ونجت انه يود ان يعرض على الملك حسين صورة شاملة للوضع الحربي في فلسطين وسورية ولوضع جيش فيصل الذي احرز انتصارات باهرة حوالي معان . ولكن بما انه يستحيل تسجيل كل شيء على الورق ، فان ونجت بعد التشاور مع اللنبي قرر ايفاد لورنس لشرح الخطط العسكرية المقبلة . وقال ونجت ان نقطة الخطر في الوقت الحاضر تقع في معان التي يحاصرها فيصل على الرغم من ان حاميتها اقوى من جيشه ، وان ما حققه رجال فيصل من انجازات اعاد للعرب الكثير

---

(١) المخابرة في الملف F.O. 686/39

من المجد الذي كان يرتبط قديما باسمهم ، ولذا فان فيصل خليق بالتعضيد. «ان لورنس يعرف كل شيء عن العمليات وسيشرح لكم ضرورة تجميع القوات العربية ». اما رسالة اللنبي فلم تتضمن سوى القول بانه يوافق كليا على توصيات ونجت . [1]

وفي جدة اتصل ولسون ولورنس بالملك حسين عدة مرات يرجوانه المجيء الى جدة او الى منتصف الطريق بين مكة وجدة لكي يتيح للورنس ان يقدم له رسالتي ونجت واللنبي ويشرح له مسائل في غاية الاهمية . ولكن الملك اعتذر بانه صائم (صيام شهر رمضان)وانه لا يستطيع مغادرة مكة ، وانه اذا كان لورنس يود ان يبلغه اية رسالة فانه مستعد لتسلمها .

وعندما استيقن لورنس ان الملك مصمم على عدم الخروج من مكة لمقابلته ، وكان — كما يقول لورنس — قد علم بما تنطوي عليه مهمته ، بعث له برسالة خاصة كتبها باللغة العربية زيادة في التحوط والسرية [2]

وقد لخص لورنس وضع القوات العربية والقوات التركية التي تواجهها فقال ان حامية معان قوامها ٤٠٠٠ رجـــل وجيش فيصل النظامي ٣٥٠٠ رجل. وبما ان اية قوة مهاجمة يجب ان تكون ضعفي او ثلاثة اضعاف القوة المستحكمة في خنادقها فان قوة فيصل الصغيرة لا تستطيع الاستيلاء على معان . ولما كانت قوات الاتراك في عمان لا تقل عن ٨٠٠٠ رجل فمن المتوقع ان يبذلوا مجهودا كبيرا لتعمير خط السكة بين عمان ومعان وفك حصار العرب عنها . ولذلك فان قوة فيصل بحاجة الى تعزيزات عاجلة بنظاميين عرب (من جيشي عبدالله وعلي)كي تتمكن من صد هجوم الاتراك المعاكس حتى يضطر الاتراك في معان الى الاستسلام او الى تعزيز الحامية بصورة تستنزف قواهم مثل حامية المدينة التي تضم ١٤ الف رجل لا أمل لهم في الخلاص . وقد أشاد لورنس بانجازات قوات فيصل بقوله «الاركان حرب البريطاني يقول ان قليلاً من الجيوش

---

(١) رسالتا ونجت واللنبي بتاريخ ١٦ حزيران ١٩١٨ في P.R.O., F.O. 882/19

(٢) فيما أعلم فان رسالة لورنس هذه المؤرخة في ٢٥ حزيران ١٩١٨ هي الرسالة الوحيدة من نوعها ، وهي في ثلاث صفحات ومن جملة أوراق الأمير زيد .

في الدنيا عملت مثل عساكر جعفر باشا تحت قيادة الامير فيصل ». وقوله ايضا «جيش سيدي فيصل يعمل الان اكثر من ما يقتضي لاي انسان ان يعمل ». واخيرا طلب لورنس من الملك حسين ان يحرق رسالته بعد ان يقرأها . ولكن الملك احتفظ بالرسالة ولم يحرقهـــا . وقد بعث لورنس رسالته مع نجاب خاص فاجابه الملك عليها برسالة في اليوم التالي خاطبه فيها بقوله «ولدي العزيز» ولكنهمضى يقول انه غير مقتنع بالحجج التي اوردها لانه يرى من رسائل فيصل اليه ان الوضع في تحسن . ثم أبدى شكوكه في حقيقة الدوافع التي أملت على لورنس القيام بهذه المهمة وعزاها الى اشخاص اخرين لا تهمهم مصلحة العرب ولا مصلحة بريطانيا وطلب منه «ان لا يصغي لاقوال كل انسان والا يثق بها . »[1]

وغادر لورنس جدة . وبعث الملك الى ولسون رسالة يقول انه لم يدرك مقاصد الحكومة البريطانية من ايفاد لورنس . فأجابه ولسون بان مقاصد الحكومة البريطانية أوضحت له أكثر من مرة «وان الكولونيل لورنس قد عمل اكثر مما عمله أي ضابط بريطاني آخر لأمر نهضتكم ، وانه قد افتكر انه قد حصل على ثقتكم وانه صار في امكانه ان يتكلم معكم في أي مبحث وليس في الأمر شيء أكثر من ذلك .»[2]

واثناء اشهر الصيف كان اللنبي يستعد للقيام بهجوم كبير علـــى الجيوش التركية ويضع في حسابه قيام الجيش الشمالي بدور فعال في الهجوم . ولكن حدثت في اواخر شهر آب أزمة كادت تؤدي الى عواقب وخيمة . فقد حدث ان اطلع الملك حسين على اوراق للجيش الشمالي تطلق لقب «القائد العام» على جعفر باشا وبلغه ان جعفر ذهب الى قيادة اللنبي وتسلم منه وساما (CMG) . وتبادرت الى ذهن الملك الشكوك، فنشر

---

(١) P.R.O., F.O. 686/39.

(٢) أوراق الأمير زيد . رسالة الملك حسين بتاريخ ٢٨ حزيران ١٩١٨ . وفي رسالة اخرى بتاريخ ٢٩ حزيران ١٩١٨ قال الملك للمعتمد أنه لا يستطيع أن يضعف القوات العربية المحاصرة للمدينة لما في ذلك من خطر ، بالاضافة إلى أن ابن السعود وابن الرشيد يعملان على إثارة القبائل « ضدنا » – (F.O. 686/37) .

في جريدة القبلة [1] بيانا جاء فيه ان الحكومة العربية لم تمنح القابا او رتباً عسكرية لجعفر والضباط الاخرين ، وان اطلاق لقب «القائد العام» على جعفر لا يتفق والحقيقة . وعندما وصلت (القبلة)الى معسكر الجيش الشمالي حدث تذمر شديد بين الضباط وقدم جعفر استقالته من الخدمة. وبعث فيصل الى ابيه في ٢٩ آب برقية يقول انه استعفى من الخدمة ايضا ووكّل اخاه . وبعث زيـــد الى ابيه ينذره بخطورة الموقف . وتدخل المندوب السامي والجنرال اللنبي لدى الملك واوضحا له الموقف على حقيقته وان فيصل وجميع ضباطه لم يتجاوزا الحدود المعقولة ، وانه اذا لم يعط تأكيدات مناسبة لفيصل فان الجهود التي بذلها العرب منذ بدء الثورة ربما تذهب سدى اذا لم يشتركوا في الهجوم المقبل. وبعد لأي بعث الملك برقية الى فيصل اوضح فيها انه لم يقصد الاساءة لجعفر وللضباط الاخرين وان رتبهم العسكرية سيعترف بها في الوقت المناسب . وبهذا انتهت الازمــة واستـــأنف الجيش العربي استعـــداده للاشتراك في الهجوم الكبير . ولا شك ان الامر كله نشأ عن شكوك الملك وخشيته من وقوع فيصل تحت تأثير الضباط الاجانب والعرب . ثم ان هذه الحادثة المؤسفة تركت انطباعا سيئا في نفوس الساسة والمسؤولين البريطانيين .

درعا ودمشق وحلب : كان الجنرال اللنبي يعتبر جيش فيصل بمثابة جناح ايمن لجيشه الذي كانت خطوطه في آب ١٩١٨ تمتد من يافا على شاطيء البحر الى اريحا عند البحر الميت . وقد عمل اللنبي على تعزيز جيش فيصل الذي ارتفع عدد النظاميين فيه الى ٤٠٠٠ (عدا البدو) فشكل في قيادته هيأة من الضباط لكي تتولى تنظيم ما سمي ب «عمليات الحجاز »برئاسة الكولونيل داوني . واعار فيصلا خمس سيارات مدرعة وسرب طائرات ومدفعين محمولين ومفرزة من ٢٠ هنديا مسلحين بالرشاشات، ومفرزة من الجمالة المصريين (بقيادة الكابتن بيك) وسرية من فيلق الجمالة للنقليات ، بالاضافة الى المفرزة الفرنسية (بقيادة الكابتن

---

(١) العدد ٢٠٧ الصادر بتاريخ ١٩ اب ١٩١٨ .

بيزاني)ومعها اربعة مدافع جبلية واكثر رجالها من الجزائريين . وكل هذه الوحدات تحت قيادة الكولونيل جويس . وكان جيش فيصل يعتمد في تموينه وتسليحه على جيش اللنبي ولكنه لم يكن يحصل على ما يكفيه فقد قضى الجنود شتاء ١٩١٧ / ١٩١٨ في الهضاب المرتفعة وهم يرتدون البسة الخاكي ووصف الكولونيـــل داوني جنود فيصل بانهم كانوا « يعانون من نقص الطعام والذخيرة .»[1]

وكان اولئك النظاميون العمود الفقري لقوات الثورة العربية «وقد برهنوا في معان والجردونة انهم يحاربون حتى الموت »[2] وكان جيش فيصل يعاني من النقص في دواب النقل لان جميع المؤن والمعدات كانت تنقل من العقبة الى مواقع القتال على ظهور الدواب . وقد زوده اللنبي بألفي جمل حتى يتمكن من القيام بدوره في الهجوم الكبير .

وقد اناط اللنبي بجيش فيصل مهمة خطيرة ، مؤداها ان تقوم منه حملة سريعة الحركة بهجوم خاطف من الخلف على درعا ملتقى الخطوط الحديدية بين دمشق وفلسطين وشرقي الاردن ، بقصد قطع خطوط مواصلات الجيوش التركية قبيل قيام اللنبي بالهجوم . وعلى الرغم من ان القوة العامة لجيش اللنبي لم تكن تقل عن ٣٤٠ الف رجل تقف في وجوههم – ووجوه العرب – قوات من الترك لا تزيد كثيرا على ١٠٠ الف رجل ، فان اللنبي أعد خططه بحيث تتمكن قواته المتفوقة من احراز النصر الحاسم . وقد طلب من الحملة العربية ان تبدأ عملياتها حول درعا في منتصف ايلول ، قبل ثلاثة ايام من بداية هجوم اللنبي .

وتقرر ان تتألف الحملة من نظاميين وبدو وان يتولى فيصل قيادتها العامة ويكون الشريف ناصر نائبا له ونوري السعيد قائدا للنظاميين . وفي ٣٠ آب و ٢ ايلول غادرت ابا اللسن قافلتان من الجمال تحملان

---

(١) P.R.O., F.O. 882/7. تقرير الكولونيل داوني عن هجوم العرب على معان ، بتاريخ ١ ايار ١٩١٨ .

(٢) الميجر السير هيوبرت يونج في كتابه « العربي المستقل » ، الطبعة الانكليزية ، لندن ، ١٩٣٣ ، ص ١٩٤ .

المؤن والذخائر في طريقهما الى الازرق التي تقرر ان تكون قاعدة امامية للحملة.

وفي ١٢ ايلول تكاملت الحملة في الازرق وهي تتألف من ٦٠٠ نظامي ورافقتها المفرزة الفرنسية وسرية الهندسة وتضم المصريين والهنود وثلاث سيارات مصفحة وطائرتين، وكانت تضم ثلاثة من الضباط العرب الذين اصبحوا فيما بعد من رؤساء الوزارة في العراق (نوري السعيد وعلي جودت وجميل المدفعي) كما ضمت من الضباط الانكليز : جويس ولورنس ولورد ونترتون ويونج وبيك وكركبرايد . وانضم للحملة حوالي ٥٠٠ من فرسان البدو بقيادة نوري الشعلان وعودة ابو تايه . وكان مجموع أفرادها ١٣٠٠ رجل .

زحفت الحملة من الازرق في صباح ١٤ ايلول وفي مساء هذا اليوم وخلال الايام الاربعة التالية قامت بعملياتها المرسومة فنسفت ثلاثة من جسور خط سكة الحديد بين درعا وعمان ونزعت مسافة واسعة من قضبان الخط بين درعا ودمشق وبين درعا وفلسطين وخاضت عدة اشتباكات مع قوات العدو . وقد زرعت هذه العمليات الارتباك في خطوط المواصلات الرئيسية مما اضطر ليمان فون ساندرس القائد العام للجيوش التركية ان يرسل مفارزه الاحتياطية من الجبهة لرد هجمات العرب على درعا، بينما كان اللنبي يتحفز للانقضاض بجحافله الجرارة . وبعد ان قامت الحملة بتنفيذ المهام التي انيطت اليها ، ابتعدت مسافة الى الشرق بانتظار نتائج هجوم اللنبي .

بدأ اللنبي هجومه الكبير في الصباح الباكر من يوم ١٩ ايلول ، وسرعان ما اخترق رجاله خطوط الجيشين السابع والثامن التركيين وأخذوا يتقدمون شمالا . واثناء هجوم اللنبي واصلت الحملة العربية نشاطها فشنت عدة هجمات ليلية على خط السكة بين درعا وعمان ونجحت في الحيلولة دون اصلاح خط السكة بينما كانت الطائرات المعادية تقصف مواقعها اثناء النهار . وعندما أخذ الجيش التركي الرابع يتراجع من السلط وعمان ، لم يستطع الاستفادة من خط السكة فاضطر رجاله ان يسيروا على اقدامهم ويتركوا وراءهم اسلحتهم ومعداتهم .

وأرسل اللنبي في ٢٠ ايلول رسالة الى فيصل انبأه فيها انه نتيجة «لجهودنا المشتركة» فقد الحقت الهزيمة بجيش العدو ، وهنأه فيها «على الانجاز العظيم لقواتك الباسلة حوالي درعا ، والتي أثرت عملياتها في بعث الارتباك في خطوط مواصلات العدو تأثيراً مهماً على نجاح عملياتي»[1]

اما في معان ، فقد تحول الاتراك الى الهجوم اثناء قيام العرب بمهاجمة خطوط المواصلات حوالي درعا ، فزحفت عناصر قوية لاحتلال الطفيلة وأخذت عناصر اخرى تشن الهجمات على تلول السمنات. ولكن الاتراك فوجئوا يوم ٢٢ ايلول بصدور الامر اليهم بالانسحاب السريع ، فبدأوا بالتراجع من معان شمالا سيرا على الاقدام تحت حماية مدافعهم . وكان الامير زيد يتولى قيادة العرب في معان ، فاستنفر قواته لضرب كافة القوات المتراجعة ، وحث المقاتلين البدو على عرقلة انسحاب العدو . وكان من اثر ذلك ان القوات التركية اضطرت للتوقف قبل الوصول الى عمان بعد ان حاصرها الاف من البدو والمسلحين ، ولم تستطع الوصول الى عمان في الوقت المناسب لتأمين انسحابها فاستسلمت لكتيبة انكليزية خرجت للقائها من عمان .

وكان اللنبي قبل بدء هجومه قد بعث برسالة الى فيصل يحذره فيها من توسيع نطاق عملياته والتوغل بعيدا داخل المناطق التي كانت القوات التركية ما تزال مسيطرة عليها ، خشية ان لا يتمكن – اللنبي – من تقديم العون له اذا ما اصطدم بقوات معادية كبيرة . وعندما اخذت القوات التركية تتراجع من فلسطين وشرقي الاردن باتجاه دمشق، رأى بعض الضباط الانكليز ان تلك القوات المتراجعة يمكن ان تسحق القوة العربية الصغيرة، وان تلك القوة العربية جديرة ان تبتعد عن خط الانسحاب التركي ما دامت قد أدت دورها المطلوب على اكمل وجه. ولكن فيصل–

---

(١) Major Sir H. Young, The Independent Arab, p. 238.
وبعث لورنس في ٢٢ ايلول ١٩١٨ برقية إلى الملك حسين قال فيها ان عمليات الجيش الشمالي « تشكل أعظم انجاز للامة العربية خلال السبعمئة سنة الماضية » . – P.R.O., F.O. 686/39

يؤيده لورنس – كان يرى ان هذه هي الفرصة السانحة التي كان جيش الثورة ينتظرها كي يبرهن اكثر واكثر فعاليته القوية في تحرير المزيد من الارض العربية . لهذا كله بعث الرسل الى حوران وجبل الدروز وقبائل البدو يدعوهم الى الاشتراك في شرف القتال .

وهكذا عادت الحملة العربية الى الزحف ثانية يوم ٢٥ ايلول فهاجمت خط السكة بين درعا ودمشق وخربت المسافات التي كان الاتراك قد فرغوا من اصلاحها قبل يوم واحد فقط ، ولذلك لم يستطع الاتراك استعمال خط السكة في انسحابهم الى دمشق . وكانت الحملة قد تضخمت بمن انضم اليها من الحوارنة والبدو والدروز ، فبادر النظاميون الى الاصطدام بالقوات التركية والالمانية المتراجعة بينما أخذت أرتال اخرى بمهاجمة محطات السكة . وفي مساء ٢٧ ايلول استولى العرب على بلدة درعا ورفعوا العلم العربي عليها ، بينما كانت القوات البريطانية ما تزال تزحف باتجاهها من الغرب .

واستمرت الاشتباكات مع القوات التركية والالمانية المتراجعة على طول المسافة من درعا الى دمشق خلال ٢٨ – ٣٠ ايلول ، وكانت القوات العربية تسير على ميمنة القوات البريطانية وتتعاون معها . وبلغ العرب ضواحي دمشق مساء يوم ٣٠ ايلول فبادر البدو والدروز الى دخول المدينة في الليل ، اما الشريف ناصر فقد دخلها على رأس القوات النظامية في الساعة السادسة من صباح ١ تشرين الاول ، في الوقت ذاته الذي كانت طلائع القوات البريطانية تدخل المدينة من جهة اخرى . وكان دخول العرب الى دمشق «وسط مشاهد من الحماسة الفائقة النظير من جانب اهل المدينة . كانت الشوارع حافلة بالجماهير الى حدّ يكاد يتعذّر المرور منها ، وكانت الجماهير تهتف هتافات تشق عنان السماء وهي ترقص ابتهاجا ... »[1]

وكان الامير فيصل قد بعث رسلا من قبله الى اعوانه في دمشق يطلب

(١) تقرير لورنس إلى القيادة البريطانية بتاريخ ١ تشرين الأول ١٩١٨ : أوراق ونجت .

اليهم تسلم زمام الامور حال انسحاب الاتراك ورفع العلم العربي على ابنية الحكومة في المدينة . وكان وكيل الوالي التركي قبل مغادرته دمشق ظهر يوم ٣٠ ايلول قد اجتمع بشكري باشا الايوبي وانبأه باعتزامه الانسحاب وان عليه ان يتسلم ادارة المدينة ، فذهب هذا الى سجن القلعة وفتح ابوابه واخرج المسجونين فيه باسم الملك حسين والحكومة العربية . وفي الوقت ذاته ذهب الامير سعيد الجزائري الى دار الحكومة ورفع العلم العربي الذي كان اخوه الاصغر عبد القادر قد جاء به من مكة في السنة السابقة ، وأعلن تأليف حكومة عربية باسم الملك حسين .

كان الامير سعيد الجزائري حفيد الامير عبد القادر الكبير الذي حارب الفرنسيين في الجزائر اعواما عديدة ثم استقر في دمشق ، وقد نفاه الاتراك مع اخيه وابيه الى الاناضول بعد اعدام عمه الامير عمر الجزائري . وبعد اعلان الثورة العربية فرّ عبد القادر من المنفى وذهب الى مكة ، فاعطاه الملك حسين علما من اعلام الثورة وطلب اليه ان يرفعه في دمشق ، وجاء عبد القادر بالعلم بعد ان مرّ بالعقبة واجتمع بفيصل . وعندما ذهب الامير سعيد الى وهيدة غربي معان رسولا من جمال باشا الصغير الى فيصل للبحث في عقد الصلح بين الاتراك والعرب ، طلب منه فيصل ان يعلن الاستقلال في دمشق حال انسحاب الاتراك وقبل وصول قوات الاحتلال الاجنبية .[1] وقد تعاون سعيد واخوه عبد القادر مع السلطات التركية في الاشهر القليلة التي سبقت الانسحاب وانشأ الاخوان قوة من المغاربة «لحفظ الامن ولمساعدة الجيوش التركية».

---

(١) بعث الأمير فيصل من درعا رسالة إلى الأمير سعيد يطلب منه استلام دمشق حال انسحاب الأتراك « باسم الحكومة العربية ، وارفعوا الاعلام الهاشمية على جميع المباني الاميرية وبداخل البلدة . واذا لم يسلموها الا حربا فمند انسحابهم من البلدة أملي وطيد انكم ترفعون الاعلام العربية قبل دخول أي كان إلى البلدة . وأنكم تعلنون الحكومة الموقتة باسم جلالة ملك العرب . واستقبلوا جيوش الحلفاء الداخلين وبأيديكم الاعلام العربية ». ولكن فائز الغصين الذي كان يحمل الرسالة لم يستطع الوصول إلى دمشق في الوقت المناسب لتسليم الرسالة : محمد جميل بيهم ، العهد المخضرم ، ص ص ٧٤ — ٧٥ .

واستغل الامير سعيد يوم ٣٠ ايلول هذه القوة لغرض نفسه رئيسا للحكومة المؤقتة . وبادر في اليوم ذاته فبعث الى رؤساء البلديات في المدن السورية واللبنانية البرقية التالية :

«بناء على تسليمات الدولة التركية فقد تأسست الحكومة الهاشمية على دعائم الشرف . طمنوا العموم واعلنوا الحكومة باسم الحكومة العربية .

رئيس الحكومة العربية المؤقتة

الامير سعيد »

وفي صباح يوم ١ تشرين الاول ، وصل الميجر آرثر اولدن من الفرقة الاسترالية الى دار الحكومة وقال للامير سعيد انه يريد مساعدته في توطيد الامن في دمشق فاجابه سعيد ان الامن مستتب وانه لا حاجة لمساعدته وطلب الميجر اولدن ادلاء فأعطاه الامير سعيد اثنين من الضباط العرب لكي يدلاه على مخارج دمشق وللحال انسحب . وبعد ذلك بقليل وصل الشريف ناصر الى دار الحكومة فعرض عليه سعيد ان يتولى زمام السلطة بنفسه ، ولكن ناصر اعتذر بانه مريض وكلف سعيد بالاستمرار في ادارة الحكم ريثما يصل الامير فيصل وكتب له التفويض التالي :

«ان سمو الامير سعيد مكلّف بادارة الحكومة لحين حضور مولانا سمو الامير فيصل . »

ولكن لم يلبث ان وصل لورنس وعدد من اعضاء جمعية العربية الفتاة ، فغاظهم تسلم الأمير سعيد زمام الحكم ، لان لورنس كان غاضبا منذ أن خذله عبد القادر وأخو سعيد في مهمة نسف جسر اليرموك ، وأعضاء الفتاة كانوا يعتبرون سعيد متعاوناً مع الاتراك وليس من الوطنيين القوميين . لهذا طلب لورنس من الشريف ناصر ان يأمر سعيد بالتنحي عن الحكم ففعل . وتسلّم زمام الحكم أمير اللواء شكري باشا الايوبي مدة يومين ،حتى وصل فيصل فعين أمير اللواء رضا باشا الركابي حاكم

عسكريا على دمشق وعين شكري الايوبي حاكما عسكريا على بيروت وطلب منه السير اليها في الحال .[1]

وفي ١ تشرين الاول بعث اللنبي الى الملك حسين برقية يقول فيها «يسرني ان ابلغ جلالتكم ان جنودنا المشتركة قد دخلوا مدينة دمشق الساعة السادسة من صباح اليوم ... »[2] كما ابرق في اليوم ذاته الى وزارة الحربية «بان فرقة الخيالة الاوسترالية دخلت ضواحي دمشق من الشمال الغربي الليلة الماضية . وفي الساعة السادسة من صباح اليوم تم احتلال المدينة من قبل فيلق خيالة الصحراء والجيش العربي »..[3]

لقد كان دخول الجيش العربي الفاتح الى دمشق مناسبة تاريخية حقا .

---

(١) للاطلاع على وجهة نظر الامير سعيد الجزائري : راجع كتاب (جهاد نصف قرن) من تأليف انور الرفاعي ، دمشق (دون تاريخ) ص ص ٩٥ – ١٢٨ . وتقول المصادر البريطانية ان دمشق استسلمت للميجر اولدن، بينما يقول الامير سعيد أنه عند مجيء الميجر اولدن الى دار الحكومة قال له اننا نعتبركم ضيوفا وحلفاء وأن دمشق قد اعلنت استقلالها . فقال اولدن : نحن لم ندخل الى العاصمة بقصد الاساءة الى حكومة حليفة لنا بل جئنا نساعدكم على توطيد الامن . فأجابه سعيد بأن الأمن مستتب ولا حاجة لمساعدته . وعندئذ طلب اولدن ان يزوده الامير بأدلاء لملاحقة الاتراك والالمان والمنسحبين ، فبعث معه ضابطين عربيين رافقا قوته حتى ضواحي دمشق .
اما الامير سعيد وأخوه فقد حنقا بسبب تسليم زمام الحكم للركابي باشا فحاولا في البداية اقناع فيصل بعزل الركابي ، وعندما اخفقا في ذلك أخذا يجمعان الأنصار ويثيران الشغب ويحاولان اظهار قوتهما ويتمردان على السلطة ، ويقيمان الحفلات لضابط الارتباط الفرنسي . وبعد ان نفذ صبر الركابي باشا أصدر أمراً باعتقالهما ، ولم يبد سعيد أي مقاومة اما عبد القادر فقد رفض تسليم نفسه وأطلق النار على رجال الشرطة ثم فرّ على جواده ، فأعترضته شرذمة أخرى من رجال الشرطة ، ولما لم يقف أطلقت عليه النار فخرّ قتيلا . وكان ذلك يوم ٧ تشرين الثاني ١٩١٨ . وعندما بلغ فيصل – وهو في طريقه الى حلب – النبأ » غضب غضباً شديداً واستولى عليه القلق والكدر » .

راجع محمد جميل بيهم: العهد المخضوم ص ص ٥١–٦٣ ومذكرات فائز الغصين المنشورة في جريدة القبس: تحت تاريخ ٢٥ تشرين الاول ١٩١٧ وبرقية كلايتون رقم ١٧٦ الى وزارة الخارجية بتاريخ ٨تشرين الثاني ١٩١٨ P.R.O., CAB. 27/36

(٢) أوراق الأمير زيد .

(٣) أوراق ونجت .

فقد كانت دمشق هدفا ظل العرب يتطلعون للوصول اليها منذ اعلان الثورة في حزيران ١٩١٦ وكانت دمشق تمثل امل العرب بالحرية والوحدة والاستقلال فهي عاصمة الدولة الاموية التي امتد ملكها من حدود الصين الى جبال البرنات ، وهي احد المراكز المهمة لنشوء الحركة القومية العربية الحديثة . ولم تكن معركة دمشق الا ذروة المعارك التي خاض العرب غمارها خلال ٢٨ شهرا ، وكان الدخول اليها يمثل خاتمة عهد طويل مظلم من الحكم الاجنبي وبداية عهد جديد مشرق يصبح العرب فيه سادة انفسهم وتتوافر لهم فيه امكانية المشاركة في الحضارة العالمية .

بهذه المعاني يمكننا النظر لدخول فيصل الى دمشق ظهر يوم ٣ تشرين الاول وللاستقبال الحافل الذي استقبله السكان به . انها المرة الاولى منذ عدة قرون ترتدي دمشق أجمل ثيابها لتستقبل فاتحاً من ابنائها .

وفي اليوم ذاته دخل اللنبي الى دمشق فاستقبلته دمشق كصديق وحليف . وأثناء الاجتماع الطويل الذي عقده اللنبي وفيصل بحضور عدد من كبار قادة الطرفين جرى البحث في الترتيبات العسكرية لمواصلة الزحف وراء القوات التركية المنسحبة . اما الترتيبات ذات الطابع السياسي فقد اجملها اللنبي في برقية منه الى وزارة الحربية :

« لقد أبلغته [فيصل] انني على استعداد للاعتراف بالادارة العربية للأراضي المحتلة شرقي نهر الاردن من دمشق إلى معان ، بصفة ادارة عسكرية تحت سيطرتي العليا. وأبلغته كذلك انيسوف أعين ضابطي ارتباط بيني وبين الادارة العربية: أحدهما بريطاني والاخر فرنسي وان هذين الضابطين سوف يتخابران معي عن طريق كبير ضباطي السياسيين ... وقد أبلغت الشريف فيصل ان الحكومتين الفرنسية والبريطانية وافقتا على الاعتراف بمركز المحارب للقوات العربية المقاتلة في فلسطين وسورية ، بصفة حلفاء ضد العدو المشترك » . (١)

---

(١) برقية اللنبي رقم p. 690 تاريخ ٦ تشرين الأول ١٩١٨ P.R.O., CAB. 27/34; (EC 1819) راجع أيضا برقية اللنبي إلى ونجت في ٣ تشرين الأول.(أوراق ونجت) . وكان بلفور قد بعث في ٢٨ ايلول برقية إلى ونجت قال فيها انه اقترح على الحكومة الفرنسية « الاعتراف بصفة المحارب لحلفائنا العرب الذين يقاتلون من أجل الاستقلال من الحكم التركي » . أما من كان يعنيهم بلفور بقوله أنهم حلفاء فتدل عليه الفقرة=

ووصف اللنبي في رسالة منه الى ونجت دخوله[ ] الى دمشق واجتماعه بفيصل، فقال « ان جماعتي والعرب دخلوا البلدة[دمشق] في ذلك اليوم [١ تشرين الاول] في وقت واحد تقريبا ... وجاء فيصل الى فندق فكتوريا حيث عقدنا اجتماعا طويلا . اوضحت له الموقف بينما كان لورنس يقوم بالترجمة وقد أقيمت الان ادارة عسكرية عربية . انه مسؤول تجاهي عن طريق ضابط ارتباط فرنسي وكلايتون ... وقد انبأت فيصل الا يشغل نفسه شخصيا بالحكومة المدنية . بل عليه ان يهتم باراحة جيشه واعادة تنظيمه وتعزيزه تمهيداً لزحف آخر...».[1] وفي رسالة اخرى كتبها يوم اجتماعه بفيصل ، قال ان حديثه مع فيصل كان مرضيا. « انه سوف يتولى ادارة دمشق، او بالاحرى سينشيء ادارة عسكرية . علَّمه يخفق الان . والمدينة حاليا هادئة ، ولكن كان هناك بعض حوادث النهب واطلاق النار يوم امس الاول ، فاخمدها لورنس بسرعة..»[2] ومن هذا نستطيع ان نعرف ان اللنبي لم يحدث فيصل في اول اجتماع بينهما اي حديث سياسي ولم يذكر له شيئاً عن اتفاقية سايكس – بيكو[3] .

– التالية من البرقية ذاتها « ان هذه الصيغة بينما تعترف بالحركة القومية العربية وتشمل جميع العرب في مضمونها ، فانها لن تعطي الانطباع بأننا نرغب فرض الملك حسين على سورية » . P.R.O., CAB. 27/34

(١) رسالة خاصة من اللنبي إلى ونجت بتاريخ ٦ تشرين الأول ١٩١٨ (أوراق ونجت)

(٢) أوراق اللنبي ، نقلا عن كتاب
Brian Gardner, *Allenby*, Cassell, London, 1965 pp. 189-190.

(٣) اعتمد عدد من المؤلفين على رواية الجنرال الاوسترالي شوفل عن الاحداث التي وقعت في دمشق مباشرة بعد دخول دمشق وعن اجتماع اللنبي وفيصل وهي رواية تجانب الحقيقة في مواضع كثيرة وتتخذ موقفا متحيزا ضد العرب وضد لورنس فليس صحيحا انه أبلغ فيصل « ان فرنسا سوف تتولى الحماية على سورية وانه – فيصل – سوف يتولى ادارة المنطقة الشرقية تحت ارشاد فرنسا ودعمها المالي » ويبدو ان سبب ذلك يعود إلى أن شوفل كتب ما كتب بعد وقوع تلك الأحداث بسنوات عديدة ، وإلى استهدافه الرد على ما جاء في كتابي لورنس (ثورة في الصحراء) و (اعمدة الحكمة السبعة) . تقرير شوفل الأول بتاريخ ٢٢ تشرين الأول ١٩٢٩ والتالي بتاريخ ٣١ تشرين الأول ١٩٣٥ (مخطوطات كلية سنت انتوني – اوكسفورد) .

ولكن الاستيلاء على دمشق لم يكن نهاية الحرب ، فلم تلبث القوات البريطانية والعربية حتى اخذت تواصل الزحف شمالا فاستولت على حمص وحماه ثم استولت على حلب يوم ٢٤ تشرين الاول بعد معركة ابدى فيها النظاميون العرب بسالة فائقة وأسهم فيها الاف من ابناء القبائل السورية ، فدخل العرب حلب قبل البريطانيين بيوم [1] وفي ٢٨ تشرين الاول استولى العرب والبريطانيون على المسلمية ملتقى خطوط سكة حديد الشام والعراق . وفي ٣٠ تشرين الاول وقع الحلفاء الهدنة مع تركيا في جزيرة مدروس على ان يبدأ العمل بها رسمياً ظهر يوم ٣١ تشرين الاول ١٩١٨ . ونصت المادة ١٦ من شروطها على «استسلام كل الحاميات في الحجاز وعسير واليمن وسورية والعراق الى اقرب قائد من قادة الحلفاء ... ».

المدينة : اطال عناد فخري باشا فترة الحرب في الحجاز أكثر من شهرين بعد توقيع الهدنة . وقد برهنت المدينة على مناعة وصمود لم يكن العرب يتوقعونهما . وكان صمودها نتيجة حتمية لاخفاق العرب في قطع خط سكة الحديد بصورة فعالة . ولا شك في ان الشريف عند اعداده خطط الثورة اعتمد على الوعود التي تلقاها من حلفائه البريطانيين بانهم سيقومون بقطع خط سكة الحديد في مكان ما : اما عند خليج الاسكندرونة او عند معان . ولكن يبدو في الوقت ذاته انه كان يعتقد بقدرة رجاله على قطع الخط الى الشمال من المدينة وفرض الحصار المكين عليها . ومهما يكن من امر فأن الموقف في المدينة تطور وتبدل بصورة لم تكن في الحسبان ، ووجد العرب صعوبة كبيرة في ارغام فخري على التحول من

(١) يعتقد السير هيوبرت يونج ان التصريح البريطاني للسوريين السبعة كان هو الدافع وراء « الجهود التي تفوق طاقة الانسان العادي » التي بذلها العرب من أجل دخول درعا ودمشق وحلب. وهو يفترض ان الشخص الذي أجاز ذلك التصريح « لم يخطر على باله قط ان القوة العربية الصغيرة التي كانت يومذاك في ابا اللسن والعقبة [حزيران ١٩١٨] سوف تشارك قبل مرور خمسة أشهر ، في الاستيلاء على حلب ، على بعد ٥٠٠ ميل ». *The Independent Arab*, p. 277.

خطة الهجوم الى خطة الدفاع في كانون الثاني ١٩١٧ . ومنذ ذلك الحين عمد جيشا فيصل وعبدالله الى مهاجمة خط سكة الحديد ومحطاته بينما تولى جيش علي مناجزة القوات التركية من الجهتين الجنوبية والغربية .
وقد كان العرب يواجهون مصاعب في عملياتهم ضد الخط لا تقل عن مصاعب الاتراك ، فقد كانت مفارزهم الخفيفة تضطر الى السير احيانا ثمانية ايام من قواعدها قرب الساحل الى ان تصل الى الخط وتخرب منه مسافة ثم تضطر للعودة لنفاذ ما تحمل من مؤن وماء . وكان الترك يعودون لتعمير ما أصلحه العرب فلا تنقطع مواصلاتهم مع دمشق . ولم يكن بمقدور العرب ان يعسكروا بقوات كبيرة قرب الخط لانعدام المياه ولاستحالة توفير الدواب اللازمة لنقل المؤن والمياه من الساحل . وبعد انتقال جيش فيصل الى العقبة في تموز ١٩١٧ ظلت قوات علي وعبدالله وقوة ثالثة يقودها الشريف شرف وقاعدتها الوجه — تقوم بمهمة فرض الحصار على المدينة ومهاجمة خط السكة وتلحق بالعدو خسائر كبيرة .
وقد جاء في تقرير الجنرال ونجت ان العرب دمروا في السنة الثانية من الثورة اكثر من ١٥ الف قضيب و٥٢ عبارة و ٥ جسور وقطارات وعدة قاطرات وانهم اسروا وقتلوا مئات من افراد العدو وغنموا مدافع وبنادق واعتدة وقوافل . وكان فخري بعد ان صمم على اتخاذ خطة الدفاع قد طرد جميع المدنيين تقريبا من المدينة كيلا يضطر لتموينهم ، ووجد فخري في ابن الرشيد حليفاً متيناً ، اذ جاء هذا بقواته الى مداين صالح وأخذ يعمل الى جانب الاتراك ويمدهم بالمؤن ، وقد ساهم مساهمة فعالة في صمودهم في المدينة . لذلك كان العرب يراقبون طرق المواصلات الشرقية لمنع ورود الامدادات الى المدينة . ومن الامثلة على نشاطهم في هذا المجال انهم الحقوا هزيمة ساحقة بقوة كبيرة لابن الرشيد في نيسان ١٩١٧ واستولوا على تيماء [1] واستولى زيسد في حزيران ١٩١٧ على قافلة كبيرة قوامها ٣٠٠٠ جمل محملة بالمواد الغذائية و ٢٠٠٠ رأس

---

(١) على بعد ٨٠ ميلا إلى الشمال الشرقي من المدينة .

غنم كانت في طريقها من حايل عاصمة ابن الرشيد الى المدينة . وخلال الاشهر الثلاثة الاخيرة من سنة ١٩١٧ استولى جيش علي على قوافل للعلو تضم اكثر من ٥٠٠٠ الاف جمل [1]

وكان المسؤولون البريطانيون يحثون الشريف على بذل المزيد من الجهد في الهجوم على المدينة بينما كان الشريف يشكو دائما ان قواته لا تملك السلاح الكافي لتدمير تحصينات الاتراك ، وان ليس لديه العدد الكافي من النظاميين لمهاجمة تلك التحصينات [2] . وحتى شباط ١٩١٨ نجد علياً يشكو لابيه من ان مدافعه لا تستطيع مواجهة مدافع الاتراك ذات المدى الابعد وان لديه ١٤ مدفعا مقابل ٥٢ مدفعا لدى الاتراك ، ويقول انه انفق خلال الشهرين السابقين ١٦٠ الف جنيه دون ان يستطيع القيام بعمليات هجومية لحاجته الى مدافع ملائمة وانه لا يستطيع الوصول الى مواقع الاتراك الحصينة الا اذا تمكن من تدميرها بالمدافع. واخيرا يقول انه يعتبر نفسه سيء الحظ اذ يبقى دون عمل « ولا اشكو امري الا لله » [3]

واضطرّ الشريف في صيف ١٩١٨ ان يتصل بالايطاليين ويطلب منهم اربعة مدافع جبلية وذلك بعد ان اخفقت محاولاته المتكررة مع

---

(١) تقارير الجنرال ونجت الثلاثة إلى وزير الحربية البريطاني عن العمليات العسكرية في الحجاز خلال الفترة ٩ حزيران ١٩١٦ — ٣١ كانون الثاني ١٩١٩ وقد نشرت هذه التقارير في الجريدة الرسمية (لندن جازيت) كلحق للعدد الصادر بتاريخ ١٥ كانون الاول ١٩١٩ . وتتضمن هذه التقارير معلومات قيمة عن سير العمليات الحربية في الحجاز ولكنها لا تتضمن عمليات جيش فيصل بعد انتقاله إلى العقبة التي اعتبرت داخلة في نطاق جيش الجنرال اللنبي .

The London Gazette (Fifth supplement), 12 Dec. 1919. Three Despatches from General Sir R. Wingate, on the Military Operations in the Hedjaz from 9 June 1916 to 31 Jan. 1919.

(٢) كان جيش علي يضم ٢٠٠٠ نظامي وجيش عبد الله يضم ٣٥٠ نظامياً فقط : تقرير الكابتن جارلند عن القوات العربية بتاريخ ٢٨ شباط ١٩٢٠— P.R.O., F.O. 882/23

(٣) بعث الملك حسين رسالة علي هذه إلى المعتمد البريطاني في جده بتاريخ ١٢ شباط ١٩١٨ . P.R.O., F.O. 686/37

المسؤولين البريطانيين للحصول على مدافع توازي في فعاليتها مدافع الاتراك . وقال الايطاليون انهم على استعداد لتلبية الطلب اذا لم يكن لدى الانكليز اي مانع . وقد ابدى ونجت معارضته الشديدة لقبول اقتراح الطليان خوفا من ان يعمد الملك حسين « الى تحويلها الى جبهته الشرقية او يستخدمها في جهة اخرى غير مرغوب فيها ».

وبعد عشرين يوما اجاب ونجت على استفهام وزارة الخارجية حول الموضوع قائلا «ان الملك حسين بعد ان اخفق في الحصول على هذه المدافع منا عمد الى طلبها مباشرة من ممثلي فرنسا وايطاليا في جدة . والحقيقة ان الحاجة ماسّة لمدافع من هذا النوع بالذات للعمليات العربية في الشمال والجنوب ». وعبّر ونجت عن معارضته الشديدة للسماح للايطاليين او الفرنسيين بتسليم المدافع مباشرة الى الشريف ، ولكنه اوصى بالسعي لان يقدم الايطاليون او الفرنسيون هذه المدافع للسلطات البريطانية المختصة التي ستقوم بدورها بتقديمها للشريف [١]

وحتّى شهر ايلول ١٩١٨ نرى الفرنسيين يعرضون ارسال قسم مدفعية ٧٥ ملليمتر الى الجيش العربي في المدينة على أساس انه من مصلحة العرب ان تؤخذ المدينة حربا . وكان جواب ونجت ان العرب لديهم مدافع (؟) وبأن عرض الفرنسيين له دوافع سياسية اكثر منها عسكرية ، واقترح على حكومته رفض العرض [٢] وهكذا انتهت الحرب دون ان يحصل الشريف على المدافع الضرورية .

وكان الشريف يدرك ان صمود المدينة يلحق الضرر بالحركة العربية معنوياً وسياسياً وعسكرياً — وقد ألحق الضرر فعلا — لان عجز العرب عن الاستيلاء عليها أظهرهم في مظهر ضعف وقلل من قيمتهم في نظر الحلفاء ، وقلّل من قيمة الشريف في نظر زعماء العرب الآخرين. ومن ناحية حربية لم يكن حصار المدينة مضراً بالبريطانيين ما دامت

---

(١) برقيتا ونجت إلى وزارة الخارجية بتاريخ ١١ تموز ١٩١٨ و ١ آب ١٩١٨ : P.R.O., CAB. 27/28 & CAB. 27/30

(٢) جواب ونجت بتاريخ ١٨ تشرين الأول ١٩١٨ P.R.O., F.O. 371/3393 –

القوات التركية فيها عاجزة عن محاربتهم من جهة وما داموا لا يتحملون مسؤولية اطعامها واحراستها فيما لو وقعت في الاسر . وربما كانت نفقات العرب الذين يحاصرون تلك القوات لا تزيد كثيرا عن نفقـــات الاربعة عشر ألف جندي تركي الموجودين في المدينة لو وقعوا في الأسر .

وعند توقيع الهدنة مع الاتراك بعث الشريف حسين وبعث الجنرال ونجت برسالتين الى فخري باشا يطلبان منه الاستسلام عملا بشروط اتفاقية الهدنة ولكن فخري رفض قائلا انه لن يستسلم الا اذا جاءه أمر بالتسليم من السلطان . وهنا حاول العرب القيام بنشاطات هجومية ولكن السلاح الفعّال كان يعوزهم حتّى ان علي كتب لابيه انه لا يملك من السلاح ما يستطيع ان يتجاوز به « على احقر موقع للعدو » وطلب من ابيه ان يعفيه من مسؤولية القيادة . وقال الشريف للمعتمد البريطاني انه « مضطرب جدا ومسلوب الراحة تماما » من هذا الوضع حتّى انه لا يجد مناصا من انسحابه من منصبه وتخليه عن مسؤولياته[1] ورد ولسون متمنيا «ليت الله قد خلق ام فخري عاقرا»[2] . وعمد فخري بعد اعلان الهدنة واستسلام حامية معان الى سحب قواته من تبوك ومن محطات سكة الحديد الاخرى وجمعها في المدينة . وحدث تذمر في صفوف قواته بعد ذلك الحصار المرهق الطويل ولعدم اقتناعهم بجدوى عناد فخري وتصلّبه في رأيه.

واخيرا جاء الانكليز بضابط تركي كبير من استانبول يحمل رسالة من السلطان تتضمن الشكر لفخري على قيادته وتطلب منه الاستسلام بعد ان حطت الحرب اوزارها حتّى في اوربا . وهكذا سلم فخري نفسه للاميرين علي وعبدالله في بير درويش يوم ١٠ كانون الثاني ١٩١٩ ، وبعد ثلاثة ايام دخل الامير عبدالله الى المدينة .[3]

---

(١) أوراق الأمير زيد : رسالة من الملك حسين إلى المعتمد البريطاني في ٢٢ كانون الأول ١٩١٨ .

(٢) المصدر السابق : رسالة ولسون بتاريخ ٣٠ كانون الأول ١٩١٨ .

(٣) ظلت القوات التركية في اليمن وعسير صامدة ايضا في مواقعها حتّى اعلان الهدنة فاستسلمت بعدها للبريطانيين في عدن .

لقد ألقيت الاضواء على العمليات التي قام بها جيش فيصل منذ وصوله الى العقبة ، وقيلت اقوال عن تقاعس الاميرين علي وعبدالله في الحرب حول المدينة ، ولكن الانصاف يقتضينا القول ان الاميرين ورجالهما فعلوا كل ما كان بوسعهم ان يفعلوا ؛ وعمدوا الى الهجوم كلما امكنهم ذلك . اما التقصير فمرده الى النقص في السلاح قبل اي شيء اخر .

وعلى قول الملك عبدالله قائد الجيش الشرقي في الثورة فانه لم يكن يقدم لجيشه من السلاح «سوى سلاح المحارب الراجل ؛ واما المدافع وما الى ذلك مما تستعمل ضد القلاع والاستحكامات فلم يظفر الجيش الشرقي العربي منها بشيء». [1]

وربما كان من الاسباب التي دفعت البريطانيين الى التقتير في تزويد علي وعبدالله بالسلاح الفعّال خشيتهم من ان يتحول الشريف لمحاربة ابن سعود عندما يفرغ من المدينة، وهي نتيجة كانوا يعملون على تفادي الوصول اليها .

فعالية الثورة : كانت بريطانيا العظمى تهدف من اشعال نار الثورة العربية الى تحقيق غايتين اساسيتين : الاولى سياسية والثانية عسكرية . ولقد تحققت الغاية الاولى بمجرد اعلان الثورة اذ اعطت بريطانيا العظمى واعطت حلفاءها المبرر الذي كانوا بحاجة لتقديمه الى ملايين المسلمين الذين يحكمونهم . فها هو حفيد الرسول وامير مكة المكرمة يرفع السلاح في وجه دولة الخلافة ، وها هو يعلن ان القابضين على زمام الحكم في دولة بني عثمان قد انحرفوا عن الصراط السوي . ان الثورة العربية جعلت كفة الحلفاء في انظار المسلمين تتساوى مع كفة الالمان : واذا كان الالمان يجدون الخليفة والاتراك في صفهم فان الحلفاء اخذوا بدورهم يجدون

---

(١) مذكراتي ، ص ١٤٣ . وقد كان حصار المدينة من الشدة على أهلها بحيث اضطر بعضهم إلى أكل القطط والكلاب ، وباع أحدهم داراً بكيس أرز . أنظر وصفاً حياً للحصار في مجلة « المنهل » السعودية (عدد آذار – نيسان ١٩٦٧) : مقالة السيد علي حافظ ، ص ص ١٤١٧ – ١٤٢٧ .

الشريف والعرب الى جانبهم . وفي اليوم الذي اعلنت فيه الثورة اصيب سيف الجهاد الذي اعلنه الخليفة بضربة قاصمة قطعته من منتصفه ، ولم يعد بمقدور الاتراك الاستفادة منه بصورة ناجحة حتى في ميدان الدعاية .

ولقد كان الشريف حسين يدرك خطورة الخطوة التي يخطوها ، من ناحية سياسية ودينية ، ولذلك وضع نصب عينيه العمل على تحقيق هدف سياسي كبير يوازي في خطورته خطورة القيام في وجه الخليفة وفي وجه دولة الاسلام الكبرى ، ولم يكن ذلك الهدف سوى انشاء دولة عربية قوية مستقلة تضم الاقطار العربية الاسيوية . وبمجرد اعلان الثورة دفع الشريف الجزء الاكبر من قسطه المترتب عليه في الاتفاق مع بريطانيا . وسنرى في الفصول القادمة ما اذا كانت بريطانيا العظمى قد دفعت بدورها القسط الذي ترتب عليها .

اما الغاية العسكرية التي استهدفتها بريطانيا ، فيمكن تقدير مدى ما تحقق منها بالمقارنة بين انجازاتها وما انفقته بريطانيا من المال في سبيلها . لقد كان المجموع العام لما انفقته بريطانيا على الثورة من حزيران ١٩١٦ حتى استسلام المدينة في كانون الثاني ١٩١٩ احد عشر مليون جنيه — الليرات الذهبية بينها اقل من ١٠٪ — بينما يمثل الباقي ثمن ما قدمته بريطانيا للثورة من مؤن واسلحة وعتاد ونفقات اخرى . وعلى الرغم من ان ستورس عبّر عن اعتقاده بان «الشريف فتح فاه والحكومة البريطانية فتحت كيس نقودها ، اوسع بكثير مما يجب »[1] فان الدكتور هوجارث يرى ان تعطيل زحف قوة خيري بك وبعثة ستوترنجن — لاغير — تجعل بريطانيا

---

(١) مشرقيات : ص ١٧٧ ، ولكن المصادر البريطانية الاخرى تقول ان كية الليرات الذهبية التي تسلمها العرب كانت حوالي خمسة ملايين جنيه . فقد كانت بريطانيا تدفع مبلغ ١٢٥ ألف ليرة كل شهر خلال أشهر تموز ١٩١٦ – ايار ١٩١٧ وزيد المبلغ فأصبح ٢٠٠ ألف ليرة شهريا من حزيران إلى كانون الأول ١٩١٧ ثم ارتفع مرة اخرى فاصبح ٢٢٥ ألف ليرة من كانون الثاني حتى تموز ١٩١٨ . وكان مجموع ما تسلمه العرب خلال هذه الفترة ٤,٥٢٠,٠٠٠ ليرة ذهبا :
وفي شهر آب ١٩١٧ وزع مبلغ الـ ٢٠٠ ألف ليرة كما يلي : ٣٧,٥٠٠ إلى جيش علي و ٥٠,٠٠٠ إلى جيش عبد الله و ٥٠,٠٠٠ إلى جيش فيصل و ٣٧,٥٠٠ إلى–

مدينة للثورة « أكثر بكثير مما دفعناه حتى هذا اليوم ». [1]

ولكن تعطيل بعثة ستوتزنجن وقوة خيري بك بالاضافة الى منع الالمان من انشاء قواعد لزرع الالغام على الشاطيء الشرقي للبحر الاحمر ، لم يكن سوى جزء مما قدمته للثورة في ميدان الحرب . لقد قطعت الثورة خطوط المواصلات على ثلاث فرق تركية في اليمن وعسير وارغمتها على البقاء ساكنة طوال فترة الحرب وتمكنت قوات الثورة من اسر او قتل او مشاغلة قوات تركية يقدرها لورنس بسبعين الف جندي [2] هذا بينما بلغت نفقات بريطانيا على جيشها الذي قاتل على جبهة سيناء وفلسطين ٧٥٠ مليون جنيه . ومع ان (التاريخ الرسمي للحرب)يقول انه كان للثورة « تأثيرات بعيدة المدى على امتداد الحملة البريطانية في سيناء وفلسطين ، واستنزاف متواصل للاحتياط التركي ، وتهديد بالغ القوة للجناح التركي » ، [3] فان الكابتن جورج لويد قال في تقرير له بعد اعلان الثورة بستة اشهر ونصف ان الشريف ورجال قبائله يواجهون قوة توازي في ضخامتها القوة التي تقاتل في سيناء [4] . وفي ٣٠ آب ١٩١٦ قدّر سايكس القوات التي كان العرب يواجهونها بالاضافة الى تلك التي وقعت في اسرهم والتي حولتها الثورة عن قتال البريطانيين ، ب ٣٨٥٠٠ رجل [5]

وبناء على احصاءات العرب فان القوات العربية منذ قيام الثورة حتى اخر شهر آب ١٩١٨ اسرت وجرحت وقتلت اكثر من ١٤ الف تركي وغنمت ٥٠ مدفعا و ٥٩ رشاشة وبضعة الاف من البنادق ، ودمرت

– جيش زيد و ٢٥,٠٠٠ إلى جدة . وقد أنفق لورنس مبلغ النصف مليون ليرة الاضافي على عمليات الجيش الشمالي فقط .

(١) The Century, July 1920.

(٢) T.E. Lawrence, *Oriental Assembly*, p. 108.

(٣) ص ٤٠ .

(٤) تقرير الكابتن جورج لويد بتاريخ ٢٢ كانون الأول ١٩١٦ . وجورج لويد هو الذي خلف اللنبي مندوبا ساميا على مصر : P.R.O., F.O. 686/6, Part I

(٥) أوراق سايكس ، اوكسفورد .

١٥ آلة قطار و ٢٠٧ جسرا وعبارة و ٢٨٦٩٢ قضيبا من قضبان سكة الحديد . ويقول الجنرال ونجت ان العرب ارسلوا ٥٩٤٠ اسيرا الى مصر خلال هذه الفترة [١] وفي حملة دمشق قتل العرب حوالي خمسة الاف تركي واسروا حوالي ثمانية الاف وغنموا حوالي ١٥٠ رشاشة ومن ٢٥ الى ٣٠ مدفعا [٢] اما عند استسلام المدينة فقد وقع في الاسر ١٠٨٣٠ جنديا وضابطا وغنم العرب ٦٣ مدفعا من انواع مختلفة . فاذا اضفنا الى هؤلاء الحاميات الأخرى بين المدينة ومعان وجدنا ان المجموع العام لا يقل عن اربعين الفا .

حقا ان الثورة العربية ما كان يمكن ان تحقق ما حققته من نجاح ، لولا المساعدة البريطانية بالمال والسلاح . ولكن من الواضح ان العرب كانوا يشعرون اثناء الثورة ان بريطانيا لا تقدم لهم المساعدة الكافية. وبعد مرور خمسين عاما على انتهاء الثورة وجدت الامير زيد ، احد قادتها ، يسألني قائلا « ترى ما هي الاسباب التي منعت الانكليز من تقديم المساعدة الفعالة لنا اثناء الثورة . هل كانوا يقصدون ان نبقى ضعفاء ؟ ». [٣] والذي يطالع البرقيات التي كان الشريف يتبادلها مع مندوبه الفاروقي ، يجد عدة ادلة على عدم كفاية الاسلحة والاموال التي كانت تقدم للعرب . ففي الشهر الاول من عمر الثورة ارسل الانكليز شحنة من البنادق اليابانية انفجر ٢٠٪ منها في ايدي المقاتلين العرب بعد اطلاق بضع طلقات . وحتى نهاية الحرب كانت المدافع الالمانية التي يستعملها الاتراك ابعد مدى من المدافع التي ارسلها الانكليز للعرب .

ونرى نموذجا على ذلك في مسألة الجنود النظاميين الذين كانوا في الاسر . فقد كان الشريف يأمل في ان يتاح له تأليف جيش نظامي كبير من هؤلاء ، ولكن السلطات البريطانية المختصة لم تبذل الجهد الجدي

---

(١) Summary of the Hejaz Revolt, prepared by the General Staff, War Office, 31 August, 1918, p. 28.

(٢) تقرير لورنس في النشرة العربية العدد الصادر في ٢٢ تشرين الأول ١٩١٨ .

(٣) في أثناء ثلاث مقابلات للمؤلف مع سمو الأمير زيد في لندن بتاريخ ٢٦ و ٣٠ ايلول و ٦ تشرين الأول ١٩٦٨ .

لتحقيق ذلك . ففي اوائل الثورة رجع حوالي مئة من هؤلاء من جدة مما يدل انهم لم يعطوا المعلومات الكافية عن الثورة العربية واهدافها قبل خروجهم من معسكرات الاسر . وألّف الانكليز والفرنسيون كتيبة من الاسرى العرب تتألف من حوالي ٥٠٠ جندي وضابط ، ولكن هؤلاء ظلوا ينتظرون في مصر مدة من الزمن بسبب ذلك المشروع الذي يمتزج فيه الخيال بالقصد المبطّن الا وهو اخضاع الكتيبة لقيادة بريطانية — فرنسية مشتركة وتحمل الدولتين نفقاتها . ومن الدلائل على عدم اكتراث البريطانيين المختصين بأمر انشاء جيش عربي قوي ان نائب الملك في الهند ابرق بتاريخ ٣ نيسان ١٩١٨ الى المندوب السامي في مصر ، يشير الى مخابرات سابقة ويقول :

> من وقت إلى اخر نتلقى من اسرى الحرب العرب ومن المدنيين المحتجزين في الهند عرائض يطلبون فيها السماح لهم بالخدمة مع الشريف . اننا لا نستطيع ان نضمن حسن نياتهم . هل ترغبون ان نرسل اليكم في مصر أكبر عدد ممكن ممن يصلحون للخدمة العسكرية كي تقوموا بالتحقيق من أمرهم ؟

وكان جواب وزارة الحربية في ٢٠ نيسان مثالاً على عدم الاكتراث :

> ان مدير المخابرات العسكرية .... يرجو ان يعلن انه بما ان حكومة الهند لا تستطيع ضمان حسن نيات هؤلاء العرب بأية طريقة ، فيجب أن لا يرسلوا . أما اذا كان بالمستطاع معرفة بعض الافراد الذين يمكن ضمان حسن نياتهم ، فيجب ارسالهم (١)

لقد كان بمقدور المسؤولين البريطانيين الطلب الى الشريف ايفاد بعثة من رجاله الموثوقين الى معسكرات الاسرى في الهند ومصر ، بقصد القيام بالدعاية اللازمة لقضية الثورة والتحقّق من «حسن نيات» الافراد الذين يرغبون في التطوع . ولكن يبدو ان هذا الموضوع الخطير ترك في ايدي ضباط لا يهتمون سواء نجحت الثورة العربية او فشلت . ونرى

(١) P.R.O., F.O. 371/3396.

شخصا كالدكتور عبد الرحمن الشهبندر يقول انه رأى من البريطانيين في مصر من التشجيع تارة والتثبيط تارة اخرى ما لم يفهم له تعليلا معقولا . وكان بحكم عمله طبيبا للاسرى العرب في مصر كثير الاتصال بهم ويبث بينهم الدعاية لقضية العرب بقصد حملهم على التطوع » ولكن جهودنا كانت كلما أوشكت ان تثمر اصابتها صدمة عنيفة من رجال العسكرية البريطانية كادت تذهب بها . فكان كل تشجيع يأتي من المكتب العربي يقابله الكولونيل (سمسن)في معسكر المعادي بالمقاومة ووضع العراقيل . »[1]

ويجب ان لا ننسى ان الملك حسين كان يعتبر الاموال التي يدفعها البريطانيون له بمثابة تعويض عن احتلالهم للبصرة حسب الشرط الذي اشترطه في مذكرته الى مكماهون بتاريخ ٥ تشرين الثاني ١٩١٥ [2] مع العلم ان جميع الاموال كانت تنفق على العمليات الحربية ولا ينفق منها الا القليل القليل على الشؤون الادارية . وقد خرج الشريف وانجاله وقادة الثورة من الحرب وهم لا يملكون من المال ما كانوا يملكون قبلها [3] . وفي بداية الثورة كتب مكماهون للشريف يقول له ان الحكومة البريطانية ستقدم له مبلغ ١٢٥ الف ليرة في الشهر «من اجل الانفاق على الوجوه التي تجعل الحج آمنا والطرق مأمونة والحجاج في راحة ». [4] وأجاب الشريف بقوله ان هذه المبالغ الشهرية «سوف تخصم من المبلغ الذي تركنا تقديره لعدالة بريطانيا العظمى.. أثناء احتلالها للبصرة والعراق..[5] وقال في الرسالة ذاتها انه ما زال يحتفظ بأكثر المبلغ الذي دفع خلال الشهرين السابقين . ونستطيع ان نعرف رد الفعل عند المسؤولين البريطانيين مما كتبه مكماهون الى جراي تعليقا على رسالة الشريف «وجدت من

---

(١) مجلة المقتطف (القاهرة) اذار – تموز ١٩٣١ .
(٢) تقرير الكوماندر هوجارث في النشرة العربية ، ١١ كانون الثاني ١٩١٩ .
(٣) نوري السعيد ، مقدمة ترجمة كتاب « ثورة في الصحراء » تأليف لورنس ، ١٩٢٧ ، ص ٢٤ .
(٤) رسالة مكماهون بتاريخ ٢٦ تموز ١٩١٦ – (P.R.O., F.O. 141/462) .
(٥) رسالة الشريف بتاريخ ٢٥ آب ١٩١٦ – (P.R.O., F.O. 882/19) .

المناسب ان ارسل للشريف اشارة شفهية مؤداها ان عليه ان يسعى للرد على تأثير الذهب التركي بين القبائل العربية بأن يقوم هو بتقديم دفعات أكثر سخاء ». اما بشأن التعويض عن احتلال البصرة والعراق فقد قال مكماهون انه لا يحتاج الى تعليق في الوقت الحاضر [١] . ومن هذا نفهم ان البريطانيين هم الذين شجعوا الشريف على استعمال الذهب في مجال الدعاية وجمع الانصار ردا على ما كان يفعله الاتراك انفسهم وتركوا الشريف في الوقت ذاته يعتقد ان المبالغ التي يدفعونها ليست سوى تعويض عن احتلال البصرة والعراق . اضف الى ذلك ان المبالغ التي كان العرب يتلقونها كانت اقل مما كانوا بحاجة اليه ، وكان انجال الشريف يشكون دائما من قلة النقود حتى ان رواتب الجنود النظاميين في جيش فيصل لم تكن تدفع بانتظام وكادوا يرفضون السير في حملة ايلول ١٩١٨ بسبب تأخر دفع مرتباتهم .

---

(١) رسالة مكماهون بتاريخ ١١ ايلول ١٩١٦ – (P.R.O., F.O. 882/19) .

الفصل السادس

اتفاقيات سرية وعهود علنية

اتفاقية سايكس – بيكو : من الأقوال المأثورة عند العرب «السياسة لا دين لها». وقد ظهرت لا دينية السياسة في أبرز صورها ، فيما يتعلق ببلاد العرب ، ابان الحرب العالمية الاولى . كان لسان حال السياسيين في الدول الكبرى يقول : انها الحرب ، وكل شيء يجوز من أجل كسب الحرب . [1] وبهذا المنطق دخلت الحكومة البريطانية في اتفاقيتها المعروفة مع العرب وتعاقدت معهم من خلال مراسلات الحسين – مكماهون . وبهذا المنطق ذاته دخلت في اتفاقية اخرى مع الحكومة الفرنسية تناقض تماما روح الاتفاق مع العرب : هذه الاتفاقية الاخرى هي الاتفاقية التي استمدت شهرتها البشعة من اسمي الرجلين اللذين أنتدبا للتفاوض على بنودها وهما السير مارك سايكس عن بريطانيا والمسيو جورج بيكو عن فرنسا.

لقد كُتب الكثير عن هذه الاتفاقية وعن الظروف التي عقدت فيها ، وقيل في الدفاع عنها إنها كانت ضرورة حربية، وانه لم يكن هناك مفرّ من عقدها ، وان بريطانيا عقدتها وهي تعتقد باخلاص ان موادها لا تتناقض مع شروط الاتفاق مع العرب . ولكن على الرغم من كل ما كتب وقيل، فان المجال ما يزال مفتوحا لإلقاء المزيد من الضوء على علاقة العرب

---

(١) في ٣٠ ايلول ١٩١٩ كتب المعتمد البريطاني في جده إلى المندوب السامي في مصر يقول : «لقد تم تشجيع قيام الثورة العربية ضد الاتراك ثم تغذيتها وتمويلها لكي تساعد الحلفاء على كسب الحرب . وقد أعطيت للملك حسين وآخرين التزامات ووعود كثيرة ومتعددة يغلفها الغموض ، وكان يكمن وراء العديد منها الفكرة القائلة «لا شيء يهم سوى أن نكسب الحرب». ان بعض هذه الالتزامات يقدم الان طلباً للتسديد ...»
F.O. 686/63

بالاتفاقية وعلى موقف العرب منها ، خاصة بعد ان اجتهد المجتهدون المغرضون في سوق الأدلّة وتقديم البراهين على ان زعماء العرب يومذاك كانوا قد أحيطوا علماً في الوقت المناسب بشروط الاتفاقية ، وان سرّها الذي كشف عنه النقاب في أواخر ١٩١٧ لم يكن سراً بالنسبة الى اولئك الزعماء .

ولقد كانت مسألة اقتسام أراضي الدولة العثمانية تشغل بال ساسة الدول الكبرى منذ مطلع القرن التاسع عشر ، الا ان سياسة التوازن الدولي ، والخوف من ان تؤدي الرغبة في الاقتسام الى حرب واسعة النطاق ـــ كانت سبباً مهماً من أسباب إطالة عمر الدولة العثمانية . ولكن اندلاع نار الحرب العالمية الاولى قضى على تلك المحاذير ، ولم يبق على دول الحلفاء الكبرى ـــ روسيا وبريطانيا وفرنسا ـــ الا ان تتفق فيما بينها على عملية الاقتسام .

ان تدهور الموقف العسكري في الجبهة الروسية والانتصارات الساحقة التي احرزتّها الجيوش الالمانية ، دفعت روسيا الى طلب المساعدة العاجلة من حلفائها . وبادرت بريطانيا وفرنسا الى مهاجمة حصون الدردنيل بأساطيلها في محاولة لفتح الممر المائي الضيق بين البحر الاسود والبحر الابيض المتوسط ، وتأمين طريق الاتصال بين الدولتين الغربيتين وحليفتهما الشرقية . وعندما أخفقت الأساطيل في تحطيم حصون العثمانيين ، بادرت بريطانيا وفرنسا الى إنزال حملة برية في شبه جزيرة غاليبولي بقصد تحقيق الهدف ذاته .

وخشيت روسيا ان تنهار مقاومة العثمانيين بسرعة ، فقدمت في ٤ آذار ١٩١٥ مذكرة الى حكومتي بريطانيا وفرنسا تطالب فيها بان تكون استانبول والمضائق من نصيبها بعد انتهاء الحرب . ووافقت الحكومتان على طلب روسيا هذا على مضض ، ولكن خلال ذلك اقترحت فرنسا في١٤آذار على بريطانيا اجراء محادثات بين الدولتين فيما يتعلق بمصالحهما في اراضي الدولة العثمانية وأعربت عن نيتها في استلحاق سورية وكيليكيا بها ، وأوضحت الحكومة الفرنسية فيما بعد ان سورية في نظرها تشمل

فلسطين حتى الحدود المصرية . ولكن بريطانيا لم تبت في الاقتراح الفرنسي (خاصة لان روسيا اعترضت على طلب فرنسا فيما يتعلق بفلسطين). وألّفت في نيسان لجنة لبحث موضوع المناطق التي ترغب في بسط نفوذها عليها ، وعيّن السير موريس دي بنسن ، أحد كبار موظفي وزارة الخارجية ، رئيساً لها ، فعرفت اللجنة باسمه . وبعد سلسلة من المداولات أعلنت اللجنة انها تعارض وضع فلسطين ضمن منطقة النفوذ الفرنسي ، وانه «يجب الاعتراف بفلسطين قطراً يجب ان يكون مصيره موضوع مباحثات مخصوصة ، لما لهذا القطر من أهمية في نظر الدول المحاربة والدول المحايدة على السواء». (١)

ان مطامع فرنسا في سورية تعود الى زمن بعيد ، وكانت تتعامل مع الدولة العثمانية على أساس انها حامية المسيحيين الكاثوليك بينما كانت روسيا تلعب دور حامية المسيحيين الارثوذكس . وفي ١٨٦٠ — ١٨٦١ انزلت فرنسا قواتها على شاطىء لبنان بحجة حماية المسيحيين من المذابح ، وكان سياسيوها يغتنمون كل فرصة ملائمة للاعلان عن ان لهذه المنطقة مكانة خاصة في اعتبارهم . وكان السير ادوارد جراي قد صرّح في ٥ كانون الاول ١٩١٢ للسفير الفرنسي في لندن بأن بريطانيا لا مطامع لها في سورية . وعلى الأثر قام بوانكاره رئيس وزراء فرنسا يومذاك فأعلن ذلك في مجلس الشيوخ الفرنسي ، واعتبرت فرنسا تصريح جراي بمثابة موافقة من بريطانيا على مطامع فرنسا في سورية .

اما الحكومة البريطانية التي كانت قواتها العسكرية قد استولت على ولاية البصرة ، فقد كانت ترى ان مطامع الدول المتحالفة في اراضي الدولة العثمانية ، يجب ان لا تحول دون بقاء دولة اسلامية في تلك المنطقة. وقد وافقت في آذار ١٩١٥ على اقتراح بهذا المعنى عرضه جراي . وهذه السياسة أملتها بطبيعة الحال حقيقة وجود مئة مليون من المسلمين تحت

---

(١) Report of a Committee set up to consider certain correspondence between Sir H. McMahon... and the Sherif of Mecca in 1915 and 1916, Cmd. 5974 (1939), p. 51.

الحكم البريطاني . وكان كتشنر وزير الحربية البريطانية متفقا في الرأي مع جراي ، اذ جاء في مذكرة كتبها في ١٦ آذار ١٩١٥ قوله :

> اذا ما وقع اقتسام تركيا ، فان من مصلحتنا ان نرى مملكة عربية تقوم في بلاد العرب تحت رعاية انكلترا ، يحدها وادي دجلة والفرات من الشمال وتضم في داخلها الاماكن الاسلامية المقدسة الرئيسية : مكة والمدينة كربلاء [١]

ونتيجة لهذه السياسة أبلغت الحكومة البريطانية الحكومة الفرنسية أنها «تشترط وجوب بقاء الأماكن الاسلامية المقدسة وشبه الجزيرة العربية في جميع الحالات تحت حكم اسلامي مستقل» . [٢]

وبقي الموضوع معلقاً حتى خريف ١٩١٥ عندما برزت للعيان قضايا جديدة ، تستدعي المعالجة . فمن جهة كانت هناك العروض التي تقدم بها الشريف حسين لعقد تحالف مع بريطانيا مقابل انشاء دولة عربية تضم سورية الطبيعية كلها ، واصرار الشريف في مذكرته المؤرخة ٩ ايلول ١٩١٥ على ان توضح بريطانيا موقفها من حدود الدولة العربية المقترحة . ومن جهة اخرى كانت هناك مطالب فرنسا ومطامع بريطانيا ذاتها وضرورة تنسيق الوضع بين الاطراف الثلاثة . وهكذا اقترح جراي في ٢١ تشرين الاول ١٩١٥ على السفير الفرنسي في لندن ان تعين فرنسا ممثلا خاصا للبدء بالمفاوضات بين الدولتين حول سورية ، وجاء الاقتراح في اليوم التالي لتاريخ برقية جراي التي بعث بها الى مكماهون يخوله صلاحية كتابة رسالته المؤرخة في ٢٤ تشرين الاول ١٩١٥ .

وعين الفرنسيون فرانسوا جورج بيكو (قنصل فرنسا السابق في بيروت) ممثلا لهم في المباحثات وكان يومذاك سكرتيراً اولا في السفارة الفرنسية في لندن . وعقد بيكو اجتماعين مع لجنة بريطانية يترأسها السير

---

(١) *Alexandretta and Mesopotamia*, a memorandum by Lord Kitchener, 16 March 1915, p. 2; CAB. 24/1/G. 12.

(٢) For the text of this and other correspondence on this question, see Hurewitz, ii, 7-11.

آرثر نيكولسون الوكيل الدائم لوزارة الخارجية . وفي الاجتماع الاول الذي عقد في ٢٣ تشرين الثاني ١٩١٥ ، شرح نيكولسون اتصالات حكومته بالشريف ورغبتها في ضم العرب الى جانب الحلفاء ، وعرض ان تعطي فرنسا للعرب في المنطقة التي يمكن ان تخصص لها ، وعوداً مماثلة للوعود التي أعطتها بريطانيا « فيما يتعلق بالاستقلال العربي » . ولكن بيكو قال ان حكومته لا تستطيع ان تفعل ذلك وطالب بان تحصل « فرنسا على سورية وفلسطين من طوروس الى الحدود المصرية، (باستثناء الاماكن المقدسة) ومناطق الموصل وكركوك ودير الزور ، وقال ان فرنسا لن توافق مطلقاً على منح الاستقلال للعرب ...» . ولكن بيكو في الاجتماع الذي عقد يوم ٢١ كانون الاول ١٩١٥ قال انه بعد مساع حثيثة حصل على موافقة حكومته بأن تكون مدن حلب وحماة وحمص ودمشق داخلة في المنطقة التي سوف يتولى العرب ادارتها تحت نفوذ فرنسا ، وان حكومته تقدم على هذه التضحية رغبة منها في فصل العرب عن الاتراك .[1]

في هذه الأثناء كان سايكس قد عاد من القاهرة بعد ان اعتبرت مباحثاته مع الفاروقي نجاحاً لأساليبه الديبلوماسية ، فعهد اليه بمواصلة بحث التفاصيل مع بيكو لان كثرة أعمال اعضاء لجنة نيكولسون لم تكن تسمح لهم بذلك ، وقد أكد سايكس على بيكو ضرورة التساهل تجاه العرب ، لان عدم الاستجابة لمطالبهم يؤدي الى انحيازهم الى جانب الاتراك وقد ينتج عن ذلك ذبح المسيحيين في سورية فتفقد فرنسا بذلك الحجة التي تحتاج بها للمطالبة بتلك البلاد ، وان العرب اذا انحازوا الى الاتحاديين سيكونون أشد خطراً مما لو وضعوا تحت حكم الشريف « اذ سيمضون في مخاصماتهم بعضهم مع بعض ، كما هو ديدنهم »[2]

لم يكن سايكس من طراز الرجال الذين يدققون في الامور وينفذون

---

(١) P.R.O., F.O. 882/2.

(٢) War Committee meeting, 16 Dec. 1915, Evidence of Lieut,-Col. Sir Mark Sykes on the Arab Question', p. 3; GAB. 42/6.

الى أعماقها . وقد أدّى ميله للتعميمات وتبسيط المتناقضات مع تصوراته الخيالية ، الى نتائج محزنة . ولو تركت القضايا العربية في ايدي المسؤولين البريطانيين ذوي الخبرة الطويلة والمعرفة الدقيقة بالعرب من أمثال ونجت وكلايتون وستورس ، لكان من المرجح ان لا تقع السياسة البريطانية في الأخطاء التي وقعت فيها بفضل سايكس . لاحظ مثلاً ان جراي كان قد أبرق الى القاهرة في ٢ تشرين الثاني يسأل عما اذا كان العرب مستعدين لقبول مستشارين فرنسيين مثلما وافقوا على قبول مستشارين بريطانيين . وكان جواب مكماهون ان العرب لا يرحبون بفكرة وجود نفوذ فرنسي في مناطقهم وهم يرغبون في الاستعانة بمستشارين بريطانيين فقط [١] . ولكن عندما وصل سايكس الى القاهرة بعد اسبوعين واجتمع بالفاروقي ، بادر لابلاغ لندن قصة مختلفة ، مؤداها ان العرب يقبلون بمنح فرنسا جميع الامتيازات في سورية وفلسطين حتّى معان ، ومعاملة مماثلة لبريطانيا في بقية الاقطار العربية . ولقد بلغ سايكس أقصى درجات السطحية والغفلة عندما اعتبر الفاروقي ممثلاً للعرب والشريف بينما لم يكن كذلك ، وبينما لم يوافق الشريف — ممثل العرب الحقيقي — في مراسلاته على شيء من هذا . وعقلية سايكس هذه سمحت له ان يتصور اتحادا في الشرق بين العرب واليهود والارمن ، ووفاقا بين العرب وفرنسا وبريطانيا ، وانسجاما بين حصول العرب على الاستقلال من جهة وخضوع بلادهم لنفوذ بريطانيا وفرنسا من جهة اخرى . بل ان هذه العقلية سمحت له ان يبذل جهودا كبيرة لمنح تصريح الوطن القومي في فلسطين للصهيونيين ، وهو يعرف جيدا ان العرب يعارضونه أشد المعارضة [٢] . هذا هو الرجل الذي يقال انه كان «القوة الدافعة

---

(١) McMahon to Grey, 7 Nov. 1915, printed in Memo. on the British Commitments to King Hussein, p. 10; CAB. 27/36, E.C. 2201.

(٢) جاء في رسالة بعث بها سايكس من بيتروغراد إلى جراي بتاريخ ١٤ آذار ١٩١٦ « يجب علي أن أضيف انني عندما كنت في القاهرة أخبرني الدكتور فارس نمر والفاروقي — وهما على طرفي نقيض في النظر للقضايا السياسية — ان العرب مسيحيين ومسلمين —

الرئيسية وراء سياسة الحكومة البريطانية في الشرق الاوسط اثناء الحرب».[1]

وهكذا أعطت برقيات سايكس للحكومة البريطانية الحل الذي كانت تبحث عنه ، وبدا للساسة البريطانيين انهم يستطيعون التوفيق بين مطامعهم ومطامع فرنسا ومطامح العرب . وكان الاتفاق مع فرنسا ضروريا قبل بدء الزحف الى الشرق من قناة السويس . ذلك انه بعد عجز حملة غاليبولي عن احراز اي نتائج مهمة بفضل الدفاع التركي المجيد ، قرّرت بريطانيا حشد قواتها في مصر . وهنا أخذ الفرنسيون يتساءلون عن اسباب حشد قوات كبيرة بعيدا عن ميدان القتال الرئيسي في اوروبا ويتساءلون عما اذا كانت حليفتهم تنوي الاستيلاء على سورية بمعزل عنهم . من هنا برزت ضرورة عقد الاتفاق مع فرنسا بشأن سورية ، وفي الوقت ذاته تأمين انحياز العرب الى جانب الحلفاء .

لا حاجة بنا للدخول في تفاصيل المباحثات التي دارت بين سايكس وبيكو حول سورية ، ولكن يكفي القول ان الاتفاق عقد طبقا لفكرة اللورد كتشنر بايجاد منطقة عربية في الجنوب على ارتباط ودي مع بريطانيا دون غيرها من الدول ، ثم على وجود منطقة وسطى يخضع جزء منها للحكم البريطاني المباشر (البصرة وعكا وحيفا)وجزء آخر للاشراف البريطاني ، وأخيرا على وجود منطقة شمالية يخضع جزء منها للحكم الفرنسي المباشر (الساحل السوري وكيليكيا)بينما يخضع الجزء الآخر منها للاشراف الفرنسي (سورية الداخلية وولاية الموصل). والغاية من هذا الحزام الشمالي الخاضع لفرنسا ان يخدم الاستراتيجية البريطانية التقليدية القائلة بانه يجب ان لا تكون حدود برية مشتركة في آسيا بين بريطانيا وروسيا . وهذا هو السبب الأهم في موافقة بريطانيا حينذاك على اعطاء ولاية الموصل لفرنسا .

نتج عن اجتماعات سايكس وبيكو مذكرة وضعاها بتاريخ ٥

— على حد سواء ، سوف يقاتلون حتى الرجل الأخير ضد استيلاء اليهود على فلسطين ».
P.R.O., F.O. 371/2767

(١) Ormsby Gore. See : Shane Lesly, *Mark Sykes*, p. 288.

كانون الثاني ١٩١٦ بعنوان «المسألة العربية» وعرضا فيها لرغبات الفرقاء الثلاثة وقالا ان التوفيق بين هذه الرغبات يقتضي اكتشاف «سبيل وسط» ويتطلب من الجميع ان «يتبعّوا روح التراضي المتبادل». وقالت المذكرة ان «الفكرة المثلى للزعماء العرب هي تأسيس اتحاد دول تحت زعامة امير عربي ، وان يضم ذلك الاتحاد شبه الجزيرة العربية ومناطق البصرة وبغداد والقدس ودمشق وحلب والموصل وأطنه وديار بكر ، وان تكون سواحل هذه المناطق تحت حماية بريطانيا العظمى وفرنسا». وأشارت المذكرة الى أهمية الاماكن المقدسة في فلسطين مما يقتضي انشاء ادارة دولية فيها شريطة ان يكون «جامع عمر» تحت سيطرة المسلمين وحدهم «وان يكون لرئيس الاتحاد العربي صوت على قدم المساواة مع سواه في ادارة فلسطين». ثم قدم سايكس وبيكو اقتراحهما بتقسيم المنطقة حسب الخطة التي تضمنتها الاتفاقية النهائية . وفي ٢ شباط قدم نيكولسون المذكرة الى السير ادوارد جراي وقدم معها نسخة من برقية سايكس المرسلة من القاهرة في ٢٠ تشرين الثاني ١٩١٥ التي ضمنها محادثاته مع الفاروقي [١] وبعد يومين وافقت الحكومة البريطانية على مسودة الاتفاقية ووافقت عليها فرنسا بعد ذلك باربعة ايام . والغريب في الموضوع استمرار سايكس في القول ان «الفكرة المثلى للزعماء العرب» تتضمن وضع سواحل العراق وسورية «تحت حماية بريطانيا العظمى وفرنسا»، ومضيّه في الاستشهاد بما فهمه هو من أقوال الفاروقي ، وجرّ الحكومة البريطانية الى الاعتقاد بصواب ما أوصى به على الرغم من ان رسائل الشريف كانت تناقض استنتاجات سايكس . ترى أكان ذلك ضربا من التمني ؟

وفي آذار ١٩١٦ ذهب سايكس وبيكو الى روسيا للتفاوض على المناطق التي تتعلق بالدول الثلاث . وكانت النتيجة وضع اتفاقية شاملة اعترفت فيها كل دولة من الدول الثلاث بالمناطق التي تخضع للدولتين الاخريين ، واعتبرت اتفاقية سايكس بيكو جزءا من الاتفاقية الكبيرة .

---

(١) *Arab Question*, Memo. by G.P. and M.S., together with the note of Nisolson. P.R.O., F.O. 371/2767.

وفي ١٦ ايار ١٩١٦ بعث جراي بمذكرة الى السفير الفرنسي في لندن ، تضمنت نص الاتفاقية وموافقة الحكومة البريطانية نهائيا عليها . اما أهم شروط الاتفاقية فهي :

١ — انشاء دولة عربية مستقلة تحت رئاسة زعيم عربي في منطقة (أ) (وتضم مدن الموصل وحلب وحماة وحمص ودمشق) ومنطقة (ب) وتضم كركوك وشرقي الاردن والنقب والعقبة) . وتعترف فرنسا وبريطانيا بهذه الدولة وتعاضدانها [1] ، على ان يكون لفرنسا في منطقة (أ) ولبريطانيا في منطقة (ب) حق الأولوية في المشروعات وتقديم المستشارين والموظفين «بناء على طلب الحكومة العربية».

٢ — يخضع الساحل السوري من اسكندرونة شمالا حتى صور جنوبا (المنطقة الزرقاء) لحكم فرنسا المباشر . وتخضع ولايتا بغداد والبصرة (المنطقة الحمراء) لحكم بريطانيا المباشر . وتنشيء هاتان الدولتان كل منهما في منطقتها ، ما ترغبان فيه من أشكال الحكم « بالاتفاق مع الحكومة العربية ».

٣ — تنشأ ادارة دولية في فلسطين (المنطقة السمراء) بالاتفاق مع روسيا وبقية الحلفاء وشريف مكة .

٤ — تنال بريطانيا ميناء حيفا وعكا .

ان هذه الاتفاقية تمثل الروح الاستعمارية القديمة في أبشع صورها ، فقد عقدتها الدولتان على أساس مصالحهما ومطامعهما دون ان تلقيا بالا لرغبات سكان المناطق وحقوقهم ومطامحهم القومية . فالعراق وضع تحت ثلاثة

---

(١) في النص الأساسي للاتفاقية جاءت العبارة « ان فرنسا وبريطانيا العظمى مستعدتان ان تعترفا بدولة عربية مستقلة وان تحمياها .. » ولكن السير ادوارد جراي كتب إلى السفير الفرنسي في لندن يقول ان كلمة تحمي (Protect) يمكن أن يساء تفسيرها اذ تسمح للمرء أن يفهم انها تتضمن نوعا من الحماية « بينما قصدنا نحن ان نضمن الاستقلال التام للدولة الجديدة » . وقد أجاب السفير الفرنسي في ٥ آب ١٩١٦ يقول « انني من ناحيتي لاأرى مانعا يحول دون تعديل هذه العبارات تبعا للرغبة التي أبديتها لي » . واقترح السفير كلمة « يعضد (Uphold) بالانكليزية و (soutenir) بالفرنسية فوافق عليها جراي — British Documents, iv. pp. 248-9.

أنواع من الحكم ، وسورية الطبيعية قسمت بحيث تخضع مناطقها المختلفة الى خمسة انواع من الحكم[1] . اما الدولة العربية المستقلة فقد حُرمت من الاتصال بالبحر وفُرض عليها ان تستعين ببريطانيا في النصف الجنوبي وان تستعين بفرنسا في النصف الشمالي . وليس من شك في ان الاتفاقية تناقض العهود التي قطعتها بريطانيا للعرب ، نصاً وروحـــاً ، وفي ان بريطانيا كانت تعرف ذلك التناقض وتسكت عليه ، على الرغم من اقوال الساسة البريطانيين فيما بعد أن الاتفاقية وضعت على أساس اتفاق بريطانيا مع العرب . ومن المؤكد ان الشريف لم يحط علما بالاتفاقية وظل يجهل هو وقادة العرب الآخرون وجودها حتى منتصف سنة ١٩١٨ عندما نشرت جريدة (المستقبل) الفرنسية تفاصيلها . وقد احيط الفرنسيون علما بمجمل الاتفاق مع الشريف ولكنهم لم يحاطوا علما بالتفاصيل الحيوية . حتى ان وزير الهند وجد من واجبه ان يلفت نظر وزير الخارجية في مذكرة مستعجلة بتاريخ ٢٨ شباط ١٩١٦ الى ما جاء في رسالة الشريف المؤرخة في ١ كانون الثاني ١٩١٦ والتي اشار فيها الى سواحل سورية بقوله «وعليه يستحيل امكان اي تساهل يكسب فرنسا او سواها شبرا من اراضي تلك الجهات » ، ويستفهم عما اذا كان وزير الخارجية لا يرى ضرورة لإحاطة فرنسا علماً باعتراضات الشريف القاطعة، على المطالب الفرنسية.وعبّر وزير الهند عن خشيته من ان الحكومة البريطانية ستُتّهم في المستقبل بسوء النية، اذا استمرت في المفاوضات مع فرنسا

---

(١) جاء في مذكرة قدمها الوفد العربي في باريس إلى الوفد البريطاني ، ان الاتفاقية « تعرض للخطر حياة البلاد الاقتصادية ، إلى حد ان مسافراً يتجه بواسطة القطار من مدينة ساحلية – عكا مثلا – إلى مدينة داخلية مثل حلب ، يتوجب عليه أن يعبر أكثر من اثني عشرة نقطة حدود في قطر صغير كسورية . ان تقطيع الأوصال هذا لم يأت نتيجة لضرورة ، وهو من الغرابة بحيث يستحيل تبريره » .(مذكرة بتاريخ ١٠ ايلول١٩١٩).اما فيصل فقد قال ان العرب يعتبرون الاتفاقية « بمثابة حكم بالاعدام عليهم»– محضر الاجتماع بين الوفد العربي والوفد البريطاني في لندن يوم٢٣ ايلول ١٩١٩ – B.D. IV, 375-7 and 413-418

دون ان تحيطها علما بما يقوله الطرف الثالث .[1] ولكن وزارة الخارجية فضلّت ان تغمض عينيها ولم تحط الفرنسيين علما باعتراضات الشريف مثلما انها لم تحط الشريف علما بحقيقة المطامع الفرنسية وموافقتها هي على تلك المطامع .

كانت وزارة الخارجية تحيط مكماهون علما بسير المباحثات مع الفرنسيين ، وفي ٢٧ نيسان ١٩١٦ أبلغته الخطوط العريضة للاتفاقية واختتمت برقيتها بقولها انه «نتيجة للترتيب الجديد فمن المعتقد انه يمكن الان تسوية الخلاف العميق بين العرب والفرنسيين بشأن الساحل السوري..» وكانت امام مكماهون فرصة لتصحيح هذا المفهوم الخاطيء ، ولكنه لم يفعل بل أبرق في ٤ ايار يقول «انه على الرغم من عدم وجود اي شيء في الترتيب الذي تمّ التوصل اليه بين فرنسا وروسيا وبيننا ، كما حددته برقيتكم ، يتعارض وأية اتفاقية عقدناها مع الشريف والجهات العربية الاخرى او أية تأكيدات أعطيناها لهم ، فمن رأيي انه يكون أفضل اذا أمكن عدم البوح بتفاصيل ذلك الترتيب للجهات العربية في الوقت الحاضر». وبنى مكماهون رأيه هذا على أساس ان العرب يمكن ان يسيئوا فهم الترتيب اذا عرفوا به . واضاف قائلا انه يمكن نقل أنباء الاتفاقية للعرب فيما بعد «عندما تتطور الاحداث تطوراً أفضل لمصلحتنا» . وردّت وزارة الخارجية بعد يومين بالموافقة على ابقاء الاتفاقية طي الكتمان .[2] وقد قدّم مكماهون توصيته بكتمان أمر الاتفاقية بعد ان تلقى تعليقات الاستاذ هوجارث بشأنها ، ولكنه اختار أن يهمل ما جاء في تلك التعليقات من «ان الشريف في الوقت الذي لم يتراجع عن المطالب التي تقدم بها في الخريف الماضي بادخال سورية بأجمعها مع فلسطين حتى درجة العرض ٣٧ شمالا ، في منطقة الاستقلال العربي ، ولم يخفف من عدائه المعلن للنفوذ الفرنسي – قد ترك كل بحث في الحدود الجغرافية منذ بدء السنة

(1) Letter from the India Office to the F.O., P.R.O., F.O. 371/2767

(2) F.O. telegram No. 339 and No. 371. McMahon's telegram No. 329 — P.R.O., F.O. 371/2768.

الحالية ووعد ببدء العمل الى جانبنا في وقت قريب دون ان يجعل موافقتنا على طلباته شرط مسبقا .. »[1]

لقد قيل الكثير في نقد هذه الاتفاقية وقيل الكثير في تبريرها ، ولكن بالنسبة الى العرب كانت الاتفاقية ضربة قاصمة لآمالهم ومطامحهم . ومن المؤكد ان العرب ما كان يمكن ان يجنحوا الى الثورة لوأنهم علموا بالاتفاقية في الوقت المناسب ، ولكانوا فضّلوا ان يربطوا مصيرهم بمصير الأتراك ، مهما تكن النتائج . ونستطيع ان ندرك مدى الاذى الذي لحق بالعرب من جراء هذه الاتفاقية من كون العمل بموجبها قد حال دون انشاء الدولة العربية القوية التي كانوا يطمحون الى انشائها . وقد جرّ العمل بالاتفاقية مصائب كبيرة على العرب منذ ذلك الحين ، اذ نتج عن ذلك تقسيم سورية الطبيعية الى أربعة أقاليم (سورية ، لبنان ، فلسطين وشرقي الأردن). وهذه التجزئة حالت بين العرب وبين تقديم العون الفعّال لعرب فلسطين في مكافحتهم للغزوة الصهيونية ، فكان انشاء اسرائيل نتيجة لذلك ، بينما نشأت في الأقاليم الثلاثة الاخرى أنظمة حكم اختار كل منهـا التمسّك بالبقـاء في حدوده الضيقـة حتى بعد انسحاب فرنسا وبريطانيا من المنطقة . لو ان بريطانيا وفرنسا رحمتـا هذه البلاد المنكودة ، على الاقل بتخلي احداهما للاخرى عن حصتها فيها ، ووضع سورية الطبيعية تحت حكم دولة واحدة — لكان من المؤكد ان تكون المصيبة أخفّ بكثير ولكان بمقدور سورية ان تتطور وتنمو وحدة واحدة ضمن حدود جغرافية واحدة وفي ظل نوع واحد من انواع الحكم . ولكن المطامع الاستعمارية شاءت ان تفصل الجسد الواحد الى عدة أجزاء ، وقضت ان يعيش كل جزء الحياة البائسة التي يسمح له بها كيانه الضيّق الهزيل بعد فصله كليا عن اعضاء الجسد الاخرى. حتى اللورد كرزون سمح لنفسه عام ١٩١٨ ان يقول ان حدود المناطق التي وضعتها الاتفاقية تدل على «الجهل المطبق »، وانها «غير عملية على

---

(١) Memo, on 'Anglo-Franco-Russian Agreement' dated 3 May, 1916 — P.R.O., F.O. 882/16.

الاطلاق »، وانها تفصل العرب في منطقتي (أ) و (ب)» بخط تقسيم لا يمكن تصديقه وهو خيالي الى أبعد الحدود ». [1]

مباحثات سايكس في جدة : في اوائل سنة ١٩١٧ شعرت حكومتا بريطانيا وفرنسا ان الوضع العسكري أخذ يتطور لمصلحتهما في الشرق ، وأن الجيش البريطاني قد يتمكن من اختراق خطوط الاتراك في غزة وبير السبع مما قد يؤدي الى انسحاب الاتراك من سورية كلها . ولكيلا يتخلّف العمل السياسي عن العمل العسكري ، اعتزمت الحكومتان ان ترسلا بعثتين سياسيتين ، احداهما بريطانية برئاسة سايكس والاخرى فرنسية برئاسة بيكو ، للالتحاق بقيادة الجيش البريطاني بقصد اجراء الاتصالات مع سكان البلاد وتقريب وجهات النظر وإعداد الأذهان لتطبيق اتفاقية سايكس بيكو . وفي ٦ آذار أبلغت وزارة الخارجية المندوب السامي في القاهرة ، بقرب مجيء البعثة ، وطلبت الاتصال بالملك حسين من اجل انتداب ممثل له يعمل مع البعثة ، كما قالت ان سايكس سوف يتباحث مع الزعماء السوريين في القاهرة . وكان من رأي كلايتون انه لا يوجد في مصر عربي سوري له الوزن الكافي للتفاوض معه ، لذلك يستحسن ان يستمع سايكس الى آراء السوريين البارزين في مصر من مختلف الاتجاهات بقصد الاستنارة فقط . اما فيما يتعلق بالملك حسين فالصعوبة هي انه «لم يكن على علم ببنود اتفاقية سايكس — بيكو »فهل تقضي الضرورة ابلاغه الخطوط العامة لتلك الاتفاقية قبل الطلب اليه ارسال ممثل عنه يشترك في مداولات البعثة ؟ ولكن اذا عرف الملك بأن بريطانيا وفرنسا عقدتا اتفاقاً قبل بدء مداولات البعثة ، فستكون هناك مجازفة بأن «يعتقد انه لم يُعامل بالصراحة والصداقة اللائقتين » [2]

---

(١) اجتماع اللجنة الشرقية يوم ٥ كانون الأول ١٩١٨ — (الملف CAB 27/24)
ولكن على الرغم من هذه الأقوال فان كرزون نفسه اشترك عام ١٩٢٠ اشتراكاً مباشراً في وضع تلك الاتفاقية اللعينة موضع التنفيذ .

(٢) Note by Clayton dated 10 March 1917 on F.O. telegram No. 219
P.R.O., F.O. 882/16.

وأبرق ونجت الى وزارة الخارجية يقول «ان الملك لم يُبلّغ حتى الان مضمون اتفاقية سايكس – بيكو »، ولذلك ينبغي إتّباع أحد سبيلين : اما ان يبلغ الخطوط العامة للاتفاقية ، او ان تبقى الاتفاقية مكتومة ويقـــال للملك ان البعثـــة سوف تبحث مستقبـــل سورية مجدداً . وأجابت وزارة الخارجية بان يُكتفى بإبلاغ الملك ان البعثة سوف تساعد الجنرال موراي «في علاقاته مع الأهلين وراء الحدود المصرية »وبأنه لا ضرورة لاعطاء الملك انطباعاً بان مستقبل سورية سوف يبحث من جديد . [١] . وقدّم الكولونيل ولسون توصية «بأن يقال للشريف أكثر ما يمكن قوله فيما يتعلق بهدف البعثة الحقيقي ». [٢]

ولكن توصية ولسون لم يؤخذ بها ، بل أبلغ الملك حسين في ١٩ آذار رسالة من ونجت تقول انه بالنظر لطرد الاتراك من سيناء فان حكومتي بريطانيا وفرنسا عيّنتا ضابطين سياسيين لكي يساعدا القائد العام البريطاني في علاقاته مع الأهلين وراء الحدود المصرية ، وان الحكومتين تطلبان من الملك ان يختار ممثلا عنه ليرافق هذه الهيئة السياسية . وبعث ولسون مع هذه الرسالة رسالة خاصة الى الشريف قال فيها ان المندوب البريطاني هو السير مارك سايكس «الذي يضع مصالح العرب قريباً جدا من قلبه ، والذي يعرف كل الترتيبات التي وضعت بين الحكومة البريطانية وجلالتك بشأن المملكة العربية ». ووصف ولسون سايكس بانه «صديق مخلص جداً ومتحمس» للعرب [٣]

وأجاب الملك معبرا عن سروره بقدوم البعثة وقال ان ذلك «يبرهن على ان بريطانيا العظمى ترغب حقا في مساعدة الامة العربية ومعاضدتها...»

---

(١) Telegram No. 257 dated 12 March 1917 from H.C. to F.O., and telegram No. 260 dated 14 March 1917 from F.O. to H.C. : P.R.O., F.O. 882/16.

(٢) Idem. Telegram No. W. 609 of 17 March 1917, from Wilson to Clayton

(٣) Private letter from Wilson to Hussein dated 19 March 1917 : P.R.O., F.O. 882/16.

وقال انه سيختار ممثلا له اما الشريف شاكر بن زيد مساعد عبدالله في قيادة الجيش الشرقي او الشريف شرف بن راجح مساعد فيصل في قيادة الجيش الشمالي . (١) وفيما بعد استقرّ رأيه على ان ينتدب نجله الرابع الامير زيد .

وهكذا لم يبلّغ الشريف بحقيقة هدف بعثة سايكس — بيكو . ولكن يبدو ان الشريف ربط في ذهنه بين رسالة ونجت الوسمية وبين العبارات التي تفوه بها نيوكمب لعزيز علي المصري قبل ذلك ببضعة ايام حول هدف البعثة . لقد كان ولسون واثقاً من هذا ، فكتب في ٢١ آذار رسالة طويلة الى كلايتون حثّ فيها بشدة على ابلاغ الشريف بهدف البعثة الفعلي ، وحذّر من ان ثقة الشريف ببريطانيا سوف تتزعزع اذا هو اكتشف فيما بعد ان المهمة الرئيسية للبعثة هي البحث في مستقبل سورية. وقال ولسون ان تسوية القضايا السورية يجب ان لا تتم وراء ظهر الشريف ، وانه جدير جداً بثقة الحكومة البريطانية «وأنا أشعر شعورا أكيدا اننا سوف نأسف كثيرا في المستقبل اذا لم نصارحه الان مصارحة تامة بالموضوع كله .... بحق السماء دعونا نكون مستقيمين مع الرجل الشيخ، فانني على يقين اننا سنحصد جزاء الاستقامة في النهاية» .(٢) ولكن صرخة ولسون الأمينة ظلّت صرخة في واد ، وفضّلت وزارة الخارجية البريطانية الاستمرار في انتهاج اسلوب التعمية والغموض واللف والدوران . (٢)

ولم يستطع الشريف الصبر طويلا على الغموض الذي كان يكتنفه ، فكتب رسالة الى ولسون يقول انه يود ان يبحث واياه قضايا متعددة ومن بينها مسألة ذلك الجزء من البلاد في الشمال الغربي وهو الجزء الذيّ نلناه في اتفاقيتنا ». (١)

---

(١) Telegram No. W. 648 dated 22 March 1917, from Wilson to Arbur : P.R.O., F.O. 882/16.

(٢) Wilson's letter with a post script of 22 March 1917 : P.R.O., F.O. 882/12

وفي الاجتماع الذي عقده الشريف مع ولسون يوم ٩ نيسان طلب ان تثق به حكومة بريطانيا مثلما يثق هو بها ، وأشار الى الاساسات التي قامت عليها الحركة العربية ، ثم سأل عن مصير اتفاقيته مع الحكومة البريطانية «التي تعطيه سورية كلها وبغداد ، بينما تحال البصرة مؤقتا الى عهدة بريطانيا مقابل دفع اعانة مالية ». وأجاب ولسون ان وظيفته هي مساعدة الشريف في الشؤون الحربية وان لا علم له بالاتفاقية ولا بالقضايا السياسية العليا . ولكن هذا الجواب التهربي لم يثبط من عزيمة الشريف فمضى يقول انه «اذا رأت الحكومة البريطانية من الملائم ان تعدل الاتفاقية بحيث تحول بينه وبين جزء من الاراضي التي كان يعتبرها له بموجب الاتفاقية فانه لا يستطيع ان يرغم بريطانيا على الوفاء بالتزامها ، ولكن قضيته كلها سوف تنهار ولن يجد بدأ من الانسحاب تماما من الحركة ».[٢]

أبدى الشريف في اجتماعه الثاني مع ولسون رغبة شديدة في الاجتماع بسايكس شخصيا ، وقال انه يدعوه للقدوم الى جدة . ورأى المسؤولون البريطانيون ان اجتماع سايكس بالشريف قد يكون ذا فائدة في بعث الاطمئنان في نفس الشريف وفي نفوس العرب ، فتقبل سايكس الدعوة .

وقد رافقت وصول سايكس وبيكو الى القاهرة في النصف الثاني من نيسان ، دعاية واسعة من الجانب الفرنسي . فقد جاء بيكو على رأس وفد كبير وعقد اجتماعا مع السوريين واللبنانيين قال فيه «ان جميع دول الحلفاء قد انتخبوا فرنسة وصية على لبنان ». وكان لتصريحات بيكو صدى قوي بين السوريين ، اذ كانت اول بيان علني يتعلق بخطة دولة أجنبية للاستيلاء على جزء من اراضيهم . وكتب الفاروقي الى الشريف يسأل عن رأيه

---

(١) Memo. dated 3 Apr. 1917 by Clayton : P.R.O., F.O. 882/16.

(٢) Telegram dated 9 Apr. 1917 from Wilson to Arbur : P.R.O., F.O. 882/12.

«ازاء هذا الحادث السياسي الجديد».[1] وكان جواب الشريف ان المعتمد البريطاني في جدة أبلغه بمجيء سايكس . وطلب من الفاروقي ان يستفهم من المندوب السامي عن معنى خطبة بيكو .

ووافقت وزارة الخارجية ان يدور بحث سايكس مع الشريف في نطاق التعليمات التالية :

١ — يطمئن الملك حسين بشأن مقاصد فرنسا في داخلية سورية . وقد وافق مسيو بيكو ان يدع هذا الامر في يدي السير مارك سايكس .

٢ — يوضح للملك ، انه على الرغم من تصميم الحلفاء على تعضيد مطامح الجنس العربي ، فان سلطة الملك حسين لا يمكن فرضها على الناس الذين لا يرغبون في ذلك ، وان اتساع الملك الشريفي يجب ان يعتمد على قبول الأهلين ذوي العلاقة به .

٣ — يوضح فيما يتعلق ببغداد ومنطقتها ، اننا بينما نرغب في تعزيز المدنية العربية والازدهار للبلاد ، فاننا سوف نحتفظ لأنفسنا بالسلطة العسكرية والسياسية التي تقتضيها مصالحنا الاستراتيجية والتجارية .

وتضمنت التعليمات القول انه اذا كانت زيارة سايكس ناجحة فيمكن ترتيب زيارة ثانية يقوم بها سايكس وبيكو معا ، وعندئذ «يمكن اعطاء التفاصيل الوافية عن ذلك الجزء من الاتفاقية الانكليزية — الفرنسية المتعلق بانشاء اتحاد عربي او دولة مستقلة».[2]

ورؤي ان مما يزيد احتمالات نجاح الزيارة ان ينقل سايكس الى الملك حسين رسالة تمنيات وتشجيع من الملك جورج وان يبلغه بموافقة الحكومة البريطانية على زيادة الاعانة المالية .

---

(١) العمري ، تاريخ مقدرات العراق السياسية ، المجلد الثاني . برقية الفاروقي بتاريخ ٤ رجب ١٣٣٥ (٢٦ نيسان ١٩١٧) ، ص ص ١٠٥ — ١٠٦ .

(٢) Tlgrm No. 472 of 28 Apr. 1917 from Wingate to F.O., and tlgram No. 446 of 30 Apr. 1917 from F.O. to Wingate : P.R.O., F.O. 371/3054 وتجد تبسيطا لهذه التعليمات في رسالة خاصة مؤرخة ٢٨ نيسان ١٩١٧ من كلايتون إلى ولسون في P.R.O., F.O. 882/12

وهكذا غادر سايكس القاهرة فاجتمع بفيصل في الوجه يوم ٢ ايار وفي ٥ ايار اجتمع بالملك حسين ونقل اليه رسالة ودية من الملك جورج . وأبلغه موافقة الحكومة البريطانية على زيادة الاعانة الشهرية الى ٢٠٠ ألف جنيه . وفي اثناء الاجتماع قال الملك :

١ — اذا لم يكن استقلال العرب مؤكدا، فهو يخشى ان الأجيال العربية القادمة سوف تتهمه بالمساعدة على قلب آخر دولة اسلامية بدون تأسيس دولة اسلامية اخرى تحل محلها ؛

٢ — اذا ضمّت فرنسا سورية اليها، فسيكون هنالك مجال لاتّهامه بخداع مسلمي سورية عن طريق دفعهم للثورة ضد الاتراك لكي يسلمهم الى دولة اجنبية .

وقال سايكس لحكومته معلقا على قول الشريف «ان كلتا النقطتين مهمتان وتستحقان التبصّر والعطف ». اما ما قاله سايكس للملك فقد كان الى حد ما ضمن التعليمات التي تسلمها ، اذ شرح له «الاتفاق المتعلق بالاتحاد العربي او الدولة العربيـــة »وأوضح « أهمية التسوية الفرنسية — العربية ». وعلى حد قول سايكس أقرّ الملك ان تلك التسوية «ضرورية للتطور العربي في سورية ».

واعتبر سايكس انه ادّى مهمة ناجحة فاعتزم ان يعود ثانية الى الحجاز هو وبيكو ، خاصة بعد ان أبدى الملك رغبة قوية للاجتماع ببيكو . [١] ومما هو جدير بالذكر ان سايكس اصطحب معه الكولونيل ليتشمان أحد كبار الضباط السياسيين في العراق ، كي يؤكد للشريف ان العراقيين لا يهتمون بالحركة العربية وانه من غير المعقول فرضها عليهم ! . ولكن ليتشمان — لسبب لا نعرفه — اعتذر عن الاجتماع بالشريف في الموعد المعيّن ولم يقل شيئا مما كان ينوي ان يقول .

عاد سايكس ثانية الى الحجاز ولكن برفقة بيكو هذه المرة . وقد مرّ كلاهما بالوجه يوم ١٧ ايار واصطحبا فيصل ونيوكمب معهما . وبعث

---

(١) Tlgrm from Sykes, transmitted by wingate to F.O. vide No. 496 of 7 May 1917 : P.R.O., F.O. 371/3054.

ونجت الى الملك حسين رسالة يعبّر فيها عن سروره اذ يرى ممثلي دولتين كبيرتين يسافران معاً «كي يبحثا أفضل السبل لارساء استقلال الشعوب العربية على أسس راسخة». ووصف بيكو بانه «صديق مخلص ومتعاطف بالنسبة لكم وللعرب.[1] وليس من شك في ان الشريف كان ينتظر زيارة سايكس وبيكو بفارغ الصبر ليرى ما يحملان اليه من معلومات بعد ان اشتد قلقه من الانباء التي بلغته عن تصريحات بيكو في القاهرة. فهل أبلغه المندوبان صراحة باتفاق الدولتين على تجزئة سورية والعراق واقتسامها بينهما؟ ان الادلة المتوافرة لا تشير الى انهما ابلغاه بان هنالك اتفاقا مسبقا ومكتوبا بين الدولتين، بل كان حديثهما يدور معه على اساس ان حكومتيهما ترغبان في ان تعملا كذا وكذا، كما سنرى فيما يلي:

ان مصدرنا الاول عما دار في الاجتماعات مع الشريف هو برقية من سايكس. ففي ١٩ أيار عقد المندوبان اجتماعهما الاول مع الشريف بحضور فيصل وفؤاد الخطيب. وقد رحّب الملك بالمندوبين قائلا انه «يدرك اتحاد فرنسا وبريطانيا وضرورة تعاونهما الوثيق لتحقيق المطامح العربية. وعدم قدرة العرب على تحقيق اي شيء الا بمعونتهما المتكاتفة». وأبلغ بيكو الملك رسالة ودية من رئيس الجمهورية الفرنسية وقال «ان فرنسا تأمل في المستقبل ان تساعد في الساحل السوري عن طريق المجهود العسكري مثل البريطانيين في العراق». وردّ الملك «مكررا وجهة نظره بأنه لا يستطيع ان يكون طرفا في ترتيب يستهدف تسليم المسلمين الى حكم مباشر لدولة غير مسلمة». وأقرّ الملك بان الضرورة تقضي بوجود مستشارين في سورية والعراق. ولكنه لم يوافق على اقتراح سايكس بان يتمتع المستشارون بسلطات تنفيذية. وانتهى الاجتماع دون التوصل الى نتيجة. وفي اليوم التالي عقد اجتماع ثان على ظهر السفينة وهناك قرأ فؤاد الخطيب جواب الملك على رسالة

---

(١) Letter dated 14 May 1917 : P.R.O., F.O. 686/34.

بيكو ، على اساس ان يكون الجواب شفهيا على رسالة بيكو الشفهية :

> ان جلالة ملك الحجاز يسره أن يعلم ان الحكومة الفرنسية توافق على المطامح العربية القومية.وبما انه يثق ببريطانيا العظمى فأنه سيكون قانعا اذا ما اتبعت الحكومة الفرنسية تجاه المطامح العربية في الساحل السوري الاسلامي ، السياسة ذاتها التي ستتبعها بريطانيا في بغداد .

وسُرّ بيكو من جواب الملك . ولكن ما كان يخامر نفس بيكو كان يختلف كل الاختلاف عما كان يخامر نفس الملك . وفي نهاية الاجتماع أبلغ فيصل الرسالة التالية الى سايكس باسم ابيه :

«اننا على استعداد للتعاون مع فرنسا في سورية الى أقصى حد ومع انكلترا في العراق . ولكننا نطلب مساعدة انكلترا مع الادريسي وابن سعود دون الانتقاص من استقلالهما بأية صورة كانت . اننا نرجو ان تسعى بريطانيا العظمى لاقناعهما بالاعتراف بمركز الملك زعيما للحركة العربية»[1] .

خيّل لسايكس انه قطع العقدة من منتصفها ، ولكن لم يلبث ان اتضح انه لم يحلّ العقدة ولم يقطعها بل بقيت بعد سفره مثلما كانت قبل مجيئه . والبينات المتوافرة على هذا كثيرة . فهذا الكولونيل نيوكمب يقول انه بعد اجتماعه بفيصل وفؤاد الخطيب مباشرة بعد انتهاء الاجتماع الثاني بين الفريقين ، عرف ان الملك وافق على ان يكون وضع الفرنسيين في الساحل السوري مماثلا لوضع البريطانيين في بغداد بناء على طلب من مارك سايكس، وانه فعل ذلك بسرور «لما له من الثقة المطلقة بالحكومة البريطانية ...». ولفت نيوكمب الانتباه الى المسؤولية الثقيلة التي حمّلها سايكس لنفسه تجاه الشريف والعرب . وقال نيوكمب انه فيما يتعلق باتفاقية سايكس ــ بيكو فان «مسائل عديدة كبيرة منها لم تمُس ابدا

---

(1) Sykes' telegram sent from Aden on 24 May 1917 : P.R.O., F.O. 371/3054. ومما يذكر ان المستشرق الفرنسي المعروف ماسينيون كان الترجمان بين الملك وبيكو ، بينما كان انطون البينا الترجمان بين الملك وسايكس .

ولم تُذكر للشريف ... »وعبّر عن اعتقاده بالمسؤولية التي تترتب على بريطانيا نتيجة هذا «بأن نمضي مع الشريف او مع القضية العربية حتى النهاية : اما اذا لم نفعل ذلك فاننا نخدع الشريف وقومه ونلعب لعبة بالغة الزيف .. »[1]

اما الكولونيل ولسون الذي حضر الاجتماع الثاني فقد كتب رسالة من ١٢ صفحة الى كلايتون يعبّر فيها عن خيبة أمله من نتيجة المباحثات . لقد جاء بيكو الى جدة وهو يحمل قسطا من «سم بريمون »الذي لم يكن يحب للحركة العربية ان تنجح . وفي الاجتماع الاول طلب بيكو من الشريف مرتين او ثلاث مرات ان يوافق على ان يكون مركز فرنسا في سورية مماثلا لموقف بريطانيا في العراق ، ولكن الشريف لم يرد عليه . ولكن نتيجة لإلحاح سايكس باسم الحكومة البريطانية وافق الشريف على ذلك«لاعتماده التام على ان الحكومة البريطانية سوف تنفذ اتفاقيتها معه الخ : ولانه لا يعرف فرنسا الا عن طريق بريطانيا العظمى ..» وعبّر ولسون عن رأيه بأن سايكس حمّل نفسه وحكومته مسؤولية ثقيلة جداً عندما لم يوضح للملك حقيقة نيات الحكومة البريطانية تجاه بغداد . فالشريف أعلن لابنه فيصل انه يملك رسالة خطية من مكماهون تتضمن وعدا بان العراق سيخضع لحكم عربي ، باستثناء البصرة التي تمّ الاتفاق على إجراء مالي بشأنها . وقد غضب كثيرا من فيصل عندما قال لأبيه ان الحكومة البريطانية يحتمل ان لا تنفذ الاتفاق ، اذ ردّ عليه قائلا «الا تعرف الانكليز ؟ انني اثق بهم ثقة تامة ». وقد بلغ التشكّك من نفس ولسون حدّا جعله يسأل سايكس «ترى هل يعرف الشريف ما هو حقيقة الوضع في العراق؟»فأجاب«انهم يملكون المنشور». وقد عنى سايكس بذلك منشور الجنرال مود عند احتلال بغداد في آذار ١٩١٧.[2] وقال ولسون

---

(١) Note by Lt. Col. Newcombe of 20 May 1917 'On Conversation between Sherif and Sykes' — P.R.O., F.O. 882/16.

(٢) وردت في ذلك المنشور الذي كتبه سايكس نفسه وأقرته الوزارة البريطانية العبارات التالية «....ان جيوشنا لم تدخل مدنكم وأراضيكم بمنزلة قاهرين أو أعداء بل =

انه ينصح بشدة احاطة الشريف علما برأي بريطانيا فيما سيكون عليه مستقبل العراق ، وانه اذا صحّ ان بريطانيا تنوي تولّي زمام الحكم في العراق «فاننا لم نسلك مسلكا مستقيما مع شيخ جليل...» بدفعه للموافقة على ان تتولى فرنسا زمام الحكم في سورية وهو أمر «أثق تماما انه لم يقصد اطلاقاً ان يوافق عليه». حتى في الاجتماع الثاني طلب بيكو ان يحتفظ بالورقة التي قرأها فؤاد الخطيب ، ولكن طلبه قوبل بالرفض . وفيما يتعلق بطلب فيصل من سايكس بشأن الادريسي وابن سعود ، فان رواية ولسون الذي حضر المقابلة الجانبية تختلف عن رواية سايكس ، في انه لم يذكر ان فيصل قال «اننا على استعداد للتعاون مع فرنسا في سورية الى اقصى حد ومع انكلترا في العراق» ، بل قال ان هناك مسألتين تقلقان بال والده وانه «بما ان الشريف فعل ما رغبنا فيه بشأن سورية أفلا نستطيع نحن أن نجعل الزعيمين المذكورين يعترفان بالشريف؟» وأخيراً هدّد ولسون بانه سيضطر للاستقالة «اذا كنا لن نمضي مع الشريف حتى النهاية واذا تخلينا عنه بعد كل الثقة التي وضعها فينا...». واختتم ولسون رسالته بالقول ان أكثر ما يهمه هو «ان تتخذ اجراءات سريعة كي نمنع الشريف والشعوب العربية من ان تتوافر لديهم اية اسباب عادلة لتوجيه الاتهام لنا بالخداع». (١)

لم تبق المحاذير التي أشار اليها ولسون سرّاً بينه وبين كلايتون ، لان هذا الاخير – وقد وصف رسالة ولسون بأنها «تكشف لبّ المسألة

= بمنزلة محررين ... لقد طرد العرب في الحجاز الاتراك والالمان الذين بغوا عليهم ، ونادوا بعظمة الشريف حسين ملكا عليهم وعظمته يحكم باستقلال وحرية وهو حليف الامم التي تحارب دولتي تركيا والمانيا ... انها لرغبة وامنية الشعوب البريطانية والامم المتحالفة معهم ان ينهض الجنس العربي مرة اخرى إلى مراتب العظمة والشهرة بين شعوب الأرض وأن يسعى إلى تحقيق هذا الهدف موحداً متفقاً .... لذلك انني أدعوكم لتشاركوا في ادارة شؤونكم المدنية بالتعاون مع ممثلي بريطانيا السياسيين الذين يرافقون الجيش حتى يمكنكم أن تتحدوا مع ذوي قرباكم في الشمال والجنوب والشرق والغرب من أجل تحقيق مطامح جنسكم .»

(١) Letter dated 24 May 1917 : P.R.O., F.O. 882/16.

وتشير الى الخطر الذي يحتمل اننا نتجه اليه »– بعث بها الى ونجت الذي قال انه سيبحث موضوعها مع سايكس .[1]

اضف الى ما تقدم الملحوظات التي املاها فؤاد الخطيب ونقلها الكولونيل نيوكمب والتي بعث بها ولسون الى كلايتون مع رسالته المذكورة اعلاه . فما جاء في هذه الملحوظات لا يدع مجالاً للشك في ان سايكس وبيكو لم يطلعا الملك على اتفاقيتهما ، وان الملك لم يصرح بموافقته على ان يكون مركز فرنسا في سورية مثل موقف بريطانيا في بغداد ، الا بعد الحاح من سايكس واعتقادا منه ان بغداد ستكون عربية ومستقلة . وبناء على اقوال فؤاد فأن الملك انبأ بيكو انه يرى نفسه مسؤولا عن السوريين الذين بايعوه زعيما وحاميا وان فرنسا اذا حاولت «ان تأخذ المسيحيين منا وتترك المسلمين لنا فانكم تخلقون اختلافات بين الشعب وتغذون التعصب الاعمى . لا ضرورة لان يكون لبنان لنا او لكم . دعوه يكون حسبما يرغب ابناؤه ، ولكنني لا اريد تدخل اناس من الخارج . يجب ان تعرفوا ان اشخاصا كثيرين ماتوا وشنقوا وكانوا وهم على اعواد المشانق يقولون: اننا لا نبالي بالموت . ان ملكنا وخليفتنا سوف يقوم سريعاً ويثأر لموتنا . وأن ضميري سيعذبني اذا انا لم انقذ عائلاتهم وبلادهم ؛ لأنهم استشهدوا في سبيل القضية العربية فقط . والان سيقول المسلمون انني اريد ان ابيع سورية للفرنسيين .. » وتدخل سايكس في الحديث بقوله ان اعطاء المستشارين الاوروبيين في سورية صلاحيات تنفيذية سيحل المشكلة ، ولكن الملك «رفض »الفكرة ، كما رفض «رفضاً باتاً »اقتراح بيكو بان يكون مركز فرنسا في سورية مثل مركز بريطانيا في بغداد . ولكنه في اليوم التالي وافق بعد جدل ثلاث ساعات لا لشيء الا لانه «يثق بما يقوله المندوب البريطاني.... اعتقادا

---

(1) Letter from Clayton to Wilson dated 29 May 1917 : P.R.O., F.O. 882/16.

منه ان بغداد ستكون له تماما ... »[١]

على ان الملك حسين اراد ان يقطع الطريق على تفسير نتائج اجتماعه بسايكس وبيكو على غير ما فهمه منها ، فبعث الى المندوب السامي رسالة جوابية تتعلق بزيارة سايكس الى جدة قال فيها :

«.... ومع هذا فلا بد ان حضرته [سايكس] صرّح لفخامتك ان ملخّص قراري الصريح الغني عن التأويل والتفسير بأنه اذا لم تكن حدود البلاد العربية على الوجه المقرر سابقا مع بريطانيا العظمى فأن اخلاصي ونصحي لها ولبلادي وقوميّي يوجبني على الانسحاب بصورة قطعية .»[٢]

بل ان الملك ارسل فؤاد الخطيب الى مصر كي يوضح للمندوب السامي حقيقة موقفه من محادثات جدة . وقد بعث كلايتون ينبىء سايكس بذلك ويقول « يبدو مؤكدا ان الشريف لم يفهم على الاطلاق الوضع كما شرحته انت وبيكو له فيما يتعلق بمستقبل سورية والعراق. ويبدو انه يحمل انطباعا ثابتا بان كلا القطرين سيكونان من نصيبه بلا قيد او شرط ، وقد صرح بهذا علناً». وخوفا من ان يدعي الملك في المستقبل انه لم يتسلم شيئا خطيا يناقض مفهومه للمباحثات ، فقد اقترح كلايتون على سايكس ان يفكرّ جيدا فيما اذا كان من الأفضل ارسال مذكرة «بما قلت له فعلا.»[٣] ولكن لا سايكس ولا أحد غيره من المسؤولين البريطانيين رأى من المناسب ان يطلع الملك على حقيقة الترتيبات المضمرة والاتفاقية المكتومة . وبقي الملك على اعتقاده وعلى ثقته المطلقة بكلمة بريطانيا .

وبعد أسبوع عاد كلايتون يكتب لسايكس بان المحادثات الاضافية

---

(١) Note by Sheikh Fuad El Khatib taken down by Lt. Col. Newcombe, 20 May 1917 : P.R.O., F.O. 882/16 من المرجح أن يكون سايكس قد تصرف مع حسين – مثلما تصرف من قبل مع الفاروقي – بحكم العادة التي وصفه بها اثنان من معارفه ، في قاموس الشخصيات البريطاني ، عادة « ان يقرأ أفكاره هو في أذهان الآخرين » .

(٢) أوراق الأمير زيد : رسالة بتاريخ ٢٩ شعبان ١٣٣٥ (الموافق ١٩ حزيران ١٩١٧) ؛ وأنظر الترجمة في P.R.O., F.O. 686/35

(٣) Letter dated 22 July 1917 : P.R.O., F.O. 882/16.

مع فؤاد الخطيب «تؤكد الانطباع بان الشريف لم يفهم ابدا الوضع كما عرض اليه بشأن سورية والعراق في اجتماعكم المشترك في جدة – او على الاقل فهو مصمم ان لا يفهم الوضع وان يخرج من المقابلة بتفسيره هو – انني لا اعلق أهمية كبيرة على هذا ، لأنني أظن ان الأحداث ستكون أقوى منه وانه في نهاية الأمر سيضطر أمّا أن يقبل الأمور كما هي أو أن يسقط »[1] هكذا بصراحة يفصح كلايتون عن نيات انتهازية لا تتفق مع روح التحالف مع العرب .

ولقد كرّر الملك حسين وجهة نظره يوم ٢٩ تموز عند اجتماعه بلورنس ، فأكّد «أنه رفض رفضا كليا ان يسمح بأي احتلال فرنسي لبيروت ولبنان . انها بلاد عربية ولكنني لن استولي عليها ولن أسمح لأي جهة اخرى بالاستيلاء عليها . لقد استحقت الاستقلال ومن واجبي ان أعمل على ان تحصل على الاستقلال ». وقال لورنس ان الملك مسرور للغاية «لأنه داور بيكو وجعله يوافق على ان ترضى فرنسا في سورية بالوضع ذاته الذي تريده بريطانيا العظمى في العراق . ويقول ان ذلك يعني احتلالا مؤقتا للبلاد لأسباب عسكرية وسياسية ... ولكن الحجاز وسورية مثلها مثل كف اليد واصابعها : ولم يكن باستطاعتي ان اوافق على قطع اي اصبع او جزء من الاصبع حتى لا أصبح كسيحا ». لقد كان الملك مستعدا ان يضمن استمرار الامتيازات التي كانت فرنسا تملكها في سورية قبل الحرب (مدارس وخطوط سكة حديد) : اما أكثر من هذا فلا . وقال الملك ان التغيير الوحيد في الوضع الناشيء عن الاجتماع كان «نبذ الفرنسيين لافكار الاستلحاق والاحتلال الدائم او السيادة على أي جزء من سورية .. »

ولقد بادر ولسون فبعث بتقرير لورنس عن هذه المحادثة الى ونجت

---

(١) Letter dated 30 July 1917 : P.R.O., F.O. 882/3.
See also letter of A.P. Albina on his talks with Fuad El Khatib, which gives clearly the ideas of King Hussein - Sykes' Papers, M.E. Centre, St. Anthony's College, Oxford.

وكررّ تحذيره من نتائج سوء الفهم الناشيء عما دار في الاجتماع بين الشريف وسايكس وبيكو ومن انه اذا ترك الوضع على حاله فسيأتي يوم يعتبر فيه الشريف ان بريطانيا نكثت بعهدها معه .[1]

وبعد انتهاء الحرب ، عندما كان فيصل يعرض وجهة النظر العربية في باريس ، كتب لابيه رسالة خاصة يقول له انه اتبع الحجج ذاتها التي ساقها الشريف لسايكس وبيكو «ليست البلاد ملكا شرعيا لاحد بل هي في ايدي ابنائها . كما قلتم جلالتكم لبيكو وسايكس عند مجيئهم الى جدة وصرحتم لهما بلزوم ترك الحرية للاهالي بصورة قطعية»[2] ومن هذا نفهم تمسك الشريف بنظرية الرئيس ودرو ولسون القائمة على حرية تقرير المصير ، تلك النظرية التي دخلت الولايات المتحدة الاميركية الحرب في صف الحلفاء (نيسان ١٩١٧)على اساسها .

واكثر ما كان الملك حسين يخشاه هو ان تستغل فرنسا عواطف موارنة لبنان نحوها لكي تتشدد في الاستيلاء على الساحل السوري . لذلك أخذ يؤكد لممثلي بريطانيا وفرنسا ولزعماء مسيحيي لبنان انه لا يريد للبنان الا الاستقلال الكامل . وعندما أبلغه مندوبه الفاروقي في ٢ حزيران ١٩١٧ ان عددا من زعماء اللبنانيين قرروا طلب الاستقلال ، رد الملك في اليوم التالي بانه لشدة سروره خرج من سريره الذي كان فيه بسبب المرض ، وطلب من مندوبه ان يبلغ اولئك الزعماء ان الملك «يتمنى لهم

---

(١) Letter from Wilson to Wingate dated 31 July 1917 together with Lawrence's report dated 30 July 1917 : P.R.O., F.O. 882/12.

قال الملك حسين في افتتاحية من انشائه في جريدة « القبلة » انه لو فهم من سايكس وبيكو – وبعدهما هوجارث – ان هناك ترتيبات تتعارض ولو جزئيا مع الاهداف العربية ، لترك محالفة الانكليز وقبل بالصلح المنفرد مع الاتراك الذين عرضوا « اعطاء الاستقلال التام للبلاد العربية وتحقيق كافة مطاليبها بضمانة المانيا » – (العدد ٥٨٤ بتاريخ ٨ أيار ١٩٢٢) .

(٢) رسالة فيصل بتاريخ ١٩ كانون الثاني ١٩١٩ : سليمان موسى ، الثورة العربية الكبرى، وثائق وأسانيد ، عمان ، ١٩٦٦ ، ص ص ١٢١ – ١٢٥ (الرسالة من جملة أوراق الأمير زيد) .

أكثر وأشد مما يسعون اليه ».[1]

وهكذا انتهت محادثات صيف ١٩١٧ دون نتيجة ودون تفاهم او مصارحة . وظل الملك حسين على اعتقاده بان روح الاتفاق بينه وبين بريطانيا العظمى سوف يُنفذ عندما تنتهي الحرب .[2]

تصريح بلفور : منذ أواخر القرن التاسع عشر قام جماعة من اليهود أطلقوا على أنفسهم اسم «صهيونيين »بحركة تدعو الى فتح أبواب فلسطين لليهود كي يهاجروا اليها وينشئوا فيها كياناً خاصاً بهم . وعلى الرغم من ان هذه الحركة كانت تقوم على ما جاء في التوراة من ان (يهوه)أعطى اليهود وعداً بأن تكون فلسطين أرضاً لهم ، وعلى الرغم من ان هذه النظرية تخالف العقيدة المسيحية القائلة بان الوعد الالهي تحول بعد مجيء المسيح الى وعد روحي غير مادي يختص بالمسيحيين الذين اتبعوا دعوة المسيح وليس باليهود الذين رفضوا قبول تلك الدعوة — على الرغم من ذلك فان بعض المسيحيين في اوروبا وفي الولايات المتحدة (وخاصة

---

(١) العمري ، المصدر السابق ، ص ص ١١٢ ، ١١٨ — ١٢٠ و ١٣٣ .

(٢) حاول الكاتب الصهيوني ايلي خضوري في كتابه « انكلترا والشرق الاوسط » ، ص ص ٣٨ — ٤٣ ، ان يبرهن ان الشريف ومؤيديه كانوا يعرفون جيدا مدعيات انكلترا وفرنسا ومع ذلك اختاروا ان ينضموا إلى جانب الدولتين ، وان فضح الشيوعيين لاتفاقية سايكس — بيكو لم يكن مفاجأة للشريف . واستشهد خضوري لتأييد مزاعمه بأقوال رشيد رضا في مجلة « المنار » ، المجلد ٢٢ ، ص ٤٥٢ ، وبتعليمات الشريف للفاروقي في كتاب العمري ، المجلد الثاني ، ص ص ٧٦ ، ١٠٦ ، ١٣١ ، ١٣٤ ، ١٤١ . أما رشيد رضا فقد كان كل ما قاله انه سمع من شخص ما في ١٠ آب ١٩١٧ « ان الشريف وافقهم [سايكس وبيكو] على ان تكون سواحل سورية لفرنسا » . وعلى الرغم من ضعف هذا المصدر فان رشيد رضا عاد في الصفحة ٧٩٥ يعتذر بأنه لم يقل من عنده ان الشريف صدق على معاهدة سايكس — بيكو وانما « رويت روايات فيها عمن سمعوا بآذانهم من السر مارك سايكس ... » . دون أن يذكر أسماء أولئك الذين سمع منهم . وأما تعليمات الشريف للفاروقي فلم يكن المقصود بها الا منع الفاروقي من الخوض مع السوريين واللبنانيين المقيمين في مصر في الشؤون السياسية ، بينما كان هو يعالج الموضوع مع المسؤولين البريطانيين كما أوضحنا أعلاه . ومن الواضح ان حجج خضوري تستهدف التشهير بالعرب وتشويه تاريخهم أكثر مما تتقيد بالحقائق التاريخية .

البروتستانت من بينهم وعلى الأخص أتباع الداعية كالفن)ماشوا الصهيونيين في ادعائهم متأثرين في تلك المماشاة بما جاء في التوراة أكثر مما جاء في الانجيل ، وأخذوا يقدّمون لهم المساعدة والتشجيع اعتقادا منهم انهم يساعدون على تنفيذ وعد (يهوه)آله اليهود .

ليس هنا مكان الحديث بتوسع عن موضوع فلسطين ، ولكن يكفي القول ان فلسطين كانت من صميم الأقطار العربية والاسلامية منذ أقدم الازمان ، وهي تضم ثالث ورابع الاماكن الاسلامية المقدسة (القدس والخليل). ولا شك في ان نسبة عالية من سكان فلسطين عام ١٩١٧ كانوا يتحدرون من نسل سكانها الأقدمين الذين كانوا يستوطنونها قبل الغزوة اليهودية الاولى واثناءها وبعدها ، والذين ظلوا يقيمون فيها جيلا بعد جيل على الرغم من تعاقب الغزاة والفاتحين ، الى ان جاء الفتح العربي الاسلامي في اوائل القرن السابع للميلاد فاصطبغت البلاد بالصبغة العربية الاسلامية منذ ذلك الحين .

عند صدور تصريح بلفور كان عدد سكان فلسطين حوالي ٦٧٠ الف نسمة منهم حوالي ٦٠ الف يهودي . وفي عام ١٩٢٠ قالت مذكرة رسمية ان اليهود في فلسطين يُقدّر عددهم ب ٦٥ الفا بينما ذكر تقرير من الادارة العسكرية قبل ذلك ان عددهم يقارب ٥٥ الفا .

فما هي الأسباب التي دفعت الحكومة البريطانية الى اتخاذ خطوتها الخطيرة باصدار التصريح ؟ ان البيّنات التي توافرت حتى الان تدل على ان تلك الأسباب تعود الى :

١ ـــ مطامع بريطانيا العظمى الاستعمارية واعتقاد بعض سياسييها ان اقامة مجموعة يهودية في فلسطين تدين بوجودها لبريطانيا ، سوف تؤلف قاعدة أمينة مخلصة تساعد على حماية قناة السويس وتأمين الطريق الى الهند والشرق الاقصى .

٢ ـــ ان قيام الثورة فيروسيا وسقوط النظام القيصري (آذار ١٩١٧) شجعا الحكومة البريطانية على الاعتقاد بانه يمكن التملص من الاتفاق المعقود بينها وبين حكومتي روسيا وفرنسا بشأن تدويل فلسطين لتحويلها

الى محمية بريطانية بمساعدة النفوذ اليهودي العالمي .

٣ ـ لعب الاعتقاد الديني بان فلسطين هي ارض الميعـــاد بالنسبة الى اليهود ،دورا مهما في المسألة ، حتى لقد قيل عن لويد جورج انه «كان رجلاً يمكن القول ان التوراة صنعته».[١]

٤ ـ كان لعلاقات حايم وايزمن الشخصية مع لويد جورج وبلفور أثر مهم في اصدار التصريح.وكان وايزمن قد اخترع مادة الأسيتون الضرورية في صناعة المتفجرات فأراد لويد جورج ان يكافئه حتى قال فيما بعد «لقد هداني الاسيتون الى الصهيونية». اما بلفور فكان ايضاً من المتأثرين الى أقصى حد بما جاء في التوراة عن اليهود ، كما كان لوايزمن عليه «تأثير شخصي عظيم».[٢]

٥ ـ اعتقاد عدد من السياسيين البريطانيين «انه من الامور الحيوية كسب عطف وميول الجماعة اليهودية»[٣] والحصول على تعضيد يهود الولايات المتحدة وروسيا في تلك الفترة من الحرب .

٦ ـ النشاط الكبير الذي أبداه الصهيونيون في عدد من عواصم الدول الكبرى ، وبذلك النشاط اقنعوا الحكومة البريطانية بنفوذهم وفعاليتهم وأهمية وقوفهم في صف الحلفاء ، وأقنعوا تلك الحكومة أكثر وأكثر

---

(١) يقول المستر اسكويث (رئيس وزراء بريطانيا ١٩٠٨ ـ كانون الأول ١٩١٦) ان لويد جورج « لم يكن يكترث اطلاقا باليهود ولا بماضيهم أو مستقبلهم وانما يرى أن من العـــار أن نـــدع الأماكن المقدسة كي تصبح ملكاً أو تحت حماية فرنسا الملحدة اللاأدرية » . وعنـــدما اجتمع وايزمن يوم ١٤ كانون الثـــاني ١٩١٩ في باريس بالرئيس ولـسون ، كان من جملة الأسباب التي برر بها مطالبته بأن تكون بريطانيا الدولة المنتدبة على فلسطين ، قوله « لان الانكليز أكثر الامم في العالم ـ بعد اليهود ـ تعلقاً بتعاليم التوراة » ـ ((F.O. 608/98)

(٢) هذا على حد تعبير الاستاذ ارنولد توينبي لدى اجتماعي به في لندن يوم ١٥ تشرين الثاني ١٩٦٨ . وعلى رأي كريستوفر سايكس انه « لم يوجد أي يهودي دفع خطى الصهيونية مثلما دفعها بلفور » . (Christopher Sykes, *Two Studies in Virtue*, Collins, London, 1953, p. 225

(٣) من خطاب لويد جورج في مجلس العموم في حزيران ١٩٣٦ : جفريز ، المصدر السابق ، ص ١٩٠ .

عندما حصلوا على موافقة مبدئية من الدول الثلاث الكبرى التي كانت مهتمة بفلسطين وهي الولايات المتحدة (١٧ تشرين الاول ١٩١٧) وفرنسا (٤ حزيران ١٩١٧)وايطاليا . [١]

٧ – استثار الصهيونيون عاطفة الانسانية في نفوس كثيرين من السياسيين البريطانيين ومن جملتهم مارك سايكس عن طريق اخفاء مقاصدهم الحقيقية والادعاء انهم لا يبتغون أكثر من انشاء مركز روحي لهم في فلسطين . [٢]

وهكذا أصدرت الحكومة البريطانية في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ ذلك التصريح الذي كان له أثر أكبر من أثر أية وثيقة اخرى في التاريخ الحديث للشرق الاوسط والذي نتجت بتأثيره حتى الان أحداث خطيرة يصعب التكهن بما ستنتهي اليه في المستقبل . والحكومة التي اصدرت الوعد لم يعرف عنها انها استشارت العرب وحلفاءها ورفاقها في السلاح ، او طلبت رأي احد من رجالها البارزين في بلاد العرب . وجاء التصريح من ضمن رسالة بعث بها آرثر بلفور وزير الخارجية البريطانية الى الزعيم اليهودي اللورد روتشيلد . ومن هنا ارتبط التصريح باسم بلفور.اما نصه فكما يلي :

ان حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية،على ان يفهم جليا أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن يجحف بالحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف

---

(١) وافقت الحكومات الثلاث رسميا على تصريح بلفور : فرنسا في ١٤شباط ١٩١٨ ، وايطاليا في ٩ ايار ١٩١٨ ، والولايات المتحدة الاميركية في ١٣ آب ١٩١٨ .

(٢) فهم سايكس من الصهيونيين ان الهدف الرئيسي من المستعمرات اليهودية سيكون بمثابة تقديم البرهان « على مقدرة اليهود على ايجاد مزارعين يتمتعون بالفضيلة والبساطة ... وكان اعتقاده النهائي قبل صدور وعد بلفور ان الصهيونيين كانوا متعلقين بالمثل والقيم الروحية إلى حد أنهم لا يرغبون في أية درجة من درجات التمسك السياسي في القدس أو في انشاء جمهورية ... كان ينظر بازدراء إلى اولئك الذين كانوا لا يرون في الصهيونية الا انها تعمل على تبني القومية الحديثة في صلب العالم اليهودي » . —كريستوفر سايكس : دراستان ، ص ٢٢٠ — *Two Studies in Virtue*, p. 220

غير اليهودية المقيمة الان في فلسطين ، ولا الحقوق او الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الاخرى .

ان المرء ليعجز عن العثور في كتابات شعوب العالم على عبارة تماثل في لؤمها ولا انسانيتها العبارة التي وصف التصريح فيها الـ ٩٣٪ من سكان فلسطين بأنهم «الطوائف غير اليهودية المقيمة الان في فلسطين». وقد اختارت الحكومة البريطانية ان تستمر في تجاهلها أهل البلاد الحقيقيين فذكرت اليهود بالاسم في صك الانتداب بينما اشارت الى ال ٩٣٪ من سكان فلسطين العرب بالقول انهم «الاجزاء الاخرى من السكان» او «الجماعات غير اليهودية». (ولهذا السبب رفض مجلس اللوردات عام ١٩٢٣ ان يوافق على صك الانتداب). لقد وصف كاتب بريطاني شريف هذا التصريح وصفا صادقا اذ قال انه «صدر بصورة غير قانونية وينحو الى غاية استبدادية وقد صيغ صياغة مضللة ، وانه أكثر وثيقة مخزية وضعت حكومة بريطانية يدها عليها في حدود ما تعيه الذاكرة».[1]

ولم يحاول أحد من أعضاء الوزارة البريطانية الحيلولة دون اصدار التصريح سوى ادوين مونتاجيو واللورد كرزون . وكان ادوين مونتاجيو اليهودي يرى انه بريطاني اولا وأخيراً وانه يعارض في ازدواجية الولاء ويعارض المزج بين العقيدة الدينية والجنسية القومية . اما كرزون فقد حذّر زملاءه من ان عبارة «وطن قومي» تعني «دولة قومية»، وان هذا الاتجاه ينطوي على مخاطر كبيرة وان «البلاد لا تستطيع استيعاب جميع يهود العالم . وان سوريي فلسطين لن يوافقوا على التخلي عن املاكهم ليصبحوا قاطعي حطب وحمالي ماء للطبقة الحاكمة الجديدة». ولكن لويد جورج وبلفور استطاعا اقناع بقية اعضاء الوزارة وصدر التصريح الجريمة «أكثر اجراء غير متوقع اتخذته الدولة في تاريخنا».[2]

في اليوم ذاته الذي صدر فيه التصريح بعثت وزارة الخارجية البريطانية

---

(١) جفريز : المصدر السابق ، ص ٢٠١ .

(٢) *Two Studies in Virtue*, pp. 223-4.

الى ونجت برقية تنبئه بصدور التصريح وتطلب اليه ان «يمارس رقابة دقيقة على تعليقات الصحف حتى لا يستثار غضب المشاعر العربية »(١) .
من هنا لم تستطع الصحافة المصرية الخاضعة للرقابة العسكرية ان تعالج المعاني الكامنة وراء التصريح ولم تستطع ابراز أهميته . وفي الوقت الذي انهالت فيه برقيات التهنئة والشكر على وزارة الخارجية من الجاليات اليهودية في مختلف انحاء العالم ، حالت السلطات البريطانية في مصر دون ارسال برقيـــة احتجاج واحدة من العرب ضد التصريح (٢) وفهم السوريون الموجودون في مصر من الجنرال كلايتون ان تصريح بلفور «يجب ان لا يفهم منه انه يعني ان دولة او حكومة يهودية سوف تؤسس في فلسطين ، بل ان اليهود سوف يمنحون حق الهجرة والاقامة في فلسطين حيث ستكون لهم الحقوق ذاتها التي يتمتع بها سكان البلاد ، كالحصول على الملكية الخ ، وانهم سيكونون أحرارا في ممارسة طقوسهم الدينية وفي انشاء بيت اقامة لليهود هناك ». (٣) هذا بينما كان كلايتون في الوقت ذاته يحذر سايكس من ان اعطاء الصهيونيين «كل شيء يطلبونه...فاننا نجازف باحتمال جعل الوحدة العربية حقيقة واقعة وجعلها في موقف العداء لنا ... »(٤)

وقد كانت تعليمات وزارة الخارجية (واقتراح التعليمات جاء من

---

(١) Telegram No. 1032, P.R.O., F.O. 371/3054.

(٢) Report of William Yale, American Agent, Cairo. dated 10 Dec., 1917

لذلك تجد ملفا ضخما من ملفات وزارة الخارجية البريطانية حافلا ببرقيات الصهيونيين ولا تجد برقية احتجاج عربية واحدة ، بفضل نشاط السلطات البريطانية في بلاد العرب F.O. 371/3054.

(٣) Report of W. Yale, dated 24 Dec. 1917.

وكان قد جاء في برقية بعث بها السوريون إلى بلفور قولهم ان فلسطين تعتبر بالنسبة لسورية « بمثابة القلب من الجسم » . ولكن – كما يقول ييل – لم ترسل السلطات البريطانية في مصر هذه البرقية إلى لندن .

(٤) Letter from Clayton to Sykes dated 15 Dec. 1917 : Sykes' Papers, St. Antony's Oxford.

خيال سايكس الخصب)بشأن الخطوط الدعائية التي يجب ان تسير عليها السلطات البريطانية في بلاد العرب ، تقضي بالقول ان التصريح عبأ النفوذ اليهودي العالمي لمعاضدة سياسة الحلفاء مما سيؤدي الى تحقيق أهداف العرب القومية . وان معاضدة كل قومية لأهداف الآخرين المعقولة يمهد الطريق لدعم الوفاق بين العرب واليهود والارمن ! ! [1] . وأبرق كلايتون الى وزارة الخارجية يقول انهم يتبعون الخط الدعائي الذي اقترحه سايكس «ولكنني لا اتوقع نجاحاً كبيرا اذ على الرغم من جميع الحجج فان مكة لا تحب اليهود والارمن ، ولا تريد ان يكون لها اية صلة بهم. بينما يخشى عرب سوريةوفلسطين ان تتكرر قصة يعقوب وعيسو».[2]

ولكن الانباء لم تلبث ان وصلت الى مكة والى العقبة . وحتى ذلك الحين «ظل الشريف يجهل اتفاقية سايكس – بيكو الى ما بعد الثورة البلشفية [تشرين الاول ١٩١٧]. بل ان الاتفاقية كانت ما تزال سراً مغلقا عندما نشر تصريح بلفور في تشرين الثاني ١٩١٧ »[3] .

ولقد كانت دهشة الملك حسين عميقة عندما بلغه نبأ تصريح بلفور . وكعادة الملك في تعامله الصريح مع الانكليز ؛ توجه اليهم بالسؤال مستفهما عما اذا كان ما بلغه عن التصريح صحيحا . ولقد ضخم بعض المؤلفين ما جاء في تقرير وليم ييل المؤرخ في ١٠ كانون الاول ١٩١٧ من ان السوريين الموجودين في مصر لم يكونوا يأملون او يتوقعون من الملك حسين ان يحتج على تصريح بلفور واستطراده الى القول «والواقع . فان مندوب ملك الحجاز في القاهرة جعلهم يفهمون ان الشريف وافق تماما على برنامج البريطانيين بشأن اليهود في فلسطين وعلى أخذ الفرنسيين لسورية »[4] . هذا مع العلم ان ييل لم يسند أقواله الى مصدر معين موثوق

---

(١) Arbur (Cairo) to Basset (Jeddah). Telegram A.B. 600, of 4 Dec. 1917 : P.R.O., F.O. 686/9.

(٢) Telegram No. 1334 dated 12 Dec. 1917 : P.R.O., F.O. 371/3054.

(٣) Sir Reader Bullard, *Britain and the M. East*, Hutchinson's University Library, London, 1951, p. 70.

(٤) Yale Papers : Report No. 7, Dec. 10. 1917.

وانما هي تخرصّات وتكهنات سمعها من هنا وهناك . وان جميع البيّنات والشواهد والأحداث الملموسة تنفي هذا الزعم الذي لا يزيد الاستشهاد به أن يكون نوعاً من العبث السخيف .

تأكيدات هوجارث : في الوقت الذي صدر فيه تصريح بلفور ، كان الوضع بين الملك حسين وعبد العزيز ابن السعود قد تدهور وأخذ ينذر باحتمال نشوب قتال بين الطرفين . ولما كانت السياسة البريطانية يومذاك تستهدف توجيه جميع جهود أصدقائها العرب لمقاتلة الاتراك واصدقاء الاتراك من العرب ، فقد تقرّر ايفاد الكابتن سنت جون فلبي الضابط السياسي البريطاني لدى ابن سعود ؛ الى جدة في محاولة لعرض وجهة نظر ابن سعود والتباحث مع الملك ؛ كما تقرر ايفاد الاستاذ هوجارث رئيس المكتب العربي من القاهرة الى جدة في الوقت ذاته ؛ لتدارس الوضع مع الملك والبحث في امكانات اعادة المياه الى مجاريها بينه وبين ابن سعود [1]

وبينما كان هوجارث يستعد للسفر الى جدة ، بعث ونجت الى وزارة الخارجية برقية يقول فيها انه من المؤكد ان الملك سوف يسأل هوجارث عن خطط بريطانيا فيما يتعلق بسورية والعراق. وقال انه يرى انه من الضروري جدا في المرحلة الراهنة تقديم ايضاح للملك حول ذينك القطرين ، واقترح من عنده صيغة تتضمن القول ان العرب يجب ان يوافقوا على وجود اليهود في مستعمرات في أجزاء من فلسطين يقررها مؤتمر الصلح ، وان بقية اراضي سورية تكون عربية على ان يُترك تحديد وضعها الى مؤتمر الصلح ؛ واما بغداد فتكون عربية تحت الحماية البريطانية . [2]

وبعد اربعة ايام بعثت وزارة الخارجية الى ونجت نص الرسالة التي

---

(١) كان مقررا في بادىء الأمر أن يقوم رونالد ستورس بالمهمة ولكنه عين حاكما على القدس فجاء هوجارث بدلا منه .

(٢) Telegram No. 1418 dated 31 Dec. 1917 : P.R.O., F.O. 371/3054.

كُلف هوجارث بنقلها الى الملك . وأهم ما جاء في الرسالة القول «ان دول الحلفاء مصممة على ان تتاح للشعب العربي فرصة كاملة لاستعادة كيانه كامة في العالم . وهذا لا يتيسر تحقيقه الا باتحاد العرب أنفسهم : وان بريطانيا العظمى وحلفاءها سيتبعون سياسة ترمي الى تحقيق هذه الوحدة ». اما بشأن فلسطين فقد قالت الرسالة «اننا مصممون ان لا يخضع شعب لشعب آخر »؛ ولكن بسبب وجود أماكن مقدسة بالنسبة للمسلمين واليهود والمسيحيين «فلا بدّ ان يكون هناك نظام خاص بهذه الأماكن يوافق عليه العالم ». واما بشأن اليهود فقد قالت الرسالة ان الحكومة البريطانية مصممة على ان لا توضع عقبة في سبيل «عودة »اليهود الى فلسطين بقدر ما يتفق ذلك مع حرية الأهالي الموجودين من الوجهتين الاقتصادية والسياسية ». [1]

عقد هوجارث مع الملك عشرة اجتماعات خلال الفترة ٨ — ١٤ كانون الثاني ١٩١٨ . وقد حضر فيلبي والكولونيل باست (نائب المعتمد البريطاني)أكثر هذه الاجتماعات . ولم تنجح المباحثات التي دارت في الاجتماعين الاول والثاني فيما يتعلق باعادة الوئام بين الملك وابن السعود ، وقد غضب الملك غضبا شديدا لان فيلبي جاء من نجد الى الحجاز عبر الصحراء دون علم مسبق بمجيئه ، ورفض ان يسمح له بالعودة من الطريق ذاتها .

في الاجتماع الثالث يوم ٩ كانون الثاني قرأ هوجارث القسم الاول من رسالة وزارة الخارجية (الامة العربية والحاجة الى الوحدة)فقال الملك انها تعبّر عن اساس اتفاقنا كله . وقال هوجارث ان الحلفاء رأوا ان من المستحسن تكرار تأكيداتهم بعد طول الوقت الذي انقضى . ويبدو ان الملك اراد انيفهم من هوجارث عما اذا كانت هناك ترتيبات معيّنة ومحددة —بين بريطانيا وفرنسا مثلا — فقال انه اذا كانت هناك تعديلات جزئية لاتفاق بريطانيا معه مما تفرضه ضرورات الحرب فهو مستعد للاعتراف

(١) Telegram No. 24 of 4 Jan. 1918 — P.R.O., F.O. 371/3054.

صراحة بتلك الضرورة ، وطلب ان تبادله الحكومة البريطانية الصراحة بإبلاغه ماهية تلك التعديلات والضرورة التي أوجبتها . ولكن هوجارث لم يرد على استيضاح الملك ، بل ذكّر الملك بالتحفظ الوارد في مراسلات مكماهون الذي يكفل مصالح خاصة لحلفاء بريطانيا ولا سيما فرنسا . وعندما أعرب الملك عن شكّه في وجود توافق حقيقي دائم في المصلحة بين فرنسا وبريطانيا قال هوجارث ان رأي فرنسا يماثل رأي بريطانيا فيما يتعلق بالمسائل العربية وانها تؤيد خطط فيصل وتأخذ برأي الامريكيين القائل بأن تكون للشعب الحكومة التي يرغب فيها ، وان فرنسا لا تبتغي الا ان تحمي وتساعد الحكومة المستقلة في سورية . ومن هذه الايضاحات نرى ان هوجارث لم يزد الملك علما بترتيبات وخطط بريطانيا وفرنسا أكثر مما شاء سايكس وبيكو ان يقولا له قبل ذلك بسبعة اشهر .

وبعد ان تلا هوجارث القسم الثاني من الرسالة ، وهو المتعلق بفلسطين ، قال الملك ان العقل الذي يستطيع ان ينتج هذا قادر ان يبتدع نوعا من الادارة يصون كل المصالح ويكفلها . وعلى قول هوجارث فانه بدا على الملك الاستعداد لقبول صيغة القسم الثالث من الرسالة المتعلق باقامة اليهود في فلسطين ، وانه قال انه يرحّب باليهود في كل البلاد العربية .

وقد اوضح هوجارث في التقرير الذي كتبه انه فيما يتعلق بـ «الإشراف الدولي على الاماكن المقدسة في فلسطين» فان الملك «لم يدع لي شكا في انه يعدّ هذه مسألة يعاد النظر فيها بعد عقد الصلح، على الرغم من تأكيدي له بانها ترتيب نهائي »، وتحدّث عن حسابات سوف يسوّيها بعد الحرب ، وانه لن يلحّ في شيء حتى يجيء الوقت المناسب . ونخلص هوجارث الى القول «ولكنني لا أشك في انه ، فيما بينه وبين نفسه ، لا يتزل عن شيء من مطالبه الاصلية للعرب ، او لنفسه مع الزمن ». وفيما يتعلق بموضوع اقامة اليهود في فلسطين فقد قال هوجارث «ان الملك لا يقبل قيام دولة يهودية مستقلة في فلسطين ، ولم تصدر لي تعليمات بان

أذكر له ان هذا ما تفكر فيه وتنويه بريطانيا العظمى .... واما موافقته السريعة على اقامة اليهود في فلسطين ، فلا تعني شيئا ولا قيمة لها ولكنني اظنه يقدّر المزايا المالية لتعاون العرب مع اليهود »[1] .

مما هو جدير بالملاحظة هنا ان الملك حسين حتّى ذلك الحين لم تكن لديه فكرة واضحة عن مطامع الصهيونيين في فلسطين او عن أبعاد تصريح بلفور ومدى جدية الحكومة البريطانية تجاه الموضوع كله . ربما تصور الملك ان بضعة الاف من اليهود يرغبون في الاقامة في فلسطين . وفيما بعد ، عندما اتضحت له حقيقة مطامع الصهيونيين وجديّة الحكومة البريطانية في دعم تلك المطامع ، أعلن معارضته التامة وبلغ في تشدده أقصى حد ممكن . ثم ان رسالة هوجارث كانت شفهية فلم يتح للملك ان يفهم جيدا عباراتها وما تحمله من معان . فلماذا لم تكن الرسالة خطية ؟ ولماذا لم تقدم الحكومة البريطانية على ايضاح سياستها في كلمات مكتوبة على الورق ؟ لقد تصرّف هوجارث كما تصرّف سايكس : عبارات تُقال وليفهم السامع ما يستطيع ان يفهم .

ثم ان القسم الثاني لم يتضمن القول بانشاء ادارة دولية في فلسطين كلها ، وانما يتضح من نص العبارات ان المقصود هو انشاء «نظام خاص .... يوافق عليه العالم» كي يتولى الإشراف على الأماكن المقدسة . يدل عليه ما جاء في ملاحظات هوجارث ذاتها . ومن هنا يبدو بطلان القول بان رسالة هوجارث «أخرجت فلسطين بصورة قاطعة من نطاق عهود مكماهون الى الحسين»[2] . وفي القول بأن عودة اليهود الى فلسطين يجب ان تسير «بقدر ما يتفق ذلك مع حرية الاهالي الموجودين من الوجهتين الاقتصادية والسياسية» ضمانات كافية للكيان القومي لعرب فلسطين ، بل ان هذه العبارة تلغي الغاء قاطعا المعاني السياسية في تصريح بلفور

---

(١) تقرير هوجارث عن اجتماعه بالملك حسين مع الملاحظات التي قدمها المندوب السامي بتاريخ ١٥ كانون الثاني ١٩١٨ : **P.R.O., F.O. 882/7 and Command 5974 of 1939.**

(٢) **Christopher Sykes, *Cross Roads to Israel*, Collins, London, 1965, p. 45.**

وتقضي على ما ورد في ذلك التصريح بشأن انشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين . لقد ضمن تصريح بلفور «الحقوق المدنية والدينية» لسكان فلسطين الأصليين ، بينما ضمنت رسالة هوجارث حرية الاهلين الاقتصادية والسياسية . ومن الدلائل الواضحة على معرفة الحكومة البريطانية بالتناقض الذي وقعت فيه ، انها ظلت تنكر تصريحها هذا بضمان حرية اهل فلسطين الاقتصادية والسياسية حتى سنة ١٩٣٩ عندما نشرته رسميا اثناء انعقاد مؤتمر فلسطين . وكان الملك حسين قد سجل النقاط المهمة في رسالة هوجارث وخاصة القسم الاول منها القائل باتاحة الفرصة الكاملة للشعب العربي لاستعادة كيانه كأمة في العالم ، والعبارة الخاصة بالحرية الاقتصادية والسياسية لأهل فلسطين العرب [١] . كان كل ما فهمه الحسين ان المطلوب من العرب قبول اقامة عدد محدود من اليهود في فلسطين لا يتعارض مع حريتهم واستقلالهم ، ومن هنا ترحيبه بهم ليس في فلسطين فحسب بل في جميع الاقطار العربية . وقد أوعز بنشر مقالة في جريدته الناطقة باسمه يدعو الى التسامح مع اليهود والعمل على الاستفادة من تقدمهم العلمي [٢] وهذا دليل واضح على ان المعنى الذي فهمه يومذاك من تصريح بلفور [٣] .

---

(١) George Antonius, *The Arab Awakening*, Hamish Hamilton, London, 1938, p. 268.

(٢) جريدة القبلة ، العدد ١٨٣ الصادر بتاريخ ٢٣ آذار ١٩١٨ .

(٣) في رسالة خاصة بين أوراق هوجارث الموجودة في كلية سنت انتوني في اوكسفورد ما يلقي مزيدا من الضوء على اجتماعاته بالملك حسين . وقد كتب هوجارث الرسالة في جدة بتاريخ ١٠ كانون الثاني ١٩١٨ . أي في اليوم التالي للاجتماع الذي قرأ فيه رسالة وزارة الخارجية :

« ... لقد أرسلت كي احاول اقناع شيخ مكة أن يفعل أشياء لا يرغب فيها ، على الأقل ليس بالطريقة التي أريدها . وانني أجد مهمتي مثل مهمة من يصعد جبلا ، على الرغم من كل تلطفه وتربيت يده وعبارات الإعزاز مثل ابني وصاحبي وما شابه ! إنه أشد الديبلوماسيين على الأرض تصلباً في الرأي ، وهو يعرف معرفة جيدة من أين يمسك بك ... انه يعطيني فناجين قهوة معطرة وكؤوس شراب حلو ، ويكرر حبه لنا جميعا ولكنه لا يستطيع أن يفعل ما نريد ولا يريد أن يفعل ما نريد » .

أما الكاتب الانكليزي جون مارلو فيقول في هذا الصدد : « ... ان زيارة هوجارث تنطوي على بعض الأهمية ، لأنها تقر ضمناً ان البريطانيين كانوا يعتبرون فلسطين

الأتراك يعرضون الصلح : كان لثورة تشرين الاول ١٩١٧ التي تسلم عن طريقها الحزب البلشفي زمام الحكم في روسيا، صدى بعيد بالنسبة للقضية العربية . فقد بادر الشيوعيون فنشروا يوم ٨ تشرين الثاني ١٩١٧ نصوص عـــدد من الاتفاقيات السرية التي كانت حكومة القيصر قد دخلت طرفا فيها. وكانت اتفاقية ١٩١٦ التي عقدتها روسيا وفرنسا وبريطانيا لاقتسام اراضي الدولة العثمانية بين الوثائق السرية التي تم نشرها .(١)

وخلال ايام معدودة كانت تفاصيل اتفاقية ١٩١٦ في ايدي الحكومة العثمانية فبادرت الى اغتنام الفرصة ونقل النبأ الى العرب وعرض الصلح عليهم.وقد جاء ذلك ضمن رسائل ثلاث بعث بها جمال باشا الى الامير عبدالله والامير فيصل وجعفر باشا العسكري .(٢) كما ان جمال باشا صرح به علناً في خطاب القاه في بيروت حينذاك .

بعث أحمد جمال باشا رسالتيه الى فيصل وجعفر مع رسول سري مستعجل الى مقر قيادة الجيش الشمالي في العقبة . وقد ضرب في الرسالتين على وتر الروابط الدينية ، فقال في رسالته لفيصل ان الحكومة العثمانية اشتركت في الحرب وهي تضع نصب عينيها هدفين : أمّا رفع العالم

جزءاً من منطقة الاستقلال العربي التي أشارت اليها مراسلات مكماهون. واذا لم يكن الأمر كذلك ، فلماذا كان ضرورياً تهدئة مخاوف حسين حول تصريح بلفور ؟ ان زيارة هوجارث هذه تجعل الموقف الرسمي البريطاني الذي ظهر فيما بعد ، يبدو أشبه بالعبث ، ذلك الموقف القائل بأن مراسلات مكماهون هدفت إلى اغفال فلسطين من منطقة الاستقلال العربي على أساس أنها تقع إلى الغرب من خط حماة – حمص – دمشق . » – الثورة في فلسطين (انكليزي) لندن ، ١٩٤٦ صفحة ٤٣ .

(١) نشرت جريدة ازفستيا نص الاتفاقية في عددها الصادر يوم ٢١ تشرين الثاني ١٩١٧ ولكنها لم تنشر في الصحف الانكليزية الا بعد حوالي شهرين اذ نشرتها المانشستر جارديان في ١٩ كانون الثاني ١٩١٨ ، وفي امريكا تأخر نشرها إلى ما بعد انتهاء الحرب اذ نشرتها الايفنتج بوست في ٨ كانون الأول ١٩١٨ .

(٢) رسالتا فيصل وجعفر مؤرختان بالتاريخ الرومي ١٣ تشرين الثاني ١٣٣٣ وهو يوافق ٢٦ تشرين الثاني ١٩١٧ . أما الرسالة إلى عبد الله فبتاريخ ٢٢ تشرين الثاني ١٣٣٣ رومي الموافق ٥ كانون الاول ١٩١٧ . وتجد الترجمة الانكليزية للرسائل الثلاث في P.R.O., F.O. 686/38

الاسلامي الى حياة أكثر قوة واستقلالا أو الموت بشرف وكرامة . وقال جمال : ان ثورتكم لا يمكن تبريرها الا اذا كانت تستهدف جعل استقلال العالم الاسلامي وخيره وقوته باقية الى الابد . ولكن «كيف تتصورون إنشاء دولة عربية تتولى مسؤولية ادارة العالم الاسلامي مستقلا كريما ، بينما يعلن الحلفاء ان فلسطين ستكون منطقة دولية لجميع الاديان وان تُلحق سورية بفرنسا والعراق ببريطانيا ؟ يحتمل انكم لم تدركوا في بادىء الامر ان النتيجة ستكون هكذا .... على ان وقت اصلاح الخطأ وازالة سوء التفاهم لم يفت حتى الان . واذا ما أيقنت بصحة هذا القول ، فدعنا نبحث الموضوع حتى نصل الى تفاهم أفضل كي نجدد صداقتنا القديمة ». واختتم جمال رسالته بقوله انه انما كتب الرسالة لاداء ما يقتضيه الواجب الديني . واقترح ان يتقابل فيصل مع الشيخ بدر الدين الحسني في مكان معين كي يخبره الشيخ بآراء الحكومة العثمانية .

اما الرسالة الثانية فقد استهلها جمال بتذكير جعفر بما أبدى من حماسة في قيادة المجاهدين ضد الانكليز في مصر ، ثم تحوّل الى ابداء الأسف لكون جعفر بعد «نشاطاته البطولية ضد العدو »يقف الان مع الجيش العربي الذي تسببت عملياته في نجاح الجنرال اللنبي واستيلاء الانكليز على فلسطين التي دافع صلاح الدين عنها . وأضاف جمال يقول انه يعتقد باخلاص جعفر وطيبة عنصره وانه لذلك يود ان يتعرف على رأيه في هذه المسألة وان يجتمع به شخصيا . وأقسم جمال بشرفه ان يعود جعفر مكرماً عزيزا الى الموضع الذي يجيء منه بعد ان يجتمعا .

يبدو أن جمال خشي ان لا تؤثر رسالتاه في فيصل وجعفر التأثير المطلوب ، أو أن يحدث عائق ما يحول دون وصول النبأ الى الشريف حسين ، فكتب بعد تسعة ايام رسالة الى الامير عبدالله ينبئه فيها انه كتب لاخيه حول بعض المسائل وانه يكتب الان اليه مقترحا اعادة البحث فيما يشغل أفكار المسلمين وما اصاب الاتحاد الاسلامي من صدع . ويطلب منه ان يفكّر في الموضوع بعناية وصراحة .

فعل فيصل الشيء الوحيد المتوقع من ضابط في ميدان القتال ، فأبرق برقية رقمية الى ابيه في ١٤ كانون الاول ١٩١٧ ينبئه بعرض جمال ويقول له انه لن يرد على الرسالة بشيء حتى يتلقى تعليمات الشريف . وفعل الشريف الشيء الوحيد الذي يتوقع من حليف أمين مخلص فأبرق للمندوب السامي الجنرال ونجت بمضمون برقية فيصل ، طالبا رأيه في الموضوع . ومن المهم هنا ان نلاحظ ان جمال في رسالته لم يوضح لفيصل تفاصيل اتفاقية ١٩١٦ السرية التي فضحها البلاشفة ، ولما كان فيصل وابوه والزعماء العرب الآخرون لم تبلغهم انباء فضح الاتفاقية ، فقد انصرفت أذهانهم الى موضوع قيام جمال باشا بعرض الصلح على العرب بصورة مجردة . وهكذا نرى الشريف يبرق الى ونجت برقية اخرى في ١٨ كانون الاول تتضمن اقتراحا بالجواب الذي يرى الرد به على جمال باشا وخلاصته انه يستحيل قبول البحث في المقترحات التي قدمها دون موافقة الحلفاء والحصول على رأيهم ، وانه اذا كان الاتراك يريدون عقد صلح منفرد «مع مجموعتنا نحن الحلفاء» فانه مستعد للسعي في الأمر على شرط ان يبادر الاتراك الى اخلاء مواضع معينة. وقال لونجت انه يضع الموضوع كله بين يدي الحكومة البريطانية التي لا بد ان تكون مطلعة على مسائل سياسية كثيرة لا يعرفها هو وفوضه بابلاغ فيصل مباشرة ما يرى ابلاغه . وفي الوقت ذاته أبرق الى فيصل يطلب منه المضي قدما في العمليات العسكرية وان يرد على عرض جمال باشا بمقتضى ما يأتيه من تعليمات المندوب السامي او الجنرال اللنبي ، واضاف قائلا «وفي مثل هذه المواطن تظهر مزايا الرجال». وبعد ثلاثة أيام أبرق ثانية لفيصل يأمره برفض «كل طلبات جمال في اي موضوع كان . وان لا حكم بيننا الا السيف . وان رضاي وسخطي عليك وحياة البلاد وسعادتها موقوفة على هذا الرد .»

ويادر ونجت الى احاطة بلفور وزير الخارجية علماً بالوضع اولا بأول. وقال انه أشار على الشريف ان لا يبعث اي رد رسمي على عروض جمال : لانه ارتأى «ان من الخطورة اعطاء الانطباع باننا يحتمل ان

نفكر في التوصل الى ترتيب مع الاتراك بشأن مناطق تهم العرب ». وأبرق ونجت الى فيصل يطلب منه ان يتباحث في الموضوع مع الميجر لورنس . ولم يلبث لورنس ان بعث رسالتي جمال الى مصر ، ومن هنـــاك ارسل ونجت ترجمتهما الى بلفور . والحجة التي استعملهـــا ونجت للشريف في رسالته المؤرخة ٢٣ كانون الاول ١٩١٧ ان الرد على جمال باشا «من المحتمل ان يعطل حركة فيصل التي يقدّر جمال أهميتها كمال التقدير على أمر النهضة العربية ...».

وفي هذه الاثناء بلغت مسامع الضباط والجنود العرب في جيش فيصل انباء وعد بلفور ، فكانت دهشتهم كبيرة وأعلنوا انهم لن يواصلوا القتال الى جانب الانكليز الا اذا قدمت بريطانيا تأكيدات بانها ستنفذ عهودها الأساسية[1] .وأبرق فيصل الى ابيه بما حدث فبعث له ابوه بتاريخ ١١ كانون الثاني ١٩١٨ البرقية التالية :

> الحلفاء أجل وأكبر من أن يخلوا بحرف من مقرراتنا معهم ، وهم أحرص الناس على ملاحظة مثل هذه الدقائق . فلا تفتكر في ذلك واطمئن واعلم انه لا حكم بيننا وبين الترك الا السيف ، كما أشرت اليك في تحريراتي بتاريخ أمس . (٢)

وبعث ونجت الى الملك حسين رسالة بتاريخ ١٢ كانون الثاني ١٩١٨ يعبّر له فيها عن سروره العظيم للتعليمات التي أرسلها الى فيصل بشأن عروض جمال باشا . ثم أبلغه ان خطب وتصريحات كبار الساسة من الحلفاء «تدل بأجلى وضوح على شدة رغبة الحلفاء بترقي وتقدم واحياء الامة العربية التي كانت نهضة جلالتكم باعثاً عظيما لها على ذلك ومشجعا

---

(١) بيان نوري السعيد في مؤتمر فلسطين العربي – البريطاني ، لندن ، يوم ١٣ شباط ١٩٣٩ : مؤتمر فلسطين العربي البريطاني ، مترجم عن الانكليزية ، القاهرة ، ١٩٤٠، ص ص ٦٥ – ٦٦ .

(٢) بشأن البرقيات والرسائل التي تبودلت بين الملك حسين وفيصل وونجت والمعتمد البريطاني في جدة (خلال الفترة ١٤ كانون الأول ١٩١٧ – ١١ كانون الثاني ١٩١٨). راجع : أوراق الامير زيد و P.R.O., F.O. 371/3395, 686/37, 686/38.

كبيرا في هذا السبيل ».[1]

اما رسالة جمال الى عبدالله فلم تصل الا في منتصف شهر كانون الثاني ١٩١٨ . ويبدو أن عبدالله لم يكتم الامر كما فعل فيصل بل أطلع عليه عددا من ضباطه واستدعى الميجر دافنبورت وأبلغه بمحتوى رسالة جمال القائلة بان الحلفاء يعتزمون الاستيلاء على جميع البلاد العربية وطلب منه الحصول من الحكومة البريطانية على تصريح واضح عن السياسة البريطانية كي يتمكن من تكذيب دعاية جمال . وقد أبرق الكولونيل باست (كان ولسون مريضاً في مصر يومذاك) من جدة الى الملك حسين يقول ان الكوماندر هوجارث أوضح له السياسة البريطانية قبل ايام قلائل ، وطلب منه ان يبرق لنجله عبدالله ان لا تخامره الشكوك في سياسة بريطانيا وان يمزق رسالة جمال امام ضباطه وان يعمد الى مهاجمة خط سكة الحديد «كأفضل جواب على رسائلهم الكاذبة .»[2] . ورد الملك في اليوم ذاته يقول انه كان قبل اسبوعين قد ابلغ عبدالله بفحوى رسالة جمال الى فيصل وكيف مزق النسخة التي أرسلها فيصل اليه ،وطلب اليه ان لايكترث بمثل هذه الاكاذيب. وعمد الملك فأرسل الى عبدالله رسالة ثانية يقول له فيها انه — الملك — أكثر غيرة منه ومن العرب فيما يتعلق ببلادهم وشرفهم وتاريخه الديني ، وأمره بتمزيق رسالة جمال والمبادرة الى مهاجمة معاقل الاتراك بعد ان استولى اخواه فيصل وزيد على الطفيلة[3] .

ولكن المسألة لم تقف عند هذا الحد،اذ أبرق ونجت الى بلفور يقول ان دعاية الاتراك أدخلت الريب في نفوس العرب حول نيات الحلفاء تجاه الاقطار العربية . وقال ان آخر مثال على ذلك «نداء عاجل وجهه

---

(١) أوراق الأمير زيد و P.R.O., F.O. 686/37 اشارة إلى خطاب لويد جورج بتاريخ ٥ كانون الثاني ١٩١٨ الذي أعلن فيه أهداف بريطانيا من الحرب — محتذياً حذو الرئيس ولسون في نقاطه الأربع عشرة — ومما جاء في خطاب لويد جورج قوله انه يحق لبلاد العرب والعراق وسورية وفلسطين « ان يعترف بأحوالها القومية المنفصلة » .

(٢) Telegram No. 276 dated 19 Jan. 1918 : P.R.O., F.O. 686/37.

(٣) P.R.O., F.O. 686/37.

الامير عبدالله الي طالبا اصدار تكذيب واضح لمزاعم جمال باشا بان بريطانيا سوف تحتفظ بفلسطين والعراق وان فرنسا ستحتفظ بسورية ».
وقال ونجت ان اي تأكيدات غامضة وعمومية حول مستقبل العرب تحمل في طياتها الضرر وان من الضروري تكذيب مزاعم العدو تكذيباً قاطعا لاعادة الثقة بنيات الحلفاء الحسنة . ثم اقترح تخويله ان يقدم للملك تأكيدا رسميا بان بريطانيا ما تزال مصممة على تحقيق استقلال العرب والوفاء بالوعود التي قطعت له سابقا وبان بريطانيا لن توافق على احتلال فلسطين والعراق (باستثناء البصرة) وسورية احتلالاً دائماً بعد انتهاء الحرب ، وبأن هذه المناطق سوف تبقى في ايدي ابنائها ، وان التدخل الاجنبي في البلاد العربية سوف يقتصر على مساعدتها وحمايتها . وحث ونجت حكومته على معالجة الوضع الذي قد يتدهور بصورة خطيرة ، كما أشار الى ضرورة اصدار تصريح مماثل من قبل فرنسا .[1]

وبحثت رسائل جمال وبرقيات مكماهون في اجتماعات (اللجنة الشرقية).[2] وحث سايكس تلك اللجنة على اتخاذ اجراء ما للرد على اتهامات جمال للحلفاء ، قائلا ان الوضع يمكن ان يصبح مشحونا بالخطر.
وقال سايكس «ان ملك الحجاز أخبرني ذات يوم انه سوف يعمد للتنازل عن العرش اذا احس في اي يوم انه يساعد على اسقاط الاتراك من أجل مجيء حكومة اوروبية الى بلاد اسلامية ».[3]

لا شك ان الملك حسين كان يتوقع ان يبادله حلفاؤه الانكليز ثقة بثقة ، وولاء بولاء . ولكن رسالة ونجت المؤرخة في ١٢ كانون الثاني

(١) Telegram No. 154 dated 22 Jan. 1918 — CAB. 27/23.
see also : Meeting of Eastern Commttee on 18 July 1918 : CAB. 27/24.

(٢) لجنة وزارية ألفت في كانون الثاني ١٩١٨ وكانت تعنى ببحث جميع القضايا المتعلقة ببلاد العرب وايران وبعض أقطار الشرق الأوسط وتتخذ التوصيات والقرارات اللازمة بشأنها . وكان اللورد كرزون يرأس هذه اللجنة ، ومن أعضائها المستر بلفور واللورد هاردنج واللورد روبرت سيسل والمستر مونتاجيو والجنرال سمطس ومارك سايكس وآخرون .

(٣) Minute on Wingate's letter No. 316 of 25 Dec. 1917.

خيّبت آماله لانها لم تجب عن السؤال الاساسي الذي طرحته رسائل جمال بشأن نيات بريطانيا وفرنسا تجاه العراق وسورية وفلسطين . لهذا بادر للاجابة في ٣ شباط بقوله انه سُرّ لقول ونجت في كتابه انه يتمتع بصحة جيدة ، ولكن «قد ترجح من باقي مندرجاته السامية أمر انتحاري. اذ لا بدّ لي من خطتين احداهما الانسحاب من مبادىء الامر وهذا يمسّ بحسياتي امام بريطانيا العظمى عن ان لا أنسب الى قصد الاشكالات وهي المساعي والتكلفات ونحوه ، او الانتحار في الساعة التي يتعيّن فيها ما يخالف اقوالي وتصريحاتي المرتكزة على الاساسات المقررة للاقوام العربية خصوصا والمسلمين عموما . فانه لا يبرئني امامهم سوى ما ذكر».وقد حرص الملك ان يذكر سببا واحداً من أسباب قلقه ، الا وهو الاخبار التي ينشرها عملاء الاتراك «بين عرب فلسطين بأن بريطانيا تقصد ان تضعهم تحت حكم يهودي وتجعل الصهيونيين يحكمونهم ». ولكن الملك أكد لونجت ان حركات العرب العسكرية لن تتوقف. وفي اليوم التالي بعث برسالة ثانية ردّ فيها على ما ذكره ونجت في رسالته اياهـــا بشأن تصريحات كبار الساسة من الحلفاء فقال انه « لا مناسبة بيني وبين الحلفاء العظام الا حلفهم ببريطانيا العظمى : ولا تهمني خطبهم وتصريحاتهم ما دمت قائمـــا للعظمة البريطانية وحشمة جلالة ملكها المهـــاب بأنواع الحقوق ... »[1]

في ١ و ٢ شباط بحثت اللجنة الشرقية في الوضع الناشيء عن رسائل جمـــال باشا وتدارست المذكرة التي كان البروفسور هوجـــارث قد وضعها في نيسان ١٩١٦ بشأن وعود بريطانيا للملك حسين [2]. وبعد ان استعرضت اللجنة الوعود التي اعطتها بريطانيا للشريف ورسائل مكماهون اليه واستنارت بمذكرة هوجارث المشار اليها اعلاه ، قررت ان تبعث للشريف تأكيدا جديدا لا يقل في أهميته عما سبقه من عهود .

---

(١) أوراق الأمير زيد ورسالة ونجت إلى بلفور رقم ٣٣ بتاريخ ١٩ شباط ١٩١٨ : الملف F.O. 371/3380

(٢) راجع الفصل الرابع .

وقد جاء هذا التأكيد في البرقية التي بعث بها وزير الخارجية بلفور بتاريخ ٤ شباط ١٩١٨ الى السير ريجنالد ونجت وهي البرقية التي قام الكولونيل باست بابلاغها للملك حسين في رسالة منه مؤرخة في ٨ شباط ١٩١٨ . ان هذا العهد الجديد الذي نشر بالانكليزية والعربية عدة مرات ، تضمن العبارات التالية :

> ان حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى وحلفاءها ما زالت واقفة موقف الثابت لكل نهضة تؤدي إلى تحرير الامم المظلومة ، وهي مصممة أن تقف بجانب الشعوب العربية في جهادها لاعادة بناء عالم عربي يسود فيه القانون والشرع بدل الظلم العثماني ، وتحل فيه الوحدة محل التنافس المصطنع الذي كان الموظفون الاتراك يغذونه . وان حكومة ملك بريطانيا العظمى تكرر عهودها السابقة إلى سموه بخصوص تحرير الشعوب العربية ... ان التحرير هو السياسة التي أتبعتها حكومة جلالته ؛ والذي تقصد ان تستمر عليه بتصميم لا يعرف التردد ، وذلك بأن تحمي العرب الذين تحرروا سلفا من خطر اعادة فتح بلادهم وبأن تساعد العرب الذين ما يزالون تحت نير الظالمين لينالوا حريتهم . (١)

وقد اعتبر الملك حسين هذا العهد الجديد كافيا لتكذيب ما جاء في رسائل جمال باشا ، بل اعتبره أكثر قوة من التعهدات التي سبقته لانه شمل جميع الشعوب العربية وضمن تحريرها (٢) . ولم يخطر قط ببال الملك حسين ان الحكومة البريطانية يمكن ان تقصد بكلمتي «تحرير وحرية» ان تعمل على طرد الاتراك لتحل هي وفرنسا والصهيونيون محلهم في حكم البلاد العربية . بل لم يخطر بباله ابدا ان الحكومة التي كان يعتقد ان كلمتها عنوان الشرف ، تبعث اليه هذه الرسالة خديعة ورياء اتباعاً لمبدأ ميكافيللي خبيث «لا شيء يهم الا ان نكسب الحرب».

---

(١) P.R.O., F.O. 686/75, Telegram No. 163 (R), and CAB. 27/23 (& CAB 27/24.) وقد نشر النص العربي لأول مرة في جريدة القبلة، العدد ٥٥٥ تاريخ ٢٦ كانون الثاني ١٩٢٢ والنص العربي الذي تلقاه الملك حسين هو ترجمة رديئة للنص الانكليزي .

(٢) رسالة من الملك حسين إلى الحاج محمد امين الحسيني ، بتاريخ ٢٦ كانون الأول ١٩٢٩، حقائق عن قضية فلسطين ، الطبعة الثالثة ، ١٩٥٧ القاهرة ، ص ١٣١ .

ان رسالتي الملك حسين في ٣ و ٤ شباط تقاطعتا في البريد مع رسالة بلفور التأكيدية ، ولكن ونجت عندما تسلمهما بعث برسالة جوابية طويلة يقول فيها «انه لو كانت مخاوف جلالتكم بشأن المستقبل قائمة بالتأكيد على حقيقة ، لرأيت من واجبي ان ابلغ جلالتكم في الحال ». وعبّر ونجت عن اعتقاده بان رسالة ٨ شباط يجب ان «تزيل اي ريبة لدى جلالتكم او لدى العرب عامة من جهة نيات الحلفاء نحو البلاد العربية . وعلى الخصوص من جهة البواعث الحالية من الغرض التي تسترشد بها حكومتا فرنسا وبريطانيا العظمى من جهة حكومة سورية المستقبلة .... فالسياسة العمومية لحكومة ملك بريطانيا العظمى وحلفائها قد أعلنت على الملأ بأنها سياسة تحرير وعمار اداري على أساسات محكمة وتكون على حسب وفق ديانات وحسّيات الأجناس المختلفة للسكان المحليين »[1] .

لم تقف اتصالات الترك عند ذلك الحد لان الحكومة العثمانية وحليفتها الحكومة الالمانية كانتا ترغبان رغبة شديدة في فصل العرب عن الحلفاء . وقد جاء عرض الاتراك الجديد لعقد الصلح في شهر شباط ١٩١٨ عندما أوفد جمال الصغير [2] احد شيوخ قبيلة بني حسن الى فيصل يكرر الاقتراح بعقد مفاوضات بين الطرفين كي لا تقع البلاد الاسلامية تحت حكم الانكليز والفرنسيين. ورد عليه فيصل قائلا انه اذا كان الاتراك مخلصين في مساعيهم فلينسحبوا من المدينة ومن معان وجميع محطات السكة حتى عمان ، حتى يستطيع ان يخابر اباه ويحاول اقناعه ببدء

---

(١) Telegram from Wingate to F.O., No. 345 dated 19 Feb. 1918 (MEC 89) and letter from British Agent at Jeddah dated 19 Feb. 1918 :P.R.O., CAB 27/23 and F.O. 686/37. والنص العربي في أوراق الأمير زيد .

(٢) خدم ثلاثة من القادة الأتراك الذين يحملون اسم جمال في سورية أثناء الحرب (١)احمد جمال باشا الكبير وزير البحرية (٢) جمال باشا الثاني (او الصغير) الذي تولى قيادة الجيش الرابع حتى ايلول ١٩١٨ (٣) محمد جمال باشا (الثالث) قائد قوات معان فترة من الزمن .

المفاوضات . وكتب فيصل لابيه بالمقترحات الجديدة فأجابه ابوه انه ما يزال على رأيه الاول بعدم التفاوض مع الاتراك «انني استطيع ان اقول لك يا ولدي ان الحلفاء مضطرون، وفاء بعهودهم، ان يعطونا الحدود التي تعرفها »، ولكن اذا انسحب الاتراك الى ما وراء تلك الحدود فانهم بذلك يتخلصون من قتالنا لهم . وبعث الملك حسين في ٢٢ آذار ١٩١٨ رسالة فيصل وجوابه عليها الى المعتمد البريطاني .

وكانت مخابرات الانكليز قد كشفت سر المخابرة ، فأبرق ونجت الى وزارة الخارجية في ٢٣ آذار يقول ان فيصل أبدى استعداده للدخول في مفاوضات مع الاتراك اذا وافقوا اولا على مبدأ استقلال العرب . وطلبت وزارة الخارجية من كلايتون ابداء رأيه مقترحة بعث الاطمئنان في نفوس العرب عن طريق(١) الاعتراف بسلطة فيصل في المنطقة المحتلة الى الشرق من نهر الاردن(٢) ان يستقبل اللنبي فيصل(٣) اوسمة وهدايا لفيصل واتباعه(٤) رسالة الى الملك تعيد تأكيد سياسة بريطانيا الموالية للعرب . وأجاب كلايتون بان العرب يتخوفون من السياسة الفرنسية في سورية ومن مقاصد الصهيونيين «ولذلك فمن المرغوب فيه تثبيت التحالف العربي مع بريطانيا العظمى بجميع الوسائل الممكنة ». واقترح ان يجتمع وايزمن بفيصل كي يعطيه هذا تأكيدات بشأن أبعاد الحركة الصهيونية .

وفاتح لورنس فيما بعد فيصل بشأن الوسام فاعتذر عن عدم قبوله .

وبلغت المخابرات مداها بشأن العرض الثاني من قبل الاتراك ، برسالة بعث بها المعتمد البريطاني بتاريخ ٢٥ نيسان ١٩١٨ الى الملك حسين قال فيها انه مكلف بنقل الشكر الجزيل من الحكومة البريطانية على اسراعه بارسال المخابرات اليها ، وان الحكومة البريطانية ترى في تصرف الملك حسين مثالاً جديداً على ولائه المتين للتحالف ، وأنها سعيدة لان حسين يدرك ان الوسيلة الوحيدة لقهر مشاريع العدو الخبيثة ومناوراته الرامية الى خلق الخلاف وعدم الثقة بين القادة العرب وحلفائهم — تكمن في استمرار العلاقات الصريحة المفتوحة تماما بينه وبين الحكومة البريطانية(١) .

(١) المخابرات المتعلقة بهذه المسألة في F.O. 686/38 & CAB. 37/25 وأوراق الأمير زيد.

ان جمال باشا في الخطاب الذي ألقاه في بيروت يوم ٣٠ تشرين الثاني ١٩١٧ . كان واضحاً فيما يتعلق باتفاقية سايكس – بيكو . أكثر مما كان واضحاً في رسائله الى عبدالله وفيصل وجعفر . فقد تحدث بعبارات ناعمة جداً عن العرب والسوريين ، ووصف بشيء من المبالغة الضرر الذي ألحقته الثورة العربية بالدولة العثمانية ، وقال انه بعث ينبيء الشريف بالخديعة التي وقع ضحية لها ، ويبلغه بخطط فرنسا وبريطانيا لاقتسام البلاد العربية ، طالباً اليه ان يعود الى حظيرة الخلافة . ولا شك ان جمال باشا كان يشعر بمرارة الاخفاق بعد استيلاء اللنبي على غزة وبئر السبع واقترابه من القدس ويافا ، فحاول ان يعوّض عن اخفاقه العسكري بنصر سياسي . ولكن الشريف فوّت عليه الفرصة ، ولم يلبث ان غادر سورية مخذولاً في أواسط كانون الاول ١٩١٧ . اما الخطاب فقد نشرته جريدة (الشرق) ثم نقلته عنها جريدة المستقبل في عددها ١٠١ .(١)

وكان الملك حسين قد ظل خالي الذهن تماماً من موضوع اتفاقية سايكس – بيكو الى أن وصلت اليه في أوائل حزيران ١٩١٨ نسخة من عدد جريدة المستقبل ١٠١ ، فاضطرب اضطراباً شديداً عندما قرأ خطاب جمال ، وأيقن عندئذٍ أن المسألة أخطر بكثير مما وصل الى علمه في السابق . ولما كان الملك يتعامل مع الانكليز بالأساليب الديبلوماسية فقد كتب في ٥ حزيران رسالة طويلة الى المندوب السامي يذكّره فيها بالاتفاقية المعقودة بينه وبين بريطانيا فيما يتعلق باستقلال البلاد العربية وحدودها ، ويقول ان ما نشرته (المستقبل) يدل على ان مساعيه ستذهب

---

(١) جريدة الشرق أنشأها جمال باشا لخدمة سياسته ، وكانت تصدر باللغة العربية في دمشق. وقد تولى الأمير شكيب ارسلان رئاسة تحريرها فترة من الزمن ، وكان من محرريها الشيخ عبد القادر المغربي ومحمد كرد علي . ونشر خطاب جمال في العددين ٤٩٤ و ٤٩٥ منها . أما جريدة (المستقبل) فكانت تصدرها وزارة الخارجية الفرنسية في باريس باللغة العربية . وجاء في جريدة (القبلة) ان خطاب جمال كان يوم ١١ كانون الاول ١٩١٧ (٢٦ صفر ١٣٣٦ هـ) .

أدراج الرياح . [1] ثم أبرق الملك حسين الى معتمده في مصر (الشيخ فؤاد الخطيب)برقية عنيفة يأمره بالحصول على ايضاحات من المندوب السامي حول الاتفاقية البريطانية — الفرنسية وأبعادها .

وفي الوقت ذاته بعث فيصل الى ابيه رسالة اخرى من جمال الثاني يجدّد فيها اقتراحه السابق بفتح باب المفاوضات بين العرب والاتراك . وقد ردّ الملك حسين برفض الاقتراح للمرة الثالثة ، وبعث في ٧ حزيران برقية الى ونجت يحيطه علماً بالمسألة . وفي ١٢ حزيران نقل المعتمد البريطاني جواب ونجت وفيه يقول ان الحلفاء اجابوا ايضا بمثل ردّ الملك حسين على العروض التي تلقوها من المانيا والنمسا «فليس هناك ثمة جواب آخر وردّ يمكن اعطاؤه على مثل هذه المراسلات للاعداء ، حتى يعترفوا بسطوتنا ونفوذنا الحربي السياسي والمعنوي ، وحتى تتأمن تماما جميع الأغراض الشريفة العظيمة التي من أجلها يحارب الحلفاء». [2]

وابرق ونجت الى بلفور في ١٦ حزيران ينبئه بطلب الشريف ايضاحا لما جاء في خطاب جمال باشا ، وذكّره بان الملك حسين لم يبلّغ رسميا باتفاقية سايكس — بيكو ، وقال انه نصح معتمد الشريف بان يرد على استيضاحاته بما يلي :

«ان البولشفيك لم يجلوا في وزارة الخارجية في بتروغراد.معاهدة معقودة ، بل محاورات ومحادثات مؤقتة بين انجلترا وفرنسا وروسيا في

---

(١) نص الترجمة الانكليزية لرسالة الملك في الملف F.O. 371/3381 ومن الادلة على ان الشريف كان على ثقة تامة بوعود الانكليز ان القبلة نشرت تلخيصاً لخطاب جمال في العدد ١٨٨ الصادر بتاريخ ٢ رمضان ١٣٣٦ (١١ حزيران ١٩١٨) .

(٢) أوراق الأمير زيد و P.R.O., F.O. 686/39

جاء في ملحق مذكرة قدمها هوجارث عن المسألة العربيـــة ان لورنس حصل من امناء سر فيصل — دون علم فيصل — على الشروط التي اشترطها فيصل حوالي ١٠ حزيران رداً على عرض جمال الصغير ، وتتضمن تلك الشروط استقلال سورية وان تكون علاقتها مع تركيا مثل علاقة النمسا والمجر مع الضمانة اللازمة لذلك ، وان يسحب الأتراك قواتهم في الجنوب إلى عمان ، وأن يرسل جميع الضباط والجنود العرب في الاناضول إلى الجيش العربي . واذا حارب الجيش العربي إلى جانب الجيش العثماني فان الجيش العربي يكون بإمرة قائده : P.R.O., F.O. 371/3381

اوائل الحرب لمنع المصاعب بين الدول اثناء مواصلة القتال ضد الترك ، وذلك قبل النهضة العربية ، وان جمال باشا امّا من الجهل او الخبث غيّر في مقصدها الأساسي وأهمل شروطها القاضية بضرورة رضى الاهالي وحماية مصالحهم . وقد تجاهل ما وقع بعد ذلك من ان قيام الحركة العربية ونجاحها الباهر وانسحاب روسيا ، قد أوجد حالة اخرى تختلف عما كانت عليه بالكلية منذ أمد مضى »[1]

وأضاف ونجت في نهاية برقيته سائلا «هل استطيع ان اضيف اننا نعتبر الاتفاقية ميتة من جميع النواحي العملية ».[2]

ورد بلفور بالموافقة على التأكيد الذي قدمه ونجت لمعتمد الحسين ، وقال انه لا يمكن اتخاذ اي أجراء بشأن اتفاقية سايكس – بيكو الا بعد التشاور مع الحكومة الفرنسية[3]

ولم يكتف ونجت بالتأكيد الذي قدمه لمعتمد الحسين بل بعث تأكيداً آخر قال فيه «ان جلالتكم تعرفون ان سياسة الدولة البريطانية كانت دائما ترمي الى تحرير العرب من حكم الأتراك الجائر »وذكّره بالرسالة التي حملها هوجارث من «ان الحلفاء مصممون ان يُعطى الجنس العربي الفرصة التامة ليكوّن امة مرة ثانية في العالم . فلا بدّ أن العرب يعرفون هذا ويسعون في اتحادهم من أنفسهم ، فان بريطانيا العظمى

---

(١) نشر النص العربي لهذا التأكيد لأول مرة في جريدة القبلة ، العدد ٦٩٦ تاريخ ١٨ حزيران ١٩٢٣ . برقية ونجت إلى بلفور No. 948 (EC 556) P.R.O. CAB. 27/27

(٢) قدم سايكس مذكرة يعلق فيها على برقية ونجت هذه بقوله انه وبيكو وبريمون وهوجارث أعطوا الملك حسين « تفاصيل الاتفاقية ومجملها » . ولكن سايكس لم يقل انه ذكر للملك وجود « اتفاقية » بين بريطانيا وفرنسا . ثم أبدى رأيه « اننا يجب أن نبلغ الملك اننا لن نوافق على أية تسوية في أية منطقة حيث أكثرية السكان من العرب ، أو من الناطقين بالعربية ، اذا لم تكن تلك التسوية موافقة لرغبات السكان ، واذا لم تكن مطابقة للمبدأ القائم على رضى المحكومين . وسيكون كسباً كبيرا اذا استطاع الفرنسيون أن يشتركوا معنا في اعطاء تأكيد كهذا » . واذا كان سايكس قد أبلغ الحسين في ايار ١٩١٧ عن اتفاقية سايكس – بيكو (كما يزعم البعض) فلماذا أنكرت الحكومة البريطانية في رسالتها هذه وجود الاتفاقية : P.R.O., F.O. 371/3381

(٣) Telegram No. 797 of 21 June 1918 (EC 607) : CAB 27/28.

وحليفاتها سيتبعون سياسة تؤدي الى ذلك الاتحاد المقصود . »[1]

وقد بحثت اللجنة الشرقية بالفعل في امكان اقناع الفرنسيين بالغاء اتفاقية سايكس — بيكو . واجتمع سايكس ببيكو لهذه الغاية ، ولكن بيكو أصرّ على ان الغاء الاتفاقية غير ممكن على الرغم من جميع الحجج التي ساقها سايكس . ونتيجة لذلك اقترح سايكس اقناع الفرنسيين باصدار تصريح مشترك (اعدّ سايكس مسودته بقصد ان يوجّه الى الملك حسين)بحيث يكون التصريح بمثابة الغاء فعلي للاتفاقية . وهذا هو أصل تصريح ٧ تشرين الثاني ١٩١٨ .[2]

ان الحكومة البريطانية التي اظهرت تشددا تاما فيما يتعلق باقتراح الاتراك عقد مباحثات بينهم وبين العرب بقصد التفاهم وعقد الصلح — كانت في الوقت ذاته تجري مباحثات رسمية في سويسرا مع مندوبين اتراك لهذه الغاية بالذات . فبعد سقوط الحكم القيصري في روسيا واعلان حكّام روسيا الجدد ان لا مطامع توسعية لهم ، رأت بريطانيا إمكان عقد صلح مع الاتراك والاعتراف ببقاء استانبول في حوزتهم . وفي ٢٥ كانون الاول ١٩١٧ ارسلت وزارة الخارجية البريطانية تعليمات الى الوزير المفوض في سويسرا بهذا الشأن . وجاء في تلك التعليمات ان بريطانيا لا تضمن بقاء فلسطين تحت حكم الاتراك بعد انتهاء الحرب (كان وعد بلفور قد صدر واللنبي داخل القدس)ولكنها سوف تعيد النظر في امكان بقاء سورية والعراق ضمن الامبراطورية العثمانية[3]

وقبل ذلك — في منتصف ١٩١٧ — كانت هناك مساع لعقد الصلح بين بريطانيا وتركيا وكان الوسيط هو السفير الاميركي في استانبول

---

(١) رسالة بتاريخ ٢٤ حزيران ١٩١٨ في أوراق الأمير زيد والملف . F.O. 882/19

(٢) Memo. by Sykes dated 3 July 1918 (EC 766) : CAB 27/28; & Minutes of Meeting of the Eastern Committee on 28 March and 18 July 1918 : CAB. 27/24.

(٣) F.O. to Sir Horace Rumbold, 25 Dec. 1917, Tel. No. 1294; Milner A/2, p. 172; Also : Memo. by Sykes dated 8 Apr. 1918 (EC 77) : CAB. 27/27.

مورجنتاو الذي جاء الى بريطانيا لهذا الغرض، ولكن الصهيونيين شعروا بالخطر فذهب وايزمن للاجتماع بمورجنتاو قبل وصوله الى الجزر البريطانية، وقد استطاع وايزمن ان يقنع مورجنتاو عند اجتماعه به في جبل طارق بالكف عن مساعيه لعقد الصلح خوفا على مشاريع الصهيونية في فلسطين . [1]

مقابل هذا الموقف البريطاني نجد ان الشريف لم يفعل شيئا واحدا وراء ظهر حلفائه . ففي الشهر الثاني بعد بدء الثورة ظن المسؤولون البريطانيون في مصر ان القصد من ذهاب الشريف علي حيدر الى الحجاز هو عقد الصلح فأبلغوا الفاروقي بذلك. وبالنتيجة كتب الشريف الى مكماهون يقول ... «من المهم ان تعلموا اننا نعتمد على عظمتكم وأن صلحنا يعتمد على صلحكم ، واذا كان لديكم اي شك حول هذا الموضوع فانني سارسل أحد اولادي اليكم ليكون بمثابة عهد بيننا . الموت أفضل من نقض كلمتنا ». [2] وطلب من الفاروقي ان يبلغ اولئك المسؤولين ان الصلح بينه وبين الاتراك «مقرون بصلح حلفائنا . ولا يمكن ان اقبله معهم . بلّغهم ليعتقدوا بصورة قطعية ولو لم يبق معي سوى اولادي.»[3]

التصريح للسوريين السبعة : في الوقت الذي أنكرت فيه وزارة الخارجية البريطانية وجود اتفاقية سايكس — بيكو ، قامت بإصدار تعهّد رسمي جديد قدمت للعرب من خلاله ضمانات ذات أهمية . وهذا التعهد يعرف عادة باسم التصريح للسوريين السبعة . وأصل التسمية يعود الى ان سبعة من الزعماء السوريين المقيمين في القاهرة — باعتبارهم ممثلين

---

(١) Private letter from Sykes to Clayton of 22 July 1917 : Sykes Papers, Oxford.

(٢) رسالة الشريف بتاريخ ٢٧ تموز ١٩١٦ في F.O. 371/6237

(٣) برقية الشريف بتاريخ ٢٣ تموز ١٩١٦ : المصري ، المجلد الثاني، ص٦٢ وكانت عادة رهن الابناء عادة متبعة في بلاد العرب وعند السلاطين العثمانيين من أجل ضمان الولاء . وعندما لم يطلب الانكليز احد أبناء الشريف اعتقد انهم وثقوا به إلى أقصى حد فزاد تمسكاً بثقته فيهم . راجع رسالة فؤاد الخطيب إلى ولسون بتاريخ ٢٠ نيسان ١٩١٧ في F.O. 882/12

للجمعيات السياسية العربية المختلفة لمؤيدي الحركة العربية – قدموا في ٢٦ نيسان ١٩١٨ مذكرة الى وزير الخارجية البريطانية بواسطة المندوب السامي في مصر ، قالوا فيها ان الشكوك تساورهم حول المعنى الحقيقي لتصريحات لويد جورج والرئيس وودرو ولسون الاخيرة ، وان اولئك الذين يمثلونهم يعتقدون انه يستحيل عليهم قطع علاقاتهم مع الدولة العثمانية اذا كان أمر مستقبلهم محاطا بالشكوك . وقال اولئك الرجال السبعة انهم يمثلون أكثر من اربعة اخماس سكان سورية ، وانهم باسم اولئك السكان يقدمون عددا من الاسئلة بصورة مكتومة مع الوعد القاطع بانهم لن يبوحوا بفحوى الجواب الذي يمكن ان ترد به الحكومة البريطانية – الا للملك حسين وابنائه . وسبب الكتمان يعود الى خشيتهم من ان ينتقم الاتراك من السوريين الذين ما يزالون تحت حكمهم ، اذا عرفوا بأمر هذه العريضة . وأشار مقدمو المذكرة الى ما يقال عن اتفاق بريطانيا وفرنسا على اقتسام سورية بينهما ، وطلبوا ايضاحا عن حقيقة موقف الدولتين .

ويمكن اجمال البنود السبعة التي شملتها المذكرة ، فيما يلي :

هل نستطيع ان نؤكد لقومنا ان بريطانيا تهدف الى ان يحصل العرب في بلاد العرب على الاستقلال التام ؟ (وفسروا بلاد العرب بانها شبه الجزيرة العربية وسورية والعراق والموصل وجزء كبير من ولاية ديار بكر). وهل تهدف سياسة بريطانيا الى مساعدة هذه الاقطار لكي تحصل على الاستقلال التام ، وان تؤلف حكومة عربية على أساس اللامركزية بما يلائم الاحوال الاجتماعية لكل قطر ؟ ثم قالوا انهم يبسطون يد الصداقة لبريطانيا اذا هي ساعدتهم على تحقيق اهدافهم . وتساءلوا كيف يصرح قادة الحلفاء بضمان مستقبل اراضي الاتراك (حلفاء المانيا) بينما لم تشمل التصريحات اراضي العرب (حلفاء بريطانيا)، وأضافوا قولهم ان العرب خليقون ان يحصلوا على الامن والاستقلال أكثر من الاتراك «الذين دمروا المدنية العربية وألقوا بها في بحر من الجهل والاستعباد واقترفوا سلسلة من الجرائم ضد الانسانية لن يغفرها لهم التاريخ». ان تأليف

حكومة عربية اتحادية تضم امارات الجزيرة العربية أمر ممكن اذا ساعدت بريطانيا واستعانت بالملك حسين في ذلك . لقد ترعرعت فكرة الثورة العربية في سورية على الرغم من قيامها في الحجاز . ونحن نأمل ان ساسة بريطانيا لن يسمحوا لتضحيات العرب ان تذهب هدرا . تأكيدا للآمال التي وضعتها الامة العربية في بريطانيا . وأبدى اولئك الرجال استعدادهم — اذا حصلوا على اجوبة ملائمة — ان يؤلفوا قوات في الاراضي التي احتلتها بريطانيا (في فلسطين والعراق) لكي تحارب في صفوف الحلفاء وان يلقي العرب جميعا بثقلهم كله الى جانب بريطانيا .[1]

وبعث ونجت هذه المذكرة في ٧ ايار الى وزارة الخارجية . وبعد بحث دقيق ارسلت وزارة الخارجية الى ونجت جواب الحكومة البريطانية على المذكرة . وقد اعتبر التصريح الجديد البلاد العربية اربعة أصناف (١) اراض كانت حرة ومستقلة قبل قيام الحرب (٢) اراض حررها العرب انفسهم من سيطرة الاتراك (٣) اراض حررتها قوات الحلفاء (٤) اراض لا تزال تحت سيطرة الاتراك . فالاراضي التي يشملها الصنفان الاول والثاني (وتضم الحجاز ونجد والجزء الجنوبي من شرقي الاردن) أعلن التصريح الاعتراف باستقلالها التام . وبشأن الاراضي التي يشملها الصنف الثالث (ولايتا البصرة وبغداد والجزء الجنوبي من فلسطين ويشمل القدس

---

(١) نص المذكرة في F.O. 882/17 وفي امين سعيد ، الجزء الثاني (١) ص ص ٣٨ — ٤٠ والسوريون السبعة الذين قدموا المذكرة هم : رفيق العظم ، كامل القصاب ، مختار الصلح ، عبد الرحمن الشهبندر ، خالد الحكيم ، فوزي البكري وحسن حماده . ونفهم من كتابات الشيخ رشيد رضا ان فكرة تقديم هذه المذكرة جاءت أصلا من السلطات البريطانية « وحقيقته [التصريح] ان الالمان ارسلوا بعد كسر الروس وعقد الصلح معهم ، جيشاً المانياً إلى البلاد العثمانية عن طريق سياستيبول ، فخافت انكلترة أن تكون وجهته العراق ، فكان من أعمالهم [الانكليز] الاحتياطية بذلك أن أقنع بعض المشتغلين بالسياسة منهم [المقصود هنا اوسموند والروند] بمصر سبعة من الذين كانوا يجتمعون بهم بأن يسعوا إلى مساعدتهم على تكوين قوة حربية للدفاع عن البلاد العربية على أن تتعهد بريطانية العظمى بالاعتراف لهم بكل ما يأخذونه من بلادهم بالسيف فيكونون مستقلين فيه . » (مجلة المنار المجلد ٢٢ الصادر في ٦ حزيران ١٩٢١ ص، ٤٦١) .

واريحا ويافا)أعلن التصريح ان السياسة الدائمة للحكومة البريطانية تقوم على «ان حكومة المستقبل لهذه المناطق يجب ان تقوم على مبدأ رضى المحكومين ». وأما الاراضي التي يشملها الصنف الرابع (فلسطين الشمالية ومعظم اراضي شرقي الاردن وسورية الداخلية ولبنان وولاية الموصل واليمن)فقد أعلن التصريح ان الحكومة البريطانية ترغب في فوز سكانها بالحرية والاستقلال وانها «سوف تستمر في العمل من اجل تحقيق هذه الغاية . »[1]

وفي ١٦ حزيران قام الاستاذ هوجارث (يرافقه اوسموند والروند) بابلاغ اثنين من مقدمي المذكرة (احدهما الدكتور الشهبندر) نص التصريح الجديد . وعندما عبّر أحد ذينك الشخصين عن شعوره بالقلق تجاه وجود اتفاقية سرية بين بريطانيا وفرنسا، عمد هوجارث الى تكرار الايضاح الذي كان قد أعطي في ذلك اليوم بالذات لمعتمد الشريف ؛ ويتضمن نفي وجود اي اتفاق بين الدولتين حول الاقطار العربية .[2]

ان هذا التصريح الذي أبلغته الحكومة البريطانية الى الملك حسين يعتبر من الأهمية بمكان ، اذ جاء شاملا للبلاد العربية التي وضعت حدودها مذكرة الشريف حسين الاولى الى مكماهون ، واعتبارها اما مستقلة تماماً أو مشمولة بمبدأ حق تقرير المصير ، دون ان تضع بريطانيا اية تحفظات كما فعلت في رسائل مكماهون ودون ان تتعرض لذكر المصالح التي ادّعتها هي وفرنسا بموجب اتفاقية سايكس بيكو . وقد كان هذا التصريح من الحوافز الرئيسية التي دفعت جيش فيصل في هجوم ايلول ١٩١٨ الى بذل الجهود الجبارة التي بذلها ابتداء من منطقة درعا جنوبا وحتى الحدود السورية شمالا ، بدافع التجاوب مع تعهد الحكومة

---

(١) Telegram No. 753 of 11 June 1918 (EC 529) : CAB. 27/27; also Cmd. 5974 of 1939.

(٢) Letter No. 127 of 25 June 1918 from Wingate to Balfour : F.O. 371/3381.

البريطانية بالاعتراف بالاستقلال التام لكل ارض يعمل العرب على تحريرها.

آخر وسطاء الصلح : كان الامير سعيد الجزائري آخر وسطاء الصلح بين الاتراك والعرب . فبعد عودته من المنفى في الأناضول الى دمشق ، طلب منه جمال باشا الصغير قائد الجيش الرابع ان يزوره في مركز قيادته بالسلط . وهناك طلب منه القيام بالوساطة من أجل عقد الصلح ، وأعطاه رسالة الى الامير فيصل قال فيها ان سعيد «أخذ على عاتقه القيام بهذه المهمة المقدسة ، مهمة السعي لإطفاء نار هذه الفتنة التي اتقدت بين المسلمين . وأظن ان روح النبي الطاهر سترضى عن حركتي هذه».

واجتمع سعيد بفيصل في موقع وهيدة الى الغرب من معان ليلة ١٢ آب ١٩١٨ بحضور الامير زيد ونوري السعيد وفائز الغصين . ولم يكن سعيد يحمل عروضاً معينة ولذلك كتب فيصل يرد على رسالة جمال الصغير قائلا ان هذه الرسائل التي ما زال يتلقاها منذ تسعة اشهر ، ليست سوى اضاعة للوقت ولم يرَ فيها ما يدل على روح اسلامية صحيحة . وحذر القائد التركي بان وضعه العسكري في أقصى درجات الخطر وقال ان كل ما يطلبه العرب «هو ان يعيشوا أحرارا وعلى وفاق واتحاد مع الترك». وقال ان العرب «يريدون منكم ان يكون حالهم معكم كحال بافاريا مع بروسيا». ويقول سعيد الجزائري وفائز الغصين ان فيصل طلب ان يسحب الاتراك جيوشهم من البلاد العربية ويعلنوا استقلالها . وعلى رأي الامير سعيد فان جمال الصغير أبرق الى استانبول يطلب القبول بما يطلبه فيصل ، وان السلطان محمد رشاد وافق «وكتب أمراً بذلك ، ولكن طلعت وأنور وجاويد قادة الاتحاديين أهملوه». وهكذا فشلت المحاولة الاخيرة لعقد الصلح .[1]

---

(١) مذكرات الأمير سعيد الجزائري، ص ص ٨٦ - ٩٤ . والقسم الثاني من مذكرات فائز الغصين في جريدة القبس ، دمشق ، نبذة ١٣ آب ١٩١٨ . ويقول الملك عبد الله ان الأعلام العربية رفعت في سورية «بارادة سلطانية تعلن الاعتراف باستقلال—

نصف الرغيف : عندما شنّ اللنبي هجومه الكبير في ١٩ ايلول ١٩١٨ وأخذت قواته تتقدم بسرعة نحو دمشق وبيروت ، أخذت الحكومة الفرنسية تطالب الحكومة البريطانية بالتقيّد بأحكام اتفاقية سايكس – بيكو . لقد أخفقت مساعي بريطانيا الحثيثة لاقناع فرنسا باهمال تلك الاتفاقية . ولم تجد بريطانيا مناصا من الاستجابة لمطالب حليفتها ، فأبرق بلفور في ٢٤ ايلول البرقية التالية إلى ونجت :

اذا زحف الجنرال اللنبي إلى دمشق فسيكون من المرغوب فيه جدا تمشيا مع الاتفاقية الانكليزية الفرنسية لعام ١٩١٦ – أن يعمل من خلال ادارة عربية ، وان يكون الاتصال بينه وبين الادارة العربية عن طريق هيئة ارتباط فرنسية .(١)

وبعد اربعة ايام أبرق ونجت الى اللنبي ، معقباً على ما جاء في برقية بلفور «لقد أيقنت بما لا يقبل الشك ، ان اتفاقية سايكس – بيكو ، لم تكن ميتة بحال من الأحوال » . (٢) وفي الوقت ذاته بعثت وزارة الخارجية نص المادة الاولى من الاتفاقية الى اللنبي وطلبت اليه ان يسترشد بها .

ولكن بريطانيا لم تكن ترغب في تنفيذ أحكام الاتفاقية دون قيد او شرط ، ومن هنا عقد ممثلو الحكومتين يوم ٣٠ ايلول اتفاقا ينظم الوضع الاداري في المناطق المحتلة . وقد نص الاتفاق على ان يستعين القائد العام– صاحب السلطة العليا – برئيس مستشارين فرنسي ، في المنطقة الزرقاء وفي منطقة (أ)، وان يكون رئيس المستشارين الفرنسي «واسطة الاتصال الوحيدة في المسائل السياسية والأدارية بين القائد العام واية حكومة او حكومات عربية ، دائمة او مؤقتة ، يمكن ان تؤلف في منطقة (أ)... »، وان يتولى رئيس المستشارين الفرنسي كذلك انشاء ادارة مدنية مؤقتة

= البلاد العربية » . مذكراتي : ص ١٤٣ . ولكن لم تظهر أية وثائق تركية حتى الان تثبت هذا القول .

(١) F.O. 371/3381 & 882/19.

(٢) Wingate Papers.

في المنطقة الزرقاء ، وان يقدم المستشارين الذين «يمكن ان تطلبهم» الحكومة العربية في منطقة (أ). وتضمن الاتفاق شرطا كانت الحكومة البريطانية تسعى منذ مدة الى ربط فرنسا به ، وهو ان تصدر الحكومتان تصريحا توضحان فيه «إن أياً من الحكومتين لا تقصد استلحاق اي جزء من المناطق العربية». وقد تبلور هذا الشرط في تصريح ٧ تشرين الثاني ١٩١٨ . وأصرّ المثلون البريطانيون على هذا الشرط الأخير وقبله الفرنسيون بتردد . [١]

وهكذا دفعت الاحداث العسكرية اتفاقية سايكس – بيكو الى الظهور علنا ، على الرغم من محاولات الانكليز المتكررة للتظاهر بأنها غير موجودة . ومع ان الملك حسين والعرب عموما كانوا يعتقدون ان اليوم الذي سوف تغرب فيه شمس الاتراك عن بلاد العرب سوف يشهد بزوغ فجر الدولة العربية الكبيرة – فان بنود الاتفاقية طغت على اماني العرب وقدمت البرهان على ان متاعبهم الحقيقية بدأت منذ ذلك اليوم .

كان الملك حسين يعتقد اعتقادا جازما ان الحكومة البريطانية لن تخلّ بعهودها معه ، ولو من أجل المحافظة على مصالحها الحيوية في بلاد العرب . وعندما أبرق اليه بلفور يوم ٥ تشرين الاول مهنئاً بتحرير دمشق ومشيدا بجهود «السوريين العرب الذين يحاربون من اجل الاستقلال القومي ....»[٢] ردّ الحسين يقول «... ونحن كامة نعتبر أنفسنا مدينين لبريطانيا العظمى التي بواسطتها استطعنا الحصول على المبادىء التي حارب جميع الحلفاء من أجلها . ومن أجل بلوغ تلك الاهداف المجيدة ، فاننا

---

(١) Text of Arrangement : CAB. 27/33 (EC 1769). See also CAB. 27/24.
وقد عين النبي الجنرال كلايتون في وظيفة رئيس الضباط السياسيين وعين جورج بيكو في وظيفة رئيس المستشارين الفرنسي (بينما اعتبره الفرنسيون مندوباً سامياً) .

(٢) Telegram No. 1219 : F.O. 882/19.

نعتمد بعد الله تعالى على فخامتك وزملائك من عظماء سياسي بريطانيا العظمى . »[1]

ولكن عظماء سياسي بريطانيا العظمى كانوا يفكّرون بخطط مختلفة كل الاختلاف عن الخطط التي كان يفكر بها الملك حسين . وقد ظهر ذلك الاختلاف في التفكير واضحا بأسرع مما كان متوقعا . ففي اليوم الذي وصل فيه فيصل الى دمشق عيّن امير اللواء علي رضا باشا الركابي حاكما عسكريا عاما وأصدر الامر لامير اللواء شكري باشا الايوبي بالذهاب الى بيروت وتأسيس الحكومة العربية فيها بناء على طلب أهلها . ذلك ان برقية الامير سعيد الجزائري كانت ذات تأثير فعال ، اذ ان رئيس بلدية بيروت عمر الداعوق عندما تلقى البرقية بعد ظهر يوم ٣٠ ايلول ذهب مع ثلاثة من أعيان بيروت الى والي ولاية بيروت اسماعيل حقي بك وأطلعه على البرقية . وبعد شيء من التردد وافق الوالي على تسليم شؤون الادارة ، وأعطى لرئيس البلدية كتاباً رسميا مؤرخا في ١ تشرين الاول ١٩١٨ وجهّه الى جميع مأموري الحكومة العثمانية في الولاية ، قائلا انه بسبب نشوء الوضع الخطير الناجم عن تأسيس حكومة عربية في دمشق ، فانه قرر تسليم شؤون الادارة في بيروت الى رئيس البلدية ، وأبلغ المأمورين بانتهاء وظيفتهم مع الحكومة العثمانية [2] .

ومعنى هذا ان الوالي العثماني سلّم الادارة في ولاية بيروت كلها الى الادارة العربية الجديدة. وهكذا أصدر« رئيس الحكومة العربية في بيروت بيانا نشرته صحف بيروت صباح يوم ١ تشرين الاول أعلن فيه تسلمه زمام السلطة . وبالفعل بدأت الادارة العربية ممارسة عملها ، ثم اتصلت بحكومة دمشق ورفعت العلم العربي على دار الحكومة في احتفال شعبي (قامت برفع العلم فاطمة اخت الشهيدين محمد ومحمود المحمصاني). اما شكري الايوبي فلم يصل الى بيروت الا يوم ٦ تشرين الاول على رأس

---

(١) Telegram No. 1502 of 11 Oct. 1918 : F.O. 371/3381.

(٢) مذكرات الأمير سعيد الجزائري ، ص ص ١١٢ — ١١٦ ، وبرقية اللنبي إلى وزارة الحربية رقم P. 689. ، في ٦ تشرين الأول ١٩١٨ : CAB. 27/34

مئة جندي ، وحال وصوله تسلم زمام السلطة وأعلن انضمام لبنان الى الحكومة العربية وعيّن حبيب باشا السعد حاكما مدنيا بعد ان أقسم هذا يمين الولاء للملك حسين . وكان معنى ذلك ان الحكومة العربية الجديدة اعتبرت لبنان جزءاً عاديا من اجزاء سورية ، واعتبرت امتيازاته القديمة ملغاة .

وحذت المدن الاخرى حذو بيروت ، ففي صيدا ألفّ الأهلون ادارة مؤقتة ورفعوا العلم العربي ، ثم وصل مندوب الحكومة العربية قادما من دمشق على رأس ٥٠ رجلا . وحدث الأمر ذاته في اللاذقية وفي طرابلس وصور وبقية المدن الساحلية .

ولكن بينما كان شكري الايوبي في طريقه الى بيروت ، علم الكابتن كولندور ، نائب المندوب الفرنسي في دمشق ، بالامر يوم ٥ تشرين الاول ، فاحتج لفيصل على ارسال الجنود العرب الى بيروت قائلا ان هذا يخالف الاتفاقيات المعقودة . وعندما بلغ الموضوع مسامع اللنبي أبرق في ٦ تشرين الاول ببرقيتين الى وزارة الحربية يقول بعد الاشارة الى الفقرة الثانية من اتفاقية سايكس – بيكو «ان العمل غير المتوقع الذي اتخذته الحكومة العربية قبل انّ يحتل الحلفاء بيروت احتلالا فعالاً ، او حتى دمشق ، يضع الممثل الفرنسي في وضع صعب». وان معرفة العرب بالتأكيدات التي أعطيت للسوريين السبعة تجعل الموقف معقداً في بيروت لان تلك التأكيدات أعلنت ان حكومات هذه المناطق سوف تؤسس بناء على رغبة المحكومين . كما ان الزعماء العرب لم يبلغوا رسميا مواد الاتفاقية الانكليزية الفرنسية [١] .

أجل « لقد أسرع السكان العرب في سورية الشمالية بمحض مبادأتهم الذاتية الى رفع العلم العربي ، مثلهم في ذلك مثل لبنان» [٢] . ولكن تنفيذ السياسة المرسومة كان يسير بثبات وسرعة . ففي ٩ تشرين الاول وصلت

---

(١) Two telegrams from Allenby, Nos P. 689 & 695 (EC 1818 & EC 1820) : CAB. 27/34.

(٢) برقية كلايتون الى وزارة الخارجية بتاريخ ٨ تشرين الاول ١٩١٨ : F.O. 882/17

القوات الانكليزية براً ووصلت قطع من الاسطول الفرنسي بحرا الى بيروت ، واعتبر المسؤولون البريطانيون ان فيصل «خرج عن الحد المرسوم عندما ارسل شكري الايوبي الى بيروت دون موافقة اللنبي ». وقد أصدر اللنبي امراً بتعيين الكولونيل يباباب الفرنسي حاكما عسكريا للمنطقة الغربية . وطلب قائد القوات البريطانية التي وصلت الى بيروت من شكري الايوبي ان ينزل العلم العربي وينسحب ، ولكن شكري رفض الاستجابة للطلب . وقال انه لن يفعل شيئا من هذا القبيل الا اذا تسلم أمراً مباشرا بذلك من فيصل . ومضى كلايتون يطلب من فيصل ان يترك لبنان وشأنه وان يبذل جهوده لتأسيس ادارة سليمة في المنطقتين (أ) و (ب). وأبرق اللنبي الى فيصل يطلب منه ان يصدر امرا لشكري الايوبي بالانسحاب ، ولكن اللنبي لم ينتظر اجراءات فيصل بل تم بأمره ليلة ١٠ / ١١ تشرين الاول انزال الاعلام العربية عن بيروت والمدن الساحلية الاخرى ، على الرغم من معارضة المأمورين العرب [١] .

وأبرق اللنبي الى وزارة الحربية في ١١ تشرين الاول قائلا ان «العلم العربي أنزل ولكن فيصل لم يسحب شكري حتى الان «لقد حُذرّ فيصل من انه اذا حاول السيطرة على المنطقة الزرقاء التي يجب ان يبتّ مؤتمر السلم في أمرها . فانه سيلحق الضرر بقضيته »[٢] بينما أبلغ فيصل «ان الاوامر والتصريحات الصادرة عن القائد العام تعتبر نافذة المفعول دون سواها .» [٣]

---

(١) يقول وليم ييل ان العلم العربي في بيروت « قطع وأنزل من قبل الجنود البريطانيين » – *The Near East*, Ann Arbor, 1958, p. 330 بينما يقول كلايتون ان الاعلام العربية الثلاثة « أنزلت الليلة الماضية دون حوادث وبكل احترام » – برقيــة كلايتون رقم ١١٤ بتاريخ ١١ تشرين الأول ١٩١٨ .

(٢) Tigrm. E.A. 1768, Allenby Papers, M.E. Center. St. Antony's, Oxford.

(٣) برقية كلايتون إلى وزارة الخارجية رقم ١١٠ بتاريخ ١١ تشرين الأول ١٩١٨ : CAB. 27/34 (EC. 1916). وجاء هذا البلاغ لفيصل بعد اصداره بياناً بانشاء حكومة عربية « مستقلة استقلالا مطلقا لا شائبة فيه باسم مولانا السلطان حسين شاملة=

وعندما بلغ فيصل انزال الاعلام العربيّة أرسل برقية احتجاج طويلة الى اللنبي بشأن «ما حصل على الراية العربية ببيروت من الحقارة . الراية التي كنتم بالامس أخبرتموني انها حليفة راية الحكومة البريطانية العظمى... ان هذه الراية .... رفعت من طرف امة اختارت هذه الراية لنفسها والتحقت بابناء جلدتها وجنسها وطلبت منها ارسال حاكم اليها بدون اي مجبر كما كان يفعل أهل اللاذقية وطرابلس ... ان اهل ساحل سورية ارادوا وفعلاً انضموا الى اخوانهم العرب ، فهل من العدل والانصاف حرمانهم من امانيهم ؟ ولكوني عربي ولانني نائب هنا عن والدي صاحب الراية المهانة من جانب حلفائه ، أطلب اعادة شرف تلك الراية بارجاعها كما كانت وتحقيق اماني اهل بيروت ... »[1]

وأبرق كلايتون في ١٢ تشرين الاول ان الوضع في بيروت «سُوّيّ محلياً وتولى بياباب الحكم ، ولكن لم تجر تسوية الموضوع الرئيسي لان فيصل يعلن انه لا يستطيع رسميا ان يستدعي شكري دون ان يفقد مكانته ، مما قد يستدعي استقالته ». ولكن فيصل اشترط شرطين لكي يأمر شكري بالانسحاب(١) الحصول على تأكيد من القائد العام بان اية ترتيبات تجري الان في المناطق الساحلية هي ذات طابع عسكري ولا تؤثر في التسوية النهائية(٢) توافق حكومتا بريطانيا وفرنسا على تأكيد القائد العام . وأبدى كلايتون رأيه بان من الضروري اصدار تصريح يحدد السياسة الفرنسية لتبديد مخاوف العرب .[2] وأراد فيصل ان يقدم استقالته احتجاجا ، ولكن كورنوالس ضابط الارتباط البريطاني أقنعه بتأجيل الاقدام على هذه الخطوة الى ان يصل اللنبي الى دمشق[3] .

= جميع البلاد السورية » . (راجع بلاغ فيصل المؤرخ ٥ تشرين الأول ١٩١٨ في أمين سعيد ، المجلد الثاني ، ص ص ٢ – ٣ .)

(١) أوراق الأمير زيد : برقية فيصل دون تاريخ ولكن يرجح انها كتبت بين ١٢ و ١٣ تشرين الأول : راجع أيضا F.O. 882/17

(٢) Telegram No. 115 (EC. 1918) : CAB. 27/34 of 12 Oct. 1918.

(٣) برقية كلايتون رقم ١١٧ ((EC. 1920)) بتاريخ ١٢ تشرين الاول ١٩١٨ : CAB. 27/34

في عرف السياسة البريطانية كان المطلوب الان اقناع الملك حسين وفيصل بالقبول ب «نصف الرغيف» الذي تقدمه اتفاقية سايكس — بيكو للعرب [١] ولهذه الغاية جاء اللنبي وكلايتون الى دمشق واجتمعا بفيصل يوم ١٦ تشرين الاول . وعبّر فيصل عن قلة ثقته بمقاصد الفرنسيين وخشيته من ان يستغل الحكام العسكريون مناصبهم لبث الدعاية لمصلحة فرنسا ، مما يؤدي الى الاخلال بمبدأ حق تقرير المصير عندما يحين وقت التسوية النهائية . وكان جواب اللنبي كما أبرق به الى لندن : «لقد أعطيت للامير فيصل تأكيدا رسميا بأنه مهما تكن الاجراءات التي يمكن اتخاذها خلال فترة الادارة العسكرية ، فانها ستكون اجراءات مؤقتة ، ولن يُسمح لها ان تؤثر في التسوية النهائية التي سيجريها مؤتمر السلم ، وهو المؤتمر الذي لا شك في ان العرب سيمثلون فيه . وقد أضفت قائلا : ان تعليماتي للحكام العسكريين سوف تمنعهم من التدخل في المسائل السياسية واني اذا وجدت أياً منهم يخالف هذه التعليمات فسأعمد الى عزله من منصبه . وقد ذكّرت فيصل أن الحلفاء مرتبطون بشرفهم ان يحاولوا التوصل الى تسوية تتفق مع رغبات الشعوب ذات العلاقة ، وحثثته ان يضع ثقته في حسن نياتهم . »[٢]

وأبدى اللنبي رأيه بانه لا يمكن تبديد شعور عدم الارتياح الذي يحسّ به العرب عموماً الا بتصريح سياسي علني تصدره الحكومتان البريطانية والفرنسية [٣] . وفي اليوم التالي أبرق كلايتون يقول ان تأكيدات

---

(١) رسالة ونجت إلى اللنبي بتاريخ ٢ تشرين الاول ١٩١٨ (أوراق ونجت) .

(٢) برقية اللنبي رقم I. 6906/P إلى وزارة الحربية بتاريخ ١٧ تشرين الاول ١٩١٨ : CAB 27/35 : (EC. 2006) وفي رسالة خاصة كتبها اللنبي في اليوم ذاته قال انه فيصل « يخشى الحلول التي ستنتج عن مؤتمر السلم ، ولكنني قلت له ان عليه أن يثق بدول الحلفاء وبأنها ستعامله بانصاف ». ووصف فيصل في رسالته بأنه «قوي الارادة مستقيم المبدأ » — Brian Gardner : Allenby, Cassell, London, 1965, p. 190.

(٣) أوراق ونجت : برقية اللنبي بتاريخ ١٧ تشرين الأول ١٩١٨ : CAB 27/35 of

اللنبي بعثت بعض الاطمئنان في نفس فيصل ، وهو الان «يضع ثقته الكاملة في حسن نيات الحكومة البريطانية وتأكيدات القائد العام». وبناء على هذه التأكيدات سحب فيصل الحكّام والممثلين الذين كان قد بعث بهم الى لبنان وولاية بيروت. وقد أثارت تقسيمات اللنبي الادارية اهتمام العرب من ناحية عدم وجود منفذ ساحلي للمنطقة الشرقية . وتساءل كلايتون عما اذا كان بالامكان اعطاؤهم تأكيداً بهذا الخصوص ، كما طلب من وزارة الخارجية اقناع الحكومة الفرنسية بان توافق على ادخال أقضية بعلبك وراشيا وحاصبيا في المنطقة الشرقية على الرغم من ان اتفاقية سايكس – بيكو وضعتها في المنطقة الزرقاء .[1]

ولكن على الرغم من تأكيدات اللنبي لم يلبث فيصل ان فوجيء بورود برقية منه يطلب فيها تسليم أقضية بعلبك والبقاع وراشيا وحاصبيا الى المنطقة الفرنسية بعد ان كان الحكام العرب قد مارسوا مهام ادارتها اكثر من اسبوعين،وعلى الرغم من ان الاقضية الاربعة كانت تتبع ولاية سورية في العهد العثماني . ورد فيصل قائلا ان هذا الطلب يزيد من ارتياب الاهالي في نيات فرنسا ، وان الاصرار على تنفيذه سيدفعه الى ترك البلاد . واشار الى محادثات ابيه مع سايكس وبيكو في جدة والاتفاق بينهما وبينه على ان حكومة اية منطقة «تتبع مشيئة اهلها». وطالب في برقيتين متتابعتين «تشكيل لجنة مختلطة باسرع ما يمكن تأخذ رأي الاهالي بخصوص مستقبلهم.»[2]

وهذه اول مرة يطالب العرب فيها بلجنة تحقيق دولية تأخذ آراء الاهالي في شكل الحكومة التي يريدونها ، بناء على مبدأ تقرير المصير الذي نادى به الرئيس الاميركي وودرو ولسون ووافقته عليه دول الحلفاء .

---

(١) أوراق ونجت – برقية كلايتون رقم ١٢٩١٨ إلى وزارة الخارجية بتاريخ ١٨ تشرين الأول ١٩١٨ .

(٢) أوراق الأمير زيد : برقيتان من فيصل إلى اللنبي (دون تاريخ ولكن من الواضح انهما أرسلتا في النصف الثاني من شهر تشرين الأول ١٩١٨)راجع ايضا F.O. 882/17

لقد اعترف اللنبي بفيصل أعلى سلطة في المسائل العسكرية والادارية في المنطقة الشرقية، ولكنه وقع في تناقض يصعب تفسيره. اذ بينما منع قيام ادارة عربية في بيروت وثغور الساحل السوري الاخرى . وافق على الحاكم العربي الذي عيّنه فيصل لثغر اللاذقية ، على أساس ان أهل اللاذقية راضون عن النظام الذي أنشأه فيصل ، وأن فرض حكم لا يقبله الأهلون قد يكون أمراً عسيراً [1] . هذا مع العلم أن موقف أهل اللاذقية من حكم فيصل لم يكن يختلف عن موقف أهل بيروت وطرابلس وصور وصيدا .

وقد وصف فيصل الوضع الراهن لأبيه فقال «ان جميع البلاد من بيروت الى حد اسكندرون في الساحل أعلنت بأنها من أجزاء المملكة العربية ورفعت الرايات كما فعلت بيروت وطرابلس والشام واللاذقية وصيدا وصور ». ولكن ما حدث من منازعات بشأن بيروت وانزال الراية «جبراً» بأمر اللنبي ، أدّى الى اضطراب العلاقات مع فرنسا وبريطانيا ، وان وجهة نظر اللنبي تقوم على انه قسم البلاد الى ثلاث مناطق عسكرية «ولا دخل للسياسة في هذه التقسيمات ». وأنه لم ترفع أعلام في البلاد المحتلة باستثناء دمشق، ولذلك أمر بإنزال العلم في بيروت «ومستقبل البلاد سيكون بمؤتمر الصلح ». واحتجّ فيصل امام اللنبي «بالمذاكرة والاتفاق الذي حصل بين جلالتكم وبين مندوبي الدولتين في جدة وهو ابقاء مستقبل البلاد على رغائب اهلها ». وأنبأ اباه انه كان أرسل شكري الايوبي والمندوبين الآخرين الى الساحل «ليعلم العالم بأسره أن أهل ساحل سورية اختاروا مستقبل بلادهم قبل ان لعبت بهم أيادي السياسة ». وان الفرنسيين بدأوا يبثون الدعايات وقلب أفكار الناس . وطلب من ابيه التدخل وارسال الامير عبدالله الى دمشق لمعالجة الموضوع. [2]

وبعد حدوث ما حدث في بيروت . رأت الحكومة البريطانية ان

---

(١) اوراق ملنر ، برقية اللنبي بتاريخ ٢١ تشرين الأول ١٩١٨ .

(٢) أوراق الأمير زيد ، الرسالة بتاريخ ٢٠ تشرين الأول ١٩١٨ . راجع الترجمة الانكليزية في F.O. 882/17

توضح للملك حسين ظروف الوضع القائم في سورية ، فبعثت اليه ببرقية تعلمه فيها ان الجنرال اللنبي هو صاحب السلطة العليا في سورية وفلسطين «بصفته القائد العام لقوة حملة الحلفاء». وأن سلطة اللنبي أنيطت ،(١) في فلسطين بادارة قائد بريطاني ،(٢) في منطقة معان ــ دمشق بالادارة الحربية العربية عن طريق ضابطي ارتباط فرنسي وانكليزي (مع القول ان حمص وحماة وحلب سوف تتبع عند احتلالها ادارة دمشق)، (٣) «وقد رؤي من الضروري تشكيل ادارة حكومة وقتية تحت سلطة الجنرال اللنبي مباشرة تكون في الاقليم الساحلي الذي يجب أن يُعامل في الوقت الحاضر معاملة أراضي أعداء محتلة . وتكون هذه الادارة في يد ضباط فرنساويين تحت السلطة العليا المخولة للقائد العام البريطاني ، وهو الذي يعيّن هؤلاء الضباط .»[1]

ويتبين من هذه البرقية حرص الحكومة البريطانية على افهام الملك حسين أن لا دخل للسياسة في هذه الترتيبات وأنها ذات طبيعة مؤقتة ، ولكن الملك حسين استشفّ ما وراء العبارات المطاطة من مقاصد سياسية فأبرق الى ونجت يقول ان هذا الترتيب« سيكون حكماً قاضياً على مخلصكم بالانتحار بالنظر لصورة ادارة السواحل ... لكن لا يتصور تكون بلاد بلا سواحل . ولو بقي مقدار مساحة عش فراخ في اي نقطة منه تحت يد أجنبية تصبح منشأ حوادث وفتن واختلافات تؤدي لمحو البلاد ...»[2]

وأبدى الملك رغبته في السفر الى دمشق للاشراف على الوضع بنفسه ،

---

(١) أوراق الأمير زيد ، أرسلت هذه البرقية من لندن إلى المندوب السامي ومنه إلى المعتمد البريطاني في جدة الذي بعث بها إلى الملك حسين في ٢٠ تشرين الأول ١٩١٨ . وكان ونجت هو الذي اقترح في البداية احاطة الملك حسين علماً بالترتيبات العامة لادارة المناطق السورية ، واقترح نصاً للمخابرة لا يشمّ منه وجود اتفاقية مسبقة بين فرنسا وبريطانيا لا ن « الملك لا علم رسمي له بالاتفاقية » . وقد أخذت وزارة الخارجية بنصيحة ونجت وجاءت رسالتها إلى الملك مطابقة لما اقترحه :

Wingate's Tlgrm No. 1491 of 9 Oct. 1918 (EC 1857); CAB. 27/34.

(٢) أوراق الأمير زيد : تاريخ البرقية ٢٣ تشرين الاول ١٩١٨ : F.O. 882/13

ولكن ونجت نصحه الا يفعل معتذرا بان سورية تخضع الان لادارة عسكرية .[1]

وأرسل ونجت مضمون برقية الشريف الى وزارة الخارجية في لندن ، وقال ان الشريف كما يبدو ينوي التنازل عن الملك والانسحاب من العمل في الحركة العربية . ثم حثّ ونجت حكومته «بأقصى تشديد» ان ترسل للشريف دون تأخير رسالة تطمين . وقال انه لمن الضروري أن تعلن فرنسا سياستها وأهدافها في سورية. ولكنه حذر من أن اي تصريح لن يجد قبولا حسنا من لدن الملك حسين وكثرة العرب ما لم يتضمن التأكيد(١) ان فرنسا لن تضم اليها اية اراض عربية او سورية(٢) ان الفرنسيين سيحكمون في اية منطقة يتولونها من سورية بهدف إعداد أهل البلاد كي يحكموا أنفسهم وبقصد المحافظة على المطامح القومية العربية (٣) ان الحكومتين البريطانية والفرنسية تعترفان بضرورة حصول حكومة دمشق على منفذ حرّ وميناء على البحر الابيض المتوسط .[2]

اما جواب ونجت على برقية الشريف فقد تضمن القول انه بعث بمضمون برقيته الى لندن ، ثم طلب منه «بكل اخلاص ان تعتقدوا ان قيادتكم هي من ألزم اللوازم للنهضة العربية ولمساعدة العرب كي يجنوا ثمار المحالفة ويصونوا مستقبلهم السياسي ». ثم عبّر عن أسفه لان ترتيبات اللنبي أثارت شكوكه ولم تنل رضاه ، ولكنه ذكّر الشريف « أن هذه الترتيبات وقتية »وطلب منه ان يستعدّ للاشتراك في المناقشات التي ستدور حول ادارة الأراضي التي تحررت[3] .

ولم يعلن اللنبي ترتيباته المتعلقة بادارة الاراضي المحتلة الا في يوم ٢٣ تشرين الاول ، ففي ذلك اليوم أصدر بيانا جاء فيه انه قرّر انشاء ثلاث مناطق ادارية «لأراضي العدو المحتلة »(١)المنطقة الجنوبية اي فلسطين ويتولى ادارتها قائد بريطاني(٢) المنطقة الغربية اي ساحل سورية ويتولى

---

(١) Tlgrm of 21 Oct. 1918 from Wingate to Basset : F.O. 882/17.

(٢) برقية ونجت بتاريخ ١ تشرين الثاني ١٩١٨ في F.O. 882/13

(٣) أوراق الأمير زيد : البرقية بتاريخ ٢٩ تشرين الأول ١٩١٨ .

ادارتها قائد فرنسي(٣) المنطقة الشرقية اي سورية الداخلية مع شرقي الاردن ويتولى ادارتها قائد عربي هو علي رضا الركابي . ومن غرائب هذه الترتيبات ان المنطقة الشرقية ضمت منطقة (أ)التي وضعتها اتفاقية سايكس – بيكو تحت النفوذ الفرنسي ومنطقة (ب)التي وضعتها تلك الاتفاقية تحت النفوذ البريطاني . ولهذا عين اللنبي ضابطي ارتباط في دمشق : بريطانياً (الميجر كورنوالس)وفرنسياً (الكابتن مرسييه)وطلب اليهما ان يعملا متعاونين ويؤكدا للادارة العربية «الاتفاق التام القائم بين الحكومتين »[١] . وبموجب هذه الترتيبات نزعت صفد ونواحيها من المنطقة الغربية وضمت الى المنطقة الجنوبية ، كما أن الأقضية الأربعة نُزعت من المنطقة الزرقاء وضُمت الى المنطقة الشرقية . وقال اللنبي أنه أبقى هذه الاقضية تحت الادارة العربية نتيجة لتصميم فيصل على الاستقالة اذا جرى ضمها للمنطقة الغربية .[٢]

وكتب فيصل الى ابيه في هذه الاثناء يحثه على المطالبة باعطاء أهل الساحل «الحرية التامة والفرصة لانتخاب مستقبلهم والعجلة في ذلك . ان البلاد لا تؤخذ الا بالدم وعار علينا السكوت ». وقال ان المأمورين الانكليز «معنا قلباً وقالباً ... انهم ملقون الخطأ على السياسة ، أعني سياسة لوندره ومؤملون أملاً كبيراً بامكان تغيّر الحالة السياسية ». وقال انه ربما يحارب فرنسا اذا لم يجد بداً من ذلك . وكرّر طلب مجيء أخيه عبدالله ليتولى الشؤون السياسية «لمملكتكم هذه ».[٣]

وأبرق الملك حسين الى ونجت مشيراً الى ما يجد فيصل نفسه فيه من «اضطراب وحزن ويأس »من أعمال الفرنسيين والاموال التي ينفقونها ، وطلب منه اتخاذ الاجراءات «التي تجدها مناسبة لمساعدتي». وأجاب ونجت

---

(١) Telegram from Clayton to F.O. No. 80 (EC. 1838) of 6 Oct., 1918 : CAB. 27/34.

(٢) From Allenby to War Office, Tlegrms Nos. EA 1808 & I. 7052 P of 23 & 26 Oct. respectively (EC. 2075 & EC. 2114): CAB. 27/35.

(٣) أوراق الأمير زيد ، رسالة فيصل بتاريخ ٢٩ تشرين الأول ١٩١٨ و F.O. 882/17

ان النبي يحقق في الموضوع بنفسه «وبكل تأكيد ان جلالتكم يمكنكم الارتكان على درايته وعدم تحزبه ضد آي ادارة في هذه الأوضاع الدقيقة»[1].

وعندما وصلت رسائل فيصل الى ابيه ومعها نسخ برقيات فيصل الى النبي ، بادر الملك فبعث بها الى المعتمد البريطاني في جدة قائلا «انه لم يكن يخطر على باله ان يحدث للراية العربية ما حدث» «يجب ان نمنع فناءنا المعنوي في عيون الشعب ... كل آمالنا تحطمت بعد المعاملة المهينة لعلمنا الذي أعتبر علم حليف ، خاصة وأن أهل البلاد أنفسهم رفعوه .. ان أهل البلاد لم يكن بمقدورهم تقديم برهان أكثر وضوحا من رفع العلم بمحض ارادتهم الحرة ، وبهذا أظهروا مشاعرهم الطبيعية .»[2]

وهكذا سارت عملية التأجيل مرة أخرى . ففي اثناء الحرب كان يُقال للعرب اصبروا حتى تنتهي الحرب وتتاح الفرصة الملائمة لحل المشاكل . وعندما انتهت الحرب قيل للعرب ها هو ذا مؤتمر السلم وستجد المشاكل الحل على يديه . وذهب فيصل الى مؤتمر السلم . ودار الزمن بالقضية العربية دورة اخرى سيأتي الحديث عنها في فصل قادم .

التصريح البريطاني الفرنسي : يعود اصل التفكير في اصدار تصريح بريطاني فرنسي مشترك الى اوائل شهر تموز ١٩١٨ ، بعد احتجاج الملك حسين على ما نشرته جريدة (المستقبل) حول وجود اتفاقية سرية بين الدولتين . وقد حاول سايكس اقناع زميله بيكو بالغاء الاتفاقية ، ولكن هذا اصر «باسم حكومته على التمسك بها» وعندئذ اتجه فكر سايكس الى ربط الحكومة الفرنسية بتصريح مشترك يتضمن تخفيف القيود التي فرضتها الاتفاقية ، بغية حصر نفوذ فرنسا في أضيق بقعة ممكنة ، وتأمين «نصف الرغيف» في سورية الداخلية للعرب . ومن ناحية اخرى كانت بريطانيا وفرنسا ترميان من التصريح الى اعطاء دليل للرئيس وودرو ولسون انهما تنويان

---

(١) برقية الملك حسين ، بتاريخ ٥ تشرين الثاني وبرقية ونجت بتاريخ ٨ تشرين الثاني ؛ أوراق الأمير زيد و F.O. 882/17

(٢) رسالة الملك حسين رقم ٢٨٨ بتاريخ ٢٦ تشرين الثاني ١٩١٨ و F.O. 882/17 .

السير على سياسة حرية تقرير المصير التي نادى بها . ومن هنا اشترك سايكس وبيكو في وضع نص «تصريح الى ملك الحجاز» بحثته اللجنة الشرقية في اجتماعها يوم ١٨ تموز ولكنها لم تصل بشأنه الى قرار حاسم.(١) وظل موضوع التصريح بين أخذ ورد حتى اتفقت الحكومتان على نصه النهائي ، فبعثتا نسخة منه الى رئيس الولايات المتحدة الاميركية والى الحكومة الايطالية . وفي ٤ تشرين الثاني بعثت وزارة الخارجية النص الى ونجت وطلبت اليه ان يعمل على ترجمته في الحال الى اللغة العربية وارساله الى الملك حسين ، ونشره في أوسع نطاق في الصحف العربية . وقالت وزارة الخارجية ان التصريح لن ينشر في بريطانيا وفرنسا الا بعد تقديم نصه الى الملك حسين . كما طلبت وزارة الخارجية من ونجت ان يبعث بالنص الى اللنبي وكلايتون ويطلب اليهما توزيعه على نطاق واسع (٢) . وبالفعل وصل نص التصريح الى الملك حسين في مكة المكرمة يوم ٦ تشرين الثاني مع الترجمة الى العربية .

استهلت الحكومتان تصريحهما بالمقدمة التالية :

> ان الحكومة الفرنسية بالاتفاق مع الحكومة البريطانية قد عقدت العزم على اصدار التصريح المشترك التالي من أجل ان تعطيا السكان غير الاتراك القاطنين بين جبال طوروس والخليج الفارسي تأكيداً بأن الحكومتين ، كلا منهما في منطقتها الخاصة، تعتزمان ان تؤمنا لهم افضل درجات الحكم الذاتي ، بهدف ضمانة تحريرهم وتطوير مدنيتهم » .

اما التصريح فقد أعلن باسلوب مباشر حاسم ان هدف الدولتين هو «التحرير التام النهائي للشعوب التي طال اضطهاد الترك لها ، واقامة حكومات وادارات قومية تستمد سلطتها من المبادأة والاختيار الحر للأهالي الوطنيين» . وان الدولتين «متفقتان على تشجيع اقامة الحكومات والادارات الوطنية ومساعدتها في الاراضي التي حررها الحلفاء

---

(١) Text in paper A embodied in Sykes' Memo. of 3 July, 1918 : CAB. 27/28.

(٢) Telegram No. 1323 (EC. 2197) : CAB. 27/35.

في سورية والعراق، وكذلك في الاراضي التي تعملان على تحريرها». وان الدولتين لا ترغبان في فرض اي نظام في هذه المناطق ، بل ان اهتمامهما الوحيد ينصرف الى معاضدة ومساعدة الحكومات والادارات «التي يختارها الأهلون بكامل حريتهم»[1] ومن الواضح ان كلمة سورية وردت في التصريح بحيث تشمل سورية الطبيعية (سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن) .

نشر التصريح يوم ٨ تشرين الثاني ١٩١٨ في لندن وباريس ونيويورك والقاهرة [2] ، وقد ظهر مع المقدمة في الصحف الفرنسية الصادرة في اليوم التالي ، بينما لم تظهر المقدمة في الصحف الانكليزية . ومعنى هذا ان الحكومة البريطانية لم تعط المقدمة للصحف ، كما لم تبعث بها الى نجد فلم تنشر او تعرف في بلاد العرب . ولكن التصريح ذاته نشر في مصر والعراق وسورية كلها . وقد فهم العرب ان نشره في فلسطين يعني انه يشمل فلسطين ضمناً . وتلقى فيصل نص التصريح وهو في طريقه الى حلب ، وعند وصوله اليها ألقى خطابا يوم ١١ تشرين الثاني قرأ خلاله نص التصريح وقال انه «من المستندات التاريخية العظيمة» و«انه يدل على شعور عال وحسيات انسانية »، واستدل بالتصريح على دفع اتهام الاتراك الاتحاديين للاشراف بأنهم «اتفقوا مع الغربيين على بيع البلاد لقاء دريهمات»[3]. وعلى العموم قوبل التصريح بالترحيب البالغ في بلاد العرب واعتقد الأهلون انه يحل محل اتفاقية سايكس — بيكو ويلغيها [4] .

---

(١) المقدمة نقلت عن كتاب جفريز المذكور سابقا ص ٢٣٨ وقد نقلتها حرفيا لأنها لم تنشر باللغة العربية فيما أعلم ، وليست معروفة على نطاق واسع . وعلى رأي جفريز ان سبب عدم نشر الانكليز لها يعود إلى انها تنص على عروبة المنطقة المعنية ومن ضمنها فلسطين. أما نص التصريح فمنقول عن : Parliamentary Debates, House of Commons, Fifth Series, Vol. 145, Col. 36.

(٢) كان من المقرر أصلا أن ينشر التصريح يوم ٧ تشرين الثاني ١٩١٨ ولكن نشره تأخر يوماً واحداً لسبب غير معروف . ومن هنا ترى البعض يعطيه تاريخ ٧ تشرين الثاني ١٩١٨ .

(٣) خطاب فيصل في امين سعيد ، المجلد الثاني ، ص ص ٤ — ٩ .

(٤) Sir Arnold Wilson, *Mesopotamia*, 1917-1920, pp. 102-103.

وفي ٥ تشرين الثاني أبرق ونجت الى الملك نص التصريح قائلا انه يتضمن «اعترافا كاملاً وصادقاً بمبدأ القومية وحق الشعب فيما يتعلق بالسوريين والعراقيين ... ». فرد الملك في اليوم ذاته يعبّر عن سروره بالتصريح ويقول «وعلى كل حال فان المنتظر من شهامة كمالاتكم ما هو فوق ذلك ان شاء الله »[1] . والواقع ان عبارات التصريح اذا قرئت بنية حسنة ، لا تترك مجالا للشك بان حرية العراقيين والسوريين في تقرير مصيرهم واختيار الحكومة التي تسوسهم '، أصبحت مضمونة وأكيدة غير مقيدة بأية تحفظات[2] . ولا يلام العرب على ظنهم يومذاك ان التصريح صدر عن نية حسنة وعن دوافع مثالية ، لانه صدر بعد ان أحاقت الهزيمة بالدولة العثمانية وبعد استسلامها ، فلم تكن هناك ضرورة عسكرية تحلو ببريطانيا وفرنسا الى اصداره . وفي دمشق قامت مظاهرة ابتهاج كبيرة وأعلن قادتها لضابطي الارتباط امتنان العرب لحكومتي بريطانيا وفرنسا ، وابتهج الاهلون كذلك في بيروت . وساد الانطباع بأن التصريح يشمل فلسطين ، على الرغم من التساؤلات التي دارت على الالسن بسبب عدم ذكر فلسطين صراحة[3] . لقد كان معروفا لدى الجميع ان سورية تعني المنطقة الممتدة من الاسكندرونة شمالا حتى رفح جنوبا (سورية الحالية ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن). فلا عجب ان يبلغ التشكك من الجنرال كلايتون نفسه في حقيقة ما قصده التصريح ، حداً دفعه الى ان يسأل وزارة الخارجية «لمعلوماتي الخاصة »عما اذا كان قد قصد بالتصريح ان يشمل فلسطين . وقال كلايتون ان كثرة السكان اعتبروا ان التصريح يشمل فلسطين . وكان جواب وزارة الخارجية «لقد صيغ

---

(١) برقية ونجت رقم A.B. 726 في الملف F.O. 882/3 وبرقية الملك في أوراق الأمير زيد .

(٢) يرى الجنرال جلوب أن هذا التصريح كان أقوى وأوضح من بنود مراسلات مكماهون واتفاقية سايكس – بيكو وتصريح بلفور لأنه منح الأهلين حرية اختيار مستقبلهم: *Britain & the Arabs*, p. 134

(٣) **Telegram No. 185 (EC. 2382) of 16 Nov. 1918 from Clayton to F.O. : CAB. 27/36.**

التصريح قصدا بحيث يستثني فلسطين . وهذا لمعلوماتك الخاصة »[1] .
وهكذا بقي العرب يعتقدون شيئا بينما كانت الحكومة البريطانية تضمر شيئاً آخر . وبقي الحكام العسكريون البريطانيون في فلسطين ايضا يجهلون حقيقة المقصود بالتصريح فيما يتعلق بفلسطين .

ترى ماذا كانت نية الحكومة البريطانية ؟ هل كانت تنوي الوفاء بالتزاماتها للعرب ، او لفرنسا ؟ . لا هذا ولا ذاك . كانت تريد شيئاً واحدا فقط الا وهو توسيع البقع الحمراء على خارطة العالم وفي بلاد العرب بالذات . ولسوف نرى في الفصل القادم ان اللجنة الشرقية اتخذت قراراً بان يكون النفوذ في منطقتي (أ)و (ب)لبريطانيا دون سواها ، وسوف نرى لويد جورج يأخذ وعدا من كليمنصو بتحويل الموصل وفلسطين الى منطقة النفوذ البريطاني ، اي نزع نفوذ فرنسا عن هذه المناطق وحصره في الساحل السوري فقط . ولسوف نرى ايضا اللورد كرزون وعددا من كبار المسؤولين البريطانيين يعلنون ان فلسطين كانت مشمولة بعهود مكماهون كقطر عربي ضمنت بريطانيا عروبته واستقلاله .
ان سلسلة العهود التي سردناها في هذا الفصل ، والتي ارتبطت بها الحكومة البريطانية مع العرب ، لا تدع مجالا للشك في نفس اي عربي انها كانت تعني تحالفا بين امتين ،وان بريطانيا—باعتبارها الامة الأقوى — تعهدت بالأخذ بيد حلفائها العرب من أجل تأليف دولة كبيرة تضم شملهم وتوحد أقطارهم ، مقابل مصالح اقتصادية . وأكثر من هذا ، ان العلاقة التي عقدت اثناء الحرب بين بريطانيا والعرب كانت في أصلها ارتباطاً معنوياً مبنياً على ثقة العرب بالشرف البريطاني وبروح العدالة التي كانت معروفة عن الانكليز في ذلك الحين . كان العرب يعتقدون ان بريطانيا التي حرّضتهم على الثورة ضد الاتراك اخوانهم في الدين ، وملأت نفوسهم بالآمال ، لا يمكن ان تتخلى عنهم ، بله ان تعمل على تقسيم

(١) Clayton's tlgrm No. A.B. 892 (EC 2596) of 2 Dec. 1918 & F.O.'s tlgrm No. 276 (EC 2623) of 4 Dec. 1918 : CAB 27/37 & 27/38.

بلادهم وتقدم جزءاً غاليا من وطنهم هدية الى اناس غرباء .

وعندما انتهت الحرب كانت نقطة الضعف في موقف بريطانيا تنبع من قوة الجشع وشهوة التملّك في نفوس ساستها . رأى اولئك السادة ان واجبهم نحو بلادهم يقضي عليهم بحصر النفوذ الفرنسي في أضيق بقعة ممكنة من البلاد العربية لكي تصبح تلك البلاد حكرا مطلقا للنفوذ البريطاني. ومن سوء الحظ ان اولئك السادة لم يروا في الوقت ذاته ان واجبهم نحو بلادهم يقضي عليهم بالوفاء بتعهداتهم للعرب والحفاظ على كلمة الشرف التي اعطوها باسم الشعب البريطاني . وقد ازدادت نقطة الضعف ضعفا عندما رفضت فرنسا الاستجابة لمشاريع الساسة البريطانيين واعطاءهم الفرصة للتظاهر بالكرم مع العرب على حسابها .

وفي نهاية الامر تبيّن جهاراً انه لم تكن هناك قيمة حقيقية للوعود والعهود ولمبادىء العدل وحق تقرير المصير. وتلفت العرب واذا بهم سلعة على موائد المفاوضات تتناوشهم مخالب لا تقل شراً عن مخالب الوحوش .

الفصل السابع

العرب على المسرح الدولي

عندما عُقدت الهدنة العامة بين المانيا والحلفاء يوم ١١ تشرين الثاني ١٩١٨ ، كان موقف العرب يتأرجح بين الثقة بالمستقبل والتخوّف مما سيأتي به الغد . فمن جهة كانت سورية الداخلية في أيديهم وتحت حكمهم من معان والعقبة جنوباً حتى حلب شمالا ، وقد تصرّف فيصل وأعوانه تصرّف الحكّام المستقلين وأخذوا يتولون ادارة المنطقة الشرقية على أساس انها جزء من المملكة العربية الكبرى التي كانوا يأملون ان يؤسسوها على وجه من الوجوه . ولكن من جهة اخرى كانت آمالهم تصطدم بوجود الفرنسيين في الساحل والبريطانيين في فلسطين والعراق . وحيث ان ثقة العرب ببريطانيا كانت ما تزال متينة لم تتزعزع على الرغم من كل ما حدث حتى ذلك الحين ، فقد كان العرب يعتقدون ان الخطر كامن في وجود فرنسا في الساحل . وقد وجد العرب تجسيداً لمخاوفهم من فرنسا فيما حدث من طرد الحكام العرب من المدن الساحلية وفي الدعاية العدائية التي أخذ ضباط فرنسا السياسيون يبثّونها في المنطقة الشرقية [١] . وكان فيصل يخشى ان يستغل الفرنسيون وجود عدد كبير من المسيحيين في لبنان وفي حلب بحيث يمكن ان يقنعوهم بقبول حماية فرنسا ، لذلك نراه يركّز في الخطاب الذي ألقاه في حلب يوم ١١ تشرين الثاني ١٩١٨

---

(١) أنبأ فيصل الميجر كورنوالس ضابط الارتباط البريطاني في دمشق يومذاك ان « عملاء الكابتن مرسيه » استدعوا كبار شيوخ جبل الدروز وأبلغوهم ان « محمية فرنسية سوف تؤسس قريبا هنا وأن القوات الفرنسية سوف تصل خلال بضعة ايام... » .
(The Wingate Papers, Telegram from Cornwallis. No. C 198 of 2 Nov. 1918).

على ضرورة الوحدة الوطنية باسم القومية معلناً ان «العرب هم عرب قبل موسى وعيسى ومحمد »، ومحذّراً من القاء بذور الفتن بين المواطنين باسم الدين مهدداً بأشدّ العقاب كل من يقدم على ذلك . كما طمأن السوريين إلى ان والده قرّر «أن يجعل البلاد مناطق يطبق عليها قوانين خاصة بنسبة أطوار وأحوال أهلها . فالبلاد الداخلية يكون لها قوانين ملائمة لموقعها والبلاد الساحلية ايضاً يكون لها قوانين طبق رغائب أهلها »[1] . وقد قصد فيصل بهذا ان يخرس ألسنة القائلين بأن سورية المتقدمة في مضمار التعليم سترجع القهقرى الى الوراء اذا اتحدت مع الحجاز وخضعت لحكم الشريف حسين .

وقد اختطّ فيصل خطة التسامح لتأليف قلوب المواطنين في سورية ، فلم يقتصر في اسناد المناصب العالية في حكومته على اولئك الذين انضموا اليه وقاتلوا معه ، بل أراد ان يستعين بجميع الاشخاص الأكفاء ، بغض النظر عن مواقفهم السابقة . كان لسان حاله يقول : عفا الله عما مضى ولنبدأ صفحة جديدة منذ اليوم ، واعتقاداً منه ان الشعور الوطني والوعي القومي كافيان لدفع كل مواطن الى خدمة بلاده وقومه. ومن هنا سلّم الى علي رضا الركابي وياسين الهاشمي أخطر منصبين في حكومته ، على الرغم من ان كليهما ظلا يتعاونان مع الاتراك حتى اللحظة الأخيرة . فقد عيّن الركابي حاكماً عاماً للمنطقة الشرقية وعيّن الهاشمي رئيساً لديوان الشورى الحربي [2] . كما تسلّم كثيرون مثل الركابي والهاشمي ممن ظلوا على ولائهم للاتراك مناصب مسؤولة ، حتى ان فيصلاً وهو في باريس أبرق الى استانبول يطلب حضور محمد كرد علي للانضمام الى من كان معه من متنوري العرب ، وعلى الرغم من ان كرد علي كان يحرّر جريدة جمال باشا (الشرق) وكان خادماً مخلصاً للاتحاديين . وأعطى فيصل للمسيحيين من المناصب في حكومته أكثر بكثير مما تستحقه نسبتهم العددية، بقصد بث الاطمئنان في نفوسهم وقطع ألسنة السوء وعدم

---

(١) أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى ، المجلد الثاني ، خطاب فيصل ، ص ص ٤ – ٩ .
(٢) يعادل منصب رئيس ديوان الشورى الحربي منصب رئيس الأركان .

تمكين الدعاية الفرنسية من شق اسفين الفرقة بين المواطنين .

ومهما يكن من أمر فان العرب كانوا ينتظرون انعقاد مؤتمر السلم ويعلّقون الآمال القوية على ان يعمل ذلك المؤتمر بروح مبادىء الرئيس ولسون وتأكيدات اللنبي لفيصل . وكانت الحكومة البريطانية بدورها تسعى الى التوصل الى حل بشأن بلاد العرب(١) يضمن مصالحها ويرضي مطامعها(٢) يرضي فرنسا(٣) يكون مقبولاً لدى العرب . وقد انبثقت رغبة الحكومة البريطانية في دعوة العرب الى مؤتمر السلم ، عن رغبتها في تقوية مواقفهم أمام فرنسا من جهة وعن رغبتها من جهة اخرى في تحويل انتباه العرب عن اتفاقها الثنائي معهم،وتدويل قضيتهم باشراك دول اخرى في تحمل مسؤولية ما قد يلاقونه من إخفاق .

وهكذا أبرقت وزارة الخارجية البريطانية خلال الايام ٢ — ٤ تشرين الثاني الى ونجت واللنبي وكلايتون تسأل كل واحد منهم عما اذا كان يرى الوقت الحاضر ملائماً لدعوة الملك حسين الى ان يرشح شخصاً ما يطرح آراءه في اي مؤتمر يعقده الحلفاء لبحث تسوية الاقطار العثمانية في آسيا ، وليطرح تلك الآراء في مؤتمرالسلم اذا دعت الضرورة الى ذلك .

وقد رد ونجت قائلا انه واللنبي يوصيان بتوجيه الدعوة الى الملك كي يرسل ممثلا عنه ، وان فيصلاً سيكون أفضل من يقوم بهذه المهمة . كما ان اللنبي في اليوم ذاته أبرق الى وزارة الحربية قائلا : انه من المهم ان توجه الدعوة الى الملك حسين كي يرسل ممثلا له يرعى المصالح العربية في مؤتمر السلم . وأضاف اللنبي يقول «ان التأكيد الذي أعطيته بموافقة وزارة الحربية لا يُعتبر ناجزاً الا اذا تمّ هذا الشرط.ان العرب يثقون ثقة مطلقة ببريطانيا العظمى ، واذا لم نف بعهودنا فسيُقضى على كل ثقةبصدق نيات الحلفاء . »(١)

وكان لورنس قد وصل الى لندن في ٢٤ تشرين الاول وقد سبقته

---

(١) Three telegrams dated 4 Nov. 1918 : from Wingate to F.O., No. 1616, from Clayton to F.O., No. 163 and from Allenby to War Office, No. E A 1843. P.R.O., CAB 27/36.

شهرة نشاطاته في بلاد العرب ، فأستقبل بحرارة في وزارة الخارجية ودعي لابداء آرائه أمام اعضاء اللجنة الشرقية . ولسبب لا نعلمه أعطي امتيازاً غير عادي بأن وجّه هو الدعوة الى الملك حسين متجاوزاً بذلك ونجت والنبي وكلايتون . ففي ٨ تشرين الثاني بعث لورنس الى الملك حسين البرقية التالية :

أعتقد أن محادثات بين الحلفاء ستجري في باريس بعد حوالي خمسة عشر يوماً حول قضايا العرب . وقد أبرق الجنرال الذي عن رغبتك في أن يكون لك ممثل هناك . فاذا كان الأمر كذلك فاني أرجو أن تنتدب فيصلا لان انتصاراته الرائعة كونت له شهرة شخصية في اوروبا وذلك سوف يسهل نجاحه . اذا وافقت أرجو أن تبرق اليه كي يستعد لمغادرة سورية حالا ليقضي هناك حوالي شهر من الزمن ، وأن يطلب من الجنرال اللنبي سفينة تقله إلى فرنسا . وفي الوقت ذاته عليك أن تبرق إلى حكومات بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وايطاليا وتحيطها علماً بأن نجلك سيتوجه في الحال إلى باريس ممثلا لك . (٢)

أُبلغ الملك حسين بالدعوة فأبرق في ١١ تشرين الثاني بالبرقية التالية الى فيصل :

حليفتنا الوفية بريطانيا العظمى ترغب حضورك نائبا عن مصالح العرب ، وكل ما يكون أساساً لحياتهم سواء ما يتعلق بالحدود أو الادارة مما هو معلوم لديك . فانفاذاً لرأي عظمتها تتوجه بكل سرعة ممكنة لباريس . وحيث ان رابطتنا الوحيدة هي العظمة البريطانية ولا علاقة لنا ولا مناسبة مع سواها في أساساتنا

---

(٢) وصلت هذه البرقية إلى ونجت عن طريق وزارة الخارجية فخامرته الشكوك في أمرها ، اذ لم يخطر بباله ان الحكومة البريطانية تريد توجيه الدعوة إلى الملك حسين بهذه الطريقة . لذلك أبرق مستوضحاً فرد عليه بلفور رداً خشناً لائما اياه على تأخير البرقية . وعندئذ بعث ونجت برقية لورنس إلى الملك حسين وبعث برسالة اعتذار إلى بلفور يقول فيها ان من جملة الأسباب التي دفعته لتأخير البرقية انه علم « مؤخراً ان الشكوك تخامر الملك حول مدى نفوذ لورنس مع فيصل». وخشي أن لا يكون رد الفعل ايجابياً عند الشريف اذا أبلغت اليه الدعوة باسم لورنس (أوراق الأمير زيد : رسالة المعتمد البريطاني رقم ٧١١ إلى الملك حسين بتاريخ ١٠ تشرين الثاني ١٩١٨)
Wingate's letter of 12 Nov. 1918 : Wingate Papers.

السياسية ، فكل ملاحظاتك وما تراه في الموضوع تبديه لعظمائها وتوابها الأماجد ان كانوا زملاءك في المجتمع أو معتمديها السياسيين . وما يكلفونك به من قول أو عمل إن كان في المجتمع أو سواه تعمل به ، وتجنب كل ما سوى ذلك . هذه درجة مأذونيتك عما يختص بالمجتمع وخير الأهالي بالمصلحة والقصد . » (١)

من هذه البرقية يتضح لنا ان الملك حسين كان ما يزال على رأيه القائل بان العرب ارتبطوا مع بريطانيا ، وأن بريطانيا مسؤولة وحدها تجاه العرب . وقد ظل حسين على هذا الرأي حتى النهاية . وتتضح لنا ايضا ثقة الملك المطلقة ببريطانيا من أمره لفيصل بان يعمل بما يكلفه به ساسة بريطانيا من قول أوعمل في حدود مصلحة العرب وانشاء دولتهم المتحدة المستقلة .

عندما تلقى فيصل البرقية وهو في حلب، طلب من ابيه أن يأتي أخوه عبدالله الى سورية كي يحل محله ، ولكن حسين رفض الطلب قائلا ان عبدالله يجب ان يواصل حصار المدينة حتى تسقط. وفي الوقت ذاته غادر فيصل مدينة حلب فمر بحمص وطرابلس ثم بلغ بيروت يوم ١٩ تشرين الثاني ، وهناك استقبله الأهلون استقبالاً حماسياً وقام شباب بيروت بسحب عربته في شوارع المدينة وهم يهتفون « ما بنرضى غيرك سلطان » «لا نرضى الا العرب ». وقد حل فيصل ضيفا على الجنرال السير ادوارد بلفن قائد الفيلق الحادي والعشرين وباحثه في ترتيبات سفره . وأثناء وجود فيصل في مدينة بيروت كتب رسالة الى ابيه قال فيها ان حماسة الاهلين وارتباطهم «بعرش جلالتكم لهو خارج عن كل وصف وتصوير»، وانه رفض كل مساعدة من الفرنسيين «لانني رأيت فيهم الطمع في احتلال البلاد فعلا ». وأبدى فيصل رأيه بضرورة ارتباط العرب بالانكليز «لان مصلحتنا متعلقة بمصلحتهم ». هذا على الرغم من انه عبر عن حيرته فيما اذا كان ما يظهرونه من الوداد «سياسة ام حقيقة ».وقال

---

(١) بعث حسين نسخة من هذه البرقية إلى ونجت فأبرق خلاصتها لوزارة الخارجية — Telegram No. 1686 (E.C. 2336) of 13 Nov. 1918), P.R.O., CAB. 27/36.

انه يذهب الى المؤتمر وهو لا يعلم «ما هي الاساسات التي أمشي عليها» . وأبدى رأيه بأن فرنسا ستطالب بحقوق في البلاد وتدعي ان المسيحيين يرغبون في الانضمام اليها، ولكنه يستطيع الاثبات ان٨٠٪ او ٩٠٪ من أهل سورية معه عند اجراء التصويت . وأبلغ اباه انه سيعرض على بريطانيا عقد معاهدة تحالف نهائي بينها وبين العرب «على شرط ان لا يكون للملل الأجنبية غير انكلترا علاقة . ولقاء ذلك نكفل للانكليز الاستفادة من جميع المصالح التي يمكن ان يستفيدوا منها ، ونطلب منهم جميع نواقصنا من مأمورين ومستشارين ونقود وأسلحة ، على ان لا نضيع ذرة من استقلالنا وان نكون امة تحكم نفسها بنفسها .»[١]

وأثناء اقامة فيصل القصيرة في بيروت اجتمع به الكولونيل كورنوالس ، ضابط الارتباط السياسي البريطاني في دمشق، أكثر من مرة . وذكر كورنوالس في تقريره ان فيصل انبأه ان ما وجده من معاكسة الفرنسيين في طرابلس وبيروت ، ونشرهم بلاغاً بمنع المظاهرات يوم وصوله بالذات ، قوّى من تصميمه ان لا يقبل المساعدة الفرنسية وأن يطلب المساعدة البريطانية فقط . ومما جاء في تقرير كورنوالس ايضاً أن فيصلاً يشعر بحرج موقفه اذ يذهب ممثلاً لابيه دون أن يكون لديه تفويض من شعبه . وقد عبر فيصل عن رغبته في اجراء تصويت حرّ في البلاد لكي يختار الأهلون نوع الحكومة التي يرغبون فيها طبقا لما جاء في تصريح ٨ تشرين الثاني ١٩١٨ ، وانه يمكن الاستعانة بجداول الانتخاب التي تركها العثمانيون . « وهو يقصد ان يكتب للقائد العام مقترحا قيام لجنة اميركية بالاشراف على التصويت وملاحظة عدم وجود أي ضغط من اية جهة ». ومن هذا نرى فيصلاً في هذا الوقت المبكر يفكّر بطلب اجراء التصويت باشراف لجنة اميركية[٢] .

---

(١) رسالة فيصل بتاريخ ١٦ صفر ١٣٣٧ (٢٠ تشرين الثاني ١٩١٨) — أوراق الأمير زيد . وانظر وصفاً آخر لاستقبال فيصل في جريدة « بيروت » اللبنانية ، العدد رقم ٢٦١٩ الصادر يوم ٥ تشرين الاول ١٩٤٦ .

(٢) Report dated 19 Nov. 1918 addressed to General Clayton, P.R.O., F.O. 882/13.

وقبل مبارحته بيروت عاد فيصل الى دمشق فقضى فيها ليلة واحدة عين أثناءها اخاه زيد نائباً عنه أثناء غيابه . وفي ٢٢ تشرين الثاني غادر بيروت على متن الطراد جلوسستر قاصدا فرنسا . وقد رافقه نوري السعيد ورستم حيدر والدكتور احمد قدري وفائز الغصين . وعندما نزل فيصل الى الارض الفرنسية في ميناء مرسيليا يوم ٢٦ تشرين الثاني وجد في استقباله الكولونيل لورنس موفداً من قبل الحكومة البريطانية (بناء على طلب فيصل)والمسيو برتران موفدا من قبل الحكومة الفرنسية . ولم يلبث عند وصوله الى ليون ان اصطدم بمفاجأة لم يكن يتوقعها عندما أبلغه الكولونيل بريمون المندوب الفرنسي الثاني ان حكومته ترحب به ضيفا عليها اثناء اقامته في فرنسا ، ولكنها لا تعترف له بأي مركز ديبلوماسي او انه يقوم بمهمة رسمية .

كانت فرنسا بالنسبة لبريطانيا والعرب تمثل الطرف الثالث غير المرغوب فيه . وبينما كانت الحكومة البريطانية تدرك ان وجود فرنسا في سورية « شر لا بد منه » فان العرب لم يتوصلوا الى ادراك هذا الواقع . لقد عرف العرب وفرنسا بعضهما بعضاً—دون رغبة أي منهما — عن طريق بريطانيا .وفي الحرب قدم الفرنسيون للثورة العربية مبلغاً من المال ومفارز عسكرية صغيرة[1] وظهروا بمظهر الصديق للعرب ، ولكنهم في الحقيقة « كانوا يفضلون كثيراً لو أن ثورة الشريف لم تقم اطلاقاً »[2] حتى يتم لهم اقتسام المنطقة مع بريطانيا حسب التقاليد الاستعمارية دون ارتباطات تعاهدية مع اهل البلاد . ثم ان الفرنسيين لم يكونوا مطمئنين لنيات حليفتهم بريطانيا ، وكانوا على مثل اليقين ، بأن

---

(١) ذكر الجنرال بريمون في كتابه « الحجاز في الحرب العالمية » ص ٢٢٦ ان القوة الفرنسية التي أرسلت للاشتراك في القتال مع العرب كانت تتألف من ١٧ ضابطا و ٣٥٦ جنديا و ١٠ مدافع و ٦ رشاشات و ٤٧ بندقية . وقد وزعت هذه القوة على جيوش الامراء علي وعبد الله وفيصل . وفي آذار ١٩١٨ عززت المفرزة الفرنسية في جيش فيصل ببطارية مدافع ٦٥ ملم .

(٢) تقرير الكابتن جورج لويد بتاريخ ٢٢ كانون الأول ١٩١٦ — P.R.O., F.O. 686/6, part I

بريطانيا تشجع العرب ضدهم وتتمنى لو انها تجد وسيلة مـــا للتخلص من اتفاقها معهم ، كي تبقى بلاد العرب كلها حكرة خالصة للنفوذ البريطاني وحده .

وكان الملك حسين قد أبلغ المعتمد البريطاني في جدة انه يوافق على انتداب فيصل كي يمثله في مؤتمر باريس ، وطلب اليـــه ان تنوب الحكومة البريطانية عنه بابلاغ فرنسا والولايات الاميركية المتحدة وايطاليا بسفر فيصل ومهمته.[1] وفي ١٨ تشرين الثاني أبلغ السير ريجنالد ونجت وزارة الخارجية البريطانية ، موافقة الملك حسين على انتداب فيصل وطلبه ابلاغ الدول الكبرى الثلاث نيابة عنه .

وبادرت وزارة الخارجية البريطانية فطلبت في ١٩ تشرين الثاني من سفراء بريطانيا في باريس وروما وواشنطن ان يتصل كل واحد منهم بالحكومة التي يمثل بريطانيا لديها ، ويبلغها أن الملك حسين انتدب نجله الامير فيصل ممثلاً له في مؤتمر السلم الذي سيعقد في باريس لبحث القضايا المتعلقة بالمنـــاطق العربية . وبعد يومـــين أجابت وزارة الخارجية الفرنسية انها لن تبدي رأياً في الموضوع الا اذا وصل اليها تبليغ رسمي بشأن تمثيل الملك حسين في مؤتمر السلم . وفي ٢٢ تشرين الثاني طلبت وزارة الخارجية البريطانية من سفرائها الثلاثة ان يقدموا للحكومات المعنية تبليغاً رسمياً باسم الحكومة البريطانية نيابة عن الملك حسين . وبعد يومين سلّم وزير الخارجية الفرنسية إلى السفير البريطاني في باريس مذكرة مطولة قال فيها انه لم يُستشَر مسبقاً لا هو ولا المندوب السامي الفرنسي في سورية بشأن هذه الخطوة، وان المسألة يجب أن تعالج من ناحيتين(١) ان الدول الكبرى لم تعقد فيما بينها حتى الان مشاورات بشأن الدول التي ستشترك في المؤتمر : سواء الصغيرة منها والكبيرة، الحليفة والمحايدة والمعادية، وان مشاورات كهذه يجب اجراؤها قبل اعطاء اي قرار تفادياً للاضطراب والفوضى و(٢) يمكن بسهولة تحديد

---

(١) Wilson's report on his interview with King Hussein, 16 Nov. 1918 P.R.O., F.O. 686/40.

وضع الامير فيصل ، وعلى أفضل الاحوال يمكن اعتباره نجل ملك الحجاز ومندوبه الشخصي القادم باسمه كي يطلب انشاء مملكة عربية سواء كانت مستقلة ام خاضعة لسيطرة فرنسا وانكلترا في المناطق المتفق عليها ، وان فيصلاً لا يستطيع ان يتكلم باسم السكان العرب الذين لا يمكن أخذ آرائهم بصورة مقبولة في الوقت الحاضر ، علماً بأن دول الحلفاء لم تعترف حتى الان بمملكة عربية ، ولم تعترف فرنسا وانكلترا الا بملك الحجاز . ثم أبدى وزير الخارجية دهشته من مجيء فيصل بناء على نصيحة بريطانيا . ولكيلا ينشأ سوء تفاهم قال انه اعتزم ان يعامل الامير فيصل عند وصوله وخلال اقامته بمثابة أجنبي مرموق ونجل ملك الحجاز ، وعند نزوله في مرسيليا سوف يبلغ بأننا لا نعترف له بصفة رسمية وأن وضعه سيكون مدار بحث بين الحلفاء وانه لا يمكن قبوله بأي حال من الاحوال ممثلاً للعرب في أي اجتماع قبل التوصل إلى اتفاق رسمي على ذلك بين الحلفاء . وأخيراً طلب الوزير ان تقف الحكومة البريطانية الموقف ذاته وتحيط فيصلاً علماً بذلك تفادياً لنشوء مصاعب لا داعي لها .(١)

ولكن وزارة الخارجية البريطانية لم توافق على وجهة النظر الفرنسية ، فطلبت من سفيرها في باريس ان يبلغ وزارة الخارجيـــة الفرنسية أن لا تسيء فهم الهدف من زيادة فيصل ومدى صلاحياته ، وان الحكومة البريطانية تعتبره «ممثل شريكنا في الحرب وحليفنا الملك حسين ، أرسل ليكون حاضراً في باريس اثناء مباحثـــات مؤتمر السلم لكي يشرح مصالح ابيه ويتابعها . »(٢)

واعترضت وزارة خارجية فرنسا لان حسين لم يبلغهابالمسألة مباشرة ، فردت وزارة خارجية بريطانيا بانها كانت دائماً واسطة المخابرة بين

---

(١) Telegram from F.O. to Lord Derby (Paris), 22 Nov. 1918, (E.C. 2523) and telegram from Graham (Paris) to F.O., 24 Nov. 1918 (E.C. 2485). P.R.O., CAB. 27/37.

(٢) Telegram No. 2545 (E. C. 2482), 23 Nov. 1918, P.R.O., CAB. 27/37.

فرنسا والملك حسين ولم يعترض الفرنسيون قبلا على هذا الترتيب . وفي الوقت ذاته مر لورنس على السفارة البريطانية في باريس واطلع على المخابرات الجارية في الموضوع وفوضته وزارة الخارجية بان يطلع فيصلاً على ما يرى مناسباً اطلاعه عليه . وعرضت وزارة البحرية ان يبحر الطراد جلوسستر بالامير مباشرة إلى بريطانيا ، ولكن وزارة الخارجية خشيت ان تزداد شكوك فرنسا في مقاصد الانكليز فأشارت بلزوم نزول فيصل في مرسيليا حسب الترتيب الاول . (١)

وأخيراً وبعد تردد قررت الحكومة الفرنسية ان ترسل بعثة خاصة لاستقبال الامير في مرسيليا وان تستضيفه اثناء اقامته في فرنسا . وقد أعطي عضو البعثة الكولونيل بريمون تعليمات تطابق ما جاء في مذكرة وزارة الخارجية المشار اليها سابقاً . وتضمنت التعليمات القول ان الحكومة الفرنسية لا تستطيع الان استقبال الامير في باريس ولذلك سوف يزيره عضوا البعثة عدداً من المدن المهمة والمنشاءات العسكرية والجبهة الفرنسية كي يتصل بالقوات الفرنسية « التي سوف يسعدها بالتأكيد أن ترحب به بوصفه رفيقاً في السلاح » . وقد أبلغت وزارة الخارجية الفرنسية السفير البريطاني في باريس بترتيباتها هذه وكررت ما قالته سابقاً بشأن وضع الامير ، وأضافت القول « إن أهلية الامير وحتى ملك الحجاز للاشتراك في مؤتمر السلم بأية صفة كانت لا وجود لها في الوقت الراهن ، وسيبقى الامر كذلك حتى تتوصل الدول الكبرى إلى اتفاقية حول هذا الموضوع . » (٢)

وهكذا وجد فيصل كلاً من لورنس وبريمون وبرتران في استقباله. ولم

---

(١) Telegrams Nos 2569 and 2578 dated 25 & 26 Nov., 1918 (E.C. 2500 & 2521), F.O. to Lord Derby (Paris), P.R.O., CAB. 27/37.

(٢) Telegram No. 1622 (E.C. 2538), 27 Nov. 1918, Derby. (Paris) to F.O., P.R.O., CAB. 27/37. اورد الجنرال بريمون التعليمات التي تلقاها من المسيو جين غو (السكرتير المساعد لشؤون آسيا في وزارة الخارجية الفرنسية) ، بشأن فيصل في كتابه Le Hedjaz dans la Guerre Mondiale, pp. 310-311.

يلبث لورنس ان عاد إلى بلاده بعد ان أبلغه بريمون ان الفرنسيين لا يحبذون مرافقته للامير بملابسه البدوية . وبعد ان قضى فيصل اسبوعاً من الزمن زار خلاله عدداً من المدن الفرنسية وبعض ميادين الحرب ، طلب من بريمون يوم ٣ كانون الاول ان يخبره بصراحة عما اذا كانت الحكومة الفرنسية لا تريد ان يأتي إلى باريس ، وانه يود ان يعود إلى دمشق اذا كانت اقامته في فرنسا لا تزيد عن كونها تمضية وقت . واتصل بريمون بحكومته فوجهت الدعوة إلى فيصل لزيارة باريس حيث استقبله رئيس الجمهورية يوم ٧ كانون الاول . وكان قبل ذلك بيومين قد منح وسام جوقة الشرف من رتبة ضابط كبير [١] وفي مساء يوم ٩ كانون الأول غادر فرنسا إلى انكلترا .

فيصل في لندن : وصل فيصل إلى لندن يوم ١٠ كانون الاول ومعه لورنس الذي كان قد جاء لاستقباله ومرافقته عند مغادرته للشاطىء الفرنسي . وفي يوم وصوله بعث فيصل إلى ابيه برقية بواسطة وزارة الخارجية البريطانية يحيطه فيها علماً بأن الحكومة الفرنسية ما تزال تعتبره مجرد ضيف مرموق ، ويطلب منه ان يبرق رأساً إلى الحكومة الفرنسية يبلغها فيها بمهمة فيصل . [٢] وفي اليوم التالي قام فيصل بزيارة المسّر بلفور وزير الخارجية ، ومعه لورنس ليترجم بينهما . وحسبما جاء في مذكرة كتبها بلفور عن الزيارة فإن فيصلاً عبرّ عن امتنان العرب للمساعدات التي قدمتها بريطانيا لهم ولكنه أبدى مشاعر العداء الشديد تجاه فرنسا . وقد قال فيصل ان العرب يرغبون في ان تحميهم دولة واحدة سواء في سورية او العراق وهذه الدولة يجب

---

(١) خلال اقامته القصيرة في باريس ضم فيصل إلى حاشيته السيد عوني عبد الهادي الذي اضطر إلى قضاء سنوات الحرب في باريس بعد اتمام دراسته . (راجع : احمد قدري ، ص ٩٦) . ومن سخريات القدر انه قلد الوسام في مدينة ستراسبورغ في احتفال مهيب ترأسه الجنرال غورو .

(٢) F.O. to Wingate, tel. No. 1498 (E.C. 2714), CAB. 27/38.

ان تكون بريطانيا لا سواها ، وان العرب لن يتحملوا حكم أية دولة أجنبية اخرى. وشكا فيصل من اجراءات اللنبي لمصلحة الفرنسيين في بيروت ، وقال انها تناقض الوعود التي أعطيت لابيه في أوائل الحرب . وقال فيصل انه اذا أظهر الفرنسيون مقاصد عدوانية فانه سيعمد إلى مهاجمتهم في الحال دون تردد، وهو يعرف جيداً ان العرب لا يستطيعون مجابهة دولة عسكرية كبرى مثل فرنسا ، ولكنه وقومه يفضلون الموت في المعركة على ان يخضعوا دون مقاومة .[1]

ولكن فيصلاً في رسالة طويلة كتبها لابيه يقول انه اجتمع ببلفور الذي أخبره عنه لورنس « بانه رجل حسن المنطق قليل العمل » ، وان بلفور قال له « ان حكومة انكلترا لم تعاون العرب بل العرب عاونوها ، ولم تحرز هذا الشرف الا بواسطة العرب ، فهي صديقة ومعاونة لكم إلى آخر الامر » ، وان فيصلاً ردّ عليه بان الفرنسيين يريدون ابتلاع سورية كلها ولولا اللنبي وجيوشكم « كنا إلى الان تصافينا الحساب معهم . فان لم تعاونونا فستعلن للعالم ان الخيانة وقعت منكم وسنقاتل من يريد احتلال بلادنا » . وقال فيصل انه طلب من بلفور تمزيق معاهدة سايكس — بيكو وانه أما ان يعود إلى بلاده وقد حقق أهداف العرب أو يعمد إلى القتال ، ورد بلفور ان انكلترا تريد تمزيق المعاهدة على يد المؤتمر الذي سيعقد . وطلب فيصل ان يعطيه قولاً يطمئن به ، فرد بلفور « مثلي لا يقول قبل العمل ، ولكني اؤمنك بالشرف ان العرب سيخرجون من هذا المؤتمر وهم ضاحكون مسترجعون جميع ما كانوا يتمنونه من وضع أساس مجد آبائهم الذي تفتخر الانسانية به . وهي ستشتغل معكم كأنفسكم والأمد ليس ببعيد ... » [2].

---

(١) Memo. dated 11 Dec 1918, Ibid.

(٢) رسالة فيصل بتاريخ ١٢ كانون الأول ١٩١٨ (أوراق الأمير زيد) . ويبدو من مقارنة رسالة فيصل ومذكرة بلفور تأثير ترجمة لورنس بينهما ، تلك الترجمة التي يتضح انها لم تكن دقيقة . وهذا يقضي على الباحث النزيه أن يعول على النصوص التي كتبها العرب أنفسهم وليس على النصوص التي سجلها آخرون بناء على أقوال شفهية—

وفي يوم ١٢ كانون الاول استقبل الملك جورج الخامس فيصلاً ومنحه قلادة فكتوريا . وقال فيصل في رسالته لابيه ان الملك قال انه يقدمها « تذكاراً للدماء المشتركة التي أهرقها العرب والانكليز في ساحات القتال جنباً لجنب ، واني اؤمل ان يكون الود بيننا دائماً إلى ما لا نهاية ». وقال فيصل انه جاء مندوباً عن والده لتقديم الشكر على ما لقيه من مساعدة ومعاضدة من قبل الملك وحكومته ، وان اباه يتمنى « أن تبقى محبتكم نحونا مدى الايام » فاجاب الملك « اننا لا نتخلى عن مساعدة والدكم والعرب جميعاً .. وأؤمنكم انكم ستجدون انكلترا معكم .. » . ورد فيصل بقوله « ان والدي قام تجاه الاتراك وقاوم التيار الاسلامي بأجمعه وتحمل الطعن والتشنيع كما تعلمون اتكالاً على اقوالكم ومعتمداً في ذلك على مؤازرتكم ووفائكم . فكيف يتحمل والحالة هذه ان يرى بلاده تنقسم والعرب يمزقون ثم يسكت » . وردّ الملك طالباً من فيصل ابلاغ والده « ان انكلترا ستكون معه في كل حال.» [1] وفي هذه المقابلة كان لورنس ايضاً هو الترجمان .

ومثلما فوجىء فيصل بما أبلغه برتران وبريمون في مرسيليا، فوجىء الملك حسين بالبرقية التي بعثها اليه الكومندان كوس ، المعتمد الفرنسي في جده ، يبلغه فيها ان حكومته سوف تحتفي بالامير فيصل احتفاءً يليق بنجل ملك محالف وصديق. ولكنها تعجب لانها لم تحط علماً بسفره في بادىء الامر ولذلك « يستحيل عليها ان تعتبر الان سمو الامير فيصل كمكلف بمهمة لم تكن قد أشعرت بها رسمياً » [2] . وبعد ان استفهم الملك حسين من المعتمد البريطاني عن اسباب هذه البرقيـة ردّ على المعتمد الفرنسي في ٣ كانون الاول قائـلاً انـه كلّف الحكومة

= مال بها الهوى وسوء الترجمة : خذ مثالا واضحاً على هذا تأكيد السيد حسين العويني رئيس وزراء لبنان الأسبق بأن المستر روبرت ميرفي ، نائب وكيل وزارة الخارجية الاميركية ، حرف الحديث الذي دار بينهما عام ١٩٥٨ . (ملحق جريدة النهار ، ١٥ شباط ١٩٧٠ ، ص ٥) .

(١) رسالة فيصل المذكورة أعلاه — أوراق الأمير زيد .

(٢) أرسل كوس البرقية من بيروت بتاريخ ٢٩ تشرين الثاني ١٩١٨ (أوراق الأمير زيد)

البريطانية حليفة الطرفين بأن تنوب عنه في ابلاغ الحكومــــة الفرنسية بانتدابه فيصلاً ممثلاً له، اعتقاداً منه ان هذا يكفي .[1]

وعندما تلقى حسين برقية فيصل التي تؤكد إصرار الحكومة الفرنسية على موقفها السلبي منه ، بعث ببرقية اخرى إلى المعتمد الفرنسي يقول انه يستغرب هذا الموقف بعد ابلاغ الحكومة الفرنسية مرتين بمهمة فيصل ثم قال انه على الرغم من كل ما حدث يسارع للتأكيد مرة أخرى ان الامير فيصل هو ممثل الحكومة العربية في مؤتمر السلم. وأرسل الحسين نص هذه البرقية إلى فيصل قائلاً له « ان طبيعة مهمتك يجب ان توضح لك من قبل الحكومة البريطانية »[2] . وفي هذا دليل آخر على مدى ثقة الحسين ببريطانيا واعتماده عليها .

اتفاق لويد جورج وكليمنصو : في الوقت الذي كان فيصل خلاله يزور الجبهة الفرنسية ، عقد لويد جورج مع كليمنصو اتفاقاً مبدئياً ذا أهمية بالغة بالنسبة لبلاد العرب . ففي يوم ١ كانون الاول ١٩١٨ وصل إلى لندن المسيو كليمنصو رئيس وزراء فرنسا يرافقه المارشال فوش ، ووصل إلى لندن في اليوم ذاته اورلاندو رئيس وزراء ايطاليا وسونينو وزير خارجيته . وكان القصد ان تجري الدول الكبرى الثلاث مباحثات تمهيدية تتعلق بمؤتمر الصلح المقبل والاتفاق على بعض الخطوط الرئيسية . وخلال الايام الاربعة التي قضاها كليمنصو في العاصمة البريطانية عقد عدة اجتماعات مع لويد جورج . وأثناء ذلك طرح لويد جورج اتفاقية سايكس — بيكو على بساط البحث وطالب بتعديلها لمصلحة بريطانيا . وفيما بعد روى لويد جورج ان كليمنصو وافق « دون تردد » على ضم ولاية الموصل إلى العراق وان تخضع فلسطين من دان إلى بير السبع للحكم البريطاني[3] . ولكن من الواضح ان الأمر لم

---

(١) راجع نص المخابرة بين حسين وكوس في P.R.O., F.O. 686/40.

(٢) Wilson to Wingate, tel. dated 14 Dec., 1918, P.R.O. F.O. 686/40.

(٣) Lloyd George, The Truth About The Peace Treaties, Vol. II, p. 1038.

يكن بهذه البساطة على الرغم من القول ان ما حدث بين الرجلين كان « اتفاقية شفهية »[1] . فقد طالب كليمنصو مقابل ذلك معاضدة بريطانيا الكاملة في فرض شروط صلح على المانيا تؤمّن الأمن لفرنسا (وكانت الولايات المتحدة تعارض فرض شروط قاسية على الدول المغلوبة) وان تحصل فرنسا على حصة من زيت الموصل (تمّ الاتفاق على اقتسام الزيت مبدئياً في نيسان ١٩١٩ ونهائياً في نيسان ١٩٢٠) . وطالب كليمنصو ان تحصل فرنسا على الانتداب على كيليكيا وسورية كلها (باستثناء فلسطين) . وبهذه الاتفاقية نسقت الدولتان الموقف بينهما فيما يتعلق ببلاد العرب وضمنت كل منهما مصلحتها دون التفات إلى مصالح العرب. ولكن الدولتين ظلتا تحاوران العرب وتداورانهما ذرّاً للرماد في عيون المجتمع الدولي ، حتى تمت التسوية النهائية بينهما بعد هذا بستة عشر شهراً في سان ريمو ، حسب ترتيب لويد جورج — كليمنصو هذا . ومن الواضح ان هذا الاتفاق كان أبعد ما يكون عن روح تصريح ٨ تشرين الثاني الذي لم يكن مضى على نشره سوى ثلاثة اسابيع. والذي ساعد الدولتين على التوصل إلى هذا القرار ، ان القوات البريطانية كانت تحتل فلسطين والموصل فعلاً ، وان روسيا القيصرية قد زالت وزالت معها مطامعها التوسعية واهتمامها بمصير الاماكن الدينية المسيحية في فلسطين . والسرعة التي وافق بها كليمنصو على طلب لويد جورج تعود إلى خشية الفرنسيين من ان تتنكر بريطانيا لاتفاقية سايكس — بيكو وتعمل على الغائها مستعينة على ذلك بالرئيس ولسون وبجيوشها التي كانت تحتل العراق وسورية احتلالاً فعّالاً وبأصدقائها العرب .

الاتصالات بين العرب والصهيونيين : منذ ان أصدرت الحكومة البريطانية تصريح بلفور في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ أخذت تسعى لتقريب وجهات النظر بين العرب أصحاب البلاد الشرعيين وبين الصهيونيين غزاة الغد . وكان قصد الحكومة البريطانية اقنـاع حلفائها العرب

---

(١) Documents on British Foreign Policy, Vol. IV, p. 251.

واصدقائها اليهود بانها الدولة الفضلى لحكم فلسطين . وفي نطاق مساعي بريطانيا هذه كانت تأكيدات هوجارث للملك حسين في كانون الثاني ١٩١٨ ، وكان من اقتناع حسين يومذاك بان مشاريع اليهود لا تؤلف خطراً على البلاد العربية ومن جملتها فلسطين : تصريحه لهوجارث انه يرحب باليهود إلى جميع الاقطار العربية ، ونشره في القبلة مقالة يدعو فيها العرب إلى التسامح مع اليهود باعتبارهم من أهل الكتاب ، وفي الوقت ذاته كتب رسالة الى فيصل تؤكد اظهار النيات الحسنة تجاه اليهود وابناء المذاهب الاخرى «الذين هم غرباء في بلاد العرب». وكان من جملة مساعي بريطانيا رسالة دورية مؤرخة ١٦ تشرين الثاني ١٩١٧ بعث بها سايكس الى زعماء العرب جاء فيها ان الصهيونيين لا يقصدون الاستيلاء على فلسطين، «وغاية ما يبغيه الصهيونيون ان ينالوا حق الاستعمار في فلسطين ، وان يعيشوا في مستعمراتهم عيشتهم القومية الخاصة»، وان «كل ما يرغبه الصهيونيون هو اعطاء الحرية لليهود للاقامة [في فلسطين] والتمتع بكامل الحقوق المدنية، وان يشاطروا السكان الوطنيين حقوقهم وواجباتهم». ونتيجة لمساعي الجنرال كلايتون اجتمع عدد من اعضاء جمعية الاتحاد السوري في مصر مع اثنين من اعضاء اللجنة الصهيونية ، وقرروا ان يكرروا اجتماعاتهم بهما «والقصد الرئيسي من ذلك هو العمل سويا لتحرير بلادنا». [1] اما الملك حسين فلم يشأ ان يرسل مندوبا عنه للاشتراك في لجنة سايكس ، على الرغم من الالحاح عليه بذلك .

وكان تركيز البريطانيين على الاتصال بفيصل بعد وصوله الى العقبة القريبة من فلسطين. ففي ١٠ كانون الاول ١٩١٧ بعث كلايتون الى فيصل

---

(١) رسالة جوابية بتاريخ ١٧ كانون الثاني ١٩١٨ من سليمان ناصيف أمين سر جمعية الاتحاد السوري في مصر إلى مارك سايكس . ومن أعضاء تلك الجمعية : رفيق العظم حقي العظم، فوزي البكري ، مختار الصلح، خليل أيوب وخليل زينيه: F.O. 882/14 راجع ايضا : حافظ وهبه ، جزيرة العرب في القرن العشرين ، ص ص ٢٢٢ — ٢٢٣..

برسالة يقول له فيها ان سكان فلسطين عربا ويهوداً ابدوا ارتياحهم لانعتاقهم من النير التركي ، وان هذا لدليل على ان جميع سكان فلسطين وسورية متحدون في رغبتهم في تحرير انفسهم وفي التطلع نحو الاستقلال والحرية . «ويجب ان نعمل جميعنا من اجل هذه الوحدة لان العرب لا يستطيعون ان يأملوا تحقيق اهدافهم الا اذا قربوا اليهم كل طائفة وكل طبقة في البلاد ».[1]

وكتب كلايتون الى لورنس يحضه على التحدث الى فيصل بشان اليهود ، فرد لورنس – وكان في الطفيلة – يقول انه سيحدث فيصل عندما يجتمع به « وان موقف العرب سيكون ودياً اثناء فترة الحرب على الاقل . ولكن ارجو ان تذكر انه يخضع للرجـــل العجوز ولا يستطيع وحده ان يعمل باسم المملكة العربية ». وقال لورنس ان فيصل ربما يزور القدس حيث يمكن ان يجتمع اليهود به[2] . وفي هذه الاثناء طلب اللنبي من فيصل – بواسطة لورنس – ان يحضر لمقابلته في القدس . وقال لورنس ان السبب «لاجل المذاكرة فيما يختص بالحركات المقبلة ، وكذلك بما يختص بفلسطين واليهود والمسلمين . وقلت له ما يمكنني أردّ جواب لا بالنفي ولا بالقبول حتى استأذن من صاحب الجلالة . ويقول ان اليهود اليوم لهم تأثير كبير على الحرب خصوصا من جهة النقود والجميع محتاجين لهم وربما انتم (اي نحن العرب)تأخذون منهم خمسة عشر او عشرون مليون جنيه إمّا في اثناء الحرب او بعد الحرب لتشكيل الحكومة وتنظيم امورها .»[3]

وفي هذه الاثناء كتب مارك سايكس رسالة طويلة الى فيصل حافلة بالنصائح عن الاسلوب الذي يرى ان يتبعه القادة العرب في ادارة بلادهم ،

---

(١) F.O. 882/7

(٢) رسالة مؤرخة ١٢ شباط ١٩١٨ (F.O. 882/7) . وفي الوقت ذاته كتب كلايتون إلى سايكس بأنه حض لورنس على أن يوضح لفيصل « ضرورة توحيد مساعيه مع اليهود » .

(٣) ملحق رسالة غير مؤرخ من فيصل إلى حسين (أوراق الأمير زيد) .

وبعد ان حضّ فيصلاً على ضرورة المساواة التامة بين المسلمين والمسيحيين «وتحطيم الحاجز الرديء الذي فرّق بين العرب والعرب خلال العديد من الاعوام»، وهو الحاجز الذي أوجده الاتراك، تحول الى اليهود قائلا ان لهم قوة عالمية «واذكر ان هؤلاء الناس لا يريدون أن يقهروكم ولا يقصدون ان يطردوا عرب فلسطين ... انهم لا يرغبون ان يذهبوا الى هناك بالملايين ، وما يرغبون فيه هو ان يكون في مقدورهم ان يشعروا ان اليهودي في فلسطين يستطيع ان يحيا حياته ويتكلم لغته كما كان يفعل في العصور القديمة . وان هذا شعور نبيل وصادق ، واذا رحّبت به فستكون هناك سعادة ورخاء وأمل لقضيتكم ، اما اذا ازدريت هذا الشعور فستجد ضدك قوة لا تبدو للعيان ولكن فاعليتها تسري في كل مكان .... انظر الى الحركة اليهودية بمثابة المفتاح الكبير لنجاح العرب وبمثابة ضمان القوة الوحيدة عندما يعقد ممثلو الامم اجتماعاتهم ». (١)

في ربيع ١٩١٨ جاء وايزمن، رئيس اللجنة الصهيونية ، الى مصر واجتمع بعدد من زعماء السوريين فيها بقصد تهدئة مخاوفهم حول ما أذيع عن مطامع الصهيونية ، ثم جاء الى القدس وعمل ستورس وكلايتون على الجمع بينه وبين عدد من الزعماء الفلسطينيين حيث ألقى خطابا قال فيه ان الصهيونيين «يطلبون فقط فرصة التطور القومي الحرّ في فلسطين...» دون الحاق الضرر بالسكان القاطنين في هذه البلاد بل لمصلحتهم ، وان القول بان اليهود سيعملون على طرد العرب من البلاد لا يصدر الا عن سوء فهم او يختلقه اعداء الطرفين . وقد رد كامل الحسيني مفتي القدس معبراً عن سروره لسماع هذه الاقوال التي أزالت الكثير من سوء الفهم ، واستشهد بالحديث الشريف «لنا ما لهم وعلينا ما عليهم .» ثم قال إن له الثقة التامة باخلاص الدكتور وايزمن في اقواله ، وانه يتطلع الى تعاون ولائي مع الصهيونيين لتطوير فلسطين في المستقبل . (٢)

(١) Letter dated 3 March 1918. P.R.O. F.O. 882/3.

(٢) Clayton to F.O., 7 May 1918 and Note by Ronald Storrs dated 30 April 1918 together with Weizmann's speech. P.R.O., F.O. 371/3395. هذا على ذمة كلايتون وستورس ، أما المصادر العربية فتقول ان =

واذ إن فيصل لم يذهب الى القدس ، فقد اعتزم الانكليز ان يرساوا وايزمن للاجتماع به ، وبالفعل سافر وايزمن بحراً من مصر الى العقبة ومنها الى وهيدة (بين معان والعقبة)مقر قيادة فيصل يومذاك حيث اجتمع به يوم ٤ حزيران ١٩١٨ حوالي ثلاثة ارباع الساعة . وكان وايزمن يحمل رسالة توصية من كلايتون قال فيها ان صديقه وايزمن يعمل على ايجاد التعاون الكامل بين العرب واليهود لان مصالحهم مترابطة الى حدّ أن التعاون والتعاطف بينهم سيحقّق وحده النجاح الدائم لهم [١] .

وفي الاجتماع قال وايزمن ان الحكومة البريطانية أرسلته للبحث في ترويج المصالح اليهودية في فلسطين وللاتصال بالزعماء العرب في محاولة للتعاون معهم. وقال فيصل انه يدرك أهمية التعاون بين العرب واليهود، ولكنه لا يستطيع أن يبدي رأيا يتعلق بالسياسة لانه في القضايا السياسية لا يزيد عن كونه وكيل ابيه ولا يستطيع البحث فيها . وقال وايزمن ان اليهود لا يرمون الى تأسيس حكومة يهودية ولكنهم يريدون ان يعمروا البلاد ويطوروها تحت الحماية البريطانية دون ان يتعدوا على اية مصالح مشروعة للآخرين . واعتذر فيصل مرة اخرى عن بحث مستقبل فلسطين فيما يتعلق باليهود والحماية البريطانية . وقال وايزمن انه سيسافر قريبا الى امريكا وانه سوف يستعمل نفوذ اليهود مع الرئيس ولسون لمصلحة الحركة العربية . وقد سُرّ فيصل كثيرا بهذا التصريح . وحضر الكولونيل جويس رئيس البعثة العسكرية البريطانية في الجيش الشمالي ، هذا الاجتماع . [٢]

= العرب لم يستقبلوا وايزمن بالترحيب . بل ان كامل الحسيني احتج وانسحب (أمين سعيد ، المجلد الثالث ، ص ٥٠) .

(١) Letter dated 27 May 1918, P.R.O., F.O. 882/14.

(٢) Record of Interview by Lt. Col. P.C. Joyce, 5 June 1918. P.R.O. F.O. 882/14. ولكن وايزمن بعد ٣١ سنة زعم ان فترة الاجتماع كانت أكثر من ساعتين » . راجع كتابه : Trial and Error, Hamish Hamilton, London, 1949, p. 293.

تجدد الاتصال بين فيصل ووايزمن بعد ذلك بستة اشهر . واذا أردنا ان نحيط احاطة تامة بالظروف التي أدّت الى تجديد ذلك الاتصال ، فمن المهم ان نحسب حساباً لوضع فيصل بالنسبة لفرنسا وكذلك بالنسبة لبريطانيا . ففي ١٠ كانون الاول ١٩١٨ وصل فيصل الى لندن وهو في قلق نفساني عظيم من جراء موقف فرنسا السلبي منه وعدم اعترافها له بأي صفة رسمية . لقد كانت أفكار فيصل كلها تتجه نحو حلّ هذه المشكلة ، وقد توافرت عنده القناعة منذ اخراج ممثليه من بيروت وسواحل سورية وما شاهده من تصرفات الفرنسيين العدائية ، ان فرنسا هي العقبة الكؤود في وجه الاستقلال العربي ، وان فرنسا هي العدو الذي يجب عليه مجابهته . وفي الرسالة المطولة التي بعث بها الى ابيه بتاريخ ١٢ كانون الاول١٩١٨والتي سلفت الاشارة اليها نراه يقول ان الفرنسيين«لا همّ لهم الا ابتلاع سورية كافة » ، وان فرنسا لا تكتفي بما منحتها اتفاقية سايكس – بيكو بل «تريد ان تحكم فعلاً في داخلية سورية ... وبعبارة اخرى سورية كلها بدون ان يخرج منها جزء واحد عن حكمها الفعلي ». وفي رسالة ثانية كتبها فيصل الى أخيه زيد في اليوم ذاته قال «أشغالنا الى الان ما ابتدأت وهي مشكلة . وسيقوم الحرب السياسي بيننا وبين فرنسة لأنها مظهرة العداوة مع انها أجرت كل الاحترامات بصورة رسمية وأعطتني وسام .... ولكن من المحتمل ايضا اعلان الحرب مع فرنسة ، كونوا على اهبة ... ». وفي رسالة اخرى الى زيد بتاريخ ٣١ كانون الاول وصف فرنسا بأنها «العقبة الكؤود أمامنا ». (١)

مقابل هذا نجد تعليمات الحسين لفيصل تقضي عليه بأن يعمل بما يقوله له ساسة بريطانيا ، وان الحكومة البريطانية هي التي ستوضح له طبيعة مهمته . الى هذا الحد كانت ثقة الحسين ببريطانيا ، فهل قابل الساسة البريطانيون تلك الثقة بما تستحق ؟

من الغريب ان الساسة البريطانيين كانوا يظهرون الكثير من حسن

---

(١) أوراق الأمير زيد .

النية تجاه العرب ، ولكنهم في الوقت ذاته كانوا يشجّعون الصهيونية ويحرصون على تقوية التحالف مع فرنسا ، ويصرّون على توسيع رقعة السيطرة البريطانية في بلاد العرب . فكيف كان اولئك الساسة يأملون ان يوفقوا بين هذه الاتجاهات المتضاربة ؟ الواقع ان السياسة البريطانية اتجهت الى محاولة التقريب بين العرب واليهود ، بقصد تحقيق هدف الانكليز النهائي وهو الحصول على موافقة جميع الاطراف المعنية على ان تخضع فلسطين لحكمهم بدلا من ان تخضع لادارة دولية .

في نطاق العمل على تحقيق هذه الغاية تهلور دور لورنس . لقد أحرز لورنس نجاحاً كبيرا في نيـــل ثقة الامير فيصل — وهذا من أهم الشروط لنجاح ضباط الاستخبارات . والواقع ان المسؤولين البريطانيين عملوا جاهدين لكي يحوز لورنس على ثقة فيصل . فمبلغ نصف المليون جنيه الذي وُضع تحت تصرفه بعد فتح العقبة وأخذ يقدم منه الى فيصل دفعات متتابعة كان بأشد الحاجة اليها ، ساهم في تمتين تلك الثقـــة ؛ وربط فيصل منذ وصوله الى العقبة باللنبي وجعل لورنس همزة الوصل بينهما ، ساهم في تمتين تلك الثقة .[1] ثم ان ظهور لورنس في جميع الظروف بانه الصديق الصدوق للعرب وما قام به من جهود شخصية فائقة اثناء هجوم ايلول الكبير واثناء الأيام الثلاثة الاولى للعرب في دمشق ، ساهم كذلك في تمتين تلك الثقة . وأخيرا جاءت برقيته الى حسين من لندن — فوق رأس جميع المسؤولين الآخرين — يدعوه لحضور مؤتمر السلم . وبرقيته الاخرى الى فيصل في ١٦ تشرين الثاني يطلب اليه ان يعدّ نفسه لقضاء ستة اسابيع في اوروبا — جاءت بمثابة ضربة المعلم الاخيرة لاقناع فيصل ان مفتاح الامور أصبح بيد لورنس صديق العرب .

أضف الى كل هذا ان فيصل لم يكن يعرف الكثير عن اوروبا ،

---

(١) جاء في رسالة من كلايتون إلى جويس بتاريخ ٢٤ تشرين الأول ١٩١٧ ما يلي : « لقد تلقيت من فيصل رسالة أو رسالتين يغلب عليهما طابع الغم والكآبة ، ولكني أدرك عقليته الخاصة ولا أعطي أهمية كبرى لرسائله . ويمكن لك أن تتأكد أني لن أتخذ أي اجراء على رسائله الا اذا كانت مدعومة من قبلك أو من قبل لورنس » .
F.O. 882/7

ولم يكن حينذاك يعرف كلمة واحدة من اللغة الانكليزية [١] كما ان عدداً ممن رافقوه كانوا يجيدون الفرنسية ، ولكن اياً منهم لم يكن يعرف الانكليزية . لذلك عندما حطّ فيصل قدمه على ارض الجزر البريطانية وجد في لورنس المستشار والصديق والترجمان : ووجد فيه همزة الوصل الوحيدة للتعرف على وضع سياسي كان قليل الخبرة به وللاجتماع بأشخاص لم تكن له بهم معرفة سابقة . والتصق لورنس بفيصل خلال هذه الفترة حتى كان لا يكاد يفارقه ويسهّل كل ما يحتاج اليه. [٢]

في هذا الوضع وتحت حكم هذه الظروف تحدد اللقاء بين فيصل ووايزمن . ولا شك ان لورنس – باسم الحكومة البريطانية – هو الذي أقنع فيصل بالاجتماع بوايزمن . فهل يا ترى تلقى لورنس تعليماته من لويد جورج او بلفور ام تبرع بالعمل في هذا السبيل من مجرد قناعة وجدانية ؟ ثم هل كان لورنس في ذلك الحين يعرف انه يخدع فيصل في لعبة ماكرة ، ام كان يعمل بحسن نية معتقداً باخلاص انه يمكن عقد تعاون مثمر بين العرب والصهيونيين ؟ سؤالان ما يزالان دون جواب حتى الان . [٣]

ومهما يكن من امر فاننا نملك الآن وثيقتين تاريخيتين تتضمنان خلاصة ما دار من حديث بين فيصل ووايزمن لدى اجتماعهما يوم ١١ كانون الاول ١٩١٨ ، في فندق كارلتون بلندن حيث كان فيصل يقيم . ان احدى هاتين الوثيقتين تتضمن ما كتبه وايزمن، اما الثانية فتتضمن ما كتبه فيصل . وقد قام لورنس بدور الترجمان بين الرجلين .

---

(١) راجع رسالة عوني عبد الهادي المنشورة في جريدة النهار العدد الصادر بتاريخ ٣١ كانون الثاني ١٩٦٨ ، ص ٤ .

(٢) أحمد قدري ، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ، ص ٩٦ .

(٣) في مقابلة لي مع الاستاذ آرنولد توينبي في لندن يوم ١٥ تشرين الثاني ١٩٦٨ قلت انه يبدو ان لورنس كان ينفذ تعليمات بلفور للتأثير في فيصل. فقال توينبي«لا أعتقد ذلك لان لورنس كان رجلا مستقل الرأي إلى أبعد حد . وفيما أعلم فان لورنس نصح فيصلا بأنه لا يستطيع أن يحارب على جبهتين في وقت واحد : فرنسا والصهيونية ، وان خطر فرنسا ماثل للعيان وهي تريد القضاء على استقلال سورية ، بينما مشاريع الصهيونيين ما تزال في نطاق النظريات،وان الحكمة تقضي عليه الان أن يستعين باليهود لمقاومة فرنسا ، وفيما بعد يكون لكل حادث حديث .» .

نرى مما كتبه وايزمن ان فيصلاً عرض عليه خارطة تظهر فيها تقسيمات اتفاقية سايكس – بيكو (سلّمها لورنس لفيصل يوم وصوله) وعبّر عن سخطه على ترتيباتها قائلا انها تلحق أذى قاتلاً بالعرب واليهود على السواء وانه لا أمل بالتوصل الى تفاهم مع الفرنسيين ، وان وضع العرب الحاضر بالغ الخطورة وانهم سيعادون الى الصحراء اذا ظلت اتفاقية سايكس – بيكو نافذة المفعول . وقال فيصل ان العرب انشأوا حكومة مركزها دمشق ولكنها ضعيفة جداً فلا مال ولا رجال والجيش لا يملك سلاحا ، وان امله كله معلق على امريكا التي تستطيع ان تلغي الاتفاقية . وأجاب وايزمن انه يعرف بأمر الاتفاقية منذ سنة ١٩١٥ وانه احتج عليها أكثر من مرة وان وفداً من الصهيونيين الأمريكيين سيصل قريبا ويستعمل نفوذه لمصلحة اليهود والعرب . وأضاف وايزمن يقول ان الفرنسيين يعملون على القاء بذور الشقاق بين العرب واليهود ، وان برنامج اليهود يتلخص في الحصول من مؤتمر السلم ومن فيصل على اعتراف بحقوق اليهود القومية والتاريخية في فلسطين ، وفي المطالبة بان تكون بريطانيا الدولة المنتدبة على فلسطين ، وان اليهود سيبتاعون الاراضي من الاقطاعيين والافندية وسيقومون في البلاد باصلاحات تجعلها تستوعب اربعة اوخمسة ملايين يهودي ، وان اليهود سيكونون على استعداد لتقديم كل مساعدة لفيصل بعقولهم وأموالهم ، وان مسائل الحدود والاوقاف يمكن تأجيلها الى ما بعد تسوية المسائل السياسية الكبيرة. وردّ فيصل معبراً عن اعتقاده بامكان التعاون بين العرب واليهود وان الاراضي كثيرة ، وقال انه يرجو ان يساعده الصهيونيون في مساعيه ، واذا فشل فانه سيحارب في سبيل ايجاد دولة عربية . (١)

اما رواية فيصل عما دار في الاجتماع فقد تضمنتها الرسالة المطولة التي بعث بها الى ابيه والتي نفهم منها ان الاجتماع تمّ قبل مقابلة فيصل لبلفور . وقد ذكر فيصل ان «صديقنا الكولونيل لورنس» جاءه بنسخة

---

(١) Dr. Weizmann's Interview with Emir Feisal, Dec. 11th., 1918. (Copy obtained from the Sunday Times, London).

من مخطط اتفاقية سايكس – بيكو ، وان الانكليز يريدون تمزيق الاتفاقية ولكنهم لا يريدون ان يعلنوا الحرب على فرنسا اذا أصرّت على التمسك بها ولذلك يريدون ان تدخل امريكا في المسألة وتفصل فيها بصفتها حكما بين الجميع . وأوضح فيصل لابيه ان لفرنسا نفوذاً عظيما في العالم «والكلمة التي تصدر من فم ناظر خارجية الفرنسيين هي أعظم من الف كلمة تصدر منا . ولذلك رأيت من الحكمة ان اتخذ صوتا رنّاناً يسمع صوتنا في العالم وهذا الصوت هو صوت اليهود». وقال فيصل ان لليهود حولاً وطولا في الأندية السياسية والمالية في العالم أجمع وخصوصا امريكا وانكلترا ، وان نفوذهم لا يدانيه نفوذ لدى امريكا وخصوصا ولسون ، وان اثنين من مستشاري ولسون الخمسة من اليهود ، ثم ان فرنسا معادية للعرب واليهود على حين ان بريطانيا صديقة لكليهما .
وقال فيصل ان وايزمن طلب الاجتماع به وانه قال له في مستهل الاجتماع « ان اليهود ليس لهم قصد في الحكم في فلسطين وجلّ مقاصدهم ان يكون لهم ملجأ يلجأون اليه وليس لهم أدنى طمع في تأسيس حكم ما ». وقد أكّد وايزمن لفيصل ان خريطة اتفاقية سايكس بيكو ليست سوى «وريقة لا اهمية لها واننا اي العرب واليهود اذا مشينا جنباً لجنب لا تستطيع اية امة كانت ان تهضم لنا أدنى حق .» وكرّر وايزمن القول «ان اليهود لا قصد لهم بتشكيل حكومة بل انهم يريدون ان لا يمنعوا من التوطن في البلاد ومن تشكيل شركات وفتح طرق وانشاء سكك حديدية .... وان ينظر الى اليهود في فلسطين كوطنيين ويكون لهم حق الدخول في المجالس .... وهم يطلبون من العرب ان يمدوا اليهم يد المعاونة كصديق مخلص ليس له سلاح يقاتل به او يستملك بقوته وانما هو معين للعرب وللوطن بالمال والذكاء والتأثير السياسي الخارجي ، وان لديهم اموالا يمكن للعرب ان يستفيدوا منها في توطيد حكومتهم واعمار بلادهم واصلاحها ». وكان ردّ فيصل «ان هذه ليست برديئة اذا كانت هي الحقيقة ... ان العرب سيقاومون فكرة الاحتلال بكل اقتدارهم وقواهم »واذا لم نجد مساعدة من الانكليز الذين ألقوا بنا في هذا المشكل

او من امريكا ، فسنقاتل فرنسا حتّى نموت عن بكرة ابينا «لاجل ان لا يقال باننا بعنا وطننا رخيصاً ». ثم قال لوايزمن ان العرب سيقبلون مطلوب اليهود اذا لمسوا منهم الاخلاص والنفع ، وان العرب بحاجة الى الاموال «لاصلاح ما فسد في بلادهم ، ويطلبون منكم المعاونة السياسية عند الامم وخصوصا امريكا ». وعندئذ مدّ وايزمن يده وقال لفيصل انه يعاهده باسم اليهود «باننا نموت سواء ونحيا سواء »وقال ان اليهود سيعينون العرب بالمال والرجال والتأثير السياسي . وكان آخر ما قال فيصل لوايزمن «ان وفيت بقولك هذا فاني موفٍ لك بقولي: المملكة العربية لا تتجزأ».[1]

ومن المقارنة بين روايتي فيصل ووايزمن عما دار في ذلك الاجتماع نكتشف اختلافاً عميقاً في وجهات النظر بينهما مما يدل على ان لورنس لم يكن دقيقاً في الترجمة بينهما . لقد ظنّ كل منهما ان الآخر تعرّف على وجهة نظره واقتنع بها ، بينما لم يكن الامر كذلك . ثم اننا نستطيع ان نستخلص الحجج التي عبأ بها لورنس ذهن فيصل لاقناعه بفوائد التعاون مع اليهود : من تهويل بالخطر الفرنسي يقابله تهويل بقدرة اليهود على التأثير في موقف امريكا . ولا بدّ ان يكون لورنس هو الذي أقنع فيصلاً بقوة نفوذ اليهود عند الرئيس ولسون حتّى اعتقد انه « سيكون الحَكَم في هذا الأمر الخطير »وبأن «الامر سينقطع على يده »[2] . وكان لورنس بتمهيد هذا الامر منفذاً لسياسة حكومته سواء عن حسن نية او سوء نية .

واتضح ان عقد المؤتمر سيتأخر فدعي فيصل لزيارة ادنبره وجلاسكو . وبعد عشرة أيام عاد الى لندن. ولم يتح له ان يقابل لويد جورج ولكنه

---

(١) رسالة فيصل في ١٢ كانون الاول ١٩١٨ (وقد كتبت هذه الرسالة بخط رستم حيدر يومي ١١ و ١٢ كانون الاول . ونستدل من هذا ، ومما جاء في مذكرات أحمد قدري (ص ص ٩٧ – ٩٨) ان فيصل لم يتصرف منفرداً في هذه القضية ، بل استشار على الاقل ثلاثة من كبار أعضاء وفده ، هم رستم حيدر وأحمد قدري وعوني عبد الهادي .

(٢) رسالتا فيصل إلى الحسين وزيد في ١٢ كانون الاول ١٩١٨ (أوراق الأمير زيد).

اجتمع بالمستر مونتاجيو وزير الهند [1] . وكان فيصل في هذه الاثناء فريسة القلق بعد ان تأخر وصول ولسون وتأخر تبعا لذلك انعقاد مؤتمر السلم . وكان لورنس خلال هذه الفترة يلازم فيصلاً كظله ولا حديث لهما الا قضية العرب ومستقبلهم . ونتج عن هذا كله ان استولت على ذهن فيصل الفكرة القائلة بان بريطانيا صديقة العرب ، وان فرنسا عدوتهم ، وان امريكا هي التي تستطيع ترجيح كفة العرب ، وان الصهيونيين قادرون على التأثير على امريكا من أجل ترجيح تلك الكفة .[2]
وظل الضغط مستمراً على فيصل من قبل الحكومة البريطانية ، عن طريق الناطق بلسانها : لورنس . وألحّ الصهيونيون ان يعقد الطرفان اتفاقية مكتوبة . ولا بدّ ان حيرة عظيمة تملكت فيصل ، ولكن ثقته بالانكليز وشرف معاملتهم وثقته بلورنس دفعته الى التوقيع على نص انكليزي لاتفاقية صارت تعرف الآن باسم « اتفاقية فيصل — وايزمن ». ونحن نفترض ان يكون لورنس قد ترجم هذه الاتفاقية لفيصل ، ولكننا لا نعرف اي نوع من الترجمـــات كانت ترجمة لورنس . واذا أخذنا ترجمة الشرط الذي اضافه فيصل على الاتفاقية قياسا على مستوى ترجمة لورنس ، لاكتشفنا انها ترجمة غير دقيقة وبالتالي غير صادقة . ولكن

---

(١) نجد في أقوال فيصل التي سجلها الانكليز عن هذه الزيارة ، العبارة التالية التي تحمل معنى المجاملة الديبلوماسية لا أكثر « وفي موضوع فلسطين ، لاحظ فيصل ان العرب مدينون كثيراً لبريطانيا العظمى وسيكون نكراناً للجميل من قبلهم اذا هم أثاروا المصاعب في قضية يعتبرون بريطانيا العظمى أفضل القضاة للنظر فيها ... » —
Interview on 27 Dec. 1918. F.O. 371/4162.

(٢) جاء في رسالة من فيصل إلى الحسين بتاريخ ٢٥ كانون الاول ١٩١٨ بعد عودته من اسكوتلندا : « ... ها أنا في انتظار وصول الرئيس ولسون الذي سيكون هو الحكم في مسألتنا . رأيت انكلترا ورجالها جاهلين تمام الجهل في الأمور التي تتعلق بالشرق . واجهت أكابرهم ولم أزل ، وجميعهم معنا ولكن يقولون ننتظر وصول الرئيس ولسون والأمل عظيم اننا نفوز انشاء الله تعالى . مقاولة مارق سايق وبيقو موقفتهم . الجيش البريطاني ونظارة الحربية معنا تماما وتقول ان تلك المقاولة هي — اذا طبقت — تكون خاتمة لنفوذ انكلترا في الشرق . أشركنا الأعمال مع الصهيونيين وتقريبا تماهدنا وهم باذلين جهدهم مع امريكا والله الموفق . » — (أوراق الأمير زيد).

لا يمكن اعطاء رأي قاطع ما دمنا لم نعثر حتى الان على النص العربي الذي نفترض ان لورنس كتبه لفيصل .

تنص الاتفاقية — في الاصل الانكليزي — على القرابة الجنسية والصلات القديمة بين العرب واليهود، وعلى ضرورة التعاون في سبيل تقدم الدولة العربية وفلسطين وانشـــاء وكالات عربية ويهودية معتمدة في المنطقتين ، وعلى ان يسود التفاهم بين الدولة العربية وفلسطين ، وتقديم الضمانات لتنفيذ تصريح بلفور ، وتشجيع الهجرة اليهودية الى فلسطين ، وحرية ممارسة العقيدة الدينية . (١)

وقد أضاف فيصل الى مواد الاتفاقية الثماني المادة التالية بخط يده :

> اذا نالت العرب استقلالها كما طلبناه بتقريرنا المؤرخ في ٤ كانون ثاني ١٩١٩ المقدم لنظارة خارجية حكومة بريطانيا العظمى فانني موافق على ما ذكر بباطن هذا من المواد ، وان حصل ادنا تغيير أو تبديل فلا أكون ملزوماً ومربوطاً بأي كلمة كانت بل تعد هذه المقاولة كلا شيء ولا حكم لها ولا اعتبار ولا أطالب بأي صورة كانت (٢) .

وجاء توقيع فيصل مباشرة تحت هذه المادة وجاء توقيع وايزمن تحت توقيع فيصل . ومن هنا يجب اعتبار الشرط الذي أضافه فيصل مادة اساسية من صلب الاتفاقية ، لا يصح التحدث عنها او بحثها بمعزل عنه .

---

(١) النص الانكليزي في كتاب G. Antonius, The Arab Awakening, pp. 437-9 والترجمة العربية في : الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين ، المجموعة الاولى ١٩١٥ — ١٩٤٦ ، ص ٢٧٦ .

(٢) فيما يلي الترجمة العربية للترجمة الانكليزية الناقصة والخادعة التي وضعها لورنس لشرط فيصل وأعطاها لوايزمن : « اذا استقر الأمر للعرب كما طلبت في تقريري بتاريخ ٤ كانون الثاني المقدم إلى وزير الخارجية البريطانية ، فانني سأنفذ ما كتب في هذه الاتفاقية . ولكن اذا أجريت تبديلات فلا أكون مسؤولا عن عدم قيامي بما جاء فيها » . ولنلاحظ هنا ان لورنس أسقط كلمة « استقلال » العرب في ترجمته شرط فيصل . ومن الواضح أن فيصل قصد أن تشمل العبارة في مضمونها عرب فلسطين أيضاً .

والتفسير المعقول للتضارب الواقع بين التاريخ المسجل على الاتفاقية وهو ٣ كانون الثاني ١٩١٩ والتقرير الذي ذكر فيصل انه قدمه الى وزارة الخارجية البريطانية بتاريخ ٤ كانون الثاني — هو أن وايزمن ولورنس أعدّا النص بتاريخ ٣ كانون الثاني ١٩١٩ ولكن فيصل — لسبب لا نعرفه — لم يوقعه الا بعد مرور بضعة ايام . اما التقرير الذي أشار اليه فيصل ، فالارجح ان يكون قد عنى به المذكرة المؤرخة في ١ كانون الثاني التي ضمنها مطالب العرب وقدمها فيما بعد لمؤتمر السلم.

اننا لو نظرنا بموضوعية وتجرد الى الوضع الذي كان فيصل يجد فيه نفسه يومذاك ، واذا أخذنا بعين الاعتبار النظرة العامة التي كان العرب في ذلك الحين يرون اليهود من خلالها : اناساً مسالمين ضعفاء قد يجيدون الصيرفة والتجارة ولكنهم لا يعرفون الحرب — فاننا لا نجد في هذه الاتفاقية ذلك الذنب الفظيع وتلك الجناية الكبيرة التي حاولت بعض أجهزة الدعاية الشريرة ان توهم بها العالم العربي . لقد حدث كل هذا عام ١٩١٩ قبل ان يشهد الناس شيئاً مما وقع في فلسطين بعد ذلك . وان الشرط القوي الذي وضعه فيصل كان يدل على بعد نظره وعلى حسبانه للعواقب والاحتمالات وكان دليلا على ان ثقته بالانكليز ولورنس لم تكن ثقة كاملة مئة بالمئة . وربما يكون هناك مجال للوم فيصل لانه وقّع على وثيقة كتبت بلغة لا يعرفها ، أو لانه وضع توقيعه اطلاقاً على الاتفاقية — ولكن علينا في الوقت ذاته ان نفهم جيداً ان فيصلاً كان يريد الاستعانة بكل وسيلة ممكنة للتغلب على العدو الذي كان يريد القضاء على نواة الدولة العربية في دمشق .

ومن المهم القول ان الشرط الذي أضافه فيصل جعل الاتفاقية باطلة عمليا ، لان العرب لم يحققوا مطالبهم التي تضمنتها مذكرة فيصل [1] .

---

(١) «بما ان طلبات فيصل وشروطه لم يجر تنفيذها ، فان اتفاقية فيصل — وايزمن لم يكن لها وجود قانوني أو شرعي على الاطلاق » . — Sir Reader Bullard, Britain and the Middle East, Hutchinson's University Library, London, 1951, p. 83.

وأيضاً : عندما سئل فيصل عن سبب توقيعه الاتفاقية مع وايزمن أجاب «لقد اشترطنا —

ولكن أهم من ذلك ان نضع يدنا على البراهين المتعلقة بما فهمه فيصل من الاتفاقية وما كان يعتقد ان الاتفاقية تضمنته واشتملت عليه . ونجد اول البراهين في رسالة كان لورنس قد كتبها الى آلان داوني في ٢٨ ايلول ١٩١٩ ولم يكشف النقاب عنها الا مؤخراً . وقد شرح لورنس في تلك الرسالة الوضع بين العرب وبريطانيا وفرنسا بعد الاتفاق الذي كان قد عُقد قبل ذلك التاريخ باسبوعين بين بريطانيا وفرنسا (والذي سنعرض له فيما بعد). ففي هذه الرسالة نجد جانباً من الحجج الجدلية التي نعتقد ان لورنس استعملها في كانون الثاني ١٩١٩ لاقناع فيصل :

.... الاعانة المالية سوف تقسم مناصفة في الوقت الراهن . وسيكون الفرنسيون على أحسن ما يمكن من السلوك لمدة شهور وسيعطون فيصلا المال بلا شروط . وبعد ذلك سوف يحاولون الضغط عليه . وعندئذ سيقول انه لا يريد أموالهم لان الصهيونيين سيكونون حينذاك قد أنشأوا مركزاً لهم في القدس . ومقابل بعض الامتيازات سوف يمولون فيصلا (هذا كله مكتوب ومرتب ، ولكن اسألك بحق الله والفرنسيين أن لا تنقل هذا للصحافة) . الصهيونيون ليسوا حكومة وليسوا بريطانيين ، وعملهم لا ينقض اتفاقية سايكس بيكو . انهم ايضا ساميون وفلسطينيون ، والحكومة العربية ليست خائفة منهم (انها تستطيع عندما تشاء أن تقطع رقابهم جميعا أو أن تخلع جميع أسنانهم وهذا هو الافضل) . انهم سوف يمولون الشرق كله ، وكنا آمل سورية والعراق على السواء . اليهود الكبار لا يرغبون أن يضعوا الكثير من المال في فلسطين وحدها لان تلك البلاد لا تمنحهم شيئا بالمقابل سوى عودة عاطفية . انهم يريدون فائدة ٦ ٪ .

ولم ينس لورنس ايضاح وجهة النظر البريطانية بالقول ان اتساع الامبراطورية البريطانية يقتضي ايجاد «مستأجرين» لبعض المناطق المكتسبة حديثا «لذلك نحن بحاجة الى تعاون الصهيونية والعرب».[1]

وبالاضافة الى ما تقدم نجد هناك دليلا آخر على الوضع الحرج الذي

= لتأييدهم انشاء مملكة عربية ، فاذا أنشئت فلا يهمنا شيء » . (امين سعيد : الثورة العربية الكبرى ، المجلد ٣ ، القاهرة ، ١٩٣٤ ص ٤٦) .

(١) عن كتاب : T.E. Lawrence to Alan Dawnay,
P. Knightly & C. Simpson, The Secret Lives of Lawrence of Arabia, Nelson, London, 1969, pp. 119-120.

كان فيصل يجد فيه نفسه . فقد جاء في رسالة بعث بها أحد اعوان وايزمن من لندن الى نورمان بنتويتش بتاريخ ٥ كانون الثاني ١٩١٩ قوله «من الغريب اننا وفيصل على وئام ... ان الفرنسيين الذين يعافهم يمسكون بخناقه . وهو لا يستطيع ان يدرك مقاصد البريطانيين ويرى اننا نكاد نكون أصدقاءه الوحيدين.»[١]

وعندما وصلت نسخة للاتفاقية يوم ١٦ كانون الثاني ١٩١٩ الى الوفد البريطاني لدى مؤتمر السلم (ووصلت معها ايضا نسخة من مذكرة فيصل الى مؤتمر السلم) علّق عليها آرنولد توينبي بقوله ان لورنس أخبره «انه في المسودة الاولى للوثيقة الحالية ، استعمل وايزمن عبارتي «الدولة اليهودية» و«الحكومة اليهودية» ، وان الامير فيصل أبدل العبارتين بـ«فلسطين» و«حكومة فلسطين»[٢].اما اورمسبي غور فقد وصف الاتفاقية بانها «وثيقة مهمة جدا ». ولكنه قال انه يبدو له ان المادة الخامسة «تناقض ادعاء المنظمة الصهيونية بان حكومة فلسطين يجب ان تكون يهودية .»[٣]

إن أدلة عديدة تتوافر لدينا الان على ان الجهات المختصة في الحكومة البريطانية كانت تبذل كل ما في وسعها من جهد سياسي لتقريب وجهات النظر بين العرب والصهيونيين ، ولتحقيق عقد اتفاق مباشر بينهما . وكانت رغبة الحكومة البريطانية ناشئة عن أسباب كثيرة أهمها التحلل من التزاماتها للعرب . فقد كان الاعتقاد عند الحكومة البريطانية بان فلسطين جزء من المنطقة التي تعهدت باستقلال العرب فيها ، وهو اعتقاد لم يظهر علناً ما يناقضه طوال سنوات الحرب وحتى نهاية ١٩٢٠ . ومن جملة الأدلّة القاطعة التي تؤكد وجهة النظر هذه ما سجله السير لويس مالت[٤]

---

(١) Quoted by J. Nevakivi, Britain, France & the Arab M.E., 1914-1920, The Athlone Press, London, 1969, p. 112, f.n.

(٢) Minute dated 17 Jan. 1919. P.R.O., F.O. 608/98.

(٣) Observations dated 21 Jan. 1919, Ibid.

(٤) كان السير لويس مالت آخر سفير بريطاني في استانبول قبل نشوب الحرب ، وفي عام ١٩١٩ كان يشغل وظيفة رئيس قسم الشرق الادنى في الوفد البريطاني لدى مؤتمر السلم .

بخط يده يوم ٣٠ كانون الثاني ١٩١٩ في مذكرة كتبها عن حديث دار بينه وبين المستر هربرت صموئيل . فقد زاره هذا الأخير قائلاً انه عمل على تعديل مطالب الصهيونيين في المذكرة التي قدموها الى مؤتمر السلم بحيث صارت أكثر اعتدالا وأقل غلواً . ورد مالت قائلا ان المستر بلفور يرغب ان يوضح انه لا يستطيع ان يكون مسؤولاً بأية صورة كانت عن هذه القضية . وقال مالت لصموئيل ان من الحكمة ان يعتدل الصهيونيون في مطالبهم ، ومن الافضل ان يحذفوا الاشارة الى «الكومنولث اليهودية » كيلا يضيفوا عداء جهات اخرى الى عداء العرب لهم . ثم مضى مالت الى القول باسلوب من يؤكد حقيقة واقعة :

لقد التزمت الحكومة البريطانية ضمناً باستقلال جميع الاقطار العربية ، فيما عدا تلك المناطق التي ذكرها السير هنري مكماهون ، والتي لم تكن فلسطين واحدة منها . إن على الصهيونيين أن يعملوا على ترتيب الأمور مع فيصل . (١)

وبعبارة اوضح فان مالت عنى بهذا القول : ان فلسطين هي من جملة الاقطار العربية التي التزمت بريطانيا باستقلالها ، وان على الصهيونيين ان يتوصلوا الى اتفاق مع فيصل والعرب بشان مطامعهم في فلسطين .

ومرّت مذكرة مالت بين يدي المستر بلفور فوقّع عليها بالحروف الاولى من اسمه ، وكذلك فعل اللورد هاردنج ، دون ان يبديا اية تعليقات . وفي هذا دليل واضح على موافقتهما التامة على ما جاء فيها .

من هنا نفهم ملاحقة الصهيونيين لفيصل وهو في باريس وتلويحهم المستمر له بنفوذهم ومقدرتهم على مساعدة العرب تجاه الفرنسيين . وزاد الحاح الصهيونيين بعد ان نشرت الصحف الفرنسية تصريحات على لسان فيصل أثارت قلق الصهيونيين . ففي ١٢ شباط ١٩١٩ نشرت جريدة «الانفورماسيون »تصريحا لفيصل كرّر فيه ذكر فلسطين ثلاث مرات مع بقية الأقطار العربية التي قال ان مهمته تقضي بان يكفل «استقلالاً تاماً لها ». وفي ١ آذار نشرت جريدة «الماتان »حديثا أجرته

(١) F.O. 608/98.

مع فيصل وجاء فيه قوله «... يسرّنا بحكم الانسانية والمروءة ان نرى اليهود التاعسين يهاجرون الى فلسطين فيقيمون فيها على الرحب عاملين بمقتضى الواجبات الوطنية على شرط ان يكونوا تحت سلطة اسلامية او تحت سلطة نصرانية تتلقى وكالتها من قبل عصبة الامم». [1] وقد اعتبر الصهيونيون أقوال فيصل «صريحة العداء» لهم، وقيل انهم سارعوا للاتصال بلورنس، فقام بترتيب اجتماع بين فرانكفورتر الصهيوني الامريكي وفيصل. وفي هذا الاجتماع تم الاتفاق ان يتبادل فيصل وفرانكفورتر رسالتين تتضمنان فحوى ما دار بينهما من حديث. بعد ذلك مضى فرانكفورتر ولورنس فكتب الاول الرسالة التي سيوجهها باسمه الى فيصل وكتب لورنس الجواب الذي سيوجهه فيصل. وقيل ان فرانكفورتر تلقى بعد ذلك الرسالة التي كتبها لورنس وعليها توقيع فيصـــل (وهي بتاريـــخ ٣ آذار ١٩١٩) [2]. وقد تضمنت الرسالة القول ان الوفد الحجازي يعتبر ان المقترحات التي قدمتها اللجنة الصهيونية الى مؤتمر السلم «معتدلة وملائمة» وانه «يوجد مكان في سورية لكلينا». وجاء في ختام الرسالة القول «انني اتطلع ويتطلع شعبي معي الى مستقبل نساعدكم فيه وتساعدوننا حتى يمكن للبلاد التي تهتم بها اهتماما مشتركا ان تأخذ مكانها مرة اخرى بين امم العالم المتمدينة.» [3]

وقد فوجيء العرب في فلسطين عام ١٩٢٩ عندما أبرز الصهيونيون امام لجنة شو نسخة من هذه الرسالة. ويقول عوني عبد الهادي، الذي

---

(١) المقتطف، العدد ١٢٧٨٦ — عن جريدة الكوكب، القاهرة، العدد ١٣٧ بتاريخ ٨ نيسان ١٩١٩. (اوراق أكرم زعيتر)

(٢) C. Weizmann, Trial & Error, p. 306. See also : Frankfurter to Weisgal, letter dated 3 Dec. 1929.

ويقول فرانكفورتر ان رسالة فيصل أرسلت برقيا إلى نيويورك فنشرتها جريدة النيويورك تايمس يوم ٥ آذار ١٩١٩ (الصفحة ٩، العمود ١). أما مايتر تزهاجن فيقول انه اشترك مع فيصل ولورنس ووايزمن وفرانكفورتر في وضع نص الرسالة اياها (Middle East Diary, p. 10).

(٣) Text of letter : F.O. 608/98 and also : C. Weizmann, Trial & Error, pp. 307-8.

كان يرافق فيصل في باريس عام ١٩١٩ ، انه لدى اطلاعه على ادعاء الصهيونيين اتضح له ان الرسالة مزورة ولكنه مع ذلك أبرق الى فيصل ملك العراق يومذاك مستوضحا ، فأجابه رئيس الديوان رستم حيدر قائلا «جلالته لا يذكر انه كتب شيئا مثل هذا بعلم منه». واذا كان فيصل قد وقّع هذه الرسالة بالفعل ، فاننا لا نعلم الحجج التي ساقها لورنس لاقناعه بتوقيعها . قد يكون سرّ ذلك قد دفن مع لورنس الى الابد .

ومما يدل على ان فيصل لم يوافق الصهيونيين على مطالبهم ، انه في اتصالاته وأقواله للجهات الاجنبية الاخرى لم يعترف قط بمدعيات الصهيونيين . ففي ٣ تموز ١٩١٩ قال لاعضاء لجنة التحقيق الاميركية انه لا يمكن القبول بفصل سورية عن فلسطين لانهما قطر واحد يقيم فيهما شعب واحد . وقال انه كان قبل بضعة اشهر مستعداً ان يقبل عدداً محدوداً من المهاجرين اليهود وتوسيع المستعمرات اليهودية الموجودة حينذاك ، ولكن مطامع الصهيونيين الواسعة أدخلت الفزع في قلوب الناس وهو يجدهم الان عازمين على عدم قبولها باية صورة .[(١)]

وفي أول مرة عرف فيها فيصل ان الحكومة البريطانية فهمت مضمون اتصالات الصهيونيين به ، على انه قبول بمطالبهم ، بادر الى توكيد وجهة نظره بصورة قاطعة جازمة . فقد تضمّنت الرسالة التي بعثت بها الحكومة البريطانية الى فيصل تنبئه بقرارات مؤتمر سان ريمو ، الفقرة التالية :

أما بشأن فلسطين ، فانك كنت تعرف دائما ان حكومة جلالته ملتزمة بانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ، وقد وافقتم على هذا القصد . ان حكومة جلالته تعتبر نفسها ملزمة بحماية مصالح السكان المحليين في البلاد بكل ما في الكلمة من معنى ، وهذا الالتزام ستؤكده بنود الانتداب . » (٢).

---

(١) French to Curzon, tel. no. 378 of 10 July 1919 : B.D. IV, p. 312

(٢) Tel. dated 27 Apr. 1920, Document No. 244, B.D., Vol. XIII, p. 252. وقد بعث اللنبي في ١٢ ايار ١٩٢٠ بنسخة من هذه الرسالة إلى الملك حسين وتجد جواب الملك المؤرخ في ٢٥ ايار في الملف F.O. 882/22

وقد تضمن جواب فيصل الفقرة التالية: «... ان فلسطين لا يمكن فصلها عن سورية بحال من الاحوال ، من النواحي الجغرافية والعرقية ومن نواحي التقاليد والاقتصاد واللغة والطموح القومي .. » . وبعد أن أوضح أن فلسطين داخلة في المناطق التي تعهدت بريطانيا بالاعتراف باستقلالها ، مضى يقول :

وفيما يتعلق بمسألة رضاي عن انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ، فانني اعتقد ان هناك شيئا من سوء الفهم . ان كل ما وافقت عليه هو ان احمي حقوق اليهود المقيمين في تلك البلاد بمستوى المحافظة على حقوق السكان العرب الوطنيين ، وان أمنحهم الحقوق والامتيازات ذاتها » . (١)

ولا نعلم حتى الان ان الحكومة البريطانية ردت على رسالة فيصل هذه ، او نازعته صحة ما جاء فيها . (٢)

ونستطيع ان نضيف الى كل ما تقدم ما جاء في المقابلة التي أجرتها جريدة الجويش كرونيكل اللندنية مع فيصل ونشرتها يوم ٣ تشرين الاول ١٩١٩ . ففي هذه المقابلة — وفي جميع المناسبات الاخرى التي عبّر فيها فيصل عن وجهة نظره مباشرة ودون وجود وسيط — أبدى فيصل آراء تناقض تماماً الفكرة التي حاول الصهيونيون غرسها في الاذهان من انه وافق على مشاريعهم في فلسطين . فقد جاء في تلك المقابلة ان فيصلا ضحك عندما قال له مندوب الجريدة ان هناك أشخاصاً يرون اطلاق اسم «ارض اسرائيل» على فلسطين ، ثم قال «ولكن اطلاق اسم ما لا

---

(١) Letter dated 13 May 1920, Document No. 248, B.D., Vol. XIII, p. 258.

(٢) نشرت جريدة « الجروسليم بوست » بتاريخ ١٦ كانون الاول ١٩٦٤ صورة فوتوغرافية لرسالة قالت انها الرسالة الأصلية التي بعث بها فيصل إلى فرانكفورتر وانها بخط يد لورنس . وهذه الصورة تحمل تاريخ ١ آذار الذي يوافق التاريخ المثبت على النص الموجود في الملف F.O. 608/98 بينما أورد وايزمن وفرانكفورتر تاريخ الرسالة في ٣ آذار . وهذا يعزز حجة القائلين بأن الرسالة مزورة ، خاصة اذا لاحظنا وجود فروقات في نص الرسالة عند وايزمن من جهة ، وفي ملف وزارة الخارجية البريطانية المذكورة أعلاه من جهة ثانية .

يغير الشيء ذاته ، ولا يمكن ان نطلق اسم ارض اسرائيل على فلسطين لانها ليست «ارض اسرائيل» بأي حال من الاحوال. ان عدد اليهود لا يتجاوز ١٠٪ بالنسبة للعرب ، ولذلك يكون من المعقول أكثر ان نسمي فلسلطين ارض العرب وندعو سكانها «عرباً» . وقد أوضح فيصل لمندوب الجريدة ان فلسطين بلد عربي منذ أقدم العصور «ان كل شيء فيها جزء لا يتجزأ من حياة العرب. وأكثر من هذا كله ففلسطين جزء لا يتجزأ من سورية ويجب ان تبقى كذلك». وقال ان غاية العرب ان ينشئوا امبراطورية عربية تضم العراق وسورية وفلسطين «ولا يوجد عربي واحد في العالم كله يرضى عن اي انتقاص لمطالبنا هذه التي هي الحد الادنى لما نريد». وقال فيصل انه اجتمع مؤخرا بالدكتور وايزمن وان وايزمن عرض عليه مقترحات وجدها «معقولة جداً وعملية» ذلك ان تلك المقترحات لا تعني سيادة اليهود في فلسطين «ونحن العرب لا نستطيع ان نتخلى عن ان تكون فلسطين جزءاً من مملكتنا وسنحارب حتى الخندق الاخير ضد أي مشروع يرمي الى فصل فلسطين عن المملكة ومن أجل سيادة العرب في تلك الارض». وقال الامير انه لا يعتقد ان عدد الذين سيهاجرون من اليهود الى فلسطين يمكن ان يزيد على ١٠٠٠ او ١٥٠٠ شخص في السنة ولذلك لا يمكن ان يصبحوا أكثرية . وقال ان اليهود يستطيعون ان يتمتعوا في فلسطين بحقوق وامتيازات متساوية مع العرب ولكن «فلسطين ارض عربية ويجب ان تبقى في صلب الدولة العربية الجديدة»[1] .

وثارت ثائرة الصهيونيين على تصريحات فيصل التي نشرت جريدة التايمس مقتطفات منها يوم ٤ تشرين الاول . وجاء هربرت صموئيل الى وزارة الخارجية يوم ٧ تشرين الاول وقابل مستر كدستون أحد كبار الموظفين فيها وسلمه نسخة من تصريحات فيصل في الجويش كرونكل ونسخة من رسالة فيصل الى فرانكفورتر . وقال صموئيل ان

(١) The Jewish Chronicle, 3 Oct. 1919, pp. 14-15.

تصريحـــات فيصل تناقض ما جـــاء في رســـالته الى فرانكفورتر وتأكيدات فيصل الودية لوايزمن وله مؤخراً . واستعمل صموئيل اسلوب التحريض بقوله ان ما قاله فيصل عن العراق يجب ان يثير اهتمام الحكومة البريطانية ، التي يُستحسن ان تضع حداً لادعاءاته . وعلّق المستر تيللي على ملحوظات كدستون وأقوال صموئيل بقوله ان تصريحات فيصل «لا تتعارض بالتأكيد مع رسالة فيصل الى فرانكفورتر ... ولكنها تتعارض مع المعنى الذي يفترض الصهيونيون ان الرسالة الى فرانكفورتر تنطوي عليه ». وأخيرا جاء تعليق اللورد كرزون الذي نورده كله لأهميته :

> ان المقابلة مع فيصل تمثل آراءه ومطامحه الحقيقية . أما الرسالة فتمثل الاسلوب الذي يلون فيه هذه الآراء ويطابقها بقصد ارضاء مراسل جريدة صهيوني . ان فيصلا لا يرغب في أن يخاصم الصهيونيين في فلسطين لأنه يظن أنهم سيكونون مفيدين له في سورية وفي تحقيق حلمه بانشاء دولة عربية كبيرة . ولكنه لا يريد لهم ان يمتصوا فلسطين ويحولوها إلى نظام حكم يهودي. انني بالتأكيد لا أنوي المشاركة في هذه اللعبة التي يتابع كل واحد فيها – تحت قناع التظاهر بالود – هدفاً مستقلا وأنانياً محضاً .

وبالنتيجة كتب كدستون رسالة الى صموئيل في ١٣ تشرين الاول ١٩١٩ قال فيها انه عرض الاوراق على لورد كرزون ، وان اللورد يدرك أهميـــة الموضوع ويرى انـــه من المؤسف ان نشر التصريـــح قد سُمح به . وردّ صموئيل في ٢٦ / ١٠ / ١٩١٩ انه اجتمع بفيصل وان من المتوقع ان ينشر الامير تصريحاً يهدىء فيه المخاوف التي اثارتها المقابلة [١] . ولكن فيصلاً لم ينشر تصريحاً يناقض ما نشرته الجويش كرونيكل كما كان يتوقع صموئيل .

ومما هو جدير بالاهتمام ان صموئيل في مذكراته لم يشر الى اتفاقية فيصل – وايزمن بل أشار الى رسالة فيصل الى فرانكفورتر (وهي الرسالة

---

(١) Notes in hand writing by Kideston and Tilly on 7 Oct. 1919, and note by Curzon on 9 Oct. 1919 — P.R.O., F.O. 371/4183.

التي يُشك في صحتها). وقد بقيت اتفاقية فيصل – وايزمن طي الكتمان ولم ينشر الصهيونيون عنها شيئاً للرأي العام الا سنة ١٩٣٦ اي بعد وفاة فيصل ولورنس ، عندما بادر الطرف الثالث – وايزمن – فنشر فحواها في جريدة التايمس ونشر معها ترجمة لورنس لشرط فيصل (١) . فلماذا أجّل الصهيونيون النشر الى ان أصبح من المستحيل على فيصل ولورنس أن يقولا شيئاً في الموضوع ؟ انه سؤال ما يزال حتى الآن دون جواب .

وكلمة أخيرة يقتضيها الانصاف : ترى أكان لورنس مخدوعاً بأهداف الصهيونيين الحقيقية ، كما خُدع قبله مارك سايكس وآخرون ؟ من يعلم !

مداولات اللجنة الشرقية : برزت أهمية مداولات اللجنة الشرقية بعد انتهاء الحرب مباشرة ، عندما أخذت تبحث عن تسوية ملائمة للقضايا المعقدة العديدة المتعلقة ببلاد العرب ، وعن أفضل الأساليب التي يجدر بالحكومة البريطانية اتباعها من أجل(١) حفظ المصالح البريطانية (٢)التوصل مع فرنسا الى حل ملائم للوضع الناشيء عن اتفاقية سايكس – بيكو(٣) التوصل مع العرب الى تسوية ضمن نطاق المصالح البريطانية والوجود الفرنسي في المنطقة . وكان على اللجنة خلال مداولاتها هذه ان تأخذ بعين الاعتبار موقف الولايات الاميركية المتحدة ، وموقف ايطاليا التي كانت طرفاً في الترتيب القائم على وضع فلسطين تحت ادارة دولية ، والمنظمة الصهيونية التي أدخلتها بريطانيا طرفاً اضافيا في فلسطين.

وقد شهد الاجتماع الذي عقدته اللجنة يوم ٢٩ تشرين الاول ١٩١٨ بداية غياب أحد كواكبها اللامعة السير مارك سايكس وبداية طلوع كوكب جديد هو الكولونيل لورنس . كان اللورد كرزون حانقاً كل الحنق على سايكس بسبب الدور الذي لعبه في عقد اتفاقية سايكس – بيكو ، لذلك بدأت اسهمه في الهبوط حتى طلب ان يذهب الى سورية

---

(١) The Times, 10 June 1936.

وفلسطين لمراقبة الوضع عن كثب [1] . اما لورنس فكان قد وصل الى لندن بعد ان قضى ما يقارب اربع سنوات في الشرق ، أحرز خلالها شهرة طيبة منذ انضمامه الى قوات الثورة العربية ، وطُلب اليه حضور اجتماع اللجنة لتقديم آرائه . وبعد ان رحّب به كرزون قائلا «انه وكل عضو في حكومة جلالته كانوا منذ مدة يراقبون باهتمام واعجاب العمل العظيم الذي كان الكولونيل لورنس يقوم به في بلاد العرب »طلب اليه إعطاء رأيه في وجهات نظر الزعماء العرب حول تسوية قضايا المناطق المحتلة .

وبدأ لورنس بالقول ان فيصلاً تعاون تعاوناً وثيقاً في الحرب مع الجنرال اللنبي ، ووصفه بانه « امين ومستقيم وذو مقدرة كبيرة »، وانه ميال للبريطانيين ، وقد فهم من الفرنسيين انهم يرغبون في انشاء مستعمرة كبيرة لهم في الشرق ، وان فيصلاً والعرب يعتمدون على التصريح الذي أعطي للسوريين السبعة . ثم قدم اقتراحاً بانشاء ثلاث دول عربية : واحدة في ولايتي بغداد والبصرة برئاسة الامير عبدالله ، واخرى في الموصل ودير الزور والمناطق المحيطة بها (الجزيرة) برئاسة الامير زيد ، ودولة ثالثة في سورية برئاسة فيصل . وقال ان سكان الموصل لن يقبلوا حكم فرنسا وانه — لورنس — تقابل مع بيكو في روما وفهم منه ان الفرنسيين يعتزمون فرض مستشارين منهم على فيصل ، بينما يرى فيصل انه حرّ في اختيار المستشارين الذين يرغب فيهم . وقد طلب كرزون من لورنس ان يقدم للجنة مذكرة عن النقاط التي تطرّق اليها [2] . وبعد يومين كتب هوجارث الى كلايتون يقول ان لورنس «يحاول ان يحصل على القبول بمبدأ دعوة العرب والصهيونيين الى اية محادثات تجري حول

(١) جاء في رسالة خاصة بتاريخ ١ تشرين الثاني ١٩١٨ بعث بها هوجارث من لندن إلى كلايتون « لا تأخذ مارك حسب تثمينه لنفسه . أسهمه لا تجد من يشتريها هنا وقد أرسل إلى الخارج (بناء على طلبه) لابعاده ». Hogarth Papers, St. Antony's, Oxford.

(٢) Minutes of a Meeting of the Eastern Committee held on 29 Oct. 1918 — P.R.O., CAB. 27/24.

قضايا اتفاقية سايكس — بيكو ...» [1] . فهل كان لورنس يعتقد حقاً ان العرب يمكن ان يتخلصوا من فرنسا عن طريق التعاون مع الصهيونيين؟ ام انه كان يتعاطف مع المطامح الصهيونية تعاطفاً مجرّداً ؟

وكان مدير المخابرات العسكرية قد قدم الى اللجنة الشرقية يوم ٢٨ تشرين الاول ١٩١٨ مذكرة قال فيها ان موقف فرنسا هو العائق الرئيسي امام التوصل الى حلٍ مرض لمشاكل سورية . وعدّد الاسباب التي تجعل اتفاقية سايكس — بيكو غير مقبولة فقال انها تتمثل في : الثورة العربية ، وفتح فلسطين وسورية على يد جيش بريطاني ، وانشاء الادارة العربية في دمشق ، واعتراف الحكومة البريطانية بالصهيونية ، والثورة الروسية ومذابح الارمن وفتح البريطانيين للعراق ومبدأ تقرير المصير ، ودخول الولايات المتحدة في الحرب . وقال ان أفضل وسيلة لالغاء تلك الاتفاقية هي تدخل الرئيس ولسون لتعارض بنودها مع مبادئه . ثم اقترح حصر المنطقة الفرنسية في جبل لبنان بين طرابلس شمالا والليطاني جنوبا واعطاء فرنسا المنطقة المحيطة باسكندرونة ثم انشاء دولتين عربيتين : الاولى في منطقة الجزيرة بين انهر الفرات ودجلة والخابور تحت حكم الامير زيد على ان تخضع للنفوذ البريطاني ، والثانية في العراق من الموصل حتى الخليج تحت حكم الامير عبدالله ، على ان تخضع للحكم البريطاني المباشر . وقال أن اقتراحه يؤدي الى اعطاء شقة ساحلية كبيرة لدولة فيصل السورية التي يجب ربطها ببريطانيا بروابط وثيقة . [2] ومما هو جدير بالملاحظة ان هذه المذكرة مؤرخة في اليوم الذي سبق حضور لورنس لاول مرة اجتماع اللجنة الشرقية ، ذلك الاجتماع الذي عرض فيه آراء تكاد تكون مماثلة .

اما مذكرة لورنس فقد قدمت في ٤ تشرين الثاني . وفي هذه المذكرة

---

(١) رسالة هوجارث في ١ تشرين الثاني ١٩١٨ التي سبقت الاشارة اليها (Hogarth Papers, Oxford.

(٢) Note on 'Policy in the Middle East' by Major-General Sir G.M.W. Macdonogh, Director of Military Intelligence, (E.C. 2133) — P.R.O., CAB. 27/24

أشار لورنس الى مراسلات مكماهون مع الشريف وقال ان مكماهون لم يُبلّغ آنذاك باتفاقية سايكس – بيكو ، وان الشريف كان يتكلم باسم جميع الناطقين بالعربية في الدولة العثمانية وهو لا يعلم اننا نريده زعيماً اسميا لا غير . ثم أشار لورنس الى تعاون فيصل مع العراقيين والسوريين الذين قاموا بأعباء القتال بعد احتلال العقبة ، حتى ان القوة العربية التي دخلت دمشق اولا لم يكن فيها سوى ثمانية حجازيين . وقال ان تحالف العرب مع بريطانيا اتاح لأللنبي أن يدفع خيّالته من يافا الى حلب دون أخذ الاحتياطات المعتادة ، وان اللنبي بدوره قدم للعرب مساعدات مكنتهم من احراز نجاح سريع . وذكر لورنس عظم تضحية الشريف باعلانه الثورة على الخليفة ، وكيف رفض هو وابناؤه عروض الصلح المتكررة من قبل الاتراك: «سيادة ذاتية في شبه الجزيرة العربية ثم استقلال شبه الجزيرة وسيادة ذاتية في سورية ، ثم الخلافة مع استقلال شبه الجزيرة وسيادة ذاتية في جميع المقاطعات العربية ... وهذا يمكن ان يعطي امثولة للدولة التي أقنعته بالثورة والتي كانت على استعداد في الوقت ذاته ان تلقي به الى الاتراك ، هو والشعب الذي ثار من أجله ، بموجب شروط أسوأ بكثير من هذه الشروط ». [1] ثم قال لورنس ان العرب في سورية يطلبون حقوقا في خليج الاسكندرونة مثل اية دولة اخرى ، كما يطلبون الساحل الممتد من اسكندرونة الى طرابلس وميناء طرابلس وخط السكة الحديد من هناك الى حمص ، ويطلبون البقاع من حمص الى بحيرة الحولة وكل المناطق الواقعة شرقي هذا الخط وشرقي نهر الاردن . ويريد فيصل ان يكون السيد في بلاده ، وان تكون له حرية اختيار المستشارين الأجانب من اية جنسية ، وان يخضع اولئك المستشارون للحكومة العربية وليس لحكومات بلادهم . وقال لورنس ان العرب يريدون بقاء الانكليز في فلسطين ، ولن يوافقوا على استقلال اليهود ولكنهم سيعاضدون تغلغل اليهود ما دامت البلاد خاضعة للحكم

---

(١) يشير لورنس هنا إلى المفاوضات التي أجرتها الحكومة البريطانية مع الأتراك بشأن عقد الصلح .

البريطاني . اما اذا أريد وضع فلسطين تحت ادارة دولية فان فيصل سيطالب بمبدأ تقرير المصير . ثم أوصى بفصل العراق (البصرة وبغداد) عن الموصل والجزيرة ، وطالب بان يستشار العرب في أمر تقرير مصير المناطق العربية التي افتتحوها كيلا تكون هناك اتفاقية اخرى تشبه اتفاقية سايكس – بيكو بكل ما فيها من عبث جغرافي . [١]

وقدم هوجارث مذكرة أوصى فيها بعقد معاهدة مع الشريف حسين على مثال المعاهدات المعقودة مع زعماء الخليج ، وبأن لا يسمح له بتوسيع سلطته الفعلية الى اية منطقة عربية اخرى . وأوصت المذكرة بابقاء شبه الجزيرة على وضعها الراهن وبفصل العراق الشمالي عن ولايتي بغداد والبصرة . اما بشأن سورية فقد اقترح ان يقترن افتتاح مؤتمر السلم باعلان الغاء جميع الاتفاقات التي عقدها الحلفاء اثناء الحرب وان يشارك العرب كحلفاء في المحادثات المتعلقة ببلادهم وان تعطى الدولة السورية ميناء طرابلس وان تعامل سورية كوحدة واحدة بمعزل عن العراق والحجاز . ولم يبد هوجارث رأياً بشأن فلسطين . [٢]

وفي الاجتماع الذي عقدته اللجنة الشرقية يوم ٢١ تشرين الثاني قال كرزون ان وزارة الخارجية ترى الاعتراف للحسين بلقب «ملك العرب» وذلك بمناسبة تمثيل العرب في مؤتمر الصلح [٣] . ولكن وزارة الهند تعارض ذلك بناء على نصيحة ضباطها السياسيين في العراق وبالنسبة لموقف زعماء العرب الآخرين الذين يدورون في فلك وزارة الهند. وقيل في ذلك الاجتماع ان الملك حسين ردّ رسائل وبرقيات وُجّهت اليه باسم ملك الحجاز دون ان يفتحها ، ولم يسمح باستعمال ذلك اللقب . وقال لورنس ان سكان سورية والحجاز والصحراء السورية وجبل شمّر

---

(١) 'Reconstruction of Arabia', (E.C. 2207), CAB. 27/36

(٢) Memo. on Certain Conditions of Settlement of Western Asia, 15 Nov. 1918, (E.C. 2302) — CAB. 27/36.

(٣) Note submitted by India Office to Eastern Committee on 14 Nov. 'King Husein's Title', (E.C. 2370). CAB. 27/36.

يعرفون الحسين باسم ملك البلاد العربية ، وان الاعتراف بهذا اللقب قد يساعدنا في مؤتمر الصلح ، وان فيصلاً يجيء الى مؤتمر السلم بصفته ابن ابيه الذي هو رئيس الجمعيات الثورية العربية ومن جملتها جمعيات العراق . وقال انه يود ان ينبيء فيصلاً عندما يلتقي به في مرسيليا ان هناك اقتراحا بتنصيب امير من الاشراف على العراق في المستقبل . وقال روبرت سيسل ان موقفنا سيكون حرجا مع الامريكيين ومن المهم جدا ان يتفق ما يقوله فيصل مع ما نقوله نحن . ومما قاله لورنس «انه لن تكون هناك صعوبة في التوفيق بين الصهيونيين والعرب في فلسطين وسورية ، شريطة ان تبقى ادارة فلسطين في أيدٍ بريطانية .»[1]

وتركز بحث اللجنة الشرقية يوم ٢٧ تشرين الثاني على مستقبل العراق ، فاستعرض اللورد كرزون مراسلات الحسين – مكماهون فيما يتعلق بالعراق ، وأبدى سخطه على اتفاقية سايكس – بيكو قائلا انها اتفاقية «منكودة كانت منذ عقدها معلّقة في أعناقنا كحجر الرحى ». وأشار كرزون الى تمسك فرنسا الشديد بالاتفاقية والى انه يعتبر الآراء التي قدمها لورنس ممثلة لوجهة النظر العربية المتطرفة ، وان لورنس قال ما كان يمكن ان يقوله فيصل لو حضر في الاجتماع الذي قدم فيه لورنس مذكرته . اما رأي وزارة الهند ومعها الكولونيل آرنولد ولسون فقد تطور من القول بجعل العراق محمية بريطانية الى القول بانشاء «ادارة بريطانية وراء واجهة محلية ». وقد بحثت اللجنة ترشيح الامير عبدالله أو نقيب بغداد أو هادي العمري لعرش العراق . واتفقت الآراء على الحصول على تأييد العرب في مؤتمر الصلح لاقناع الامريكيين خصوصا بان أهل البلاد يرغبون في حكم الانكليز .

ومما قاله الجنرال سمطس ان الامريكيين «هم الناس الوحيدون الذين يستطيعون تخليصنا من اتفاقية سايكس – بيكو ... وأفضل طريقة للوصول الى ذلك هي ان يقف العرب وراءنا ». وتبين في هذا الاجتماع

---

(١) P.R.O., CAB. 27/24

(وفي اجتماعات لاحقة)ان الحكومة البريطانية كانت تحاول اغراء فرنسا بأخذ مناطق في القوقاس وفي الولايات التركية التي كانوا يخططون لانشاء جمهورية أرمنية فيها ، من اجل التخلي عن اتفاقية سايكس — بيكو وترك سورية للعرب ولهم .[1]

وفي ٢٨ تشرين الثاني وزّع وزير الخارجية على أعضاء اللجنة الشرقية مذكرة أعدها السير ايري كرو الوكيل الدائم لوزارة الخارجية وآرنولد توينبي [2] ومعها خارطة ملونة لمخطط اتفاقية سايكس — بيكو . وتتضمن هذه المذكرة الوثائقية ثبتاً بالالتزامات التي ترتبط بها بريطانيا تجاه أقطار الدولة العثمانية . وفيما يتعلق بالبلاد العربية تقول المذكرة ان الحكومة البريطانية ترتبط بمعاهدات واتفاقيات مع زعماء المكلاّ ومسقط وعمان والكويت وقطر وابن سعود والادريسي وحكاماً آخرين ، ثم تمضي بعد ذلك الى القول :

> بشرط المحافظة على كل هذه الالتزامات والحقوق ومع عدم الحاق الضرر بمصالح فرنسا ، فان حكومة جلالته قطعت عهداً للملك حسين « بموجب رسالة المندوب السامي في القاهرة المؤرخة ٢٤ تشرين الأول ١٩١٥ » ليس بعروبة واستقلال الأراضي التي يحكمها في الحجاز فقط بل بالمناطق الحمراء والسمراء ، وجيب عكا — حيفا ، والمنطقتان (أ) و (ب) وجميع أراضي شبه الجزيرة العربية إلى الجنوب من منطقة (ب) أيضاً ، باستثناء محمية عدن .

وقالت المذكرة ان بريطانيا لم تلتزم بانشاء دولة متحدة ولم تلتزم بالاعتراف بسيادة الملك حسين خارج الحجاز ، وان الملك حسين طالب باستقلال البلاد العربية بصفته الناطق باسم سكان تلك البلاد ، وقد قطعت له بريطانيا عهدها بهذه الصفة فقط .

وعادت المذكرة الى تكرار التزامات بريطانيا مرة اخرى : «لقد

---

(١) P.R.O., CAB. 27/24.

(٢) Ibid., p. 10. وكـان ارنولد توينبي (الذي ذاعت شهرتـه كمؤرخ فيما بعد) يعمل يومذاك في وزارة الخارجية البريطانية . وفي ٨ ايلول ١٩١٩ حل كرو محل بلفور رئيساً للوفد البريطاني لدى مؤتمر السلم .

قطعنا عهداً للملك حسين بان تكون جميع أراضي شبه الجزيرة العربية باستثناء محمية عدن (ضمن حدودها قبل الحرب)مستقلة وعربية ... ». واعتبرت المذكرة العهد المقطوع للسوريين السبعة في ١١ حزيران ١٩١٨ عهدا ملزما ينطوي على صفة الشمول .

وبحثت المذكرة مواد اتفاقية سايكس – بيكو ، والتزام بريطانيا وفرنسا بتصريح ٨ تشرين الثاني . ثم ذكرت فلسطين (غربي الاردن) على وجه التخصيص قائلة باسلوب حاسم «اننا ملتزمون للملك حسين بان تكون هذه المنطقة عربية ومستقلة ». وفيما يتعلق بالمنطقة السمراء (وهي لا تشمل فلسطين كلها) أشارت المذكرة الى اتفاق بريطانيا وفرنسا وايطاليا على انشاء ادارة دولية بالتشاور مع بقية الحلفاء وممثلي شريف مكة . (١)

نصل بعد هذا الى اجتماع اللجنة الشرقية يوم ٥ كانون الاول ١٩١٨ وقد حضره لورنس . ففي هذا الاجتماع بحث موضوع سورية بالتفصيل. ولخص اللورد كرزون الوضع القائم بين بريطانيا وفرنسا والعرب تلخيصاً يدل على عمق واستيعاب تام . وقد تناول كرزون التزامات بريطانيا للملك حسين التي تضمنتها وثيقة مهمة من وثائق وزارة الخارجية (E.C2201 وسيأتي بحثها فيما بعد). وكرّر ما جاء في مذكرة كرو وتويني من ان بريطانيا تعهدت للملك حسين بان تكون جميع الاقطار العربية باستثناء محمية عدن «عربية»و«مستقلة ». ومما قاله كرزون ان التصريح البريطاني– الفرنسي في مجمله «يحل الى حد كبير محل اتفاقية سايكس – بيكو » وانه سيكون من الأسلحة المهمة التي سيتسلح بها المندوبون البريطانيون عند معالجة تلك الاتفاقية . وكرّر كرزون الحملة على الاتفاقية . وقال ان جهود الفرنسيين في قهر الاتراك كانت ضئيلة ولا تكاد تذكر بينما قام العرب «بقسط كبير ». وأشار كرزون الى الخطة الرامية الى اخراج فرنسا من سورية كلياً عن طريق التعويض عليها في جهة اخرى (القوقاس

---

(١) Memo. respecting the Settlement of Turkey and the Arabian Peninsula, (E.C. 2525), Part One, Commitments. — CAB. 27/37.

وارمينيا). وقال ان هناك رأيين في الدوائر البريطانية : أحدهما يقول عاضدوا الفرنسيين على حساب فيصل ولا تهتموا كثيرا بالعرب ، والثاني يقول لا تغبنوا العرب ومن الأفضل لمصلحتكم ان تعاضدوا فيصلاً وليس فرنسا . ولقد شرح كرزون الخط السياسي الذي يجدر بالحكومة البريطانية ان تتبعه والذي اتبعته بالفعل مع مرور الزمن «ان نعاضد فيصلاً والعرب الى أقصى حد نستطيع ، الى حدّ لا يجرنا الى الاصطدام مع الفرنسيين ... وأنا افضل من أجل سلامة امبراطوريتنا في الشرق ان أصل الى ترتيب مرض مع العرب أكثر مما افضّل ان أصل الى ترتيب مع الفرنسيين ، ولكنني لن امضي في عقد الاتفاق مع العرب الى حدّ الاختصام مع الفرنسيين » . وقال روبرت سيسل انه منح الفرنسيين تنازلات كبيرة لاقناعهم بتوقيع تصريح ٨ تشرين الثاني اعتقادا منه ان التصريح سيكون عظيم الفائدة في معالجة شرور اتفاقية سايكس – بيكو . وقال كرزون ان اللجوء الى مبدأ تقرير المصير سيكون مفيدا في معالجة المشاكل التي خلفتها الاتفاقية «ونحن نعلم في أعماق قلوبنا انه من الارجح ان نستفيد من ذلك أكثر من سوانا ». اما بلفور فقد قال ان الحكومة البريطانية أعلنت في كانون الثاني ١٩١٧ قبولها بمبدأ تقرير المصير ، قبل ان تدخل الولايات الاميركية المتحدة في الحرب ، ولكنه أبدى عدم اقتناعه بامكان تطبيق ذلك المبدأ على القبائل غير المتطورة وغير المنظمة . وقال انه لم يفهم قط اتفاقية سايكس – بيكو وما يزال كذلك حتى اليوم ، ولكن بريطانيا مضطرة للالتزام بتلك الاتفاقية الا اذا شاء الامريكيون ان يقطعوا العقدة دون ان نضع السكين في أيديهم . وأبدى روبرت سيسل رأيه بأن الفرنسيين لن يتخلوا عن الاتفاقية بسهولة ، وانهم يفضلون أن يتخلوا عن أي شيء في العالم على ان يتخلوا عن مطلبهم في سورية . وفي هذا الاجتماع أدلى بلفور بأقوال طلب عدم تسجيلها في محضر الاجتماع . اما لورنس فقد قال بضرورة اعطاء الدولة العربية ميناء على الساحل وقال ان سورية تأمل ان تنفصل عن الحجاز «وان هناك حركة انفصالية وستصبح أقوى بقدر ما

أستطيع ان أؤثر فيها ». وقال ان ميناء طرابلس ستكفي العرب وانه سوف ينصحهم بالاكتفاء بها اذا لم يكن بالامكان حصولهم على أكثر من ميناء . وقال ان فكرة تقرير المصير تبدو له فكرة غبية من نواح متعـــددة ، وعارض في تطبيق المبدأ بالنسبة للعراقيين بحجة انهم حاربوا ضد الانكليز.

ثم تحول المجتمعون الى بحث موضوع فلسطين فقال كرزون ان هناك العهد العام الذي تضمنته رسالة ٢٤ تشرين الاول ١٩١٥ «والذي بموجبه أدخلت فلسطين ضمن المناطق التي تعهدت بريطانيا العظمى بان تكون عربية ومستقلة في المستقبل »واشار الى وعد بلفور وقال « ان الصهيونيين يتحدثون عن دولة يهودية ، وان القسم العربي من السكان أهمل وترك في زوايا النسيان ، وان الصهيونيين لا يكتفون بالمطالبة بفلسطين القديمة بل يطالبون ايضا بالتوسع عبر نهر الاردن الى الاراضي الغنية شرقا . وأبدى كرزون رأيه بالتخلي عن فكرة الادارة الدولية في فلسطين وبالعمل على ان يختار العرب واليهود بريطانيا لتتولى حكمها [1] . ومن المهم ان نلاحظ ان لورنس سمع كل الكلام الذي قيل عن مطامع الصهيونيين ولكنه لم يشأ بعد خمسة ايام فقط ان ينقل شيئاً منه لفيصل بل على العكس أخذ يحثه على الاتفاق مع الصهيونيين لتطبيق رغبات حكومته الاستعمارية على أهون السبل .

اما الوثيقة المهمة التي اعتمد عليها اللورد كرزون في حديثه عن سورية وفلسطين اثناء هذا الاجتماع ، فتعدد التزامات بريطانيا للملك حسين من خلال رسائل مكماهون والتأكيدات الرسمية الاخرى التي أعقبتها بصورة تفصيلية . وتقول ان حدود الاستقلال العربي تشمل جيب عكا — حيفا ومنطقة البصرة . وقد وردت في هذه الوثيقة عبارة تؤكد اقتناع الحكومة البريطانية بان فلسطين كانت من ضمن الأقطار العربية التي تعهدت بريطانيا بعروبتها واستقلالها :

فيما يتعلق بفلسطين ، ان حكومة جلالته ملتزمة بموجب رسالة السير ه .

---

(١) CAB. 27/24

مكماهون المؤرخة ٢٤ تشرين الأول ١٩١٥ إلى الشريف ، بادخالها ضمن حدود الاستقلال العربي . »

وتضيف المذكرة قولها ان الحكومة البريطانيـــة أوضحت سياستها تجاه الاماكن المقدسة في فلسطين والانشاءات الصهيونية في رسالة ٤ كانون الثاني ١٩١٨ التي ابلغها الكوماندر هوجارث للملك حسين .(١)

اما الملحق الذي أرفق بهذه المذكرة فقد تضمن (في الصفحة ١١ الفقرة ٥٥)عبارة بالغة الوضوح ، لا مجال فيها للتشكك ، حول التزام الحكومة البريطانية باستقلال العرب في فلسطين « ان فلسطين بكاملها، ضمن الحدود المعينة في صلب المذكرة ، تقع ضمن المنطقة التي تعهدت حكومة جلالته الى الشريف حسين بان تعترف فيها باستقلال العرب ومعاضدة ذلك الاستقلال ».(٢)

وعادت اللجنة الشرقية في ٩ كانون الاول الى بحث اتفاقية سايكس– بيكو وكيف يمكن التخلص منها ، ولو باعطاء الفرنسيين جورجيا وارمينيا واذربيجان على سبيل الرشوة . وأبدى الجنرال سمطس رأيه بانه «يجب ان نفعل كل ما يمكننا فعله من أجل العرب . لقد كانوا حلفاءنا وهم يتطلعون الينا لمعاضدتهم في هذه القضية ... ». وفي هذا الاجتماع أدلى مونتاجو وزير الهند بتصريح ذي دلالة تعليقاً على ما جاء في الجلسة السابقة من ذكر «شعب يهودي »و«امة يهودية»، و«رغبات يهود العالم» قائلا « كما تعلم اللجنة، انني انكر أن تكون هناك امة يهودية او شعب يهودي . ان سياسة حكومة جلالته تصاغ حسب رغبات قسم معـــين

---

(١) Memo. on British Commitments to King Husein, prepared by the Political Intelligence Dept., Foreign Office, Special 3. (E.C. 2201). Not dated but probably prepared on 1 Nov. 1918. F.O. 882/13.

(٢) ملحق عن التزامات الحكومة البريطانية في الشرق الاوسط : أوراق وسترمان ، معهد هوفر ، ستانفورد ، كاليفورنيا (الولايات المتحدة) – النص عن النشرة التي أصدرها مركز الاعلام العربي في لندن بتاريخ نيسان – ايار ١٩٦٤ ، المجلد ٢ ، العددان ٤ و ٥ ، ص ص ٢ و ٣ .

من اليهود الذين لا وطن لهم وعلى الأغلب يتعاطفون مع الالمان .»[1]

وفي الاجتماعين اللذين عقدتهما اللجنة الشرقية يوم ١٦ و ١٨ كانون الاول توصلت الى اتخاذ قرارات بشأن سورية وفلسطين والعراق والحجاز. وقد تضمن القرار المتعلق بسورية القول بان بريطانيا ترغب في الغاء اتفاقية سايكس – بيكو عن طريق المفاوضة ، وخاصة المادة التي تعطي النفوذ لفرنسا في المنطقة (أ) ومعاضدة فرنسا في الحصول على مركز سياسي خاص في لبنان وبيروت والاسكندرونة ، ومعاضدة فيصل والسوريين في انشاء دولة عربية ذات استقلال ذاتي مع منفذ على البحر ، ويفضّل حل المسألة السورية على أساس مبدأ تقرير المصير ، ومن الامور الجوهرية ان يكون لبريطانيا وحدها النفوذ في منطقتي (أ) و (ب). وقد سجّل بلفور شكه في حكمة الفقرة المتعلقة بمعاضدة فيصل والسوريين ، بينما تمنى روبرت سيسل لو ان الفقرة ذاتها كانت أكثر قوة . وفيما يتعلق بفلسطين فقد تضمن القرار القول بان اللجنة تعارض في انشاء ادارة دولية وتفضل ان تتولى الولايات المتحدة او بريطانيا حكم فلسطين (مع استبعاد فرنسا وايطاليا)، وان يكون اختيار الدولة متفقا مع رغبات السكان العرب والطائفة الصهيونية في فلسطين . وقال القرار المتعلق بولايات العراق الثلاث ان هدف بريطانيا هو انشاء حكومة او حكومات عربية وعدم فرض اية حكومة لا يرغب الأهلون فيها ، وان معاضدة دولة اوروبية كبيرة وحمايتها أمر لا غنى عنه لهذه البلاد ، وان على بريطانيا ان تقبل القيام بتلك المهمة اذا ما أعرب السكان عن رغبتهم في ذلك . وأخيراً جاء القرار المتعلق بالحجاز والجزيرة العربية وقد تضمن القول ان فرنسا اعترفت بمركز بريطانيا الخاص في شبه الجزيرة العربية ومن المرغوب فيه ان تعترف بقية الدول الكبرى بذلك . وانه رعاية لوجود الاماكن الاسلامية المقدسة في الحجاز فان سيادة ملك الحجاز يجب ان تخضع الى أقل ما يمكن من القيود ، ومن المرغوب فيه ان تمتنع الدول الكبرى عن

---

(١) P.R.O., CAB. 27/24.

التدخل في مسائل الحجاز الداخلية او ان تبحث عن نفوذ سياسي فيه ، ويتبع ذلك ان معتمدي الدول في الحجاز يجب ان يقتصروا على الاهتمام بمسائل الحجاج والتجارة وان لا يسمح لملك الحجاز بأن يكون له معتمدون لدى الدول الاجنبية . اما بشأن لقب «ملك البلاد العربية» الذي يتخذه الملك فقد قررت اللجنة عدم الدخول في جدل بشأنه ، مع الاخذ بعين الاعتبار ان موقف الزعماء العرب الآخرين يجعل من المؤكد عدم قبولهم بسيادة الملك حسين . وفي المناقشات التي دارت بين أعضاء اللجنة قبل اتخاذ القرار ، قال اللورد كرزون « اننا قد نندم في المستقبل اذا ما قمنا بانشاء دولة عربية كبيرة يحكمها رأس واحد» وقال «انني أميل الى الاعتقاد ان حل هذه المصاعب لا يكمن في تشجيع الملك حسين على تحقيق الوضع الذي يطمح اليه ، ولكن بالاحرى يكمن في العكس تماما . »[1]

بهذه الانانية المغلقة على ذاتها كان سياسيو بريطانيا يخططون لتسوية قضايا حلفائهم العرب ، في الوقت الذي كان العرب أنفسهم يعتقدون ان حليفتهم ستقف الى جانبهم وتأخذ بيدهم لانشاء الدولة الكبرى التي ثاروا على الاتراك من أجلها .

العرب في مؤتمر السلم : وأخيراً بدأ مؤتمر السلم جلساته في باريس يوم ١٨ كانون الثاني ١٩١٩ في جو يحفل بالشكوك والمطامع والأماني والمثاليات . ولقد كان وودرو ولسون رئيس الولايات الاميركية المتحدة القطب الاعظم الذي علّقت الشعوب الضعيفة آمالها على مثالياته . فقد كان ولسون حامل راية مبدأ تقرير المصير ، وأن لا تُفرض على الشعوب حكومات لا تقبلها . وقد حاولت بريطانيا وفرنسا اقناع ولسون بان تتفق الدول الكبرى على حلول للمشاكل القائمة وعرضها على المؤتمر العام ، ولكن ولسون رسول السلام رفض الاقتراح وأصرّ على ان تُعرض المشاكل على بساط البحث علنا . وهنا اقترح كرزون ووافق معه لويد

(١) P.R.O., CAB. 27/24.

جورج ان لا تقبل بريطانيا ان يكون ولسون الحكم الأوحد في تسويات السلم بل ان يكون طرفا بين الاطراف الاخرى حول طاولة المؤتمر.[1]

لم تكن المشاكل التي كان العالم يواجهها مع نهاية الحرب تقل عن المشاكل التي كانت تواجهه قبل بدئها : فالدول المهزومة كانت تتوقع شروط صلح قائمة على مبادىء ولسون ، بينما كانت فرنسا بالذات تصر على فرض شروط صلح شديدة ضد الالمان. وكان على المؤتمر ان ينظر في قضايا عشرات الشعوب الصغيرة في اوروبا وآسيا التي كان كل منها يطالب بحلول تتعارض مع الحلول التي تطالب بها شعوب اخرى . وقد كانت الدول الكبرى يومذاك هي بريطانيا وفرنسا وايطاليا والولايات المتحدة واليابان . وكانت الدول الثلاث الاولى تصر على اقتطاف ثمار الانتصار الذي أحرزته عن طريق التوسع والحصول على التعويضات والتنازلات .

اما فيصل فبعد ان قضى في بريطانيا شهرا ، غادر لندن الى باريس يوم ٩ كانون الثاني يرافقه اعضاء وفده . وجاء لورنس ايضا الى باريس بصفة مستشار فني للوفد البريطاني ؛ ولكنه أصبح ايضا ضابط الارتباط الوحيد بين فيصل والوفد البريطاني ، وأخذ يقضي أكثر أوقاته مع فيصل حتى صار يعدّ بمثابة عضو في الوفد العربي . ونستطيع ان نفهم ما كان يدور في ذهن فيصل قبيل وصوله الى باريس من رسالة كتبها الى أخيه زيد وقال فيها ان أمله وطيد بأخذ النتيجة المفرحة لكل العرب بدون تخصيص[2] وانه لمس من عموم رجال بريطانيا «صدق المبادىء والحسيات العالية والثبات في القول ... والعراق تمّ أمره انشاء الله تعالى بصورة خصوصية ليست رسمية ، بشّروا السيد جعفر بذلك . وربما اننا نأمركم

---

(١) Minutes of a Meeting of the Imperial War Cabinet, 30 Dec. 1918, p. 4, CAB. 23/42.

(٢) المقصود هنا وفي جميع المواضيع الاخرى من هذا الكتاب هم عرب آسيا . ففي تلك الفترة لم تكن الصلات قوية بين عرب آسيا وعرب افريقيا ولم تكن فكرة جمع شمل الطرفين قد اختمرت بعد .

ان ترسلوا هيئة الى العراق في هذه الايام ـ الامر الان مكتوم ». [1]
ومن هذا نفهم انعكاس مداولات اللجنة الشرقية على ما أبلغه لورنس لفيصل .

وكانت مسألة تمثيل العرب في مؤتمر السلم ما تزال معلقة لم يُبتّ فيها ، ولم يطرأ على الوضع ما يهدىء من مخاوف فيصل من فرنسا ، بل على العكس زادت تلك المخاوف بعد تصريحات بيشون وزير خارجية فرنسا في الجمعية العمومية يوم ٢٩ كانون الاول : عندما قال ان حقوق فرنسا في سورية ولبنان وفلسطين تقوم على التاريخ وعلى اتفاقيات ومعاهدات ، فضلا عن أن أهل البلاد يريدوننا ، وأن مؤتمر السلم يستطيع أن يتخذ ما يشاء من القرارات ولكننا نرى ان اتفاقياتنا مع انكلترا تربط بيننا وبينها والحقوق المعترف لنا بها أصبحت ملكاً لنا بالفعل . وبعد بضعة ايام (٢ كانون الثاني ١٩١٩)بعث بيشون برسالة الى وزارة خارجية الحجاز قال فيها ان مسألة تمثيل «المملكة العربية »في مؤتمر السلم مرتبطة بالاعتراف بالدول التي انشئت اثناء الحرب ، وان الحكومة الفرنسية سوف تنصح حلفاءها بالاعتراف بمملكة الحجاز المستقلة ، وان فرنسا ستستقبل فيصل عند عودته من لندن بكل حفاوة حتى يُعترف به ممثلا رسمياً لمملكة الحجاز [2] . هذا هو الوضع الذي وجد فيصل نفسه فيه عند عودته الى باريس ولذلك «كان همه الاكبر بعد ان استيقن من موقف فرنسا وبريطانيا ان يسعى لنيل تعضيد الولايات المتحدة الاميركية في الحصول على استقلال العرب . »[3]

وبدأ فيصل نشاطه حال وصوله الى العاصمة الفرنسية ، فكتب في ١٣ كانون الثاني رسالة الى بيشون طلب فيها ان يحضر المؤتمر ممثلا للبلاد

---

(١) رسالة فيصل بتاريخ ٣١ كانون الاول ١٩١٨ – (أوراق الأمير زيد)
(٢) كتب المعتمد البريطاني في جده يوم ٩ كانون الثاني ١٩١٩ إلى ونجت يقول ان الملك حسين « كان منزعجا جداً من لهجة الرسالة التي اعتبرها متعجرفة وفظة تجاه الحكومة البريطانية وتجاهه . » .F.O. 371/4162
(٣) احمد قدري، المصدر السابق ، ص ٩٩ .

العربية. ثم اجتمع بالمسيو كليمنصو فقال له هذا انه يعدّ العرب من جملة الحلفاء . وقبل افتتاح المؤتمر جاءه جين غو وقال له ان فرنسا ما تزال تعتبره بمثابة سائح وان دول الحلفاء لم تعترف كلها بعد بالحكومة العربية — الولايات المتحدة واليابان — وان حكومة فرنسا لا تعترف بالتأكيدات التي أعطاها له الجنرال اللنبي «وانها قوية تستطيع عمل كل شيء وقد خدعك بعض الذين ليس لهم صلاحية في الامور الرسمية وهذا مما يستوجب الاسف ، ولكن اذا أردتم التقرب من فرنسة وأخلصتم لها في سياستكم فانها تعمل معكم ما استطاعت الى ذلك سبيلا » . وكان واضحا ان غو يعني تحذير فيصل من الاستمرار في التعاون مع الانكليز . وقد ردّ عليه فيصل بقوله «اعلم ان والدي لم يحارب الاتراك لاجل ان تتجزأ بلاده وتغدو طعمة للأغيار . ولا تحسبوا انني أخاف قوة فرنسة وشديد بطشها فاسلمكم بلادي .... ولا تظن انني اميل الى انكلترا أو غيرها فيما يختص بمنفعة بلادي بل كن مطمئنا من هذه الجهة . ولقد أعطتني الحكومة الانكليزية قولا صريحاً بتخلية العراق . انني عدو لمن يخالف سياستنا الوطنية ويعارضنا فيها أكان ذلك المعارض انكليزياً او فرنسياً .» [1] وقد بادر فيصل بعد ذهاب غو فأنبأ لورنس بما قال غو وطلب اليه ان ينقل تفاصيل المحادثة الى بلفور . ومضى لورنس فنقل النبأ الى كبار اعضاء الوفد البريطاني وقابل بلفور الذي قام هو ولويد جورج بمسعى مع كليمنصو وبيشون . وبعد شيء من الأخذ والرد والالحاح وافق مجلس الحلفاء الاعلى يوم ١٧ كانون الثاني على ان يمثل العرب مندوبان . وعاد لورنس الى فيصل في الساعة الثانية بعد منتصف الليل فوجده ما يزال ساهرا يتجوّل في الفندق نهب الحيرة والقلق . وبادر لورنس فيصلا يقول «سيدي ، لويد جورج يبلغك انه سيكون للعرب مندوبان وليس مندوب واحد »فسرّ فيصل

---

(١) رسالة من فيصل إلى الملك حسين بتاريخ ١٩١٩/١/١٩ — (أوراق الأمير زيد) .
Garnett, David (adlt.), *The Letters of T.E. Lawrence*, London, pp. 273-274.

كثيراً وزاد اعتبار لورنس في نظره . وفي جلسة الافتتاح مثل العرب هو ومحمد رستم حيدر «وذلك رغماً عن سياسة فرنسة المعادية لنا وعن تشبثاتها ضدنا ، وعدم ارادتها في ادخالنا في المؤتمر بأي اسم كان ، حتى انها لم ترد ان تنظر الي الا بصفة زائر ... والحمد لله اننا ظفرنا عليهم بادخال ممثلين بدلا عن واحد ». فليس غريبا والحال هذه ان يقنع فيصل ان لا صديق للعرب سوى بريطانيا وان فرنسا هي العدو «ولا شك ان الفضل في دخولنا المؤتمر يعود الى انكلترا التي برهنت حكومتها وامتها عن الصدق في القول والفعل . »[1]

وقد كان هناك جانب آخر لتمثيل العرب في مؤتمر السلم : لقد كان الملك حسين يعتبر نفسه ممثل العرب الآسيويين جميعاً بينما اعترفت به بريطانيا وفرنسا ملكا على الحجاز ، ووافقت فرنسا على ان يمثل في المؤتمر بهذه الصفة فقط . وقد تبدت الصعوبة عندما طلب المعتمد البريطاني في جدة من الملك ان يبعث التفويضات التامة الى فيصل ، لان الملك رفض ان يوقع التفويضات باسم حكومة الحجاز ورفض اربع صيغ مختلفة اقترحها المعتمد . كما انه تردد في اعطاء تفويضات مع صلاحيات تامة بتوقيع المعاهدات واجراء المباحثات باسمه ، بينما لم يكن يعرف من اولئك المندوبين سوى ابنه فيصل . وبعد مناقشات عديدة بين الملك والمعتمد اقتنع الملك بان توقيع التفويضات باسم «ملك البلاد العربية » والاشارة فيها الى الامة العربية سيثير اعتراضات الدول الاخرى عليها مما يجعلها لاغية ويحول دون وجود ممثلين عرب في المؤتمر . واخيرا وقع رئيس الوزراء بالنيابة ست وثائق باسم «الحكومة العربية الشريفية » وصادق الملك عليها . وقد تركت الاسماء في وثائق الاعتمـــاد مفتوحة ليصار الى تعبئتها في باريس من قبل فيصل . واشترط الملك في رسالة بعث بها الى المندوب السامي مع وثائق الاعتمـــاد انه لا يوافق على ان يوقع مندوبوه على اية اتفاقات يمكن ان تنتقص من اتفاقه مع الحكومة

---

(١) رسالة فيصل إلى أخيه زيد بتاريخ ١٩١٩/١/١٩ – (أوراق الأمير زيد) .

البريطانية المتمثل في رسائل مكماهون ، وقال للمعتمد البريطاني « انه اعطى وثائق الاعتماد هذه مدفوعا بسبب واحـــد لا غير هو اعتقاده ان بريطانيا العظمى ستفي بكلمتها ولن تسمح للامـــير فيصل ان يوقع على أي شيء يناقض تعهداتها له.... وهو ما يزال يعتقد اعتقاداً جازمــا ان بريطانيا العظمى تعهدت بان ترتب مستقبل البـــلاد العربية ومن جملتها سورية والعراق بحسب الخطوط العامة التي تضمنتها الاتفاقيات المنصوص عليها في رسائل السير هنري مكماهون والتي طالما اعلن تفسيره لها ، مع انني فهمت ان الكثير من تفسيراته لا تتفق مع محتويات تلك الرسائل ». [1] ولكن وثائق الاعتماد هذه قُدمت الى مؤتمر السلم باسم «حكومة الحجاز »وقبلتها الدول على هذا الاساس . وكانت اوراق الوفد العربي الرسمية تحمل اسم « الوفد الحجازي » بالفرنسية .

عند افتتاح المؤتمر كان فيصل يعتقد اعتقادا جازما ان فرنســا « تريد ان تخرج سورية من المجتمع العربي وتستحوذها لنفسها » . وقد اتخذ فيصل في مساعيه السياسية القول انه وكيل والده والجيش العربي المؤلف من جميع العرب وانه يطالب بحقوق العرب وان لا تحسم الدول امرا يختص ببلاد العرب الا بعد ان يؤخذ رأي اهلها«واهل البلاد لهم الحق في انتخاب الحكومة التي يريدونها وعلى الحكومات ان تقبل برأيهم... وكل قرار خالف هذا المبدأ لا نقبل به». وأعلن فيصل ان اباه «لا يريد ان يجبر العرب على قبول سيطرته » ولكن «سلوا اهل البلاد، هم احق الناس بتعيين مقدراتهم وبانتخاب الحكومة التي تناسبهم ، كانت تلك الحكومة فرنسا ام اميركا ام اليابان ام العرب ». وقد اتصل فيصل برجال الوفد الاميركي وشرح لهم وجهة نظر العرب وحثهم على الاخذ بناصره ، وأخذ يسعى للاجتماع بالرئيس ولسون ليطلب منه «أخذ الرأي العام في

---

(١) Letter No. 20/15/1919 of 31 Jan., 1919, from Col. Wilson A/High Commissioner, Cairo. F.O. 686/63. See also correspondence in F.O. 686/40.

البلاد : أعني التصويت في جميع بلاد العرب المستخلصة من أيدي الترك ..»[1]

وفي باريس قدّم فيصل الى وفود الدول الكبرى مذكرته المؤرخة في ١ كانون الثاني ١٩١٩ التي كان قد أعدّها في لندن وقدمها لوزارة الخارجية البريطانية . وعرّفت المذكرة البلاد العربية بأنها تقع الى الجنوب من خط اسكندرونة – ديار بكر – الحدود الفارسية ، قائلة ان سكانها يؤلفون شعباً متلاحم الأنساب ولغته واحدة هي العربية ، وان مطمح العرب في آسيا هو الوحدة ، وان الملك حسين على يقين من انتصار فكرة الوحدة اذا لم تُقسم البلاد غنائم حرب بين الدول العظمى . وقالت المذكرة ان الولايات العربية «وهي سورية ، فلسطين ، العراق ، الجزيرة ، الحجاز ، اليمن ونجد متفاوتة سياسيا واقتصاديا ويستحيل حصرها ضمن قالب حكومة واحدة ». وجاء في المذكرة ان سورية تستطيع تدبير شؤونها الداخلية وهي مستعدة لدفع ثمن المساعدة الاخصائية الاجنبية نقدا ، اما في العراق والجزيرة فان نظام الحكومة هناك ينبغي ان يسند برجال حكومة اجنبية عظيمة شريطة « ان تكون الحكومة عربية في المبدأ والروح ». اما الحجاز واليمن ونجد فقد طالبت المذكرة ان تترك وشأنها . وعن فلسطين :

> في فلسطين العرب هم الأكثرية الغامرة واليهود قريبو النسب جدا من العرب ، وليس بين الشعبين تناقض في الاخلاق . نحن في المبادىء متفقون . غير اني افكر ان العرب لا يستطيعون اتخاذ المسؤولية على عاتقهم في حفظ التوازن بين الشعوب والاديان المتصادمة في هذه الولاية التي كثيرا ما جرت الصعوبات على العالم . وهم يريدون هناك وصيا عظيما ذا مركز نافذ على شرط أن يكون هناك ادارة محلية نيابية تثابر على تنشيط أسباب النجاح في البلاد . (٢)

---

(١) رسالتا فيصل إلى الحسين وزيد المشار اليهما أعلاه . وقد اجتمع فيصل يوم ٢٠ كانون الثاني بالبروفسور وسترمان أحد الأعضاء الكبار في الوفد الاميركي وطلب منه تعضيد مطالبته بارسال لجنة تحقيق دولية إلى سورية . وفي ٢٣ كانون الثاني اجتمع فيصل بالرئيس ولسون وكرر الطلب ذاته .

(٢) اعتمدت على النص العربي الذي أرسله فيصل إلى أبيه (أوراق الأمير زيد) . والنص—

تبدو في هذه المذكرة روح المسايرة لرغبات وزارة الخارجية البريطانية كما يبدو ان النص الانكليزي هو من اسلوب لورنس. وقد وصلت المذكرة الى الوفد البريطاني لمؤتمر السلم في باريس بتاريخ ١٦ كانون الثاني . ولا بد ان فيصل قد نُصح بتقديم مطالب معتدلة لكي تكون مقبولة عند الدول الكبرى . ويبدو هذا واضحا من تعليقات اثنين من اعضاء الوفد البريطاني عليها . فقد كان من رأي السير لويس مالت ان المذكرة «معقولة بصورة طيبة ولا تتناقض عباراتها في اي مكان مع مصالحنا ، ونحن ملزمون ان نعاضدها بموجب تعهداتنا». وقال توينبي « ارى انها وثيقة بالغة الاعتدال وتدل على حنكة سياسية وانه يجب منح الأمير فيصل الفرصة التامة لكي يعرض رسميا امام المؤتمر قضية العرب المعروضة هنا . »[1]

ولكن الدول الخمس الكبرى اتخذت يوم ٣٠ كانون الثاني ١٩١٩ قرارا بالغ الاهمية يقضي بسلخ ارمينيا وبلاد العرب عن تركيا . وتضمن القرار القول ان هذه الاقطار بلغت مرحلة من التطور يمكن معها الاعتراف مؤقتا باستقلالها شرط ان تقدم لها المشورة الادارية والمساعدة من قبل دولة منتدبة حتى يأتي الوقت الذي تستطيع فيه ان تقف وحدها . وقال القرار ان سكان هذه البلاد يعتبرون «وديعة مقدسة في ذمة المدنية» وان رغباتهم يجب ان تكون عاملا رئيسيا في اختيار الدولة المنتدبة . وفي ١٤ شباط أقرّ مجلس الحلفاء الاعلى ميثاق جمعية الامم وادمج مبادىء الانتداب في المادة ٢٢ منه وهي المادة التي تذرعت بها بريطانيا وفرنسا في العام التالي لفرض سيطرتها على العراق وسورية .

- الانكليزي الموجود بين أوراق وزارة الخارجية البريطانية F.O. 608/92. يحمل تاريخ ١ كانون الثاني ١٩١٩ ولكن النص العربي يحمل تاريخ ٥ شباط ١٩١٩ . وعلى الارجح فهذه المذكرة هي التي أشار اليها فيصل في الشرط الذي اضافه على الاتفاقية مع وايزمن . وقد ورد اسم فلسطين في النص العربي عند تعداد أسماء الولايات العربية بينما نراه مفقودا في النص الانكليزي . والمرجح أن يكون فيصل قدم هذه المذكرة إلى مجلس العشرة يوم مثوله أمامه في ٦ شباط ١٩١٩ .

(١) Notes dated 16 and 17 Jan. 1919 respectively. — F.O. 608/92

وعملت الدول الكبرى ترتيبا قُصد منه تسهيل أعمال المؤتمر ، اذ ألّفت مجلساً خاصاً تمثل فيه كل دولة من الدول الكبرى بعضوين ، وقد أطلق عليه اسم «مجلس العشرة »، ومهمة هذا المجلس عقد جلسات خاصة للاستماع الى رؤساء الوفود المطالبة بحقوق تدعيها . وقد عيّن يوم ٦ شباط موعدا يعرض فيه فيصل قضية العرب . وكان فيصل قد قدم الى المؤتمر في ٢٩ كانون الثاني مذكرة موجزة طالب فيها ان يُعترف باستقلال الشعب الناطق بالعربية في آسيا تحت ضمانة جمعية الامم مع استثناء الحجاز المعترف باستقلاله وعدن التابعة لبريطانيا ، وأن يترك للاقطار العربية امر تعيين حدودها بعضها مع بعض بعد التحقق من رغبات السكان في كل قطر . وقال فيصل انه يستند في طلبه هذا على مبادىء الرئيس ولسون وخاصة النقطة الثانية من خطابه بتاريخ ٤ تموز ١٩١٨.[١]

وبعد يومين قدم فيصل الى المؤتمر مذكرة تفصيلية عدد فيها الاسباب التي بنى عليها المطالبة باستقلال كل البلاد الناطقة بالعربية في آسيا وخلاصتها(١) استعداد اهل البلاد(٢) اللغة العربية(٣)الحدود الطبيعية (٤) العنصر السامي الواحد(٥) اتحاد المنافع الاقتصادية والوحدة الجنسية (٦) اشتراك العرب في الحرب مع الحلفاء . ثم اشارت المذكرة الى وعود الحلفاء للعرب وضرورة الوفاء بها وقالت ان مطالب العرب تتفق مع مبادىء الرئيس ولسون التي صادقت عليها دول الحلفاء . وان الجيش العربي الذي يمثل العرب من « حجازيين وسوريين ولبنانيين وعراقيين وفلسطينيين ويمانيين وغيرهم »ضحى في ساحات القتال عشرين الفا

---

(١) النص العربي في أوراق الأمير زيد والنص الانكليزي في F.O. 608/92. وقد وزع السكرتير العام للمؤتمر هذه المذكرة على الوفود المختلفة في ٢ شباط ١٩١٩ أما نص النقطة الثانية من خطاب ولسون فهو : « كل مسألة أرضية كانت أم سيادية أم اقتصادية أم سياسية دولية يجب أن تحسم على موجب الأساسات المستندة على حرية قبول الشعب ذي العلاقة رأساً في تلك المسألة ، وليس على القواعد النفعية المادية أو المصالح التي يتطلبها شعب او امة اخرى لأجل تأمين نفوذها الخارجي أو سيادتها . »

وأسر اربعين الفا من الاعداء . والامة العربية تستحق الاستقلال بما قدمت من تضحيات . وقد أعلن جميع السوريين استقلالهم من تلقاء انفسهم وشكلوا ادارات محلية ورفعوا الاعلام العربية، ولكن في بعض الاماكن انزلت القيادة العامة العليا تلك الاعلام غصبا وقهرا . كما ان الحلفاء اعترفوا للعرب بصفة «محاربين». وقالت المذكرة ان الشريف حسين لم يشترك في الحرب لطمع في النفس ولتأسيس سلطنة عظيمة بل قام لانقاذ العرب من ظلم الاتراك وهو لا يطمع بالحاق شبر واحد بالحجاز . ثم قدم فيصل الشكر لبريطانيا وفرنسا على معاونتهما ، وقال انه يرجوهما ان تنجزا وعودهما بشأن تحرير العرب «لان الموقف الان يتطلب المجاهرة والخطوة التي ستخطوها الدول الان خطيرة جدا وعليها تتوقف حياة امة ، سلامتها عامل مهم في سلامة الامم بسبب توسطها بين قارات العالم». واضاف قائلا ان سورية تطلب وحدتها واستقلالها والعرب يطلبون ان تأخذ سورية مركزها الطبيعي في «الاتحاد» العربي ، وبما ان قسما من سكان لبنان يطلبون ضمانة فرنسية فالعرب مستعدون لقبول استقلال لبنان على ان يبقى الباب مفتوحا لانضمام لبنان الى «الاتحاد» السوري بمحض اختياره ، وان العرب يريدون الانتفاع بخبرة الامم المتمدينة شريطة ان لا يفقدوا ذرة من استقلالهم . اما فلسطين «بالنظر الى اهميتها العالية اترك امرها الان لتقدير ذوي العلاقات بها». واخيرا قال فيصل انه اذا تبين ان بياناته هذه غير كافية فهو يطالب بتأليف لجنة دولية تذهب الى البلاد وتتحقق من رغائب الاهلين.[1]

وعندما مثل فيصل يوم ٦ شباط امام مجلس العشرة القى خطابا بالعربية كرر فيه ما جاء في هذه المذكرة الاخيرة . وكان لورنس يرافق الامير (وكلاهما يرتدي الملابس العربية) فالقى ترجمة للمذكرة باللغتين الانكليزية والفرنسية . وقد كتب فيصل لابيه رسالة وصف فيها مثوله

---

(١) مذكرة بتاريخ ٣١ كانون الثاني – (أوراق الأمير زيد) .

امام مجلس العشرة ، فقال ان لويد جورج سأله بعد انتهائه من الخطاب عن الاعمال التي قام بها العرب اثناء الحرب فاجابه على سؤاله . ثم سأله الرئيس ولسون : بما اننا جميعا قبلنا مبدأ الوصاية على الشعوب التي تتكلم عنها الان فهل تريدون وصيا واحدا او اكثر من وصي ؟ ورد فيصل : لا استطيع الاجابة لان اهل البلاد ذوو رشد وهم ادرى بما هم في حاجة اليه . اسألوا هذه الشعوب عما تريد . وقال ولسون لكنني اود ان اعرف رايكم الشخصي ، فاجاب فيصل : انا شخصيا لا اريد تقسيم هذه البلاد الى مقاطعات تخضع لنفوذ عدة دول «اننا معاشر العرب ذقنا طعم الاستبداد مدة طويلة ... قلوبنا دامية ... نريد ايها السادة ان نكون بعد اليوم أحراراً ، وأن نعيش في بلادنا آمنين مطمئنين من كيد كل مستبد غاشم ، فنحن لذلك لا نرضى بتقسيم البلاد وتجزئتها بل نريدها موحدة حرّة مستقلة »[1].

وكان فيصل قبل ذلك قد طلب من اخيه زيد ان يطلب من اهل سورية ان يبعثوا برقيات اليه ينتدبونه ممثلا عنهم وناطقا باسمهم ،وذلك ردا على الفرنسيين الذين شنت صحفهم عليه حملة عنيفة مدعية ان الحجاز يريد « تأسيس امبراطورية عربية كبيرة مركزها مكة » وان « أهل الحجاز وحوش لا يمكن أنهم يحكمون بلادا متمدينة ». وقد اجتمع فيصل بالمسيو غو ثلاث مرات ولكن لم يتوصلا الى تفاهم . لذلك ركز فيصل مساعيه على طلب هيئة دولية تتحقق من رأي الاهلين معتقدا ان نتائج تحريات اللجنة ستكون ملزمة للدول الكبرى . وكان فيصل يعلم استحالة تحقيق جميع مطالب العرب دفعة واحدة لذلك قال ان العرب يريدون انشاء عدة دول يجمعها اتحاد (كونفدراسيون) وان الاقطار السورية ستؤلف بدورها اتحادا (فدراسيون). وكتب لابيه يقول «اذا تمكنت من تشكيل

---

(١) رسالة فيصل بتاريخ ١٦ شباط ١٩١٩ - (أوراق الأمير زيد) . وتطابق أقوال فيصل بهذا الصدد إلى حد بعيد ما سجله لويد جورج عنها في كتابه : The Truth About The Peace Treaties, Vol. II, pp. 1043-1044.

حكومات في سورية والعراق فالامر يسهل .»[1]

وفي تلك الاثناء استمع مجلس العشرة الى خطباء آخرين فيما يتعلق بسورية . ففي ١٣ شباط استمع الى الدكتور هوارد بلس رئيس الكلية السورية البروتستانتية في بيروت (فيما بعد الجامعة الاميركية) الذي طالب بارسال لجنة تحقيق تتعرف على رغبات السوريين ، واستمع في اليوم ذاته الى شكري غانم الذي تحدى قول فيصل انه يمثل جميع الناطقين بالعربية قائلا انه يمثل الحجاز لا غير ولا علاقة للحجاز بسورية التي تريد دولة كبيرة تساعدها وطلب «ان توكل الى فرنسا مهمة اعادة بناء سورية تامة مستقلة متحدة ..»[2] . وبعد يومين استمع المجلس الى داود عمون رئيس الوفد اللبناني الذي طالب ان تتولى فرنسا معاونة لبنان . وقد وجد الوفد العربي مزيدا من المنافسة من وفود الارمن والاكراد والاشوريين ، وكذلك من الوفد الصهيوني المؤلف من خمسة اعضاء والذي مثل امام المجلس يوم ٢٧ شباط وطالب بوضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني وتوسيع حدودها .

وبحث الاربعة الكبار موضوع سورية في اجتماع خاص يوم ٢٠ آذار . وفي الاجتماع أكّد بيشون تمسك فرنسا بسورية كلها ، ورد لويد جورج قائلا ان احتلال فرنسا لسورية الداخلية يناقض الاتفاق مع العرب وان اتفاقية سايكس – بيكو وضعت على اساس رسالة مكماهون الى الملك حسين (رسالة في ٢٤ تشرين الاول ١٩١٥). وقال بيشون ان

---

(١) رسالة من فيصل إلى زيد بتاريخ ١٥ شباط ورسالتان من فيصل إلى الحسين بتاريخ ١٦ و ١٧ شباط .

(٢) شكري غانم لبناني مثقف وكاتب . مثلت مسرحياته على مسارح باريس وكان يقيم في فرنسا منذ أكثر من ٣٥ عاما . وأثناء الحرب تولى تحرير جريدة (المستقبل) التي مر ذكرها وأسس جمعية (اللجنة المركزية السورية) وكان من أعضائها الدكتور توفيق فارجي اليهودي وجميل مردم . (ولكن جميل مردم عاد وانضم إلى معية فيصل بعد افتتاح مؤتمر السلم – احمد قدري ص ١٠٣) . وفي تلك الأثناء انضم حقي العظم إلى أنصار فرنسا . فقد كتب في جريدة (المستقبل) مقالة جاء فيها « اني من الذين يرون السيطرة الغربية على سورية امراً ضروريا جداً لا غنى لبلادنا عنه .» – نقلا عن جريدة « القبلة » ، العدد ١٦٤ ، ١٤ آذار ١٩١٩ .

فرنسا لم تر تعهد بريطانيا للعرب الا قبل بضعة اسابيع . ورد لويد جورج قائلا ان بريطانيا جندت حوالي مليون جندي ضد الاتراك وجنودها هم الذين احتلوا سورية بمساعدة العرب الذين كانت مساعدتهم «جوهرية» وعزّز اللنبي هذا التصريح بقوله ان مساعدة العرب «لا تقدر بثمن». وعاد لويد جورج يقول انه على اساس رسالة مكماهون وضع الملك حسين جميع موارده في ميدان الحرب وقد ساعد ذلك «مساعدة مادية قصوى لكسب الحرب» وقال ان موافقة بريطانيا على خضوع المدن السورية الأربع لنفوذ فرنسا المباشر ستكون نكثا لعهودها للعرب وهي لا تستطيع الاقدام على ذلك . وهنا تدخل ولسون قائلا ان الولايات المتحدة لا تهمها مدعيات بريطانيا وفرنسا بالنسبة لأي شعب الا اذا كان الاهلون يريدونهما ، لذلك فالسبيل الوحيد لمعالجة المسألة هي «اكتشاف رغبات اهالي هذه المناطق»[1] واقترح تعيين لجنة تحقيق من قبل الدول الاربع ترسل الى سورية والى المناطق المجاورة اذا دعت الحاجة الى ذلك بغية استطلاع الحقائق وتقديم تقرير حولها الى مؤتمر السلم . وقد وافق ممثلو الدول الاخرى على مقترحات ولسون . ولكن كليمنصو قال ان التحقيق يجب ان يشمل فلسطين والعراق وارمينيا فاجاب لويد جورج بانه لا يعترض على ذلك .[2]

ولكن الاجتماع انتهى والقلوب متنافرة حتى ان ولسون خرج «وهو يلعن كل واحد وكل شيء قائلاً انه لم يفعل طول ٤٨ ساعة الا الكلام ، وهو مشمئز من الموضوع كله . »[3]

---

(١) Papers Relating to the Foreign Relations of the United States : The Paris Peace Conference, 1919, Vol. V, pp. 1-14, Published in 1946.

(٢) كان بلفور يعارض في أن تشمل التحقيقات فلسطين ، وقد سجل معارضته في مذكرة مؤرخة في ٢٣ اذار قائلا ان لجنة التحقيق لا بد ان تجد العرب يرغبون في قيام حكومة وطنية عربية ، وأن تقرير اللجنة لا بد ان يتضمن رفض عرب فلسطين – وهم الأكثرية – قيام ادارة تشجع هجرة اليهود وازدياد نفوذهم .

(٣) Steed, H.W., *Through Thirty years 1892-1922*, Vol. II, p. 298.

وفي اجتماع آخر عقده الاربعة الكبار يوم ٢٥ اذار تمت الموافقة رسمياً على ايفاد اللجنة الرباعية وعلى ان تنتدب كل دولة عضوين يمثلانها في اللجنة . وقد اختار الرئيس ولسون الدكتور هنري كنج والمستر شارلس كرين بينما عينت الحكومة البريطانية السير هنري مكماهون والاستاذ هوجارث . ولكن فرنسا لم تعين ممثليها ولم تبد ايطاليا اي اهتمام .

ويبدو ان لويد جورج اقتنع بقوة الحجج التي ساقها بلفور ، فحاول يوم ٢٧ آذار اقناع الرئيس ولسون بان لا فائدة ترجى من ارسال اللجنة ، وقال انه تسلم من العراق عرائض تطالب بادارة بريطانية مباشرة وعدم الرغبة في حكومة يرأسها امير عربي [١] . ولكن الرئيس ولسون أصر على ضرورة قيام اللجنة بمهمتها .

ان اهتمام الرئيس ولسون الجدي بموضوع سورية جعل الساسة البريطانيين يميلون تدريجياً إلى فكرة التفاهم مع الفرنسيين لحل المسألة السورية بسرعة ، خشية ان يؤدي الاهتمام الاميركي إلى الاضرار بمطامعهم في العراق وفلسطين وإلى زيادة الوضع المتفجر في مصر سوءاً.
وقد بذل ويكهام ستيد محرر التايمس جهوداً للتقريب بين الاطراف الثلاثة المعنية ، فدبر يوم ٢٥ اذار اجتماعاً بين عدد من البريطانيين والفرنسيين (كان ممن حضره لورنس وجرترود بل وروبير دي كاي) وبعد نقاش طويل توصل المجتمعون إلى ان ارسال اللجنة سيؤدي إلى

---

(١) من الواضح ان هذا جاء نتيجة للسياسة الاستعمارية التي كان ارنولد ولسون الحاكم السياسي يتبعها في العراق،وكان ولسون هذا قد وصل إلى باريس في ٢٠ آذار.راجع كتابه Mesopotamia 1917-1920, A Clash of Loyalties, London, 1931, pp. 115-116. وكان ارنولد ولسون وضباطه السياسيون في العراق استعملوا أساليب خادعة وملتوية لاقناع عدد من الشيوخ والوجهاء بتوقيع مضابط يطلبون فيها الحماية البريطانية . وفي الوقت ذاته رفض ولسون قبول المضابط التي أعدها وجهاء المدن العراقية وفيها طلب تأسيس حكومة عربية مستقلة تحت رئاسة أحد أنجال الملك حسين : العمري ، المجلد الثالث ، ص ص ٢٢ — ٢٤ .

اثارة الخواطر في البلاد وفتح الباب للدساسين . وقيل ان لورنس « اوضح ان الاتجاه للوحدة العربية لا يملك قيمة سياسية جدية في الوقت الحاضر او المستقبل . »

وقال لورنس انه يجب ان لا تكون لسورية علاقة بالملك حسين وذلك لتسهيل عقد التفاهم بين فيصل وفرنسا ، وانه سينصح فيصل بتأخير سفره لاعطاء الفرصة للتفاهم بينه وبين الفرنسيين مباشرة ولتفادي ارسال لجنة التحقيق [(١)] . وقد يكون موقف لورنس ناشئا عن تعليمات تلقاها من حكومته أو لانه فهم من حكومته ان لا أمل لفيصل الا بالتوصل الى اتفاق مع الفرنسيين .

ولكن علينا ان لا نفهم من هذا ان فيصلاً كان يتصرف طبقا لنصائح لورنس . فان فكرة التوصل الى تفاهم مع الفرنسيين لم تكن منذ البداية بعيدة عن ذهن فيصل . نلاحظ هذا من رسالة خاصة بعث بها الى ابيه في ٢٨ شباط وقال فيها انه «لم يطرأ اي تبديل على الوضع السياسي ، وستبدأ المباحثات مع كليمنصو عندما يشفى من جراحه . الصحافة الفرنسية معادية وقد نشرت الطان يوم امس مقالة طويلة طلبت فيها عقد اتفاق مع انكلترا لتقسيم بلادنا.... الانكليز واثقون من المستقبل وينتظرون تطور الاحداث، والامريكان على رأسهم الرئيس ولسون متفقون معنا تماما ... ». وقال انه اذا نجح الرئيس ولسون في بلاده «فاننا عندئذ نستطيع القول ان مطامح العرب تحققت باجمعها ...» [(٢)] ونرى ان فيصلاً ظل يواصل مساعيه مع الفرنسيين من رسالة خاصة كتبها الى اخيه زيد بتاريخ ٦ اذار وقال فيها ان عودته الى دمشق ترتبط باحتمالين «اما انني اقنع كليمنصو ببعض منافع تجارية لاجل ان لا ينكسر شرفها

---

(١) Steed, Ibid., II, p. 323.

(٢) عن الترجمة في الملف F.O. 882/22 وكان كليمنصو قد تعرض يوم ١٩ شباط إلى محاولة اغتيال وأصيب بعيار ناري . أما الرئيس ولسون فقد غادر باريس في ١٥ شباط عائدا إلى بلاده بعد ان اشتدت المعارضة ضده فيها ولم يعد الا في ١٤ آذار .

[فرنسا] بتاتاً وأنهي الامر بدون شغل ثاني . وان ما أمكن ذلك ولا رضيت فرانسة فسيأتي قومسيون دولي وسينظر في مطاليب الاهالي وأفكارهم ...»
وفي رسالته تلك قال فيصل ان الرأي العام الامريكي والبريطاني مع العرب، وانه ينتظر عودة الرئيس ولسون ظافرا . وكرر الطلب على زيد بان يرسل اهل سورية برقيات يوكلونه فيها ممثلا هم وذلك للرد على ادعاء الفرنسيين انه حجازي ولا شأن له بسورية .[1] وفي ٢٩ اذار اجتمع فيصل (ومعه لورنس) بالكولونيل هاوس وذكر له انه يعلق الامل على ذهاب لجنة التحقيق الى سورية، بل قيل ان فيصلاً سأل هاوس عما اذا كان هناك اي مجال لان تقبل الولايات المتحدة الانتداب على سورية لان اعطاء الانتداب لفرنسا سيعني نشوب الحرب .[2]

وظل فيصل في الوقت ذاته يحاول الاجتماع مع كليمنصو بقصد التوصل الى تسوية مباشرة ، ولكن قيل ان فيصلاً لم يتلق جوابا فاضطر ان ينبيء لويد جورج فرتب هذا في الحال موعدا لاجتماع الاثنين (فيصل وكليمنصو). والارجح ان لويد جورج هو الذي اقنع فيصلاً بضرورة التفاهم مباشرة مع كليمنصو ولكن هذا الاخير كان يعتقد ان الانكليز هم الذين يحرضون فيصلاً سرا فأراد ان يقنعوه علنا وبصورة جدية بضرورة التفاهم مع فرنسا . وعلى اية حال فقد استقبل كليمنصو فيصلا يوم ١٣ نيسان وقال له : ان الانكليز سينسحبون من دمشق وحلب واود ان يحل جنودنا محلهم هناك ، فرد فيصل بعدم الموافقة قائلا ان سورية لا تحتاج الى جنود اجانب . وعندئذ قال كليمنصو : انا لا اود احتلال البلاد ، ولو كان الامر راجعا لي شخصيا لما اختلفت معكم دقيقة واحدة، ولكن الامة الفرنسية لا ترضى بان لا يكون في سورية اثر يدل على

---

(١) أوراق الأمير زيد . وقد أرسلت بالفعل برقيات من ممثلي الرأي العام في سورية ينيبون فيها فيصلا عنهم لدى مؤتمر السلم . وهذه البرقيات أرسلت إلى الرئيس ولسون وإلى رئيسي الوزارتين البريطانية والفرنسية – راجع : يوسف الحكيم ، سورية والعهد الفيصلي ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ٥٨ .

(٢) House Diary, entry of 29 March 1919.

الحضور الفرنسي ، وهو يريد ان يرتفع العلم الفرنسي في سورية مع وجود عدد قليل من الجنود ، ولا مانع ان يرفع العلم العربي الى جانب العلم الفرنسي [1] . وكان من نتائج ذلك الاجتماع ان كليمنصو بعث في ١٧ نيسان بمسودة رسالة الى الامير بقصد ان يحصل على مسودة جواب الامير حتى اذا كان الجواب مرضياً تمّ تبادل الرسالتين رسميا . ولكن الامير بعث جوابا لم يرض كليمنصو فلم يبعث الرسالة . وقد تضمنت مسودة كليمنصو القول ان الحكومة الفرنسية مستعدة «ان تعترف بحق سورية في الاستقلال عن طريق تأليف اتحاد مناطق مستقلة محليا حسب تقاليد السكان ورغباتهم ». وتضمنت المذكرة استعداد فرنسا لتقديم مساعدتها «المادية والمعنوية لتحقيق تحرر سورية »، كما تضمنت القول ان فيصلاً طلب ان تقوم فرنسا بتقديم العون والمستشارين لسورية . ولم تتضمن مسودة جواب فيصل (التي لم تنشر حتى الان)ما يرضي الفرنسيين فرفضوها . [2]

بعد مقابلته مع كليمنصو اقتنع فيصل ان الفرنسيين يريدون ان يحكموا سورية حكما مباشرا ، وان لا مجال للتوصل الى تفاهم معقول معهم ، فاعتزم ان يمضي قدما في مسألة لجنة التحقيق اعتقادا منه ان الولايات المتحدة وبريطانيا لن تخذلاه خذلاناً تاماً عندما تظهر نتائج التحقيق . وهكذا بعث برسالة مجاملة الى كليمنصو في ٢٠ نيسان قال فيها انه مضطر للعودة الى بلاده ولذلك طلب تعيين ممثل فرنسي لمواصلة المباحثات التي بدأها مع كليمنصو [3] . ومن الواضح ان لورنس لعب دوره في هذه المحاولة ، فقد قال فيصل انه «بناء على نصيحة لورنس اتفق هو شفهيا مع كليمنصو ان يبذل مساعيه مع الشعب للقبول بالانتداب

(١) نقلها ساطع الحصري عن أوراق فيصل ، ولكنه ذكر ان الاجتماع وقع في ١٦ نيسان – راجع : يوم ميسلون ، بيروت ، طبعة جديدة (١٩٦٤) ، ص ص ١١٣ – ١١٤

(٢) Enclosure 2 with letter No. 628, Balfour to Curzon, B.D. Vol. IV, p. 252.

(٣) Ibid., enclosure 3, pp. 252-253.

الفرنسي على سورية ، على اساس ان تعترف فرنسا باستقلال سورية »[1] بينما وضع كليمنصو اللوم على كاهل لورنس عندما قال للكولونيل هاوس انه وفيصل توصلا الى اتفاق في ١٣ نيسان «ولكن بعد ان تحدث فيصل مع لورنس ... عاد وسحب ما كان قاله لكليمنصو».[2] وتدل البرقية التالية على ما كان يدور في ذهن فيصل في تلك الفترة :

أخرت سفري لمذاكرة مهمة . ربما اعترفت فرنسا من الان باستقلال سوريا التام . القومسيون متوجه إلى طرفكم وأنا اذا لم أحوز على النتيجة المطلوبة أكون عندكم قبيل وصوله . الأمر مكتوم . اهتموا بالامن والراحة جداً لحين وصولي . لا تعتبروا الاخبار الواردة من باريس لأنها غير صحيحة . (٣)

وبعد ان اخفق فيصل في محاولته هذه ، اعتزم ان يعود الى سورية استعدادا لمجيء لجنة التحقيق اليها . وفي ٢١ نيسان زار كليمنصو مودعا ، ثم قام بزيارة هاوس وأبلغه انه والسوريين كلهم يعلقون الآمال على تمسك الامريكيين بمبدأ تقرير المصير . ونتج عن ذلك ان الرئيس ويلسون امر الاعضاء الامريكيين في لجنة التحقيق بالاستعداد للسفر . وفي يوم ٢٣ نيسان غادر فيصل باريس يرافقه الكولونيل تولا ضابط الارتباط الفرنسي الجديد . وفي طريق عودته الى بلاده زار مدينة روما واجتمع فيها بالبابا وملك ايطاليا . ثم غادر ميناء تارنتو على متن سفينة حربية فرنسية فبلغ بيروت يوم ٣٠ نيسان ١٩١٩ . ومما يدل على ان لورنس ظل وثيق الصلة بفيصل حتى يوم سفره ، انه اضاف بخط يده على البرقية المرسلة بشان سفر فيصل ، العبارة التالية «سري . انه لم يتوصل الى

---

(١) Clayton to F.O., 21 May 1919, tel. No. E.A. 2447, Ibid., p. 265, note 3.

(٢) House Diary, entry of 14 April 1919.

(٣) من فيصل إلى زيد بتاريخ ٢٦ نيسان (؟) وأرسلت البرقية بواسطة كرزون إلى كلايتون تحت رقم ١٥٢٢٥ – (أوراق الأمير زيد) .

تفاهم مع الحكومة الفرنسية قبل سفره .»[1]

وبعد سفر فيصل اصبح الممثلان العربيان في مؤتمر السلم هما رستم حيدر وعوني عبد الهادي، بينما أصبح امين الكسباني السكرتير العام للوفد العربي في باريس، وهو المنصب الذي كان يحتله عوني عبد الهادي قبل ذلك.

(١) Telegram No. 13 from Balfour to Clayton dated 23 April 1919, F.O. 608/92. ونلاحظ من المخابرات التي يتضمنها هذا الملف ان لورنس ظل يتعاون مع الوفد العربي في باريس حتى أواخر شهر ايار ، عندما أبلغت وزارة الخارجية البريطانية الوفد العربي ان عليه أن يرسل برقياته بعد ذلك عن طريق اخر وليس عن طريق الحكومة البريطانية كما كان الترتيب في السابق .

الفصل الثامن

العرب بين شقي رحى

الصيف المضطرب – ١٩١٩ : عندما وصل فيصل الى بيروت يوم ٣٠ نيسان ١٩١٩ بعد الأشهر الخمسة التي قضاها في اوروبا ، كانت آماله معلّقة على لجنة التحقيق الدولية ، اعتقاداً منه ان الدول الكبرى ستكون مضطرة معنويا للقبول بما تتوصل اليه . لم يكن فيصل – والعرب عموماً – قد فقدوا ثقتهم بعد بمبادىء حضارة الغرب وقيَمِها ، وكان أملهم كبيراً بالرئيس ولسون والامريكيين . وخلال اليومين اللذين قضاهما فيصل في بيروت أدلى ببيان وتصريحات تدل على ثقته التامة بلجنة التحقيق والنتائج التي ستترتب على تحقيقاتها . وقد حثّ السوريين على طلب الاستقلال التام ، وقال ان سورية بحاجة الى معاونة ولكنها ستطلب المعاونة ممن تريد وبحسب ما يوافقها وستبتاعها بثمنها . وأعلن ان مؤتمراً سورياً عاماً سوف يُعقد عما قريب .

وبعد وصوله الى دمشق ألقى فيصل يوم ٥ ايار خطاباً في جمهور كبير من زعماء سورية ، ذكر فيه أسباب الثورة العربية ، وأسباب ذهابه الى مؤتمر السلم وقال انه وجد أهل الغرب في حالة جهل عميق بأحوال العرب الراهنة ، ولا يعرفون عنهم الا ما علق بأذهانهم من حكايات الف ليلة وليلة ، وانه بذل جهوداً كبيرة لإفهام ساسة الدول الكبرى «ان العرب امة واحدة تقطن في البلاد التي تحدها البحار من الشرق والجنوب والغرب وتحدها جبال طوروس من الشمال» ، وان الخطة التي اتبعها في الدفاع عن قضية العرب ، قامت على (١) ان البلاد

العربية لا يمكن تجزئتها، و(٢) ليست الظروف ملائمة لتأليف دولة واحدة في بلاد العرب كلها، لذلك يجب ان تتألف ثلاث دول مستقلة في سورية «بحدودها الطبيعية» وفي العراق، وفي الجزيرة العربية. اما عن معاونة الدول الاجنبية فقد كرّر القول ان سورية «تريد ان تستقل وتأخذ ما تحتاجه من المعاونة بثمنه اي بدراهم معدودات». وأبلغ فيصل الحضور ان لجنة التحقيق الدولية سوف تسألهم عن آرائهم في شكل الحكومة التي يريدونها لبلادهم، وان الموقف «هو بيدكم». ثم سأل الحضور اذا كانوا يوافقون على سياسته وعلى ان يستمر في ادارة البلاد. فأجيب بالايجاب والموافقة.[1]

ومما يدل على اعتماد فيصل على الأمريكيين انه بعث يوم ٢ ايار رسالة الى اللنبي تضمنت طلب معدات عسكرية وأسلحة للجيش السوري، ثم قال انه مقتنع بحاجة الجيش الى خبراء «وبما ان هؤلاء لا يمكن استعارتهم من الجيش البريطاني في الوقت الحاضر، فانني على ثقة من انكم ستسمحون لنا باستخدام خبراء امريكيين لانهم أكثر حياداً من أبناء الامم الاخرى».[2] وفي ٤ ايار أرسل رسالة الى الرئيس ولسون (بواسطة كلايتون) يستعجل مجيء لجنة التحقيق ويقول ان أهل البلاد كلهم ينتظرون قدومها.

ويقال ان فيصلاً تأثر عند وصوله الى سورية بالجو الحماسي الذي كان يعيش فيه المتطرفون ولذلك تراجع عن خطة التفاهم مع الفرنسيين. ولكن الأرجح ان فيصلاً لم يكن ينوي التفاهم مع الفرنسيين الا اذا تراجعوا عن خططهم الاستعمارية، وانه كان يماطلهم ريثما تصل لجنة التحقيق. ويبدو أن الفرنسيين كانوا يعتقدون ان فيصلاً ينوي السير على خطة التفاهم معهم، لذلك رحبوا به ترحيباً حاراً في بيروت. وأشاد

---

(١) البيان والخطاب في: امين سعيد، الثورة العربية الكبرى، المجلد الثاني (القسم الاول)، ص ص ٢٤ — ٣٤.

(٢) Letter No. 868, P.R.O., F.O. 882/24.

كليمنصو بفيصل في اجتماع مجلس الاربعة يوم ١٤ ايار قائلا انه «سلك سلوكاً طيباً منذ وصوله الى سورية».

وقال غو ان بيانات فيصل «كان لها وقع حسن في قلوب الفرنسيين». ولكن الفرنسيين في الوقت ذاته نشروا في الصحف نبأ اتفاق فيصل مع كليمنصو ، حتى اضطر الوفد العربي في باريس الى تكذيب النبأ معتبرا تصرف الفرنسيين محاولة لتثبيط همم العرب والاصطياد في الماء العكر.[١] والواقع ان الفرنسيين لم يبذلوا اي مجهود مخلص لتنمية الثقة بينهم وبين العرب ، اعتقادا منهم ان الطرف المهم في الموضوع هم البريطانيون وليس العرب.

وعندما اجتمع فيصل باللنبي في دمشق يوم ١٢ ايار أعرب فيصل عن رغبته في جمع ممثلين مختارين عن سورية بقصد اعلان استقلال سورية التام ووضع الدول الكبرى امام الامر الواقع . واعترض اللنبي على اقتراح فيصل وحذّره مغبّة الاقدام على خطوة كهذه . وعندئذ قال فيصل انه سوف يعطي التعليمات بان يطلب السوريون الاستقلال التام.[٢]

بعد هذا عقد فيصل اجتماعات مع جورج بيكو يومي ١٦ و ١٧ ايار . واثناء هذه الاجتماعات طلب فيصل ان تلغي فرنسا اتفاقية سايكس – بيكو وان تسحب قواتها العسكرية بحيث تقوم ادارة عربية في ساحل سورية وداخلها . وقال فيصل لبيكو انه يمكن التوصل الى نوع من التعاون مع فرنسا يشمل المساعدة المالية والمستشارين والفنيين ، مع الرفض التام للانتداب الذي يضع البلاد في وضع تونس او مراكش . ثم طلب معاضدة فرنسا لتوحيد فلسطين وسورية والموصل وكيليكيا ، وفي تحقيق الاستقلال للعراق . وطلب فيصل ايضا

---

(١) رسالة خاصة من رستم حيدر (رئيس الوفد العربي في باريس) إلى فيصل بتاريخ ٧ ايار ١٩١٩ . وجاء في هذه الرسالة «كل يوم يمر علي يشدد من قناعتي الاولى ويجعلني على بينة من فساد نوايا الحكومة الفرنسوية التي يجب أن لا نأمن لمواعيدها العرقوبية» – (أوراق الأمير زيد) .

(٢) Clayton to Curzon, 23 June 1919, tel. no. C.P.O. 311, B.D. IV, p. 287.

ان تصدر فرنسا تصريحاً رسمياً تظهر فيه نياتها الحسنة تجاه العرب . وقد رفع بيكو مقترحات فيصل الى حكومته ، وقيل ان كليمنصو كان راغبا في ان يوافق على أكثر شروط فيصل . وفي ١٨ حزيران قام بيكو بابلاغ فيصل استعداد الحكومة الفرنسية لاصدار التصريح الذي طلبه ، وموافقتها على تنسيب موظفين سوريين للمنطقة الساحلية والداخلية .(١) وقال بيكو انه فعل كل ما بوسعه لانشاء حكومة وطنية في المنطقة الغربية ، ولكن القائد العام (اللنبي)لم يوافق على مقترحاته ، وان فرنسا قامت بما يترتب عليها واعترفت بمبدأ استقلال سورية . وقال فيصل انه يريد الحصول على الاعتراف باستقلال سورية استقلالاً تاماً لا يخضع لشروط. وقال بيكو ان بريطانيا تطالب بتوسيع حدود فلسطين كي تشمل حوران وجبل الدروز وان فرنسا ترفض هذا الطلب . اما بشأن لجنة التحقيق فقد قال بيكو ان الرئيس ولسون أرسل الاعضاء الامريكيين بصورة خاصة ، وان نتائج التحقيق لن تكون موضع اهتمام مؤتمر السلم . ورفض فيصل قبول وجهة نظر بيكو وقال بما ان فرنسا أخفقت في تنفيذ وعدها له فانه يريد أن يدع لأهل البلاد حرية اتخاذ القرار الذي يرونه ملائما لمستقبلهم ، ولا يستطيع ان يمضي في بحث الموضوع حتى تغادر لجنة التحقيق البلاد.(٢)

وفي الوقت الذي كان فيه لا حديث للسوريين عموماً الا حديث لجنة التحقيق الدولية وقدومها المتوقع ومبدأ تقرير المصير المرتبط بمجيئها – بعث الحاكم الاداري العام في المنطقة الجنوبية (فلسطين) برقية الى اللورد كرزون يقول فيها ان ربط البرنامج الصهيوني بالانتداب البريطاني سيدفع أهل فلسطين الى اختيار الولايات الاميركية المتحدة اوفرنسا ، دولة منتدبة ، ولكن اكثرية السكان سوف يصوتون الى جانب بريطانيا اذا أزيلت أسباب خوفهم من الصهيونية . ثم اقترح ان تنشر الحكومة

---

(١) Gontaut-Biron, pp. 236-7, Quoted by Nevakivi pp. 145-6.

ومن رأي هذا المؤلف ان فيصلا كان قد وقع حينذاك تحت تأثير المتطرفين فقام يطالب باستقلال سورية كلها ومن جملتها لبنان ، مما لم يكن الفرنسيون على استعداد لقبوله .

(٢) Memo. by Col. Cornwallis, June 1919, B.D. IV, pp. 278-280.

البريطانية تصريحاً رسمياً تقول فيه ان البرنامج الصهيوني لن يُنفّذ بالقوة ضد رغبات الأكثرية – هذا اذا كانت تريد ان يصوّت الأهلون الى جانبها . وقد أيّد الجنرال كلايتون أقوال الحاكم الاداري العام وقال ان الشعور ضد الصهيونية لا يقتصر على فلسطين بل يشمل شرقي الاردن ايضا .(١)

يبدو ان الصهيونيين عرفوا بهذه البرقية ، فمضى فرانكفورتر – على الأرجح بمعرفة بلفور – الى الرئيس ولسون يسأله فيما اذا كان لا يزال على رأيه السابق بمعاضدة الصهيونية . وكان جواب الرئيس ولسون انه ما يزال يؤيد مشاريع الصهيونية في فلسطين . وبعد الحصول على تأكيد ولسون (٢) بعث بلفور رسالة الى اللورد كرزون أشار فيها الى برقية كلايتون قائلا انه لا مجال لاصدار التصريح الذي يقترحه كلايتون خاصة وان حكومات فرنسا والولايات المتحدة الاميركية وايطاليا وافقت على تصريح ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ . واقترح ارسال الكولونيل ماينر تزهاجن لكي يساعد كلايتون في هذه المسألة بالذات .(٣)

لو كان فيصل والزعماء العرب يدركون حقيقة موقف الرئيس ولسون الذي تجاهل مبدأ حرية تقرير المصير بفعل الضغط الصهيوني ، لما قضوا ذلك الصيف يعملون في ظل الانطباع الذي ساد بينهم من ان اميركا هي

---

(١) Clayton to Curzon, No. C. 155, 2 May 1919, B.D. IV, p. 272. Chief Administrator O.E.T. (South) was then General A.W. Money.

(٢) See letters exchanged between Frankfurter & President Wilson, 8-21 May 1919. Correspondence was forwarded by Balfour to Curzon on 31 May 1919, under the heading 'Establishment of Palestine as Jewish National Home.' — B.D. IV, pp. 260-2.

(٣) Balfour to Curzon, Despatch dated 19 May 1919, B.D. IV, p. 281, f.n. 4. ولم يلبث ماينر تزهاجن ان أرسل الى فلسطين فحل محل الجنرال كلايتون في وظيفة رئيس الضباط السياسيين ، وكان صهيونياً أكثر من الصهيونيين أنفسهم كما تدل على ذلك مذكراته : Middle East Diary, 1917-1956, London, The Crescent Press, 1959.

نصيرة الحق وان الرئيس ولسون هو رافع علم الحرية . ولكن الواقع ان الثقة بالرئيس الاميركي ظلت عاملا رئيسيا في السياسة العربية طوال صيف ١٩١٩ . وبفعل هذه الثقة بعث فيصل في النصف الاول من شهر ايار بتعليمات لجميع موظفي الحكومة كي يحضوا الاهلين على طلب الاستقلال التام لسورية ، وفي الوقت ذاته طلب من اللنبي الموافقة على تسليح جيش يتألف من ١٤ الف رجل . واصبح موقف السياسيين السوريين قائما على امرين اولهما طلب الاستقلال التام والثاني انهم لا يريدون فرنسا . وقيل ان غاية فيصل من تأليف الجيش هي ان يحارب فرنسا اذا دعت الضرورة . [١]

ولكن فيصلاً تسلم رسالة من رستم حيدر يقول فيها انه لامر خطير ان تصر سورية على طلب الاستقلال التام بينما قررت الدول الكبرى انه يجب فرض الانتداب . وكان فيصل يرى انه اذا كان لا بد من الانتداب ، فان علاقة سورية بالدولة المنتدبة يجب ان تكون علاقة تعاون يتبادل الطرفان المنافع من خلاله ، فهو يريد لسورية الاستقلال مع مساعدة ومشورة من قبل الدول المنتدبة . [٢]

والواقع ان المعركة السياسية حول سورية كانت تعني بلاد العرب كلها . كانت قضية سورية هي المحك . وقد لجأ العرب في النصف الثاني من ايار الى خطة سياسية اخرى ، فطالب مندوبهم في باريس «ان

---

(١) Report by Lt. Col. Cornwallis, Deputy C.P.O. at Damascus, 16 May 1919, B.D. IV, pp. 263-6.
وكانت مسألة تسليح العرب موضوع رسالة بتاريخ ٢٠ شباط ١٩١٩ من وزارة الخارجية إلى وزارة الحربية قالت فيها ان تسليح الجندرمة العرب يجب تأجيله إلى أن يؤخذ قرار بشأن مستقبل سورية ، وبناء عليه بعثت وزارة الحربية تعليمات إلى اللنبي تطلب اليه أن يماطل في الاجابة ويطلب لوائح تقديرات جديدة من العرب . وقد علق لورنس بخط يده على المخابرة فنصح بتسليح الجندرمة واضاف « اما بشأن الجيش فانني لم انبىء فيصلا اننا نرى أن يوقف تسليحه بقصد منعه من محاربة الفرنسيين حربا ناجحة : واذا ما خطرّ لي عذر اخر غير هذا فسأعرضه.» P.R.O., F.O. 608/80.

(٢) راجع ما قاله فيصل إلى كلايتون بهذا الشأن لدى اجتماعهما في ٢٠ ايار ١٩١٩ — Clayton to F.O., tel. No. E.A. 2457, 21 May 1919, B.D. IV, p. 265, f.n. 3.

توضع جميع الاقطار الناطقة بالعربية تحت انتداب دولة واحدة وان لا تقسم لتكون تحت انتداب دولتين او ثلاث دول ». وكان جواب اللورد هاردنج ان تنفيذ هذا الطلب «يكاد يكون عبثا مستحيلا »لان دولة واحدة لا تستطيع الانفاق على تطوير البلاد واعمارها .[1] اما المستر بولك رئيس الوفد الاميركي لمؤتمر السلم (بعد عودة الرئيس ولسون الى بلاده) فقد كان اكثر صراحة اذ قال للعضوين العربيين : ان طلبكما صعب التنفيذ ، لان فرنسا مصرة على الذهاب الى سورية وبريطانيا مصرة على الذهاب الى فلسطين .[2]

وفي الاجتماعات التي عقدها مجلس الاربعة يومي ٢١ و ٢٢ ايار ، طالب لويد جورج بتوسيع حدود فلسطين الى الشمال وتوسيع الشقة التي تربط بين فلسطين والعراق ؛ بحيث يمر الخط على بعد اربعين ميلا تقريبا الى الجنوب الشرقي من دمشق وبحيث تكون تدمر في الشقة البريطانية ، وذلك بديلا لانسحاب القوات البريطانية من سورية . وقد اعترض كليمنصو على هذا الطلب اشد الاعتراض ، وقال انه اذا تمت التسوية المتعلقة بالاراضي المنسلخة عن الاتراك ضد مصالح فرنسا فانه سيضطر الى الاستقالة . واتهم لويد جورج بالحنث بوعوده قائلا انه على الرغم من موافقته على اعطاء الموصل وفلسطين لبريطانيا ؛ فان القوات البريطانية لم تخل سورية كي تحل محلها قوات فرنسية . ورد لويد جورج بان اتفاقية سايكس — بيكو جعلت سورية الداخلية منطقة عربية ، فلا يحق لفرنسا بموجبها ان ترفع علمها فيها او ان تضع فيها جنديا واحدا . ولكن كليمنصو اصر على انه عندما اعطى الموصل لفرنسا اعتقد ان فرنسا ستحصل بالمقابل على المدن الاربع . وهنا تذكر الرئيس ولسون

---

(١) Hardinge to Balfour, 24 May 1919, F.O. 608/80.
وكان رستم حيدر وعضو آخر من أعضاء الوفد العربي في باريس قد قابلا اللورد هاردنج ذلك اليوم .

(٢) رسالة خاصة من عوني عبد الهادي للمؤلف . وكان عوني ونوري السعيد قد ذهبا لمقابلة المستر بولك ومطالبته بعدم تقسيم البلاد العربية .

مبدأ تقرير المصير فقال انه لا يفهم السياسة السرية «وانه يود حل مشاكل الشرق الاوسط بحسب نقاطه الاربع عشرة التي أعلنها في ٨ كانون الثاني ١٩١٨ وبموجب خطابه في جبل فرنون بتاريخ ٤ تموز ١٩١٨ . وقال انه لا يستطيع ان يفهم بأي حق تعطي فرنسا وبريطانيا البلاد الى اخرين ، وانه سيرسل الاعضاء الامريكيين في لجنة التحقيق الى الاقطار المعنية للتحقق من رغبات اهلها . وهنا قال لويد جورج «انه مستعد تماما ان يسير بحسب قرار سكان البلاد كما تظهره تحقيقات اللجنة». وانه لن يسحب الجنود البريطانيين الا بعد ان تصدر لجنة التحقيق نتيجة أبحاثها . وقد اثار هذا القول غضب كليمنصو فقال انه سيتخلى عن خطة التحقيق وانه «لا حاجة لارسال لجنة الى سورية للقيام بتحقيقات تحت ديكتاتورية الجنرال اللنبي» وهدد بانه اذا ذهب المندوبون البريطانيون في لجنة التحقيق الى سورية قبل ان تسحب بريطانيا قواتها «فلن يتعاون من الان فصاعدا مع البريطانيين في هذا الجزء من العالم لان الضرر الذي يلحق ببلاده عظيم جدا». وللحال نكص لويد جورج على عقبيه وقال انه لن يرسل مندوبيه اذا لم ترسل فرنسا مندوبيها [1] . وعندئذ اصدر الرئيس ولسون امره بسفر الاعضاء الامريكيين فغادروا باريس خلال ايام ٢٥ — ٢٩ ايار .

وفي ٣١ ايار عاد مجلس الاربعة لبحث موضوع سورية فقال لويد جورج انه تسلم برقية من اللنبي تقول ان الحالة خطيرة في سورية وستزداد خطورة اذا لم تأت لجنة التحقيق . ولكن كليمنصو بقي عند موقفه السابق بأنه يرى من العبث ان ترسل فرنسا مندوبين عنها ما دامت سورية تحت احتلال بريطانيا العسكري ، وبقي لويد جورج على رأيه القائل بأن بريطانيا لن ترسل مندوبيها اذا لم ترسل فرنسة مندوبيها. وقال اورلاندو رئيس وزراء ايطاليا ان حكومته لن ترسل اعضاء عنها الا اذا ارسلت

---

(١) Minutes of the Council of Four; U.S. For. Relations, Paris Peace Conference, Vol. V, pp. 761-811.

فرنسا وبريطانيا اعضاء عنهما . [١]

اما برقية اللنبي التي اشار اليها لويد جورج فمؤرخة في ٣٠ ايار وتتضمن برقيتين من فيصل (٢٩ ايار) جاء فيهما انه بلغه ان الحكومة البريطانية سوف تسحب جنودها من سورية وان جيشا فرنسيا كبيرا سوف يصل الى سورية وان لجنة التحقيق اوقفت عن المجيء . وقال فيصل ان هذه الانباء اذا صحت فلسوف تؤدي الى اضطراب عظيم في جميع الاقطار العربية ؛ وبانه لا يستطيع ان يعتبر نفسه مسؤولا عما يمكن ان يحدث اذا زيدت القوات الفرنسية ولو جنديا واحدا . واضاف قائلا «اننا لا نستطيع ان نقبل تقسيم بلادنا كالمواشي ولا نستطيع قبول اي قرار الا القرار الذي ينص على حرية الشعوب ... ». وقال اللنبي ان وضع قواته سيكون خطيرا بصورة بالغة في سورية وفلسطين اذا لم يتلق نبأ يطمئن به فيصل من ان اللجنة قادمة وانها سوف ترسم مستقبل البلاد . [٢]

على ان اللنبي قابل تهديد فيصل بتهديد مماثل ، فابرق يحثه على ضرورة استمرار حالة الامن والنظام في منطقته ، وحذره تحذيراً حاسماً من «ان اي اجراء متسرع قد يؤدي بك الى الاشتباك مع قواتي سوف يضع نهاية سريعة لجميع مطامحك الوطنية ». [٣]

اما بلفور فقد رد على اللنبي بان الاعضاء الامريكيين في لجنة التحقيق هم في طريقهم الى سورية وان «الحكومة البريطانية سوف تنظر باهتمام تام للنصيحة التي سوف يتلقاها مجلس الحلفاء الاعلى والدول الحليفة الاخرى من اعضاء اللجنة الامريكيين ». ثم بعث برقية اخرى يصحح فيها اعتقاد اللنبي بمدى صلاحيات اللجنة ويقول «ان اللجنة لا

---

(١) Notes of a Meeting; B.D. Vol. IV, pp. 257-258.

(٢) B.D., Vol. IV; Allenby to Balfour, tel. No. E.A. 2484.

وقد أشار لويد جورج في اجتماع ٣١ ايار ان اللنبي كان قد أرسل رسالة خاصة بالمعنى ذاته في ١٧ ايار إلى الجنرال ولسون رئيس أركان حرب الجيوش البريطانية .

(٣) Ibid., Allenby to Balfour, tel. No. E.E. 2487 of 31 May 1919, pp. 259-260.

تملك صلاحية التقرير ولكنها بعد ان تمحص جميع الحقائق سوف تقدم آراءها الى المجلس الاعلى لدول الحلفاء الكبرى ، ويبقى للمجلس ان يتخذ القرار النهائي ». [1]

وخلال هذه الفترة كانت حرب الأعصاب على أشدّها. وكان فيصل في حالة قلق شديد للانباء المتضاربة التي تصل اليه . ويبدو ان الفرنسيين كانوا اشد تفاؤلا من سواهم بما سيتمخض عنه الغد القريب ، يدل على ذلك ما صرح به جورج بيكو للجنرال كلايتون يوم ١ حزيران من ان عملية اقتسام سورية سائرة في مجراها دون استشارة فيصل «وان اللجنة الاميركية قادمة بقصد واحد هو التعمية وايهام فيصل بينما تجرى الترتيبات لاقتسام سورية ». [2] بل ان بيكو زار فيصل وأبلغه ان لجنة التحقيق «ليست رسمية ». [3]

وكان قلق فيصل ناشئا عن عدم تأكده من حقيقة موقف الحكومة البريطانية وكان دائما يسأل نفسه : هل يمكن ان تتخلى بريطانيا عن اصدقائها وحلفائها العرب الذين دخلوا الحرب بناء على دعوتها ووعودها ؟ كان فيصل يخشى ان يتخذ البريطانيون من ميل العرب الى الولايات المتحدة ذريعة يبررون بها التخلي عن العرب . وبعد يومين من وصول الاعضاء الامريكيين ، ابرق فيصل الى اللنبي يطلب منه الاستيضاح عن مدى قوة التوصيات التي سيتقدمون بها ، وعما اذا كانت جمعية الامم ستنفذ توصياتهم . وقال ان السوريين يهمهم معرفة الحقيقة حتى يتصرفوا على ضوئها . وسأل اللنبي عما اذا كانت بريطانيا مستعدة لقبول الانتداب اذا صوّت السوريون الى جانبها ، اما اذا كانت بريطانيا مصممة على

---

(١) Balfour to Allenby, tel. No. 48 and 49 of 31 May 1919, Ibid., p. 259.

(٢) Clayton to Curzon, tel. No. E.A. 2491 of 1 June 1919, Ibid., p. 263. (Picot was then head of the Civil Administration of O.E.T. (West)

(٣) رسالة فيصل رقم ٢٢١ إلى أبيه الحسين بتاريخ ٢٠ شباط ١٩٢٠ – (أوراق الأمير زيد) .

عدم قبول الانتداب واذا كانت جمعية الامم لا يمكن ان توافق على الاستقلال التام «فان سورية سوف تطلب امريكا تفضيلا لها على فرنسا ... ان سورية تطلب ان تعرف ما هو ممكن وما هو غير ممكن». وعبّر فيصل عن قلقه مما بلغه «ان اللجنة ليست سوى مظهر فارغ وان مصير البلاد قد تقرر سلفاً». وقد ردّ اللنبي قائلا ان الحكومة البريطانية لا ترغب قبول الانتداب على سورية «ولكنها سوف تنظر بكل اهتمام الى توصيات اللجنة ..»[١] واعتبر فيصل جواب اللنبي ضربا من ضروب الديبلوماسية التي تكتفي بالتلميح عن التصريح. ويبدو انه اراد ان يقطع الشك باليقين ويتعرف على حقيقة موقف بريطانيا، فابرق في ١٤ حزيران يعرب عن سروره وسرور السوريين ان الحكومة البريطانية سوف تنظر بكل اهتمام الى توصيات اللجنة، ويقول «ان السوريين سوف يعلنون للجنة بالاجماع انهم يرغبون في انتداب بريطانيا لا سواها ... ولنا الثقة التامة ان لا يسمح شرف بريطانيا بان يُلقى هؤلاء الذين يطلبون مساعدتها بين ايد غريبة».[٢]

ولكن بلفور ابرق الى اللنبي يطلب اليه ابلاغ فيصل بصورة حاسمة «ان بريطانيا لن تقبل الانتداب على سورية باية حال من الاحوال»، وان فيصلاً «غير محق ابدا اذا حسب ان هذا الرفض يشكل تخليا عنه شخصيا او عن القضية العربية». واضاف بلفور بلهجة المنان الذي ارهقه صنع المعروف «اننا لا نستطيع ان نضيف مسؤولية الانتداب على سورية الى مسؤولياتنا الاخرى التي اخذناها على عاتقنا من اجل الجنس العربي».[٣]

وفي غمرة الاشاعات المتضاربة والشكوك والقلق والغموض التي وجد فيصل نفسه محاطا بها ابرق الى ولسون يطلب تأكيدا حول مدى صلاحيات لجنة التحقيق وحول ما يشاع من ان مستقبل سورية قد تقرر

---

(١) Allenby to Curzon, tel. No. E.A., 2529 of 12 June 1919, Ibid., pp. 275-6.

(٢) Clayton to Curzon, tel. No. E.A. 2536 of 15 June 1919, Ibid., p. 277.

(٣) Balfour to Allenby, tel. No. 59 of 26 June 1919, Ibid. pp. 298-9.

سلفاً ، وقال انه وشعبه باشد الحاجة الى معرفة حقائق الوضع الراهن.[1]

ولا نعلم اذا كان فيصل قد تلقى جوابا على رسالته هذه ، ولكن من الواضح انه اقتنع بان البريطانيين مصرون على ترك سورية وشأنها حتى لا يدخلوا في نزاع مع الفرنسيين . وكان من نتيجة اقتناع فيصل هذا ، انه اتجه نحو الولايات المتحدة « اعتمادا على مبادىء الامة الاميركية العظيمة » كما قال في رسالته المذكورة اعلاه للرئيس ولسون . وقد برز هذا الاتجاه في القرار الذي قدمه المؤتمر السوري العام الى لجنة التحقيق .

وكانت الانتخابات لاختيار اعضاء المؤتمر قد تمت في النصف الثاني من شهر ايار . وجرت الانتخابات في المنطقة الشرقية طبقا لقانون الانتخاب العثماني ، اما في الساحل وفلسطين فقد تم الانتخاب بموجب مضابط لوجود المنطقتين تحت الاحتلال الاجنبي .

وفي ٧ حزيران افتتح الامير فيصل اول جلسة للمؤتمر الذي ضمّ ١٢٠ عضوا.وقال في خطاب الافتتاح ان مهمة المؤتمر تنحصر في تمثيل البلاد امام اللجنة الاميركية ، وفي سنّ القانون الاساسي ليكون الدستور المقبل لسورية . ولم يتمكن بعض مندوبي المنطقة التي كان يسيطر عليها الفرنسيون من حضور جلسة المؤتمر الأولى. ويمكن القول ان المؤتمر كان يمثل سورية الطبيعية تمثيلا صحيحا،وانه كان بمثابة مجلس نيابي دستوري يعبر الى حد بعيد عن آراء السوريين وامانيهم طوال فترة انعقاده .[2]

ووصلت لجنة التحقيق (التي صارت تعرف في سورية باسم لجنة كنج — كرين)الى يافا يوم ١٠ حزيران فأثارت الامال في نفوس أكثرية السكان لاعتقادهم ان الولايات المتحدة الاميركية تقف وراء اللجنة وتدعمها ، وقد ساد الاعتقاد بان السوريين يستطيعون التخلص من

---

(١) This message was transmitted on 22 June from Allenby to Balfour. Ibid., p. 279, f.n.

(٢) ضم المؤتمر ٨٥ مندوبا منتخبا و ٣٥ مندوبا عن زعماء القبائل ورؤساء الاديان (امين سعيد : المجلد ٢ ، ص ٢٢٥) وقد انتخب المؤتمر السيد هاشم الأتاسي رئيسا له ، وفي الأشهر الثلاثة الأخيرة من عمر الدولة الفيصلية أنتخب الشيخ رشيد رضا رئيساً للمؤتمر .

اطماع فرنسا وبريطانيا عن طريق الامريكيين الذين لا اطماع استعمارية لهم . وقد قضت اللجنة ستة اسابيع في فلسطين وسورية ولبنان وقابلت اثناء تجوالها عددا كبيرا من الوفود وتلقت ما يزيد على ١٨٠٠ عريضة . وعند وصولها الى دمشق كان المؤتمر السوري قد استعد للقائها ، فقدم لها وفد منه يوم ٣ تموز القرار الذي اتخذه في اليوم السابق . ويمكن تلخيص ذلك القرار فيما يلي :

١ – اننا نطلب الاستقلال السياسي التام الناجز للبلاد السورية من جبال طوروس شمالا حتى رفح جنوبا ، في دولة ملكية نيابية يرأسها الامير فيصل ملكا .

٢ – تقبل المساعدة الفنية والاقتصادية بما لا يمس استقلالنا السياسي التام ، ونطلب هذه المساعدة من الولايات المتحدة الاميركية (على ان لا تزيد عن عشرين عاما)فاذا لم تقبل فمن بريطانيا . اما فرنسا فنرفض مساعدتها بأي حال من الاحوال ، كما نرفض جميع الاتفاقات السرية .

٣ – نرفض مطالب الصهيونيين في فلسطين «اما سكان البلاد الاصليون من اخواننا الموسويين فلهم ما لنا وعليهم ما علينا ».

٤ – نطلب الاستقلال التام للعراق .[١]

ومما هو جدير بالملاحظة ان وحدة سورية الطبيعية ما تزال حتى اليوم مطلب الاكثرية الساحقة من ابنائها ، وان العرب جميعهم ما يزالون حتى اليوم يرفضون مطالب الصهيونيين .

وفي اليوم ذاته اجتمع فيصل بلجنة كنج – كرين ، ومما قاله لها ان العرب لا يمكن ان يقبلوا بفصل فلسطين عن سورية لانهما قطر واحد ويقطنهما شعب واحد . وقال انه كان المفهوم عن الصهيونية انها ترمي الى هجرة محدودة وتوسيع المستعمرات الموجودة حاليا . اما مطامع الصهيونية الواسعة فقد بعثت الخوف في قلوب الناس وهو يجد الان انهم

---

(١) نص القرار كاملا في امين سعيد ، الثورة العربية الكبرى ، المجلد الثاني ، ص ص ٤٨ — ٥٠ . وقد تضمن القرار توكيل فيصل لمفاوضة الدول باسم سورية بالقول « انه يضع تمام الثقة » « بشخص الأمير فيصل» «ويجاهر بالاعتماد التام على سموه » .

مصممون على ان لا يتقبلوا أي شكل من اشكالها .[1]

اما لجنة كنج ــ كرين فقد بعثت في ١٠ تموز البرقية التالية الى مؤتمر السلم :

> هناك نقاط معينة لا مجال للشك فيها : الرغبة الحارة في وحدة سورية كلها وفلسطين ، والحصول على الاستقلال بأسرع ما يمكن . تعبير قوي لم يكن متوقعا عن الشعور الوطني . تصميم قاطع من الأهلين على رفض أن يصبحوا مجرد مستعمرة لأية دولة ، وضد أي نوع من أنواع الانتداب الفرنسي . هناك استثناءات لما تقدم بين الجماعات اللبنانية التي تطالب بفصل لبنان فصلا تاما وبالتعاون مع الفرنسيين.(٢)

وبعد ان اتمت اللجنة جولتها في المدن الرئيسية غادرت سورية الى باريس . ولم تذهب اللجنة الى العراق اعتقادا منها ان العراقيين يرغبون في انتداب بريطانيا .[3]

وسلمت اللجنة تقريرها في ٢٨ آب الى سكرتيرية الوفد الاميركي في باريس ، ثم سُلّم التقرير في منتصف ايلول الى الرئيس ولسون ، ولكن ولسون لم يلبث ان أصيب بمرض خطير ، ولم يجد التقرير من يهتم به فألقي به في زوايا الاهمال ولم ينشر الا في الشهر الاخير من عام ١٩٢٢ بعد ان أصبح شهادة تاريخية لا أكثر . وقد تضمنت توصيات اللجنة تحبيذها نظام الانتداب لمدة محدودة على سورية الطبيعية والعراق . وأوصت اللجنة بالمحافظة على وحدة سورية ، وبان تكون الولايات المتحدة منتدبة على سورية فان لم تقبل كان الانتداب من نصيب بريطانيا. كما أوصت بمنح بريطانيا الانتداب على العراق ، وباختصار البرنامج

---

(١) Col. French to Curzon, tel. No. 378 of 10 June 1919, B.D. IV, pp. 311-3. وقد حل الكولونيل فرنش محل الجنرال كلايتون ريثما يصل الكولونيل ماينرتزهاجن .

(٢) Papers Relating to the For. Relations of the United States, Vol. XII, p. 749.

(٣) هذا على رأي وليم ييل الذي رافق اللجنة بصفته خبيرا بأحوال المنطقة ، في كتابه The Near East, An Arbor, 1953, pp. 316 and 336.

الصهيوني في فلسطين وتحديد الهجرة اليهودية ونبذ فكرة جعل فلسطين دولة يهودية . وأخيرا قالت اللجنة انه اذا أصرّت فرنسا على التشبث بمصالحها في سورية فيمكن منحها الوصاية على لبنان الصغير .

وكان فيصل قد طلب في ١٤ تموز اعداد الترتيبات لسفره الى باريس في اواخر الشهر ذاته . ويبدو انه كان يريد الوصول الى باريس في الوقت الذي تصل فيه اليها لجنة كنج – كرين ، لمطالبة مؤتمر السلم باحترام توصياتها . ولكن الفرنسيين والبريطانيين نصحوه الا يفعل ، على اساس ان مؤتمر الصلح لن يبحث قضايا العرب وسورية في وقت قريب . بل ان بلفور بعث الى فيصل برقية من لورنس يوصي فيها فيصلاً بتأخير سفره حتى شهر ايلول. وقد هدد فيصل باعلان التعبئة العامة اذا اتخذت قرارات معادية للعرب . [1]

لا عجب اذا ازداد قلق فيصل في لجة هذا الوضع حتى كان لا يغمض له جفن في بعض الليالي . ذلك ان نتائج التصويت امام لجنة كنج– كرين جعلت فيصلاً العدو في نظر الفرنسيين وساد عندهم الاعتقاد انه نكث بعهده لهم . اما البريطانيون فقد تبادر الى ذهن فيصل انهم استاءوا لنتيجة التصويت الذي جعلهم في الدرجة الثانية بعد ان كان لهم المقام الاول عند العرب ، خاصة وان بعض الصحف السورية جاهرت بالعداء لهم [2] وتبادر الى ذهن فيصل انه اخطأ في ترجيح الامريكيين على الانكليز ، وانه على الرغم مما جرى منهم في فلسطين والعراق ومصر وعلى الرغم من اعمالهم «المملوءة بالخطيئات »– فقد كان افضل لو انه

---

(١) B.D., IV, Documents 221 & 222, pp. 314-5.

تلقى فيصل برقية لورنس في ١٧ تموز ١٩١٩ وبعد هذا التاريخ قطع لورنس صلته بالعرب بناء على تعليمات من حكومته – كما يبدو . وقد دار حوله جدل بين بلفور وكرزون خلال شهر آب ١٩١٩ . – B.D. 223 & 248.

(٢) صحيفتا « العقاب » و « الاستقلال » – والاولى لسان حال جمعية العهد والثانية لسان حال جمعية الفتاة التي انقلبت يومذاك إلى جمعية علنية باسم حزب الاستقلال ، وقد عمد فيصل إلى ايقاف صدورهما بعد معاتبة اللنبي له .

استمر في اعطائهم الاولوية . وفي موقفه هذا تمثّل فيصل بقول المتنبي شاعر العرب الاكبر :

ومن نكد الدنيا على الحرّ ان يرى   عدوا له ما من صداقته بدّ

ومع علم فيصل بان بريطانيا لا يمكنها ان تأتي الى سورية فانه تمنى لو اعطيت لها الاولوية في التصويت حتى «نجعلها في موقف حرج اقله انها ترى نفسها مجبورة على معاونتنا السياسية ... ». اما امريكا «التي اتانا رجالها وموازين العدل معلقة على اكتافهم» فقد تركت مسرح السياسة العالمية وعاد رجالها الى بلادهم «بخفي حنين» بعد ان «خدعتنا وأضلّتنا وأضلّت العالم بأسره على غير رغبة منها ». وازداد قلق فيصل اكثر واكثر بعد مبارحة لجنة كنج – كرين الديار السورية ، اذ تواترت الانباء والاشاعات عن اجتماعات يعقدها اركان الحكومتين البريطانية والفرنسية حول سورية . بينما كانت الحكومتان اياهما تردّان على الحاحه في الذهاب الى اوروبا ، بالاعتذار والمماطلة . اضف الى اسباب القلق والحيرة ان بيكو انبأه ان الحكومتين تتباحثان بشأن حوران وفلسطين وان الجنرال بولز قال له ان «أمر فلسطين قد بُتّ فيه وانها ستوضع تحت الوصاية البريطانية ».[1]

وكان فيصل على حق في قلقه وتحسبه من المستقبل ، فالهزيمة التي أحاقت بجيش الملك حسين في معركة تربة (ايار ١٩١٩) الحقت ضررا بالغا بهيبة الملك وبالقضية التي كان يتبناها ويدافع عنها . والفعالية التي اظهرها الوطنيون الاتراك بقيادة مصطفى كمال اثناء ذلك الصيف عكست ضعف الفعالية العربية ضد الخصوم . فلا العرب التقوا حول قضية واحدة وزعيم واحد كما فعل الاتراك ، ولا الدول الكبرى – كلها او واحدة منها – شاءت – او وجدت من مصلحتها – ان تأخذ بيد العرب وتساعدهم على تحقيق وحدتهم واستقلالهم .

---

(١) خواطر خصوصية كتبها فيصل في تشرين الثاني ١٩١٩ وبعث بها إلى أبيه . وهذه الخواطر تحمل وجهة نظر فيصل في الاحداث التي وقعت بين تموز وتشرين الأول ١٩١٩ – (أوراق الأمير زيد) .

ان غزو الاتراك لمنطقة كيليكيا التي كانت دول الحلفاء تخطط لانشاء جمهورية ارمنية فيها ، دفع الانكليز والفرنسيين الى الشعور بضرورة التفاهم على اتباع سياسة منسقة بينهما في الشرق العربي . كما ان الضغط الصهيوني من جهة ، ومطالبة العرب باستقلال العراق وفلسطين من جهة ثانية ، كانا من الاسباب الرئيسية التي اقنعت البريطانيين ان من مصلحتهم التفاهم مع فرنسا ، وغض النظر عن المثاليات .

اما الضغط الصهيوني فقد ظهر واضحا في رد الفعل الناشيء عن اقتراح الجنرال موني الذي سبقت الاشارة اليه وبتأييد الجنرال كلايتون لذلك الاقتراح في ايار ثم في حزيران . ذلك ان اقتراح الجنرالين أدى الى فقدانهما وظيفتهما في فلسطين . وقد أعطي كلايتون اجازة وعاد الى بريطانيا في اوائل تموز فحل محله الكولونيل ماينرتزهاجن (الاكثر صهيونية من الصهيونيين). وقام هربرت صموئيل والدكتور وايزمن في اوائل تموز بزيارة وزارة الخارجية يشكوان من موقف السلطات العسكرية في فلسطين الموالي للعرب في رأيهما ويطالبان «بتعيين ضباط جدد يفهمون فهماً أفضل مقاصد حكومة جلالته». ويهددان بقوة الرأي العام اليهودي. وكان رونالد ستورس حاكم القدس احد الذين شكا الصهيونيون من موقفهم (١) . ولم يلبث الضغط الصهيوني ان أدى الى استقالة الجنرال موني الحاكم الاداري العام في فلسطين. (٢)

واما مطالبة العرب باستقلال العراق وفلسطين ، فقد تبدت للبريطانيين في قرار المؤتمر السوري الذي قُدّم للجنة كنج — كرين ، وفي القناعات التي توصلت لجنة كنج — كرين اليها نتيجة اجتماعها بأهل فلسطين وسورية (٣) ، تلك القناعات التي برزت في برقية اللجنة بتاريخ ١٠ تموز والتي أوردنا نصها اعلاه . وقبل

---

(١) Note by Sir R. Graham of conversations with Mr. Samuel and Dr. Weizmann, 2 July 1919; B.D. IV, pp. 307-8.

(٢) Weizmann to Balfour, letter of 23 June 1919, Ibid. pp. 326-7.

(٣) French to Curzon, tel. no. CPO 311, 19 July 1919; Ibid. pp. 315-6.

ذلك كان فيصل قد كتب للجنرال كلايتون يقترح انشاء حكومة وطنية حرة في العراق حسب منطوق تصريح ٧ تشرين الثاني ١٩١٨ . وفي ٢٠ حزيران بعث كلايتون الى وزارة الخارجية عريضة بالمعنى ذاته من الضباط العراقيين في الجيش العربي [١] وفي الوقت ذاته قدّم الحاكم السياسي في العراق شكوى من نشاط الوطنيين العرب في العراق وطلب من وزارة الخارجية ان تضغط على فيصل كي يقصر نشاطاته على سورية[٢] وقدم الوفد العربي في باريس الى لويد جورج مذكرة مؤرخة ٢٣ حزيران من اللواء نوري السعيد كبير مرافقي فيصل ، تطالب باستقلال العراق واتحادها مع سورية . وقد أثارت لهجة المذكرة القوية غضب اللورد كرزون فبعث في اليوم التالي برقية الى كلايتون قال فيها «ان انتشار دعاية فيصل في العراق من اجل الاستقلال التام لبلاد العرب يسبّب قلقاً عظيماً في لندن وبغداد ». وطلب من كلايتون ان يعطي التعليمات لضباطه السياسيين بعدم تشجيع هذه الحركة بكل الوسائل المتوافرة لديهم . [٣]

وفي هذا النطاق يجب ان لا يفوتنا موقف وزارة الهند المعادي لفكرة الوحدة والاستقلال للعرب ، ذلك الموقف الذي كان يلتقي مع موقف فرنسا من هذه الناحية . وكانت وزارة الهند تختلف كل الاختلاف مع وزارة الخارجية البريطانية في النظر للقضايا العربية حتى ان الاستاذ توينبي يعتبر ان جيشي عبد العزيز آل سعود والحسين بن علي خاضا المعركة في تربة بالنيابة عن وزارتي الهند والخارجية . [٤]

---

(١) Young, The Independent Arab, pp. 286-7.

(٢) Curzon to Clayton, tel. No. 205, 24 June 1919; B.D. IV, p. 296.

(٣) Curzon to Clayton, tel. No. 207, 24 June 1919; Ibid. pp. 296-7.

(٤) « كانت وزارة الهند وفرنسا متحالفتين يومذاك ضد وزارة الخارجية والجنرال اللنبي . لقد ربطت المصلحة المشتركة بين وزارة الهند وفرنسا . فكل منهما كانت تخشى أن يؤدي منح الاستقلال الحقيقي للعرب الذين كانوا جزءا من الدولة العثمانية — إلى اثارة رعايا فرنسا في شمالي افريقيا ورعايا وزارة الهند في بلاد الهند . ولم تبلغ المنافسة الاستعمارية بين فرنسا وبريطانيا في الشرق الاوسط حد الاشتباك المسلح ، ولكن وزارتي الهند والخارجية كانتا أقل ضبطا للنفس. ففي أيار ١٩١٩ اشتبكتا =

وكان من سوء حظ العرب ان سياسة الرئيس ولسون كانت تلقى معارضة قوية في الولايات المتحدة ، مما جعل حكومته تتردد في اتخاذ قرار حاسم فيما اذا كانت ستتولى مسؤولية الانتداب في الشرق الاوسط ام لا . ونتيجة لذلك الموقف المائع قرّر مجلس رؤساء وفود الدول الكبرى في ٣٠ حزيران ان يؤجل بحث تسوية الاراضي العثمانية حتى تتخذ الحكومة الامريكية قرارها .

وبعد يومين بعث بلفور من باريس مذكرة الى لويد جورج تتضمن اقتراحات قال انه «عبر عنها اكثر من مرة بشأن التصرف بالمناطق التركية». وتتلخص توصيات بلفور في(١)وضع جميع الاراضي العربية تحت الانتداب (٢) تكون فرنسا الدولة المنتدبة على سورية وتكون بريطانيا الدولة المنتدبة على العراق ويعطى انتداب فلسطين اما لامريكا او لبريطانيا ، مع توسيع حدودهما شمالا وشرقا لضمان مصلحة الصهيونيين.[1] ولم يذكر بلفور شيئا عن مبدأ تقرير المصير او رغبات اهالي المناطق المذكورة .

وفي الشهر التالي أعدّ بلفور مذكرة اخرى طويلة عالج فيها وضع سورية وفلسطين والعراق وكرر توصياته السابقة . وقد عبّر في المذكرة عن قلقه للتزاحم بين بريطانيا وفرنسا حول سورية ، وأوضح وجهة نظر الفرنسيين من ناحية مصالحهم المزعومة في سورية وقبولهم بتعديل اتفاقية سايكس – بيكو لمصلحة بريطانيا بغية تأمين سيطرتهم على سورية .

وقال بلفور ان الوضع الراهن يلتصق بخمس وثائق (١) وعد بريطانيا للملك حسين (٢) اتفاقية سايكس – بيكو (٣) التصريح البريطاني – الفرنسي في تشرين الثاني ١٩١٨(٤) ميثاق جمعية الامم(٥) التعليمات المعطاة للجنة التحقيق وهي تعليمات وافقت عليها فرنسا وبريطانيا وامريكا . ويرى بلفور ان «هذه الوثائق لا تتفق الواحدة منها مع الاخرى». ثم يمضي الى ايضاح التعارض بين الوعد بالاستقلال

= في القتال على أرض الجزيرة العربية في موقع تربة بين نجد والحجاز ... » – Acquaintences, O.U.P., London, 1967, pp. 183-184.

(١) Memo. of 26 June 1919, B.D. IV, pp. 301-303.

للعرب واخضاع ذلك الاستقلال للمستشارين الذين تنص عليهم اتفاقية سايكس – بيكو والذين «يجب اتباع نصائحهم». ويصرّح بلفور بعد هذا بوضوح ان الحدود التي عيّنها الشريف حسين عام ١٩١٥ لم توضع عليها اية قيود «باستثناء تحفظات معيّنة قُصد بها المحافظة على المصالح الفرنسية في غربي سورية وكيليكيا». اما بشأن فلسطين فيرى بلفور ان الصهيونية أهم من رغبات ٧٠٠ الف عربي «يقيمون الان في تلك الارض القديمة»، مع اعترافه بان هذا الرأي لا يتفق مع التصريح الانكليزي – الفرنسي ولا مع ميثاق جمعية الامم ولا مع تعليمات لجنة التحقيق. ويبدو ان بلفور اراد ان يبرّر هذه التناقضات بقوله «انا لا أحسب ان الصهيونية ستؤذي العرب...». بعد هذا الاستعراض واللف والدوران يصل بلفور الى عقدة الموضوع فيقدم لها حلاً غريباً ينطوي في رأيه «ليس على تعزيز المصالح المادية للسكان المحليين فحسب بل تعزيز آمالهم وعاداتهم..» وهذا الحل يكمن في رأيه بالتمسك باتفاقية سايكس – بيكو وبالالتزام بالسياسة الصهيونية في فلسطين موسّعة .[1]

انني لا اجد أخفّ من كلمة «خبيث» لاصف بها هذه المذكرة التي بنى صاحبها استنتاجاته فيها على ضرورة المحافظة على الصداقة البريطانية– الفرنسية وعلى مصالح الصهيونيين ، ولم يشأ ان يأخذ بعين الاعتبار حق أهل البلاد الطبيعي في تقرير مصيرهم بالاضافة الى ما نصّت عليه الوثائق الخمس ذاتها التي كان بارعاً في تعداد مزاياها .

اتفاق ايلول ١٩١٩ : في ايلول ١٩١٩ وصلت القضية العربية الى المنعطف الخطير الذي حولها عن خط سيرها الطبيعي ، وأدّى بها الى متاهات وعرة مظلمة . ففي هذا الشهر غسل لويد جورج يديه من التزاماته للعرب كما غسل بيلاطس البنطي يديه من قضية المسيح وسلمها لقيافا مكتفياً بقوله «انني بريء من دم هذا الصديق». والاتفاق الذي حدث في ايلول كان تكريسا لاتفاقية سايكس – بيكو كما عدلها الاتفاق

---

(١) Memo. dated 11 Aug. 1919, Ibid. pp. 340-9.

الشفهي بين كليمنصو ولويد جورج في كانون الأول ١٩١٨ . واذا اردنا الاسباب الرئيسية لذلك وجدناها في (١) المطامع الاستعمارية (٢) ضعف العرب وتفرقهم (٣)متاعب الرئيس ولسون الداخلية .

لقد أفادت لجنة التحقيق قضية العرب نظرياً ولكنها أضرّت بهم عملياً . فمن ناحية نظرية كانت اللجنة الاميركية جزءاً من لجنة دولية قادمة باسم الدول الاربع الكبرى ، ولكن من الناحية العملية كانت اللجنة لجنة اميركية تعتمد نتائج تحقيقاتها على مدى استعداد الولايات المتحدة لدعمها . وقد أظهرت اللجنة الاميركية عداء العرب لفرنسا ولبريطانيا على السواء . ولا شك ان بريطانيا كانت تود ان تحصر النفوذ الفرنسي في ساحل سورية ، بل في أضيق بقعة ممكنة من ذلك الساحل — حسب توصيات اللجنة الشرقية . ولكن تراجع الامريكيين التدريجي والاصرار الفرنسي المستميت ، جعلا الحكومة البريطانية تجد ان التفاهم مع فرنسا أضمن لمصالحها وأقرب السبل لتحقيق أهدافها .

ان النتائج التي توصلت اليها لجنة كنج — كرين ، والتي لم تكن خافية على احد ، اثارت ضجة عظيمة في دوائر الحكومة الفرنسية وفي الصحف الفرنسية . ففي اجتماع رؤساء الدول الخمس الكبرى بتاريخ ١٨ تموز شكا كليمنصو من ان اللنبي يعمل ضد الفرنسيين ، وانه وضع القوات الفرنسية في كيليكيا ورفض ان يضعها في سورية ، وقال ان جميع ضباط اللنبي ضد فرنسا . وقد رد بلفور على اتهامات كليمنصو بقوله ان لا اساس لها من الصحة . وخلال شهري تموز وآب استمرت الصحف الفرنسية في شن حملتها العنيفة ضد السياسة البريطانية تجاه سورية . وفي ٢٨ تموز قدم السفير الفرنسي في لندن مذكرة الى وزارة الخارجية البريطانية تتضمن اتهامات عديدة ضد الجنرال اللنبي وضد وزارة الحربية . ومن جملة هذه الاتهامات ان بريطانيا تعزز القوات العربية بالاسلحة وان الجنرال اللنبي لم يسمح للفرنسيين بارسال قوات فرنسية جديدة الى سورية ، وان وزارة الحربية تعمل على محاربة

الانتداب الفرنسي على سورية بكافة الوسائل .[1] وقد رد كرزون على المذكرة الفرنسية ينكر ما تضمنته من اتهامات . واكدت وزارة الحربية انها كانت حريصة على ان لا تزود فيصلاً بالمعدات التي طلبها وانها حصرت ذلك «في حدود ما يتطلبه تنظيم قوات كافية لحفظ الامن والنظام في منطقة الادارة العربية »[2] .ومما زاد في حنق الفرنسيين مبادرة اللنبي في اواسط آب الى اعتقال الامير سعيد الجزائري دون استشارة الفرنسيين ، وكان الامير قد انحاز للفرنسيين قلبا وقالبا وأخذ هؤلاء يفكرون بالاستفادة منه اذا ما اخفقوا في التفاهم مع فيصل .

وهكذا بدا للحكومة البريطانية في شهر آب ان الحاجة للتفاهم مع فرنسا اصبحت اكثر الحاحا من اي وقت مضى . فمن جهة تبين ان تدخل الامريكيين في تسويات الشرق الاوسط اصبح امرا بعيد الاحتمال ، ومن جهة اخرى ازداد الوضع المالي سوءا في بريطانيا وتبينت ضرورة التعجيل في تسريح الجنود لتخفيض النفقات . وبطبيعة الحال ادى هذا كله الى التفكير بالانسحاب من المناطق التي لم تكن بريطانيا تفكر بحكمها والبقاء فيها .

وعقدت الوزارة البريطانية سلسلة من الاجتماعات يومي ١٩ و ٢٠ آب يبدو انها توصلت خلالها الى اتخاذ قرارات بسحب القوات البريطانية من كيليكيا وسورية الداخلية . وعلى الاثر ذهب لويد جورج الى دوفيل في فرنسا يقضي اجازة قصيرة ، وهناك وافاه عدد من كبار رجال وزارة الخارجية ، وعلى الاخص بلفور وفيليب كير اللذين قضيا معه

---

(١) B.D. IV, pp. 327-328.

راجع ايضا ما دار من جدل حول هذا الموضوع بين المسيو فليريو والسير جراهام في وزارة الخارجية البريطانية : Curzon to Grahame, No. 1041, 8 Aug. 1919, Ibid., p. 335-7. واتهامات بيشون وزير خارجية فرنسا للضباط السياسيين الانكليز في سورية بأنهم يعملون على بث روح العداء لفرنسا لدى اجتماعه بالسفير البريطاني في باريس بشأن حملة الصحف الفرنسية على بريطانيا -- Grahame to Curzon, No. 791, 12 Aug. 1919, Ibid., pp. 349-351:

(٢) Curzon to Balfour, No. 5636 of 25 Aug. 1919 and enclosures; Curzon to French Ambassador, 25 Aug. 1919, Ibid., pp. 355-59.

يومي ٦ و ٧ ايلول . وكان لويد جورج قد استدعى المارشال اللنبي من مصر [(١)] فسافر على عجل وبلغ دوفيل يوم ٩ ايلول .
وبعد الاجتماع الذي عقده لويد جورج مع اللنبي مساء اليوم ذاته، تم التوصل الى قرار بشأن تسوية الوضع في سورية على النحو التالي :

بما ان الآراء تتفق على ان حرفية اتفاقية سايكس – بيكو لم تعد نافذة المفعول ، فان الحكومة البريطانية تستطيع الوفاء بالتزاماتها للحكومة الفرنسية وللدولة العربية على السواء ، عن طريق تسليم دمشق وحمص وحماة وحلب للعرب ، وتسليم سورية إلى الغرب من ذلك الخط ، للحكومة الفرنسية ؛ تاركة للعرب والفرنسيين اجراء الترتيبات لتقديم المستشارين الخ في مفاوضات لاحقة بين الحكومة الفرنسية والدولة العربية . (٢)

واستمر البحث في الموضوع يوم ١٠ ايلول بحضور عدد آخر من السياسيين البريطانيين وممثلين عن وزارة الحربية . وفي ١١ ايلول دار البحث حول مد خط انابيب لنقل النفط من ايران والعراق الى البحر الابيض المتوسط ومد خط سكة حديد بين العراق وفلسطين .
وبعد ان اتضحت جميع جوانب الخطة البريطانية اعتزم لويد جورج ان يبلغ الفرنسيين والعرب قرار بريطانيا في الانسحاب من كيليكيا وسورية . وبناء على اصرار اللنبي تقرر ابلاغ الامير فيصل شخصيا فوجه لويد جورج اليه الدعوة للقدوم الى باريس في الحال .

كان فيصل – كما تقدم – يلح منذ مغادرة لجنة كنج – كرين سورية ان يسمح له بالذهاب الى اوروبا لمتابعة تطورات القضية العربية عامة والمسألة السورية خاصة . وفي ٣٠ تموز ارسلت وزارة الخارجية

---

(١) نتيجة الثورة المصرية في أوائل ١٩١٩ عزل السير ريجنالد ونجت من منصب المندوب السامي في مصر وعين محله الجنرال اللنبي (ابتداء من ٢٥ آذار ١٩١٩) الذي ظل يحتفظ بالقيادة العليا للقوات البريطانية في مصر وسورية وكيليكيا . وفي أوائل آب رقي اللنبي إلى رتبة فيلد مارشال ومنح لقب لورد .

(٢) Notes of a Meeting held at Prime Minister's house, 10 Sep. 1919, CAB. 21/153.

البريطانية تبلغ فيصل ان البحث في تسوية قضايا الاقطار المنسلخة عن تركيا ستبقى مؤجلة حتى تتخذ الولايات المتحدة قرارا يحدد موقفها.[١]

ولكن بعد بضعة ايام فقط قام رئيس اركان جيش اللنبي (الجنرال بولز) بابلاغ فيصل ان الحكومة البريطانية ترغب في الحصول على الانتداب على فلسطين وان ذلك الانتداب سيتضمن في صلبه الالتزام بتصريح بلفور لليهود[٢]. وقلق فيصل اشد القلق لهذا النبأ وبادر في ١٧ آب الى ارسال مذكرة الى اللنبي قال فيها «ان قرار الحكومة البريطانية بقبول الانتداب على فلسطين يعني تقسيم الاقطار العربية والعودة الى اتفاقية ١٩١٦ الظالمة». وقال ان السوريين والعراقيين طالبوا بان تنتدب عليهم دولة واحدة تفاديا لتجزئة بلادهم فاذا اتخذت قرارات ضد هذه الرغبات فانه — فيصل — لا يستطيع البقاء في وضعه الراهن بل سيجد نفسه مضطراً لاراقة آخر نقطة من دمه الى جانب اهل بلاده . وطلب من اللنبي ان يبلغ حكومته «انه اذا قسمت البلاد او اذا منح الانتداب خلافا لرغبات الاهلين فسيقوم العرب كلهم بثورة شاملة».[٣]

وفي هذه الاثناء بدأت في سورية حركة تسجيل متطوعين للدفاع عن البلاد ضد التجزئة . وابرق اللنبي يطلب من فيصل عدم تشجيع الحركة قائلا انها ستخلق انطباعا غير ملائم في اوروبا .[٤]

واجتمع فيصل والجنرال بولز مرة اخرى يوم ٣١ آب وفي هذا الاجتماع اسهب فيصل في شرح موقف العرب منذ ان حملوا السلاح ضد الاتراك اعتمادا على وعود بريطانيا . وقال ان جميع المسلمين ينتظرون الان مشاهدة المكافأة التي سيحصل عليها العرب من البريطانيين مقابل ثورتهم على الخليفة . وقال ان العرب لم يحاربوا الاتراك من اجل ان تتجزأ بلادهم ويعطى جانب منها لبريطانيا وجانب آخر لفرنسا ، وان

---

(١) F.O. to French, tel. No. 238, B.D. IV, p. 317, f.n.

(٢) Curzon to French, tel. No. 245, 4 Aug. 1919, Ibid., p. 329.

(٣) French to Curzon, tel. No. 414, 29 Aug. 1919, Ibid., pp. 365-6.

(٤) Meinertzhagen to Curzon, tel. No. 418, 3 Sept. 1919, Ibid., p. 370.

العرب لن يتحملوا هذه الاهانة وسيقاتلون وسيقاتل هو معهم . وقال فيصل انه لا يقول هذا مهددا بل محذّراً ومذكّراً ، لانه اذا لم تف بريطانيا بالتزاماتها للملك حسين «فلن يوجد في المستقبل انسان واحد على الاطلاق تعمر نفسه الثقة بأي شيء بريطاني » .[1]

وفي اليوم ذاته بعث فيصل برسالة مطولة (بواسطة اللنبي)الى لويد جورج ناشده فيها «باسم شرف بريطانيا والعدالة الانسانية ان لا تكون مكافأة العرب على اخلاصهم وجهادهم في سبيل قضية الحلفاء في ساعات الشك وايام الخوف — تقسيم بلادهم ... »وقال انه يطالب بالحيلولة دون هذا ليس فقط للحفاظ على قومه «الذين يفضلون الفناء في سبيل وحدتهم» بل لان ذلك سيلحق الضرر بالمصالح البريطانية . وقال ان مكة ثارت ضد استانبول اعتمادا على بريطانيا وثقة بها «من اجل اعلاء مبدأ القومية ». واشار فيصل الى اضرار التجزئة قائلا ان اي شيء يمكن ان يحدث لا يمكن ان يكون اكثر بشاعة من تفتيت وحدة البلاد . وبعد ان كرر مناشدة رئيس الوزراء البريطاني ان لا تنحرف حكومته عن مبادىء العدالة والحق وان لا يكون جزاء العرب منها جزاء سنمار قال انه يصر على السفر في الحال الى لندن كي يوضح الموقف ايضاحا تاما قبل ان يتخذ قرار ما «وقبل ان تدهمنا الكوارث هنا وهناك ».[2]

وفي٩ ايلول اجتمع لافوركاد الفرنسي وماينرتزهاجن البريطاني مع فيصل . وفي هذا الاجتماع قال ماينرتزهاجن لفيصل باسم حكومته :

١ — ان بريطانيا لا تقبل اي انتداب في سورية ،

٢ — ان بريطانيا توافق على انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ،

٣ — ان انكلترا وفرنسا لا تكرهان الشعب على قبول حكم لا يريده بمقتضى تصريحهما في نوفمبر ١٩١٨ ،

٤ — ان البلاد السورية لا تحتلها حكومة معيّنة بل يدير شؤونها القائد

Ibid., pp. 388-390. (١)

Ibid., pp. 385-388. (٢)

العام اللنبي باسم الحلفاء جميعا ... »

وكتب فيصل لابيه ان الجدال احتدم في الاجتماع ، وان لافوركاد تحدث عن الانتداب الفرنسي على سورية «فرفضتُ أي شيء من ذلك القبيل وقلت ان البلاد تطلب استقلالها دون غيره وتدافع عن وحدتها بأقصى ما لديها من قوة ... » .[1]

وسلم اللنبي مذكرة فيصل الى لويد جورج لدى اجتماعه به يوم ٩ ايلول ، وسلمه كذلك ما كتبه الجنرال بولز عن مقابلته لفيصل . لقد كان لويد جورج على بينة تامة من وجهة نظر العرب ، ولكنه بالاتفاق مع رجال حكومته ، عمد الى الحل الذي يلائم فرنسا دون التفات الى مناشدة فيصل له «باسم شرف بريطانيا والعدالة الانسانية » لانه لم يقتنع بتحذير فيصل القائل بان العرب «يفضلون الفناء في سبيل وحدتهم ».

في ١١ ايلول بعث لويد جورج برقية منه الى فيصل يدعوه للحضور الى باريس في الحال «لانه من المرجح ان تبحث قضية سورية في وقت قريب »[2] ولا بد ان لويد جورج كان يعرف سلفا ان فيصلاً لن يستطيع الحضور في الوقت المناسب للاشتراك في المباحثات ،لان الطائرات لم تكن متوافرة حينذاك للسفر السريع . وتلقى فيصل البرقية في ١٢ ايلول فبادر الى مبارحة دمشق في اليوم ذاته بعد ست ساعات فقط من تسلمه البرقية.[3]

سافر فيصل بالقطار الى حيفا فالاسكندرية ومن هناك ابحر على

---

(١) رسالة فيصل إلى الملك حسين رقم ٢٢١ بتاريخ ٢٠ شباط ١٩٢٠ – (أوراق الأمير زيد) .

(٢) Meinertzhagen to Curzon, tel. unnumbered, p. 379.

(٣) رافق الأمير في رحلته هذه الشيخ فؤاد الخطيب مستشاره السياسي واللواء جبرائيل حداد مدير الامن العام في سورية والدكتور احمد قدري والقائد محمد اسماعيل الطباخ والخوري حبيب اسطفان وتوفيق الناطور ومرافقه تحسين قدري، ثم لحق به الأمير امين ارسلان وامين التميمي والدكتور سامح الفاخوري والأمير فايز الشهابي وأمين الكسباني ونوري السعيد .

ظهر مدمرة بريطانية الى مالطة . وهناك حدث تأخير ادخل الشك في ذهن فيصل انه مقصود ومدبّر لتأخيره عن الوصول بسرعة ؛ وبعد الحاح واصل سفره الى مرسيليا فبلغها يوم ١٧ ايلول.وقبل النزول الى البر جاء ضابط افرنسي في قارب وابلغ فيصلاً باسم حكومته ان عليه ان يتوجه رأسا الى لندن دون ان يعرج الى باريس . وفي ميناء مرسيليا اطلع فيصل على الصحف الفرنسية وفيها تفصيلات ما وقع في باريس اثناء سفره والقرارات التي اتخذت بشأن سورية ، فاستولى عليه الغم خصوصا «للمعاملات الباردة »التي قوبل بها اثناء سفره بالقطار من مرسيليا الى ميناء كاليه المقابل لدوفر . وفي مساء يوم ٨ ايلول وصل فيصل الى لندن . (١)

اثناء سفرة فيصل هذه تم في باريس عقد الاتفاق الذي كان العرب يخشونه . ففي اليوم الذي ابرق فيه لويد جورج يدعو فيصلاً للحضور الى باريس ، بعث بمذكرة الى كليمنصو يقول انه بالنظر الى تأخير الامريكيين في اتخاذ قرار بشأن توزيع الانتدابات على المناطق المنسلخة عن تركيا فان بريطانيا لا تستطيع الاستمرار في تحمل تكاليف ٤٠٠ الف جندي يرابطون في تلك الجهات . من هنا فان حكومته تود ان تضع مقترحات معينة حول هذا الموضوع امام المجلس الاعلى ، ولكنه يرغب في الاجتماع به قبل ذلك . وقال لويد جورج انه دعا فيصلاً للحضور الى باريس . (٢) ورد كليمنصو في اليوم ذاته انه يرحب بالاقتراح ويقول إن استبدال القوات البريطانية في سورية يهم الحكومتين الفرنسية والبريطانية

---

(١) انضم إلى فيصل في لندن عضوا الوفد العربي في باريس : رستم حيدر وعوني عبد الهادي . وجاء في كتاب الكولونيل ستيرلنج الذي رافق فيصلاً في هذه الرحلة ان الفرنسيين اتخذوا احتياطات شديدة كيلا يتصل فيصل بأحد أثناء سفره في فرنسا . — Safety Last, pp. 99-100. وقال فيصل انه عومل في فرنسا يومذاك « معاملة الخصم والعدو » — (رسالة إلى أبيه في ٢٠ شباط). أما بشأن رفض كليمنصو الاجتماع بفيصل فيمكن مراجعة المجلد الأول من الوثائق البريطانية : الوثيقة ٥٧ ص ص ٦٨٥ — ٦٨٦ .

(٢) Message dated 11 Sept. 1919, B.D. IV, pp. 379-380.

وحدهما ويجب تسويته بينهما دون اي وسيط ، اما فيصل فلا يبدو ان حضوره يستهدف غاية محددة « بدون التوصل الى تفاهم مسبق بيننا ». [1]

ولكن من الواضح ان مذاكرات شفهية كانت تجري بين الحكومتين بهذا الشأن قبل تبادل هذه المذكرات . فقد استدعي جورج بيكو في اوائل ايلول الى باريس وعقد معه كليمنصو محادثات حول الموضوع . وتسربت انباء التسوية المنتظرة الى الصحف مما اضطر الوفد العربي في باريس الى تقديم مذكرة الى الوفد البريطاني في مؤتمر السلم يوم ١٠ ايلول يحذر فيها من «صفقات تجارية تعقد وترتيبات تطبخ .. على حساب مصلحة الشعوب .... »[2]

وفي الاجتماع الذي عقده لويد جورج وكليمنصو في باريس يوم ١٣ ايلول ، قدم لويد جورج مذكرة تتألف من احد عشر بندا وتتضمن خطوط السياسة البريطانية الجديدة ليس تجاه سورية وحدها بل تجاه العرب وقضيتهم . فقد نصت على انسحاب القوات البريطانية عن سورية وكيليكيا ابتداء من اول تشرين الثاني ١٩١٩ ، على ان تحل قوات فرنسية في كيليكيا والى الغرب من خط سايكس – بيكو وتحل قوات عربية الى الشرق من ذلك الخط . وعلى ان لا يتحمل البريطانيون اية مسؤولية في المناطق التي ينسحبون منها (المادة ٥). ونصت المذكرة ايضا على ان تبقى القوات البريطانية في فلسطين «من دان الى بئر السبع »وفي العراق ومن جملته الموصل . وزعمت المذكرة ان الحكومة البريطانية بهذه الترتيبات تنفذ التزاماتها لفرنسا والعرب ، وقد اشارت صراحة الى اتفاقية سايكس – بيكو . ونصت المذكرة على حق بريطانيا في مد خط لانابيب النفط وخط سكة حديد يمران بمنطقة الحكومة العربية . ودلت المذكرة ان هذا الترتيب يحمل سمات الديمومة عندما نصت على استعداد الحكومة البريطانية للبحث في الحدود بين فلسطين وسورية والعراق (المادتان ٧ و ١٠). واشارت المذكرة الى انه اذا وقع خلاف بشأن

---

(١) Ibid., p. 380.

(٢) Ibid., pp. 375-6.

الحدود «التي تدعيها الحكومة البريطانية »، او طريق خط السكة وانابيب النفط ، فان بريطانيا تقبل تحكيم حكم يعينه الرئيس ولسون . ولكن هذه الاشارة لم تكن الا من قبيل المجاملة الفارغة ، خاصة اذا اخذنا بعين الاعتبار تجاهل الحكومتين لمبادىء ولسون القائمة على حق تقرير المصير ونتائج تحقيق لجنة كنج – كرين التي اوفدها ولسون .[1]

يتمثل في هذه المذكرة تحوّل بريطانيا عن سياستها التقليدية التي اتبعتها مع العرب منذ عام ١٩١٦ فقد اقرت مبدأ التجزئة الذي يناقض روح الاتفاق مع العرب ، وقررت مبدأ الانتداب (من غير ان تسميه صراحة)دون ان تتبع مبدأ تقرير المصير ورضى المحكومين ، وقبل ان يبت فيه مؤتمر السلم . واقرت المذكرة بصراحة غريبة اتفاق لويد جورج مع كليمنصو في كانون الاول ١٩١٨ . بل انها لم تلتزم حتى بالمادة الاولى من اتفاقية سايكس – بيكو التي نصت على ان تعترف الدولتان بدولة عربية مستقلة فيمنطقتي (أ) و (ب) وتعاضدا تلك الدولة . ويبدو اتجاه الحكومة البريطانية الجديد واضحا من الاقتراح الذي تقدم به ونستون تشرشل وزير الحربية يومذاك ، فقد ابدى اللنبي يوم ١١ ايلول تخوفه من ان يؤدي انسحاب القوات البريطانية من سورية الى نشوب القتال بين العرب والفرنسيين ، وكان رد تشرشل انه يمكن الاحتفاظ بفيصل رهينة في اوروبا اذا كان العرب سيعمدون حقا الى محاربة الفرنسيين . وقد غضب اللنبي غضبا شديدا لهذا الاقتراح ولم يؤخذ به .[2]

وفي الاجتماع الذي عقده المجلس الاعلى يوم ١٥ ايلول قدم لويد جورج نسخة من مذكرته الى رؤساء وفود الدول الكبرى وقال ان القوات البريطانية ستسلم سورية الداخلية الى العرب الذين ضايقوا الاتراك مضايقة عظيمة اثناء الحرب وشاغلوا ٣٠ او ٤٠ الفا من جنودهم مشاغلة مستمرة . « لقد وفى العرب بالتزاماتهم ومن الواجب علينا ان نفي بالتزاماتنا لهم ». اما كليمنصو فقد قال ان حكومته توافق على انسحاب

(١) B.D., 1, pp. 700-701.

(٢) A note by Frank L. Polk, quoted by Nevakivi, p. 190.

القوات البريطانية وان تحل محلها قوات فرنسية في كيليكيا وغربي خط سايكس – بيكو ، ولكنها «لا تتقيد بقبول اي جانب آخر من الترتيبات التي اقترحتها المذكرة البريطانية» «فيما يتعلق باحتلال سورية وفلسطين والعراق ريثما يتم التوصل الى قرار بشأن الانتدابات ». وكانت النتيجة ان المجلس الاعلى اخذ علما بالاتفاق بين بريطانيا وفرنسا باعتباره ترتيبا مؤقتا لا يؤثر في التسوية النهائية للانتدابات او الحدود .

وقد اهتم الفرنسيون اهتماما بالغا بموضوع انسحاب قواتهم المرابطة في دمشق وحلب اعتقاداً منهم ان ذلك سيكون ضربة لهيبتهم ، وطلب كليمنصو من اللنبي ان يستعمل نفوذه مع فيصل في هذا الموضوع . وفي اليوم التالي تباحث كليمنصو ولويد جورج حول قيام الفرنسيين بدفع نصف قيمة الاعانة التي كانت بريطانيا تقدمها لفيصل.(١) بقصد تعزيز النفوذ الفرنسي في سورية .

ولكن بالرغم عما قيل في المجلس الاعلى ، فان جواب كليمنصو على المذكرة البريطانية ينم على النيات الحقيقية للفرنسيين والبريطانيين . فقد اكد كليمنصو ان قاعدة التفاهم الوحيدة بين الدولتين هي اتفاقية سايكس – بيكو ، وان وضع فرنسا بالنسبة الى سورية يجب ان يكون شبيها بوضع بريطانيا في العراق . وان فرنسا لم تتنازل عن الموصل

---

(١) B.D. I, pp. 685-701 and B.D. IV, pp. 384-5.

كان البريطانيون يدفعون ١٥٠ الف جنيه شهرياً للحكومة العربية بصفة اعانة ، ولكنها في الواقع كانت بديلا لعائدات الجمارك عن البضائع التي كانت سورية تستوردها عن طريق البحر . وابتداء من شهر تشرين الثاني ١٩١٩ أخذت حكومتا بريطانيا وفرنسا تتقاسمان دفع هذا المبلغ مناصفة . ثم قررت الحكومة البريطانية ايقاف دفع حصتها ابتداء من أول سنة ١٩٢٠ بحجة (١) ان القوات العربية كانت وما تزال تشتبك في أعمال حربية مع القوات البريطانية في العراق (٢) بقصد ممارسة الضغط على فيصل . وقد دفع اللنبي ١٠٠ ألف جنيه إلى حكومة فيصل عن شهري كانون الثاني وشباط ١٩٢٠ فتلقى توبيخاً من كرزون . ولم تدفع الحكومتان أية مبالغ ابتداء من شهر آذار فوقعت سورية في ضائقة مالية شديدة .

التفاصيل في الوثائق البريطانية : المجلد ٤ ، وثيقة رقم ٣٥٤ و ٤١٥ ، والمجلد ١٣ ، الوثائق ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٥٩ ، ٢٧٧ .

وفلسطين الا لقاء تنازلات مقابلة . وتضمن جواب كليمنصو القول ان فرنسا لا تجد نفسها مقيدة باتفاق بريطانيا مع العرب لانها لم تطلع عليه الا في شباط ١٩١٩ ، وهي مستعدة للتفاوض مباشرة مع فيصل اذا كفّ البريطانيون عن اضفاء حمايتهم عليه . وقال ان منع القوات الفرنسية من المرابطة في حلب ودمشق يخالف شروط اتفاقية سايكس – بيكو «اننا نعتبر وعود بريطانيا بالمحافظة على استقلال فيصل في المنطقة الداخلية تدخلا يتعارض بشدة مع شروط انتدابنا على سورية ». وهكذا نرى مذكرة كليمنصو تتبع مبدأ التبادل المصلحي والمنفعة المتقابلة بين فرنسا وبريطانيا ، دون اهتمام بموافقة الاهلين على الدولة التي ستنتدب عليهم كما نصّ ميثاق جمعية الامم .(١)

اقام فيصل في العاصمة البريطانية اكثر من شهر عقد خلاله عدة اجتماعات مع اركان الحكومة البريطانية وتبادل معهم عددا من المذكرات . وفي الاجتماع الاول الذي عقد ثاني يوم وصول فيصل شرح لويد جورج اسباب القرار الذي اتخذته حكومته بالانسحاب من سورية والاحتفاظ بفلسطين والعراق حتى يقرر مؤتمر السلم مستقبل هذه المناطق . ثم سلم نسخة من مذكرة ١٣ ايلول لفيصل طالبا اليه ان يوافق عليها باعتبارها ترتيبا مؤقتا . وردا على استيضاحات فيصل قال لويد جورج ان بريطانيا تلتزم بكل التزاماتها تجاه الملك حسين، وادعى ان القرار الاخير اتخذ في نطاق تلك الالتزامات ووفاء بها . وقال ان على الامير فيصل اذا شاء ان يستعين بمستشارين فرنسيين في منطقة (أ) وبمستشارين بريطانيين في منطقة (ب). وقال فيصل ان هذه الترتيبات بنيت على اساس اتفاقية سايكس – بيكو التي قسمت البلاد العربية وان

(١) Crowe to Curzon, 1 Oct. 1919, letter No. 1931, B.D. IV, pp. 452-4.
حل السير كرو محل بلفور في رئاسة الوفد البريطاني في مؤتمر السلم ، وقد استقال بلفور من وزارة الخارجية البريطانية في ٢٤ تشرين الأول ١٩١٩ وحل محله اللورد كرزون الذي كان في الواقع يصرّف شؤون وزارة الخارجية في لندن منذ ذهاب بلفور لحضور مؤتمر السلم في باريس قبل تسعة أشهر .

اهم ما يشغل باله هو المحافظة على وحدة البلاد «واذا كان الفرنسيون يستطيعون تحمل المسؤولية فيما يختص بفلسطين والعراق والبلاد العربية حتى البحر الاحمر والبحر الابيض المتوسط ، فان العرب سيوافقون على ذلك لأنهم لا يحملون للفرنسيين كراهية خاصة . ولكن يجب ان تكون هناك دولة واحدة فقط ... انه في العصور المتوسطة كان العبد المملوك يتمتع بالحق في ان يطلب بيعه الى سيد آخر ، وهو يأمل انه في القرن العشرين ما يزال ذلك الحق نافذ المفعول». ولكن لويد جورج اقترح ان يصار الى دراسة المراسلات التي دارت بين بريطانيا والعرب ريثما يعين موعد الاجتماع الثاني .(١)

وبعد يومين قدم فيصل الى لويد جورج رده على مذكرة ١٣ ايلول ففند عدم شرعية القرارات المتخذة في غياب العرب ودون موافقتهم ، واحتج على ما تضمنته المذكرة حول الحدود ، وطالب بانسحاب الفرنسيين مع البريطانيين من سورية كلها او الغاء الترتيب المقترح حتى يقرر مؤتمر السلم مصير البلاد .(٢)

وفي ٢٣ ايلول بعث فيصل بمذكرة اضافية قال فيها انه رفض ان يبحث مع اللنبي موضوع انسحاب القوات البريطانية ، وانه وافق قبل سنة على انسحاب القوات العربية من الساحل السوري اعتمادا على تصريح اللنبي ذاته بان البلاد جميعها ستبقى تحت امرته حتى تتم التسوية النهائية . وقال انه يطالب الآن اما بعودة القوات العربية الى المواقع التي احتلتها يومذاك او ابقاء الوضع الراهن على ما هو عليه حتى تتم التسوية النهائية .(٣)

---

(١) Notes of a meeting held on 19 Sept. 1919, B.D. IV, pp. 395-404.
وقد حضر الاجتماع مع فيصل جبرائيل حداد (الذي قام بالترجمة) وفؤاد الخطيب ومن الجانب البريطاني : بونارلو واللورد كرزون واللنبي وكورنوالس وستيرلنج.

(٢) Memo. of 21 Sept. 1919, Ibid., pp. 406-9.
النص الذي نشره حافظ وهبه (جزيرة العرب في القرن العشرين) يتضمن اخطاء ونواقص كثيرة ولا يصح الاعتماد عليه ، مثله في ذلك مثل معظم النصوص التي نشرها . ومن الواضح ان مذكرات فيصل هذه وضعت باللغة الانكليزية مباشرة .

(٣) Ibid., pp. 412-413.

وفي اليوم ذاته عقد الاجتماع الثاني بين فيصل ولويد جورج . وبدأ لويد جورج الحديث بنفي وجود الاتفاقية التي بعث بها الملك حسين ، وان هذه الاتفاقية المزعومة ليست سوى ملحق لرسالة كان الملك حسين قد بعث بها الى المندوب السامي في مصر في آب ١٩١٨ وهو يتضمن تفسير الملك حسين لاتفاق بريطانيا معه مما لا تعترف به الحكومة البريطانية او تقرّه. وعلى الامير ان لا ينسى ان فرنسا ضحت في الحرب ١,٤٠٠,٠٠٠ قتيل وخسرت الامبراطورية البريطانية حوالي مليون قتيل ، وان العرب مدينون لهذه التضحيات لانها مكنتهم من كسب حريتهم (؟؟). وقال انه سوف يسلم للامير نسخا من مراسلات الحسين — مكماهون التي تتضمن كل ما تم الاتفاق عليه . ورد فيصل بان الترتيبات الاخيرة بنيت على بنود اتفاقية سايكس — بيكو التي يعتبرها العرب بمثابة حكم بالاعدام عليهم وانه يرجو ان لا يكون النطق بذلك الحكم من فم اصدقائه .(١)

---

(١) Ibid., pp. 413-418.

وقد حضر الاجتماع عن الجانبين الأشخاص الذين حضروا الاجتماع الأول . وكان الملك حسين قد أرسل إلى فيصل في ١٧ تموز ١٩١٩ نص مذكرة وضعها هو في آب ١٩١٨ فقدمها فيصل للحكومة البريطانية على انها الاتفاق بينها وبين أبيه . (تجد نص رسالة الحسين إلى المندوب السامي في مصر وملحقها المرفق بها في جريدة القبلة العدد ٢٩١ الصادر بتاريخ ١٠ حزيران ١٩٢٠ وفي المجلد الثاني من مقدرات العراق السياسية، ص‌ص ٣١١ — ٣١٦) . وتجد ترجمة هذا الملحق في المجلد الرابع من الوثائق البريطانية، ص‌ص ٤١٨ — ٤١٩ وفي المجلد ١٣، ص‌ص ٤٠٦ — ٤٠٧ . وبعد بضعة أيام من هذا الاجتماع قدمت وزارة الخارجية البريطانية إلى فيصل نسخا عن الرسائل العشر التي تبادلها الحسين ومكماهون ونسخة عن اتفاقية سايكس — بيكو وعن تصريح ٧ تشرين الثاني ١٩١٨ .

ووصف الكولونيل ستيرلنج اجتماع فيصل ولويد جورج كما يلي :

«كان لويد جورج برلمانيا من الطراز الأول ، وكالعادة عرض في الاجتماع بهلوانياته اللفظية : يتكلم كثيرا ويقول قليلا . ولكن ذهن فيصل الحاد اخترق دروعه في عدة نقاط ، حتى انه في مناسبتين طرح الأمير أسئلة من نوع محرج اضطر رئيس الوزراء معها أن يستأذن وينسحب إلى غرفة اخرى كي يبحث الموضوع مع زملائه . لقد كانت دلائل اللوذعية السياسية بينة واضحة عند هذا الرجل الذي كان يعتبر بدوياً غشيماً ذا تربية صحراوية ولم يعتد على أساليب الامم المتمدنة.» Safety Last, Hollis & Carter, London, 1953, pp. 101-102.

وبعث فيصل بعدة برقيات إلى أبيه=

وجد فيصل نفسه في موقف بالغ الحرج عندما انكر الانكليز وجود اتفاقية واضحة بينهم وبين ابيه الحسين ، وهي الاتفاقية التي كان فيصل يعتقد انها موجودة ويعلق اهمية على وجودها . وكتب فيصل لأبيه رسالة يشرح له فيها الوضع ووجهة نظر الانكليز ، وموقفهم بين فرنسا والعرب ، ومما قاله انه لا يخشى الا «من الامر الاجباري وسياسة الغصب والسيف والقوة »وانه عازم على مقاومة كل عمل ضد مبدأ العرب «الا وهو وحدة البلاد ». وقال انه لمس عطفا وتفهما من الانكليز «ولكن الماديات والمنافع المتقابلة والحسيات هي عندهم رأس كل عمل .... ». واخيرا حث اباه على التقرب من جميع شيوخ العرب وامرائهم وعقد أواصر التآلف معهم [1] لان فيصلاً كان يدرك جيدا ان قوة الجبهة الداخلية تعكس تأثيرا قويا في الصراع السياسي مع الدول الاجنبية .

كان البريطانيون مهتمين بالغ الاهتمام باقناع فيصل بقبول الترتيبات الاخيرة حتى يتخلصوا من الاتهام في المستقبل بانهم نكثوا بعهودهم للعرب . ولتحقيق هذه الغاية طلب كرزون من لورنس ــ الذي كان يومذاك في اوكسفورد ــ ان يساعد في اقناع فيصل . [2]

= يطلب منه تأكيدا بأن المذكرة التي بعث بها اليه تحمل توقيع أحد المسؤولين الانكليز ، ولكن الملك لم يستطع أن يرسل اليه شيئا بل أحاله على مراسلات مكماهون . وكانت البرقيات بين فيصل وأبيه تتم بأرقام الشيفر،ولكن الانكليز كانوا يملكون مفتاح تلك الأرقام ولذلك كانوا يطالعون البرقيات قبل أن تصل إلى أصحابها . See Minutes— in hand-writing on Lawrence's letter of 25 Sept. 1919 — P.R.O. F.O. 371/4183.

(١) الرسالة من لندن وهي بتاريخ ٢٦ ايلول ١٩١٩ - (أوراق الأمير زيد) . وفي اليوم التالي بعث فيصل رسالة إلى أخيه زيد شرح له فيها الوضع وعبر عن رأيه بأن « القول الأخير هو للقوة ... الله الله ، القوة القوة ! كلما كنا أقوياء هناك وكلما رأوا فينا أثر حياة عسكرية كلما احترمونا وخضعوا لمطالبينا ، وان لم يكن كذلك فلا أهمية لقول أي كان » . وأكد لأخيه ان امال العرب يمكن أن تتحقق اذا حققوا « القوة والجندية والتضامن » . وطلب في رسالة اخرى لزيد بتاريخ ٣٠ ايلول ان يسعى هو وأركان الحكومة السورية إلى تقوية الجيش ودعمه بحيث يتمكن من «حفظ الامن والكيان حتى يتقرر مصير البلاد نهائيا » . - (أوراق الأمير زيد) .

(٢) كان لورنس قد غادر باريس عائدا إلى اوكسفورد فأبرق كرزون في١٧ تموزإلى=

وكان لورنس قد نشر في اوائل ايلول عددا من المقالات في الصحف البريطانية قال في احداها ان اتفاقية سايكس – بيكو هي «ميثاق» العرب لأنها تعطيهم دمشق وحمص وحماة وحلب والموصل مع حرية اختيار المستشارين [١] . ولكن لورنس بعث رسالة خاصة الى كرزون يشترط فيها شروطا مؤداها ان توافق بريطانيا على ان تكون صبغة الحكم في العراق عربية وان تعترف حكومتا بريطانيا وفرنسا رسميا بالحكومة العربية في سورية الداخلية . اما عبارة لورنس المشهورة في هذه الرسالة «انني اطمع في ان يكون العرب اول ممتلكاتنا السمراء وليس آخر مستعمراتنا السمراء» فقد عنى بها ان حصول بريطانيا على النفوذ في بلاد العرب افضل من قيامها بحكم العرب حكما مباشرا . [٢] ومن الواضح ان كرزون لم يقبل هذه الشروط فلم يتصل لورنس بفيصل .

واتصل وايزمن بفيصل خلال هذه الفترة وعقد معه اجتماعين طويلين ، عرض خلالهما عليه تقديم الاموال والمستشارين للحكومة

= بلفور يسأله عما اذا كان ما يزال يعتبر لورنس ملحقا بوفده ، وينصح بعدم السماح له بالاتصال بفيصل من ذلك الوقت وصاعدا . ورد بلفور في ١٣ آب بان لورنس كان وما يزال ملحقا بالوفد البريطاني في باريس كمستشار فني وان خدماته يمكن الانتفاع بها عند بحث مسألة سورية عند مجيء فيصل الى باريس . وكان من رأي السير كرو انه لا أمل بالتوصل الى تسوية الا بالاتفاق بين فيصل والحكومة الفرنسية ، وأنه من غير المحتمل اقناع فيصل الا بمساعدة لورنس . وردت وزارة الخارجية في ٢١ آب بأنها ووزارة الحربية تريان ان لورنس مسؤول الى حد كبير عن متاعب البريطانيين مع الفرنسيين حول سورية . — B.D. IV, p. 315 & pp, 354-5;
See also : Comments in P.R.O., F.O. 608/92.

(١) جريدة التايمس بتاريخ ١١ ايلول ١٩١٩ . ومما قاله لورنس في هذه المقالة انه لا يرى تعارضا أو تناقضا بين الوثائق الأربع موضوع الخلاف بين بريطانيا وفرنسا والعرب وهي (١) وعد بريطانيا للملك حسين (٢) اتفاقية سايكس – بيكو (٣) تصريح بريطانيا للسوريين السبعة (٤) تصريح ٧ تشرين الثاني ١٩١٨ .

(٢) Letter of 25 Sept. 1919, B.D. IV, pp. 422-4.
وفي ٨ تشرين الاول ١٩١٩ قال لورنس للكابتن وليم ييل انه – لورنس – قال صراحة للويد جورج انه لا بد للحكومة البريطانية من أن تسمح للعرب بانشاء حكومة عربية في العراق . — تقرير ييل عن الفترة ٢٧ ايلول – ١٤ تشرين الاول ١٩١٩ .

العربية واقناع الفرنسيين بان يكفوا عن المطالبة بنفوذ لهم في داخلية سورية . ولكنّ الامير – كما قيل – طلب ان يعمل الصهيونيون على اخراج الفرنسيين من الساحل السوري ايضا . ووقف الامر عند ذلك الحد . (١)

وقبل ان يتلقى فيصل جواب لويد جورج على مذكرته الاخيرة (٢١ ايلول) بعث اليه في ٩ تشرين الاول مذكرة اخرى اقترح فيها الغاء ترتيبات باريس وعرض القضية السورية على مؤتمر السلام لتسويتها نهائيا او تأليف لجنة من اعضاء بريطانيين وفرنسيين وعرب تحت رئاسة مندوب اميركي . لبحث المسألة وتقديم تقرير الى مؤتمر السلام . (٢)

ورفض لويد جورج هذا الاقتراح ولكنه وافق على عقد اجتماع يبحث المشاكل الناجمة عن انسحاب القوات البريطانية الوشيك . (٣) وفي اليوم ذاته بعث كرزون مذكرة جوابية طويلة الى فيصل بحث فيها مراسلات الحسين – مكماهون وادعى ان وعود بريطانيا للعرب لا تتعارض مع اتفاقية سايكس – بيكو . وقال ان الحكومة البريطانية تعترف بمساعدة العرب القيمة في الحرب ولكنها وضعت اكثر من ١،٤٠٠،٠٠٠ جندي في ميدان الشرق وأنفقت ٧٥٠ مليون جنيه في ذلك الميدان . وذكر كرزون الخسائر في الارواح والاموال التي تكبدتها بريطانيا وفرنسا في الحرب . ثم ألح على فيصل ان يقبل الترتيب المقترح لان الحكومة البريطانية تصر على الانسحاب في الموعد المعين . (٤)

ورد فيصل على مذكرة لويد جورج مذكرا اياه بتصريح اللنبي وبرسالة ١٦ حزيران ١٩١٨ (التي انكرت وجود اتفاقية سايكس – بيكو) وبتصريح ٧ تشرين الثاني ١٩١٨ ومناشدا اياه «باسم الانسانية وباسم السلم العام وباسم الامة العربية وباسم المصالح الكثيرة التي

---

(١) Note by Col. Cornwallis, 25 Sept. 1919, B.D. IV, pp. 421-2.

(٢) Ibid., pp. 443-444.

(٣) Letter of 10 Oct. 1919, Ibid., pp. 451-2.

(٤) Ibid., pp. 444-9.

لبريطانيا العظمى وفرنسا في العالم الشرقي » ان يلغي الترتيبات الاخيرة او ان تنسحب القوات الفرنسية من الساحل عند انسحاب القوات البريطانية من الداخل . ولكن فيصلاً – وهو يعلم انه استنفد حججه – قال انه اذا ظلت الحكومة البريطانية مصممة على تنفيذ قرارها فانه يقبل ان يجتمع مع ممثلين عن بريطانيا واميركا وفرنسا لبحث موضوع الانسحاب .(١)

وابرق لويد جورج الى كليمنصو يطلب اليه انتداب الجنرال غورو للمجيء الى لندن للتباحث مع فيصل واللنبي بشأن موضوع الانسحاب .(٢) ولكن كليمنصو في جوابه لم يرفض ايفاد غورو الى لندن فحسب بل كرر القول ان موقف فرنسا في سورية شبيه بموقف بريطانيا في العراق ، وانه يجب ان تتفاهم فرنسا مباشرة مع فيصل ، وانه لا يوافق ان تحل بريطانيا مصاعبها مع العرب عن طريق التضحية بالمصالح والحقوق الفرنسية وعن طريق تحريف اتفاقية سايكس – بيكو ، واتهم الانكليز باعطاء اسلحة كثيرة للعرب يمكن ان تستعمل ضد فرنسا . وقال انه لا يوجد الا حل واحد وهو ان تطلب الحكومة البريطانية الى الامير فيصل ان يتفاهم مع فرنسا وانه يرحب بالتحدث مع الامير اذا رغب في ذلك واذا اراد الوصول الى حل .(٣) وفي اليوم ذاته قدمت السفارة الفرنسية في لندن الى وزارة الخارجية البريطانية مذكرة تتضمن اتهامات قاسية حول تزويد الانكليز بالاسلحة للعرب ، وقد أمر كرزون باعادة المذكرة وابلاغ الفرنسيين انها تتضمن مزاعم لا صحة لها .(٤)

اثارت برقية كليمنصو سخط لويد جورج اذ اعتبر انها كتبت بلهجة «تكاد تكون مهينة »وقد رد لويد جورج معبرا عن الدهشة وعميق الاسف لاسلوب الرسالة ولرفضه الاقتراح الذي لم يكن سوى محاولة

(١) Ibid., Letter of 11 Oct. 1919, pp. 461-2.

(٢) Ibid., Tel. No. 1160 of 13 Oct. 1919, p. 463.

(٣) Ibid., Tel. of 14 Oct. 1919, pp. 468-9.

(٤) Ibid., Note of 14 Oct. 1919, pp. 498-9 and letter from Curzon to Crowe of 23 Oct. 1919, pp. 497-8.

مخلصة وصادقة لعقد اتفاق بين جميع الفرقاء المعنيين لحل المشكلة السورية حلا مؤقتا متفقا عليه [1] . وعلى الرغم من ذلك فقد رأى الانكليز في اقتراح كليمنصو سبيلا للتخلص من الحاح فيصل ، فاجتمع به كرزون واللنبي يوم ١٦ تشرين الاول واقنعاه بقبول دعوة كليمنصو للاجتماع به في باريس . وسأل فيصل عما سيكون عليه موقف الانكليز في حالة اخفاقه في التوصل الى تفاهم مع الفرنسيين ، فأبى كرزون ان يبدي له أي رأي وأبلغه انه يجب ان يحدّد موقفه على مسؤوليتـــــــه الشخصية . [2]

ان فيصلاً الذي وجد نفسه مضطراً للذهاب الى باريس ، مضى في اليوم التالي لمقابلة السفير الاميركي في لندن وبعث برسالتين الى اخيه زيد تدلان على اتجاه تفكيره : الاولى قصيرة «ان كان يوجد حماس واقبال للمدافعة يمكن الاعتماد عليه اخبرونا تلغرافيا بقولكم ارجوكم ارسال امين ، وان كان خــلاف ذلك ياسين يسترحم الالتحاق بسموكم » . اما الثانية فقد اشار فيها الى ما لمسه من احترام البريطانيين والفرنسيين للاتراك بعدما اظهروه من قوة بقيادة مصطفى كمال ، ولذلك قال انه على الرغم من قوة حججه سياسيا فان «المسألة مسألة قوة لا حق ... الاستقلال يؤخذ ولا يعطى ... اتمنى ان الامة تؤيد قولي فعلا وتري للعالم بانها ليست اقل حمية ومحبة لوطنها من الترك » . [3]

اما لويد جورج فلم يكتف ببرقيته الموجزة رداً على برقية كليمنصو العنيفة ، بل بعث في ١٨ تشرين الاول برسالة مطولة ناقش فيها اتهامات كليمنصو بان الحكومة البريطانية لعبت على الحبلين في عقد الاتفاقات مع فرنسا والعرب . وقد ارفق برسالته نسخا من مراسلات الحسين —

---

(١) Ibid., Tel. No. 1167 of 15 Oct. 1919, p. 473.

(٢) Ibid., Curzon to Derby, 16 Oct. 1919, pp. 474-6. وبين أوراق الأمير زيد محضر الاجتماع بين فيصل وكرزون (لم ينشر في الوثائق البريطانية). وجاء في هذا المحضر قول كرزون لفيصل « أرجو ان لا تكتفوا بشرح قضيتكم العادلة بل أن تضعوا نصب أعينكم وجوب الاتفاق مع المسيو كليمنصو . »

(٣) وقد بعث فيصل الرسالتين مع أحد رجاله . (أوراق الأمير زيد) .

مكماهون ليبرهن ان بريطانيا حافظت على المصالح الفرنسية في سورية على الرغم من معارضة الشريف الشديدة . وبيّن ان اتفاقية سايكس ـ بيكو عقدت على اساس مراسلات مكماهون بعد موافقة فرنسا على استقلال العرب في داخلية سورية،وكيف ان الحكومة الفرنسية وافقت على ابدال كلمة «يحمي» بكلمة «يعاضد» فيما يتعلق بسورية الداخلية ، وكيف جعلت الحكومة البريطانية قبولها للاتفاقية مشروطا بحصول العرب على مدن دمشق وحمص وحماة وحلب ، وبان يكون تقديم المستشارين والموظفين الاجانب بناء على طلب الدولة العربية . ثم مضى لويد جورج يسرد تاريخ المسألة السورية حتى وصل الى اتفاق ايلول والمباحثات الاخيرة مع فيصل وممانعة العرب في قبول الانتداب الفرنسي وكيف ان الحكومة البريطانية «في وجه مصاعب عظيمة جدا ... وضعت اقصى الضغط على الامير فيصل لكي يقبل ذلك الترتيب ولكي يتوصل الى تفاهم مع الحكومة الفرنسية ». ثم ارفق نسخا من المذكرات التي تبودلت مع فيصل مؤخرا ليبرهن ان الحكومة البريطانية ظلت موالية لاتفاقها مع فرنسا على الرغم من معارضة الامير الشديدة . وقال انه لم يحط فيصل «علما بفحوى رسالتكم في اسلوبها المهين الى حد ما ». ثم ذكر كليمنصو بالدور الذي لعبه العرب في الحرب وان «الامير فيصل يمثّل شعباً ذا كبرياء وتاريخ عريق ...» وانه عضو في مؤتمر السلم وجدير بان يقابل بالاعتبار الذي يستحقه حليف من الحلفاء ، بالاضافة الى ان اباه زعيم اسلامي عظيم . ثم ان بريطانيا تعتبر فيصلاً واحدا من حلفائها ولذلك فهو يحض الحكومة الفرنسية على التوصل الى اتفاق معه . [١]

ان هذه المراسلات التي تبادلها كليمنصو ولويد جورج والتي وصفها

---

(١) B.D., IV, pp. 479-489. ومن الملاحظ ان لويد جورج في سبيل تبرير نفسه أمام كليمنصو لم يتورع عن أن يرسل نصوص المذكرات التي بعث بها فيصل اليه وإلى حكومته وقد ضمنها أقوالا لم يكن يريد حتما أن توضع أمام الفرنسيين . ان لويد جورج هنا لم يبال فيما سيخلقه اطلاع الفرنسيين على رسائل حسين وفيصل من شعور بالعداء في نفوسهم ضد العرب كما انه كشف أوراق حلفائه العرب بصورة قد تؤدي إلى إلحاق الضرر بهم .

لورد كرزون بانها «قنابل شديدة الانفجار »[1] لم تزد عن ان تكون مجرد «كلمات . كلمات ، كلمات »، [2] وكانت هذه المذكرة آخر مرة يدافع فيها لويد جورج عن العرب دفاعا كان يقصد به ان يبرر نفسه وحكومته امام كليمنصو والحكومة الفرنسية اكثر مما كان يقصد به ان يلتزم جانب العرب وينافح عن حقهم ويفي بالتزامات حكومته لهم. كان ما يهم الحكومة البريطانية ان تلقي بفيصل في احضان الفرنسيين ، وتتنصل من مسؤولياتها تجاه العرب ، حتى ان اللورد كرزون لم يكن يحبذ عودة فيصل الى لندن فيما لو اخفق في باريس [3] . وهكذا اصبح الطرف الاساسي الذي تعاقد معه العرب (الانكليز)طرفا متفرجا ، واصبح الطرف الذي لم تكن للعرب علاقة به طرفا اساسيا .

مشروع اتفاق فيصل — كليمنصو : وصل فيصل الى باريس يوم ٢٠ تشرين الاول في ظروف تختلف كثيرا عن وصوله اليها قبل تسعة اشهر . كان الان قادما لمساومة الفرنسيين من مركز ضعف بعد ان تخلى عنه الامريكيون والانكليز . وقد كانت فرنسا يومذاك مشغولة بحملة انتخابات الرئاسة ، بينما كانت الصحف الفرنسية تشن الحملات القاسية ضد الانكليز والعرب ، على الرغم من ان اتفاقية ايلول كانت انتصارا لفرنسا . ذلك ان الفرنسيين لم يكونوا على استعداد للرضى عن اي حل لا يعطيهم سورية الداخلية . وفي يوم وصبول فيصل الى باريس كتب احد النواب الفرنسيين مقالة قال فيها انه لا بد لفرنسا من احتلال المدن الاربع ولا حق لفيصل ان يكون فيها ، واذا كانت بريطانيا تريد اعطاء مملكة لفيصل فلتضعه في بغداد . [4]

---

(١) Curzon to Earl of Derby. 22 Oct. 1919, Ibid., p. 496.

(٢) في مسرحية « هاملت امير الدنيمارك » لوليم شكسبير .

(٣) Minute by Curzon on a letter dated 16 Oct. 1919 from Feisal — B.D., IV, p. 476.

(٤) Ibid., p. 491.

في اليوم التالي لوصول فيصل الى باريس قدم مذكرة الى كليمنصو قال فيها انه جاء الى باريس تلبية للدعوة التي تلقاها وانه يطمح «الى التوفيق بين حقوق العرب ومصالح الحلفاء المشتركة ». وانه وقومه اصدقاء لفرنسا. ثم اوضح فيصل اسباب معارضته لتغيير الوضع الراهن في سورية وخشيته من فقدان وحدة البلاد ؛ وقال ان العرب يرفضون الاقتراح البريطاني كله لانهم يرون فيه بداية تقسيم وطنهم «الذي لا يمكن ان يكون الا قضاء مدمرا لحياتهم السياسية والاقتصادية والادارية »، وان الاقدام على تلك الخطوة من المحتمل ان يدفع اهل البلاد الى المجازفة بأرواحهم « للدفاع عن وحدتهم التي لا بــد لهم منها ». وأخيرا ناشد كليمنصو ان يوافق على اقتراحه الرامي الى تأليف لجنة مختلطة تنظر في أمر الجلاء عن سورية كلها .[1]

وفي ٢٢ تشرين الاول اجتمع الامير بكليمنصو ؛ وبعد ذلك بثلاثة ايام قدم مذكرة اخرى كرر فيها الطلب بتشكيل اللجنة التي اقترحها على ان تكون مهمتها «درس طريقة الانسحاب وتأليف ادارة مؤقتة تكفل وحدة البلاد وتؤمن الاتساق الاداري بين المناطق المحتلة وتحفظ حقوق الاهلين ».[2] وفي هذه الاثناء اوفد فيصل السيد عوني عبد الهادي لمقابلة المستر بولك رئيس الوفد الاميركي وطلب معاضدة حكومته فكتب هذا الى واشنطن مذكراً ، ولكن الولايات المتحدة اخفقت في تقديم العون المعنوي الذي كان فيصل يبحث عنه . وبقي عليه ان يواجه الفرنسيين منفردا .

وفي ذلك المأزق الذي وجد فيصل نفسه فيه كتب الى ابيه الرسالة المطولة التي اشرنا اليها سابقا . وقد جاء في هذه الرسالة انه نتيجـــة للمحاورات الشفهية والمخابرات التحريرية التي اجراها في لندن ، استنتج ان بريطانيا «قد تركت سورية للفرنساويين وان لا فائدة محسوسة منها ...» وانها «استخدمتنا لمصالحها وتركتنا »وانها بمعاضدة العرب في

---

(١) أوراق عوني عبد الهادي .

(٢) المذكرة بتاريخ ٢٥ تشرين الأول ١٩١٩ – (أوراق الأمير زيد) .

السابق جعلت الفرنسيين يتخلون لها عن فلسطين والموصل . وبعد ان بحث فيصل في مختلف الاحتمالات، توصل الى القول انه من الصعب على السوريين ان ينتصروا على الفرنسيين ويخرجوهم من الساحل «لعدم وجود الوسائط والالات الحربية وعدم وجود التربية الملية التي تدفع الامة سواء بسلاح او بغير سلاح ..» لمقاتلة العدو . هذا في الوقت الذي توافرت لديه القناعة ان بريطانيا لن تهب لمساعدة العرب «بل انها ستقول اخذت حصتي من المغنم . وذلك ما تريد فعله في سورية ». وساق فيصل ادلة عديدة «من اسباب بيع انكلترا لسورية وصرف النظر عن صحبة العرب الا قليلا لاجل المساومة والاطمئنان على ما اخذته من الاقسام العربية نهائيا ...» ولكن على الرغم من هذا فان فيصلاً لم يكن يرى من الحكمة اعلان العداء للانكليز كيلا يجلب ذلك على العرب خطر الشحناء معهم ، ولانه لم يكن يريد ان يلقي بنفسه في احضان الفرنسيين . ومن هذا اراد فيصل عند وصوله الى باريس ان يتوصل الى نوع من التفاهم مع الفرنسيين يخرج به من المجرى القديم القائم على التزام جانب الانكليز التزاماً تاما . وان الفرنسيين اذا قبلوا اقتراحه بتشكيل لجنة «لفصل الاختلافات ومحافظة المناطق المحتلة على ما كانت عليه من يوم انجلاء الترك »سيتيحون له السير في المجرى السياسي الجديد القائم على (١) الاتفاق مع فرنسا بالشرائط التي يمكن اخذها شريطة ان تكفل للسوريين استقلالهم وحرية العمل (٢) مطالبة انكلترا بما عليها من عهود واقوال وتصريحات «ونطالبها بحكومة في العراق وحكومة في فلسطين بشرط ان الاخيرة اي فلسطين ترتبط بصورة من الصور مع سورية »؛ (٣) تكليف حكومتي فرنسا وانكلترا معا الاعتراف بحكومة او حكومات عربية «يرأسها زعيم عربي واحد يكفل الوحدة » . وقال فيصل انه لا يجد افضل من هذه السياسة بعد ان نفض الانكليز ايديهم من العرب وبعد تخلي الامريكان « الذي أضرّ بنا كثيراً وكان السبب في وقوعنا في هذا المأزق الحرج ». [١]

---

(١) من فيصل إلى أبيه : خواطر خصوصية بتاريخ تشرين الثاني ١٩١٩ – (أوراق الأمير زيد) .

لم يكن رد كليمنصو على مذكرة فيصل مما يبعث على الاطمئنان ، فقد قال ان العسكريين الفرنسيين يعرفون كيف يفرضون النظام في المناطق التي سيحتلونها بدل الانكليز . وان القوات الفرنسية مستعدة لمد يد العون لفيصل اذا عمل المهيّجون على العبث بالاستقرار . وقد رفض كليمنصو فكرة اللجنة التي اقترحها فيصل قائلا ان ابدال الجنود لا يبدل شيئا في الحقوق . واشار اشارة واضحة الى ان لجوء العرب الى اثارة القلاقل سيلحق الضرر بقضيتهم .[1] ويكمن وراء هذا الموقف المتصلب اعتقاد كليمنصو ان فيصلاً لم يعمل بروح او حرفية المخابرات التي دارت بينهما في شهر نيسان الفائت .[2] ورد فيصل مكررا قوله ان تنفيذ ترتيبات ١٥ ايلول يعرض حياة الشعب ووحدة الادارة في سورية الى خطر جسيم ، ويبعث على الاعتقاد انه تنفيذ لاتفاقية سايكس — بيكو التي تقضي بتقسيم البلاد وبقتل كيانها ، وانه يفهم منها انها ليست مجرد عملية استبدال جنود بجنود بل انها «تحديد مناطق النفوذ السياسي والاقتصادي وبالتالي تقرير مصير بلادنا ومستقبلها لتحقيق مصالح غريبة عنا». وردّ فيصل على اشارات كليمنصو قائلا ان الشعب السوري لا يميل للفوضى وانه «لن يتردد اليوم في الدفاع عن حريته واستقلاله ...». واخيرا طلب فيصل من كليمنصو ان يعيد النظر في الموضوع .[3]

ولكن سرعان ما تبين لفيصل ان الفرنسيين مصرون على التشبث بترتيبات ايلول ، فبعث في ٦ تشرين الثاني مذكرة الى المجلس الاعلى بيّن فيها مساوىء الترتيبات الاخيرة وقال انها بنيت على ما يختص بمصالح فرنسا وبريطانيا فقط ، وان تلك الترتيبات تنطوي على تجزئة القطر الواحد الى ثلاثة اجزاء ، فضلا عن إخضاع الجزء العربي الى نفوذ دولتين . ثم قال ان العرب ثاروا ضد التعصب وقامت حركتهم على اساس وطني وليس على اساس ديني «وان عددا كبيرا من العاملين معي

(١) Clemenceau to Feisal, 2 Nov. 1919, B.D. IV, pp. 511-3.
(٢) Minute by Forbes Adam, 7 Nov. 1919, Ibid., p. 529.
(٣) Feisal to Clemenceau, 5 Nov. 1919, Ibid., pp. 513-5.

الان في سبيل الوطن ليسوا من ديني ». ثم ناشد المؤتمر العمل على الغاء الترتيبات المقترحة والمحافظة على وحدة البلاد . [١]

وفي اليوم ذاته كتب فيصل الى لويد جورج يقول ان الفرنسيين رفضوا اقتراحاته على الرغم من انه عرض ان يعطيهم تعهدا خطيا «بانني اعمل دائما على حفظ المنافع الفرنسية في سورية» وانه بسبب ذلك اضطر ان يرفع المسألة الى المجلس الاعلى،وطلب من لويد جورج ان يعطيه رأيه في الموقف.[٢] ولكن رسالة فيصل بقيت دون جواب مما زاده يقينا ان البريطانيين اكتفوا باخذ حصتهم من المغنم .

وقد عزا فيصل تصلب الفرنسيين الى اعتقادهم ان اكثرية السوريين تميل اليهم وان الذين يشاركون فيصلاً آراءه ليسوا سوى حفنة من المتطرفين . فقد جاءه في هذه الاثناء الكولونيل تولا وقال له صراحة ان التقارير التي ترد الى وزارة الخارجية الفرنسية تقول «ان القسم الاعظم من سكان سورية هم ضدك... والحكومة معتقدة بان ليس من الممكن حدوث شيء كان بل اهالي سورية يستقبلون الفرنسيين بالزهور ». بل ان فيصلاً لاحظ ان الفرنسيين «لا يعدون اهل سورية شعبا بل انهم يعدونهم كالغنم.»[٣] وكان فيصل حائرا في تقدير موقف اهل سورية تقديرا صحيحا : هل يقاومون الفرنسيين مقاومة فعالة ام لا . وهذه الحيرة تفسر لنا اقامته الطويلة في لندن وباريس : هل يملك قومه التصميم الكافي على المقاومة حتى يعود ويقودهم في القتال كما فعل مصطفى كمال؟ كان زيد يبلغه ان الناس في هياج وان موجة السخط تتعاظم ويحتمل ان

---

(١) Ibid., pp. 516-519.

(٢) Ibid., pp. 510-511.

(٣) رسالة خاصة من فيصل إلى زيد بتاريخ ٦ تشرين الثاني ١٩١٩ – أوراق الأمير زيد وايضا برقية من فيصل إلى زيد بتاريخ ١١ تشرين الثاني ١٩١٩– B.D. IV, p. 327. جاء في تقرير ماينرتزهاجن إلى كرزون بتاريخ ١٠ تشرين الثاني ١٩١٩ ، قوله « لا يخفي الفرنسيون عدم اكتراثهم بالعرب ، حتى ان المسيو «بيكو أبلغني قبل اسبوع ان عشرة جنود فرنسيين يستطيمون أن يفعلوا أي شيء وأن يذهبوا إلى أي مكان يريدون الذهاب اليه في سورية ، قبل انسحابنا أو بعده على السواء». –B.B. IV, p. 524.

تنفجر . [1] ومما زاد في حيرة فيصل وحرج موقفه ان اباه بعث يطلب اليه ان يغادر فرنسا ويعود اما الى سورية او الى لندن . [2] ونلمس عدم خشية الانكليز والفرنسيين من تهديدات زيد بما يمكن ان ينشأ في البلاد من اضطرابات من برقية بعث بها اللنبي اليه في ١٥ تشرين الثاني :

> يأمر القائد العام بأنه يجب تنفيذ واحترام الاتفاق بين الحلفاء . لا توجد نية بالترتيبات الحاضرة للحكم مقدما على القرار النهائي . فيجب تأكيد الطاعة وحفظ النظام . (٣)

ورويدا رويدا اتضح لجميع الاطراف المعنية ان ترتيبات ايلول لم تكن ترتيبات مؤقتة كما زعم الانكليز لفيصل . ففي ٩ تشرين الثاني كتب كليمنصو يشكر لويد جورج على تخلي حكومته عن فيصل ، وعلى انه من الان وصاعدا « لن يكون لمؤتمر السلم ما يقوله او يفعله الا ان يوافق على اتفاقنا بمنح فرنسا الانتداب على سورية ومنح بريطانيا الانتداب على العراق ... ». وادعى كليمنصو أن السفير الفرنسي في لندن وافق على تبديل كلمة «حماية » بكلمة «تعضيد» في اتفاقية سايكس – بيكو «على اجتهاده الخاص ». وقال كليمنصو ان عدم التوصل الى اتفاق مع فيصل يعود الى ان فيصلاً لم يدرك حتى الان «ان من

---

(١) راجع مثلا رسالة زيد إلى فيصل في ٢٧ تشرين الأول ١٩١٩. –B.D. IV, pp. 499-500 (enclosed in tel. No. 489 from Meinertz-hagen to Curzon).

(٢) بعث الحسين رسالته هذه المؤرخة ١ تشرين الثاني ١٩١٩ في ظرف مفتوح إلى اللنبي طالبا اليه أن يرسلها إلى فيصل . وعندما أطلع اللنبي على العبارة التالية : « ... ان السوريين اذا اعتزموا أن يقاتلوا دفاعا عن حريتهم واستقلالهم ، فانني لن أتردد في الذهاب اليهم للتعاون معهم باعتباري مواطنا عربيا حتى يعلموا انني لم أتخل عنهم » ، أمر باعادة الرسالة إلى الملك قائلا ان مضمون الرسالة يضر بالتحالف البريطاني الفرنسي ويعتبر انفصالا من طرف الحسين عن تحالفه مع بريطانيا . –B.D. IV, Allenby to Curzon. No. 1614, 21 Nov. 1919, pp. 549-550. ولا نعلم اذا كانت هذه الرسالة المثيرة للعواطف قد وصلت إلى فيصل بطريقة اخرى .

(٣) برقية رقم ١٣٢٤ بواسطة ضابط الارتباط البريطاني في دمشق – (أوراق الأمير زيد) .

الضروري للعرب ان يتقبلوا انتداب فرنسا وانتداب بريطانيا ...»[1]
وبعد اربعة ايام بعث الوفد الفرنسي لدى مؤتمر السلم الى المجلس الاعلى مذكرة يطلب فيها عدم الاستجابة لمذكرة «الوفد الحجازي» او الاستماع لاقواله حول صلب المشكلة السورية . وقالت المذكرة ان الحكومة الفرنسية اكدت للسوريين «رغبة الحلفاء الاجماعية في تأمين انظمة الحرية والنظام والتقدم التي وعدوا بها شعوب المشرق مستوحين ذلك من رغباتهم ومن آمالهم ومصالحهم».[2]

ومما هو جدير بالملاحظة ان فيصلاً كان مهتما اشد الاهتمام بأن لا يقطع شعرة معاوية بينه وبين اي طرف من الاطراف المعنية.وكان حريصا على أن لا يجابه اي دولة من الدول الكبرى بموقف متصلب ، لئلا يعطي المبرر الذي قد تتمناه تلك الدولة من اجل قطع تلك الشعرة ، لان فيصلاً كان يعرف ان خط دفاعه السياسي والمعنوي اقوى بكثير من خط دفاعه العسكري . ومن هنا نراه في باريس يباحث الفرنسيين ويناقشهم مظهرا لهم المودة وحسن النية ، وكان يشارك في هذه المفاوضات رستم حيدر وعوني عبد الهادي من الجانب العربي وبرتلو وغو من الجانب الفرنسي[3] . وكان جميع اعضاء الوفد العربي مطلعين كل الاطلاع على سير المباحثات .

في هذه الاثناء طلب فيصل موعدا للاجتماع بكليمنصو فاعتذر هذا عن اعطاء الموعد . لذلك ارسل اليه مذكرة قال فيها ان ما يثير قلقه واضطرابه ليس هو انسحاب القوات البريطانية «وانما هي عملية الانسحاب ذاتها حسب مواد اتفاقية سايكس - بيكو وحدودها». وعاد فيصل يكرر القول ان السوريين في قلق عظيم من المستقبل وانه لذلك يصر «على التوصل الى حل يقنع الشعب بان وجوده لا يتعرض لاي تهديد». وبالتالي

(١) B.D., IV, pp. 520-522.

(٢) Ibid., 13 Nov. 1919, pp. 530-531.

(٣) كان برتلو (السكرتير العام لوزارة الخارجية الفرنسية) يصرف أكثر أعمال تلك الوزارة وخاصة بعد أن أصيب بيشون وزير الخارجية بمرض خطير في كانون الأول ١٩١٩ .

قدم فيصل اقتراحا بعدم اجراء اي تغيير على حدود المناطق الثلاث وتعيين لجنة ثلاثية مهمتها حل المشاكل التي قد تنشأ ، وتكون حلقة اتصال بين الادارات الثلاث وبذلك تصان «وحدة البلاد »ويقنع الاهلون ان الترتيبات الجديدة لا تهدف للتجزئة .[1]

ان الذي املى على فيصل اقتراحه الاخير هو ما بلغ مسامعه من استعداد الفرنسيين لاحتلال الاقضية الاربعة (بعلبك ، البقاع ، راشيا ، حاصبيا)بعد انسحاب البريطانيين.[2] وكان من المرجح ان يتفجر الموقف بين العرب والفرنسيين حول هذه المسألة خلال شهر تشرين الثاني ، لولا تدخل الانكليز من جهة وتوصل فيصل مع كليمنصو الى اتفاق بشأنها . فانسحاب القوات البريطانية الذي بدأ من شمالي سورية في ١ تشرين الثاني ١٩١٩ : كان معناه عند الفرنسيين احتلال قواتهم جميع انحاء المنطقة الزرقاء في اتفاقية سايكس – بيكو (بحسب اتفاق ١٥ ايلول ١٩١٩). وقد صدرت التعليمات بذلك للجنرال غورو.[3] وتقرر القيام بالاحتـــلال قبل ٢٦ تشرين الثاني . ومن المعلوم ان هذه الاقضية كانت جزءا من ولاية سورية في العهد العثماني وكانت روح رسالة مكماهون المؤرخة ٢٤ تشرين الاول ١٩١٥ تدل على أنها ستبقى مع المدن السورية الاربع في المنطقة العربية ، كما ان المادة ٣ من مذكرة لويد جورج المؤرخة ١٣ ايلول ١٩١٩ أقرت ضمنا بقاء القوات العربية فيها بعد انسحاب البريطانيين خصوصا وانها كانت تابعة اداريا للمنطقة الشرقية منذ تشرين الثاني ١٩١٨.[4] ولكن الفرنسيين كانوا

---

(١) Ibid., 20 Nov. 1919, pp. 456-548.

(٢) راجع مثلا برقية زيد إلى فيصل في ١٧ تشرين الثاني ١٩١٩ التي قال فيها ان القيادة البريطانية أبلغته انها ستسلم منطقة بعلبك – رياق – المعلقة للقوات الفرنسية . ولم يرسل الانكليز هذه البرقية لفيصل الا في ٢٧ تشرين الثاني بعد أن توصل إلى تفاهم مع كليمنصو . – B.D. IV, p. 533.

(٣) عين الجنرال غورو في ١٢ تشرين الأول ١٩١٩ قائدا عاما للجيش الفرنسي في سورية وكيليكيا ومندوبا ساميا لفرنسا فيهما. وقد وصل إلى بيروت يوم ١٨ تشرين الثاني .

(٤) راجع الخلاف الذي حدث بشأنها يومذاك في الفصل السادس .

يتمسكون باتفاقية سايكس بيكو وبالمادة ٤ من مذكرة ١٣ ايلول . ومن هنا ازداد يقين العرب ان ترتيبات الانسحاب لم تكن مؤقتة كما يزعم الانكليز والفرنسيون ، بل هي ترتيبات دائمة ستكون نتيجتها تقطيع اوصال سورية البلد الواحد الى ثلاثة اجزاء .

لم يكتف فيصل بمذكرته التي بعث بها الى كليمنصو ؛ بل انه قبل ذلك طلب من اخيه زيد ان يقاوم بالقوة اي تقدم فرنسي نحو المنطقة الشرقية [1] واوفد الجنرال حداد الى لندن لطلب المعاضدة من الانكليز وبحث عدد من المسائل معهم [2] . ونتيجة لذلك بعثت وزارة الحربية البريطانية في ٢٠ تشرين الثاني بتعليمات الى اللنبي تطلب منه الاتصال بغورو ومحاولة اقناعه بان لا يعمد الى احتلال الاقضية الاربعة . وعلى الاثر اجتمع الجنرال كونجريف (القائد العام للقوات البريطانية في مصر) بالجنرال غورو واقنعه بتأجيل الاحتلال بضعة ايام ريثما تصل اليه تعليمات جديدة من حكومته . وفي ٢١ تشرين الثاني بعث فيصل الى لويد جورج رسالة انبأه فيها بان القوات العربية ستصد بالقوة اية محاولة يقوم بها الفرنسيون لاحتلال اية مواقع في المناطق الشرقية ، وناشده ان يعمل على تذليل هذه المشكلة وان لا تتخلى حكومته عن مسؤولياتها تجاه العرب . [3]

من الواضح ان تدخل الانكليز من جهة وميل كليمنصو الى التساهل وكسب ثقة فيصل بقصد التوصل الى تسوية شاملة معه من جهة اخرى : كانا وراء الاتفاق الذي تم عقده يوم ٢٥ تشرين الثاني بين فيصل والحكومة الفرنسية . وخلاصة ذلك الاتفاق ان تنسحب القوات العربية من الاقضية الاربعة وان لا تتقدم القوات الفرنسية لاحتلالها ، وان يتولى رجال الامن

---

(١) أمين سعيد ، المجلد الثاني ، ص ٩٨ . ورسالة فيصل إلى زيد في ٢٢ كانون الأول ١٩١٩ في أوراق الامير زيد . وقد أرسل فيصل تعليماته مع اللواء نوري السعيد ثم مع العقيد محمد اسماعيل .

(٢) Joyce to Gribbon, letter of 18 Nov. 1919, B.D. IV, pp. 544-5.

(٣) Ibid., pp. 545-6.

العرب المحافظة على النظام فيها وان تؤلف بعثة تفتيشية من ثلاثة ضباط عرب وثلاثة ضباط فرنسيين كي يراقبوا قيام رجال الامن السوريين بمسؤولياتهم على الوجه الاكمل . وقد اكد برتلو لفيصل ان هذا الاتفاق مؤقت «استجابة لرغبة شخصية اظهرتموها »، وان فرنسا تستأنف حرية العمل بموجب الحقوق التي صادق عليها مؤتمر السلم اذا لم يتم تثبيته باتفاق قاطع خلال ثلاثة اشهر . اما فيصل فقد الح على سحب مفرزة المدفعية الفرنسية التي كانت ما تزال في دمشق ، فاستجاب الفرنسيون لطلبه وأبرقوا الى غورو (٢٧ تشرين الثاني)يبلغونه مضمون الاتفاق ويطلبون اليه العمل بموجبه .[١]

ان الجنرال كونجريف بعد اجتماعه بغورو أوفد الكولونيل واترز تيلور الى دمشق ليبلغ زيداً باسم اللنبي انه لا بد للفرنسيين من احتلال بعلبك والبقاع . ونتيجة لهذا التبليغ اوفد زيد اللواء نوري السعيد الى بيروت لمفاوضة غورو ونتج عن مباحثات نوري السعيد مع غورو انهما اتفقا على ان ترابط مفرزة فرنسية في رياق وان يقيم ضابطا ارتباط فرنسيان في بعلبك وراشيا وتنسحب القوات العسكرية العربية من المنطقة المتنازع عليها.[٢] وقيل ان غورو غضب غضبا شديدا عندما تلقى تعليمات حكومته التي تقضي بعدم التقدم لاحتلال البقاع اذ كان يعتقد «ان ليس امامه الان الا من يريد ان يستقبله بكل ترحاب وتهليل ». وقد استاء فيصل لهذا الاتفاق الذي يتجاوز الاتفاق الذي عقده يوم ٢٥ تشرين الثاني في باريس . وكل هذا نشأ عن ان المخابرة بينه وبين دمشق كانت

---

(١) بعث فيصل نصوص هذه المخابرات وقد دارت خلال أيام ٢٥ — ٢٨ تشرين الثاني طي مذكرة مؤرخة ٢٨ تشرين الثاني إلى اللورد كرزون شاكرا اياه على حسن مسعاه . B.D. IV, pp. 554-558.

(٢) شرح زيد تفاصيل هذه الحوادث في رسالة طويلة منه إلى اللنبي بتاريخ ٣ كانون الثاني ١٩٢٠ (أوراق الأمير زيد) وقد تم اتفاق غورو ونوري السعيد قبل أن تصل برقية فيصل (٢٧ تشرين الثاني) إلى زيد المنبئة باتفاقه مع الفرنسيين . أما غورو فقد كتم التعليمات التي وصلته من حكومته كي يحصل على مزيد من الامتيازات .

تم عن طريق الفرنسيين والانكليز .[1]

ومن الواضح ان فيصلاً لم يكن في اعماق نفسه سعيدا بذلك الاتفاق الناشيء عن المساومة والتهديد ، فبعث الى اخيه زيد البرقية التالية :

> منعا لوقوع حادث ونحن على غير استعداد، عملنا الاتفاق المؤقت لحين نتمكن من الاستحضار . نحن لم نرتبط بأي شيء كان بالنظر إلى المستقبل . كونوا على عزائمكم الاولى في استحضار الجند ، ولا تصدقوا ما ربما ينشر ، فقط لا تتظاهروا بوجه عدائي لأي جهة كانت . (٢)

ولكن انسحاب القوات البريطانية خلق وضعا جديدا بين الفرنسيين والسوريين . ذلك ان اكثر القوات الفرنسية كانت متمركزة في كيليكيا ، ولم يكن منها الا القليل في الساحل السوري . وهذا جعل السوريين يعتقدون انهم اقوى مما هم عليه فعلا . وقد نشطت حركة العصابات الوطنية التي اخذت تهاجم المراكز الفرنسية ، مدفوعة في اكثر الاحيان بسوء معاملة الفرنسيين للاهالي . وفي الوقت ذاته اخذ الفرنسيون يحاولون اثارة الاضطراب في المنطقة الشرقية عن طريق توزيع الرشوات المالية على انصارهم ، ودفع مشايعيهم في المنطقة الغربية الى الاشتراك مع الجنود الفرنسيين في مهاجمة بعض المواقع في المنطقة الشرقية واثارة النعرات الدينية . وقد وقعت اهم الاصطدامات بين الفريقين في نواحي صيدا والحولة ومرجعيون وتل كلخ . ولكن اكثرها خطورة وقع في المعلقة وفي بعلبك في اوائل شهر كانون الاول عندما منع الاهلون ضابط الارتباط الفرنسي من دخول البلدة ، (١٥ كانون الاول) فزحفت قوة فرنسية على الاثر وعسكرت فيها . وقد جرت مصادمات بين الفرنسيين والاهالي دمر الفرنسيون اثناءها ثلاث قرى .[3]

---

(١) رسالة من فيصل إلى زيد في ٢٢ كانون الاول ١٩١٩ ورسالة من فيصل إلى الملك حسين في ٢٣ كانون الاول ١٩١٩د. – (أوراق الامير زيد) .

(٢) البرقية بتاريخ ٢٨ تشرين الثاني ١٩١٩ وقد أرسلت من لندن – (أوراق الأمير زيد) .

(٣) يقول علي جودت الذي كان حاكما عسكريا في البقاع يومذاك انه تلقى الأمر بسحب=

ومن الواضح ان هذه المصادمات الاولية اعطت الفرنسيين فكرة عن قوة السوريين الحقيقية . ولو ان قواتهم العسكرية لم تستطع التغلب بسهولة على مقاومة الاهلين او لو انها منيت بخسائر فادحة ، لكان من المرجح ان يكونوا اكثر تساهلا واقل عجرفة في مباحثاتهم السياسية . وقد احتج فيصل لدى كليمنصو على اجراءات غورو الشديدة ، ونتج عن ذلك ان القوة الفرنسية انسحبت من بعلبك في ٧ كانون الثاني ١٩٢٠ اي بعد مشروع اتفاق فيصل — كليمنصو .

فلماذا لم يتصد السوريون بالقوة للفرنسيين في البقاع ؟ اننا نجد التفسير في تقرير قدمه زيد الى فيصل وقال فيه انه بعد ان منع الانكليز العمل بقانون التجنيد تألفت في دمشق (لجنة الدفاع الوطني)التي اخذت تحض الناس على التطوع الاختياري ، ووزع ياسين الهاشمي حوالي خمسة الاف بندقية على الاهلين لتشكيل قوات شعبية ، ولكن لم يلبث ان اتضح ان هذه الخطة لم تأت بفائدة . وبعد اعتقال الهاشمي وانسحاب الانكليز لم تجد الحكومة قوات عسكرية كافية لمقاومة الفرنسيين في البقاع ، وكان الجيش ضعيفا لا يملك سوى ٢٥ طلقة لكل بندقية واربع طلقات لكل مدفع . لذلك قررت الحكومة تشجيع الاهلين على تشكيل العصابات ومدها سرا بما امكن من المال والسلاح لمناجزة الفرنسيين . لم يكن بمقدور الجيش خوض الحرب ضد الفرنسيين ، لذلك طلبت الحكومة من الاهلين ان يدافعوا عن كيانهم «ولكن الامة لم تقم بواجباتها نحو الوطن ... هُدِّدت الحكومة الفرنساوية بالشعب ولكن الشعب لم يقم بواجباته الوطنية ، فماذا تصنع الحكومة ؟ وهل يصح ان تخوض لوحدها حربا مع حلفاء عظام وبدون ان تملك شيئا من المال او الرجال ، ومن يكون المسؤول امام التاريخ اذا تدهورت البلاد ، هل نحن او هم؟ لا اقول ان الحكومة ليست مسؤولة ، ولكن اذا نظرنا الى

= قواته العسكرية من المعلقة إلى الرياق (لم يكن عدد الجنود يزيد على ٣٠٠) ، ثم تلقى أمرا ثانيا بالانسحاب من الرياق إلى الوراء — (ذكريات علي جودت ، ص ص ٧٩ — ٨٧) .

احوال الشعب نرى على عاتقه مسؤولية اعظم من مسؤولية الحكومة لأنها حكومته ، وهي تستمد قوتها منه ، كما انها لا تستمد ضعفها وعجزها الا من ضعف الشعب وعجزه ..» [1]

وزاد الوضع في سورية إضطراباً اعتقال الانكليز ياسين باشا الهاشمي يوم ٢٢ تشرين الثاني اي قبل جلائهم عن دمشق باربعة ايام . وقد قامت مظاهرات احتجاجية في دمشق على هذا الاجراء الذي لم يعرف سببه يومذاك . ولكن تبين فيما بعد ان الاعتقال تم بأمر اللنبي بحجة ان ياسين «كان يبث دعاية نشيطة ضد الفرنسيين ويباشر الاستعدادات العسكرية لمقاومة احتلال الفرنسيين للمنطقة الزرقاء». [2] وليس من

---

(١) التقرير غير مؤرخ وغير تام. ومن الواضح ان يكون زيد كتبه بعد عودة فيصل من اوروبا. ومما جاء في هذا التقرير ان ياسين الهاشمي كان مغترا بحماسة الشعب وان بعض الذين وزع عليهم الأسلحة ذهبوا إلى ضابط الارتباط الانكليزي وأخبروه ان الهاشمي وزع عليهم السلاح (أوراق الأمير زيد). وكانت الحكومة السورية في خريف ١٩١٨ قد حلت جيش الثورة وأخذت تعمل على تأليف جيش نظامي جديد على الاصول الحديثة . وفي البداية اتبعت نظام التطوع الاختياري ولكن الاقبال على التطوع كان ضعيفا . وبعد سفر فيصل إلى اوروبا في ايلول ١٩١٩ نشطت حركة التجنيد لتعزيز الجيش فطلب اللنبي من ياسين الهاشمي ايقاف الحركة . ولكن بعد انسحاب الانكليز عادت الحكومة السورية تحاول تعزيز الجيش فأقر الأمير زيد في ٢١ كانون الاول ١٩١٩ قانون التجنيد الاجباري ، غير ان العمل بهذا القانون لم يبدأ جديا الا في شباط ١٩٢٠ . ومن المهم القول ان البريطانيين لم يزودوا السوريين بالأسلحة التي كانوا يطلبونها ، وفي تموز ١٩٢٠ لم يكن عدد رجال الجيش يزيد على ٨٠٠٠ جندي وضابط .

(٢) كان ياسين الهاشمي رجلا قوي الشخصية وقد أسند اليه فيصل وظيفة (رئيس ديوان الشورى الحربي) التي تعادل وظيفة رئيس أركان . وقد بلغ الانكليز والفرنسيين انه على اتصال مع الاتراك الكماليين فاسترابوا منه وخشوا أن يتوصل إلى اتفاق معهم . وقال ماينرتزهاجن في أحد تقاريره أن تطرف الهاشمي حل محل اعتدال فيصل . وقد حاول فيصل جاهداً اطلاق سراح الهاشمي ولكن الانكليز أبقوه قيد الاعتقال حتى منتصف أيار ١٩٢٠ بناء على الحاح الجنرال غورو . وقد أكد لويد جورج ان بريطانيا لم تعط للعرب أية أسلحة تتجاوز مدى القدرة على حفظ النظام لا غير ، وذلك في مذكرته الطويلة إلى كليمنصو بتاريخ ١٨ تشرين الأول ١٩١٩.- B.D. IV, para. 19, pp. 488-489.

شك ان هذه الحادثة زادت شعور العداء للفرنسيين والانكليز على السواء، وجعلت مهمة فيصل الرامية الى التفاهم اكثر صعوبة وعسرا .

وفي هذه الفترة بالذات وقع حادث آخر كان له ايضا تأثيره العميق على مجرى الأحداث. ذلك ان حاكم قضاء الرقة العسكري (رمضان شلاش) قام بمهاجمة بلدة دير الزور (التي كان العرب قد احتلوها في كانون الاول ١٩١٨ ثم استولى عليها الانكليز في الشهر التالي) والاستيلاء عليها في ١١ كانون الاول ١٩١٩ . [١] وقد آثار هذا العمل سخط الانكليز وزاد من اعتقادهم بان الوضع في دمشق اخذ يعكس اثاره على العراق وفلسطين وبانه من الافضل عدم تشجيع العرب على مقاومة الفرنسيين. [٢] وربما كان من نتائج حركة رمضان شلاش هذه ان الحكومة البريطانية قررت بعد هذا بايام التخلي عن لواء دير الزور باكمله فبقي في سورية منذ ذلك الحين .

وقد تجلى موقف البريطانيين في ان فيصلاً لم يتلق جوابا على رسالته المؤرخة ١٩ كانون الاول ١٩١٩ الى اللورد كرزون طالبا مساعدته لاقناع الفرنسيين بالانسحاب من بعلبك . وقد ابلغ المستر كدستون حداد باشا عندما جاءه يوم ٢٤ كانون الاول بهذا الخصوص انه لا «يرى كيف نستطيع ان نساعد او ان نتدخل على اي وجه كان . اننا بالتأكيد نمقت مقتا شديدا اي احتجاج يمكن ان يقدمه لنا الفرنسيون فيما يتعلق

---

(١) من رأي العمري (المجلد الثالث ، من مقدرات العراق السياسية، ص ص ٣٣٦ — ٣٧٢) وهو يؤرخ لهذه الحوادث ان رمضان شلاش كان على اتفاق مع الضباط العراقيين في سورية وأنهم دفعوه إلى العمل ضد الانكليز تمهيداً لأشعال نار الثورة في العراق . ويقول علي جودت ان ياسين الهاشمي هو الذي حرض رمضان شلاش وذلك أثناء حديثه عن مساعدة فيصل والحكومة السورية على بدء الثورة العراقية ومدها بالمال والسلاح — (ذكريات ، ص ص ٩٠ — ٩٦) .

(٢) على رأي هيوبرت يونج الذي أخذ يعمل في وزارة الخارجية يومذاك ان حادث دير الزور وسع شقة الخلاف بين وجهة النظر التي كان يمثلها لورنس ووجهة النظر التي كان يمثلها ارنولد ولسون ، مما أدى أخيرا إلى الكارثة النهائية . H. Young, The Independent Arab, p. 300.

باعمالنا في العراق او حتى في ولاية الموصل او على حدودها ، والوضع الفرنسي في البقاع ليس سوى حالة مماثلة لوضعنا هذا ». [1]

بدأت الحكومتان البريطانية والفرنسية يوم ٢٢ كانون الاول مباحثات في لندن تستهدف تسوية القضايا المعلقة بينهما حول سورية والعراق وبلاد العرب وخاصة موضوع زيت الموصل .

وفي الوقت ذاته ارجأ فيصل سفره الى سورية بناء على طلب كليمنصو ، وظلت المباحثات تدور بينه وبين وزارة الخارجية الفرنسية بقصد التوصل الى اتفاق نهائي . وقد دارت المباحثات حول صلاحيات المستشارين وحدود لبنان وانشاء ادارات محلية ومجلس نواب سوري . واستمرت هذه المباحثات الى يوم ٦ كانون الثاني ١٩٢٠ عندما تم التوصل الى مشروع اتفاق عرف فيما بعد باسم (مشروع اتفاق فيصل – كليمنصو). وقد نص هذا المشروع على ان تضمن فرنسا استقلال سورية وتمنحها المعونة وان تقبل سورية المستشارين الفرنسيين ، وان يعطى الفرنسيون الاولوية التامة في التعهدات والقروض المالية ، مع الاعتراف بانفصال لبنان سياسيا عن سورية على ان يقوم مؤتمر السلم بتعيين حدوده . [2]

وافق جميع مستشاري فيصل واعضاء وفده على قبول مشروع الاتفاق – باستثناء الدكتور احمد قدري – بعد ان توافرت عندهم القناعة ان بريطانيا تخلت عن العرب وان العرب لا يستطيعون مقاومة جيوش فرنسا ، وان الاتفاق خطوة ثابتة تتلوها خطوات في المستقبل لتحقيق الاستقلال التام . ويبدو ان فيصلاً كان ينوي توقيع الاتفاق

---

(١) الوثائق البريطانية ، المجلد الرابع صفحة ٥٩٢ .

(٢) راجع نص المقترحات الفرنسية الاولى والمقترحات المضادة التي قدمها فيصل يوم ٢٢ كانون الاول ١٩١٩ في B.D. IV, pp. 592-5. أما نص مشروع الاتفاق الأخير ففي Ibid., pp. 625-626. والنص العربي (مع اختلافات متعددة) في احمد قدري ، ص ص ١٥٤ – ١٥٧ ، وامين سعيد ، المجلد الثاني ، ص ص ١١٩ – ١٢٢ .

بالحروف الاولى لولا وصول رسول من لدن ابيه (الدكتور ثابت نعمان) يحمل منه رسالة يحظر فيها على فيصل توقيع اي اتفاق يتنافى والعهود التي قطعتها بريطانيا . وهذه الرسالة جعلت الامير يعتذر عن التوقيع ويعد بانه سيعرض مشروع الاتفاق على السوريين ويحثهم على قبوله .[1]

الشهور الاخيرة لدولة فيصل السورية : غادر فيصل باريس يوم ٧ كانون الثاني ١٩٢٠ عائداً إلى سورية فبلغها بعد سبعة ايام، وعند وصوله وجد ان الوضع قد تغير كثيراً عما كان عليه قبل اربعة اشهر . كانت هناك كراهية شديدة للفرنسيين خصوصاً وللاجانب عموماً. وكان المتطرفون من المدنيين والضباط هم رجال الساعة في دمشق بعد ان نجحوا في دفع المعتدلين إلى الانزواء . لقد استقال علي رضا الركابي الحاكم العسكري العام في ١٠ كانون الاول ١٩١٩ لانه لم يوافق على سياسة تشجيع العصابات ، بل كان من رأيه انه مـــا دام السوريون لا يستطيعون الاشتباك في حرب ناجحة مع الفرنسيين فمن الافضل لهم ان يتعاونوا معهم قلباً وقالباً ويشتركوا معهم في صد اعتداءات العصابات التركية والكردية في الشمال [2] حتى اعضاء جمعية (الفتاة) انقسموا إلى فئتين فئة معتدلة ترى السير في سياسة البلاد بواقعية وتعقل وفئة اخرى شعارها الاستقلال التام ولا شيء الا الاستقلال التام بغض النظر عن النتائج .

وكانت انباء اتفاق فيصل وكليمنصو قد ذاعت في سورية بعد ان نشرت جريدة الطان خطوط الاتفاق العامة . وكان المتفق عليه بين فيصل والفرنسيين ان يبقى الاتفاق طي الكتمان التام حتى يتمكن فيصل

---

(١) راجع أحمد قدري ، ص ص ١٥٣ و ١٥٧ – ١٥٨ ، وأمين سعيد ، ص ١١٩ .

(٢) أوضح الركابي رأيه بقوله « اني لا أقدر أن أرى حكومة غير مسؤولة تسيطر على حكومة مسؤولة... واعتقد ان الحكومة التي تسير على رغائب الأشخاص او الأحزاب غير المسؤولة ، فمصيرها ومصير الوطن معها إلى الخراب ... » راجع كتابه إلى فيصل حول هذا الموضوع بتاريخ ١٨ كانون الثاني ١٩٢٠ (احمد قدري : ص ص ١٦٩ – ١٧١) .

من عرضه على السوريين ومناقشته معهم في جو هادىء بعيد عن الانفعالات العاطفية . ولكن ذيوع انباء الاتفاق اثارت ثائرة الرأي العام الذي كان معبأ ضد الفرنسيين منذ زمن بعيد . وعلى اية حال فان فيصلاً لم يكن سعيداً بالاتفاق او بالوضع الذي وجد نفسه فيه ؛ فقد صرح لواترز تيلور يوم وصوله إلى بيروت « ان هذه الاتفاقية ممقوتة إلى حد كبير بالنسبة اليه، وان شعبه لن يرحب بها ، ولكن موقف السلطات البريطانية لم يعطه فرصة للاختيار ، هو يعتبر انه سُلّم إلى الفرنسيين موثق اليدين والقدمين » .[1]

ان غياب فيصل عن دمشق طوال اربعة اشهر احدث فراغاً لم يستطع اخوه الصغير ان يملأه تماماً . فقد اخذ المعتدلون يلتفون حول الركابي وزعماء البلاد التقليديين واخذ المتطرفون يلتفون حول ياسين الهاشمي وفئة الشبان المتحمسين . وبينما كانت القوات البريطانية على وشك اتمام الانسحاب من المنطقة الشرقية ، دعا الامير زيد المؤتمر السوري إلى الاجتماع يوم ٢٢ تشرين الثاني ، وبعد يومين اصدر المؤتمر بياناً قال فيه « ان واجب الامة يقضي عليها بالدفاع عن وحدتها واستقلالها وشرف قومها إلى آخر نسمة فيها ... »

ودعا البيان الحكومة إلى«اعلان الاستقلال التام للقطر السوري بحدوده التي رسمها المؤتمر بقراره الذي قدمه إلى اللجنة الدولية الاميركية ...»[٢] ولكن الامير زيد لم يلبث ان اصدر امراً بفض المؤتمر بعد ان نشبت الخلافات بين اعضائه وتعددت المطالب والاتجاهات .[٣]

وبادر فيصل بعد عودته إلى عقد الاجتماعات مع زعماء البلاد لاستشارتهم حول اتفاقه مع الفرنسيين . وقد القى خطاباً يوم ٢٠ كانون الثاني في دمشق قال فيه انه لقي في اوروبا مفاجآت لم يكن يتوقعها ،

---

(١) B.D. IV, Meinertzhagen to Curzon, tel. No. 531, 26 Jan. 1920, pp. 629-630.

(٢) امين سعيد ، المجلد الثاني ، ص ص ٩٣ – ٩٤ .

(٣) تقرير زيد إلى فيصل (دون تاريخ وقد سبقت الاشارة اليه) – (أوراق الأمير زيد) .

فقد « تخلت بريطانيا العظمى عنا في آخر لحظة ارضاء لحليفتها فرنسا » .
وقال ان كليمنصو عرض عليه شروطاً للاتفاق « تجعل من فرنسا حليفة تضمن لسورية استقلالها ووحدتها بين الداخل والساحل عدا جبل لبنان ، واعتراف جمعية الامم باستقلالنا وتمدنا بما نحتاجه من مال وتبعث الينا بما نطلبه من خبراء فنيين : دون ان يتدخلوا في امورنا الداخلية ؛ وتدرب جيشنا العربي إلى ان يستطيع النهوض باعباء الدفاع عن الوطن ويُستغنى عن الجنود الفرنسيين فلا يبقى منهم جندي واحد عندنا » .[1]

لم يجد فيصل تجاوباً مع دعوته هذه . فلم يشر إلى مشروع الاتفاق في الخطاب الثاني الذي القاه بعد يومين ، ولكنه اشار إلى ما لمسه من حماسة اهل البلاد بقوله « ولكنها حماسة لا تتعدى القول ، وحبذا لو اقترنت بالعمل ».وحذّر السوريين من الاستهانة بالدول الاخرى في موقفهم الحرج[2] . وبعد بضعة ايام قام فيصل بزيارة حمص وحماة وحلب فوجد في هذه المدن تجاوباً مع خطته السلمية تجاه الفرنسيين اكثر مما وجد في دمشق .

وفي هذه الاثناء كتب إلى غورو رسالة يقول فيها انه عاقد النية على تنفيذ اتفاقه مع كليمنصو ، وطلب من غورو المساعدة على تحقيق مهمته وذلك بالايعاز للموظفين الفرنسيين ان يتحلوا بسعة الصدر ويتغاضوا عن الاختلافات التي وقعت بينهم وبين بعض ابناء البلاد .[3] ثم ذهب فيصل إلى بيروت وطلب من غورو ان يصدر عفواً عاماً عن الثوار لكسب ثقة الاهلين . ولكن يبدو أن غورو لم يعده بذلك على الرغم من المصاعب التي كانت تواجه قواته يومذاك في كيليكيا تجاه هجمات الاتراك . وربما كان لسقوط وزارة كليمنصو في تلك الاثناء تأثير في سير الأحداث في سورية ، اذ ان خلفه ميليران كان أقل رغبة في التساهل .

---

(١) يوسف الحكيم ، سورية والعهد الفيصلي ، نص الخطاب ، ص ص ١٢٧ - ١٢٩ .
(٢) امين سعيد ، المجلد الثاني ، نص الخطاب ، ص ص ١٢٣ - ١٢٥ .
(٣) الرسالة رقم ١٦٥ ، تاريخ ٢٧ كانون الثاني ١٩٢٠ - (أوراق الأمير زيد) .

لم يبق عندئذ امام فيصل الا ان يقنع الهيئة المركزية لجمعية (الفتاة) بوجهة نظره ، فدعاها إلى الاجتماع في منزل الدكتور احمد قدري وعرض على اعضائها مشروع الاتفاق الذي توصل اليه مع كليمنصو، وقال « ان هذا هو غاية ما أمكن ويمكن الحصول عليه » . ولكن اعضاء الهيئة رفضوا المشروع قائلين انه سيجعل سورية في وضع يماثل وضع تونس ومراكش . وقال فيصل ان رفض المشروع معناه اعلان الحرب على فرنسا ، فكان الرد « اننا مستعدون لاعلان الحرب على فرنسا وانكلترا معاً » . (١)

ويمكن القول ان السياسيين السوريين انقسموا تجاه مشروع فيصل – كليمنصو إلى فريقين (١) فريق المعتدلين من الشيوخ والزعماء التقليديين وكبار الملاك ، ويرون الاتفاق مع فرنسا. (٢) فريق الشبان المتطرفين من اعضاء الفتاة وحزب الاستقلال ، ويصرون على رفض شروط فرنسا القاسية . وفي هذه الاثناء عقدت الهيأة التأسيسية لجمعية الفتاة اجتماعاً قدمت خلاله الهيأة المركزية استقالتها فأنتخبت هيأة ثانية بدلاً منها . ولكن الهيأة التأسيسية بمجموعها رفضت مشروع الاتفاق مع فرنسا . فوافقها فيصل على رأيها اعتقاداً منه ان الوطنية المحضة والنية الشريفة تدفع معارضي الاتفاق إلى المعارضة . هذا الى ان فيصل وأعضاء الفتاة لم يلمسوا من الفرنسيين ما يشجعهم على الاتفاق معهم . (٢)

وكانت تواجه فيصلاً صعوبة أخرى عظيمة الاهمية الا وهي وقوف ابيه حسين والمتطرفين في صف واحد . فقد بعث الملك حسين إلى فيصل برقية عمد إلى نشرها في جريدة الاهرام معلناً فيها « انه لا يقر ادنى مادة يأتي بها الامير فيصل مندوبه في مؤتمر الصلح يكون من

---

(١) احمد قدري ، ص ١٧٥ ، وأمين سعيد ، المجلد الثاني ، ص ١٢٥ . وكانت الهيئة المركزية تتألف يومذاك من احمد قدري ورفيق التميمي وأحمد مريود وسعيد حيدر وتوفيق الناطور وعزت دروزة وشكري القوتلي .

(٢) راجع بهذا الشأن : محمد عزة دروزة ، حول الحركة العربية الحديثة ، الجزء الأول ، دمشق ١٩٤٩ ، ص ص ١١١ – ١١٢ .

مقتضاها الاخلال بشيء من حقوق البلاد العربية واستقلالها التام المطلق . على فرض وقوع ذلك من الامير » [١]

ونستطيع ان نفهم موقف فيصل يومذاك من رسالتين طويلتين كتبهما في شباط إلى ابيه الحسين واخيه عبدالله . وقد قال في رسالته لابيه انه كان عند عودته إلى سورية موقناً « ان استقلال البلاد ووحدتها لا يكونان الا بأمور ثلاثة :

(١) عهود مسجلة . وهذه غير موجودة بيدي ...

(٢) مقاتلة انكلترا في العراق وفي فلسطين وفرنسا في سورية .

(٣) الاعتماد على التأييد السياسي من احدى الدول العظمى . «ولا اعرف على من اعتمد اليوم بعد انسحاب اميركا واانهماك ايطاليا في مشاكلها الخصوصية ... »

اما في رسالته لاخيه فقد قال ان مجرد المطالبة بالاستقلال لا يأتي بفائدة . وان عدم اتحاد العرب يطمع الدول المستعمرة بهم وببلادهم . ثم عبر عن اعتقاده بان العرب في حالتهم الراهنة ليسوا على استعداد للدخول في حرب ضد بريطانيا وفرنسا معاً [٢] .

لهذا نرى فيصلاً مستمراً في تشبثه السياسي ، فعندما ترامت إلى سمعه انباء انعقاد مؤتمر لندن الاول في ١٢ شباط لبحث تسوية الاقطار التركية والاقطار المنسلخة عن العثمانيين — بادر فبعث رسالة إلى وزارة الخارجية البريطانية يحذر فيها من « ان العرب لن يعترفوا بأي قرار يمكن ان يتخذ دون حضور فيصل ويكون مخالفاً للمطامح العربية في سورية وفلسطين والعراق ... » وطالب في رسالة اخرى بعث بها إلى اللنبي ان تصدر بريطانيا تصريحاً حول سياستها تجاه فلسطين والعراق حتى يتمكن من بعث الاطمئنان بواسطته في نفوس الاهلين [٣] ولكن

---

(١) الاهرام ، ٥ شباط ١٩٢٠ ، ص ٣ .

(٢) الرسالة إلى عبد الله بتاريخ ١٣ شباط وإلى حسين بتاريخ ٢٠ شباط ١٩٢٠ — (أوراق الأمير زيد) .

(٣) Meinertzhagen to Curzon, 19 Feb. 1920, B.D., XIII, p. 218.

رسالة فيصل إلى وزارة الخارجية بقيت دون جواب على الرغم من توصية اللنبي بالاستجابة لها .

يمكن القول ان موقف بريطانيا السلبي وعدم ميل فرنسا إلى تسوية معتدلة مقبولة، دفعا فيصلاً رويداً رويداً خلال شهر شباط إلى قبول وجهة نظر المتطرفين السوريين المتفقة نوعاً ما مع وجهة نظر ابيه . وكانت وجهة النظر تلك تقول باعلان استقلال سورية الطبيعية والمناداة بفيصل ملكاً دستورياً عليها ووضع حكومتي فرنسا وبريطانيا تجاه الامر الواقع . وقيل ان مما شجع فيصل على قبول هذه الفكرة ان ضابطي الارتباط الفرنسيين كوس وتولا ابلغا فيصلاً ان غورو لا يمانع في ذلك . وقيل ان غاية الفرنسيين المبطنة هي نزع ما يمكن ان يكون قد بقي في نفوس البريطانيين من عطف على فيصل وتأييد له . وقال فيصل للركابي انه تفاهم مع الفرنسيين واتفق معهم على الخطوة الجديدة : كما ان ممثل ايطاليا في دمشق ايد الفكرة وشجع السوريين على اتخاذها.[1]

وهكذا دعي المؤتمر السوري إلى الاجتماع يوم ٦ اذار ١٩٢٠ « لتقرير مصير البلاد حسب رغائب الاهالي » . وقال فيصل في خطاب الافتتاح ان العرب استحقوا حريتهم واستقلالهم بفضل الدم الطاهر الذي سفكوه في ميادين القتال ، وهم « لا يستنكفون من تبادل المنافع بينهم وبين الامم المتمدنة ، ولا يرفضون صداقة من يريد صداقتهم ، شريطة الا يمس ذلك بكرامتهم ولا يخلّ باستقلالهم السياسي التام » .[2]

وفي اليوم التالي قرر المؤتمر اعلان استقلال سورية بحدودها الطبيعية والمناداة بفيصل ملكاً عليها . وفي ٨ اذار تمت البيعة واعلن قرار المؤتمر «الذي يمثل الامة السورية العربية في مناطقها الثلاث الداخلية والساحلية والجنوبية » وهو يقضي باستقلال البلاد السورية « بحدودها الطبيعية ومنها

---

(١) راجع بهذا الشأن ، احمد قدري ، ص ص ١٧٦ – ١٧٨ ، وامين سعيد ، المجلد الثاني ، هامش ص ١٤٠ .

(٢) نص الخطاب في احمد قدري ، ص ص ١٧٨ – ١٨١ ، وامين سعيد ، المجلد الثاني ، ص ص ١٢٨ – ١٢٩ .

فلسطين استقلالاً تاماً لا شائبة فيه على الاساس المدني النيابي وحفظ حقوق الاقلية ورفض مزاعم الصهيونيين في جعل فلسطين وطناً قومياً لليهود او محل هجرة لهم » . واعلن القرار المناداة بفيصل ملكاً دستورياً على سورية وانتهاء الحكومات الاحتلالية العسكرية الحاضرة في المناطق الثلاث . وطلب المؤتمر استقلال القطر العراقي استقلالاً تاماً على ان يتحد مع سورية سياسياً واقتصادياً .[1]

وقد اشترك في البيعة الرؤساء الروحيون للطوائف المسيحية : واشترك معهم ايضاً حاخام اليهود يعقوب دانون .[2]

بهذه الخطوة الجديدة انهى المؤتمر السوري صفة الحكم العسكري الذي كان سائداً في البلاد باسم « بلاد العدو المحتلة » وقرر ان تخضع البلاد إلى حكومة دستورية ذات نظام برلماني ديموقراطي يكون فيها المؤتمر بمثابة مجلس نواب . وفي اليوم الذي بويع فيصل فيه ملكاً اسند رئاسة الوزارة إلى علي رضا الركابي فحصلت هذه على ثقة المؤتمر حسب التقاليد الدستورية .

وفي يوم ٨ اذار ذاته اجتمع عدد من العراقيين الذين كانوا يومذاك في دمشق واعتبروا انهم يمثلون « الشعب العربي العراقي تمثيلاً قانونياً صحيحاً » وبناء على ذلك اعلنوا استقلال العراق بولاياته الثلاث مع اتحاده بسورية سياسياً واقتصادياً ، ونادوا بالامير عبدالله ملكاً دستورياً على العراق .[3]

---

(١) نص القرار في احمد قدري ، ص ١٨١ – ١٨٥ ؛ وامين سعيد ، المجلد الثاني ؛ ص ص ١٣٠ – ١٣٣ .

(٢) نص مبايعة الرؤساء الروحيين في يوسف الحكيم ، سورية والعهد الفيصلي ، ص ١٤٣ . وقد تضمن سبعة شروط وافق عليها الملك فيصل وهي « طاعة الله ، احترام الاديان ، الحكم شورى على مقتضى القوانين والانظمة التي تسن لذلك ؛ المساواة في الحقوق ، توطيد الامن ، تعميم المعارف ، واسناد المناصب والوظائف إلى اكفائها » . وقد ناب في البيعة عن اليهود في سورية الطبيعية الحاخام المذكور ويوسف لنيادو نائب دمشق وأحد اليهود الوطنيين فيها ؛ اللذان كانا يمثلان اليهود السوريين طوال انعقاد المؤتمر السوري .

(٣) نص قرار المؤتمر العراقي وأسماء أعضائه في أمين سعيد ، المجلد الثاني (القسم الثاني) ، ص ص ٣٤ – ٣٧ .

وقد ابرق فيصل إلى اللنبي وغورو ينبئهما بقرار المؤتمر السوري ويؤكد ان ذلك لن يبدل العلاقات الودية بين سورية وحكومتي بريطانيا وفرنسا ، وان القرار « لا يعني الا التعبير عن ارادة الشعب والطلب إلى مؤتمر السلم ان يفي بوعوده » .[1]

ولكن خطوة السوريين الجديدة قوبلت بالسخط من لدن الحكومتين الفرنسية والبريطانية . وفي ٧ اذار ابرق اللنبي إلى كرزون ينبئه بالاحداث الجارية في دمشق وان فيصلاً يجد نفسه مضطراً إلى مماشاة الشعور العام على الرغم من تحذير ضابط الارتباط البريطاني له . وبحث كرزون مع برتلو الوضع الناشيء في دمشق ثم ابرق إلى اللنبي يقول ان ممثلي الحكومتين الفرنسية والبريطانية قرروا تقديم النصح لفيصل بأن يحضر إلى لندن او باريس كي يعرض آراءه امام مؤتمر السلم ، « بقصد التوصل إلى تسوية تتفق مع التصريحات التي تبودلت بين حكومتي بريطانيا وفرنسا والعرب ... » مع العلم بان القرار النهائي « لا يمكن عقده واتمامه دون اجراء مشاورات معه » وترى الحكومتان ان مسؤولية خطيرة تقع على عاتق فيصل « وان مستقبل سورية يمكن ان يتعرض للخطر اذا ما اتخذ المؤتمر اي عمل خال من روح المسؤولية ».[2]

وعندما بلغت حكومتي فرنسا وبريطانيا انباء قرارات دمشق طلب كرزون من اللنبي ان يبلغ فيصلاً ان الحكومة البريطانية لا تعترف بمؤتمر دمشق وبما يتخذ من قرارات ، ولا تعترف بصلاحية مجموعة من الناس عينت نفسها بنفسها ان تتخذ قرارات بشأن مستقبل هذه الاقطار . وان دول الحلفاء التي حررت سورية وفلسطين والعراق هي التي ستفصل في مستقبلها ، وان حكومتي بريطانيا وفرنسا تعلنان ان اجراءات دمشق الاخيرة « باطلة ولا وجود لها » ، وانه لا يحق لاية جماعة من الناس ان

---

(١) Allenby to Curzon, tel. No. 260 of 13 March 1920, B.D. XIII, pp. 224-5.

(٢) Allenby to Curzon, tel. No. E.A. 3004 of 7 March 1920 and Curzon to Allenby tel. No. 200 of 8 March 1920. B.D. XIII, pp. 221-222.

تقرر مستقبل العراق او الموصل . ثم طلبت البرقية تجديد الدعوة لفيصل بان يعود إلى اوروبا لكي يعرض قضيته امام مؤتمر السلم .[1]

هكذا جعلت اجراءات دمشق حكومتي بريطانيا وفرنسا تقفان موقفاً موحداً في الدفاع عن مصالحهما الاستعمارية، على الرغم من اللوم الشديد الذي وجهه كرزون لتصرفات الحكومة الفرنسية واعترافه بان بريطانيا انسحبت من كيليكيا وسورية « استجابة لضغط الحكومة الفرنسية».[2]

وبادر فيصل فارسل مذكرات إلى الرئيس ولسون واللورد كرزون والجنرال غورو ؛ اعلن فيها ان الاجراءات التي اتخذت اخيراً في دمشق لا ترمي الا إلى المحافظة على وحدة البلاد السورية وتسكين الاضطرابات فيها وهي تتفق مع وعود الحلفاء وتصريحاتهم . وقال فيصل في برقيته إلى كرزون ان المؤتمر السوري (الذي انكر كرزون صلاحياته) هو المؤتمر ذاته الذي عقد اجتماعات عديدة على مرأى ومسمع من السلطة البريطانية منذ تسعة اشهر . وان اعضاءه منتخبون انتخاباً قانونياً ؛ وان القرارات المتخذة تتفق مع وعود الحلفاء وان السوريين مخلصون في صداقتهم لبريطانيا وفرنسا . وطلب فيصل « الاعتراف مبدئياً باستقلال سوريا التام ووحدتها؛ الامر الذي يسمح لي بالذهاب إلى اوربا ... لتنوير المجلس الاعلى عن موقف سوريا الحقيقي » . وقد اورد فيصل في رسالته إلى غورو حججاً مماثلة، ولكنه قال ان السوريين « يقبلون بارتياح مشورة حلفائهم الشرفاء ولهم الجسارة ان يأملوا بالحصول على مساعداتهم الشريفة لترقية البلاد مادياً وادبياً في ما لا يمس استقلال البلاد التام ووحدتها الجغرافية والوطنية » .[3]

---

(١) Curzon to Allenby, tel. No. 223 of 13 March 1920, Ibid., p. 225.

(٢) Curzon to Derby, letter No. 901 of 13 March 1920; Ibid., pp. 226-9.

(٣) نصوص الرسائل الثلاث في جريدة « العاصمة » ؛ دمشق ؛ العدد ١١٤ ، ٥ نيسان ١٩٢٠ . والرسالتان إلى ولسون وكرزون دون تاريخ. اما الرسالة إلى غورو فبتاريخ ١٦ اذار ١٩٢٠. وقد بعث اللنبي رسالة فيصل هذه إلى اللورد كرزون بتاريخ ١٤ أذار ١٩٢٠ — Tel. No. EA 3023, B.D., XIII, pp. 229-230.

وبعد بضعة ايام اقترح اللنبي على حكومته ان تعترف بملكية فيصل على اتحاد عربي يضم سورية وفلسطين والعراق مع بقاء ادارة سورية في يد الفرنسيين وبقاء ادارة العراق وفلسطين في يد البريطانيين ، وقال ان الموقف السلبي الحالي من فيصل سيجر إلى الحرب . ورد كرزون قائلاً ان بريطانيا لا تفكر بالاشتباك في حرب مع فيصل ولكنها لا تقبل ان تلغي قرارات المؤتمر السوري واجبات مؤتمر السلم ولا تجيز لفيصل ان يضعها أمام أمر واقع . وقال كرزون ان المباحثات الجارية تهدف إلى منح بريطانيا الانتداب على فلسطين والعراق ، ومنح فرنسا الانتداب على سورية .[1]

وعاد اللنبي يؤكد « ان أتباع مؤتمر دمشق يمثلون الاكثرية الساحقة من الشعور السوري » . وكرر المطالبة بان يعترف مؤتمر السلم بفيصل ممثلاً للعرب في سورية وفلسطين.[2] ولكن كرزون رد قائلاً ان حكومتي بريطانيا وفرنسا لا تعترفان « بشرعية قرار يرمي إلى تسوية مستقبل سورية وفلسطين والموصل والعراق من وراء ظهرهما » . وقال انه يمكن الاعتراف بفيصل ممثلاً للعرب في سورية وفلسطين « شريطة ان يحضر فيصل إلى مؤتمر السلم وهو يحمل اعترافاً بالمركز الخاص الذي لفرنسا في سورية ولبنان ولبريطانيا في فلسطين ، على ان يشمل الاعتراف بمركزنا في فلسطين الالتزام الذي اخذناه على عاتقنا بتأمين وطن قومي للصهيونيين في تلك البلاد »[3] . ورد اللنبي قائلاً انه لا يعتقد ان فيصلاً سوف يقبل اقتراح كرزون الا اذا أبلغ بان مؤتمر السلم سوف يعترف بمبدأ وحدة سورية وفلسطين تحت سيادة واحدة . وكرر التأكيد « على خطورة رفض الاعتراف باجراءات المؤتمر السوري ، لانه يمثل ارادة الأغلبية في سورية ».[4]

---

(١) Allenby to Curzon, tel. No. 271 of 18 March 1920 and Curzon to Allenby, tel. No. 251 of 19 March 1920 — B.D., XIII, pp. 231-232.

(٢) Ibid., tel. No. 273 of 20 March 1920, pp. 233-4.

(٣) Ibid., tel. No. 264 of 22 March 1920, p. 235.

(٤) Ibid., tel. No. 282 of 23 March 1920, pp. 235-6.

ومن جهة اخرى بعث فيصل رسالة إلى ابيه يقول ان القرارات التي اتخذت في دمشق تتفق مع خطة الوحدة العربية وليست الا مقدمة لها ، وحض أباه ان يدعو امراء جزيرة العرب إلى عقد مؤتمر يقررون فيه موقفهم من اطماع الدول الكبرى . [١] وتلقى رئيس المؤتمر السوري برقية من مكة تحمل موافقة الملك حسين على قرارات المؤتمر. [٢] وفي الوقت ذاته بعث الملك حسين برقية الى اللنبي يؤكد فيها على مبدأ الوحدة العربية، ويقول انه لا فرق عنده فيما اذا اعلن الناس ولاءهم لهم او اعلن هو ولاءه لهم ، وانه يؤيد قرارات المؤتمرين السوري والعراقي[٣] . ولكن كرزون ابرق يبلغ حسين وابنه عبدالله ان الحكومة البريطـانية لا تعتبر العراقيين التسعة وعشرين الذين اجتمعوا في دمشق ممثلين للعراق ، وان مؤتمر السلم وحده هو الذي سيقرر مستقبل العراق « بعد التحقق من رغبات الاهلين ».[٤] ورد الملك حسين قائلاً ان لا علاقة له بمؤتمر السلم وان علاقاته مع بريطانيا العظمى دون سواها « فهي التي دعتني وهي التي جعلتني اعلن الثورة وهي التي قبلت كل شروطي المتعلقة باستقلال البلاد العربية وما يختص بها ... لقد وثقت بشرف بريطانيا العظمى وسمعتها المشهورة بالمحافظة على عهودها ، ولذلك جازفت بكل شيء وواجهت الاخطار والكوارث ... » [٥]

وعاد فيصل في ٢٨ إذار يؤكد لكرزون رغبته في الذهاب إلى اوروبا

---

(١) رسالة فيصل بتاريخ ٢٠ اذار ١٩٢٠ – (أوراق الأمير زيد) .

(٢) البرقية من رئيس ديوان الملك حسين ونصها « ان اعلانات جلالة مولاي غير مرة تبين ان مقاصده محصورة في رغائب الأهالي وأميالهم . فلا يبقى سوى التضرع إلى جوده العميم أن يختار ما فيه الخير » . – جريدة « العاصمة » ، ٥ نيسان ١٩٢٠ .

(٣) Allenby to Curzon, tel. No. 298 of 27 March 1920; B.D. XIII, p. 237.

(٤) Curzon to Allenby, tel. No. 292 of 1 April 1920; Ibid., p. 239.

(٥) Hussein to Allenby, tel. No. 376 of 6 April 1920; P.R.O., F.O. 882/23.
and Allenby to Curzon, tel. No. 335 of 7 April 1920; B.D. XIII, pp. 246-7.

بمجرد تسلمه من الحكومة البريطانية تصريحاً رسمياً – او على الاقل تصريحاً خاصاً – تعترف فيه « باستقلالنا » . [١] وكان فيصل قد أوفد نوري السعيد إلى لندن وباريس بعد اعلان الاستقلال ، ولكن لورد كرزون اعتبر ان نوري «يحمل آراء متطرفة» ولم تؤد اتصالاته إلى اية نتائج ايجابية. وفي ٣٠ آذار اقترح كرزون على المسيو كامبون السفير الفرنسي في لندن ان يدعى فيصل مرة اخرى لحضور المؤتمر المقبل في سان ريمو ، وأن تعترف الحكومتان بفيصل اذا حضر « ملكاً على سورية تحت شروط معينة » [٢] ولكن كامبون اصرّ ان يحضر فيصل ليس بصفته ملكاً بل بصفته ممثلاً للشعب السوري . [٣]

اجتمع مؤتمر الحلفاء الاعلى في سان ريمو (ايطاليا) من ١٨ إلى ٢٦ نيسان ١٩٢٠ وحضر المؤتمر رؤساء الوزارة ووزراء الخارجية لكل من بريطانيا وفرنسا وايطاليا ، كما حضر ممثلون عن اليابان ، اما الولايات المتحدة فلم تُمثّل في المؤتمر [٤] . وكان من الواضح ان قضايا البلاد العربية كان قد اتفق عليها سابقاً بين برتلو وكرزون قبل انعقاد مؤتمر سان ريمو .

كان القصد الرئيسي من المؤتمر وضع مسودة المعاهدة التركية .

---

(١) Meinertzhagen to Curzon, tel. No. 51 of 4 Apr. 1920; B.D. XIII, p. 246.

(٢) Ibid., pp. 237-9.

(٣) Ibid., pp. 239-240. وبشأن مهمة نوري السعيد في اوروبا راجع احمد قدري ، ص ص ١٩٨ – ٢٠١ .

(٤) في خريف ١٩١٩ أصيب الرئيس ولسون بشلل جزئي ونشب خلاف بينه وبين مجلس الشيوخ الاميركي ، الذي رفض تصديق معاهدة فرساي (الصلح مع المانيا) في ١٩ تشرين الثاني ١٩١٩ . لهذا انسحبت الولايات المتحدة من مجلس الحلفاء الأعلى وأصبحت السياسة الاميركية الخارجية في حالة تجمد ، مما اتاح لبريطانيا وفرنسا تسوية قضايا بلاد العرب على هواهما خلال مؤتمر لندن الذي عقد فيما بين ١١ – ١٤ كانون الاول ١٩١٩ . ولكن السفير الاميركي في روما حضر اجتماعات المؤتمر أيام ٢٤ – ٢٦ نيسان بصفة مراقب .

وقد نصت المادة ٩٤ من معاهدة سيفر التي تم اعدادها (معاهدة الصلح مع تركيا) على الاعتراف مبدئياً بسورية (الطبيعية) والعراق « دولا مستقلة شريطة تقديم المشورة الادارية والمساعدة من قبل دولة منتدبة حتى يحين الوقت الذي تستطيع فيه ان تقف وحدها . »[١] وقد تم البت في أمر البلاد العربية دون حضور ممثلين عرب على الرغم من الوعد الصريح الذي أعطي لفيصل باسم حكومتي بريطانيا وفرنسا بأنه لا يمكن اتخاذ قرار نهائي الا بعد اجراء المشاورات معه .[٢]

وقد جاء رستم حيدر ونوري السعيد ونجيب شقير إلى سان ريمو وأجروا اتصالات وحثوا اولئك الذين تمكنوا من الاتصال بهم على ضرورة أخذ رغبات الأهلين في الدولة التي ستُنتدب عليهم بعين الاعتبار ، ولكن حججهم لم تجد آذاناً صاغية ولم تؤد إلى نتيجة ، ورفض أعضاء المؤتمر ان يعترفوا للمندوبين العرب بأية صفة رسمية ولم يسمحوا لهم بعرض آرائهم رسمياً ، بينما كان للصهيونيين عملاء نافذو الكلمة يحيطون بالوفد البريطاني .[٣]

كان موضوع تقسيم نفط الموصل هو اول موضوع بحثه المؤتمر فيما يتعلق ببلاد العرب . وفي ٢٤ نيسان تم التوصل إلى عقد اتفاق نهائي حصلت فرنسا بموجبه على ٢٥ ٪ من زيت العراق وتعهدت بالسماح لانابيب النفط بالمرور من سورية ولبنان إلى شاطىء البحر الابيض .

وفي اليوم التالي – اليوم الذي وُزّعت فيه الانتدابات – عمد لويد جورج وميليران إلى التوقيع على الاتفاق . ومن هذا تظهر اهمية النفط في تقرير مصير البلاد العربية .

وفي اجتماع المؤتمر يوم ٢٥ نيسان اقترح كرزون توجيه الدعوة

---

(١) Papers Relating to the For. Relations of the U.S., vol. XIII, p. 95.

(٢) Curzon to Allenby, No. 200, 8 March 1920, B.D. XIII, p. 222.
برقية كرزون التي سبقت الاشارة اليها

(٣) Lord Birdwood, *Nuri as-said*, Cassell, London, p. 110.

لفيصل كي يحضر المؤتمر « على الرغم من انه اتخذ خطوة غير شرعية مؤخراً » . ولكن بعد بضع دقائق من تقديم الاقتراح ووفق على توزيع الانتدابات من صنف (أ) على الرغم من ان صيغة قرار الانتداب لم تكن قد وضعت بعد . وجاء في محضر الاجتماع ان الدولة المنتدبة اختيرت « من قبل دول الحلفاء الكبرى » . وقد انتدبت فرنسا على سورية (ومن ضمنها لبنان) وانتدبت بريطانيا على العراق وفلسطين . واتخذت هذه الخطوة استناداً إلى المادة ٢٢ من ميثاق جمعية الامم ، ولكن دون أخذ رأي اهل البلاد كما نصت تلك المادة .[١] وكان كرزون يرمي من دعوة فيصل ان يكون حاضراً عند بحث الحدود بين سورية وفلسطين ، ولكن برتلو قال انه لا يوافق على دعوة فيصل الا بعد ان تتفق الدولتان اتفاقاً تاماً . وقد وجهت الدعوة مرة اخرى إلى فيصل في اواخر ايار لحضور الاجتماع الذي كان مقرراً عقده لبحث المعاهدة مع الاتراك ، ولكن فيصلاً لم يحضر كما ان ذلك الاجتماع لم يعقد اطلاقاً بسبب الانتصارات التي احرزها مصطفى كمال وغروب شمس بني عثمان .

ومما هو جدير بالذكر ان الفرنسيين حاولوا في ٢٤ نيسان تثبيت نفوذهم في فلسطين ، فعارض برتلو في ان يذكر تصريح بلفور بصفته عاملاً رئيسياً في الانتداب الفلسطيني ، وقال ان ذلك التصريح « كان حرفاً ميتاً منذ زمن بعيد » وانه لا يضمن الحقوق السياسية للسكان غير اليهود . ولكن كرزون ردّ قائلاً ان « الحقوق المدنية » التي نص عليها الوعد تشمل الحقوق السياسية . ووجد البريطانيون تأييداً كاملاً من الطليان في موضوع فلسطين ، وذلك نكاية من الطليان بالفرنسيين .[٢]

اما الحدود بين مناطق الانتداب فقد تم تخطيطها نهائياً عن طريق

---

(١) ووفق على المادة ٢٢ في ٢٨ نيسان ١٩١٩ ، وقد نصت الفقرة ٤ منها على « ان رغبات أهل البلاد يجب أن تكون عاملا رئيسيا في اختيار الدولة المنتدبة . »

(٢) يتضمن المجلد الثامن من مجموعة الوثائق البريطانية محاضر جلسات مؤتمر سان ريمو . وقد ورد ما يتعلق منها بسورية في الوثيقتين رقم ١٥ ورقم ١٦ .

اتفاق عقدته حكومتا فرنسا وبريطانيا بتاريخ ٢٣ كانون الاول ١٩٢٠ ، وقد تساهل الفرنسيون استجابة لمطلب لويد جورج بان تكون لفلسطين «حدودها التاريخية... من دان إلى بير السبع » فتنازلوا عن منطقة بانياس (دان) التي جعلتها اتفاقية سايكس – بيكو في منطقة الانتداب الفرنسي. وعندما اقرت عصبة الامم في ٢٤ تموز ١٩٢٢ قرار سان ريمو بتوزيع الانتدابات كان تخطيط الحدود الاقليمية قد سُوّي تماماً بين الدولتين المنتدبتين .

كانت قرارات سان ريمو ترسيخاً للاتفاقات السرية التي عقدت ابّان الحرب وتنسيقاً للمصالح الاستعمارية ، وتثبيتاً لواقع الاحتلال العسكري ، ونتيجة نهائية للمساومات التي بدأت بانتهاء الحرب . اما نظام الانتداب الجديد فلم يكن باعتراف لويد جورج نفسه سوى « بديل عن الاستعمار القديم » .[1]

اما الولايات الاميركية المتحدة التي علق عليها العرب آمالهم عام ١٩١٩ فقد نسيت مبدأ تقرير المصير ونسيت مثالياتها ، واعترفت بالانتداب على فلسطين سنة ١٩٢٣ وبالانتداب على سورية سنة ١٩٢٤ .

لقد كانت الحدود المصطنعة العجيبة التي خلقتها قرارات سان ريمو بين قطر عربي واحد هو سورية الطبيعية – مصدراً للمشاكل والمصائب التي عانى منها ليس سكان سورية وحدهم بل جميع العرب في اقطارهم القريبة والبعيدة . كان تقسيم سورية بين دولتين اكبر ضربة اصابت العرب في العصر الحديث ، لان هذا التقسيم القهري جعلهم أضعف من ان يواجهوا الغزوة الصهيونية مواجهة ناجحة عام ١٩٤٨ .[2]

في اليوم التالي لمقررات سان ريمو ، بعث اللورد كرزون برقية

---

(١) *Lloyd George*, vol. 1, p. 622.

(٢) مما هو جدير باهتمام المفكرين العرب ان السوريين حافظوا على التجزئة وعضوا عليها بالنواجذ ، وعلى الرغم من مضي ٢٥ عاما على حصول الاقاليم السورية الثلاثة (سورية ولبنان والاردن) على استقلالها ، فقد أخفقت جميع مشاريع الأتحاد – بل الوحدة .

إلى اللنبي يشرح له أبعاد القرارات المتخذة ويطلب منه ابلاغ فيصل مضمونها وتوجيه الدعوة اليه مجدداً كي يحضر الاجتماع الذي ينتظر عقده في ١٠ ايار لتقديم المعاهدة التركية إلى الوفد التركي [1] . وفي ٢٨ نيسان بعث اللنبي برقية إلى فيصل ينبئه بقرارات سان ريمو ، ولكن اللنبي بدأ برقيته بداية تخفف من مرارة الجرعة وحدة الصدمة ، اذ قال انه تم « الاعتراف بسورية والعراق دولتين مستقلتين شريطة ان تنالا المساعدة من دولة منتدبة إلى ان يحين الوقت الذي تستطيعان فيه ان تقفا وحدهما » . وقال اللنبي ان الحكومة البريطانية ترى انه يمكن التوصل إلى خطة «تأتلف بها مطالب الشعب السوري مع هذه المقررات»(؟) ولذلك فهي تدعوه للمجيء إلى اوروبا لبسط قضيته . اما بشأن فلسطين فقد أعلن اللنبي التزام حكومته بانشاء وطن قومي لليهود فيها وهو « التزام رضيتم به » . [2]

وقد رد فيصل على بلاغ الحكومة البريطانية قائلاً انه يسجل بالتقدير اعتراف مؤتمر سان ريمو بسورية والعراق دولتين مستقلتين ، اما بشأن الانتداب فان الشعب رفض قبوله لما ينطوي عليه من خطر على سلامة مستقبله واستقلاله. وقال فيصل ان سورية ترغب في الحصول على مساعدة من دول الحلفاء ولكنها يجب ان تكون ضمن « المحافظة على سيادتنا الوطنية محافظة تامة » . اما فلسطين التي « لا يمكن فصلها عن سورية بحال من الاحوال من النواحي الجغرافية والعرقية ومن نواحي التقاليد والاقتصاد واللغة والطموح القومي » فقد اعترفت الحكومة البريطانية في رسالة مكماهون المؤرخة ٢٤ تشرين الاول ١٩١٥ بانها داخلة ضمن الامبراطورية العربية ، كما ان اتفاقية سايكس – بيكو جعلتها تخضع لادارة دولية « يعين شكلها بعد الاتفاق مع ممثلي شريف

---

(١) Curzon to Hardinge (sent originally to Allenby), tel. No. 38 of 26 Apr. 1920 — B.D. XIII, pp. 251-2.

(٢) Allenby to Curzon, tel. No. 418 of 27 Apr. 1920; B.D. XIII, pp. 252-3. والنص العربي في احمد قدري ، ص ص ١٩٩ – ٢٠٠ .

مكة ». واما فيما يتعلق بالادعاء انه رضي عن انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ، فقد قال فيصل في جوابه انه يعتقد ان هناك شيئاً من سوء الفهم حول هذه النقطة . « ان كل ما وافقت عليه هو أن أحمي حقوق اليهود المقيمين في تلك البلاد بمستوى المحافظة على حقوق السكان الوطنيين ، وان امنحهم الحقوق والامتيازات ذاتها » . واعرب فيصل عن استعداده للذهاب إلى اوروبا اذا ما تلقى تصريحاً قاطعاً « بان المؤتمر لا يسمح مطلقاً بفصل فلسطين عن سورية »[1].

وفي حدود ما نشر من وثائق حتى الان لم ترد الحكومة البريطانية على رسالة فيصل هذه ولم تناقش اقواله ولم تقل ان فلسطين لم تكن داخلة ضمن الدولة العربية التي اعترفت بها رسالة مكماهون في ٢٤ تشرين الاول ١٩١٥ .

في هذه الفترة بالذات وصل العرب مع الحكومة البريطانية إلى نقطة تقاطع الطرق حول قضية فلسطين . فقد كانت السياسة البريطانية ترمي إلى الحصول على الانتداب المتضمن تصريح بلفور بموافقة العرب ، وكانت السياسة العربية ترمي إلى عدم مجابهة السياسة البريطانية بمعارضة صريحة قاطعة على امل التخلص من مطامع فرنسا اولا . كان هم العرب ان لا يعادوا الدولتين الكبيرتين في آن واحد . ولكن عند اعلان قرارات سان ريمو وصل العرب والبريطانيون إلى نقطة اللاتراجع الفعلية .

وكانت قد قامت اضطرابات خطيرة في مدينة القدس يوم ٤ نيسان اشتبك خلالها العرب واليهود ووقع من الطرفين عدد من القتلى والجرحى[2]. وعلى الرغم من تحيز السلطة العسكرية البريطانية لليهود، الا

---

(١) Allenby to Curzon, tel. No. 470 of 13 May 1920; Ibid., pp. 257-8.

(٢) لا بد ان أنباء تلك الاشتباكات وصلت إلى دمشق مبالغا فيها فكتب فيصل إلى أبيه رسالة مؤرخة في ١٧ نيسان يقول « حصلت وقعة في القدس بين المسيحيين والمسلمين واليهود وأسفرت عن قتل وجرح ما يقارب ٤٠٠ من اليهود و ١٠٠ من المسلمين والمسيحيين » – (أوراق الأمير زيد) . وفي شهر نيسان ذاته قامت حشود من منطقة عجلون (التي ينتمي اليها مؤلف هذا الكتاب) بالهجوم على البريطانيين في فلسطين ، ولكن الطائرات هاجمتهم بعد أن قطعوا نهري الاردن واليرموك وقتلت بنيرانها=

ان هؤلاء اتهموا تلك السلطة بالتراخي في اتخاذ الاجراءات الرادعة ضد العرب ، ووجهوا اتهاماتهم على الاخص إلى الجنرال السير لويس بولز الحاكم الاداري العام ومن فوقه ايضاً إلى المارشال اللنبي . واندفع الكولونيل ماينرتزهاجن كبير الضباط السياسيين في مصر وفلسطين فبعث إلى وزارة الخارجية البريطانية شكوى ضد رئيسه اللنبي قائلاً فيها ان اللنبي لا ينفذ في فلسطين سياسة الحكومة البريطانية فيما يتعلق بانشاء الوطن القومي اليهودي .[1] وكان من شدة اندفاع لويد جورج في تأييد سياسة الوطن القومي اليهودي انه استدعى هربرت صموئيل اثناء مؤتمر سان ريمو وقال له ان رسالة ماينرتزهاجن أثرت كثيراً في نفسه حتى انه اصبح مقتنعاً بضرورة ابدال الادارة العسكرية في فلسطين بادارة مدنية ، وسأله عما اذا كان يوافق ان يذهب إلى فلسطين مندوباً سامياً . ووافق صموئيل على العرض. وابرق كرزون ينبيء اللنبي بالخطوة المتوقعة، فرد هذا يقول « ان تعيين شخص يهودي لوظيفة اول حاكم للبلاد سوف يكون امراً بالغ الخطورة » وان المسلمين في هياج عظيم لما بلغهم من ان تصريح بلفور سيدخل بين بنود معاهدة الصلح وسوف يعتبرون تعيين يهودي حاكماً عليهم بمثابة تسليم البلاد في الحال إلى ادارة صهيونية دائمة . وقال اللنبي انه يتوقع نشوب اضطرابات عنيفة في فلسطين وشرقي الاردن ، وان المسيحيين سيرمون بثقلهم إلى جانب المسلمين .[2]

= عددا منهم وقصفت بقنابلها بعض قراهم ، مما اضطرهم إلى التراجع . — راجع تاريخ الاردن في القرن العشرين ، ص ص ٩١ — ٩٢ .

(١) Lord Wavell, *Allenby in Egypt*, Harrap & Co., p. 33.

(٢) Tel. dated 6 May 1920; N.D., XIII, pp. 255-6. ويروي هربرت صموئيل في مذكراته ان كرزون استشاره بعد ورود برقية اللنبي هذه قائلا ان تعيينه قد يؤدي إلى الحاق أذى كبير باليهود في فلسطين فأجابه صموئيل انه من ناحية شخصية لا يخشى المخاطر ولكنه من ناحية أبناء دينه يود ان يجري بعض المشاورات . وبالفعل مضى يستشير ممثلي يهود فلسطين في لندن فأجابه هؤلاء أنهم لا يرون مبررا للخوف من هجمات العرب . وعاد صموئيل إلى كرزون يعلن قبوله الوظيفة على الرغم مما يمكن أن يحدث *Memoirs*, The Cresset Press, London, 1945, pp. 150-152.

وعندما بلغت انباء اعتزام الحكومة البريطانية تعيين هربرت صموئيل مندوباً سامياً على فلسطين ، بعث فيصل في ٢٩ ايار رسالة إلى اللنبي يقول فيها ان هذا النبأ « أثر تأثيراً سيئاً جداً في الامة العربية لان هربرت صموئيل صهيوني غايته تأسيس حكومة يهودية على انقاض قسم كبير من سورية اعني به فلسطين ... »

وقال فيصل في رسالته ان السكان العرب لا يمكنهم الا ان يعتبروا هذا التعيين عملاً مضراً بهم . وطلب فيصل ان تزجع الحكومة البريطانية عن قرارها ، واحتج على تخفيض الاحكام التي صدرت ضد اليهود بصدد اضطرابات ٤ نيسان وعدم تخفيض الاحكام الصادرة بحق العرب ، كما احتج على تسليح السلطة البريطانية لليهود بينما تمنع العرب من اقتناء السلاح . [١] وكان رد كرزون ان صموئيل عيّن لاقتناع الحكومة البريطانية بسمعته الحميدة وخبرته الادارية، وان الامير والعرب « سوف يجدون فيه صديقاً مخلصاً » . [٢] بينما ردّ اللنبي قائلا « لقد سلّحنا القرى اليهودية لتدافع عن نفسها أمام هجمات القادمين من منطقة سموك».

يوم ميسلون : في ٣٠ نيسان ابرق ميليران إلى فيصل بان الحكومة الفرنسية تؤكد اعترافها بحق السوريين الناطقين بالعربية في ان يحكموا انفسهم بانفسهم كامة مستقلة . وان فرنسا ترى من واجبها ان تقبل المهمة التي عهد بها اليها مؤتمر الصلح الا وهي مساعدة السوريين على تنظيم شؤونهم وحماية استقلالهم من كل عدوان خارجي . وقد رد فيصل في ١٣ ايار بقوله ان برقية ميليران تجاهلت وحدة سورية ومعارضة السوريين للتجزئة . واشار إلى برقية الحكومة البريطانية حول انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين وقال « ان السوريين لن يوافقوا على تسليم هذا الجزء الصميم من بلادهم إلى اليهود » . ثم طالب فرنسا بالاعتراف بسورية المستقلة ورفض الاعتراف بقرارات سان ريمو وقال انه مستعد لاجراء

(١) Allenby to Curzon, tel. No. 558 of 9 June 1920; B.D. XIII, pp. 284-5 والنص العربي لرسالة فيصل في أوراق عوني عبد الهادي .

(٢) Curzon to Allenby, tel. No. 534 of 14 June 1920; Ibid., p. 287.

مباحثات حول المساعدة التي تريد فرنسا تقديمها إلى سورية « شريطة ان تبدأ المباحثات على اساس الاعتراف باستقلال سورية وعدم تجزئتها » .[1]

وقد احدثت مقررات سان ريمو ازمة وزارية في دمشق ، اذ ظهرت اتهامات بان وزارة الركابي معتدلة اعتدالاً اقرب ما يكون إلى الضعف ، وانها متساهلة اكثر مما يجب في اعداد البلاد لدفع الاعتداءات المتوقعة عليها من قبل الفرنسيين ، وانها تسمح للفرنسيين بنقل المعدات الحربية إلى كيليكيا بطريق سكة الحديد التي تمر في سورية بينما يقضي الموقف عدم مساعدة الفرنسيين على سحق الثوار الاتراك . وكان من رأي الركابي ان سورية لا تستطيع مقاومة دولة عظيمة كفرنسا ، وان افضل طريق يمكن لسورية ان تسلكه هو طريق التفاهم مع فرنسا ومساعدتها على الدفاع عن حدود سورية الشمالية ضد عصابات الاتراك والأكراد . وانحاز فيصل إلى الوطنيين المتطرفين فطلب من الركابي تقديم استقالته فقدمها في ٣ ايار ١٩٢٠ .[2] وكلف الملك السيد هاشم الاتاسي رئيس المؤتمر السوري بتأليف وزارة جديدة في اليوم ذاته وكان برنامج هذه الوزارة يقوم على (١)تأييد الاستقلال التام الناجز (٢)وحدة سورية ورفض سياسة الوطن القومي اليهودي في فلسطين (٣)رفض كل مداخلة اجنبية . وبدأ ت الوزارة الجديدة عملها باصدار قرض داخلي قيمته نصف مليون دينار وعدلت قانون التجنيد العام واخذت تعمل على تطبيقه.[3] وبتأليف هذه الوزارة اخذت العصابات الوطنية العاملة ضد الفرنسيين تلقى مزيداً من تشجيع الحكومة مادياً ومعنوياً ، واخذ الفرنسيون يجدون مصاعب

---

(١) Allenby to Curzon, tel. No. 559 of 9 June 1920; Ibid., p. 285.
راجع ايضا امين سعيد ، المجلد الثاني (١) ، ص ١٤٤ .

(٢) راجع امين سعيد ، المجلد الثاني (١) ، ص ص ١٤٣ — ١٤٥ ، واحمد قدري ، ص ص ٢٠٣ — ٢٠٥ ؛ ويوسف الحكيم ، ص ص ١٥٦ — ١٥٧ .

(٣) لم يقبل الأهلون على تغطية القرض وكان الاقبال على التجنيد ضعيفا . بل حدث في السلط — مثلا — ان السكان ثاروا عندما بدأت الحكومة بالتجنيد « وحدث اصطدام مسلح بينهم وبين جنود الدرك قتل فيه عدد من الأشخاص » . — راجع امين سعيد ، المجلد الثاني (١) ، ص ١٧٩ ، وتاريخ الاردن في القرن العشرين، ص ٩٠ .

جمة في نقل الجنود والذخائر بواسطة سكة الحديد .

ان ممانعة السلطات السورية في تسهيل نقليات الفرنسيين على طريق سكة الحديد . دفعت الحكومة الفرنسية إلى ارسال مذكرتين في ١٠ و١٢ ايار إلى الحكومة البريطانية .

ومما جاء في المذكرتين ان فرنسا ترى ضرورة اتخاذ بعض التدابير لوضع حدّ للحالة الراهنة ومن جملتها احتلال خط سكة حديد حمص – حلب . ورد اللورد كرزون قائلاً انه يخشى ان تؤدي تلك الخطوة إلى انحياز العرب إلى الاتراك الوطنيين ، واقترح تجديد الدعوة إلى فيصل كي يحضر إلى اوروبا وتأجيل الاقدام على احتلال سكة الحديد حتى يتضح موقف فيصل . [1] ولكن ميليران رد رداً عنيفاً على مذكرة كرزون ، فاتهم فيصل بانه « يقف وراء كل الهجمات التي تشنها العصابات الشريفية على القوات الفرنسية » ، وبان سياسته تقوم على محاولة تحطيم وضع فرنسا في سورية ، وبانه يتعاون مع الوطنيين الاتراك محاولا الهاء فرنسا بتعهدات كلامية بغية كسب الوقت حتى يصبح قادراً على اعلان التمرد ، وبانه رفض السماح للفرنسيين باستعمال خط حلب الحديدي مما جعل القوات الفرنسية في كيليكيا تتعرض للخطر . وقال ميليران ان فيصلاً يطالب بوحدة سورية من ضمنها فلسطين وانه «قد يمثّل خطراً في المستقبل على بريطانيا اكبر من الخطر الذي يمثله حالياً بالنسبة لفرنسا » . وعرض ميليران مشروع بيان توجهه حكومتا فرنسا وبريطانيا إلى فيصل وهو بيان يتضمن رأي الحكومتين في حقيقة وضع سورية كما يبدو لهما وينطوي على التهديد . [2] وقد اعترض كرزون على البيان المقترح قائلاً انه يتضمن تهديدات يمكن ان تجر إلى عمل عسكري وانه أُعدّ بأكمله لمصلحة فرنسا ، وان بريطانيا لا تريد من فيصل الا تسوية مسألة حدود فلسطين ، وانه « اذا واجه الفرنسيون مصاعب معه ناشئة عن انتدابهم ،

---

(١) Curzon to the French Ambassador, 18 May 1920; B.D. XIII, pp. 270-3.

(٢) Reply of M. Millerand, 25 May 1920; Ibid., pp. 278-282.

فعليهم ان يحلّوها مستقلين عنا ». [1]

على ان الفرنسيين عمدوا اولاً إلى تسيير الحملات العسكرية ضد الثائرين العرب في المنطقة الغربية ، وخاصة ضد جبل عامل والحولة ، كما انهم اخذوا يسلحّون عصابات من المسيحيين لمجابهة عصابات الثوار . ولهذا فقد بعث فيصل ببرقيتين إلى لويد جورج قال فيهما انه لفت نظر الجنرال غورو إلى المسؤولية الخطيرة التي يتحملها بشنّ حملاته المدمرة ، وقال انه لا يستطيع مغادرة بلاده إلى اوروبا في هذه الظروف وطلب من لويد جورج « باسم الانسانية والسلام » ان يتدخل مع الفرنسيين لايقاف عملياتهم ضد السكان وللكفّ عن اثارة روح العداء بين المسيحيين والمسلمين » ولكي تسلم الادارة في الساحل السوري إلى حكومة دمشق » . [2]

وزاد وضع السوريين خطورة عندما اقدم الفرنسيون في ٣٠ ايار على عقد هدنة مع الاتراك الكماليين . وعلى الاثر اخذ غورو يسحب قواته من كيليكيا ويحشدها في المنطقة الغربية . وازاء هذه التطورات الجديدة التي لم يتوقعها العرب ولم يحسبوا حساباً لها ، بعث فيصل في ٥ حزيران يلفت نظر كرزون إلى انه من المحتمل ان يقوم غورو بحملات عسكرية ضد المنطقة الشرقية . [3]

وقد جاء استيلاء قوة عربية بقيادة جميل المدفعي على بلدة تلعفر العراقية في ٤ حزيران ١٩٢٠ ، خطوة اخرى تقرّب وجهتي نظر الحكومتين البريطانية والفرنسية تجاه العرب . واتهم الحاكم البريطاني في العراق الحكومة السورية بانها « ظلت دائماً في حالة حرب مع القوات البريطانية في العراق وبدون انقطاع منذ شهر تشرين الاول ١٩١٩ » . [4]

وعاد فيصل يطلب من غورو تسليم ادارة المنطقة الغربية — باستثناء

---

(١) Minutes by Curzon, 22 June 1920; Ibid., f.n. 5, p. 290.

(٢) Ibid., pp. 282-4.

(٣) Ibid., Allenby to Curzon, tel. No. 599, 19 June 1920; p. 289.

(٤) Curzon to Allenby, tel. No. 522 of 9 June 1920; Ibid., p. 286.

جبل لبنان – إلى حكومة دمشق ، ولكن حنق الفرنسيين كان يتصاعد لرفض السوريين تسليمهم خط سكة حديد حمص – حلب . وفي ٢١ حزيران قال ميليران مهدداً « لسوف أتدبر أمر فيصل » . (١)

اعتزم الفرنسيون – بعد ان ارتاحوا من مقاتلة الاتراك – ان يخضعوا المنطقة الشرقية لحكمهم المباشر . وجواباً على استيضاح من كرزون قال برتلو ان فيصلاً يحاول ان يلقي بالفرنسيين في البحر ولن تسمح فرنسا له ان يفرض ارادته عليها ، وان انتداب فرنسا على سورية يجب ان يكون مثل انتداب بريطانيا على العراق ، وعلى بريطانيا ان تكف عن حشر نفسها بين فرنسا وفيصل ، وكما ان فرنسا لا تتدخل في الطريقة التي تحكم بها بريطانيا العراق وفلسطين فان فرنسا تود ان لا تتدخل بريطانيا في شؤون سورية . (٢)

ويبدو ان البريطانيين اقتنعوا قناعة تامة بوجهة نظر الفرنسيين ، فلم يرد لويد جورج على رسالتين من الملك حسين (٣) . وعندما كتب فيصل إلى اللنبي في ٢١ حزيران بانه ابلغ الفرنسيين انه سيقطع العلاقات معهم الا اذا اعترفوا باستقلاله ، نصحه اللنبي « ان لا يتخـذ اي عمل من شأنه ان يلحق الضرر بعلاقاته مع الجنرال غورو » . (٤)

وهكذا أصبح العرب وحيدين أكثر من أي وقت مضى ، وتخلت بريطانيا كليا عن حلفائها ، وتهيأت جميع الظروف الملائمة أمام الجنرال غورو كي يضرب الضربة التي كان يتطلع اليها منذ وصوله إلى بيروت قبل سبعة أشهر .

في حزيران أيقن فيصل أن الموقف بين سورية وفرنسا لا بدّ ان ينفجر على نحو ما . ومن المحتمل أنه وكثيرين من السوريين كانوا

---

(١) Samuel to Curzon, 26 June 1920; Ibid., p. 297.

(٢) Derby to Curzon, 29 June 1920 and attached note from Berthelot; Ibid., pp. 297-8.

(٣) Of 3 and 5 July 1920; Ibid., pp. 306-7 and 309.

(٤) Allenby to Curzon, 6 July 1920; Ibid., pp. 309-310.

يتعللون بالامال بأن فرنسا لن تقدم على استعمال القوة العسكرية ضد سورية ، وانها تشن عليهم حرب أعصاب فاذا صمدوا وصبروا فربما تتقدم إلى مهادنتهم كما فعلت مع الاتراك . وكان هناك الامل بأن بريطانيا لن تتخلى عنهم اذا جد الجد ولن تسمح لفرنسا بابتلاعهم . ولكن فيصلاً في قرارة نفسه كان يخشى أن تكون هذه الامال مجرد سراب خادع ، وان اتباع الخطة السلبية مع فرنسا سيؤدي إلى الكارثة؛ لذلك عاد يباحث أعضاء وزارته في احتمالات سفره إلى اوروبا . وكان نوري السعيد قد عاد من لندن وباريس .«وهو مقتنع بأن أكبر خدمة يمكن أن تسدى لسورية هي سفر الملك لاوروبا تثبيتا للوضع القائم في سورية وعدم فسح المجال ليصبح الانتداب استعمارا مقنعا ، ولكن الهياج في البلاد كان قد بلغ أشده والاصوات تشق الحناجر دفاعا حتى الموت »[1] . ونادى فقهاء المنطق والنظريات من أعضاء المؤتمر السوري بأنه « لا يجوز لجلالة الملك فيصل بعد أن أعلنت ملكيته الذهاب بنفسه حفظا لكرامته وكرامة الامة التي أعلنت ملكيته عليها »[2] . واتجه الرأي إلى ايفاد وفد يمثل الحكومة ، وبالفعل عُيّن أعضاء الوفد برئاسة نوري السعيد . ولكن بينما كان هؤلاء يتداولون في الطريقة المثلى لعرض قضيتهم ، ظهرت استعدادات الفرنسيين العسكرية في المنطقة الغربية بصورة لا تدع مجالا للشك في نيتهم المبيتة بالعدوان . لذلك قرر فيصل أن يذهب إلى اوروبا بنفسه على الرغم من معارضة المعارضين . وقد بادر أولا فطلب من مجلس الوزراء أن يدرس مشروع اتفاقه مع كليمنصو ، وكانت النتيجة ان جميع الوزراء وافقوا على مشروع الاتفاق باستثناء يوسف العظمة وزير الحربية[3] . ولم يكن

---

(١) احمد قدري ، ص ص ٢١٢ — ٢١٣ .

(٢) محمد طاهر العمري ، المجلد الثالث ، ص ٢١٨ .

(٣) يوسف الحكيم ، ص ١٦٢ . وعلى رأي يوسف الحكيم ان يوسف العظمة وكامل القصاب كانا « المسؤولين الاولين تجاه الملك والشعب عن موقف سورية العدائي من الانتداب الفرنسي حتى آخر مراحل النضال الوطني » ، ص ١٧٤ .

تردد فيصل بين المعتدلين ناشئا الا عن رغبته في عدم فرض أي حل بالقوة حتى لا يتهم بأنه فرط بمصلحة الوطن ، خاصة وان أعداء الاتفاق مع فرنسا بثوا عليه يومذاك « دعاية شنيعة » على حد قول الشهبندر وزير خارجيته « فتراجع من غير انتظام لأنه كان حديث عهد بالشؤون السياسية والحملات المدبرة . ولو أنه وقف موقفا ثابتا ودافع عن آرائه بمثل الطريقة المدبرة الحاذقة التي سلكها في العراق فيما بعد لوجد من المعتدلين أنصارا يؤيدونه ويقفون في وجه مناوئيه »[1] وقد ظل فيصل طوال الازمة وحتى خروجه من سورية يمسك بالعصا من منتصفها بين المعتدلين والمتطرفين ، ولم يتنكر قط لأي من هؤلاء او هؤلاء ، ايمانا منه بأن كلا الطرفين يستهدف مثله مصلحة الوطن العليا ، وان الخلاف بين وجهتي النظر ليس سوى اختلاف في الاجتهاد .

وبعث فيصل مستشاره وكبير مرافقيه اللواء نوري السعيد إلى بيروت في أوائل تموز لمباحثة الجنرال غورو في اعداد ترتيبات السفر إلى اوروبا . ولكن نوري السعيد فوجيء بالجنرال غورو يبلغه لدى اجتماعه به يوم ١٠ تموز أنه بسبيل اعداد بعض المطالب لتقديمها إلى فيصل ، وانه لن يوافق على سفره الا اذا قبل تلك المطالب . أما اذا شاء فيصل أن يسافر إلى اوروبا عن طريق اخرى ، فالحكومة الفرنسية لن تتعرف عليه أو تفاوضه . وقال غورو لنوري السعيد ان أهم الشروط التي سيوجهها إلى فيصل بصورة انذار ، هي :

١ – وضع سكة حديد رياق – حلب ، تحت تصرف الجيش الفرنسي واحتلال مدينة حلب عسكرياً .

٢ – الغاء التجنيد الاجباري وتسريح المجندين .

٣ – قبول الانتداب الفرنسي دون قيد أو شرط .

٤ – معاقبة العرب المتهمين باثارة الاضطرابات في المناطق الساحلية .

---

(١) مقالة بعنوان « فيصل بن الحسين » ، مجلة المقتطف : تشرين الاول ١٩٣٣ ، ص ص ٢٥٧ – ٢٦٥ .

٥ ـ قبول أوراق النقد التي أصدرها الفرنسيون [1] .

واذا تساءلنا عن سبب اقدام الفرنسيين على هذه الخطوة الحاسمة ، وجدنا أنهم كانوا متضايقين جدا من موقف الحكومة السورية : لأن تلك الحكومة كانت ترفض الانتداب الذي منحهم اياه مؤتمر السلم ، ولأنها كانت تشجع أعمال العصابات في المنطقة الساحلية ، ولأنها عاكستهم في استخدام خط السكة من رياق إلى حلب عندما كانوا يحاربون الاتراك . اضف إلى ذلك ان الفرنسيين كانوا يواجهون مصاعب ادارية كبيرة في المنطقة الساحلية لأن جانبا كبيرا من السكان كانوا يدينون بالولاء لحكومة دمشق أكثر مما يدينون لسلطة الانتداب . وكانوا يواجهون كذلك مصاعب اقتصادية حتى أخذت تجارة سورية تتجه نحو فلسطين ومصر ، وقد أصدروا الفرنك السوري ولكن أهل المنطقة الغربية لم يتقبلوا التعامل به ، بينما بدأت الحكومة السورية عملية اصدار عملة مستقلة .

وكان هنالك سبب مهم آخر وراء الخطوة الفرنسية . فقد ساد التذمر بين كثرة السكان في المنطقة الغربية من غطرسة الضباط الفرنسيين واستبدادهم وحكمهم البلاد حكما مباشرا . بينما كان جبل لبنان يتمتع باستقلال اداري في عهد العثمانيين . وأدى ذلك التذمر إلى عقد اتصالات بين مجلس ادارة لبنان والحكومة السورية ابتداء من أواخر شهر ايار . وهذه الاتصالات أدت إلى عقد اتفاق تعاون بين الطرفين يتضمن استقلال جبل لبنان وتكبيره وعقد اتحاد اقتصادي بينه وبين الدولة السورية . ونتج عن هذا أن ثمانية أعضاء من مجموع الاثني عشر عضوا لمجلس الادارة وقعوا على مضبطة يوم ١٠ تموز باستقلال لبنان واعتزامهم السفر إلى باريس لمطالبة مؤتمر الصلح بالاعتراف بذلك الاستقلال . وقد بادر الاعضاء الثمانية فور التوقيع على المضبطة إلى السفر منفردين

---

(١) ساطع الحصري ، يوم ميسلون، دار الاتحاد ، بيروت (طبعة جديدة) ، ص ١١٨ .
Arbur to British Agent, Jeddah, tel. No. A.B. 703 of 18 July 1920; P.R.O., F.O. 882/22.

باتجاه دمشق ، ولكن سلطات الانتداب – التي كانت على علم بموضوع الاتصالات منذ البداية – القت القبض عليهم قبل أن يصلوا إلى المنطقة الشرقية . ومما زاد هذا الحادث خطورة أن شقيق بطريرك الموارنة وابن أخيه كانا بين أولئك الوطنيين . ومن الواضح أن هذا الاتفاق كان موجها ضد الانتداب الفرنسي والسياسة الفرنسية في سورية ، وكان انتصاراً لوجهة النظر العربية وسياسة فيصل الودية تجاه المسيحيين . وقد اتّهم الفرنسيون اولئك الاعضاء بالارتشاء من قبل حكومة دمشق ، فأحالوهم للمحاكمة أمام مجلس عسكري ، وأصدر غورو بعد يومين قرارا بالغاء مجلس الادارة .[1]

أما نوري السعيد فقد عاد معجلا إلى دمشق وأبلغ فيصل والحكومة السورية بشروط غورو وانذاره المقبل . فلا جرم ان وقع النبأ في دمشق وقوع الصاعقة ، لان احداً لم يتوقع قط أن يعمد الفرنسيون إلى الايغال في العداء حتى هذا المدى . وبادر فيصل فأرسل نوري السعيد مرة اخرى إلى بيروت ليعمل على اقناع غورو بالعدول عن ارسال الانذار والموافقة على تأليف لجنة دولية مختلطة لحسم الخلافات بين الطرفين. وفي الوقت ذاته (١١ تموز) بعث ببرقيات إلى مؤتمر السلم وإلى معتمدي الدول الكبرى في دمشق ينبئهم فيها بالمطالب الفرنسية ويناشدهم التدخل لتأليف لجنة تحكيم دولية تدرس مطالب غورو ، قائلا انه وشعبه يتعهدون

---

(١) راجع التفاصيل في امين سعيد ، المجلد الثاني (١) ، ص ص ١٥٥ – ١٦١ ؛ واحمد قدري، ص ص ٢١٧ – ٢٢٠ . ومما هو جدير بالذكر ان مجلس الادارة هذا كان قد قرر في ايار ١٩١٩ وضع لبنان تحت حماية فرنسا ثم شجب القرارات التي اتخذها المؤتمر السوري في آذار ١٩٢٠ ، ولكن استبداد الفرنسيين من جهة والمنهاج المتسامح الذي سار عليه فيصل في سورية هو الذي بدل موقف ذلك المجلس خلال أربعة أشهر فقط . ولو اتيح للقرار اللذي اتخذه مجلس ادارة لبنان ان ينفذ لكان من المرجح ان يتبدل تاريخ سورية ولبنان ، وان يتفادى لبنان المتاعب الكثيرة التي جرتها عليه سياسة بعض زعماء الموارنة والفرنسيين التي عملت على تكبيره وضم مناطق سورية – اسلامية اليه .

مقدما بقبول قرارات تلك اللجنة [1] .

أخفق نوري السعيد في اقناع الجنرال غورو بالتحول عن عزمه ، بل ان القوات الفرنسية تقدمت يوم ١٢ تموز إلى احتلال محطة سكة حديد رياق وتقدمت قوة اخرى إلى قرب مدينة حلب .

وفي ١٣ و ١٥ تموز أبلغت وزارة الخارجية البريطانية — عن طريق اللنبي — بطلب فيصل تدخل الحكومة البريطانية . وردت وزارة الخارجية تبلغ اللنبي بأنه يستحيل عليها التدخل ، لأن الفرنسيين تخلوا تماما عن الاهتمام بفلسطين والعراق ، ومن حقهم أن يعالجوا قضايا سورية دون تدخل [2] .

وفي ١٤ تموز — اليوم الذي تحتفل فيه فرنسا بذكرى ثورتها الكبرى — أرسل غورو انذاره الرسمي إلى فيصل فعدد فيه المواقف العدائية التي ادعى ان حكومة دمشق اتخذتها ضد الفرنسيين ، ثم أورد « الضمانات » الخمسة التي ذكرت أعلاه قائلا أنه ينبغي قبولها كلها بلا تجزئة خلال أربعة أيام . أما اذا لم تقبل هذه الشروط فان الحكومة الفرنسية « ستكون مطلقة اليد في العمل » .

وقد أورد غورو مع اشتراطه قبول الانتداب الفرنسي ، قوله : « ان هذا الانتداب يحترم استقلال أهالي سورية ، ولا يناقض مبدأ الحكم بسلطة سورية تستمد قوتها من ارادة الشعب . ولا يتضمن سوى معاونة بشكل مساعدة من الدولة المنتدبة ، دون أن يتخذ مطلقا شكل استعمار أو الحاق او ادارة مباشرة » . [3]

---

(١) راجع نصوص برقيات فيصل ومذكراته بهذا الخصوص في : امين سعيد ، المجلد الثاني (١) ، ص ص ١٦١ — ١٦٧ .

(٢) Documents Nos. 280, 283 and 284; B.D. XIII, pp. 311-313.
ويقول فيصل ان وزير الخارجية البريطانية أرسل اليه حينذاك برقية يقول فيها « ان حكومة بريطانيا لا تقبل أي مسؤولية كانت بالنسبة لعهودها الموجودة بينها وبين العرب اذا لم تتجنبوا الحرب وتتفقوا مع الحكومة الفرنسوية » . — رسالة فيصل إلى أبيه بتاريخ ١٠ تشرين الثاني ١٩٢٠ — (أوراق الأمير زيد) .

(٣) النص الكامل لانذار غورو في ساطع الحصري ، يوم ميسلون ، ص ص ٢٩٩ — ٣٠٨ .

وفي جدة دعا الملك حسين ممثلي بريطانيا وفرنسا وايطاليا للاجتماع به وقال ان شروط غورو غير مقبولة ولا يمكن احتمالها ، وان الحجاز وسورية وفلسطين والعراق بلاد واحدة ولا يمكن تقسيمها ، ولا يهمه اذا تبع الحجاز سورية او العكس . وقال انه اذا لم يتوصل الحلفاء إلى حل مرض لمسألة استقلال سورية فأنه سيكون مضطرا للذهاب شخصيا للانضمام إلى السوريين أو يرسل واحدا من أبنائه .[١] ثم أبرق إلى لويد جورج يناشده التدخل .[٢]

ولكن الاحداث تتابعت بسرعة في سورية فأعلنت الوزارة الادارة العرفية ، وأبلغت المؤتمر السوري في ١٣ تموز انها مستعدة ومصممة على الدفاع « عن شرفنا وحقوقنا » واتخذت تدابير عسكرية كان من جملتها تعيين الامير زيد قائداً عاماً للجيش السوري وياسين الهاشمي قائدا لجبهة دمشق . ولكن هذا الأخير اعتذر عن قبول المهمة الموكولة اليه قائلا ان الجيش لا يستطيع الوقوف أمام الجيش الفرنسي الزاحف « لان مخازن الجيش فارغة من الأسلحة والذخائر ومعدات القتال مفقودة » . وعلى الأثر عقد فيصل مجلسا حربيا من كبار الضباط فقرر هؤلاء ان الجيش العربي لا يستطيع الوقوف في وجه الجيش الفرنسي أكثر من ساعتين . وكان هذا الرأي مفاجأة اخرى في سلسلة المفاجاءات التي تمخضت عنها تلك الأيام . وانتدب فيصل اللواء نوري السعيد والأمير عادل ارسلان للذهاب إلى حيفا وأخذ رأي المارشال اللنبي ، وكان رأي اللنبي أنه ينصح بقبول الانذار والتفاهم مع الفرنسيين وأرسل رسالة خاصة إلى فيصل بهذا المعنى[٣] . أما وزير الحربية يوسف العظمة الذي كان منذ بداية الازمة يعلن ان الجيش السوري قوي وقادر على صد

(١) Report of British Agent of Conversation on 17 July 1920; P.R.O., F.O. 686/26.

(٢) Tel. of 18 July 1920; P.R.O., F.O. 882/24.

(٣) يقول امين سعيد ان رسالة اللنبي كانت محفوظة عندالدكتور الشهبندر وزير الخارجية السورية يومذاك ، المجلد الثاني (١) ، ص ١٨١ .

الفرنسيين ، لم يلبث أن أعلن أنه كان يفعل ذلك على سبيل الايهام لعل الفرنسيين يترددون في مهاجمة سورية .

أمام هذه الحقائق اقتنع فيصل والوزراء بضرورة قبول انذار غورو ، وقررت الوزارة يوم ١٧ تموز أن تُشيرَ على فيصل بقبوله ، وبناء عليه بعث فيصل في اليوم التالي برقية إلى غورو ينبئه فيها انه وأعضاء حكومته قرروا قبول شروطه ، ولكن غورو أجاب انه لا يكتفي بمجرد القبول بل يطلب تنفيذ الشروط فعلا ، وقال انه يمدد فترة الانذار حتى ٢١ تموز . وفي ٢٠ تموز قررت الحكومة السورية اتخاذ الاجراءات اللازمة لتنفيذ شروط الانذار ومن جملتها تسريح الجيش . وفي اليوم ذاته بعث فيصل برقية اخرى إلى غورو يعلمه فيها أنه يقبل مطالبه وان الاجراءات تتخذ لتنفيذها . ورد غورو أنه ينتظر وصول تأييد كتابي مفصل يعلن قبول الشروط واحدا واحدا .

ولكن أنباء قبول انذار غورو أثارت هياجاً شديداً بين الأهلين ، فقامت مظاهرات صاخبة في دمشق ، ودعا أكثر نواب المنطقة الساحلية وفلسطين إلى رفض الانذار بينما التزم أكثر نواب المنطقة الشرقية الصمت . ثم اتخذ المؤتمر يوم ١٩ تموز قرارا برفض الانذار ويهدد الوزارة بأنه سيعتبرها غير شرعية اذا حادت عن قرارها السابق بعدم قبول الانتداب . وعمدت الوزارة في مساء ذلك اليوم إلى تأجيل جلسات المؤتمر لمدة شهرين، فانفضّ ولم يجتمع بعدها ابدا . وعلى الأثر قامت المظاهرات وسادت الفوضى وهاجم الغوغاء قلعة دمشق ونهبوا المستودعات ، ولم تستطع قوات الامن تهدئة الاحوال الا بعد اطلاق النار عليهم وسقوط ١٢٠ قتيلا و ٣٠٠ جريح [١] .

وأعدت الوزارة يوم ٢٠ تموز المذكرة الجوابية المفصلة التي طلبها غورو وسلمتها إلى الكولونيل كوس ضابط الارتباط الفرنسي ، فبادر هذا إلى ارسال برقية يحيط غورو فيها علما بتسلّم المذكرة .

---

(١) مذكرة الملك فيصل بتاريخ ١١ ايلول ١٩٢٠ – امين سعيد ، المجلد الثاني (١) ، ص ٢٣٢ .

ولكن صباح يوم ٢١ تموز حمل معه مفاجأة جديدة الا وهي نبأ زحف الجيش الفرنسي باتجاه دمشق . وتبين فيما بعد ان غورو تذرّع بأنه لم يتسلم البرقية في الوقت المحدد ، فأصدر أمره لقواته بالزحف . وعندئذ أيقن فيصل ورجال حكومته ان شهوة الفتح تملكت غورو وانه مصمم على دخول دمشق ، فقرروا مقابلة الشر بالشر مرغمين ونادى منادي الحرب – بعد أن سُرّح الجيش قبل ذلك بيومين – وبعث فيصل برقيات احتجاج إلى غورو والدول الكبرى . ولكنه عاد لاستعمال السهم الاخير في جعبته فأوفد وزير المعارف ساطع الحصري لمقابلة غورو ومحاولة اقناعه بالرجوع . وعاد ساطع الحصري بشروط جديدة من غورو فعرضها فيصل على الوزراء فأشاروا بقبولها ومن جملتهم وزير الحربية يوسف العظمة . ولكن غورو لم يلبث أن بعث إلى فيصل برقية جديدة يقول ان قواته مضطرة للتقدم إلى موقع ميسلون حيث تتوافر المياه . وكانت هذه حجة واهية تنم على تصميم غورو على دخول دمشق فاتحا ، اذ لو كانت نيته حسنة لأمر قواته بالتراجع إلى الوراء . وردّ فيصل يقول أنه لا يريد الحرب ولكن قبول المطالب الاخيرة « يعرّضنا لحرب أهلية ويجعلني أنا وكل عضو من أعضاء الحكومة عرضة للتهلكة » وقال ان أكثر شروط غورو قد نفذت وسينفذ الباقي منها باخلاص اذا تراجع الجيش الفرنسي إلى الوراء .

ولكن الجيش الفرنسي واصل تقدمه . وفي فجر ٢٤ تموز اشتبك مع القوة العربية القليلة العدد والعدة التي احتشدت في خط ميسلون . ولم تدم المعركة غير المتكافئة سوى بضع ساعات . وعند الظهر تمكن الفرنسيون من اختراق مواقع العرب فانسحب هؤلاء تاركين وراءهم نحو ٨٠٠ قتيل بينهم وزير الحربية يوسف العظمة .[1]

---

(١) كانت القوة العربية التي اشتركت في معركة ميسلون صغيرة جدا ، فلم يكن هناك من النظاميين سوى ٦٠ جنديا وعلى قول آخر ١٦٠ جنديا ، بالاضافة إلى كوكبة من الهجانة الحجازيين وحرس الملك فيصل وحوالي ٣٠٠٠ متطوع سلاحهم البنادق . راجع امين سعيد ، المجلد الثاني (١)، ص ص ١٩٧ – ١٩٨ ، وخير الدين=

في اليوم التالي دخلت القوات الفرنسية مدينة دمشق ، بينما انسحب فيصل إلى درعا وفي نيته الاستمرار في المقاومة . ولكن تهديدات الفرنسيين بضرب درعا بقنابل الطائرات وعدم امكان حشد أية قوات عسكرية ، اضطره إلى مغادرة درعا إلى حيفا يوم ١ آب ١٩٢٠ ؛ ومعه أخوه زيد وعدد من رجاله . وبذلك انتهت حياة أول دولة سورية مستقلة تألفت منذ عدة قرون بعد أن عاشت اثنين وعشرين شهرا حافلة بالحوادث والاحداث . ولكن هذه الدولة على الرغم من المصاعب والعقبات الكثيرة استطاعت أن تحظى بولاء الاهلين واستطاعت أن تحفظ الامن والنظام أكثر بكثير من دولتي الانتداب في العراق ولبنان وفلسطين .

كانت الدولة السورية تمثل بالنسبة للعرب شيئا أكبر من واقعها الحقيقي : كانت نواة الدولة العربية الكبيرة التي يحلمون بانشائها ، وحجر الأساس الذي تلتقي آمالهم عنده ؛ ومهوى افئدة الطلائعيين والثوريين منهم . ولم يكن الصراع السياسي الذي دار خلال الاثنين وعشرين شهرا التي عاشتها الدولة السورية . يقتصر في أذهان العرب على المنطقة الشرقية وحدها ، بل كان يمثل عند العرب معركة بلادهم كلها ضد الاستعمار الاوروبي . وكان العرب في جميع أقطارهم يراقبون نضال فيصل والسوريين باهتمام شديد ويحكمون على اوروبا من خلال تطورات ذلك النضال . وعندما انبأت جرترود بل السيد حسن الصدر الزعيم الديني الكبير في العراق ان فيصل سيتوج ملكا على سورية ، سألها : ملكا على سورية حتى الساحل ؟ وعندما أجابته ان الفرنسيين سيحتفظون بالساحل وبيروت أظهر امتعاضه وعدم رضاه [1] لذلك لا غرابة اذا شعر العرب يوم احتل الفرنسيون دمشق كأنما احتل هؤلاء البلاد العربية واعتدوا عليها بأجمعها ، وكأن البريطانيين الذين سمحوا لما

= الزركلي ، ما رأيت وما سمعت ، ص ٤ . راجع وصفاً للمعركة بقلم محمد علي العجلوني أحد الضباط الذين اشتركوا في معركة ميسلون : ذكرياتي عن الثورة العربية الكبرى ، عمان ، ١٩٥٦ ص ص ٩٩ — ١٠٣ .

(١) The Letters of Gertrude Bell, 2nd Volume, London, 1927.

حدث أن يحدث ، لم يتخلوا عن السوريين وحدهم بل تخلوا عن العرب جميعا في أكثر الساعات حرجا في تاريخهم الحديث .

والواقع ان الحكومة البريطانية لم تحرك ساكنا تجاه هذه الكارثة التي ألمت بالعرب . حتى في مجلس العموم أجابت على سؤال من قبل احد النوّاب « اجابة متحفظة غير ملزمة على الاطلاق لتفادي أية اساءة محتملة للحكومة الفرنسية » . وفي ١٩ تموز أبلغ السفير الفرنسي في لندن « ان حكومة جلالته لا ترغب بأي صورة كانت أن تتدخل بين الفرنسيين والأمير فيصل » . بينما أكد السفير الفرنسي ان القوات العسكرية الفرنسية سوف تنسحب حالما يتم قبول الانتداب ، وان القوات الفرنسية توطد الانتداب في سورية كما تقوم القوات البريطانية بتوطيده في العراق .[1]

وكانت للبريطانيين أسبابهم القوية لوقوف ذلك الموقف : فالحكومة السورية كانت ضد خططهم في فلسطين والعراق ، وقد قام السكان في شرقي الاردن وحوران بعدة غارات ضد القوات البريطانية في فلسطين ، كما ان الرصاصات الاولى في ثورة العراق الكبرى انطلقت في أوائل حزيران على أيدي جميل المدفعي ورجاله القادمين من سورية . وقد بلغت الثورة العراقية ضد البريطانيين أقصى عنفوانها في شهر تموز بينما كان غورو يحشد جنوده ويوجه انذاراته إلى دمشق . ومن هنا وجدت الحكومة البريطانية نفسها تقف في صف واحد مع الفرنسيين ومع الصهيونيين وأنصارهم ، وكان هناك سياسيون كثيرون يرون ان استيلاء الفرنسيين على المنطقة الشرقية سيجعل مهمة بريطانيا أكثر يسرا وسهولة في العراق وفلسطين ، وسيجعل الوضع متماثلا في كافة الاقطار العربية الموضوعة تحت الانتداب او المرتبطة بمعاهدات الصداقة واتفاقيات الحماية .

ولكن يجب الاعتراف بأن مقاومة السوريين للقوات الغازية كانت

---

(١) Curzon to Derby, No. 2538 of 24 July 1920; B.D. XIII, pp. 315-317

ضعيفة نسبيا خاصة اذا قيست بمقاومة جيرانهم الاتراك . ولا يكفي أبدا القاء اللوم على الحكومة لأنه مهما كانت مسؤولية الحكومات عظيمة فمسؤوليات الشعوب تظل أعظم . لقد سقطت الدولة السورية « لأن قوتها المسلحة لم تكن كافية لضمان بقائها » [1] . والقوة المسلحة تعني دائماً وابداً قوة الجيش والشعب معاً .

ونحن نملك الان نص رسالة خاصة بعث بها فيصل إلى أبيه الحسين وشرح له فيها أسباب الكارثة وظروفها . وفي هذه الرسالة قال،فيصل انه كان يعتقد« بأن الواجب يقضي علينا بالتساهل مع الدول بالنظر إلى اطماعها وإلى ضعفنا » ولكن حال دون ذلك مبدأ الملك حسين القائم على استقلال البلاد العربية دون قيد أو شرط ، ومعارضة شبان العرب لكل تساهل . وقد كان بالامكان الضرب على أيدي الاحزاب المعارضة ولكن فيصل لم يقدم على ذلك خشية « اللوم التاريخي » وزاد الوضع سوءا ان الاحزاب لم تكن تدرك حقيقة ضعف البلاد وقوة الاعداء . ثم تأزم الوضع وحشد العدو قواته « والامة واقفة تنظر اليه بعينيها وهي جامدة كأن لا علاقة لها بما يجري . والذي يوجب الاسف ان الامة قوّالة لا فعالة » . فأهل البلاد لم يقفوا موقفاً ايجابياً من التجنيد الاجباري « ومع الاسف كان الفراريون في بعض الاحيان أكثر من المتجندين » . ولم يقبل الاهلون على دفع المال لصندوق الحكومة حتى تتمكن من العمل . كان الاقبال على التجنيد ودفع المال « في درجة العدم » . أما الذخائر المتوافرة للجيش فقد كانت بمعدل ١٥٠ قذيفة لكل مدفع ونحو ٣٠٠ طلقة لكل بندقية . لهذا كله عندما تقدم غورو بانـذاره «قبلنا الشروط رغم انوفنا كي لا نضيع الموقع الأساسي الذي لنا ، خصوصا بعد ان أخذت من الحكومة البريطانية جواباً بقولها انها لا تتدخل وتوصيني بوجوب التفاهممع الافرنسيين » . ثم وصف فيصل كيف قامت « بعض الاحزاب المتهوسة وحرضت الناس على الثورة

(١) Professor Temperley, A History of the Peace Conference of Paris, vol. VI, (London) 1920 & 1924, p. 158.

في حين كان العدو يتربص بنا الدوائر » . وتحدث عن اقدام غورو على غزو سورية على الرغم من قبول شروطه ، وعن عدم تمكنه من انشاء خط دفاع ثان بسبب فقدان المال والسلاح ، وعن اضطراره لمغادرة درعا « لأنني كنت أعزل من أسباب المقاومة » ولأن أهل حوران كانوا خائفين من الطيارات التي هددهم بها الفرنسيون [1] .

أما البريطانيون القلائل الذين عرفوا العرب وعملوا معهم ووقفوا على حقيقة قضيتهم ، فقد عبّر عن شعورهم الأستاذ هوجارث قبل ذلك بأكثر من سنة عندما كتب إلى كلايتون يقول :

« .... تتملكني الدهشة كلما فكّرت بأننا سنسلّم فيصلاً وسورية للجنود السنغاليين ، وبأننا سنتسلم فلسطين وأيدينا وأرجلنا موثقة ! لن ألوم العرب في أي من القطرين اذا ما أخرجوا بنادقهم . انني أكره مجرّد التفكير بأن أضع قدمي مرة أخرى في أرض عربية ... ياللسماء ! ما أصعب الوصول إلى السلام ، وما أسهل الإقدام على الحرب ! » [2] .

---

(١) الرسالة بخط فيصل نفسه وهي بتاريخ ٩ آب ١٩٢٠ –(أوراق الأمير زيد). ولكن الحوارنة أعلنوا عصيانهم ضد الفرنسيين وهاجموا رئيس الوزراء علاء الدين الدروبي يوم ٢١ آب ١٩٢٠ عندما جاء هو وعبد الرحمن اليوسف رئيس مجلس الشورى بقصد تهدئتهم وقتلوهما تعبيرا عن سخطهم على تعاون الرجلين مع الفرنسيين .

(٢) Private letter dated 19 May 1919; Hogarth Papers, St. Antony College, M.E. Center, Oxford.

الفصل التاسع

حلول ولا حلول

بعد ميسلون : يمثّل استيلاء الفرنسيين على سوريـة وإخراج فيصل من دمشق ختام مرحلة وبدء مرحلة جديدة من مراحل نضال العرب في نهضتهم القومية الحديثة . واذا كان العرب في المرحلة الاولى قد اعتمدوا على السلاح والسياسة معاً ، فانهم بعد ميسلون وجدوا أنفسهم مضطرين إلى التركيز على المساعي السياسية وحدها . ففي معركتي تربة وميسلون فقد الهاشميون العمود الفقري لقوتهم العسكرية في الحجاز وسورية ، تلك القوة التي كانوا يأملون أن يتمكنوا بها من تحقيق الوحدة والاستقلال للعرب . ولم يكن الشعب العربي عموماً يملك من قوة البنية القومية طاقة كافية لخوض معارك ناجحة وفعّالة ضد الجيوش الفرنسية والبريطانية . على الرغم من أن الثورة العراقية المجيدة في صيف ١٩٢٠ ، أقضّت مضاجع الأنكليز في ذلك القطر ، الا ان السوريين اخفقوا ذلك الصيف بالذات في اظهار فعالية مماثلة ضد الفرنسيين والانكليز .

وهكذا نجد فيصلاً يرجّح العمل في ميدان السياسة في اوروبا على الانحياز إلى شرقي الاردن وهو لا يملك مالاً أو سلاحاً . وعلى هذه النية اتجه من درعا إلى حيفا بدل أن يتجه إلى عمان او معان . ولكنه لم يهمل شرقي الاردن بل أرسل اليها الشريف محمد علي البديوي بقصد أن تبقى المنطقة « مركزاً لنا ويلتف حوله أهل البلاد » . وكان فيصل يرى يومذاك أن السوريين « باقون على ما كانوا عليه » وأن قضية

سورية لم تنته عند الحد الذي وصلت اليه ، وأن الفرنسيين « لا يمكنهم أن يرتاحوا أبداً » في سورية .[1]

وبلغ فيصل مدينة حيفا يوم ١ آب فاستقبله حاكمها البريطاني الكولونيل ستانتون . وخصّص له منزل المس نيوتن صديقة العرب للاقامة فيه . وأبرق فيصل الى ابيه يطلب منه المال ليتمكن من السفر الى اوربا فبعث اليه حوالة بخمسة وعشرين الف جنيه .

ورغب فيصل ان يسافر الى الاسكندرية ليجتمع باللورد اللنبي ، ولكن اللنبي اعتذر عن الاجتماع به قائلا انه لا يعرف سياسة حكومته من فيصل[2] . واقترح اللنبي كما اقترح صموئيل ان يعود فيصل الى الحجاز ، ولكن فيصلاً بقي على عزمه على السفر الى سويسرة عن طريق ايطاليا لمراجعة عصبة الامم ، وأبلغ صموئيل انه «سيعدّ ترتيبات رحلته بنفسه ولا يطلب أية مساعدة من انكلترا ... وهو لا يرغب في تعقيد الامور بين بريطانيا وفرنسا . »[3]

وطلب كرزون من صموئيل أن يبلغ فيصلاً «ان حكومة جلالته تقدّر رغبته في ان لا يخلق اية تعقيدات بين انكلترا وفرنسا ... وهي تأمل ان الفرصة يمكن ان تلوح لها في المستقبل كي تظهر له ان موقفه الودي تجاه الحكومة البريطانية لم يُقابَل بالنسيان ».[4]

بقي فيصل في حيفا حتى ١٨ آب . ففي صباح ذلك اليوم غادرها بالقطار قاصدا بور سعيد . وعند وصول القطار الذي كان يقلّه الى محطة اللد ، وجد هربرت صموئيل ورونالد ستورس (حاكم القدس في استقباله مع حرس شرف «وأثناء ذلك تصرّف فيصل بعزة نفس وبالصبر الجميل الذي يحضّ عليه الاسلام ... مع ان الدموع كانت

---

(١) رسالة فيصل المشار اليها سابقا ، إلى أبيه ، وقد بعث بها من حيفا بتاريخ ٢٣ ذي القعدة ١٣٣٦ هـ (الموافق ٩ آب ١٩٢٠ م) - (أوراق الأمير زيد) .

(٢) Allemby to Curzon, tel. no. 792 of 2 Aug. 1920 — B.D. XIII, pp. 325-326.

(٣) Samuel to Curzon, tel. no. 175 of 3 Aug. 1920, Ibid., p. 330.

(٤) Tel. No. 69 of 5 Aug. 1920, Ibid., p. 330.

تجول في عينيه ، وقد تغلغل الجرح في نفسه حتى الأعماق ».[1]

وفي ٢٠ آب غادر فيصل ميناء بور سعيد على متن باخرة تجارية يرافقه عدد من رجال خاصته . وأثناء ذلك نقل اليه عبد الملك الخطيب معتمد الحجاز في مصر رسالة من أبيه تتضمن التعليمات التالية :

١ — يجب أن لا يذهب إلى فرنسا .

٢ — عليه أن لا يجري مباحثات سياسية مع أية دولة غير بريطانيا .

٣ — يجب أن تدور المباحثات على أساس رسائل مكماهون، ولا شيء سواها .

ووجّه الحسين اللوم إلى فيصل بقوله أنه لو بقي ممثلاً لأبيه ، ولم ينشيء مملكة منفصلة ، لما جرؤ الفرنسيون على مهاجمته ، باعتبار ان الملك حسين واحد من الحلفاء وقد اعترفت الدول الكبرى به . ولكن فيصلاً قال لمعتمد الحجاز انه ما يزال يرجو أن يتوصل إلى ترتيب ما مع الفرنسيين .[2]

وبلغ فيصل ميناء نابولي في ٢٥ آب ومن هناك سافر إلى روما ومنها إلى ميلانو ثم شمالاً نحو سويسرة . ولكن قبل أن يصل إلى الحدود السويسرية لاقاه حداد باشا معتمده في لندن وأبلغه رسالة شفهية من الجنرال كلايتون مؤداها ان الحكومة البريطانية ترى أن يتريث فيصل في شمالي ايطاليا بعض الوقت حين يستقرّ رأيها على اتجاه معيّن نحو المسألة العربية ، وان لويد جورج مشغول الآن في سويسره باجتماعات

---

(١) Ronald Storrs, *Orientations*, p. 431. ويقول رونالد ستورس ان السلطنة المصرية لم « تعترف » بفيصل، فلم يجر له أي استقبال ، واضطر في محطة القنطرة أن ينتظر القطار جالسا على أمتعته .
ومن الواضح ان صموئيل قد أخطأ عندما قال ان أحد الناس أخبره ان فيصلا كاد ينهار في محطة اللد عندما شاهد جنود الحرس ، اذ تبادر إلى ذهنه انهم ربما جاءوا لاعتقاله — (Memoirs : pp. 158-159.)

(٢) Report by Director of The Arab Bureau dated 25 Aug. 1920, F.O. 882/22. رافق فيصلا في رحلته هذه : اخوه زيد ونوري السعيد وساطع الحصري واحسان الجابري ومرافقه تحسين قدري ، وانضم اليه في اوروبا رستم حيدر وجبر ائيل حداد ، ولم يلبث زيد أن عاد إلى الحجاز .

ومذاكرات مهمة قد يربكها حضور فيصل ، كما ان لويد جورج قد لا يتمكن من استقبال فيصل اذا وصل إلى هناك . وهكذا اضطر فيصل أن يبقى في فندق قرب بحيرة كومو في شمالي ايطاليا يراقب الأحداث وينتظر ما ستمخض عنه من تطورات .

كان البريطانيون يخشون أن يتصل فيصل في سويسرة بممثلي الاتراك الكماليين ويتفق معهم على توحيد جهود العرب والاتراك ضدهم وضد الفرنسيين . ويبدو أن هذا هو ذاته ما كان يفكر به فيصل ، اذ ما عتم حين بلوغه الشاطيء الايطالي حتى أوفد ساطع الحصري وزير معارفه السابق إلى استانبول للاتصال بممثلي الكماليين والبحث معهم في امكانات العمل المشترك . وذهب ساطع الحصري إلى استانبول وبحث سراً فيما اذا كان الكماليون على استعداد لمعاونة العرب مقابل المساعدات الفعالة التي قدمها العرب للاتراك أثناء محاربتهم الفرنسيين عندما منعوا هؤلاء من استعمال خطوط المواصلات لنقل الجنود والذخائر إلى كيليكيا . ولكن الاتصالات التي أجراها ساطع في استانبول وبعدها في روما . لم تؤد إلى نتيجة ايجابية .[1]

أما فيصل فقد أعد مذكرة طويلة بسط فيها مراحل القضية العربية منذ بداية الاتصالات بين كتشنر والشريف حسين إلى ان استولى الفرنسيون على دمشق . وقال فيصل انه يرغب في الذهاب إلى لندن وانه يحمل تفويضاً من أبيه بتمثيله في القضية العربية . وقد حمل حداد باشا المذكرة إلى لندن حيث قدمها إلى المستر لويد جورج .[2]

واثناء اقامة فيصل في ايطاليا كتب إلى أبيه رسالة طويلة قال فيها ان الأسباب الأساسية للنكسة التي أصيب بها العرب تعود إلى :

---

(١) راجع التفاصيل : يوم ميسلون ، ص ص ١٧٨ – ٢٠٤ .

(٢) راجع الأجزاء التي نشرت من هذه المذكرة المؤرخة ١١ ايلول ١٩٢٠ في : امين سعيد ، المجلد الثالث ، ص ص ٢١١ – ٢٣٣ . ومما هو جدير بالملاحظة ان الدول الاوروبية لم تعترف باستقلال الدولة السورية ولا بملكية فيصل عليها ، لذلك نراه ورجال حاشيته يسافرون من مصر وهم يحملون جوازات سفر حجازية ، وكانت صفة فيصل الرسمية في اوروبا انه ممثل ملك الحجاز .

١ – تبدل السياسة البريطانية تبدلاً مجحفاً بحقوق العرب ، نتيجة لمطامع فرنسا في سورية ولمطامع الصهيونية في فلسطين .

٢ – عدم اجتماع الكلمة في البلاد العربية ، سهّل على الاجانب مهمتهم في تجزئة العرب .

٣ – اخفاق السوريين في وقوف الموقف الذي كان يُتوقع منهم ، وإفراطهم في القول وتقصيرهم في الفعل .

ومع أن فيصلاً أبدى تشككه في السياسة البريطانية الا انه نصح اباه بأن يثابر على مطالبة بريطانيا بالوفاء بعهودها دون أن يصارحها العداء ، لأنها تستطيع أن تلحق الأذى الكثير بالعرب اذا أعلن العرب عداءهم لها ، ولأنها سوف تكتشف إن عاجلاً او آجلاً ان مصلحتها تلتقي مع مصلحة العرب . ونصح فيصل أباه ان يصدّق معاهدة فرساي حتى يستطيع الحجاز أن يكون عضواً في عصبة الامم وحتى يستطيع هو من فوق منبرها أن يبسط القضايا العربية للرأي العام العالمي . وقال انه يمكن وضع قيد احترازي بشأن المادة ٢٢ القائلة بالانتداب . ولفت فيصل نظر أبيه إلى روسيا البلشفية وضرورة الاتصال بها والافادة من دعوتها الموجهة إلى مسلمي الشرق كي يطالبوا بحريتهم واستقلالهم [(١)] .

ولم يلبث فيصل ان تلقى دعوة الحكومة البريطانية لزيارة عاصمتها ، فغادر ايطاليا في أواخر تشرين الثاني عن طريق سويسرة والمانيا وبلجيكا (رفضت فرنسا أن تسمح له بالمرور من أراضيها) . وكان متفائلاً يومذاك بانتصارات الروس البلشفيك والاتراك . وفي لندن قابل فيصل الملك جورج الخامس ليشكر له الهدايا التي كان أرسلها إلى أبيه مع اللورد اللنبي . ورد الملك جورج شاكراً للملك حسين الحصانين اللذين أهداهما اليه وطالباً من فيصل أن يبرق لأبيه بشأن ايقاف الحركات العدائية ضد فرنسا في شرقي الاردن . [(٢)]

---

(١) الرسالة بتاريخ ١٠ تشرين الثاني ١٩٢٠ ، وقد بعث بها فيصل مع أخيه زيد – (أوراق الأمير زيد) .

(٢) برقية من فيصل إلى الملك حسين بتاريخ ٥ كانون الاول ١٩٢٠ –(أوراق الأمير زيد).

ان دعوة فيصل للمجيء إلى لندن لم تكن دعوة عرضية ، أو لشكر الملك جورج على الهدايا التي أرسلها للملك حسين ، كما قيل يومذاك في تبريرها . ذلك ان المسؤولين البريطانيين كانوا يبحثون مسألة قيام حكومة وطنية في العراق ، منذ أن شبّت الثورة العراقية العارمة في صيف ١٩٢٠ ، وكبّدت البريطانيين خسائر فادحة في الرجال والمعدات واضطرتهم في باديء الأمر إلى إخلاء جانب كبير من العراق الأوسط . حقاً لقد تمكن البريطانيون من اخماد الثورة في الخريف ، ولكنهم أيقنوا انها لن تلبث أن تشب ثانية اذا لم يستجيبوا لرغبات الأهلين المطالبين بقيام حكومة وطنية . ولما كانت الثورة العراقية — من نواح عدة — امتداداً للثورة العربية الكبرى ، فقد كان التفكير في البداية منصرفاً إلى الالتقاء مع المؤتمر العراقي الذي نادى في دمشق بالأمير عبد الله ملكاً على العراق . ولكن وزارة الهند التي كانت تتولى ادارة العراق لم تكن راغبة في التخلي عن حكم العراق المباشر وفي التعاون مع عائلة الشريف التي كانت يومذاك تمثّل المتطرفين العرب . ويجب الا يفوتنا هنا ان العراقيين منذ أواخر ١٩١٨ أرسلوا إلى فيصل عدداً من المضابط لكي يعرضها أمام مؤتمر السلم ، وهي تطالب « باستقلال البلاد تحت ملوكية أحد أنجال الحسين » . وقد قاومت الادارة البريطانية هذا الاتجاه أشدّ المقاومة حتى انها كانت « تزج في السجن من كان يتلفظ اسم فيصل أو الملك حسين .. »[1]

ولكن الثورة العراقية اضطرت غلاة الاستعماريين إلى تبديل وجهة نظرهم ، وبعد أن دخل الفرنسيون دمشق اتجهت الأنظار إلى فيصل فيما يتعلق بالعراق . وأسباب ذلك تعود إلى الاتصالات التي أجراها فيصل في

---

(١) راجع بهذا الشأن : محمد طاهر العمري ، تاريخ مقدرات العراق السياسية ، المجلد الثالث ، ١٩٢٥ ص ص ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٥٧ ، و ١٠٠ .
وفي أواخر آذار ١٩٢٠ أبلغ نوري السعيد أحد المسؤولين في وزارة الخارجية البريطانية ان العراقيين في بغداد والموصل أنابوا عنهم ستة أشخاص فيما يتعلق بالعراق .
وهؤلاء الأشخاص هم : فيصل ، جعفر العسكري ، ناجي السويدي ، مولود مخلص ، ياسين الهاشمي ، علي جودت .

اوروبا وإلى شعور فريق قوي من السياسيين البريطانيين ان حكومتهم شاركت الحكومة الفرنسية في جريرة القضاء على دولة فيصل السورية.
وكان فيصل من بين كبار قادة العرب، هو الوحيد الذي ظل على اتصال مباشر بالمسؤولين البريطانيين في مصر وسورية منذ احتلال العقبة في منتصف ١٩١٧ وحتى دخول غورو دمشق ، وقد حظي خلال ذلك كله باحترام كل من اتصل به .
وجاءت المبادرة الاولى من آرنولد ولسون الحاكم المدني في العراق بينما كان فيصل ما يزال في درعا . فقد أبرق هذا إلى وزير الهند متسائلاً عما اذا كان « يمكن لحكومة جلالته أن تنظر في احتمال عرض « امارة العراق » على فيصل . [١]
وفي ٨ آب ١٩٢٠ فاتح اللورد كرزون الحكومة الفرنسية فيما اذا كانت تعارض تنصيب فيصل في العراق [٢] وردت الحكومة الفرنسية بأنها « تعترض على ذلك كل الاعتراض » ثم قدمت إلى كرزون في ١٧ آب مذكرة توضح أسباب اعتراضها . [٣] وخشي بعض الساسة البريطانيين ان استياء الفرنسيين من تقديم عرض العراق إلى فيصل يمكن أن يدفع الحكومة الفرنسية إلى تنصيب الامير سعيد الجزائري في سورية ، وهو الذي عُرف بعدائه لبريطانيا . [٤]
وكان من جملة اعتراضات الفرنسيين على فيصل انه « سيصبح مصدراً للخطر على مركزهم في سورية » فحثوا الحكومة البريطانية على عدم تشجيعه وأن لا تسمح له بالذهاب إلى انكلترا . وقد ادعى الفرنسيون في مذكرة رسمية ان فيصلاً « أثناء الفترة التي قضاها على رأس الحكم في دمشق ، طلب في السر من الحكومة الفرنسية أن تتعاون

---

(١) Tel. No. 9249 of 31 July 1920, B.D. XIII, pp. 323-4.

(٢) المجلد الثامن من الوثائق البريطانية (السلسلة الاولى) ص ص ٧١٦ – ٧٢٢ .

(٣) Record by Sir E. Crowe of a conversation with the French Charge d'Affairs, 10 Aug. 1920, B.D. XIII, pp. 336-7.

(٤) Derby to Curzon, Tel. No. 963, 12 Aug. 1920, Ibid., p. 338.

معه في العمل ضد الاحتلال الانكليزي للعراق » .[1]

وعادت الحكومة البريطانية في أواخر ايلول تفاتح الحكومة الفرنسية بشأن فيصل محتجةً بأن مجيئه إلى انكلترا أفضل من بقائه في ايطاليا حيث يمكن أن يجري اتصالات مع الاتراك او الطليان تلحق الضرر بالمصالح البريطانية والفرنسية[2] . وردّت الحكومة الفرنسية مكررة اعتراضها على زيارة فيصل لانكلترا ، بحجة ان زيارةً كهذه ستخلق سوء تفاهم عميق بين البلدين .[3]

وأخيراً صمم كرزون أن يتجاوز اعتراضات الفرنسيين ، فدعا فيصلاً في ١١ تشرين الثاني إلى زيارة لندن . وأبلغ في اليوم ذاته السفير الفرنسي دعوة فيصل قائلا انه أخرّها أطول مدة ممكنة مجاملةً لفرنسا ، وان الملك حسين كان طوال المدة يصر على أن يقوم فيصل بزيارة الملك جورج ، وانه من المحتمل ان تجري بعد ذلك مباحثات بين الحكومة البريطانية وفيصل حول جوانب معيّنة من القضية العربية ، على أن لا تشمل تلك المباحثات موضوع سورية « لأننا نعتبر ذلك أمراً مفروغاً منه بعد قرارات مؤتمر سان ريمو » .[4]

وعلى الرغم من ذلك فقد استمرت فرنسا في معارضتها لأي تقارب بين العرب وبريطانيا . وقد تحدث غورو في اوائل كانون الاول بمرارة شديدة ضد فيصل وقال انه « كان قد اجتمع به اجتماعاً طويلاً عرض عليه خلاله ان يطرد الانكليز من فلسطين والموصل اذا تمّ تزويده بالسلاح والمال . بل انه عرض أن يأتي الفرنسيون وراء القوات العربية

---

(١) Record by Lord Hardinge of a conversation with the French Charge d'Affairs, 30 Aug. 1920, Ibid., pp. 344-5.

(٢) Record by Lord Hardinge of a conversation with the French Ambassador, 23 Sep. 1920, Ibid., p. 348.

(٣) Note from the French Charge d'Affairs to Earl Curzon, 9 Oct. 1920, Ibid., pp. 355-6.

(٤) Curzon to Derby, Letter No. 3724 of 16 Nov. 1920, Ibid., pp. 388-390.

عندما تنجح في طرد القوات الانكليزية » . [1] ولكن لورد كرزون لم يشأ ان يصدّق اتهام غورو هذا ، وعزاه إلى سوء الترجمة بينه وبين فيصل . [2]

اما فيصل فقد شعر ان اقامته في لندن قد تطول فأستأجر منزلاً لاقامته وأفراد حاشيته ، وطلب من ابيه تفويضاً بفتح باب المفاوضات مع الحكومة البريطانية . ولم يلبث ان تلقى التفويض المطلوب ، فعقد بينه وبين السير جون تيللي محادثة يوم ٢٣ كانون الأول ١٩٢٠ طلب تيللي خلالها عقد اتفاقية بين الحكومة البريطانية والحجاز تحل محل « المعاهدات والمواثيق التي كانت عقدت قبل الحرب بين حكومة جلالته والحكومة التركية » . وطالب فيصل بالوفاء بالعهود التي قطعتها بريطانيا للملك حسين وتقدير موقفه في نظر العالم الاسلامي . وقال تيللي ان بريطانيا تسير نحو الوفاء بالوعود وهي تقوم الان بتأسيس حكومة عربية في العراق . وقال فيصل ان هذا لا يكفي وان العرب يريدون انشاء « المملكة العربية » التي اعترفت بها بريطانيا في رسالة مكماهون المؤرخة ١٤ كانون الاول ١٩١٥ . وعندما ناقشه تيللي في صحة هذه العبارة قال فيصل انه يفضل ان لا يقف موقف المتمسك بنص عبارة بعينها ، ولكنه يطلب المحافظة « على الروح العامة للتعهدات البريطانية » . [3]

ودارت بين اللورد كرزون وفيصل يوم ١٣ كانون الثاني ١٩٢١ محادثة حول الخلاف المستحكم بين الملك حسين وابن السعود قال كرزون خلالها ان الملك لو صدّق معاهدة فرساي لأصبح عضواً في عصبة الامم وحصل على مساعدة تلك المنظمة ، وقال كرزون ايضاً انه يحاول منذ

---

(١) Harding to Curzon, Letter No. 3686 of 12 D.C. 1920, Ibid., pp. 414-5.

(٢) Curzon to Hardinge, private letter of 20 Dec., 1920; Ibid., p. 418.

(٣) نص المحادثة في Ibid., pp. 422-4. وقد حضرها من الجانب البريطاني يونغ وكورنوالس وحضرها من الجانب العربي جبرائيل حداد ورستم حيدر .

ثلاث سنين ان يجمع بين الزعيمين ولكن محاولاته باءت بالاخفاق ولذلك فهو يستغرب القاء المسؤولية على عاتق بريطانيا . وهنا قال فيصل انه مستعد للاجتماع بابن السعود نيابة عن والده ، وهو واثق من انه سيتوصل إلى حل مشاكل الحدود بين نجد والحجاز .(١)

وفي ٢٠ كانون الثاني ١٩٢١ جرت محادثة بين فيصل والمستر لندسي (نائباً عن اللورد كرزون) ، قال فيصل في أثنائها ان اباه يصرّ على ان فلسطين والمدن السورية الاربع داخلة في التعهد الذي قطعته له بريطانيا « وان العرب اعتبروا دائماً أن فلسطين وداخلية سورية مشمولة بالعهود التي أعطاها السير هنري مكماهون » . وعندما اعتذر لندسي بأنه لا يملك صلاحية لبحث موضوع سورية ، قال فيصل أنه يفهم هذا ولكنه يريد التأكيد بأن المراسلات الأساسية لم تتضمن شيئاً يعني اخراج فلسطين من الحدود العربية ، وان اباه فهم ان الاستثناء شمل المنطقة الواقعة إلى الغرب من المدن الاربع فقط ، وان فلسطين لا تقع إلى الغرب من هذه المدن،وانها في رأيه مشمولة بالتعهد البريطاني. واعتذر لندسي بان الصعوبة في اجراء محادثات مع الملك حسين ناشئة عن عدم تصديق الملك حسين معاهدة فرساي . وردّ فيصل على هذا بأن اباه لا يستطيع التصديق على معاهدة تتضمن مبدأ الانتداب وتجزئة البلاد التي حارب العرب من أجلها وماتوا في سبيلها .(٢)

وخلال كانون الثاني ١٩٢١ قرر مجلس الوزراء البريطاني ان تُحال إلى عهدة وزارة المستعمرات مسؤولية الاقطار العربية الخاضعة للانتداب البريطاني او المرتبطة مع بريطانيا بمعاهدات ، بدل ان تظل تحت مسؤولية

---

(١) نص المحادثة كما سجلها كرزون في الملف .F.O. 686/74

(٢) تقرير عن المحادثة في الملف F.O. 686/74 وقد حضرها رستم حيدر وجبرائيل حداد من الجانب العربي ، ويونج وكورنوالس من الجانب البريطاني . ومن الغريب ان ونستون تشرشل ادعى في ١١ تموز ١٩٢٢ ، وهو يرد على سؤال في مجلس العموم ، ان الحكومة البريطانية سمعت لأول مرة بادعاء العرب ان فلسطين داخلة ضمن منطقة الاستقلال التي تعهدت بها في مراسلات مكماهون ، وذلك على لسان فيصل أثناء اجتماعه مع المستر لندسي .

وزارات الخارجية والهند والحربية . وأنشئت لهذه الغاية دائرة جديدة أطلق عليها اسم (دائرة الشرق الاوسط) . وحدث تعديل في وزارة لويد جورج ترك بموجبه ونستون تشرشل وزارة الحربية وتولى وزارة المستعمرات . « اما المهمة الضخمة التي أخذها المستر تشرشل على عاتقه ، فقد تضمنت تصفية الموقف المضطرب في الشرق الاوسط ، وتخفيض النفقات ، والمحافظـة على المصالح البريطـانية والوفاء بالتزامـات بريطانيا .... »[1] . وكانت المشكلة الكبرى التي تواجه تشرشل هي مشكلة العراق . وعندما عقد تشرشل اجتماعاً لاعضاء الدائرة الجديدة « أجمع رأي الحاضرين على ان أفضل حل هو أن يصبح فيصل حاكماً على العراق اذا ما قبلته البلاد » .[2]

هذه التحولات في لندن بعثت التفاؤل في نفس فيصل الذي كان متشائماً من سياسة اللورد كرزون وما أصاب القضية العربية في عهده من جمود ونكسات . وقد كتب فيصل اثناء ذلك بضع رسائل لابيه وأخيه زيد يبسط فيها وجهات نظره. ونرى من احدى تلك الرسائل ان اتصالات خاصة كانت تدور بين فيصل وبين من كان يتصل به من الانكليز حول انشاء حكم وطني في العراق وفي شرقي الاردن « اما فلسطين فسيوجد لها حل مرضٍ للجميع » بينما يؤجل البحث في موضوع سورية. وكان رأي فيصل « اننا نأخذ ما يمكننا أخذه وانتظار الغد والليالي حبالى... ولكن نحن نقبل صورة هذا الحل مؤقتاً وبعد ان نستحوذ على هذا القسم نطالب بالآخر . ومثل ما قال المثل العربي جرادة في اليد ولا عشر طائرات » .[3] وقال فيصل في رسالة ثانية ان المباحثات الخاصة تدور حول « أخذ الحقوق اللازمة في فلسطين وترك دمشق وما جاورها مؤقتاً

---

(١) Sir Reader Bullard, *The Camels Must Go*, Faber & Faber, London, 1961, p. 117.

وقد ضمت الدائرة الجديدة عدداً من ذوي الخبرة بالبلاد العربية من مثل لورنس ويونغ وكورنوالس وبولارد وماينرتزهاجن .

(٢) Ibid.

(٣) رسالة فيصل إلى زيد بتاريخ ١٩ كانون الثاني ١٩٢١ – (أوراق الأمير زيد) .

لما بعد » . وقال ان الوضع يبدو له في حقائقه الأساسية على الوجه التالي :
١ — لا يمكننا اجبار انكلترا على تطبيق عهدها حرفاً بحرف .
٢ — لا يمكننا ان نتخلى عن تراث أجدادنا ونفوّض انكلترا به كي تعين له من تريد .
٣ — لا يمكننا ان نحاربها وأن نأخذ منها حقنا بالسيف ...

وخلص فيصل إلى القول « ان الواجب يقضي بان لا نترك الكل لاننا لم نحصل على الكل » . وبهذا كان فيصل يناقش نظرية ابيه القائمة على المطالبة باستقلال البلاد العربية ووحدتها وإلاّ فهو يتخلى عن مقامه . وكان رأي فيصل ان بريطانيا لا تستطيع اخراج فرنسا من سورية ، ولكن فرنسا ستضطر إلى التخلي عن خطتها الاستعمارية اذا شاهدت العرب في الأقطار المجاورة يؤسسون حكومات مستقرة ناجحة .(١)

ويحدثنا اللورد ونترتون عن اجتماع عقد ذات ليلة في منزله ودار فيه نقاش استمر حتى الثانية بعد منتصف الليل . كانت الحكومة البريطانية ترغب ان تعرض عرش العراق على فيصل ، ولكن لويد جورج وكرزون لم يريدا مفــاتحة فيصل بصورة مباشرة . وهكذا طلب لويد جورج من ونترتون ان يباحث الامير في الموضوع ويقنعه بقبول العرض . ودعا ونترتون فيصلاً وحداد باشا إلى منزله ودعا لورنس واورمسبي غور ووالتر جنيس ايضاً « وبعد ساعات طويلة من البحث وافق فيصل على ان يصبح ملكاً على العراق ... ولم يكن اقنــاعه بالامر السهل . كان يشعر بمرارة شديدة تجاه المعاملة التي عومل بها من قبل البريطانيين والفرنسيين ، وقد صدرت عنه ملاحظات جارحة حول السجايــا البريطانية عموماً ... »(٢) وكان من جملة اسباب تردد فيصل عدم رغبته في احتلال منصب رُشّح له سابقاً اخوه عبدالله .

---

(١) رسالة فيصل إلى زيد بتاريخ ٢٥ كانون الثاني ١٩٢١ — (أوراق الأمير زيد) .
(٢) A.H. Brodrick, *Near to Greatness*, Hutchinson & Co. Ltd., 1965, p. 19. وكان ونترتون يعتبر من أصدقاء العرب وقد انضم إلى الجيش العربي في آب ١٩١٨ . أما والتر جنيس فهو لورد موين ذاته الذي اغتاله الصهيونيون سنة ١٩٤٤.

وقد جرى بحث موضوع فيصل وسورية في الاجتماع الذي عقده مؤتمر الحلفاء (بريطانيا وفرنسا وايطاليا واليابان) يوم ٢٢ شباط في لندن . وكان فيصل قد بعث في اليوم السابق برسالة إلى لويد جورج يطلب فيها حضور جلسات المؤتمر التي سيحضرها وفد تركي ، حتى يعرض النقاط التي تجاهلتها معاهدة سيفر وهي المعاهدة التي قال فيصل ان اباه لم يوقعها لاعتقاده « انها لا تحقق مطامح العرب ولا تعزز السلم في الشرق الاوسط » . وعرض لويد جورج رسالة فيصل على المؤتمر وقال انه يرى دعوة فيصل للمثول أمام المؤتمر وعرض القضية العربية . ولكن بريان رئيس وزراء فرنسا اعترض على دعوة فيصل بحجة انه غدر بالفرنسيين في سورية«وهو مسؤول مباشرة عن سفك دماء الجنود الفرنسيين » . وقال ان الممثلين الفرنسيين لا يستطيعون الجلوس مع فيصل في غرفة واحدة ، وان الرأي العام الفرنسي لا يقبل مطلقاً ان يلتقي هو بفيصل وجهاً لوجه بعد كل ما حدث . وقال لويد جورج « ان فيصلاً اثناء الحرب كلها كان الحليف الثابت المكين للبريطانيين ، ومن المحتمل ان الجنرال اللنبي لولا فيصل ما كان يستطيع ان يحرز ذلك الانتصار الباهر الذي أحرزه ، ولولا فيصل ربما لم يكن ذلك الانتصار تاماً بكل ما أدى اليه من نتائج كان من جملتها احتلال الفرنسيين لسورية » . ورد بريان بانه لا يعترض على تسوية المسألة العربية ولكنه يعترض على فيصل شخصياً . وعندئذ تم الاتفاق ان يحضر حداد باشا امام المؤتمر بدلا من فيصل .

وفي ١٠ آذار مثل حداد أمام الوفدين البريطاني والفرنسي ، وألقى بياناً باسم فيصل قال فيه ان العرب حاربوا إلى جانب الحلفاء لتحقيق الوحدة والاستقلال ، ولكن بعد انتهاء الحرب تبينوا انهم لم يكسبوا الاستقلال وخسروا الوحدة النوعية التي كانوا يتمتعون بها ، وانه اذا لم يتحقق للعرب هدفا الوحدة والاستقلال فلن يتوطد السلم في بلاد العرب . وقدم حداد مذكرة ايضاحية جاء فيها ان الملك حسين يرفض تصديق معاهدتي فرساي وسيفر لما تضمنتاه من شروط الانتداب .

وقدّرت المذكرة القوات البريطانية والفرنسية المرابطة في العراق وسورية وفلسطين ب ٤٣٠ الفاً ، قالت انها تعمل على إخضاع شعب صغير لا يزيد كثيراً على خمسة ملايين نسمة.

ثم دار نقاش طويل بين بريان وحداد ، ومما قاله بريان ان فرنسا اضطرت ان تحشد قواتها في جميع انحاء سورية عندما كان فيصل فيها ، اما بعد ذهابه فلم تعد ضرورة لذلك . وقال ان عبدالله يثير المتاعب ضد فرنسا . بينما حاول حداد اقناعه بخطل السياسة التي تتبعها فرنسا في سورية . (١)

وكتب فيصل لابيه في ١ آذار يقول انه تمّ الاتفاق مبدئياً على تأسيس حكومة عربية مستقلة في كل من العراق وجنوبي سورية ، مع رفع الانتداب عنهما . اما سورية فيُترك أمرها للمستقبل حتى تضطر فرنسا إلى تبديل سياستها الراهنة ، خصوصاً ، وان السوريين أنفسهم « لا يصبرون على ما يتتابهم من الحيف والضيم بعد ان يروا تقلص ظـل الاستعمار عن اخوانهم المحيطين بهم من كل جانب » . وقال انه فكّر في ترشيح زيد للقسم الجنوبي من سورية لعل فرنسا توافق على الوحدة السورية ، ولكنه لم يلبث ان تحقق ان عداء فرنسا لزيد لا يقل عن عدائها له . (٢)

وفي اليوم ذاته كتب فيصل لاخيه زيد يقول ان مؤتمر القاهرة سيتخذ القرارات التي تمّ الاتفاق عليها معه في لندن ، وانه متى تم تأسيس الحكومة العربية في شرقي الاردن « فالوصول إلى دمشق وما وراءها من أسهل الامور بعد أن تتأسس الحكومة في بغداد » (٣)

وقد اشترط فيصل على البريطانيين شرطين اساسيين في موضوع العراق:

---

(١) B.D. Vol. XV, pp. 160-167 and 396-402. وتجد النص العربي في أمين سعيد، المجلد الثاني (٢) ، ص ص ٨٨ — ٩٢ . وكان جبرائيل حداد يجيد اللغتين الفرنسية والانكليزية ، ووصفه لويد جورج بأنه « رجل كفي جداً . »

(٢) أوراق الأمير زيد .

(٣) المصدر السابق .

١ ـــ انه لا يعترف بالانتداب ، ولكنه يعقد معهم معاهدة تضمن لهم مصالحهم الأساسية دون ان تمس سيادة البلاد وكرامتها .

٢ ـــ انه لا يذهب إلى العراق إلا اذا طلبه العراقيون ، ولا يتولى عرش العراق الا اذا جرى تصويت عام يظهر اتفاق رأي الشعب على ملكيته .[(١)]

وقبل مغادرة فيصل لندن قام يوم ٣١ آذار ١٩٢١ بزيارة وزارة الخارجية حيث جرى حديث بينه وبين المستر لندسي حول التعاون بين بريطانيا والعرب . وقيل لفيصل انه خيرٌ لوالدك ان يكفَّ عن الشكوى . اما فيصل فقال ان الفرنسيين أرادوا ان يكون وضعه في سورية مثل وضع باي تونس ، ولكنه لم يرد ان يتخلى عن قضية قومه كي يؤمّن لنفسه مرتباً جيداً دون ان يؤدي عملاً .[(٢)]

وعندما قام السفير الفرنسي في لندن بزيارة اللورد كرزون يوم ٢٣ آذار ١٩٢١ متسائلاً عن حقيقة الاشاعات القائلة بان فيصلاً سيصبح ملكاً على العراق وان عبدالله سيغدو أميراً على شرقي الاردن ـــ ردَّ عليه كرزون قائلاً ان عبدالله لم يأت « بتحريض منا او بعلمنا ، وقد كرّسنا جميع جهودنا منذ وصوله لمنعه من القيام بأعمال العداء ضد الفرنسيين ... لقد ضغطنا أشد الضغط على الملك حسين ، عن طريق فيصل ، كي يوقف اية نشاطات من هذا النوع ... انني لا أعرف هل يوافق عبدالله على ان يصبح اميراً في شرقي الاردن او ما هي أطماعه . وبما انه هناك الان فقد يكون من العسير التخلص منه .. » وكرّر السفير اعتراضاته على فيصل قائلاً انه لم يتآمر على الفرنسيين وحدهم بل تآمر ضد الانكليز ايضاً « لقد عرض في محادثاته مع الجنرال غورو ان ينحاز إلى جانب الفرنسيين ضد البريطانيين ، وأن يعطي الفرنسيين مقابل مساعدتهم له امتيازاً باستثمار نفط الموصل». وعندما قال كرو ان غورو ربما يكون

---

(١) ساطع الحصري ، يوم ميسلون ، ص ص ١٩٧ ـــ ١٩٨ .

(٢) رسالة من وزارة الخارجية البريطانية إلى وزارة المستعمرات بتاريخ ٦ نيسان ١٩٢١ ـــ (الملف F.O. 686/74) .

أخطأ في فهم اقوال فيصل ، ردّ السفير قائلاً ان الحديث بينهما كان باللغة الفرنسية التي يعرفها فيصل معرفة جيدة . وقال كرزون ان بريطانيا تواجه في العراق مصاعب كبيرة كتلك التي واجهتها فرنسا في كيليكيا وسورية ، ولذلك تعتزم بريطانيا اعطاء الفرصة للعراقيين لانشاء حكومة لهم ، وسوف تقبل الشخص الذي يقع اختيارهم عليه .(١)

وعاد السفير الفرنسي في ٦ نيسان ١٩٢١ يكرّر اعتراضاته على عبدالله وفيصل قائلاً ان الفرنسيين سيعتقدون ان بريطانيا ساعدت خصمنيهم لأنهما عدوا فرنسا ، وان الفرنسيين لن يغتفروا لفيصل انه سفك دماء الفرنسيين . وردّ كرزون بان بريطانيا لا تستطيع ان ترفض فيصلاً اذا اختاره العراقيون ، وانها فعلت كل ما بوسعها حتى لا يلحق اي ـرر بالمصالح الفرنسية .(٢)

الحل الوسط : لم يمض على معركة ميسلون شهر واحد حتى بلغت الملك حسين انباء مبالغ فيها عما يحدث في سورية . فقد فتك أهل حوران بعلاء الدين الدروبي رئيس وزراء سورية وعبد الرحمن اليوسف رئيس مجلس الشورى ، عقاباً لهما على تعاونهما مع الفرنسيين . واستعدّ الحوارنة للمقاومة وتنادى أهل شرقي الاردن لمؤازرتهم ، وأبرق هؤلاء واولئك إلى الملك حسين يقولون ان سورية على استعداد لمواصلة الكفاح ضد الفرنسيين ويناشدونه المساعدة وأن يرسل واحداً من ابنائه كي يقود جموعهم .

وكان رئيس وزراء سورية قد أصدر يوم ١٠ آب بلاغاً إلى جميع الحكّام الاداريين – ومن جملتهم حكام شرقي الاردن– يبلغهم قبول الانتداب الفرنسي . فما كان من قائمقام معان الا ان رفع العلم الفرنسي على دار الحكومة ، ولكن الشيخ عودة ابو تايه نزع العلم الفرنسي وأعاد

---

(١) Curzon to Hardinge, letter no. 887 of 23 March 1921, F.O. 686/74.

(٢) Curzon to Hardinge, letter no. 990 of 6 April 1921, F.O. 686/85.

العلم العربي مكانه وزجّ بالقائمقام في السجن ، وأبرق للملك حسين يطلب المؤازرة .[1]

وزحفت حملة فرنسية في أواخر آب على حوران فتغلبت على مقاومة أهلها ، ولكنها لم تتقدم إلى شرقي الاردن التي جعلتها قرارات سان ريمو خاضعة للانتداب البريطاني .

وقد ابرق اللورد كرزون في ٦ آب ١٩٢٠ يبلغ صموئيل أن سياسة الحكومة البريطانية تجاه شرقي الاردن « تقضي ان تكون مستقلة على أن ترتبط بأوثق الروابط مع فلسطين ». وكان من الواضح ان كرزون فكرّ بنوع الادارة في شرقي الاردن منذ ذلك الحين ، اذ سأل صموئيل في برقيته « اين الامير زيد الان ؟ هل هناك أي احتمال بان يُقبل أميراً على المنطقة الواقعة بين فلسطين والحجاز إلى الجنوب من خط سايكس ـ بيكو ؟ »[2]

وردّ صموئيل يوصي باحتلال شرقي الاردن عسكرياً ويقول إن أهلها يرغبون في الاحتلال الذي « يمكن تحقيقه دون خوض معارك قتال ويمكن الاستمرار فيه دون نفقات اضافية ». وقال ان زيدا في حيفا وأن الشيوخ والقبائل غير راضين عن حكومة شريفية .[3]

لم يكتف صموئيل بهذه البرقية التي تكشف مقاصده الصهيونية بل اتبعها بالبرقية التالية إلى اللورد كرزون :

شخصي وخاص ـ عاجل جداً .

« اسمح لي ان اوجه اليك وإلى رئيس الوزراء هذه الرسالة الشخصية .

« انني مقتنع كل الاقتناع اننا سنرتكب خطأ كبيراً في سياستنا اذا

---

(١) راجع بهذا الشأن : جريدة القبلة العدد ٤٧٠ تاريخ ٢٨ آذار ١٩٢١ ؛ والاعلام لخير الدين الزركلي ، الجزء الرابع ، ص ٢١٢ ؛ وتاريخ الاردن في القرن العشرين ، ص ص ٩٢ – ٩٣ و ٩٩ – ١٠٠ ؛ وبرقية من الملك حسين إلى المندوب السامي في مصر بتاريخ ١٥ ايلول ١٩٢٠ في F.O. 686/63.

(٢) Tel. No. 70; B.D., XIII, p. 331.

(٣) Tel. No. 179 of 7 Aug. 1920, Ibid., pp. 333-4.

نحن لم نعمد الان إلى دمج شرقي الاردن بفلسطين . اذا لم نفعل ذلك فمن المؤكد ان تكون النتيجة سيادة الفوضى أو سيطرة الفرنسيين عبر الحدود. كلا الامرين سيؤدي إلى كارثة ويحوجنا لحشد حامية أكبر هنا وتكبد نفقات أكثر . لا يمكن أن أنصح الحكومة بان تشرع في مجازفة حربية . ليس هذا ما سيحدث . هل يمكن للحكومة ان توافق على الاحتلال اذا كان هناك طلب اختياري ورسمي وعلني من شيوخ جميع القبائل والمناطق المعنية ؟ »[١]

ولكن كرزون ردّ قائلاً ان الحكومةالبريطانية تعارض في احتلال شرقي الاردن احتلالاً عسكرياً لأسباب سياسية وعسكرية ، وانه يجب الاكتفاء في الوقت الراهن بارسال عدد قليل من الضباط السياسيين بقصد «تشجيع الحكم الذاتي المحلي واعطاء المشورة التي يطلبها الأهلون »[٢]

وهكذا نجد هربرت صموئيل يبلغ فيصلاً وهو ما يزال في حيفا أن عدداً من شيوخ شرقي الاردن زاروه طالبين انشاء ادارة بريطانية ، وأن حكومته تميل إلى تعيين بعض الضباط البريطانيين لمساعدة أهل شرقي الاردن على تنظيم شؤونهم ، وأنه سيجتمع بعد ايام قلائل بزعماء البلاد للتشاور معهم .

وجاء صموئيل إلى السلط يوم ٢٠ آب واجتمع بكثيرين من زعماء شرقي الاردن ، وأبلغهم ان منطقتهم خاضعة للانتداب البريطاني ، وان حكومته لا تقصد الحاقها بادارة فلسطين بل تريد تأسيس ادارة منفردة تساعدهم على حكم أنفسهم . وعلى الأثر تألفت في كل من الكرك والسلط واربد حكومة محلية ، وأرسل صموئيل عدداً من الضباط البريطانيين لتقديم المشورة لهذه الحكومات . اما منطقة معان — العقبة، فقد بقيت تابعة للحجاز كما كانت في العهد العثماني .

وبعد عودة صموئيل من السلط أبرق إلى كرزون يكرر اقتراحه بجعل شرقي الاردن تحت الادارة البريطانية قائلاً انه « يستحيل أن يكون

---

(١) Tel. No. 180 of 7 Aug. 1920, Ibid., p. 334.

(٢) Tel. No. 80 of 11 Aug. 1920, Ibid., pp. 337-8.

التصريح بطلب الادارة البريطانية أكثر وضوحاً وأن ينعقد الاجماع عليها بصورة أفضل مما حدث في الاجتماع ». [1] ولكن كرزون عاد يؤكد ما جاء في برقياته السابقة ، وانه « يجب أن لا يكون هناك أي تفكير بشأن انشاء اية ادارة بريطانية في تلك المنطقة .. » والاكتفاء بعدد قليل من الضباط السياسيين لمساعدة الادارة المحلية . [2]

كانت الحكومة البريطانية تريد أن تبرهن للعرب ولفرنسا انها تلتزم بمضمون عهدها للملك حسين وبمنطوق اتفاقية سايكس — بيكو ، وكلاهما ينص على تأليف ادارة مستقلة في شرقي الاردن . ومن هنا نرى كرزون يكتب في ٣٠ ايلول ان حكومته تحاول ان تتفادى ربط شرقي الاردن بفلسطين ، لكي تترك المجال مفتوحاً لانشاء نوع من الحكم العربي المستقل ، ربما يتم ترتيبه مع الملك حسين . [3]

ولكن بينما كان الفرنسيون يطلبون من الحكومة البريطانية ان تحتل منطقة شرقي الاردن بقواتها العسكرية حتى لا تصبح مصدراً لاثارة القلاقل ضدهم ، وبينما كان الصهيونيون يطالبون بتوسيع حدود فلسطين شرقاً حتى خط سكة حديد الحجاز ويعرضون خرائط تمتد فيها مشاريعهم إلى الشمال من دمشق ، كان الامير عبدالله بن الحسين يتقدم من الحجاز إلى معان .

لقد كان الملك حسين « كثير التفكير في أمر سورية وما صارت اليه أحوالها بعد رحيل فيصل عنها . ثم اختار عبدالله وأوعز اليه بالتهيؤ وأعلمه انه سيكون وكيل اخيه فيصل في ما حول سورية من الاراضي التي لم يحتلها الفرنسيون » . وكان الامير عبدالله يومذاك قد استقال من وزارة الخارجية ، وعندما وصلت إلى الملك حسين برقيات ورسائل الاستغاثة من سورية التي تضمنت الطلب اليه ان يرسل اليهم من ينوب

(١) Tel. No. 207 of 22 Aug. 1920, Ibid., pp. 342-3.

(٢) Tel. No. 110 of 26 Aug., 1920, Ibid., p. 344.

(٣) Curzon to Vansittart, letter No. 157, Ibid., pp. 349-352.

عن فيصل [1] استأذن الامير عبدالله أباه بتلبية الدعوة ، فأذن له وغادر مكة المكرمة يوم ١ تشرين الاول وتوجه إلى المدينة المنورة ومنها بالخط الحديدي إلى معان ومعه قوة صغيرة فبلغها في ٢١ تشرين الثاني ١٩٢٠ [2]

وصل الامير عبدالله إلى معان — وكانت تابعة للحجاز يومذاك — فتوافد عليها عدد من أحرار السوريين الذين غادروا سورية بعد الاحتلال الفرنسي كما جاءها عدد من زعماء شرقي الاردن وشيوخ قبائلها . وبعد وصوله باسبوعين أصدر منشوراً قال فيه انه جاء بعد ان « توالت علينا الدعوات وصمّت آذاننا الصرخات » لكي يشارك السوريين في قتال المعتدين الفرنسيين . ثم كتب الرسائل إلى زعماء سورية الجنوبية يقول لهم انه نائب ملك سورية ، ودعا اعضاء المؤتمر السوري للحضور إلى معان ، ودعا كذلك ضباط الجيش السوري وجنوده ، وفي نيته ان يؤلف حكومة منفى وأن يباشر الحركات ضد الفرنسيين اذا التف حوله عدد كاف من المسلّحين. ولكن الاستجابة لم تكن مشجعة إلى المدى الكافي ، ولم يلبث الامير ان تبين « ان الحركة ان لم تكن مؤيدة بالمال ، فانها لا تقوم لها قائمة » [3] ولم يكن الامير يملك مالاً حتى انه اضطر ان يقترض ثلاثة الاف ليرة من عودة ابو تايه .

إن أنباء وصول الامير إلى معان جعلت الفرنسيين في سورية والانكليز في فلسطين يحسبون للأمر حسابه ويتخوفون من قيام فتن واضطرابات .

---

(١) خير الدين الزركلي ، ما رأيت وما سمعت ، المطبعة العربية ومكتبتها ، القاهرة ، ١٩٢٣ ، ص ٢٥ . وأنظر أيضا المخابرات في الملف .F.O. 686/26

(٢) كان المؤتمر العراقي الذي عقد في دمشق في آذار ١٩٢٠ قد نادى بالأمير عبد الله ملكاً على العراق ، وكانت وزارة الخارجية البريطانية قد قدمت بعد انتهاء الحرب مذكرة اقترحت فيها ترشيحه لعرش العراق في محاولة « للخروج من متاعبنا » ، ولكن مجمل رأي الحكومة البريطانية استقر على أن « المعارضة الرئيسية لترشيحه تكمن في الخطر الذي يتوقع أن ينجم اذا ما أنشئت دولة عربية في العراق ترتبط بعلاقات وثيقة مع الحجاز ومع الأمير فيصل». .Sir Lewis Mallet, Memo. dated 24 Dec. 1918 .CAB. 27/39

(٣) عبد الله بن الحسين ، مذكراتي ، ص ص ١٦٧ – ١٧٢ (المنشور مؤرخ في ٥ كانون الأول ١٩٢٠) .

ففي ٢٩ تشرين الثاني أبرق صموئيل ينبيء كرزون بوصول الامير إلى معان ، وفي اليوم التالي أبرق يقول ان « رسائل بالنيابة عن عبدالله أرسلت إلى حوران تدعو الاهلين إلى الثورة ضد الفرنسيين . وقد صدرت التعليمات لضباطي بأن يثنوا الناس في شرقي الاردن عن الانضمام لاية حركة من هذا النوع ، ولكن بما اننا لا نملك قوات عسكرية في المنطقة فاننا لا نستطيع القيام بعمل مؤثر ... » [١]

وأبلغت وزارة الخارجية فيصلاً مضمون برقية صموئيل وطلبت اليه الاتصال بابيه لايقاف الحركة . وفي ٤ كانون الاول طلب الملك جورج من فيصل عند استقباله له ان يطلب من ابيه « توقيف كل حركة ضد فرنسا في جنوبي سورية » . وعندما أبرق فيصل إلى ابيه بهذا الطلب أبلغه ايضاً ان « الوضعية حسنة جداً . قريباً ابشرّ جلالتكم ان شاء الله » وان ايقاف الحركات العدائية ضد الفرنسيين « مهم جداً بالنسبة للمفاوضات التي يمكن ان أجريها مع الحكومة البريطانية » . [٢]

ونشر في مدن شرقي الاردن بيان يقول ان الحكومة البريطانيـــة «سوف تشجب بكل شدة» اية حركة يقوم بها الجيش العربي ضد الافرنسيين [٣] . وحدثت اتصالات لاسلكية بين معان ومصطفى كمال ، وعلم صموئيل بذلك فبادر يبلغ كرزون ويحذّر من أن تكون وراء ذلك « خطط وتعليمات من البلشفيك » . [٤]

ومضى هربرت صموئيل يحرض اللورد كرزون على اتخاذ اجراء ما ضد الامير عبدالله ، خاصة بعد وصول طليعته الشريف علي الحارثي

---

(١) Tel. No. 401 of 30 Nov. 1920, F.O. 686/78.

(٢) برقيتا فيصل إلى الحسين بتاريخ ٥ و ١٣ كانون الأول ١٩٢٠ – (أوراق الأمير زيد) . وتجد ترجمة البرقية الثانية في Curzon to British Agent, Jeddah; Tel. No. 25, B.D. XIII, pp. 415-416.

(٣) Samuel to Curzon, Tel. No. 406 of 3 Dec. 1920, and Curzon to Hardinge, Tel. No. 3949 of 8 Dec. 1920, Ibid., pp. 408-9 and 412. ومذكرات الملك عبد الله ، ص ١٧٣ .

(٤) مذكرات الملك عبد الله ، ص ص ١٧١ – ١٧٢ و Tel. No. 419 of 8 Dec., 1920 F.O. 686/78.

إلى عمان ، ويحذّر من العواقب التي يمكن ان تنجم « اذا ما أعلن الامير حكومة شريفية » [١] ولكن كرزون ردّ عليه بان الملك حسين « يؤكد على عبد الله انه من غير المستحسن القيام بعمل ما ضد الحلفاء » . [٢]

ويعود موقف الحسين هذا إلى النتائج الايجابية التي كان يتوقعها من محادثات فيصل مع الحكومة البريطانية في لندن . وهدّد الفرنسيون بارسال حملة عسكرية إلى شرقي الاردن ، فطلب اللورد كرزون من الحكومة الفرنسية ان تعطي تعليمات للجنرال غورو « بأن يمتنع عن اتخاذ اي اجراء عسكري في منطقة نفوذنا الا اذا جاء الوقت الذي يعتبر فيه ان عملاً كهذا لا مفرّ منه ... » [٣] . وقام الصهيونيون في لندن بنشاط مماثل ، اذ قدم وايزمن في تلك الاثناء مذكرة إلى وزير المستعمرات يطلب فيها ادخال شرقي الاردن ضمن منطقة الوطن القومي اليهودي . [٤]

وقد قام الشريف الحارثي بنشاط واسع في عمان والسلط ، والتفّ حوله الوطنيون ، فهبطت هيبة الحكومة المحلية إلى الحضيض ، وبلغ التمرد ضد الانكليز حده الاقصى عندما احتجز مثقال الفايز كبير زعماء بني صخر الكابتن بيك قائد القوة السيارة مدة يومين .

وعقد الوطنيون اجتماعاً في عمان قرروا فيه دعوة الامير عبدالله للقدوم إلى تلك البلدة ، وذهب وفد منهم إلى معان ليوجه الدعوة . وبلغت الانباء صموئيل فاقترح في ١٠ شباط ١٩٢١ ان يسحب الضباط السياسيين من شرقي الاردن اذا ما تقدم الامير إلى معان ، بحجة ان قدومه يناقض روح الترتيبات التي تم التوصل اليها في لندن. وفي ٢٢ شباط كرر الاقتراح مرة اخرى . ولكن وزارة المستعمرات طلبت اليه ان لا يفعل شيئاً كهذا ، بل أن يوفد رونالد ستورس حاكم القدس كي يرحب

---

(١) Tel. No. 425 of 12 Dec. 1920, B.D. XIII, p. 413.

(٢) Tel. No. 302 of 15 Dec. 1920, Ibid., p. 416.

(٣) Curzon to Hardinge, Tel. No. 1308 of 19 Dec. 1920, Ibid., pp. 417-8.

(٤) C.O. 733/16/16836.

بالامير نيابة عن حكومة فلسطين . » وعندئذ يمكن لستورس ان يوضح ان حركة عبدالله سوف تلحق الضرر بقضية العرب » . [1]

وعندما طلب الضابط السياسي في الكرك تعليمات من هربرت صموئيل بشأن تقدم الامير المتوقع ، وماذا ينتظر منه ان يفعل ، جاءه الجواب « إنه من غير المحتمل ان يزحف الامير عبدالله إلى منطقة تخضع للسيطرة البريطانية ». [2]

وعندما اجتمع عوني عبد الهادي (الذي كان في طريقه من مصر إلى معان) بهربرت صموئيل يوم ١٢ شباط ١٩٢١ ، في محاولة من الاول للتعرف على آراء الحكومة البريطانية وللحصول – اذا أمكن – « على نوع من الموافقة على الحركة القائمة في شرقي الاردن ضد الفرنسيين » ، كان جواب هربرت صموئيل « ان حكومته تشجب الحركة ، وان الفرنسيين أقوياء يستطيعون صدّ أي هجوم يشنّه العرب عليهم ، وانه يقدم نصيحة ودية ان لا يمضوا أكثر مما مضوا حتى الان في تلك الحركة ». ثم طلب من عوني « ان ينصح الامير عبدالله باعادة الشريف الحارثي إلى معان قائلاً ان وجوده خلق الارتباك والتشويش في أذهان الناس ، وها هي القبائل أخذت تتمنع عن دفع الضرائب وأخذت هيبة الحكومات المحلية تتدهور ... » [3]

ولكن الامير عبدالله صمم على التقدم إلى عمان بعد ان استوثق من اجماع أهالي شرقي الاردن على الترحيب به . وهكذا غادر معان (٢٩ شباط) إلى عمان فبلغها يوم ٢ آذار ١٩٢١ . وفي يوم وصوله بالذات تلقى من هربرت صموئيل رسالة مؤداها ان المستر تشرشل يرغب ان يلتقي به « شريطة المحافظة على الهدوء في تلك الآونة » . وكان صموئيل قد تلقى الامر بهذا من وزارة الخارجية قبل ثلاثة ايام . [4]

---

(١) F.O. 371/6371/1868 & 2385.

(٢) Sir A.S. Kirkbride : A Crackle of Thorns, John Murray, London, 1956, p. 26.

(٣) رسالة صموئيل إلى كرزون ، رقم ٨٣ بتاريخ ١٢ شباط ١٩٢١ –(F.O. 371/6375.)

(٤) F.O. 371/6371/2587 and 3201.

)

كان للمؤتمر الذي عقد في القاهرة برئاسة المستر تشرشل أثر بعيد المدى في مستقبل أقطار الهلال الخصيب . فقد كرّس تجزئة سورية الطبيعية من جهة ، وعمل على الالتقاء مع العرب حول « حل وسط » في العراق وشرقي الاردن ، من جهة ثانية . وقد حقق المؤتمر نجاحاً باهراً للسياسة البريطانية اذ نتج عن قراراته تخفيض النفقات ووضع نقطة التقاء مع العرب وحفظ المصالح البريطانية . ومن الانصاف القول ان العرب حصلوا من المؤتمر على مكاسب لم يكن بمقدورهم الحصول على أفضل منها يومذاك .

دعا تشرشل إلى المؤتمر المندوبين الساميين في العراق وفلسطين بالاضافة إلى كبار المسؤولين المدنيين والعسكريين ، واصطحب تشرشل معه من لندن عدداً من كبار القادة العسكريين وموظفي دائرة الشرق الاوسط . وقد بدأ المؤتمر عقد اجتماعات متواصلة ابتداء من يوم ١٢ آذار ١٩٢١ . وفي ٢٣ آذار غادر تشرشل القاهرة إلى القدس لبحث القضايا المتعلقة بفلسطين وشرقي الاردن ، وعاد إلى بلاده في ٣٠ آذار .[(١)]

وكانت دائرة الشرق الاوسط قد أعدّت مذكرة قبل عقد المؤتمر جاء فيها بشأن العراق « اننا نعتبر اختيار حاكم عربي للعراق بمثابة تمهيد حيوي لتأسيس ظروف مرضية ذات صبغة دائمية في تلك البلاد... ونرى ان فيصلاً يجب ان يكون ذلك الحاكم ... »[(٢)] اما بشأن فلسطين وشرقي الاردن فقد قالت المذكرة ان الحكومة البريطانية تعهدت للشريف عام ١٩١٥ ان تعترف باستقلال العرب وتعاضده في ولاية دمشق في المناطق التي لا تلحق فيها الضرر بالمصالح الفرنسية « وبما ان نهر الاردن كان يمثل الحدود الغربية لولاية دمشق قبل الحرب ، فان فلسطين وشرقي الاردن ليسا في وضع متماثل » .

---

(١) بشأن تفاصيل أبحاث المؤتمر وقراراته راجع Report on Middle East Conference held in Cairo and Jerusalem, March 12 to 30, 1921, AIR. 8/37.

(٢) Ibid., p. 27.

وعن طريق هذا التفسير الكيفي الأعوج ، اقترحت المذكرة ايجاد طريقة لحكم شرقي الاردن – الخاضعة للانتداب البريطاني – بحيث تتفق مع مبدأ الاعتراف « باستقلال العرب ومعاضدته » .[1]

وعند بحث موضوع العراق استعرض المؤتمرون اسماء نقيب بغداد ، وطالب النقيب ، وخزعل خان شيخ المحمّرة ، وعبد العزيز بن السعود والاغاخان ، والامير التركي برهان الدين . وقد أجمع الرأي أن اياً من هؤلاء لا يمكن ان ينال رضى أكثرية الأهلين ، وانه لا يبقى الا اختيار أحد افراد اسرة الشريف ، الذي قال تشرشل انه يظن « ان أكثرية العراقيين سيرحّبون به » . وهكذا « قرر المؤتمر ان الظروف السياسية تقتضي ضرورة اختيار حاكم شريفي للعراق وان أفضل شخص يمكن اختياره هو الامير فيصل . وقد كان واضحاً تماماً ان حكومة جلالته لا تستطيع ترشيح فيصل ، ولكن يجب ان يتم اختياره من قبل أهل العراق » . وقال تشرشل ان جلسات المؤتمر أظهرت فائدة سياسة التعاون مع الاشراف « والواقع انه لم يكن هناك بديل آخر عن تلك السياسة » . وفيما يتعلق بالعراق على وجه التعيين « تمّ الاتفاق بالاجماع انه لا يوجد سبيل آخر » بدل سياسة التعاون مع الاشراف .[2]

وعندما بحث المؤتمر موضوع شرقي الاردن بحضور هربرت صموئيل (١٧ آذار) أبدى صموئيل رأيه بان لا تعتبر شرقي الاردن « دولة عربية مستقلة » . وقال ان المسألة الرئيسية العاجلة هي معالجة قضية الامير عبدالله الموجود في عمان والذي كان لا يزال يعتبر فيصلاً ملكاً على سورية (التي تضم شرقي الاردن) . وقال ايضاً انه لمن الضروري التنسيق بين السياسة الموالية للاشراف ومبدأ الانتداب ، وادعى ان شرقي الاردن أصبحت قاعدة الهياج ضد الفرنسيين ، وأن الامير أرسل رسائل إلى جميع الشيوخ فيها يحثهم على توحيد صفوفهم ضد الفرنسيين . وأبدى صموئيل تخوفه من عدم امكانات نجاح اية حكومة تستمد سلطتها من

---

(١) Ibid., p. 30.

(٢) Ibid., pp. 4, 39-40, 98.

أحد الاشراف ومن المندوب السامي على فلسطين . ولكن تشرشل قال « ان نفوذ عبدالله المعنوي ذو أهمية عظيمة » وانه لا يشاطر صموئيل مخاوفه . وقال لورنس انه من المحتمل ان تتبدل السياسة الفرنسية تجاه العرب وسورية، وانه سمع هذا من رسميين فرنسيين، وانه يمكن ان تجري ترتيبات بين الفرنسيين والامير عبد الله تؤدي به إلى ان يحكم في دمشق . وقال لورنس ان هناك ثلاثة احتمالات امام بريطانيا (١)ان يتم الاتفاق مع الامير عبدالله (٢)تعيين حاكم محلي يوافق عليه الامير على ان ينسحب هو من المنطقة (٣)ارسال حملة عسكرية لاخراج الامير . وأبدى رأيه بانه لا بد من ان يتعاون البريطانيون مع الامير ، لان اياً من الطرفين لا يملك وحده القوة الكافية للسيطرة على شرقي الاردن منفرداً عن الطرف الآخر . [١]

وبالنتيجة أوصى المؤتمر ان تصبح شرقي الاردن مقاطعة عربية من فلسطين يتولى ادارتها حاكم عربي يكون مسؤولا امام المندوب السامي . وبناء على هذا الافتراض أوصى المؤتمر باحتلال شرقي الاردن احتلالا عسكرياً في الحال ، على أساس انه بدون ذلك الاحتلال يصبح من المستحيل قيام حكومة ثابتة او ايقاف الحركات المعادية لفرنسا ... [٢]

واثناء المؤتمر تبادل تشرشل مع رئيس الوزراء البريطاني عددا من البرقيات . فقد أبرق تشرشل في ١٤ آذار يقول انه يبدو أن الرأي في المؤتمر سيكون بالاجماع إلى جانب اختيار فيصل . ورد لويد جورج بعد يومين ان الحكومة ترى من الضروري ان تأتي المبادأة بطلب فيصل من العراقيين« ولا شك انك تذكر اننا عندما جسسنا نبض فيصل في لندن بشأن موقفه الشخصي ، أوضح لنا بكل جلاء انه لن يرشح نفسه للعراق الا بعد انسحاب اخيه عبدالله من المطالبة بعرش العراق » . وأبرق تشرشل في ١٨ آذار يقول ان أحداً من المطالبين الآخرين بعرش العراق لا يقدم أملاً بانشاء حكومة عربية فعالة تستطيع ان تخفف من التزاماتنا

---

(١) Ibid., pp. 97, 98 & 100.

(٢) Ibid., p. 7.

العسكرية . فلو اختير ابن السعود لأغرق البلاد كلها في اضطراب مذهبي عنيف، اما السيد طالب فهو رجل ذو صفات غير حميدة ولا يمكن الوثوق به بينما يترنح نقيب بغداد على حافة القبر . وأضاف تشرشل يقول « لا يخامرنا أي شك ان النظام الشريفي يقدم فرصة أفضل بكثير من هؤلاء . بل ان ذلك النظام في الواقع هو السياسة الوحيدة التي يمكن ان تنجح » .[1]

اما الامير عبدالله فانه تمسك — خلال الفترة التي قضاها في عمان — بسياسة الانتظار لما ستتمخض عنه المحادثات السياسية ، وهي السياسة التي رأى فيصل والحسين اتباعها في تلك الفترة . ولكن الامير في الوقت نفسه لقي من التفاف الاهلين حوله ما جعله بصورة تلقائية السلطة العليا في شرقي الاردن كلها . ومن هنا نراه في الخطاب الذي ألقاه ثاني يوم وصوله إلى عمان حريصاً على عدم اظهار التطرف ، ورد على بعض الخطباء من الأحرار السوريين بقوله ان فيصل لا يزال يجاهد من أجل سورية ، « وآمالي اكيدة بانه لا يرجع خائباً ».اما عن نفسه فقد قال انه يدرك الواجب المترتب عليه وانه ما جاء به إلى هذه المنطقة الا حميته ووطنيته .[2]

وكتب الامير إلى صموئيل يقول انه جاء عمان بالنظر إلى اضطراب الاحوال في شرقي الاردن ودعوة الاهلين له ، من أجل منع الاخطار التي تهدد البلاد ، ولكنه يود ان ينتظر بهدوء نتائج المباحثات في لندن . ورد عليه صموئيل بأن الحكومة البريطانية ترغب ببقاء الاحوال هادئة في شرقي الاردن وتعزيز سلطة الحكومات المحلية، وانه يرجو ان لا يؤدي وجوده — عبدالله — إلى اعاقة تحقيق هذين الهدفين .[3] وقد طلب صموئيل من عوني عبد الهادي — الذي حمل رسالة الامير — ابلاغ الامير ضرورة عودته إلى الحجاز. وعندما أوضح عوني له ان هذا غير ممكن، طلب

---

(١) هذه البرقيات في الملف F.O. 686/85.

(٢) نص الخطاب في كتاب تاريخ الاردن في القرن العشرين ، ص ص ١٤٢ – ١٤٣ ، وأنظر أيضا Samuel to Churchill, tel. no. 12 of 6 March 1921, F.O. 686/78.

(٣) Samuel to Churchill, Tel. No. 32 of 10 March 1921, F.O. 686/78.

ان يحافظ الامير على الهدوء ريثما يصل تشرشل إلى الشرق الاوسط .

وتلقى الامير برقية من ابيه ان تشرشل في طريقه إلى الشرق الاوسط وانه « سيقابلك ويفاوضك » فبادر إلى ايفاد عوني عبد الهادي إلى مصر وحمّله رسالة إلى تشرشل قال فيها انه يتمنى ان يكون قدومه « جامعاً للفوائد التي أتمناها للعرب الذين برهنوا بما سفكوه من الدم الطاهر بجانب الحلفاء على ثقتهم بان بريطانيا العظمى سوف تأخذ بيدهم لانالتهم أمانيهم القومية » . وقال انه يود الاجتماع به لشرح الاماني العربية : وان العرب جميعهم مستاءون من تقسيم بلادهم إلى دويلات عديدة ووضعها تحت نير دولتي فرنسا وبريطانيا . وأضاف قائلاً « ان رغائب العرب يا فخامة الوزير ، كما ستحققونها بنفسكمُ هذه المرة . هي نيل الحرية والاستقلال في بلادهم السورية والفلسطينية والعراقية » [١] . وقدم عوني الرسالة إلى تشرشل في القاهرة فأجاب بانه يعتزم القدوم إلى القدس وسيتباحث مع الامير في المسائل التي تهم الطرفين . [٢]

ولم يلبث الامير ان تلقى رسالة من صموئيل يدعوه فيها إلى زيارة القدس والاجتماع بالوزير البريطاني . وجاء مارشال الجو سالمونـد والكولونيل لورنس لاستقباله ، فاجتمع بهما في السلط وقد لخص لورنس للامير ما سيقوله له تشرشل من ان الحكومة البريطانية تود ترشيح فيصل ملكاً على العراق . وعرض لورنس على الامير فكرة ان يبقى هو في شرقي الاردن للعمل « على ايجاد ادارة مدنية سالمة من أي عنف في مراميها السياسية... فابق واذا توفقت فستظفر بعد ستة اشهر بوحدة سورية ، وسنزورك في دمشق مهنئين ان شاء الله بتوفيقك لاصلاح ما خرب » [٣]

وفي القدس عقد المستر تشرشل والامير عبدالله ثلاثة اجتماعات رسمية حضرها هربرت صموئيل وديدس ولورنس ويونج من الجانب البريطاني

---

(١) أوراق عوني عبد الهادي — والرسالة مؤرخة في ١٥ آذار ١٩٢١ .
(٢) تاريخ الاردن في القرن العشرين ، ص ١٤٦ .
(٣) عبد الله بن الحسين : الأماني السياسية ، ص ص ٢٣ — ٢٤ .

وعوني عبد الهادي من الجانب العربي وقد عقدت الاجتماعات الثلاثة يومي ٢٨ و ٢٩ آذار .

بدأ تشرشل الحديث في الاجتماع الاول فقال انه يحاول انشاء سياسة جديدة تجاه الشرق الاوسط تعالج شؤون أقطاره باعتبارها وحدة واحدة، وانه يود العودة إلى السياسة البريطانية الاساسية القائمة على تعضيد القومية العربية عن طريق الأشراف . ولكنه يستثني سورية وفلسطين من نطاق هذه السياسة بسبب قرارات الحلفاء والوعود التي أعطيت لطرف ثالث .

ففي العراق يرشح بعض العراقيين الامير فيصل للعرش ، وسيلقى انتخابه موافقة الحكومة البريطانية لان ذلك يكون منسجماً مع تعهداتها لاهل البلاد . ولكن الحكومة البريطانية لا تريد ان تفرض فيصلاً او غيره على أهل العراق . وقد أبلغ فيصل بالسياسة المقترحة وهو الان في طريقه إلى جدة . ولا شك ان ترشيح فيصل سيصبح أكثر قوة اذا أذيع في العراق ان الامير عبدالله يؤيده . اما بشأن شرقي الاردن فقد أشار تشرشل إلى انتداب بريطانيا عليها ، وقال انه على الرغم من ان بريطانيا تعترف بصفتها العربية فانه يشعر انها صغيرة بحيث لا تستطيع ان تقف وحدها ، ولذلك يقترح ان تكون مقاطعة عربية مع فلسطين .

وردّ الامير عبدالله قائلاً انه يوافق على ترشيح فيصل لعرش العراق، وانه مبتهج بالسياسة التي تريد بريطانيا انتهاجها في تلك البلاد [1] . اما بشأن شرقي الاردن فانه يعتقد ان الحكومة البريطانية يمكن ان توافق على ان يتولى امير عربي شؤون فلسطين وشرقي الاردن معاً وتكون علاقته بالمندوب السامي في فلسطين مثل علاقة فيصل بالمندوب السامي في العراق ، وهو يعتقد ان المصاعب الراهنة بين العرب واليهود يمكن

---

(١) رد تشرشل على هذا بقوله «لقد وقف الأمير فيصل مثل هذا الموقف عند بحث الموضوع معه في لندن ، وقال انه لا يرغب مطلقا في الوقوف في طريق أخيه . وهو يرى أن موقف الأخوين دليل على شمم عظيم » . أما الأمير عبد الله فقد أبرق بتاريخ ١١ حزيران ١٩٢١ إلى عدد من الزعماء العراقيين قائلا « انني أعتبر أخي فيصل مثل نفسي ، ونحن متفقان كل الاتفاق ، وانسحابي ليس الا لخدمة مصالح جميع الأطراف».
F.O. 686/74

التغلب عليها بسهولة عن طريق هذه الخطة .

لم يوافق تشرشل على هذا الاقتراح ، فكررّه الامير مرة ثانية وثالثة ورابعة ، ولكن تشرشل أصرّ على ان بريطانيا يجب ان تتولى ادارة فلسطين بصورة مباشرة كي تنفذ التزاماتها بموجب صك الانتداب . وقد تساءل الامير عما تهدف اليه السياسة البريطانية : هل تريد ان تنشيء مملكة يهودية إلى الغرب من نهر الاردن وتطرد السكان العرب ؟ وقال ان قرارات الحلفاء التي يشير اليها تشرشل ليست فوق مستوى التحدي « ويبدو ان الحلفاء يعتقدون ان الناس يمكن ان يُقلعوا ويعاد غرسهم كالشجر » . وتدخل صموئيل هنا قائلاً انه لا يوجد قصد لقطع الاشجار او اعادة غرسها ، بل لغرس أشجار جديدة . وقال تشرشل ان وعد بلفور يتضمن التزامين أحدهما لليهود والآخر للعرب ، وان « حقوق السكان غير اليهود سيحافظ عليها تمام المحافظة » . واقترح الامير عندئذ ان تضم شرقي الاردن إلى العراق ، ولكن تشرشل عاد لشرح الوضع كما يبدو له فقال ان المواد المتعلقة بالصهيونية في صك الانتداب لن تطبق على شرقي الاردن ، وانه يتحمل مسؤولية عظيمة في سياسته هذه القائمة على التعاون مع الاشراف ، لان هناك من يعتقد ان السياسة المثلى هي تقسيم العرب إلى حكومات محلية منفصلة، وان الحكومة البريطانية ستتخذ قراراً خطيراً في القريب العاجل بشأن توحيد العرب او تقسيمهم . ثم تطرق تشرشل إلى احتمالات التقارب بين فرنسا والاشراف اذا ما لمس الفرنسيون نجاح سياسة التعاون في العراق وشرقي الاردن . وهنا كررّ الامير للمرة الخامسة القول بأن توحيد فلسطين وشرقي الاردن هو في رأيه أفضل حل للمصاعب التي تواجه الطرفين .

وفي الاجتماع الثاني قال صموئيل ان شرقي الاردن تتألف الان من ثلاث مناطق منفصلة ، وهو يقترح توحيدها لتصبح منطقة واحدة ، وان يختار الامير حاكماً عربياً فيعيّنه المندوب السامي . وهنا شرح الامير الأسباب التي حدت به إلى المجيء ، فقال انه جاء للمحافظة على بقايا مملكة اخيه ، وان أنباء الثورة في حوران وصلت إلى الحجاز ووصلت

معها نداءات تدعو إلى مجيء شخص يدافع عن شرقي الاردن . ومع ان الملك حسين كان على ثقة من ان الحكومة البريطانية ستتخذ الخطوات اللازمة للمحافظة على حقوق العرب ، فانه – عبدالله – اقترح على ابيه ان يأتي إلى هذه الجهات كي يرى الوضع بنفسه . وقد أقام في معان ينتظر نتائج مباحثات فيصل وهو الان ينتظر قرار ابيه بشأن المقترحات التي يحملها فيصل . وعندما قال تشرشل ان الامر الذي يهمه الان هو أن لا تكون شرقي الاردن مركزاً لشن الهجمات على الفرنسيين ، ردّ الامير قائلاً انه يتعهد بأن تبقى شرقي الاردن هادئة ريثما يتباحث مع ابيه وأخيه، ولكن مظالم الفرنسيين في سورية سوف تدفع السوريين بالتأكيد إلى مقاومتهم . وقال انه لا يرغب في وجود جنود بريطانيين في شرقي الاردن .

وعقد تشرشل بعد ذلك مع الامير اجتماعاً خاصاً عرض عليه فيه أن يبقى هو في شرقي الاردن مدة ستة اشهر ، على سبيل التجربة . ويبدو ان تشرشل هنا هدّد الامير بقوله « انكم ان لم تفعلوا هذا فستضيعون كل شيء ، وانه في امكان ابن سعود ان يصل إلى مكة في ثلاثة ايام ، وان انكلترا عملت ما تستطيع » . واستشار الأمير الزعماء الذين كانوا معه في عرض الوزير البريطاني فوافقوا على قبوله بالاجماع .[1] وعلى هذا قال الأمير في الاجتماع الرسمي الثالث انه يقبل عرض المستر تشرشل . وهنا أكّد تشرشل للامير « انه سيُعطى – ضمن حدود الامكان – الحرية التامة للعمل في المهمة البالغة الصعوبة التي أخذها على عاتقه » .[2]

ومما هو جدير بالذكر ان تشرشل وضع أثناء مؤتمر القاهرة ،

---

(١) كان يرافق الأمير يومذاك رشيد طليع وعوني عبد الهادي وغالب الشعلان واحمد مريود وامين التميمي ومظهر رسلان وآخرون .

(٢) محاضر الاجتماعات الثلاثة في Report on Middle East Conference in Cairo and Jerusalem March 12 to 30, 1921; pp. 8, 107-114, AIR. 8/37. وقد كان لورنس يقوم بالترجمة بين الأمير عبد الله وتشرشل، ويتضح من اسلوب محاضر الاجتماعات ان لورنس هو كاتبها. وأنظر ايضا مذكرات الملك عبد الله ، ص ص ١٧٩ – ١٨٢ .

أساس مبدأ استثناء شرقي الاردن من أحكام المواد التي تنص على تنفيذ سياسة الوطن القومي اليهودي (في صك الانتداب على فلسطين) [1] . وقد وافقت الوزارة البريطانية في نيسان على ترتيبات المستر تشرشل بشأن العراق وشرقي الاردن .

ويتضح لنا مما تقدم ان الحكومة البريطانية لم تلتق مع العرب على « الحل الوسط » بانشاء حكومتين وطنيتين في العراق وشرقي الاردن ، الا بعد ان أبدى الأهلون فيهما مقاومة عنيفة ضد اسلوب الحكم الاستعماري المباشر الذي انتهجته في العراق حوالي ثلاث سنوات وبدأت تنتهجه في شرقي الاردن تدريجياً بعد استيلاء الفرنسيين على دمشق . ويتضح لنا ايضا ان اتفاقها مع عبد الله وفيصل لم ينشأ الا عن سبب واحد هو ان الشريف حسين وأبناءه كانوا يومذاك زعماء حملة الفكرة القومية العربية ، ولم تكن كثرة الناس في العراق وشرقي الاردن على استعداد لقبول أي حل قبولاً طيبا إلا اذا جاء عن طريق الشريف وابنائه . لهذا كله رأى رجال السياسة البريطانية الالتقاء في منتصف الطريق مع ممثلي القومية العربية يومذاك ، حفظاً لمصلحة بلادهم [2] بينما رأى الحسين وعبد الله وفيصل ان هذه الترتيبات ليست سوى خطوة في تحقيق الأماني العربية ينبغي الاقدام عليها ، على ان تتبعها بعد ذلك خطوات وخطوات .

أما تفاصيل تأسيس المملكة العراقية والامارة الاردنية فتقع خارج نطاق هذا الكتاب ، ولكن يمكن القول ان الأمير عبد الله نجح في توطيد دعائم الحكم العربي في شرقي الاردن ، على الرغم من محاولات حكومة فلسطين المتعددة لاحراجه بقصد اخراجه . وأما فيصل فقد غادر لندن في ٣١ آذار ١٩٢١ فبلغ الحجاز في ٢٥ نيسان ، وهناك عرض على أبيه الخطوط العريضة لسياسة بريطانيا الجديدة تجاه العرب ، بقوله ان انشاء

---

(١) AIR. 8/37, p. 208.

(٢) أنظر مثلا ما قالته جرترود بل وما قاله الميجر سومرست في أثناء مؤتمر القاهرة — Ibid., p. 41 and p. 43.

الحكم الوطني في العراق وشرقي الاردن ليس سوى خطوة أولية من قبل بريطانيا للوفاء بعهودها للعرب [1] . وغادر فيصل الحجاز إلى العراق في أوائل حزيران وهو يحمل رسالة من أبيه إلى العراقيين يقول فيها انه يوفد فيصلاً . « لمحض انفاذ رغباتكم وطبقا لارادتكم » . وقد رافق فيصلاً عدد من زعماء الثورة العراقية . والتف العراقيون حول فيصل وصوّت ٩٧٪ منهم إلى جانبه ، وتبع ذلك انشاء المملكة العراقية التي أدارها فيصل بحنكة فريدة إلى أن قضى نحبه يوم ٨ ايلول ١٩٣٣ .

الشريف وابن سعود : لا بدّ للمؤرخ من أن يعالج علاقات الهاشميين بالسعوديين ويعطيها ما تستحقه من الاهمية ، لما كان لها من التأثير البعيد في اتجاه التطورات السياسية في بلاد العرب بعد انتهاء الحرب العالمية . اما الامارات الثلاث الاخرى في اليمن وعسير وجبل شمر ، فلم تكن قوية بما فيه الكفاية لتؤثر في مجرى الاحداث . وبعد انتهاء الحرب بقليل زالت امارة آل الرشيد في شمر (نجد الشمالية) ثم زالت بعدها امارة الادريسي في عسير بينما انكمش الامام يحيى على نفسه في اليمن .

لقد عرضت في فصل سابق للعلاقات بين الهاشميين والسعوديين إلى ما قبل نشوب الثورة العربية . وقد كانت هذه العلاقات ودية في الظاهر . فقبيل بدء الثورة كتب الشريف لابن السعود يقول انه حدث ضنك وجوع في الحجاز بسبب الاتراك وان شيئا ما سيقع . فردّ ابن السعود يتمنى النجاح للشريف ويقول « ولا شك ان عدونا عدوكم ومخالفكم مخالفنا ، ولا والله نمشي الا فيما يرضيكم ونعمل بجميع

---

(١) قال الملك للمعتمد البريطاني في جده انه يوافق على اقتراحات بريطانيا ، ولكنه يرجو تنفيذ الاتفاقيات جميعها في الوقت الملائم . وقال أيضا انه لم يثر من أجل الملك أو لكي يصبح أبناؤه ملوكا ، بل « من أجل مصلحة العرب ومن أجل استقلال العرب .. » — F.O. 686/27. وأنظر أيضا برقية الحسين إلى لويد جورج في ١٠ ايار ١٩٢١ وجواب لويد جورج في ٢٠ ايار ١٩٢١ — (F.O. 686/74.)

أوامركم » . ثم اقترح على الشريف ارسال أحد رجاله الموثوقين للتباحث وتصفية القضايا المعلقة بينهما .[١]

ولكن – بسبب الضغائن القديمة وعدم وجود ثقة متبادلة – وهو الأمر السائد بين جميع امراء العرب يومذاك – كتب ابن السعود إلى برسي كوكس ، حالما بلغته أنباء نشوب الثورة ، يقول انه يخشى أن يكون الشريف قد حصل على تعهد من الحكومة البريطانية بالموافقة على سيادته على العرب . وأنذر كوكس بأنه لا يمكن أن يوافق على أن تخضع نجد للشريف « اليست نجد أرض آبائنا ؟ » . ونصح الانكليز أن يقدموا للشريف مساعدة جزئية حتى تطول الحرب بينه وبين الترك وتتحقق بذلك الغاية العسكرية التي يستهدفها الانكليز .[٢]

وبعد استسلام قلاع الاتراك في مكة كتب الشريف إلى ابن السعود ينبئه بذلك ويطلب منه أن يعاضده ويتحد معه . وأجاب ابن السعود (١٢ آب ١٩١٦) بأنه مستعد لتقديم المساعدة إلى أقصى درجة ، اما بشأن الاتحاد فقال انه لا مطمع له في الحجاز ، ولكن بسبب ما أظهره الشريف سابقاً من الرغبة في التدخل في شؤون قبائل نجد، فأنه يطلب من الشريف اعطاء تعهد قاطع باحترام سيادة ابن السعود في نجد والامتناع عن التدخل في حدوده أو مع رعاياه .[٣]

وقد ردّ الشريف يقول : ان ما صدر منك « ما يصدر الا من مسلوب عقل او متغيب ذهن » . وطلب منه أن ينزع الشكوك من نفسه مؤكّداً له « اننا شركاء في كل شيء الا ما حرمه الله . هذه هي الحقيقة والواقع دون أي غموض . فاذا أدركت هذا ونزعت من نفسك الشكوك فهو المتوقع من شخص يتصف بالنباهة والفطنة مثلك ... »[٤]

بعث ابن السعود بالرسالتين (رسالته ورسالة الشريف) إلى كوكس

---

(١) الرسالة المؤرخة في ٢١ حزيران ١٩١٦ – (أوراق الأمير زيد) .
(٢) من عبد العزيز السعود إلى كوكس ، رسالة بتاريخ ٢٠ تموز ١٩١٦ – F.O. 882/8.
(٣) عن رسالة من ابن السعود إلى كوكس بتاريخ ١٥ آب ١٩١٦ ، المصدر السابق .
(٤) رسالة الشريف بتاريخ ٤ ايلول ١٩١٦ ، المصدر السابق .

محتجاً ، فكان ردّ الفعل من قبل السلطات البريطانية ابلاغ الشريف (٣ تشرين الاول ١٩١٦) نبأ المعاهدة المعقودة بين بريطانيا وابن السعود ، بينما كتب كوكس إلى ابن السعود يهدّيء من مخاوفه ويقول له : اليس بيننا وبينك معاهدة تنص على اعترافنا بك أميراً مستقلاً على مناطق نجد ؟ انه ليتوجب على الشريف أن يعترف بهذه الاتفاقية أيضا ، ولن تعاضده الحكومة البريطانية اذا حاول الوقوف موقفا آخر منك [١] .
وبعد سقوط الطائف كتب ابن السعود إلى الأمير عبد الله رسالة تهنئة يؤكد فيها انه معهم بالقول والفعل ويقسم على ذلك الايمان وأرسل للشريف هدايا وعدداً من جياد الخيل . [٢]

كان ابن السعود يعارض بشدة مطامح الشريف التوسعية ويود أن يبقى نفوذ الشريف مقتصرا على الحجاز . وقد دهش وداخلته الخشية عندما نودي بالشريف ملكا على البلاد العربية . وفي الاجتماع الذي عقد في الكويت يوم ٢٠ تشرين الثاني ١٩١٦ بترتيب السلطات البريطانية وحضره ابن السعود وأمير الكويت وأمير المحمّرة وزعماء آخرون — خطب ابن السعود فامتدح الثورة العربية وقال ان من واجب كل عربي ان يعضدها . وفي يوم الاجتماع بالذات كتب برسي كوكس مرة اخرى إلى ابن السعود مؤكداً ان بريطانيا في تعاملها مع الشريف « كانت حريصة كل الحرص على التحفظ بشأن جميع حقوقك » ، وأن الشريف أكّد لها ان « ابن السعود يحكم في بلاده » وان لا نية له بالتدخل في نجد . ورد ابن السعود (٢٨ تشرين الثاني ١٩١٦) يعبّر عن اطمئنانه لما جاء في رسالة كوكس ويقول ان علاقاته الودية مع الشريف تعود إلى زمن بعيد وان الشريف هو « أبو العرب » . [٣]

وعندما قام المعتمد البريطاني في جدة بابلاغ الشريف حول امتعاض ابن السعود ، ردّ قائلا انه لا يفهم سببا لذلك خاصة وان ابن السعود

---

(١) من كوكس إلى ابن السعود رسالة بتاريخ ١٨ تشرين الأول ١٩١٦ ، المصدر السابق.
(٢) الرسالة ضمن تقرير حسين روحي بتاريخ ٢٥ تشرين الأول ١٩١٦. F.O. 686/6 Part I.
(٣) الرسالتان في الملف F.O. 882/8.

قبل منه حتى ذلك الحين خمس دفعات من النقود كان بعضها بطلب منه . وكتب ولسون إلى ونجت (٣٠ تشرين الثاني) قائلاً ان الشريف اختار لقب « ملك البلاد العربية » لا لكي يفرض سلطته الفعلية على الامراء العرب « بل بقصد الحصول على لقب سام يساعده في المطالبة بالخلافة فيما بعد » . [١]

بعد بضعة أشهر لاحظ الشريف ان الأمور لا تسير كما يشتهي ، فكتب إلى المندوب السامي يشكو من أن السياسة البريطانية لا تعمل في السبيل المؤدي إلى تحقيق أهداف العرب ، ويستشهد على ذلك بالمعاهدتين المعقودتين مع ابن السعود والادريسي . ورد عليه ونجت بأن المعاهدتين « ليس فيهما ما يخلّ بمصلحة العرب أو ما يعيق سير الحركة العربية أو يجافي روح ونص المعاهدات المبرمة مع جلالتكم . وهنا لا بدّ لي من القول انه اذا كان لم يزل عندكم شك في هذا أو غيره من الامور ، فآمل أن لا يبرح عن بال جـلالتكم ان الحكومة البريطانية هي التي تحترم المعاهدات وهي حامية الحق والعـدل والحليفة الوفية التي لا تخون العهود » . [٢]

ليس من شك ان السياسة التي كانت تتبعها وزارة الهند (وكانت تتولى الشؤون العربية في نجد ومشيخات الخليج والمحميات الاخرى وعدن وعسير) لم تكن متفقة في مراميها مع سياسة وزارة الخارجية (التي كانت تتولى الشؤون العربية في الحجاز ومصر) . هاتان السياستان المتنافرتان عملتا كثيراً على تأريث الاحقاد وزيادة شقّة الخلاف بين الشريف وابن السعود . كان ذلك التنافر من سوء حظ العرب ، وقد ألحق بهم ضرراً كبيراً دون أن تكون لهم يد فيه . وقد لاحظ الكولونيل ولسون المعتمد في جدة كل هذا فاقترح في ١٩١٧ أن تصبح العراق تحت مسؤولية وزارة الخارجية حتى يكون هناك توافق في السياسة

---

(١) الرسالتان في المصدر السابق .

(٢) الرسالة بتاريخ ١٩ نيسان ١٩١٧ – أوراق الأمير زيد و F.O. 686/74 & 686/27.

البريطانية تجاه العرب [١] ولكن الاقتراح بقي حبراً على ورق .

وفي ايلول ١٩١٧ جاء الأمير محمد بن السعود إلى الحج ومعه سبعة الاف حاج من أهل نجد ، وقد احتفى بهم الشريف كثيرا ، وتبدت احتمالات التفاهم بين الزعيمين إلى حد ان الملك طلب أن يخطب احدى بنات الامير السعودي او احدى بنات اخوته إلى ابنه زيد ، بقصد تثبيت أواصر المودة بين الاسرتين . ولكن ابن السعود اعتذر عن الاستجابة لهذه الرغبة [٢].

ولكن انتشار الدعاة الوهابيين بين القبائل المقيمة بين نجد والحجاز وقوة السعوديين المتزايدة ، كانت دائما تقلق بال الشريف . وفي تشرين الثاني ١٩١٧ أرسل الانكليز في العراق بعثة تتألف من ثلاثة ضباط إلى الرياض كي تبحث في تعزيز التعاون مع ابن السعود (كان فيلبي أحد أعضاء البعثة) . وهذه البعثة زادت شكوك الشريف في حسن نيات الانكليز . وفي كانون الاول ١٩١٧ انتدبت وزارة الخارجية المستر رونالد ستورس للسفر إلى نجد كي يعمل على زرع بذور الثقة بين الشريف وابن السعود [٣] ولكن الشريف عارض في ذلك قائلا ان المهم الان هو التغلب على العدو المشترك وبعد ذلك يمكن البحث في المسائل الاخرى .

وأوفد الانكليز الاستاذ هوجارث والكابتن فيلبي (ليمثل هذا الاخير وجهة نظر وزارة الهند وابن السعود) إلى جدة في أوائل كانون الثاني

---

(١) من ولسون إلى سايمس – رسالة بتاريخ ٢١ ايلول ١٩١٧ ، F.O. 882/18.

(٢) تقرير الميجر كورنوالس بتاريخ ٢٨ تشرين الثاني ١٩١٧ ، F.O. 686/25.
ورسالة من حسين إلى المعتمد البريطاني في جدة بتاريخ ٨ آب ١٩١٨ ، F.O. 686/11.

(٣) كتب ستورس إلى الأمير عبد الله رسالة باللغة العربية تاريخها ١٦ كانون الأول ١٩١٧ طلب منه اقناع الشريف بالموافقة على رحلته ، وقال ان قصده « ان أشرح لابن السعود الامور وأقنعه بأهمية الاتفاق مع صاحب الجلالة ملك الحجاز وموالاته والاخلاص التام لجلالته » – (أوراق الأمير زيد) . ومن التناقضات المحيرة في مواقف المسؤولين الانكليز ان « ونجت » أبرق إلى وزارة الخارجية في ١٩١٧/١٠/٥ يحث على ارسال البعثة إلى ابن السعود « حتى يأخذ الشريف درساً » –(F.O. 371/3396.)

١٩١٨ . وقد غضب الملك غضبا شديدا لمجيء فيلبي من الرياض إلى جدة دون أن يكون عنده علم مسبق بمجيئه . وعقد هوجارث وفيلبي والكولونيل باست (نائب المعتمد البريطاني في جدة) مع الملك عددا من الاجتماعات بشأن علاقاته مع ابن السعود . ولكن الاجتماعات أخفقت في تحسين العلاقات ، ورفض الملك السماح لفيلبي أن يعود إلى الرياض عبر الحجاز ، فسافر إلى مصر وهناك اتهم الشريف بالاخفاق في محاربته الترك ، وطلب اعطاءه هو نصف مليون جنيه وكميات من الأسلحة لتأليف جيش من الوهابيين يحارب في سورية .[١]

كانت الدعاية الوهابية تنتشر بين القبائل المتاخمة للحجاز ، وكان هذا يثير قلق الشريف ؛ وفي ٧ شباط ١٩١٨ كتب الشريف لابن السعود رسالة يمتزج فيها العتاب بالتحذير قائلا انه وزع الأسلحة على اتباعه فكثرت اعتداءاتهم ؛ وحثه على أن يردعهم ولا يشجعهم على اثارة الفتن وسفك الدماء .[٢] ورد عليه ابن السعود في نيسان يقول ان الوهابيين لا يكفّرون غيرهم . واقترح أن يحتكم الطرفان في المسائل المذهبية أو يصبرا على بعضهما البعض ، وأكد للشريف أنه لا يطمع فيما تحت يده .

وعلى الرغم من كل شيء ، فقد كان من المحتمل أن لا يبلغ الخلاف بين الزعيمين الحد الذي بلغه لولا أن الشريف خالد بن لؤي (الذي كان يحارب في جيش الأمير عبد الله والذي كان الشريف حسين قد عيّنه حاكما على واحة الخرمة) اعتنق المذهب الوهابي وأعلن انفصاله

---

(١) حمل فيلبي رسالة من الأمير السعودي يقدم فيها فيلبي إلى الملك ويقول « انه من المأمورين بتأسيس الروابط الودية فيما بين العرب تحت سياسة الدولة الفخيمة بريطانيا العظمى وله نوايا جميلة » . وقال انه يرجو أن يشاهد الشريف ما شاهد هو « من خصاله الممدوحة » . ولكن تصرف فلبي الشخصي كان غير مهذب كما جاء في تقرير باست ، فلم يستطع الشريف التعرف على خصاله الممدوحة . راجع أوراق الأمير زيد والملف F.O. 882/9. .

(٢) الرسالة بتاريخ ١٣٣٦/٤/٢٦ ﻫ (الموافق ٧ شباط ١٩١٨) (أوراق الأمير زيد) ، و F.O. 686/39.

عن الشريف وانحيازه إلى الوهابيين . حدث هذا في ربيع ١٩١٨ وسرعان ما أصبحت الخرمة مركزاً للدعوة الوهابية وأخذ الدعاة الوهابيون فيها يبثون دعوتهم بين البدو المجاورين لها تارة بالترغيب وتارة بالترهيب .
وكتب الشريف إلى ابن السعود في ايار معاتباً ومحذراً فذكّره بيوم (جراب) قائلا انه لم يقصر معه في السابق وانه لن يأتيه ضرر من جانبه ، ثم طلب منه أن يدع قبيلة عتيبة وشأنها . [1] وفي الوقت ذاته كتب الشريف إلى المعتمد البريطاني في جدة يقول ان اتباع ابن السعود أخذوا يعتدون على قبيلة عتيبة التابعة للحجاز منذ زمن قديم ويطلبون منها الزكاة ، وانه يخبر الحكومة البريطانية كي تكون على بيّنة مما يحدث . [2]

كانت الحكومة البريطانية في تلك الفترة حريصة على توجيه جهود حليفيها الشريف وابن السعود ضد أعدائها وأعدائهما ، لذلك وجهت اليهما في تموز ١٩١٨ رسالة متماثلة تحذرهما مغبّة الخلاف الذي سيلحق الضرر بالقضية العربية ولن ينتفع منه الا العدو ، وعرضت الحكومة البريطانية أن تساعد الزعيمين على التوصل إلى اتفاق عن طريق المفاوضات.
وجاء في تعليمات بلفور إلى ونجت أنه عند تسليم الرسالة إلى الملك حسين يجب التوكيد عليه « ان الحرب مع ابن السعود سوف تعرّض جميع مطامحه للخطر ، وسوف تشوه الحركة العربية كلها في نظر العالم . يجب أن يثق بأننا سنعمل على المحافظة على مصالحه الحقيقية . وأن موقف ضبط النفس بحكمة وسياسة هو الموقف الوحيد الذي سيرفع من شأن الملك ويزيد من حسن سمعته في الاقطار العربية » . [3]

عندما تسلم الملك حسين الرسالة اعتقد ان الحكومة البريطانية امّا انها لا تفهم الوضع على حقيقته او انها تحابي ابن سعود . ان ضبط النفس بالنسبة اليه كان يعني ارتفاع شأن خالد الثائر عليه في أرض حجازية ، وارتفاع شأن الدعاة الوهابيين كذلك ، وانحياز المزيد من عشائر البدو

---

(١) الرسالة بتاريخ ١٣٣٦/٧/٢٦ هـ (٧ ايار ١٩١٨) — F.O. 686/39.
(٢) الرسالة بتاريخ ١٣ ايار ١٩١٨ — F.O. 686/38.
(٣) نص الرسالة في No. 938 of 27 July 1918 : CAB. 27/24 & F.O. 882/9.

إلى الحركة الجديدة عندما يرون سكوت الملك حسين عن سحقها .
لهذا كله ردّ يقول انه في هذه الحال لا يجد مناصا من اعتزال العمل ، لأنه لا يستطيع تجاهل نصيحة حليفته من جهة ولا يستطيع في الوقت ذاته أن يرى العصاة يمرحون دون عقاب . وهكذا بعثت الحكومة البريطانية إلى الملك رسالة ثانية تقول انها لم تقصد برسالتها الا مصلحة العرب ومصلحة حسين بالذات لما في اصطدامه مع ابن السعود من خطر على الحركة العربية . وقرنت الحكومة في رسالتها بين الحسين والحركة العربية فقالت انها « تدرك انه في غمرة القلق والمشاغل الذي يحتمها على جلالتكم العمل العظيم المتعلق بتحرير العرب ، فان حوادث سوء التفاهم هذه يمكن أن تنشأ ... » وأكدت الرسالة ان ثقة الحكومة البريطانية بالملك ما تزال قوية لان « حكومة جلالته تعتبر قيادتكم للحركة العربية في الحرب ضرورية وحيوية للقضية العربية ؛ ولا تستطيع أن تعتقد ان جلالتكم سوف تنسحبون في وقت كهذا لأن انسحابكم سوف يلحق ضررا بالغا بمصير الملايين الذين يعتبرون انتصاركم بمثابة ضمانة لانقاذهم ... » (١)

في الحقيقة لم يقف الملك تجاه هذه الأحداث مكتوف اليدين ، بل انه بادر في ايار ١٩١٨ إلى ارسال حملة عسكرية لتأديب خالد وأتباعه ، ولكن هذا كمن للحملة وهاجمها وألحق بها الهزيمة . وبعث الملك حملة ثانية وثالثة ورابعة لكن خالداً تمكن من صدها جميعا واغتنام أكثر أسلحتها . ولقد أضرّ هذا الاخفاق الحربي بالحسين أكثر مما أضرّ به موقف الانكليز وموقف ابن السعود على السواء . حقا لقد اعترض ابن السعود أشدّ الاعتراض على أن يهاجم الشريف الخرمة ، وقال انه اذا رضي بذلك فان أهل نجد لن يرضوا ، ولكن لو ان حملات الشريف ضد الخرمة لقيت نجاحا لكان من المرجح أن لا يغامر ابن السعود بالهجوم على الحجاز يومذاك .

---

(١) Arbur to Bassett, Tel. No. A.B. 036 of 3 Aug. 1918, F.O. 686/10.

لقد ازداد ابن السعود قوة منذ بدء الحرب . ويجب أن لا يغيب عن بالنا انه كان يحتل في آن واحد منصبين عظيمي الأهمية فهو من جهة الأمير والقائد الذي تجتمع قبائل نجد تحت لوائه بدوافع العصبية التقليدية ، وهو من جهة ثانية الامام الروحي والزعيم الديني لجميع الوهابيين يدينون له بالولاء والطاعة بدون التفات إلى انتساباتهم القبلية . أضف إلى كل ذلك ان عبد العزيز نفسه كان رجلاً عظيماً سواء في دهائه السياسي أو مواهبه القيادية . وقد أحسن الاستفادة من ظروف الحرب فاستعان بالأسلحة والأموال البريطانية ، وبمهاجمة أخصامه التقليديين امراء آل الرشيد ، كما انه عمد إلى ابتياع كميات كبيرة من الاسلحة والعتاد من البدو الذين كانوا يحاربون في صفوف الثورة العربية ؛ فغدا بذلك يمتلك جيشاً قوياً حسب مقاييس الجزيرة العربية يومذاك . جيشاً يمتاز أفراده بحماسة دينية مشبوبة تملأ قلوبهم وتدفعهم إلى الموت مبتهجين اعتقاداً منهم بأن الموت في ساحة القتال هو الباب الاقرب للصعود إلى جنات النعيم .

في تلك الاثناء (٥ تموز ١٩١٨) اقترح وزير الهند أن تنتقل إلى وزارته مسؤولية الاشراف على السياسة العربية . وقد كان رد وزارة الخارجية أن عملا كهذا « سوف يؤدي إلى انهيار الحركة العربية التي التزمنا بها . ذلك ان حكومة الهند هي ضد العرب وضد الشريف من منطلق أساسي ، وهي لذلك تتعاطف مع الاتراك دون ان تدري .. »[١] بل ان مذكرة من وزارة الحربية البريطانية بلغت من الصراحة حداً دفعها إلى القول أن توزيع الصلاحيات بين وزارة الخارجية ووزارة الهند هو المسؤول عن نشوب الخصام بين الشريف وابن السعود .[٢]

واقترحت وزارة الخارجية تأليف لجنة محايدة لبحث موضوع الحرمة وأن يكون لورنس وفيلبي من أعضائها . وفي ٢٥ آب ١٩١٨

---

(١) Departmental Note dated 17 July 1918 : CAB. 27/24.

(٢) Memo. dated 21 Oct. 1918 (E.C. 2042), CAB. 27/35.

بعث ابن السعود برسالة ودية إلى الشريف ، ولكن الشريف أعادها دون أن يفتحها محتجاً بأنه اذا كان ابن السعود ينطوي على نيات مخلصة فعليه أن يسحب أتباعه من الخرمة والأراضي الحجازية الاخرى ولا يمد يد العون للمتمردين .

وقد برز اختلاف وجهة نظر الادارة البريطانية في العراق مع وجهة نظر الادارة البريطانية في مصر ، من خلال الصراع الناشب بين الشريف وابن السعود . فبينما كان المسؤولون البريطانيون في مصر يرون أن من حق الشريف تأديب خالد واستعادة الخرمة كان المسؤولون البريطانيون في العراق يرون اتباع سياسة « رفع الأيدي » عن الخرمة ، بحجة ان القتال في الخرمة او استيلاء حسين عليها سيشعل نار الكراهية في قلوب الوهابيين ليس ضد الشريف وحده بل ضد الانكليز ايضا .

وشجع الانكليز الأمير السعودي على مهاجمة آل الرشيد — أعداؤهم وأعداؤه — على أمل أن تجد حماسة اتباعه متنفساً لها في ذلك وبديلاً عن توجيه العداء للشريف . وقد كان الفوز حليف ابن السعود في هجومه مما جعل الانكليز يهنئونه ويبعثون له بمزيد من البنادق . ولما كان هذا قد حدث في الوقت الذي كان فيه الجنرال اللنبي يحرز انتصاراته الساحقة ضد الاتراك في فلسطين وسورية ، فان موقف الانكليز من الشريف أخذ يتراخى قليلاً قليلاً لأن الضرورات العسكرية لم تعد ملحّة كما كانت قبل هزيمة الاتراك .

ولكن الاخطار الكامنة في هذه السياسة الازدواجية لم تغب عن المعتمد البريطاني في جدة فكتب إلى ونجت يقول : « ان الملك حسين يحاول باخلاص وضع حد للمشكلة بصورة سلمية ، لأنه يدرك ادراكاً تاماً الضرر الذي يمكن أن تلحقه العمليات العدائية بقضية الوحدة العربية التي نضعها نصب عينيه » . وبعد أن أوضح رأيه في أصل المشكلة قال : ان الوقت قد حان لكي تتخذ الحكومة البريطانية موقفاً موحّداً تجاهها ، واذا اقتضى الأمر أن تختار بين الملك حسين وابن السعود حتّى لا يزداد

الوضع أكثر خطورة .[1]

وبلغ حنق الشريف من ميوعة السياسة التي تتبعها الحكومة البريطانية انه اتهمها بمحاباة ابن السعود، فردّ عليه ولسون قائلا أن ذلك الاتهام لا يتفق والحقيقة[2] . والواقع ان الحكومة البريطانية لم تكن تجد من مصلحتها الوقوف موقف العداء من أي من الزعيمين . ومن هذا المنطلق نرى اللورد كرزون يقول في اجتماع للجنة الشرقية « يبدو انه لا مفر لابن السعود والملك حسين ان عاجلاً أو آجلا من أن يحلاّ الخلاف بينهما في ساحة القتال ؛ وربما كان هذا أفضل ما يمكن أن يحدث . اما اذا لم يتقاتلا ، فيبدو انه سيتوجب علينا بعد انتهاء الحرب أن نقوم بجهد لتعيين الحدود بين هذين الزعيمين ولابقائهما على وفاق »[3] .

ومما زاد الموقف سوءاً ان قوات الثورة العربية لم تتمكن من الاستيلاء على المدينة المنورة خلال ١٩١٧ أو ١٩١٨ . وكان من نتائج إخفاق العرب في الاستيلاء عليها ان الشريف لم يتمكن من ارسال حملات قوية ضد الخرمة . فتمكن المتمردون من الحاق الهزيمة بالحملات الضعيفة التي أرسلها الشريف . وأدى ذلك إلى ازدياد أنصارهم في المنطقة امّا طمعاً بالخلاص من هجماتهم أو طمعاً بالغنائم ؛ كما هي عادة البدو . ومن جهة اخرى فان صمود المدينة ترك أثراً سيئا في نفوس الانكليز أنفسهم الذين كانوا يتوقعون من قوات الاميرين علي وعبد الله فعالية عسكرية أفضل مما ظهر منها .

وظلت الازمة تتصاعد إلى أن وافق المندوب السامي في القاهرة على اقتراح قدمه فيلبي يقضي أن تفرض الحكومة البريطانية على الطرفين المتنازعين خط هدنة يمتد بين الخرمة وتربة بحيث تبقى الخرمة تحت أيدي الوهابيين . ولكن ولسون اعتذر عن ابلاغ الملك فحوى هذا القرار قائلا ان « الحل الممكن الوحيد » هو الطلب إلى ابن السعود ان يسحب

---

(١) Letter No. 20 of 24 Nov. 1918, F.O. 686/40.

(٢) من ولسون إلى حسين رسالة بتاريخ ١٤ كانون الاول ١٩١٨ – (F.O. 686/40.)

(٣) Meeting of Eastern Committee of 26 Dec. 1918, CAB. 27/24

اتباعه من الخرمة ذاتها ، وأن التهمة ستوجه في المستقبل إلى الانكليز بأنهم استغلوا الملك لخدمة غاياتهم أثناء الحرب ثم تخلوا عنه . وأضاف يقول « اذا اتخذ قرار ضد الملك في هذه المسألة مما يناقض كلمتنا التي أعطيناها له ، فيجب أن أقول بكل احترام وأسف انني اعتبر ان خدماتي بعد اليوم لا يمكن أن تكون ذات جدوى ، اذ يبدو ان حكومة جلالته وفخامتكم تختلفان اختلافاً أساسيا مع وجهة نظري : ولانني أكون جديرا بفقدان ثقة الملك بي . وفي هذه الظروف لا أجد أمامي الا ان أطلب أن تقدم فخامتك استقالتي إلى حكومة جلالته »[1] . ولكن هذا الموقف الشريف من ولسون لم يبدل سير السياسة البريطانية في هذه المسألة . حقا ان اقتراح فيلبي أهمل ، ولكن المشكلة الأساسية ظلت على حالها . وأبرق الملك إلى فيصل في لندن كي يحث الحكومة البريطانية على الضغط على ابن السعود ، ولكن الحكومة البريطانية لم تفعل شيئاً بل أبلغت ولسون أنها قررت « على ضوء التطورات الأخيرة وخاصة استسلام المدينة » ان لا تتدخل بعد اليوم في النزاع الحالي بين الملك حسين وابن السعود[2] . ورد ولسون قائلا ان هيبة الملك تزعزعت بسبب وجود الوهابيين في الخرمة « انني أفهم ان قرار حكومة جلالته هذا يعني ابقاء المجال مفتوحا أمام الملك وابن السعود لحل المشكلة عن طريق الحرب ... »[3]

وهكذا تُرك الوضع ليزداد سوءاً بين الزعيمين العربيين . حقا لقد تبادلا في ربيع ١٩١٩ عددا من الرسائل الودية في ظاهرها ، وعادت الحكومة البريطانية تحضهما على الاعتدال . ولكن المشكلة بقيت قائمة : فخالد بن لؤي بقي في الخرمة متمرداً على الشريف بمعاضدة ابن السعود ، وبقي الحسين معتقداً أن الخرمة يجب أن يعاد اخضاعها لسلطانه . وبعد أن

(١) Wilson to H.C. Cairo, Tel. dated 21 Dec. 1918, F.O. 882/9 and also F.O. 882/13.

(٢) Wilson to Arbur, Tel. No. W. 700 of 25 Dec. 1918. المصدر السابق .

(٣) Arbur to Wilson, Tel. No. A.B. 262 of 20 Jan. 1919; and Wilson to Arbur, Tel. No. W. 935 of 21 Jan. 1919, F.O. 882/22.

صبر وانتظار بلا طائل لم يجد بدا من اللجوء إلى الحل العسكري ؛ فأمر نجله الثاني عبد الله أن يزحف من المدينة بقواته النظامية وغير النظامية لاخضاع المتمردين . وبعث ابن السعود يستوضح عن حركة عبد الله ، فردّ عليه هذا انه لا قصد له الا تأديب العصاة من رعايا الحجاز « تأمرني بالرجوع ؛ فكيف أرجع من أرض هي لأبي وجدي » ؟ وزحف ابن السعود بجموعه غربا نحو الخرمة بينما كان عبد الله يتجه شرقا نحوها. وبعثت الحكومة البريطانية رسالة اخرى إلى الملك حسين تحثه على الصبر وعدم مهاجمة الخرمة . ولكن صبر الملك كان قد نفد من جهة وكان يعتقد ان قوات عبد الله النظامية ومدافعه ستقتلع العصاة من الخرمة وتردع ابن السعود عن مزيد من التدخل في شؤون الحجاز . وفي ٢١ ايار دخل عبد الله بلدة تربة بعد معركة قصيرة مع المتمردين . ولم يشأ أن يزحف مباشرة إلى الخرمة بعد أن بلغته أنباء تقدم جموع ابن السعود اليها وانهم سيعمدون إلى مهاجمته . واستعد عبد الله للقاء الوهابيين النجديين الذين لم يلبثوا ليلة ٢٦/٢٥ ايار حتى شنوا هجوما كاسحاً على مواقعه بأعداد كبيرة . وأثنـــاء الليل دارت المعركة الطاحنة التي انتهت بهزيمة ساحقة لحقت بالجيش الشريفي ومقتل معظم جنوده وضباطه . ولم ينج الأمير عبد الله الا بما يشبه الاعجوبة .

أصبح الحجاز كله معرضاً الان لخطر الوقوع في قبضة السعوديين ، ولكن ابن السعود آثر التوقف في الخرمة وتربة ، بينما تمكن الشريف شرف بن راجح في موقع اكيلخ غربي تربة من صد قوة من الاخوان عمدت إلى مهاجمته . وبلغت أنباء المعركة مسامع الحكومة البريطانية فبعثت برسالة مستعجلة إلى ابن السعود تطلب منه العودة إلى نجد [١] كما أرسلت ست طائرات إلى جدة بقصد مساعدة الملك حسين اذا ما عمد السعوديون إلى الزحف غربا نحو الطائف ومكة . وقد صدع ابن السعود بطلب الحكومة البريطانية فعاد إلى نجد . وفكرت وزارة الخارجية

---

(١) F.O. to H.C. Cairo, Tel. No. 666 of 31 May 1919, F.O. 882/21.

البريطانية بانتداب لورنس لتنظيم قوات الملك حسين . ثم انتدبت فيلبي بقصد اقناع ابن السعود بسحب قواته من الخرمة تمهيداً للتوسط بين الطرفين ، ولكن الملك حسين رفض السماح لفيلبي أن يعبر من الحجاز إلى نجد ، لذلك سحبت الحكومة البريطانية عرضها بالتوسط وسحبت طائراتها من جدة .

وفي هذه الاثناء كان آرنولد ولسون قد حلّ محل برسي كوكس حاكما سياسيا في العراق ، فأوصى حكومته بعدم معاداة ابن السعود من أجل خاطر الملك حسين ، وقال ان تخلي الملك حسين عن عرش الحجاز سوف يساعد على تهدئة الموقف ، وان الحركة الحربية أخذت تقف موقف العداء من بريطانيا ، وان « انهيار الحركة العربية يجب التعجيل به عن طريق تنازل الملك حسين وهو الأمر الذي سوف يسهّل تسوية قضايا فلسطين وسورية والعراق حسب الخطوط التي يقبل بها الحلفاء وجمهرة السكان في هذه المناطق »[1] . وكان من رأي اللنبي المندوب السامي في مصر انه « اذا تخلينا عن الملك حسين الان فان أي كسب يمكن أن نحصل عليه من جراء ذلك لا يمكن أن يعوّض سمعتنا التي سنفقدها حتما اذا ألقينا جانبا صديقا لنا ابان محنته »[2] .

وحاولت الحكومة البريطانية الجمع بين حسين وعبد العزيز في جدة او عدن ، ولكن المحاولة لم تنجح بسبب تصلب طرفي النزاع . واضطرب حبل الامن في الحجاز وأخذ الملك يفقد هيبته شيئاً فشيئاً في عيون القبائل بعد أن لمست عجزه عن تأديب المتمردين ودحر المهاجمين . وزاد الطين بلة ان الانكليز أخذوا بعد انتهاء الحرب يخفضون الاعانة من ١٢٠ الف جنيه إلى ١٠٠ الف إلى ٨٠ الفا ثم إلى ٢٥ الفا إلى أن قطعوها نهائيا في شباط ١٩٢٠ بسبب موقف الملك في سورية . ونتيجة لذلك أضطر الملك أن يقطع الاعانات عن القبائل

---

(١) Tel. No. 6714 of 14 June 1919, F.O. 882/22. وقد حل آرنولد ولسون محل برسي كوكس من ايلول ١٩١٨ حتى آخر ايلول ١٩٢٠

(٢) H.C. Cairo to F.O., Tel. No. 978 of 16 June 1919.

فأخذت تميل إلى التمرد . وبعد ان غادر الحجاز ذلك الرجل الشريف الكولونيل ولسون حل الكولونيل فيكري محله (١٨ ايلول ١٩١٩) فلم يلبث أن اتخذ موقف العداء من الشريف وأخذ يحرض حكومته عليه .

أما ابن سعود فقد ظل نجمه في صعود ، فاستولى على الحناكية شرقي المدينة (آذار ١٩٢٠) وشدد أعوانه هجماتهم على الاشراف الحوارث شرقي الطائف : كما ألحق هزيمة منكرة بأمير الكويت (تشرين الاول ١٩٢٠) . واتسعت أطراف ملكه فاعترفت له الحكومة البريطانية بلقب سلطان (آب ١٩٢١) ثم جاء استيلاؤه على حائل (٢ تشرين الثاني ١٩٢١) عاصمة آل الرشيد حلقةً مهمة في سلسلة انتصاراته . وفي عام ١٩٢٢ وصلت غزوات السعوديين إلى أطراف العراق وضواحي عمان عاصمة شرقي الاردن . وعلى الرغم من ان هذه الغزوات باءت بالفشل الا ان ابن السعود تمكن من بسط سلطانه على الجوف ووادي السرحان شمالا وعلى جبال عسير جنوبا .

قد يكون مما يؤسف له ان الملك حسين لم يستطع استيعاب هذا الانقلاب الكبير في موازين القوى ، فظل في مفاوضاته مع البريطانيين يصرّ على اعادة عقارب الساعة إلى الوراء وعودة ابن السعود وغيره من امراء شبه الجزيرة إلى حدود ما قبل الحرب. ولكن السياسة البريطانية التي اقتضت عدم معاداة ابن السعود في عام ١٩١٨ لم يكن لديها ما يبرّر وقوفها ضده بعد أن أصبح أكبر قوة عسكرية في شبه الجزيرة. فالسياسة البريطانية تنطلق من مصلحة بريطانيا بالذات ، ولم تكن لها أية مصلحة في تأييد الملك حسين تأييداً ينطوي على معاداة ابن السعود . وفي هذا المجال يمكن القول ان البريطانيين بذلوا جهداً للتوسط بين الملك حسين والسلطان عبد العزيز ؛ ولكن يمكن القول ايضا أنهم لم يفعلوا كل ما كان في وسعهم أن يفعلوا لو شاءوا او لو وجدوا مصلحة لهم في ذلك. ولقد كان الملك حسين مقتنعاً قناعة تامة بأن في مقدور الحكومة البريطانية أن تعيد حصر ابن السعود ضمن الحدود التي كانت عليها نجد قبل نشوب

الحرب العالمية ، وكان مقتنعا ان تلك الحكومة لا تمتنع عن ذلك الا لغاية تستهدفها . ومن هنا نرى اتهاماته المباشرة لها بهذا الشأن . وربما كان من المحتمل احلال الوفاق بين حسين وعبد العزيز لو ان حسين كان أكثر مرونة ، ولكنه أصبح مع تقدمه في السن « كثير الصلف. كثير النسيان ، كثير التردد .. » على حد قول ابنه عبد الله . وعندما أدرك انه لا يملك قوة عسكرية تستطيع استرداد تربة والخرمة ؛ وان ابن السعود لا يريد أن يتطوع بالانسحاب ، وان الانكليز لا يقصدون الضغط عليه للانسحاب – أخذ يستعمل السماح لأهل نجد بأداء فريضة الحج إلى الأماكن المقدسة سلاحا للضغط . ولكن بالاضافة إلى رغبته في الضغط فأنه كان يخشى أن يأتي النجديون للحج آلافاً مؤلفة فيستولوا على الحجاز دون أن يكون بمقدوره أن يفعل شيئاً . لقد حدث مثل هذا تقريباً في زمن سعود الكبير . لذلك طلب حسين في إحدى السنين أن يأتي أهل نجد للحج عن طريق البحر . واشترط في ١٩٢٠ و ١٩٢٢ أن يأتي عدد محدود منهم للحج . وقد تبادل الطرفان عدداً من الرسائل الودية خلال فترات الصفو القصيرة . ففي ٩ تموز ١٩٢٢ – مثلاً – كتب عبد العزيز رسائل ودية إلى الملك ونجليه عبد الله وزيد مبدياً الاسف على ما حدث في السابق والاستعداد للتفاهم والوفاق ؛ وطالبا أن يوافق الملك على عدم البحث في المسائل القديمة بل « النظر العادل في مسائل الحدود بصورة تضمن حقوق الطرفين على موجب المصالح المتقابلة » مع القول انه يرغب من كل قلبه « في حل هذه العقدة »[1] . فلو توافرت المرونة السياسية عند الملك حسين ، لكان من المحتمل التوصل إلى اتفاق بينه وبين ابن السعود ؛ ولكن نفس الملك حسين لم تطب قط للمساومة على ما كان يعتقده حقاً خالصاً له . كان طرازاً فريدا من الرجال : أما الكل وأما لا شيء . ذلك أساس موقفه مع بريطانيا وذلك ايضا أساس موقفه مع ابن السعود .

(١) لنذكر ان قوات ابن السعود وصلت إلى ضواحي عمان بعد شهر واحد فقط من تاريخ هذه الرسالة .

لقد تصرف ابن السعود التصرف الطبيعي الذي يمكن أن يتصرفه زعيم يعمل على تعزيز ملكه وسلطانه . ولكن كان هنالك فرق واحد بين وضعه ووضع الشريف حسين وهو فرق بالغ الاهمية : كان الشريف حسين يحمل هموم العرب جميعهم ويعمل على أساس قيام دولة عربية كبيرة تستعيد أمجاد الدول العربية القديمة . كان الشريف حسين يفكر بالوحدة العربية وباستقلال العرب . ومن الطبيعي انه كان يرى نفسه الزعيم المرتجى للدولة العربية الكبيرة التي كان يخطط لقيامها . ومن هنا لم يستطع ان يستوعب فكرة ابن السعود القائمة على ان يتعامل امراء الجزيرة العربية بعضهم مع بعض كأنداد ، لا سلطة لأحد منهم على الآخر ، اذ ان وضعاً كهذا ما كان يمكن أن يحقق حتى الحد الادنى للاتحاد العربي . وفي الوقت ذاته كان ابن السعود لا يرى في الحسين الا انه رجل يريد بسط سلطته على أقطار اخرى دون وجه حق ، وكان من الطبيعي أن تزداد مخاوفه من الحسين وأبنائه بعد أن تولى فيصل عرش العراق وأصبح عبد الله أمير شرقي الاردن .

أما صديقة الطرفين بريطانيا العظمى ! فقد قامت في أواخر ١٩٢٣ بمحاولة اخرى لتصفية الوضع بين ابن السعود من جهة وبين جيرانه في الحجاز والعراق وشرقي الاردن . ونجحت هذه المحاولة في عقد مؤتمر الكويت (الذي رفض الحسين أن يرسل مندوبيه اليه) ، ولكن الدبلوماسية البريطانية أخفقت في تأليف القلوب المتنافرة .

في صيف ١٩٢٤ عمد ابن السعود إلى تسيير حملتين الاولى ضد شرقي الاردن والثانية ضد الحجاز . وبينما منيت الحملة الاولى بالاخفاق والحقت بالمهاجمين خسائر فادحة ، فان الحملة الثانية لقيت نجاحاً لم يكن ابن السعود يتوقعه . فقد استطاعت الاستيلاء على الطائف (٧ ايلول ١٩٢٤) بسهولة . ولم يستطع الملك حسين حشد قوات كافية لمقاومة السعوديين فتنازل عن الملك لابنه الاكبر علي . ودخل السعوديون مكة، بعد ذلك بقليل، ثم ضربوا نطاق الحصار على المدينة وعلى جدة فاضطرتا إلى الاستسلام في كانون الاول ١٩٢٥ ، أما علي فقد لجأ إلى

اخيه فيصل في العراق [1] ، وأما الحجاز فقد أصبح منذ ذلك الحين جزءاً من المملكة العربية السعودية .

مفارق الطرق : في أوائل الحرب اتصلت الحكومة البريطانية بالشريف حسين وتبادلت معه الرسائل وشجعته على القيام بالثورة ، على أساس انه يمثل الفكرة القومية العربية وينطق باسم العرب الآسيويين عموماً . ومع ان الحكومة البريطانية ظلت تسير مع الشريف والعرب في نطاق هذا المفهوم طوال سني الحرب ، الا أنها لم تعترف بالحسين ملكا على البلاد العربية بل ملكا على الحجاز فقط . ولمس الشريف أثر التراخي في موقف بريطانيا منه بعد أن رجحت كفة الحلفاء في ميادين الحرب . فبعث في ٢٨ آب ١٩١٨ برسالة إلى السير ريجنالد ونجت أجمل فيها الوضع بين العرب وبريطانيا والتزامات بريطانيا تجاه العرب كما فهمها . وسنبحث هذه الرسالة في الفصل القادم .

وكان المسؤولون البريطانيون يقولون للملك حسين ان مؤتمر السلم سوف يعمل على تسوية جميع القضايا المعلقة ، ولكن الملك كان يصر على انه لا علاقة له بمؤتمر السلم وان بريطانيا تعاقدت معه وعليها أن تفي بشروط التعاقد . ثم ان الملك حسين كان في أعماق نفسه يعتقد ان السياسيين البريطانيين المشهورين ببعد النظر سوف يقتنعون إن عاجلا او آجلا ان مصلحة بلادهم ترتبط مع مصلحة العرب وعندئذ سيعملون على تحقيق أماني العرب من أجل كسب ثقة العرب وصداقتهم ومن أجل تأمين المصالح البريطانية عن طريق تلك الثقة والصداقة . وكان على مثل اليقين ان اولئك الدهاقنة لن يقدموا على معاداة العرب لما ينطوي عليه ذلك من إضرار بمصلحتهم . وفي الوقت ذاته كان الحسين يهدد الانكليز بالانسحاب ، اعتقاداً منه ان العرب جميعاً سيرفعون لواء الثورة عندما يعلمون أنه انسحب من مركز القيادة ، احتجاجا على تقصير بريطانيا في الوفاء بالتزاماتها تجاههم .

---

(١) توفي الملك علي في بغداد يوم ١٤ شباط ١٩٣٥ .

وذهب فيصل الى اوروبا ليبسط قضية العرب جميعاً ويكون ناطقاً باسمهم ، ولكن الدول الكبرى – ومنها بريطانيا – لم تعترف بــه سوى ممثل للحجاز فقط . وتركزت المباحثــات السياسية في يد فيصل وألقيت الاضواء عليه ، بينما بقي الحسين في الظل ووراء الستار . وكان الحسين يؤكد دائما على فيصل ضرورة الالتزام بمبادىء الثورة والاعتماد على بريطانيا، ويحذره من تجزئة الاقطار العربية كيلا يصيب العرب في بلادهم ما أصاب أسلافهم في الاندلس على أيدي ملوك الطوائف . ولكن فيصلاً تعرّف في اوروبا على حقائق السياسة الدولية التي تسيطر عليها المصالح والمنافسات ، وأخذ يقتنع رويداً رويداً ان المطالبة بكل شيء دفعة واحدة لن يأتي بنتيجة ايجابية ، خاصة لان العرب لم يكونوا يملكون البنية القوية التي ترغم الدول الكبرى على الاستجابة لأمانيهم – كما حدث بالنسبة إلى الاتراك . وقد زاد الطين بلة بالنسبة إلى الحسين والقضية العربية ان زعماء العرب كانوا أبعد ما يكونون عن الوقوف صفاً واحدا في وجه الاخطار المحدقة بهم .

على ان الحسين وفيصلاً مضيا يخوضان المعركة السياسية بكثير من الاصرار ، على الرغم من ان المنازعات العربية كانت تفعل فعلها في اخفاق مساعيهما. ولا شك ان الهزيمة التي لحقت بالجيش الحجازي في تربة قد قلّلت كثيراً من أهمية الملك حسين في نظر بريطانيا وفرنسا بالذات ، وقلّلت بالتالي من فرص الاستجابة لمطالبه .

وأوفدت الحكومة البريطانية في كانون الثاني ١٩٢٠ المارشال اللنبي إلى جدة في محاولة منها لتهدئة مشاعر الحسين بعد انسحاب قواتها من سورية . ولكن الرسالة التي أبلغها اللنبي للحسين كانت تدور حول رغبة بريطانيا في حل الخلاف بينه وبين ابن سعود عن طريق لجنة تحكيم . وقد ردّ الحسين بأنه لا يعتقد أن خلافه مع ابن سعود ذو أهمية كبيرة بل قال « ان ذهني مشغول جداً بمشاكل سورية وبموقفي تجاه العرب » . وقال ان قيام بريطانيا بتسليم سورية لحليفتها فرنسا جعل جميع الجهود التي بذلها العرب ابّان الحرب تذهب عبثاً وبلا فائدة . وعندما قال

اللنبي أنه لا يستطيع بحث قضايا تتعلق بسورية ؛ بلغ التأثر من الملك انه بكى وتملكته العصبية .[1]

وفي الشهر التالي – شباط – حوّل الملك ٥٠ الف جنيه إلى شوقي بك (المهندس الذي عمل في انشاء خط سكة حديد الحجاز) على مصر من أجل المباشرة باصلاحه . ولكن الانكليز اتهموه بأن المقصود اثارة القبائل ضدهم وضد الفرنسيين . فبادروا إلى قطع الاعانة المالية .[2]

ولبى الأمير عبد الله الدعوة التي تلقاها من اللنبي لزيارة القاهرة (٢٦ نيسان – ١١ ايار) . وعندما حاول الأمير بحث القضية العربية بمجموعها اعتذر اللنبي قائلا ان حكومته « لا تستطيع أن تعترف بحق الملك في التكلم باسم أقطار مثل سورية والعراق لان سكانها لم ينتخبوه ناطقاً باسمهم ؛ وان الموضوع كله خرج من أيدي حكومة جلالته إلى أيدي المجلس الأعلى لمؤتمر السلم » . وكان الامير عبد الله يحمل أمراً من أبيه بتعيينه رئيسا للوفد العربي في مؤتمر السلم ، بعد أن أصبح فيصل ملكا في سورية . ولكن اللنبي قال ان هذا الامر لا يقبله الحلفاء[3] . وقد وافقت وزارة الخارجية البريطانية على تصريحات اللنبي هذه متناسية انها خاطبت الحسين عامي ١٩١٥ و ١٩١٦ بالنيابة عن عرب آسيا كلهم دون أن تطالبه بالحصول على توكيل منهم .

وظهر تخلي بريطانيا عن العرب واضحاً في مؤتمر سان ريمو . وعندما أبرق الحسين إلى لويد جورج بشأن الدعوة التي تلقاها فيصل لزيارة أوروبا يومذاك . ردّ عليه لويد جورج ان مؤتمر السلم هو الذي منح بريطانيا الانتداب على فلسطين ومنح فرنسا الانتداب على سورية ،

---

(١) راجع تقرير اللنبي عن زيارته للملك حسين خلال ٧ – ٩ كانون الثاني ١٩٢٠ والرسالة التي أبلغها له في British Documents, vol. IV, pp. 617-620.

(٢) رسالة الحسين إلى المعتمد في ٢١ جمادى الاولى ١٣٤١ (٨ كانون الثاني ١٩٢٣) والأصل العربي في الملف F.O. 686/75.

(٣) Allenby to Curzon, letter no. 503 of 16 May 1920, B.D. XIII, pp. 259-260. ومذكرات الملك عبد الله ص ١٦٧ .

وان الحكومة البريطانية لا تتنصل من أية عهود ارتبطت بها .[1] وكان جواب الملك حسين انه لفت انتباه لويد جورج إلى ما تضمنته رسائل مكماهون من عهود . وطالب باستقلال العراق وجزيرة العرب وسورية وفلسطين[2] . وبعد يومين بعث ببرقية ثانية يقول انه أعلن الثورة على الاتراك بناء على وعود بريطانيا « وكانت النتيجة هلاك الاتراك والعرب .. اذا حصل الناس على حقوقهم فسيكونون في خدمتكم إلى الابد — واذا لم يحصلوا عليها فسيكون هناك عداء وبغضاء » .[3]

وفي صيف ١٩٢٠ نشب خلاف شديد حول ادارة المحاجر الصحية، فقد انشأ الانكليز محجراً صحياً في جزيرة قمران وطلبوا الاكتفاء به « للمحافظة على صحة الحجاج والعالم عموماً » ولكن الملك حسين أصرّ أن يبقى محجر جده . وقد وافق الأمير عبد الله برسالة خطية أن يقوم طبيب بريطاني بتفتيش السفن التي تقل الحجاج وان يتولى الاشراف على المحاجر . ولكن الملك رفض ذلك اعتقاداً منه أنه ينطوي على انتقاص لاستقلال الحجاز ويمس بالاختصاصات الدينية . وعندما بعث الكولونيل فيكري المعتمد البريطاني في جدة رسالة إلى الملك يسأله عما اذا كان يعترف بتوقيع الأمير عبد الله وزير خارجية الحجاز . ردّ عليه الملك قائلا « ما دمت تتحدث عن توقيع عبد الله وتضغط علينا اعتماداً عليه ، فاننا نرجو أن تذكروا توقيع مكماهون الذي تعرفونه وتعرفون أهميته ، وبعد ذلك ذكّرونا بتوقيع عبد الله ... تأمل هذا ! » . وأبرق فيكري يوصي اللنبي بارسال انذار للملك بايقاف الاعانة وسحب المعتمدية البريطانية من الحجاز . وبالفعل اقترح اللنبي في ٢ حزيران ١٩٢٠ على وزارة الخارجية ارسال الانذار ولكن وزارة الخارجية لم توافق .

---

(١) برقيتا الحسين بتاريخ ٢٢ و ٣٠ ايار وبرقية لويد جورج بتاريخ ١٥ حزيران ١٩٢٠ ، أوراق الأمير زيد ، و Curzon to Allenby, Tel. No. 540; B.D. XIII, p. 288.

(٢) برقية بتاريخ ٣ تموز ١٩٢٠ Allenby to Curzon, Tel. No. 650, Ibid., pp. 306-307.

(٣) Allenby to Curzon, Tel. No. 658 of 5 July 1920, Ibid., p. 309.

وكانت النتيجة سحب فيكري من منصبه بينما عمد الامير عبد الله إلى الاستقالة من وزارة الخارجية (٧ حزيران ١٩٢٠) [١] ومنذ ذلك الحين أخذ الشيخ فؤاد الخطيب يقوم بتصريف شؤون وزارة الخارجية وكالة إلى أن عيّنه الحسين وزيرا أصيلا للخارجية في تموز ١٩٢١ .

وأبى الملك حسين تصديق معاهدتي الصلح مع المانيا (معاهدة فرساي ٨ حزيران ١٩١٩)ومع تركيا (معاهدة سيفر في ١٠ آب ١٩٢٠) على الرغم من الحاح الحكومة البريطانية عليه وتحذيرها اياه من ان رفضه التصديق يعرّض الحجاز للخطر . وكان جواب الملك انه على استعداد للتصديق « اذا وفت حكومة جلالته باتفاقياتها » . ومع ان الملك كان يعاني من ضائقة مالية شديدة بعد انقطاع الاعانة البريطانية (مرت عليه ثلاثة أشهر دون ان يدفع مرتبات جنوده وأخذ يستدين من التجار لتغطية النفقات الضرورية) فانه رفض مبلغ ٣٠ الف جنيه عرض المعتمد البريطاني في جده ان يقدمها له اذا وقّع المعاهدتين [٢] . وتحقق المسؤولون البريطانيون يومذاك ان الملك حسين ناقم أشدّ النقمة على بريطانيا لسكوتها عن استيلاء الفرنسيين على سورية ولايقاف الاعانة ولرفض لويد جورج دعوة فيصل لزيارة لندن [٣] . وارتأى اللنبي ان الملك حسين يمكن ان يوافق على توقيع معاهدة فرساي اذا دعي لزيارة لندن ؛ ولكن كرزون قرر ان يدعو فيصلاً الذي كان يومذاك في ايطاليا لبحث احتمالات تسوية عربية معه . وفي شباط ١٩٢١ وجه الميجر باتن (الذي حل محل

---

(١) المخابرات في الملفين .F.O. 686/43 & 686/63 وجاء في تقرير الكولونيل فيكري قوله ان بريطانيا قدمت ما فيه الكفاية للملك حسين بدل مشاركته في الحرب . «لقد حاك المؤامرات ضدنا في سورية ونجد وعسير واليمن وحايل،وأرسل الرسل إلى الآستانة والهند ، وبدأ في جريدة القبلة حملة دعائية نزقة ضد بريطانيا العظمى ، فلماذا نستمر في تعضيده؟...» Political Report 22 May — 1 June 1920, F.O. 686/26. وكان من مضاعفات قضية المحاجر هذه ان استقال محمود القيسوني وزير حربية الحجاز وعاد إلى بلاده (مصر) فحل محله صبري العزاوي (عراقي) .

(٢) Curzon to Scott, Tel. No. 835 of 28 Sept. 1920, Ibid., pp. 348-9.

(٣) Scott to Curzon, letter No. 1110 of 30 Sept. 1920, Ibid., pp. 352-4.

فيكري معتمداً في جده) سؤالاً للملك عن الاسباب التي تمنعه من توقيع معاهدة السلم ؛ فأجاب بأنه « لا يجب ان يُنتظر منه وضع اسمه على وثيقة تعطي فلسطين للصهيونيين وسورية للاجانب ... » (١)

كانت الحكومة البريطانية ترغب في تصفية جميع القضايا المعلقة مع العرب ، لذلك أخذت دائرة الشرق الاوسط – بعد التسوية التي توصل اليها مؤتمر القاهرة – تعمل على اعداد مسودة معاهدة بين بريطانيا والحجاز . وقد اختير لورنس للقيام بمهمة التفاوض مع الملك حسين . فأبحر في ٨ تموز ١٩٢١ من بريطانيا يصحبه حداد باشا . وعند وصوله إلى جدة جاء الملك حسين من مكة ومعه الاميران علي وزيد والشيخ فؤاد الخطيب وزير الخارجية .

وعقد لورنس اجتماعه الاول مع الملك يوم ٣٠ تموز . فافتتح الحديث بقوله : ان هناك ديناً يراد توفيته ولا يتيسر دفعه برمته الان ، ولكن يدفع منه قسط غير قليل على أن ينظر في تسديد الباقي في المستقبل . ثم قدم اليه مسودة المعاهدة التي حملها معه من لندن ، فوعده الملك بدراستها .

وتتالت الاجتماعات بعد ذلك . وطلب الملك تنفيذ جميع العهود المقطوعة للعرب ؛ فقال لورنس ان هذا خارج عن حدود اختصاصه . وفي ٤ آب أبرق لورنس إلى كرزون يقول انه اكتشف ان الملك يلعب به ، وأن الملك « أوضح بجلاء انه يرفض رفضاً تاماً فكرة عقد المعاهدة ، ولكنه يتوقع الاعتراف بملكيته على العراق وفلسطين ؛ وان تكون له الأولوية على جميع امراء شبه الجزيرة العربية الذين يطالب بعودتهم إلى حدود المناطق التي كانوا يحكمونها قبل بدء الحرب ؛ وأن تضم اليه الحديدة وعسير » . وزعم لورنس ان الجواب الذي ردّ به على الملك جعل الدموع تطفر من عينيه ومن عيني وزير خارجيته . (٢)

---

(١) Batten to Curzon, Report dated 20 Feb. 1921, F.O. 686/27.

(٢) Tel. No. L. 6, F.O. 686/74.

ثم أعد الملك مسودة بديلة للمعاهدة رفض فيها المادة ١٥ كما وردت في المسودة البريطانية (وتنص على ان يعترف الملك حسين بانتداب بريطانيا على العراق وفلسطين ، وان يعمل كل ما في وسعه لمساعدة بريطانيا في تنفيذ مواد الانتدابين) . وقد عرض الملك وضع صيغة بديلة لهذه المادة تنص على انه يعترف بالمشارفة البريطانية في العراق وفلسطين او بمشورة بريطانيا ومساعدتها لهما . وظن لورنس ان حاجة الملك للمال سوف تجعله أكثر ليناً فقدم له ٨٠ الف روبيه على حساب الاعانة التي أبلغه انها ستقدم له بصورة منتظمة بعد التوقيع على المعاهدة .[١]

ورد كرزون يهنيء لورنس « على المدى الذي بلغته في اقناع الملك حسين بقبول المعاهدة .. » ويقترح ابدال الصيغة القديمة للمادة ١٥ بصيغة جديدة تنص على ان يعترف الملك حسين « بالمركز الخاص لجلالته البريطانية في العراق وفلسطين طبقاً لميثاق عصبة الامم .. »[٢]

عاد الملك إلى مكة المكرمة بمناسبة ابتداء موسم الحج ، وذهب لورنس إلى عدن . وبعد اسبوعين استؤنفت المحادثات وأبرق لورنس إلى كرزون يقول ان الملك لم يبدل موقفه ولم يعدل مطالبه ، وان جوابه – لورنس – دفع الملك إلى التهديد بالانتحار . وكفّ الملك عن الاجتماع بلورنس فأخذ هذا يتباحث مع علي وزيد وحداد وفؤاد[٣] . وبعد بضعة أيام أبرق لورنس إلى كرزون يقول ان الملك « يشعر انه لا يمكن الحاق الأذى به وهو في مكة ، وهو يودّ أن يصبح شهيداً ، وحتى في حالتنا هذه فاننا لا نستطيع اجتذابه إلى جانبنا الا اذا لجأنا إلى طيبة طبعه ، او قطعنا الاعانة عنه ، او فرضنا الحصار على جدة او أطلقنا ابن سعود

---

(١) Lawrence to Curzon, Tel. No. L. 8 of 7 Aug. 1921, F.O. 686/74.
بعث الملك من مكة رسالة مؤرخة ٥ ذي الحجة ١٣٣٩ (١٠ آب ١٩٢١) إلى لورنس ومارشال (المعتمد) قال فيها انه ما يزال مصراً على مطالبه المعلومة . « وما هذا الا لصيانة القيام بما يجب أداؤه أمام الحقوق والمنافع المشتركة اولا ثم لصيانة عرضي وناموسي الحالي والتاريخي » . – أوراق الأمير زيد .

(٢) Tel. No. 19 of 13 Aug. 1921, Ibid.

(٣) Tel. No. L. 15 of 7 Sept. 1921, Ibid

عليه ». [1] ويبدو ان الملك تعرّض لضغط شديد فصدق معاهدة فرساي، ولكنه أضاف مع توقيعه العبارة التالية «شريطة احترام استقلال العرب». [2] ورد كرزون ان عبارة الملك حسين تلغي تصديقه على المعاهدة ولا يمكن قبولها .

وظلت المباحثات تتأرجح بين التهديد والالحاح طوال اسبوعين . وفي ٢٢ ايلول أبرق لورنس إلى كرزون يقول ان الملك وافق على جميع مواد المعاهدة وأعلن انه سيوقعها ، ولكن عندما قدمها الامير علي اليه صاح في وجهه وارسل التعديلات التي كان يطالب بها في البداية وكلها غير مقبولة . وقد تضمنت مقترحات الملك المعاكسة القول « ... والقسم الغربي من فلسطين وسواحلها لا بدّ ان يعلن فيه ما اعلن في العراق ... » وحيث ان بريطانيا قررت الانسحاب من العراق فعليها ايضاً ان تنسحب من « عموم انحاء فلسطين وترك اختيار مصيره لأهاليه .. » [3]

وهكذا اضطر لورنس ان يغادر جدة في أواخر ايلول دون ان يحرز اي تقدم . فقد أبرق اليه كرزون يطلب اليه الذهاب إلى شرقي الاردن للبحث فيما سيكون عليه مستقبلها . وجاء طلب كرزون نتيجة برقية من صموئيل يقول فيها ان الامير عبدالله يرغب في مغادرتها نهائياً . [4]

وهكذا - كما يقول فيلبي - « لم تثمر الرشوة ولا التهديد في حمل الرجل الشيخ على تغيير موقفه المعارض لسياستنا بصورة عامة في جميع ربوع المنطقة . وفي النهاية أحسّ لورنس باليأس فغادر جدة بعد أن أوصى الحكومة البريطانية بقطع المعونة المالية عن الحجاز ، والتخلي عن حسين ليقطف ثمار عناده وصلابته » . وكانت مهمة لورنس - كما حددها فيلبي - ان « يقنع الملك حسين بالموافقة على المخطط العام للسياسة

---

(١) Tel. No. L. 19 of 11 Sept. 1921, F.O. 686/93.

(٢) Lawrence to Curzon, Tel. No. L. 21 of 16 Sept. 1921, Ibid.

(٣) Tel. No. L. 25 of 22 Sept. 1921, F.O. 686/74. والمقتطفات عن النص العربي.

(٤) Curzon to Lawrence, Tels. Nos. 4 & 5 of 16 Sept. 1921, Ibid.

البريطانية في الشرق الاوسط، وخاصة فيما يتعلق بالمقاصد الصهيونية في فلسطين ». [١]

وتولى المعتمد البريطاني مارشال مواصلة المباحثات بعد رحيل لورنس وعرض على الملك ان ولي عهد بريطانيا سوف يزوره ويوجه اليه الدعوة لزيارة بريطانيا ، وأن إعانة بمبلغ ٥ الاف جنيه ستدفع له شهرياً اذا هو وقع المعاهدة . ولكن الملك أصرّ على موقفه وعاد إلى مكة فانقطعت المباحثات .

واثناء وجود لورنس في شرقي الاردن أبرق الامير عبدالله يطلب من ابيه تفويضه بمواصلة التفاوض على المعاهدة . ووافق الملك . وكانت النتيجة ان الامير ولورنس وقعا على المعاهدة في عمان يوم ٩ كانون الاول ١٩٢١ . وأرسل الامير عبد الله المعاهدة إلى ابيه كي يصدقها ، ولكنه رفض وقال للمعتمد البريطاني (١١ كانون الثاني ١٩٢٢) انها باجمعها « كلام فارغ » .

وبعث الملك حسين برسالة طويلة (٣٠ كانون الاول ١٩٢١) إلى لويد جورج يعرض مطالبه معاتباً وشاكياً ، ويقترح ايفاد الامير عبدالله إلى لندن [٢] . ولكن وزارة الخارجية طلبت من المعتمد البريطاني في جدة ان يبلغ الملك انه لا يمكن اجراء أية تعديلات على المعاهدة وانه يجب التصديق عليها حسب النص الذي انتهت اليه ، او رفضها . وهدد الملك بالاستقالة فأبلغته وزارة الخارجية (٢١ شباط ١٩٢٢) ان مسألة كهذه لا شأن لبريطانيا بها ويجب ان يسوّيها بينه وبين شعبه [٣] . ومما زاد حنق الملك حسين ان علاقة المندوب السامي في مصر انقطعت فيما يتعلق بالحجاز ابتداءً من شهر شباط ١٩٢١ ؛ وقيل للملك ان المعتمد في جدة اصبح واسطة المخابرات بين حكومة الحجاز والحكومة البريطانية .

---

(١) H. St. John Philby, Arabian Days (1948), p. 288.

(٢) النص العربي في F.O. 686/74.

(٣) هذه المراسلات في الملف F.O. 686/74. وأنظر أيضا بهذا الشأن : حافظ وهبه ، خمسون عاما في جزيرة العرب ، ص٧٢ .

وطلب الملك في صيف ١٩٢٢ ان يعيّن معتمداً له في لندن ؛ فردت عليه الحكومة البريطانية بانها لا تستطيع الاعتراف بممثل له قبل ان يصدق المعاهدة وأنه « لا مجال هناك لاجراء اية تعديلات على المعاهدة » . (١)

ولكن الحكومة البريطانية في الوقت ذاته وجهت الدعوة إلى الامير عبدالله كي يزور لندن . ووصل الامير (يرافقه علي رضا الركابي والمستر فيلبي المعتمد البريطاني في شرقي الاردن) إلى لندن في ١٥ تشرين الاول ١٩٢٢ . وفي اليوم التالي عقد اجتماعين مع السير كلايتون (المعين لهذه الغاية من قبل وزير المستعمرات) . طالب فيهما الامير بالاعتراف باستقلال شرقي الاردن وعدم تطبيق وعد بلفور عليها ومنحها ميناء على البحر الابيض المتوسط . كما طالب باجراء مباحثات تستهدف انشاء وحدة عربية تجمع شمل المسلمين وتتحالف مع بريطانيا ، والعمل على حل المسألة السورية (٢) . ولكن المحادثات لم تلبث ان توقفت اذ سقطت وزارة لويد جورج يوم ١٩ تشرين الاول وألّف بونار لو وزارة جديدة حلّ فيها الدوق ديفونشاير محل المستر تشرشل وزيراً للمستعمرات .

وعندما طال أمد انقطاع المحادثات صمّم الامير على العودة إلى شرقي الاردن ، ولكنه قبل سفره قدم مذكرة إلى اللورد كرزون قال فيها ان الثورة العربية قامت « تجسيداً ونتيجة للشعور القومي التقدمي للكثرة الغالبة من أبناء الامة العربية في الاقاليم العربية الخاضعة للدولة العثمانية».وقال ايضاً إن مراسلات الشريف ومكماهون تؤلف اتفاقاً ملزماً للطرفين وإن « المبادىء الاساسية التي تم الاتفاق عليها بين الفريقين يومذاك تقوم على انشاء مملكة عربية كبيرة تتمتع بالاستقلال التام وحقوق السيادة». ثم اقترح الامير الدخول في مفاوضات تستهدف قبول مبادىء الثورة العربية وبحث المسألة السورية . (٣)

---

(١) F.O. to Marshall, letter no. 96 of 5 Aug. 1922, F.O. 686/74.

(٢) عن المحضر الذي أعده الركابي في C.O. 733/37/51982 وكانت جمعية الامم قد وافقت في ١٦ ايلول ١٩٢٢ على توصيات الحكومة البريطانية باستثناء شرقي الاردن من أحكام وعد بلفور .

(٣) Letter dated 13 Nov. 1922, F.O. 686/75.

غادر الامير بريطانيا إلى الحجاز ، وبقي الركابي في لندن لاتمام البحث في المسائل المتعلقة بشرقي الاردن . وبعد ان اجتمع الامير بابيه الحسين وبسط له الوضع السياسي ، عاد إلى عمان فبلغها في ١ كانون الثاني ١٩٢٣ .

اما ردّ وزارة الخارجية على مذكرة الامير فقد جاء فيه ان الحكومة البريطانية لم تعط أي وعد « بانشاء مملكة عربية كبيرة » وانها اعتبرت دائماً ان فلسطين وسورية الغربية كانت مستثناة بموجب رسالة مكماهون المؤرخة ٢٤ تشرين الاول ١٩١٥ وان « القاعدة الوطيدة لانشاء الوحدة العربية هي الثقة المتبادلة والصداقة بين الزعماء العرب الذين يستطيعون وحدهم ان يصهروا العناصر المختلفة التي يحكمونها في بوتقة واحدة » .[1]

في تلك الاثناء كانت الحكومة البريطانية تعقد محادثات مع الاتراك الكماليين في لوزان لوضع معاهدة صلح جديدة بدلا من معاهدة سيفر . وبهذه المناسبة بعث الحسين برقية إلى وزارة الخارجية البريطانية يتساءل فيها عن تعهد الحكومة البريطانية بأن لا تعقد صلحاً مع الاتراك « الا اذا كان من ضمن شروطه الأساسية حرية الشعوب العربية .. » . ويقول ان العرب رفضوا الصلح المنفرد الذي عرضه الاتراك بضمانة المانيا فكيف تعقدون الصلح معهم دون حضورنا ؟ [2]

وبعد وصول الامير عبدالله إلى الحجاز كتب الحسين إلى المعتمد يلفت نظره إلى ما جاء عنه في كتاب (نبذة من وقائع الحرب الكونية) وما جاء في جريدة الماتان قبل ذلك من اتهام له . ويقول انه اذا كانت هذه الاتهامات توجه اليه وهو لم يوقع معاهدة فرساي بعد ، فماذا سيقال عنه اذا هو أقدم على توقيعها ؟ [3]

---

(١) Letter dated 11 Jan. 1923, Ibid.

(٢) البرقية بتاريخ ٢٤ صفر ١٣٤١ (١٦ تشرين الأول ١٩٢٢) — النص العربي في F.O. 686/74. بدأت مفاوضات بريطانيا مع الأتراك الكماليين في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٢٢ وتم توقيع المعاهدة يوم ٢٤ تموز ١٩٢٣ .

(٣) الرسالة بتاريخ ٢٠ ربيع الثاني ١٣٤١ (٩ كانون الاول ١٩٢٢) والنص العربي مع=

وعاد الحسين يكتب إلى المعتمد طالباً منه ابلاغ حكومته ان « الروح بلغت الحلقوم بوقوع مصالح الجميع تحت الخطر المشهود » .. وأن ما يجري الان ليس سوى « سحق ومحق للعرب ويخالف الشعور والحسّيات المنتظرة من بريطانيا وآمال العرب في عظمتها » . ولفت النظر إلى حملات الصحف المتكررة عليه وتساؤلاتها عما حقق للعرب والمسلمين من الثورة. وقال ان عصمت باشا (اينونو) أبلغ مندوبه في لوزان ان الحكومة التركية « لا مطمح لها ضد مصالح البلاد العربية وانها معترفة باستقلال العرب التام » ، وان الفرصة سانحة امام بريطانيا الان لانالة العرب حقوقهم .[1]

وفي كانون الاول ١٩٢٢ انتدب الحسين الدكتور ناجي الاصيل للذهاب إلى لوزان والاتصال برؤساء الوفود التي ستتباحث مع الاتراك الكماليين وعرض وجهة النظر العربية . وقد أجرى الاصيل مباحثات مع اللورد كرزون في لوزان ثم في لندن . وتبيّن لوزارة الخارجية البريطانية ان المعاهدة التي كان يحملها الاصيل مقبولة كلها لولا ان الحسين أسقط المادة ١٧ منها وهي المادة التي « تعترف بالمركز الخاص لحكومة جلالته في فلسطين والعراق »[2] . وقد أدّت مباحثات الاصيل في لندن إلى وضع نصّ جديد للمعاهدة وقعه كرزون (١٦ نيسان ١٩٢٣) بالحروف الاولى من اسمه وعاد الاصيل به إلى الحجاز . وبدا للملك حسين ان المشروع الجديد أقرب للقبول من المشروع الذي عرضه لورنس فوقعه بعد ان ادخل بعض التعديلات على المادة الثانية (حلت محل المادة ١٧) المتعلقة بالانتداب على العراق وشرقي الاردن وفلسطين . وازداد الامل باحتمالات النجاح حتى ان الحكومة البريطانية أبلغت الملك

= ترجمته في الملف .F.O. 686/75 أما الكتاب المشار اليه فهو من تأليف لطف الله نصر ، طبعة بيروت ، ص ٥١٢ .

(١) الرسالة بتاريخ ٢٧ جمادى الثانية ١٣٤١ (١٣ شباط ١٩٢٣) – النص العربي في الملف .F.O. 686/75

(٢) من وزارة الخارجية إلى وزارة المستعمرات Letter Ref. E. 11258/249/19 of 14 Nov. 1922, F.O. 686/75.

في ١٠ أيار نص تصريح رسمي يتعلق بالاعتراف باستقلال العراق وشرقي الاردن . ولكن وزارة الخارجية لم توافق على تعديلات الحسين واقترحت صيغة جديدة بشأن فلسطين وفي ٤ حزيران أبرق المعتمد إلى وزارة الخارجية بان الملك حسين اقترح ان يُزال من المعاهدة اي غموض حول ادخال فلسطين في الاتحاد العربي الذي سيتألف في المستقبل .[١]

ولكن احتمالات النجاح أصبحت ضعيفة بعد ان بادرت حكومة فلسطين في ٥ حزيران ١٩٢٣ إلى نشر مجمل بنود المعاهدة ، فقد أحدث نشرها دوياً شديداً بين عرب فلسطين وأبرق موسى كاظم الحسيني إلى الحسين يقول ان النصوص المنشورة لا تحقق أماني العرب . ورد الحسين عليه قائلاً انه لن يتأخر عن أداء واجباته وانها « حركة عليها نحيا وعليها نموت. »[٢]

وعندما عاد الاصيل إلى لندن وقدّم نص المعاهدة إلى وزارة الخارجية البريطانية : عمدت هذه إلى ايضاح موقفها المؤيد لأحكام وعد بلفور ، في رسالة منها اليه رفضت فيها تعديلات الحسين على المادة الثانية . وقالت انها ترغب ان تتفادى اي اختلاف قد ينشأ في المستقبل حول تفسير المادة ١٩ ولذلك تعلن ان التزامات بريطانيا بموجب ميثاق عصبة الامم يعني في مضمونه « الالتزام بتسهيل انشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين ... » وقد أكدت الرسالة « ان نص المعاهدة وضع في صيغة تضمن اعتراف الملك حسين بالمركز الخاص لحكومة جلالته في فلسطين، بكل ما يحمل ذلك من معاني ... » واذا تبيّن للحكومة البريطانية ان الملك حسين غير مستعد ان يقبل تلك المادة بالمعنى الذي تفهمه هي ، فسيكون من الضروري على الحكومة البريطانية ان تعيد النظر في الوضع كله قبل الاستمرار في المباحثات » .[٣]

وربما نستطيع ان نزداد علماً بالتيارات التي كانت تؤثر في مجرى

---

(١) مراسلات متعددة بشأن مشروع المعاهدة في الملف F.O. 686/75.

(٢) أمين سعيد : المجلد الثالث ، ص ١٧٠ . والبرقية بتاريخ ٧ حزيران ١٩٢٣ .

(٣) Lancelot Oliphant to Dr. Naji el Assil, letter dated 9 Aug. 1923, F.O. 686/75.

السياسة البريطانية تجاه هذا الموضوع . من رسالة بعث بها هربرت صموئيل إلى الدوق ديفونشاير وقال فيها انه « من المحتمل ان التهديد المتزايد على الحجاز من قبل الوهابيين يمكن ان يجعل الملك حسين أكثر تساهلاً واستعداداً لقبول الشروط التي تتلاءم ومقتضيات سياستنا في فلسطين » . ثم نصبح باطالة أمد المباحثات حتى يتضح الموقف أكثر بين الحجاز ونجد ؛ لان توقيع المعاهدة يمكن ان يجعل الملك حسين يعتقد ان بريطانيا ملزمة بمساعدته لصد هجمات السعوديين . (١)

وفي اوائل تشرين الثاني ١٩٢٣ قدّم ناجي الأصيل صيغة جديدة للمادة الثانية من مشروع المعاهدة . تنص على ان تعلن الحكومة البريطانية استعدادها لان تنشىء في فلسطين « حكومة تمثيلية وطنية تتمتع بأكبر قسط من الاستقلال انسجاماً مع السياسة التي أعلنها الكتاب البريطاني الابيض الصادر في حزيران ١٩٢٢ . وان تنص المادة ذاتها بعد ذلك على اعتراف الملك حسين بالمركز الخاص لبريطانيا في فلسطين . ولكن وزارة الخارجية طلبت منه ان يستوثق اولا حقيقة رأي الملك حسين في الصيغة التي قدمها .(٢)

وجاء الملك حسين إلى شرقي الاردن زائراً . ووصل إلى عمان يوم ٨ كانون الثاني ١٩٢٤ فعقد معه هربرت صموئيل وجلبرت كلايتون مباحثات أدّت إلى اقتراح منهما باسقاط المادة الثانية كلياً من المعاهدة المقترحة ، حتى يصبح بمقدور الملك توقيعها دون حرج . ولكن المستر توماس وزير المستعمرات حينذاك رفض الاقتراح قائلاً ان ذلك يؤدي إلى استمرار الأوضاع التي خلقها حسين وسوف يفسر العمل به على انه « هزيمة منكرة لسياسة تصريح بلفور وسيشجع بصورة مباشرة عرب فلسطين على تجديد هياجهم . الساكن حالياً » ، وان المفاوضات يجب

---

(١) Ref. No. Pal/435 dated 16 Nov. 1923, F.O. 686/75.

(٢) ورد النص في مذكرة مؤرخة ١٦ ايار ١٩٢٤ كتبها المستر مالت حول المفاوضات لعقد المعاهدة ، F.O. 686/76.

ان تدور في جدة وليس في عمان [١] . واقترح الملك حسين ايفاد الامير علي إلى لندن لمواصلة المباحثات ، ولكن وزارتي الخارجية والمستعمرات رفضتا الاقتراح على أساس ان المعتمد البريطاني في جدة هو واسطة المخابرات المثلى بين الطرفين . وجاءت مبايعة الملك حسين بالخلافة (١٢ آذار ١٩٢٤) تعطي الحكومة البريطانية سبباً جديداً للتردد في عقد المعاهدة حتى لا تُتهم بأنها شجعت الحسين على تلك الخطوة . وفي ٢٠ آذار غادر الحسين عمان إلى الحجاز بعد ان تضايقت حكومة فلسطين من وجوده في شرقي الاردن وبعد ان أفهمته ان زيارته للقدس غير مرغوب فيها . [٢]

وازدادت الحكومة البريطانية تصلباً تجاه الحسين فأبلغته في ١٥ آب ١٩٢٤ انه نتيجة لهجمات رجال العصابات العربية على بعض المراكز الفرنسية في سورية ، فانها قد قررت فرض قيود جديدة على شرقي الاردن ولن تسمح للامير عبدالله بالعودة إلى عمان اذا لم يوافق عليها . [٣]

وعلى الرغم من ذلك بعث الملك حسين في ٢١ آب ١٩٢٤ رسالة إلى وزير الخارجية البريطانية يطلب مجيء بعثة بريطانية إلى جدة – او استقبال بعثة عربية في لندن – للعمل على ازالة سوء التفاهم بين الحكومتين ولكن الرد لم يكن ايجابياً اذ كرر وزير الخارجية المستر رمزي مكدونلد القول انه لا توجد ضرورة لذلك ، وان المعتمد البريطاني (ريدر بولارد) حائز على ثقته التامة لاجراء اية مباحثات ترغب حكومة الحجاز في اجرائها . [٤]

وفي الوقت ذاته قدّم ناجي الاصيل إلى وزارة الخارجية معاهدة

---

(١) Tel. No. 65 dated 22 Feb. 1924, Ibid.

(٢) Sir Alec Kirkbride : A Crackle of Thorns, pp. 37-38; and Major C.S. Jarvis : Arab Command, pp. 110-111.

(٣) رسالة من المعتمد البريطاني في جدة إلى الملك حسين بتاريخ ١٥ اب ١٩٢٤ No. M. 600/52 F.O. 686/76. هدد الفرنسيون يومذاك بالزحف على شرقي الاردن لمطاردة العصابات . أما الأمير عبد الله فقد كان يومذاك في طريقه من الحجاز إلى شرقي الاردن .

(٤) رسالة وزارة الخارجية البريطانية بتاريخ ٢٦ ايلول ١٩٢٤ – (F.O. 686/76.).

جديدة كان قد جاء بها من الحجاز بعد ان وقعها الملك حسين : وقد صيغت المادة الثالثة منها حسب الاقتراح الذي كان قدمه في تشرين الثاني ١٩٢٣ (أشير اليه سابقاً) . ولكن تقديم المعاهدة جاء بعد استيلاء السعوديين على الطائف وتنازل الملك حسين . فردّت وزارة الخارجية على الاصيل قائلة ان الاحداث الاخيرة في الحجاز تجعل الحكومة البريطانية غير مستعدة للدخول في اية مباحثات اخرى .[1]

كان من نتائج نجاح الهجوم السعودي على الحجاز ان تنازل الملك حسين يوم ٣ تشرين الاول ١٩٢٤ ثم غادر الحجاز بعد ايام إلى العقبة . واغتنمت الحكومة البريطانية الفرصة لاقناع الملك علي (الذي خلف أباه) بالتخلي عن منطقة معان — العقبة الى شرقي الاردن ، وأنذرت ابن السعود في الوقت ذاته بان لا يعمد الى مهاجمتها باعتبارها واقعة تحت الانتداب البريطاني . وأقام الحسين في العقبة ستة أشهر تقريباً يعمل على مساعدة ابنه علي في الدفاع عن بلاده . وعندئذ هدّد سلطان نجد بارسال حملة الى العقبة ؛ فأرسلت السلطات البريطانية بارجة حربية الى العقبة وقدم قائدها في ٢٨ أيار ١٩٢٥ انذارا الى الحسين بو جوب مغادرة العقبة خلال ثلاثة اسابيع[2] . وقد رفض الحسين مغادرة العقبة في بادىء الامر فأرسل البريطانيون بارجة اخرى إلى العقبة وجاء الامير عبدالله يسعى لاقناع والده . وبعد تمنع طويل وافق على السفر إلى قبرص . وفي ١٨ حزيران

---

(١) رسالة ناجي الاصيل بتاريخ ٢٥ ايلول ١٩٢٤، F.O. 636/76 ورسالة الخارجية البريطانية بتاريخ ١٣ تشرين الاول ١٩٢٤ . ولا بد من القول ان الاصيل قام بمحاولة اخرى في هذا السبيل بالنيابة عن الملك علي . فقد قدم إلى وزارة الخارجية البريطانية بتاريخ ٢٧ كانون الثاني ١٩٢٥ صيغة جديدة للمادة الثالثة تنص على ان فلسطين جزء لا يتجزأ من البلاد العربية ، وأن الحكومة البريطانية تتعهد بتأليف حكومة وطنية دستورية فيها تتمتع بدرجة واسعة جداً من الاستقلال انسجاماً مع مبادىء الكتاب البريطاني الابيض لسنة ١٩٢٢ . ولكن وزارة الخارجية عادت تؤكد في ٧ نيسان ١٩٢٥ انه لا يوجد أي مجال للبحث في موضوع المعاهدة ما دامت حالة الحرب قائمة في الحجاز . المخابرات في الملف 686/77.

(٢) نص الانذار في أمين سعيد المجلد الثالث ص ص ٢٠٨ و ٢٠٩ وفي الملف 686/78.

١٩٢٥ غادر العقبة على البارجة دلهي فأبحرت به إلى قبرص.[1]

بقي الحسين في قبرص حوالي سبع سنوات إلى ان اشتد عليه المرض فنقل إلى عمان في اوائل سنة ١٩٣١ وتوفي فيها يوم ٤ حزيران ثم دفن في ساحة الحرم الشريف في مدينة القدس.

لم يجد الملك حسين في وقت شدته من يقدم له مساعدة فعّالة. وقد ابى ان يطلب المساعدة من بريطانيا التي أعلنت انها على الحياد. ولم يستطع عرب الاقطار المجاورة ان يبدلوا مجرى الأحداث. ولكن الفكرة المثالية التي قام الحسين من اجلها لم تزل بزواله، فقد ظل العرب يتوقون إلى الوحدة ويطمحون إلى الاستقلال. وظلوا منذ ذلك الحين يتصارعون مع الأحداث طوراً تضربهم القوى الاجنبية وطوراً يضرب بعضهم البعض. لقد أخفقت المحاولة الاولى من أجل قيام الوحدة العربية. ثم تبعتها محاولات ومحاولات كان نصيبها الاخفاق واحدة بعد اخرى. ذلك ان الامة العربية لم تبلغ بعد مرحلة النضوج التي تؤهلها لتحقيق ذلك الهدف العظيم. لقد رأينا كيف أخفقت المساعي لانشاء الوحدة العربية، ولكن علينا ان نقف في الفصل القادم على صورة ذلك الكيان الوحدوي الذي كان الشريف حسين وابنه فيصل يتصوران قيامه.

ان سيرة الحسين حافلة بالعبر والعظات. لقد أعلن الثورة في سبيل هدفين عظيمين: وحدة العرب واستقلالهم. ولكن تحقيق ذينك الهدفين استعصى عليه لان العقبات التي اعترضته كانت أقوى منه وأكبر من عرب تلك الايام. واذا كان الحسين قد أخفق في المهمة التي تصدى لحملها، فانه قد ترك للأجيال العربية من بعده امثولة تحمل كل معاني العظمة: لقد ثبت على المبدأ الذي أعلن الثورة في سبيله وأصرّ على حقه وحقّ قومه اصراراً لم تزعزعه الاحداث ولم تنل من قوته النكبات.

---

(١) طلب الحسين ان يسمح له بالاقامة في احدى مدن فلسطين، وطلب فيصل ان يقيم أبوه في العراق كما اقترح عبد الله أن تكون عمان مكان إقامة له، ولكن الحكومة البريطانية رفضت قبول أي من هذه الطلبات. راجع F.O. 686/78.

الفصل العاشر

اول مشروعات الوحدة العربية

الوحدة كما تصورها الحسين : طغت على الرسائل التي بعث بها الشريف حسين إلى مكماهون ، صورة الدولة العربية المتحدة المستقلة التي كان يستهدف انشاءها . فقد تحدثت تلك الرسائل عن « الامة العربية» و « الشعب العربي » و « الخلافة العربية » و « المملكة العربية » و « حكومة الشريف العربية ... في البلاد العربية » . وتبادل الشريف والحكومة البريطانية المراسلات باعتباره ناطقاً باسم العرب الآسيويين جميعاً وزعيماً لهم .

لقد اعتقد الشريف ان المراسلات التي تبادلها مع مكماهون تؤلف قراراً تعاهدياً ملزماً للطرفين . ولكن خلال الاعوام ١٩١٦ — ١٩١٨ وقعت احداث كثيرة بعثت الشكوك في نفس الحسين فأرسل في ٢٨ آب ١٩١٨ رسالة إلى ريجنالد ونجت حدد مفهومه لذلك القرار التعاهدي وطلب ان تصارحه الحكومة البريطانية بحقيقة موقفها منه . وهذه الرسالة ذات اهمية خاصة لان الشريف جعلها منذ ذلك الحين قاعدة ثابتة له لا يتزحزح عنها قيد شعرة .

شدد الشريف على القول ان الاتفاق مع الحكومة البريطانية تضمن النقاط الخمس التالية :

١ — تتعهد بريطانيا العظمى بان تساعد على قيام دولة عربية مستقلة استقلالا تاماً في شبه الجزيرة العربية والعراق وسورية وفلسطين مع استثناء ميناء عدن . وتعترف الحكومة العربية بالمعاهدات المعقودة بين بريطانيا والزعماء العرب الاخرين ضمن نطاق البلاد العربية .

٢ — تتعهد بريطانيا بالمحافظة على هذه الدولة ، وبمساعدة الحكومة

العربية على اخماد الثورات الداخلية .

٣ – تكون البصرة تحت احتلال بريطانيا مؤقتاً ، مقابل اعانة مالية .

٤ – تقدم بريطانيا للحكومة العربية كل ما تحتاجه من الاسلحة والذخائر والنقود مدة الحرب .

٥ – تقطع بريطانيا خط سكة الحديد في نقطة مناسبة لمساعدة العرب في ثورتهم .

وقال الشريف في رسالته انه قام بالثورة على اساس هذه المبادىء وانه يود ان يعلم فيما اذا كانت الحكومة البريطانية تعتزم الوفاء بتعهداتها . واعطى الشريف اسباباً ثلاثة تكمن وراء اصراره على ضرورة تحقيق مبادىء الاتفاق :

١ – المحافظة على كيان العالم الاسلامي بالنظر لما سيحل بتركيا (اي ان تقوم دولة عربية اسلامية كبرى تحل محل الدولة العثمانية التي آذنت شمسها بالغروب) .

٢ – ان لا تتهم بريطانيا بانها أغرت العرب بالثورة ضد ابناء عمهم الاتراك ثم تخلت عنهم ونكثت عهدها معهم .

٤ – ان لا يتهم الشريف بالتواطؤ مع بريطانيا على عدم تحقيق الاهداف التي ثار العرب من اجلها .

وقال الشريف ان اكثر ما يهمه ويقلقه هو قضية حدود البلاد العربية ، وانه لا يجد بُدّاً من الانسحاب اذا لم تف بريطانيا بالتزاماتها ، او اذا ارادت اجراء تعديل في مبادىء الاتفاق الأساسي.[1]

ان ما يهمنا هنا هو ان الملك حسين قام بالثورة وهو يعتقد اعتقاداً

---

(١) نشرت رسالة الملك المؤرخة ٢١ ذي القعدة ١٣٣٦ (٢٨ آب ١٩١٨) لأول مرة في جريدة (القبلة) العدد ٣٩١ بتاريخ ١٠ حزيران ١٩٢٠ . أما ملحق الرسالة الذي تضمن النقاط الخمس فقد نشر لأول مرة في جريدة المفيد (الدمشقية) بتاريخ ١٥ شباط ١٩٢٠ وقد نشرت ترجمة الرسالة والنقاط الخمس في الوثائق البريطانية المجلد ١٣ ، ص ص ٤٠٥ – ٤٠٧ .

جازماً ان الوحدة العربية ستكون من جملة نتائجها . فكيف كان الملك يتصور بناء تلك الوحدة ؟

ان الوثائق المتوافرة بين ايدينا تدل ان الملك كان يتصور وحدة بين الاقطار العربية المتعددة ترتبط بعضها مع بعض بروابط تشبه روابط الوحدة بين الولايات الاميركية المتحدة ، بحيث يتمتع كل قطر بالاستقلال الداخلي التام بينما تتولى الحكومة المركزية السياسة الخارجية ، وبحيث تتمثل الوحدة في العلم الواحد والنقد الواحد وجوازات السفر الواحدة ، والمصالح الاقتصادية الواحدة والجيش الواحد .

وكانت المناداة بالشريف حسين في ١ تشرين الثاني ١٩١٦ ملكاً على البلاد العربية ، اول خطوة عملية لاسباغ صفة الشرعية على مبدأي الوحدة والاستقلال . وقال الامير عبدالله وزير خارجية الحكومة التي تألفت حينذاك: ان أهم الاسباب التي دفعت لاتخاذ تلك الخطوة :

١ — اعطاء البرهان ان الشريف مستقل استقلالاً تاماً .

٢ — لو أكتفي بلقب ملك الحجاز ، فان الفكرة العربية العامة لن تجد متنفساً لها واملاً في الثورة العربية ، وستكون العملية مقتصرة على الحجاز موضعياً . ولا بد للقب ان يرضي مطامح القوميين القائلين بدولة عربية كبيرة .

ولكن بعد اربعين يوماً اعترفت حكومات بريطانيا وفرنسا وروسيا بالحسين ملكاً على الحجاز فقط « مع انها تعتبره وستظل تعتبره الرأس الاسمي للاقوام العرب في ثورتهم .. »[1]

وأوضح الشيخ فؤاد الخطيب لهوجارث في ١١ شباط ١٩١٧ ان الملك لم يخطر له ابداً عندما أعلن الثورة ان نشاطه سيقتصر على الحجاز لان الحجاز لا يكفي نفسه ، وان الملك يعتقد انه لا بدّ من ضم العراق وسورية إلى الوحدة ، وقال ان فلسطين « جزء ثابت من المملكة العربية ». وأوضح فؤاد تصوّر الملك لمبدأ الحكم الذاتي فقال ان الملك يرغب ان

---

(١) أبلغ ولسون رسالة حكومته إلى الشريف بتاريخ ١٠ كانون الاول ١٩١٦ — (الملف F.O. 882/5.

يحكم كل قطر عربي نفسه بنفسه تحت سيادته ، وان الامـــام يحيي وابن سعود والزعماء الكبار في البادية السورية سيحكم كل واحد منطقته ، وكذلك المناطق السورية ولبنان « قلب سورية » ونفهم من تلك الاقوال ان الملك كان ينوي جعل دمشق عاصمة للدولة العربية الموحّدة . [1]

وفي تموز ١٩١٧ قال الملك حسين للكولونيل ولسون انه سيؤجل اتخاذ اية خطوات عملية لتنفيذ الوحدة إلى ان يخرج الاتراك من بلاد العرب . وبعد ان تنتهي الحرب « فسيرغم جميع الأمراء بطريقة او باخرى على الدخول معه في علاقات لاعتقاده انه اقوى منهم بكثير » . ومن هذا نفهم ان الملك كان ينوي استعمال القوة العسكرية اذا اقتضى الامر لتحقيق الوحدة [2] . ذلك ان الملك كان مقتنعاً ان « الوحدة العربية معناها وحدة العرب وان الوحدة معناها ان تقبض دولة واحدة على زمام السلطة ، وان العرب يجب ان تكون لهم دولة تحكمهم . وكان يسأل : كيف يستطيع العرب ان يتحدوا اذا لم يلتفوا حول شخص واحد ، وهل يوجد بين الناطقين بالعربية شخص اخر سوى شريف مكة يلتف اكثر الناس حوله ؟ » [3]

وفي اواخر ١٩١٧ كتب الامير عبدالله بصفته وزير خارجية الملك حسين إلى امير الرياض يقترح عليه ان يتعاون معه في مهاجمة حايـــل عاصمة ابن الرشيد ويقول انه اذا سقطت حايل بيده فانها ستبقى تحت حكمه . وقال الامير « انه مقتنع ان السلم والوحدة لا يمكن تحقيقهما في جزيرة العرب الا عن طريق منح الاستقلال الداخلي التام إلى امراء العرب ، الذين يجب عليهم بدورهم ان يعترفوا برئاسة ملك العرب... » [4]

(١) تقرير من هوجارث بعنوان « مستقبل الحركة العربية » بتاريخ ١٢ شباط ١٩١٧ — F.O. 882/6.

(٢) تقرير كتبه لورنس عن مقابلته والكولونيل ولسون للملك حسين يوم ٢٨ تموز ١٩١٧ F.O. 882/12.

(٣) ملحق رقم ٢ للنشرة العربية « سري جدا » بتاريخ ١ اذار ١٩١٨ — مقالة بقلم الاستاذ هوجارث بعنوان « وضع الملك حسين » — (الملف : F.O. 882/13.)

(٤) تقرير من كورنوالس عن محادثاته مع عبد الله بتاريخ ٩ كانون الاول ١٩١٧ — F.O. 882/8.

وفكرة الوحدة الرئاسية أكّدها الملك حسين في عدة مناسبات . نرى مثالا على ذلك في المحادثات التي اجراها ولسون معه في اول حزيران ١٩١٨ . اذ شدد الملك على انه فهم منذ البداية ان الاتفاق مع بريطانيا قام على اساس « وحدة البلاد العربية تحت رئاسة زعيم واحد » وان الدولة العثمانية سوف تزول . ومن الامور الجوهرية ان تحل محلها دولة مسلمة مستقلة كبيرة . وهذا الشرط لا يتوافر الا في بلاد عربية موّحدة.وقد اوضح الحسين فكرته عن نوع نظام الحكم فقال ان ذلك يجب ان يترك للاهلين في العراق وسورية . وقال ان اللبنانيين – مثلا – يمكن ان يختاروا حاكماً يحكمهم شريطة ان لا يكون ذلك الحاكم اوروبياً او متجنساً بجنسية اوروبية . اما بشأن علاقة الامارات المختلفة برئيس الوحدة العربية . فقد كان رأيه ان تبقى الاسر الحاكمة يومذاك ، ولكن على الامراء ان يعترفوا برئاسة الرئيس الذي سيعطي فرمانا خطياً لكل امير بان يتولى مقاليد الحكم في بلاده . اما اذا جار الامير في حكمه ولم يسر حسب الاصول المشروعة فيمكن عزله على ان تبقى الامارة في اسرته . والامير يعيّن حكّام المناطق في امارته ويجبي الضرائب دون الرجوع إلى الرئيس . ولا يدفع الامراء اي خراج للملك .[1]

وكتب ونجت إلى بلفور ان الملك حسين يستهدف انشاء كتلة عربية تضم شبه الجزيرة وسورية والعراق ، وان يتزعم تلك الكتلة رئيساً اسمياً لها وخليفة للمسلمين وهو يقصد من ذلك ان يرضي المطامح العاطفية للقومية العربية . « إن هدفه الذي يرمي إلى تحقيقه هو وضع الاسس لاتحاد دول عربية وان يوطد حق العرب التقليدي في تسنم الخلافة » .[2]

وفي تموز ١٩١٨ أجرى ولسون مع الملك محادثات متعددة قدم عنها تقارير مطولة . وقد طلب الملك « ان يعطى الان توكيداً رسمياً قاطعاً ان سياسة الحكومة البريطانية تستهدف قيام وحدة عربية تحت رئاسة زعيم واحد » . وقال ولسون انه « لا شك أن لمطامح الملك الشخصية دوراً

(١) تقرير بتاريخ ٥ حزيران ١٩١٨ من ولسون إلى ونجت – (F.O. 686/38.) .

(٢) تقرير رقم ١٢٩ بتاريخ ٢٥ حزيران ١٩١٨ – (F.O. 371/3381.) .

في طلبه ولكن هدفه الرئيسي والقصد الذي يضعه نصب عينيه هو احياء الامجاد السالفة للعنصر العربي ، عن طريق انشاء اتحاد دول عربية تحت رئاسة زعيم . اما احراز الامجاد لنفسه واسرته فيأتي في المقام الثاني من اعتباره » . وقد ابدى ولسون رأيه بقوله « ان المكاسب التي كنا نرجو ان نحصل عليها — نتيجة لثورة الملك — كانت ذات طبيعة عسكرية وسياسية . وقد حصلنا حتى الان من وجهة نظر عسكرية ، على فوائد كبيرة ، ولكن الفوائد السياسية الرئيسية سوف تظهر بعد انتهاء الحرب . واني بكل احترام اعرض اننا اذا لم نعاضد الملك حسين في سياسة الوحدة الرئاسية ، فانه يكاد يكون من المؤكد ان الامبراطورية البريطانية سوف تفقد فرصة يحتمل الا تتكرر ثانية » . [1] واثناء هذه المحادثات قال الملك ان الوحدة يجب تحقيقها بالطرق السلمية . وانه لم يقابل اعمال ابن سعود العدائية بمثلها انطلاقاً من هذا المبدأ.وقال ان حدود المملكة العربية موجودة في « الاتفاقية » التي عقدها مع مكماهون ، وانه اعتقد ان تلك الاتفاقية تتضمن القول ان بريطانيا ترغب في تجديد الخلافة العربية وفي اتحاد العرب ، وانه رفع علم الثورة على اساس تأسيس «مملكة عربية مستقلة». وقال الملك انه لا يصر أن يكون هو الرئيس الاعلى «ولكن النقطة المهمة هو ان تعترف الحكومة البريطانية في الحال بان جزيرة العرب يجب ان تتحد تحت رئاسة رجل واحد » اما اذا لم يتحقق ذلك « فستذهب جميع الجهود عبثاً » . [2]

وقد اجمل الحسين ما فهمه من مراسلاته الاولى مع مكماهون ، ومطالبه الراهنة في رسالة ٢٨ آب ١٩١٨ التي بعث بها إلى ونجت والتي بحثناها في مطلع هذا الفصل .

وقد طبق الملك حسين سياسة الاستقلال الذاتي عملياً بالنسبة إلى سورية. فقد ابرق لفيصل ثاني يوم دخوله إلى دمشق قائلاً ان السوريين يجب ان يحكموا بلادهم حسب العرف والتقاليد السائدة بينهم . وبعد ذلك اعلن

---

(١) من ولسون إلى ونجت تقرير رقم ٢٠ بتاريخ ٢٣ تموز ١٩١٨ -(F.O. 882/13.).

(٢) تقرير ولسون عن مقابلته مع الملك حسين يوم ١٨ تموز ١٩١٨ – (F.O. 686/9.) .

« ان ابناء البلاد أعرف بعُرْف بلادهم ... واني اذا ذكرت ابناء سورية فلا افرق بين احد منهم بمذهب او غيره ، بل كلهم في نظري سواء ، لان وحدة القومية هي جامعة التفاهم وتبادل المصالح والمنافع . وطالما قلت ان العرب عرب من قبل ان يكونوا مسلمين او مسيحيين او موسويين ، وان العربي يستحيل عليه ان يصير جاوياً او يونانياً ... فالبلاد لاهلها يتمتعون بكل حقوقها ، ويجنون من كل ثمراتها ، فلا يفرّق بينهم في الحقوق والواجبات والاخذ بوسائل الكسب والتمتع بالثمرات اي سبب من الاسباب ... » [1]

وفي ٢١ تشرين الثاني ١٩١٨ بعث الملك حسين إلى المعتمد البريطاني بنص مشروعه الذي يراه اساساً لانشاء الوحدة العربية . وقد اوضح في هذا المشروع نوع العلاقة التي كان يرى ان تقوم بينه وبين كل امارة من الامارات العربية ، كما نص المشروع على حدود الامارات كما يراها الملك ، اي اعادتها إلى ما كانت عليه قبل نشوب الحرب ومعنى ذلك تقليص الامارة السعودية إلى حد ما . وقال الملك انه بهذا يريد المحافظة على مصلحة الامة العربية وكيانها ، وان مشروعه لا يزيد عن كونه توضيحاً لما جاء في رسالة ٢٨ آب ١٩١٨ وملحقها . وبعث ولسون برسالة إلى المندوب السامي اوصى فيها بقبول سياسة الملك حسين الوحدوية ، وقال ان الملك يعتقد ان ترك الامور على حالها وعدم انشاء دولة عربية موحدة سيلحق ضرراً عظيما بالمسلمين وبالسمعة البريطانية .[2]

ومع ان الملك حسين كان يرى انه اجدر الزعماء العرب بتولي رئاسة الدولة العربية الموحّدة الا انه كتب للمعتمد البريطاني يقول ان « هدفه الاكبر والوحيد هو تحقيق وحدة عربية تحت رئاسة زعيم واحد ،

---

(١) تصريح الملك حسين كما نشرته « القبلة » ، العدد ٢٢٠ ، ٤ محرم ١٣٣٧ (٨ تشرين الاول ١٩١٨) .

(٢) مشروع الملك حسين في حافظ وهبه ، جزيرة العرب في القرن العشرين ، ص ص ٣٦٠ — ٣٦١ . ورسالته إلى ولسون ورسالة ولسون (٢٤ تشرين الثاني ١٩١٨) إلى ونجت في الملف .F.O. 882/13

وانه اذا تم تحقيق هذا الهدف فهو مستعد ان يقبل اي زعيم عربي رئيساً للوحدة واي مدينة عربية عاصمة للمملكة ». [1]

على ان المصاعب في وجه الوحدة العربية لم تلبث ان ازدادت وتعقدت بعد ان منحت بريطانيا وفرنسا نفسيهما الانتداب على فلسطين والعراق وسورية . ولذلك نرى الملك حسين عند قدوم الكولونيل لورنس إلى جدة في صيف ١٩٢١ يعد مشروعاً جديداً من اربع نقاط يجمل فيه مطالبه . والمشروع الجديد يكرر وجهة نظر الملك التي طالما عبر عنها قبل ذلك . ومع ان المشروع تضمن القول بتأجيل النظر في الجزء السوري الذي استولت عليه فرنسا ، الا انه اصرّ على ان تدخل العراق وسورية الجنوبية (فلسطين والاردن) في الوحدة العربية ، وان يقرر العراقيون والسوريون عاصمة الدولة الموحدة . [2]

وقد بذل الملك حسين جهوداً سياسية مع الادريسي والامام يحيي بغية عقد معاهدة بينه وبين كل منهما ، وقد اوفد إلى الامام يحيي والادريسي كلا من الشريف ناصر بن شكر والسيد محمد بن علوي السقاف . ثم قام امين الريحاني سنة ١٩٢٢ بمسعى مماثل وتوصل إلى وضع نص معاهدتين الاولى بين امام اليمن والملك حسين والثانية بين الادريسي والملك حسين ، وقد نصّت كلتاهما على ان « يعترف الامام للملك بالملك ويعترف الملك للامام بالامامة » . ولكن هذا النصّ الغامض لم يرض الملك حسين فلم يصدق المعاهدتين لانه كان يريد وحدة حقيقية . وفي عام ١٩٢٤ وضع الملك مشروع معاهدة مع الادريسي نصّ على تأليف حلف عربي من الحجاز وعسير واليمن تنضم اليه لحج وحضرموت والمشيخات الجنوبية الاخرى ، وعلى تأليف مجلس خاص للحلف العربي ينظر في تنسيق العلاقات بين اقطار الحلف . ونص المشروع على ان يعترف الامراء والزعماء في تلك الاقطار بالحسين ملكاً على العرب كافة وعلى

---

(١) من ولسون إلى ونجت رسالة مؤرخة ٢٣ كانون الاول ١٩١٨ —(F.O. 686/63.).
(٢) نص المشروع في الملف F.O. 686/74.

توحيد الراية والجيش والتعليم والاقتصاد العام والبريد [1] . ولكن لم يُقدّر النجاح لأي من هذه المساعي والمشاريع .

وفي نطاق مساعي الملك حسين لتحقيق الوحدة كررّ التأكيد عدة مرات انه يريد للعرب ان ينشئوا دولة قوية ، تعتمد في تطورها على الاستعانة بالاوربيين . وقد كان الملك يفضّل ان تحصل البلاد العربية من بريطانيا وحدها على جميع ما تحتاج اليه من خبرة ومشورة ومساعدة في مجالات الاقتصاد والصناعة والادارة والتعليم وغيرها ، « ولكنه كان يعارض عن مبدأ فصل اي جزء من الارض العربية فصلا دائميا او ممارسة السياسة الاستعمارية ضمن المنطقة العربية ».[2]

الوحدة كما تصورها فيصل : اتيح لفيصل اثناء الحرب وبعدها ان يكون على صلة وثيقة بالتيارات السياسية التي كانت تخامر افكار السوريين في مصر ، بسبب سهولة الاتصال بينهم وبينه منذ انتقاله الى العقبة في تموز ١٩١٧ . ويجب الا ننسى ما كان لاتصال فيصل برجال الفتاة والعهد خلال ١٩١٥ و ١٩١٦ وبعدهما من اثر في نفسه وفي تطور نظره إلى القضايا العربية العامة . وقد كان فيصل مرنا بطبعه ذا قابلية عظيمة على إقتباس الافكار الجديدة والافادة من معارف الاخرين وآرائهم . ومنذ دخوله إلى دمشق في ٣ تشرين الأول ١٩١٨ التفت حوله مجموعة من خيرة رجال سورية والعراق ، وفيهم عدد ممن نالوا تعليما عاليا في اوروبا . لهذا كله تبدو الافكار التي عبّر عنها فيصل ذات أهمية خاصة ، من حيث أنه يمكن القول انها تعبّر ليس عن رأيه فحسب بل عن رأي جمعيتي الفتاة والعهد ايضا .

---

(١) تجد نص مشروع المعاهدة التي تفاوض عليها الريحاني مع الامام يحيي في كتابه ملوك العرب ، الجزء الاول ، ص ص ١٩١ — ١٩٥ ، ومشروع المعاهدة مع الادريسي في الكتاب ذاته ، ص ص ٣٠٧ — ٣٠٩ . أما المشروع الذي وضعه الملك حسين لعقد معاهدة مع الادريسي ففي كتاب حافظ وهبه : خمسون عاما في جزيرة العرب ، ص ص ٨٠ — ٨٣ .

(٢) من ونجت إلى بلفور ، تقرير رقم ١٢٩ بتاريخ ٢٥ حزيران ١٩١٨ — F.O. 371/3381.

وقد أدرك فيصل ان معالجة الموقف في سورية خاصة والبلاد العربية عامة تحتاج إلى قدر كبير من سعة الصدر وبعد النظر ، حتى يصبح بالامكان التأليف بين الفئات العديدة المختلفة قبليا ومذهبيا . ومن هنا فقد أعلن في البلاغ الذي أصدره في دمشق يوم ٥ تشرين الاول ١٩١٨ « ... ان حكومتنا العربية ... تنظر إلى جميع الناطقين بالضاد على اختلاف مذاهبهم وأديانهم نظرا واحدا ولا تفرّق في الحقوق بين المسلم والمسيحي والموسوي » . [1]

ولان فيصلاً كان يخشى أن يستغل الفرنسيون وجود نسبة عالية من المسيحيين بين سكان جبل لبنان وحلب ، لبث الدعايات بينهم ودق اسفين الخلاف – فقد عمد إلى تعيين أحد زعماء الموارنة حاكماً مدنياً على جبل لبنان ، وشدّد في الخطاب الذي ألقاه في مدينة حلب يوم ١١ تشرين الثاني على ضرورة الوحدة الوطنية باسم القومية . لقد أعلن فيصل في خطابه ان « العرب هم عرب قبل موسى وعيسى ومحمد » ، وحذّر من القاء الفتن باسم الدين وهدّد بأشد العقاب لمن يقدم على ذلك . وقال ان والده قرر « ان يجعل البلاد مناطق تُطبّق عليها قوانين خاصة بنسبة أطوار وأحوال أهلها ، فالبلاد الداخلية يكون لها قوانين ملائمة لموقفها والبلاد الساحلية ايضا يكون لها قوانين طبق رغائب أهلها » .

وبعد ذلك بأيام قلائل قال فيصل للكولونيل كورنوالس في بيروت ان فكرته عن الوحدة العربية تقوم على انشاء دول منفصلة مستقلة في الحجاز واليمن والعراق ، وتأليف مجلس اتحاد عربي يعقد اجتماعاته مرة او مرتين في السنة لبحث القضايا التي تهم دول الاتحاد . وقال فيصل ان حكومته السورية ستكون علمانية وسيبقى أبوه في مكة اما بصفة خليفة للمسلمين او يُعطى لقب سيادة على جميع الدول العربية ، دون أن يحمل اللقب معه سلطات حقيقية يتدخل بموجبها في كيفية ادارة

---

(١) جاء في تقرير الكولونيل نيوكب بتاريخ ١٢ آذار ١٩١٧ ان فيصلا « مهتم أشد الاهتمام بان لا تطلق رصاصة واحدة من عربي ضد عربي آخر » – (F.O. 686/6, Part I.).

الحكومات العربية شؤونها بنفسها . وقال انه يضع توكيداً خاصاً على أهمية حصول الأقطار العربية على المساعدة الاجنبية من قبل دولة كبرى واحدة فقط : من أجل ضمان الوحدة السياسية .[1]

وفي ٣٠ كانون الثاني ١٩١٩ اجتمع الميجر مور (أحد ضباط الاستخبارات البريطانيين في العراق يومذاك) بفيصل في باريس ، وكتب تقريراً عن محادثته معه جاء فيها :

«ان هدف فيصل في الوقت الحاضر هو انشاء اتحاد دول عربية : تتولى المسؤولية في كل منها حكومة عربية حقيقية — وليس بالاسم فقط — تستظل جميعها بعلم واحد وتتعامل بعملة واحدة وجمارك واحدة الخ . وتعالج كل دولة شؤونها الداخلية ولكنها ترتبط بميثاق يحتم عليها جميعا أن تهب لمساعدة أية دولة من بينها يقع عليها عدوان من دولة غير عربية . أما الهدف النهائي الذي يضعه فيصل نصب عينيه فهو دون شك دمج هذه الدول تدريجيا في دولة عربية واحدة تخضع لحكومة مركزية . ولكنه من هذه الناحية غامض ، وأحسبه يتعمد الغموض : حول الزمن الذي يمكن تحقيق هذا الهدف فيه. وعلى أساس هذا كله فان فيصلاً يرى ان المساعدة الخارجية في تأسيس هذه الدول — وهي مساعدة يعتبر انها شر لا بد منه، يجب أن تقدمها دولة كبرى واحدة فقط . ذلك انه اذا كانت هناك دولتان فان مؤسسات الدولة المتعددة سوف تنشأ على أسس مختلفة . ليس هذا فحسب بل انه في حالة قيام نزاع بين الدولتين الكبيرتين اياهما فان الدول العربية ذاتها يمكن أن تجر إلى النزاع . إنه يعارض معارضة شديدة أي تدخل من فرنسا في المسائل العربية ، وفي هذا يقارن بين شمالي افريقيا ومصر مقارنة ليست في مصلحة الفرنسيين ... وهو على العموم يفضل المساعدة البريطانية : لأننا كنا حلفاء وثيقي الصلة طوال ثلاث سنوات ولاننا في وضع أفضل من الناحيتين الجغرافية والسياسية لتقديم المساعدة اللازمة . أما اذا لم نرد القبول بهذه المهمة فهو

---

(١) تقرير كورنوالس بتاريخ ١٩ تشرين الثاني ١٩١٨ — (F.O. 882/13.)

مستعد لقبول المساعدة الاميركية . مع الافتراض دائما ان مساعدة كهذه يجب أن تقدم إلى جميع الدول العربية .

«أما بشأن حكومة العراق في المستقبل: فمع أنه يكرر القول بأن هذا الأمر يجب أن يترك لرأي العراقيين . الا ان الشك لا يخامره في أن الأمير عبد الله سيكون أول أمير للعراق وان هذا أمر مفروغ منه تقريبا . وهو يعتقد انه لا يوجد مرشح محلي ملائم وان الافكار العربية لا تحبذ الجمهورية . وأرى أنه سيعارض بالتأكيد الحماية البريطانية مهما كانت متسترة .

«ويقول فيصل ان لبنان يجب أن يؤلف جزءا من سورية. وهو يعارض تهويد فلسطين ولكنه يوافق على قيام حكم دولي تباشره الدولة الكبرى التي ستقدم العون للدول العربية . [1] »

اننا عندما ندرس التقارير التي كتبها الاجانب يجب أن لا يغيب عن بالنا أن الزعيم العربي انما يتحدث بصفته سياسياً مسؤولاً يرى ما هو مقبول وما هو غير مقبول في كل ظرف يجد فيه نفسه . ولا يرى من الحصافة السياسية أن يقول كل ما عنده . بهذه النظرة يجب علينا أن ندرس المشروع الذي قدمه فيصل إلى مؤتمر السلم . فقد قال ان والده على يقين من انتصار فكرة الوحدة . وان وحدة العرب في آسيا أصبح تحقيقها الان أسهل مما كان عليه قبلا بسبب توافر وسائط المواصلات . وأوضح فيصل أنه يستحيل حصر سورية وفلسطين والعراق والحجاز ونجد واليمن ضمن قالب حكومة واحدة . ولذلك قال بانشاء حكومات عربية فيها على أن تختار سورية الدولة الاجنبية التي ستقدم لها المساعدة الفنية دون أن ينتقص ذلك من استقلالها . وان تتألف في العراق حكومة عربية في المبدأ والروح ويختار الأهلون دولة كبرى تساندهم . أما في فلسطين فقال انه بسبب وجود الأماكن المقدسة التي تهم عددا كبيرا من الشعوب فأهل البلاد يطلبون وصياً عظيماً شرط أن تكون هناك ادارة

---

(١) تقرير مور في الملف F.O. 608/92.

محلية نيابية . وقال ان الحجاز ونجد واليمن يجب أن تبقى كما هي الان تحكم نفسها بنفسها . وقال فيصل ان العرب ينتظرون من دول العالم أن تعتبرهم شعبا واحدا ويجب على تلك الدول أن تؤكد وجود حدود مفتوحة بين الاقطار العربية وأن تكون وسائط النقل والمواصلات مشتركة وأنظمة التعليم موحدة .

وفي مذكرة اخرى قدمها فيصل إلى مؤتمر الصلح قال ان والده يطالب باستقلال العرب الآسيويين – باستثناء ميناء عدن – ولكنه نفى ان والده يطمح في انشاء امبراطورية كبيرة يكون على رأسها . وقال ان العرب يريدون انشاء اتحاد عربي (كونفدراسيون) وان السوريين يريدون انشاء دولة سورية موحدة ترتبط مناطقها بعضها ببعض على نظام الاتحاد الفدرالي مع الأمل أن يدخل جبل لبنان في الاتحاد السوري .

في أوائل ١٩١٩ كان فيصل يخشى فرنسا وحدها من بين الدول الكبرى والقوى الأجنبية ، لذلك نراه يركز الكثير من اهتمامه على جبل لبنان ويعمل على تقديم أفضل الشروط للموارنة سكان الجبل كي يقنعهم بالانحياز إلى الوحدة السورية . ونرى في تصريحه الذي نشرته جريدة (الانفورماسيون) يوم ١٢ شباط ١٩١٩ تبسيطاً لسياسته من ناحية اللبنانيين . فقد أعلن فيصل ان لبنان عربي وأن العرب يحترمون استقلاله الاداري ولكن لبنان ليس سوى جبل والجبل يريد أن ينبسط على السهل . أما بشأن مطالبة بعض اللبنانيين بضم مناطق غير لبنانية اليهم من أجل انشاء لبنان الكبير فقد قال ان هذا خطأ لأنه سيؤدي – اذا تحقق – إلى أن يفقد المسيحيون أكثريتهم في جبلهم ... » وأرى أن يحرز هذا الجبل دستوراً يلائم ما يطلبه أهله دون أن ينفصل عن سورية . ماذا تكون هذه الجزيرة الصغرى في وسط القطر السوري وأي شأن لها ؟ ان لسوريي الجبل وسوريي السهل احتياجات مشتركة لا تسدها الا الوحدة السورية » . (١)

---

(١) نقلا عن جريدة القبلة ، العدد ٢٧٤ ، ١٦ رجب ١٣٣٧ (١٧ نيسان ١٩١٩) .

ووضع فيصل فكرته موضع التنفيذ عندما أعطى للمسيحيين ثلاثة مناصب من جملة سبعة في مجلس المديرين العامين الذي تألف بتاريخ ٤ آب ١٩١٩ من السادة : علي رضا الركابي واسكندر عمون ورشيد طليع وسعيد شقير وياسين الهاشمي وساطع الحصري وجبرائيل حداد . وكان هناك دائما عدد من المسيحيين في الحلقة القريبة من فيصل سواء أثناء اقامته في دمشق او خلال مباحثاته السياسية في اوروبا .

ولقد تبلور ردّ الفعل لسياسة فيصل القائمة على اقناع اللبنانيين بأن انضمامهم إلى الوحدة السورية أفضل لهم وأكثر جدوى من خضوعهم للحكم الفرنسي – تبلور في القرار الذي اتخذه ثلثا أعضاء مجلس ادارة لبنان في صيف ١٩٢٠ ويقضي بالاتفاق مع سورية وعقد اتحاد اقتصادي معها ورفض الحماية الفرنسية . ان المعاني الكامنة وراء ذلك القرار عظيمة الأهمية في التدليل على السياسة المثلى التي يجدر أن يتبعها السياسيون الوحدويون في البلاد العربية . وقد بلغ من اندفاع بعض الزعماء المسيحيين البارزين في الدعوة إلى وحدة سورية الطبيعية ان الفرنسيين اضطروا إلى الشكوى من نشاطات ميشيل لطف الله واسكندر عمون ضدهم بينما تحول مسلمان بارزان هما الأمير سعيد الجزائري وحقي العظم إلى صف الفرنسيين وأخذا يدعوان إلى قبول حمايتهم .

كان فيصل يعتقد اعتقاداً جازماً انه لا حياة حقيقية لسورية الا اذا كانت متحدة تامة . ومن هنا كانت تنبع سياسته الداخلية في لمّ شتات العناصر المتنافرة . ومن هنا بذل كل ما في وسعه لأن تحصل الدول العربية على المساعدة الأجنبية من قبل دولة واحدة فقط ، من أجل المحافظة على « وحدة الادارة » فيها . وعلى الرغم من مقته للأساليب الفرنسية الا انه كان مستعدا أن يقبل المساعدة من فرنسا فيما لو تحققت بذلك وحدة الادارة في سورية التامّة [1] .

---

(١) قال فيصل في اجتماعه بأركان الحكومة البريطانية في لندن يوم ١٩ ايلول ١٩١٩ :
« اذ كان الفرنسيون يستطيعون تحمل المسؤولية في فلسطين والعراق والبلاد العربية حتى البحر الاحمر والبحر الأبيض المتوسط ، فان العرب سيوافقون على ذلك لأنهم لا=

أدرك فيصل ان سورية لم تبلغ مرحلة التجانس لكثرة ما فيها من طوائف وشيع ولأن الروح القبلية بين أكثر أبنائها كانت ما تزال أقوى من روح الوطنية الشاملة . لذلك عمد إلى سياسة التأليف بين القلوب والصفح والتجاوز عن السيئات والابتعاد عن نزعات الحقد والانتقام . فقبل دخوله إلى دمشق أوصى بأن يتولى سعيد الجزائري رفع العلم العربي على الرغم من ان أخاه عبد القادر نكث بعهده له يوم كلّفه بالمساعدة على نسف جسر اليرموك . وعلى الرغم من ان سعيد وأخاه وقفا موقف العداء من فيصل بعد ازاحتهما عن كرسي الحكم . فانه حزن وغضب عندما بلغه مقتل عبد القادر .[1]

وقد تعاون فيصل تعاوناً وثيقاً مع عدد ممن ظلوا يحاربون في صفوف الاتراك حتى النهاية ، بل أسند إلى بعضهم أعلى المناصب لاعتقاده بأهليتهم . فالركابي والهاشمي اللذان كانا من أشد المحرضين على اعلان الثورة ظلا مع الأتراك حتى آخر أيلول ١٩١٨ . ولم يحقد عليهما فيصل لتعاونهما مع العدو بل ظلّ يعتقد اخلاصهما ووطنيتهما . وعند دخوله دمشق عيّن الركابي في منصب الحاكم العسكري العام وعيّن الهاشمي رئيساً لأركان الجيش . وكذلك صنع بمحمد كرد علي فقد عيّنه مديراً للتعليم بعد ان كال في جريدتي المقتبس والشرق أثناء الحرب أقذع التهم والمطاعن ضد فيصل وأبيه واخوانه وضد الثورة العربية . (وهذا على سبيل المثال لا الحصر) .

مشاريع وحدوية اخرى : اذا اردنا اعطاء صورة واضحة للأفكار

= يكرهون الفرنسيين كراهية خاصة . ولكن يجب أن تكون هناك دولة واحدة فقط .. » – (الوثائق البريطانية ، المجلد الرابع ، ص ٤٠٤) .

(١) يقول فائز الغصين في الجزء الثاني من مذكراته فيما يتعلق بمقتل عبد القادر الجزائري « كنت مع الشريف فيصل في بعلبك بطريقه لحلب . ولما وصلت البرقية المتضمنة قتله برصاص الشرطة بدمشق غضب فيصل لذلك غضباً شديداً واستولى عليه القلق والكدر وأسف كثيراً لوقوع هذا الحادث المؤلم . ولكن ماذا يعمل والأمر قد وقع » – (جريدة القبس : تحت الفقرة المؤرخة ٢٥ تشرين الأول ١٩١٨) .

الوحدوية التي خامرت أذهان عدد من الزعماء والمثقفين العرب : فلا بد لنا من عرض الآراء التي تضمنتها وثائق فترة الحرب العالمية الاولى بهذا الشأن .

فمحمد شريف الفاروقي (عضو العهد) قال في ايلول ١٩١٥ ان الدولة العربية المقبلة ستقوم على أساس القومية وليس على أساس الدين . وستكون الدولة عبارة عن اتحاد اقطار تدير كل قطر حكومة تتمتع بالاستقلال الذاتي . « وسيتمتع المسيحيون العرب والدروز والنصيرية بالحقوق ذاتها التي سيتمتع بها المسلمون أما اليهود فسيُحكمون بموجب قانون خاص » . وفيما نعلم فان الرأي السائد عند جمعية الفتاة وحزب اللامركزية كان يقوم على اعتبار اليهود الوطنيين مواطنين عاديين يتمتعون بجميع حقوق المواطنة التي يتمتع بها سواهم .

وقال الفاروقي لسايكس ان «خطة العرب هي تأسيس دولة عربية مستقلة او اتحاد دول . ومشروعهم يقوم على اقناع أكبر عدد ممكن من زعماء الجزيرة على القبول بسيادة الشريف . » وأن تؤسس دولة تقدمية تحت سيادة الشريف من ولايات : دمشق وبيروت وحلب والموصل وبغداد . وسناجق اورفة ودير الزور والقدس وأن يكون تشكيل الحكومة على أساس مبدأ اللامركزية العثماني مع مجلس نواب مقرّه دمشق » .

وقد عارض فارس نمر وسعيد شقير معارضة شديدة فكرة تقسيم سورية إلى منطقتي نفوذ . وقال رشيد رضا انه يريد قيام دولة اسلامية مستقلة تحلّ محلّ الدولة العثمانية وان « تشمل تلك الدولة جزيرة العرب وسورية والعراق تحت رئاسة الشريف » . [١]

وعبّر شكري غانم عن آرائه في آذار ١٩١٦ فقال انه يأمل أن تخلّص فرنسا وبريطانيا بلاد العرب من مساوىء الحكم التركي ، وتتفقا على مناطق نفوذهما حتى لا يكون بينهما سوء تفاهم بعد انتهاء الحرب .

---

(١) راجع الفصل الرابع من هذا الكتاب .

وقال انه يمكن حلّ المسألة العربية فقط على أساس طريقة واحدة وهي منح البلاد استقلالاً ذاتياً واسعاً تحت الاشراف والارشاد المباشرين من قبل الدول الكبرى المهتمة ، ويجب تقسيم البلاد إلى مناطق تديرها جمعية وطنية ينتخب الاهلون أعضاءها . ويجب أن تعيّن فرنسا مندوباً سامياً لمنطقة نفوذها وأن تفعل بريطانيا كذلك ، كي يساعد كلّ منهما الجمعية الوطنية بالنصح والتوجيه . اما بشأن الاستقلال التام الذي ينادي به بعض العرب ، فقد كان رأي شكري غانم : انه من سوء الحظ ان هناك أشخاصاً يطلبون الاستقلال امّا بدافع الجهل أو بدافع الطمع الشخصي ، ولكن أي شخص عاقل يستطيع أن يرى مسبقاً ان الاستقلال سوف يعني الفوضى التامة وخراب البلاد . ان الشعب العربي لا يملك الاستعداد والتعليم اللذين يؤهلانه لحكم نفسه بنفسه . اننا أمة غُلبت على أمرها وقد خضعنا لحكم الأتراك عدة قرون . وستكون نتيجة استقلالنا في الوقت الراهن كارثة أعظم من كارثة الحكم التركي . اننا بحاجة للحماية والمشورة ، ونحن نتوقع الحصول عليهما من بريطانيا وفرنسا . ونحن نعلم ان بلادنا سوف تنجح وتزدهر بفضل إرشادهما . وفي المستقبل اذا رأت الدولة الحامية اننا صرنا مؤهلين لحكم أنفسنا بأنفسنا ، فعندئذ فقط يمكن لها أن تسحب مشارفتها وتدعنا نحكم بلادنا .[1]

وفي عام ١٩١٩ وجّه شكري غانم الاتهام إلى فيصل بأنه حجازي ولا يجوز للحجاز أن يحكم سورية التي هي أكثر تقدماً في مضمار الحضارة . وكان ردّ فيصل أن شكري غانم يحمل الجنسية الفرنسية وقد غادر سورية منذ أكثر من ثلاثين سنة ، ولذلك لا يحق له أن ينطق باسم السوريين . وعندما مثل شكري غانم أمام مجلس العشرة طلب أن تتولى فرنسا الوصاية على سورية الطبيعية كلها « سورية تامة مستقلة متحدة » .

أما المذكّرة التي قدّمها السوريون السبعة في نيسان ١٩١٨ إلى

---

(١) مقابلة أجراها معه انطون البينا في ٢ آذار ١٩١٦ – (الملف F.O. 371/2767.) .

السلطات البريطانية في مصر ، فتشتمل على مشروع قيام اتحاد عربي على أساس اللامركزية ، بحيث يتمتع كل قطر عربي باستقلال ذاتي ضمن الدولة العربية الاتحادية. وقد عبرت المذكرة عن الرغبة في أن تتألف في البلاد العربية «حكومة عربية لا مركزية تشبه حكومة الولايات المتحدة..»

وفي عام ١٩١٩ قرّر المؤتمر السوري طلب استقلال سورية الطبيعية . وعندما أبلغ الحسين ابنه فيصل ان هذا القرار يمثل خروجاً على مبدأ الوحدة ، ردّ عليه فيصل ينفي هذا المفهوم ويقول له ان الراية العربية ما تزال ترتفع فوق سورية وان الدعاء في المساجد ما يزال باسم الحسين وانه اذا تمّ للعرب انشاء دولة مستقلة في سورية واخرى في العراق فسيكون ذلك خطوة لتحقيق الوحدة الاتحادية برئاسة زعيم واحد .

وقد حاول الملك حسين أن يعقد صلة وثيقة بالسوريين المقيمين في مصر ، ودعا في نيسان ١٩١٧ رفيق العظم رئيس اللامركزية للقدوم إلى الحجاز ، ولكن هذا اعتذر بانحراف صحته .

وفي شباط ١٩١٨ تحدث الدكتور فارس نمر صاحب جريدة المقطم ومحررها مع أحد أعضاء المكتب العربي في القاهرة حديثاً نستطيع أن نستخلص منه اتجاهات آراء بعض السوريين البارزين في مصر يومذاك . وكان مما قاله فارس نمر :

ان المساعدة المادية التي قدمها الانكليز للشريف بالاضافة إلى اتخاذه لقب « ملك العرب » ، أعطى الانطباع العام بأن الشريف سوف يصبح ملكاً على شبه جزيرة العرب وسورية بمساعدة بريطانيا . ان هذا الموضوع يجري بحثه على نطاق واسع وهو يثير قلقاً عظيماً في الدوائر السورية . ان السوريين يعارضون معارضة شديدة ملكية الحسين على سورية ولن يقبلوها . انهم على استعداد لقبول فيصل حاكماً دستورياً ؛ ولكنهم لا يقبلون أن يحكمهم فيصل نيابةً عن أبيه أو أن يكون خاضعا له بأية صفة ...

وقال فارس نمر انه يعتقد ان أعضاء « الاتحاد اللبناني » سيهملون أفكارهم عن الاستقلال الذاتي وسينضمون إلى دولة دستورية يحكمها

فيصل . ثم اقترح أن توضع هذه الآراء أمام الملك اما عن طريق رسالة من السوريين أو عن طريق وفد يذهب إلى جدة ويبحث الموضوع بصراحة مع الملك .[1]

وقد أبرق ونجت إلى بلفور يقول ان أكثرية السوريين أصبحت الان تعارض سيطرة فرنسا على سورية لاعتقادهم ان اسلوب الحكم الفرنسي يضر بفكرة قيام دولة سورية الكبرى التي يمكن أن يؤدي اشتراك المصالح والشعور الوطني فيها إلى التغلب على الطائفية الموجودة الان . وقال ونجت ايضا انه بينما يعارض السوريون في أن يشترك الملك حسين في حكم سورية أو يسيطر عليها ، فان المسلمين وجماعة متنفذة من المسيحيين سيكونون مستعدين لقبول الأمير فيصل حاكماً مستقلاً دستورياً[2] .

وفي حزيران أجرى الاستاذ هوجارث (ومعه الكولونيل سايكس) حديثاً آخر مع الدكتور فارس نمر بشأن سورية . وقال هوجارث ان فارس نمر لا ينتمي إلى أي حزب من الأحزاب السورية ولكنه صاحب نفوذ كبير عند تلك الاحزاب ، وان آراءه ذات قيمة خاصة من حيث أنه لا ينوي العودة إلى سورية ولا مطامح شخصية له تبعاً لذلك .

كرّر فارس نمر القول انه سيعارض معارضة أساسية الفكرة القائلة بأن سورية يجب أن تخضع للحجاز أو أن تكون معه تحت نظام حكم واحد . ثم قال ان الفكرة التي يحملها هو وجماعة من السوريين ترى رأيه يمكن تلخيصها فيما يلي :

نريد قيام سورية حرة تامة تكون دولة اتحادية ضمن وحدة عربية ، على ان تحكم نفسها بنفسها وتكون مستقلة يرأسها أمير أو ملك عليها وحدها . وهذا الملك يجب الا يكون ملك الحجاز ، لأنه اذا حكمها ملك الحجاز فيكون معنى ذلك ان سورية لن تكون مستقلة استقلالاً تاماً ولن يتمتع المسيحيون فيها بالمساواة الكاملة أمام الأمير وأمام القانون . واذا كان الأمير مسلماً فيجب أنْ يتمّ اختياره وأن يتولى الملك بصفته مواطناً

---

(١) رسالة الكابتن ماكنتوش إلى الجنرال كلايتون بتاريخ ٢٥ شباط١٩١٨ - .F.O. 882/17
(٢) المصدر السابق - برقية رقم ٣٩ بتاريخ ١ آذار ١٩١٨ .

سورياً أو عربياً ولكن ليس بصفته مسلماً .

وقال الدكتور نمر أنه يرغب أن تكون سورية تامة وتشمل فلسطين ، وانه سيأسف كثيراً اذا كانت هناك تجزئة سياسية . وبما انه يعرف أن أهل بلاده لا يستطيعون أن يحكموا أنفسهم وينظموا دولة مستقلة، فهو يطلب المشارفة الاجنبية والوصاية شريطة أن تكون مؤقتة ومهذبة وأن لا تكون عندها تغرّضات مسبقة ضد السيادة العربية . وأما هذه الوصاية فتستمر ريثما يظهر في سورية جيل جديد يستطيع أن يمارس الحكم دون أن يتأثر بالخلافات المذهبية . وانه يريد أن تقوم بريطانيا وحدها بهذا الدور ، فاذا تعذّر ذلك أمكن للسوريين أن يطلبوا الولايات المتحدة الاميركية . أما فرنسا فهو يرفضها رفضاً تاماً لأسباب اقتصادية وسياسية شرحها . واذا فُرضت فرنسا فرضاً على سورية فلن يكون هناك سلام او ازدهار . وقال ان الافضل لسورية أن تقوم وحدها دون الانضمام حالياً إلى العراق او الحجاز أو أية أقطار أخرى . ليأت الاتحاد فيما بعد بالتدّرج خطوة بعد خطوة .

واشترط الدكتور نمر بحدة وتوكيد أن لا يكون حكم الانكليز لفلسطين تمهيداً لتهويدها . وقال ان الشك لا يخامره في ان الصهيونيين يسعون للسيطرة السياسية على فلسطين . انه يريد بريطانيا دون سياسة يهودية . وهو يرحب أن يُنادى بالحسين خليفة للمسلمين دون أن يكون له مركز سياسي في سورية ، ويرحب أيضا أن يُنادى به « ملكا على العرب » لأن هذا اللقب سوف يساعد على انشاء الاتحاد الأكبر بين الأقطار العربية .

وقال هوجارث ان فارس نمر يلتقي مع الملك حسين في القول ان الوحدة العربية مهما كانت واهنة العرى ، لا يمكن تحقيقها الا اذا اعترفت بريطانيا بلقب « ملك العرب » ، على أساس أن اللقب سيتحول بالتدريج إلى حقيقة واقعة [1] .

---

(١) تقرير هوجارث عن المحادثة في ملحق خاص للنشرة العربية رقم ٥ بتاريخ ٢٤ حزيران ١٩١٨ – (الملف .F.O. 882/13) .

ومن الطريف ان الزعيم اليهودي هربرت صموئيل قدّم في نيسان ١٩٢٠ إلى اللورد كرزون مشروع انشاء اتحاد عربي تدخل فلسطين فيه . وفيما يلي مجمل لهذا المشروع :

تؤلف خمس دول عربية وترتبط بعضها ببعض في اتحـــاد غير وثيق العرى ، وهـــذه الدول (١) سورية الداخلية وتكون مستقلة استقلالاً تاماً (٢) سورية الغربية وتتولى فرنسا الانتداب عليها (٣) فلسطين وتتولى بريطانيا الانتداب عليها وانشاء الوطن القومي اليهودي فيها (٤) الحجاز ويكون مستقلا (٥) العراق ويخضع للادارة البريطانية . ويؤلف لهذا الاتحاد مجلس دائم يشرف على المصالح العامة المشتركة للدوله وتكون دمشق مقراً له وتعيّن عصبة الامم رئيس هذا المجلس .

لا تُقام حواجز جمركية بين دول الاتحاد ، ويكون التنقل حراً فيها دون جوازات سفر ، وتكون هناك حرية في استعمال الموانىء ، وتُرفع الخلافات التي قد تنشأ إلى مجلس عصبة الامم . وتخضع هذه الترتيبات لمراقبة عصبة الامم ومراجعتها .

وعندما اطّلع اللورد كرزون على المشروع علّق عليه بخط يده « ان وجود مجلس اتحادي في دمشق تكون عصبة الامم وراءه ، لا يبعث في نفسي أي شعور بالحماسة له » .[1]

لماذا أخفقت المحاولة : كانت محاولة الشريف حسين ومن معه من القوميين العرب لانشاء دولة عربية واحدة للعرب الآسيويين أول محاولة من نوعها في تاريخ العرب الحديث . وبعد أن رافقنا في الفصول السابقة مراحل تلك المحاولة ، يحقّ لنا الان أن نسأل سؤالا جامعاً : لماذا أخفقت تلك المحاولة ؟ لماذا لم تستطع أن تحقّق ولو جزءاً مما قامت في الأصل لتحقيقه ؟

والجواب على هذا السؤال لا يبعد كثيرا عن الجواب الذي يمكن أن

---

(١) من صموئيل إلى كرزون رسالة مؤرخة ٢ نيسان ١٩٢٠ – (الوثائق البريطانية ، المجلد ١٣ ، ص ص ٢٤١ – ٢٤٦) .

يعطي بشأن اخفاق المحاولات العديدة التي قامت في بلاد العرب منذ ذلك الحين وحتى اليوم : لم يكن العرب عموما على استعداد كاف لقبول الوحدة .

من السهل أن يُقال أن سبب الإخفاق يعود إلى هذا أو ذاك من الزعماء . من السهل أن نقول ان الذنب ذنب القوى الاجنبية . ومع اعترافي بتأثير الزعيم وما يملك من نفوذ معنوي وقوة تنفيذية ومع اعترافي ايضاً بتأثير القوى الأجنبية – الا انني اعتقد ان المسؤولية الأساسية هي مسؤولية الشعب أولاً وقبل كل شيء .[1]

فالزعماء العرب يومذاك هم الصورة والانموذج للشعب العربي في تلك المرحلة . ولا أعني بهذا طبقة المثقفين والمفكرين من أبناء المدن وأعضاء الجمعيات ، بل أعني الزعماء التقليديين الكبار وشيوخ القبائل من أصحاب السلطة الفعلية في مجتمعاتهم . لقد كانت العصبية القبلية يومذاك هي العصبية الغالبة على المجتمع العربي الذي كان مجتمعاً قبلياً بكل ما في هذه الكلمة من معنى . وحتى في أقطار الهلال الخصيب الزراعية كانت العصبية القبلية هي الغالبة السائدة ، كما لا تزال حتى اليوم إلى حد بعيد . لم يكن الوعي القومي قد انتشر بين جماهير الشعب العربي كي تحل العصبية القومية محل العصبية القبلية . ومن هنا نرى ان الشريف حسين وابن السعود وابن الرشيد والامام يحيى والادريسي : لم يكن كل واحد منهم في واقع الامر سوى زعيم قبلي كبير يقف على رأس هرم من القبائل الكبيرة والصغيرة . الفرق الوحيد والكبير هنا ان الشريف حسين تبنى هدف المثقفين والمفكرين العرب – الذين لم يكن لهم حول او طول – وأخذ يعمل بكل ما يملك من قوة منصبه الديني وزعامته التقليدية

---

(١) من الأقوال المأثورة عند العرب : « كما تكونون يولى عليكم » . ويقول الاستاذ آرنولد توينبي في هذا المعنى « ... ان الشعوب تحصل على أنظمة الحكم التي تستحقها . وإن أنظمة الحكم من جميع الألوان سواء أكثرها استبداداً أو أكثرها ديموقراطية ، لا تعيش الا عن طريق قبول المواطنين بها وصبرهم عليها . وهكذا فان مسؤولية الدماء التي يسفكها الحكام تقع على رؤوس شعوب اولئك الحكام . » – (من حديث للاذاعة البريطانية بتاريخ ١١ تشرين الثاني ١٩٦٨) .

على قبائل الحجاز من أجل تحقيق ذلك الهدف . ولكن الزعماء الكبار المحيطين بالحجاز لم يروا في موقف الحسين الا جانب العصبية القبلية، ولم يكن الحسين في نظرهم سوى رجل شديد الطموح واسع الاطماع يود – بوسائل متعددة – أن يبسط نفوذه وزعامته على أقطار خارج نطاق زعامته التقليدية في الحجاز .

ظهرت المعارضة أقوى ما تكون لمطامح الشريف من جانب ابن السعود ، لأن أسباب الاحتكاك كانت متوافرة بين الحجاز ونجد أكثر مما كانت متوافرة بين الحجاز من جهة وامراء الاقطار الاخرى من جهة ثانية . ولكن يمكن القول ان موقف الامراء الاخرين لم يكن في واقع الأمر يختلف عن موقف ابن السعود ، لأن أيا منهم لم يكن مستعداً أن يتطوع مختاراً لقبول رئاسة الحسين . فامراء آل الرشيد وقفوا طوال الحرب إلى جانب الاتراك واشتركوا في مقاتلة قوات الثورة التي كانت تحاصر المدينة وتهاجم خط سكة الحديد ، ولم يتبدل موقف هؤلاء الامراء الا في الشهر الأخير للحرب عندما حاقت الهزيمة بالاتراك ، فقد شعروا بضعفهم وأعلنوا تحالفهم مع الشريف وخضوعهم لرئاسته . ولكن هذا التبدل جاء متأخراً فلم ينتفع منه لا الشريف ولا آل الرشيد أنفسهم . وعلى الرغم من ان الادريسي كان ضعيفاً نسبياً وكان مرتبطاً بمعاهدة مع الانكليز – حلفاء الشريف – الا انه لم يكن مستعداً للاعتراف برئاسة الشريف ، وكان حتى ايلول ١٩١٩ يطالب بحل « عادل » لمسألة القنفذة [1] . أما الامام يحيى فلم تكن حدود منطقته متصلة بحدود الحجاز ، وقد وقف طوال الحرب إلى جانب الاتراك ، وبعد الحرب أخذ يعمل على مد نفوذه وتعزيز مركزه على حساب جاره الادريسي . من هذا نرى أن كل أمير من الامراء العرب كان يعمل لحساب نفسه ، وكانوا جميعهم يعتقدون أن الشريف حسين يعمل مثلهم لحساب نفسه .

لم يحدث قط ان قامت وحدة بين قطرين أو أكثر دون أن تتضافر

---

(١) راجع تقرير الكابتن كلايتون المؤرخ ٢٦ ايلول ١٩١٩ حول اجتماعاته بالادريسي – (الملف F.O. 882/22) .

أسباب قوية على قيامها . وقد كان استعمال القوة او الشعور المشترك بخطر خارجي ، من أهم أسباب الوحدة عبر التاريخ . وفي تلك الفترة من تاريخ العرب لم يكن الشريف حسين — حامل لواء الدعوة للوحدة — يملك القوة العسكرية الكافية لفرض الوحدة على العرب بقوة السلاح ، ولم يكن الامراء العرب يشعرون بخطر خارجي يتهددهم ويفرض عليهم الاتحاد لمواجهة الخطر .

وقد قيل ان اخفاق الملك حسين في انشاء مملكة عربية متحدة يعود إلى أنه لم يستعن بقادة الفكر من رجال العرب وانه لم يحترم امراء العرب المجاورين ، ولم يستمع لنصائح الانكليز في تحسين صلاته مع جيرانه [١] . وليمَ الملك حسين لأنه رفض يد الولاء والمؤازرة التي مدّها اليه فيما بعد الامام يحيى والادريسي ، وقيلت أقوال كثيرة في أسباب اخفاقه [٢] . ولكن حتى لو بدّل الملك حسين أساليبه وفعل كل ما تمنى الآخرون أن يفعل ، فانه ما كان مستطيعاً أن يحقق الوحدة العربية أو أي مظهر بسيط من مظاهرها . وفي اعتقادي ان اخفاق الملك حسين لا يعود إلى أساليبه الشخصية وإلى تفرّده بالسلطة واعتداده المطلق برأيه ، بل يعود بالدرجة الاولى إلى أنه لم يكن يملك القوة العسكرية اللازمة .

خذ مثالاً آخر على موقف الزعماء العرب : لقد تعاهد فيصل وأعضاء الفتاة مع نوري الشعلان وابنه نواف وكذلك مع زعماء الدروز ، على أن يحملوا السلاح في وجه الاتراك عندما يرفع الشريف لواء الثورة . ولكن ابن شعلان والدروز ظلوا يماطلون وينتحلون الأعذار المختلفة حتى شهر ايلول ١٩١٨ عندما أصبحت هزيمة الاتراك حقيقة واقعة . ومع ان نوري الشعلان ظل يحصل على دفعات متتالية من الذهب المخصص للثورة منذ عام ١٩١٦ ، الا انه لم يلبث أن انحاز إلى الفرنسيين في صيف ١٩٢٠ وسار على جواده شاهراً سيفه في موكب الجنرال غورو يوم دخوله إلى دمشق . لقد كان « يعاضد قضية الشريف بقدر ما يكسب

---

(١) حافظ وهبه ، خمسون عاما في جزيرة العرب ، ص ص ٧٠ — ٧١ .

(٢) أنظر مثلا امين الريحاني : تاريخ نجد الحديث ، ص ص ٣١٠ — ٣١٦ .

منها ، ولكنه لا يتورع عن الثورة ضده اذا لم يحصل على قدرٍ كافٍ من المال » . [1]

ومثلما كان موقف الزعماء العرب منسجما مع الواقع الأساسي لتلك الفترة — وليس مع المثاليات التي رآها المثقفون ولم يرها اولئك الزعماء — فقد كان موقف الحكومة البريطانية كذلك متسماً بالواقع العملي النابع من مصالحها . علينا الا ننسى ان موقف بريطانيا الرسمي هو موقف السياسي الانكليزي الذي قال ذات يوم عبارته المشهورة « ليس لنا أصدقاء دائمون وليس لنا أعداء دائمون ، ولكن لنا مصالح دائمة » . لقد وقفت الحكومة البريطانية مع الملك حسين ومع كل زعيم من زعماء العرب الآخرين ، الموقف الذي تمليه المصلحة البريطانية بالدرجة الاولى .

ولا نستطيع ان نكوّن صورة واضحة عن وضع العرب في تلك الأيام وموقف الحكومة البريطانية تجاه ذلك الوضع ، الا اذا تعرّفنا — ولو بايجاز — على آراء نخبة من الرسميين والضباط السياسيين الانكليز الذين رافقوا الحركة العربية عن كثب وتعرّفوا بصورة وثيقة على جوانبها المختلفة .

ففي أوائل ١٩١٦ عندما كانت وزارة الهند البريطانية تحذّر وزارة الخارجية من الأخطار التي يمكن أن تنجم عن مساعدة العرب على انشاء دولة كبيرة ، كتب كلايتون يقول :

« يبدو ان وزارة الهند تخشى من اننا ننوي تأليف مملكة عربية قوية . ان هذا لم يكن قصدنا مطلقاً ، وهو على أية حال غير وارد عملياً . والفكرة كلها هي أن نستبقي صداقة العرب عن طريق الموافقة على الاعتراف مبدئياً بالاستقلال العربي مع الوعد أن نساعدهم على انشاء عدد من الادارات تحت ارشاد بريطانيا وفرنسا حسبما يلائم المناطق

---

(١) من هو في دمشق : (معلومات عن عدد من الشخصيات البارزة في سورية) ١٤ أيار ١٩١٩ ، إعداد الاستخبارات الانكليزية — (الملف F.O. 882/24.) .

المختلفة .... ان فقدان التلاحم بين العرب هو صمّام الامان الرئيسي لنا ضد انشاء مملكة عربية متحدة يمكن أن تهدد المصالح البريطانية . » (١)

وفي حزيران ١٩١٧ علّقت جرترود بل على مذكرة كتبها مارك سايكس فقالت ان الدولة العثمانية كانت عامل توحيد للأقطار العربية اذ لم تكن تقوم بينها حواجز اقتصادية ولا جوازات سفر ، بينما جاءت اتفاقية سايكس - بيكو تضعها تحت نفوذ دولتين أجنبيتين . وقد أعدم الاتراك زعماء الجمعيات العربية او أرسلوهم إلى المنافي « أما زعماء القبائل البدوية [في سورية والعراق] الذين كان يمكنهم القيام بالثورة معتمدين على الصحراء ... فلم يرفعوا قط اصبعاً واحداً في سبيل القضية العربية » . وقالت جرترود بل ان الحركة العربية لم تجد استجابة فعّالة في سورية والعراق ، حتى ان زعيماً مثل طالب النقيب كان يصرف نشاطاته « لنفعه الشخصي المحض » . وخلصت إلى القول « ان فكرة الوحدة السياسية ليست فكرة يستطيع المجتمع العربي استيعابها بسبب تأثره بالأنساب القبلية ولكثرة ما يضم في تنظيمه القبلي من عناصر الشقاق .. ان الزعماء الوحدويين لم ينجحوا في إحياء العظام المتناثرة » (٢) .

وعندما أوصى سايكس في حزيران ١٩١٧ « أن يُعتبر ملك الحجاز قائداً اسمياً وزعيماً أكبر بين العرب » ، قال برسي كوكس أنه لا يجد من الملائم أن يوصي ابن سعود بالموافقة على الاقتراح خشية أن ينحاز ابن سعود إلى الجانب الآخر وتضعف ثقته به - كوكس - وأجاب المقيم البريطاني في عدن بعذر مماثل فيما يتعلق بالادريسي (٣) .

ويمكن أن نفهم وجهة النظر البريطانية من خلال الرأي الذي أبداه

---

(١) من كلايتون إلى حاكم السودان العام ، برقية رقم ٧٠ بتاريخ ٢٨ كانون الثاني ١٩١٦ - (الملف .F.O. 882/12) .

(٢) الملف .F.O. 882/3

كتب هوجارث في ٢٦ تشرين الاول ١٩١٧ إلى اورمسبي غور يقول «من جملة ما أخذ السيد طالب على عاتقه في مصر ، ان يطعن بجميع الشخصيات العربية ، على أمل أن تدرك نحن يوماً ما انه ليس أمامنا من يمكن أن نختاره الا السيد طالب فقط »

(٣) راجع المخابرات بهذا الشأن في .F.O. 371/3054 & F.O. 882/11

كورنوالس في ٦ تموز ١٩١٧ : من انه يستحسن أن يكتب الشريف للادريسي ويطلب منه مباشرة الاعتراف برئاسته « لاننا اذا طلبنا نحن من الادريسي أن يعترف بزعامة الشريف : فأمّا أن يرفض ويصبح الموقف أكثر سوءاً وأمّا أن يقبل أمرا هو غير مقتنع به ، وهذا غير مستحسن » . وعلى الأثر أبرق المكتب العربي في القاهرة إلى ولسون بتاريخ ٢٤ تموز ١٩١٧ يطلب اليه أن يؤكد للشريف « ان الوحدة العربية يمكن تحقيقها فقط اذا هو اتّبع سياسة مصالحة » نحو ابن السعود والادريسي .[1]

وبينما كان ونجت يعلّق على مطامح الملك حسين في سورية ومعارضته لقيام أية دولة أجنبية بالاستيلاء على مناطق عربية ، نراه يوصي باتّباع « سياسة انتهازية آنية » بالتلويح للملك باحتمال قيام بعض العلاقات السياسية بينه وبين الحكومات المقبلة في سورية[2] . وفي الوقت ذاته نرى برسي كوكس يقول انه لا مجال ابداً للاعتقاد بامكان قيام تفاهم دائم بين الشريف وابن السعود . وانه يبدو له « انه سيكون لمصلحتنا إلى حد بعيد أن يكون هناك زعيم في نجد يمكن أن يقف نداً كفياً تجاه الشريف في الحجاز . ان ترتيباً كهذا يسهّل بالتأكيد عملنا في العراق ويصحّح في الوقت ذاته ما أرغمتنا عليه سياستنا من الاعتراف للشريف سرا بزعامة لا نشعر تجاهها بالارتياح .[3]

ونجد في مذكرة كتبها الميجر رايلي – مساعد المقيم البريطاني في عدن – عرضا جيدا لوجهة النظر البريطانية تجاه موضوع الوحدة العربية . وفيما يلي موجز لتلك المذكرة :

اقترحت السلطات البريطانية في مصر أن يعترف الادريسي بملك

---

(١) راجع .F.O. 882/8 & F.O. 882/11

(٢) من ونجت إلى وزارة الخارجية البريطانية ، برقية رقم ١٢٨٦ بتاريخ ٢٩ تشرين الثاني ١٩١٧ – (F.O. 371/3054.) .

(٣) من كوكس إلى وزارة الخارجيةالبريطانية، برقية رقم ٦٢٨٣ بتاريخ ٢٣ كانون الأول ١٩١٧ – (F.O. 882/8.) .

الحجاز ، زعيماً للحركة العربية ، وقد عارضنا فكرة تقديم هذا الاقتراح إلى الادريسي . انني على ثقة من أنه سوف يستاء من هذا الاقتراح وسينظر بتشكك إلى سياستنا . ان الادريسي يهدف إلى الاستقلال بحكم منطقته وإلى توسيعها على حساب الأتراك والامام يحيى ، وفي الوقت ذاته فهو لا يرضى عن أية حركة يقوم بها الملك حسين باتجاه الجنوب ، ومن المرجح أن لا يرحب بفكرة وضع نفسه تحت رئاسة الملك ... ولا أعتقد ان الامام يحيى سيقبل راضياً مختاراً بسيادة مكة أو ان يدفع خراجاً ، وأشك كثيراً في أنه سيرحب بتولي الملك حسين منصب الخلافة . ويبدو لي اننا بقبولنا الاقتراح انما نتبع سياسة تبعث استياء عظيماً في زعيمي اليمن وسيعتبران ذلك نكثاً بوعودنا أن نحترم سيادتهما .. ترى هل سيقبل الزعيمان المذكوران تدخل الملك حسين برضى وطواعية؟ وألا يمكن أن تكون رئاسة الملك جالبة للاضطراب أكثر منها للسلام ؟ ان كلمة « سيادة » تعبير مطاط وخطر ويمكن تفسيرها على عدة وجوه . واذا أريد لها أن تكون شيئاً محسوساً في بلاد العرب فلا بد أن تدعمها القوة . فهل يملك الملك حسين القوة التي يستطيع بواسطتها أن يوطد سيادة حقيقية ؟ واذا لم يكن يملك تلك القوة ، فهل نحن مستعدون أن نقدم تلك القوة له ؟ أفترض أننا غير مستعدين لأننا لا نريد استعمال القوة . واذا لم تكن هناك قوة ، فالسيادة تصبح ظلاً لا روح فيه وتصبح وحدة شبه الجزيرة خيالاً باهتا .

ارى ان ندع العرب يبحثون عن خلاصهم بأنفسهم . واذا ما اختاروا ان يجتمعوا وراء زعيم واحد، فعلينا ان نرحب بذلك . ولكن علينا الا نحاول إرغام أحد على الوحدة [1] .

ونقتطف من بحث كتبته جرترود بل بعنوان « الأهداف العربية » العبارات التالية :

اذا بحثنا عن أدلة تشير إلى رغبة العراقيين في الوحدة العربية ،

---

(١) مذكرة بتاريخ ١ أيار ١٩١٨ – (الملف .CAB. 27/32, E.C. 1479) .

وجدنا أن الشريف هو الشخص الذي يمكن أن يخطر على بالهم . ولكن الاعتبار له هنا يصدر عن نوازع دينية أكثر منها سياسية . وهناك عدد من الأفراد يعتبرون الشريف محور الوحدة العربية . ومن الواضح أنه لا توجد دلائل على وجود أي طموح أصيل في العراق نحو الوحدة العربية . والأشخاص الذين يتحدثون عن الوحدة العربية والامة العربية ، لا تحمل أقوالهم مضموناً سياسياً محدداً . ان أفقهم السياسي لا يتجاوز بغداد والكوفة ، بل ان البصرة تقع خارج دائرة اهتمامهم ، فكيف نذكر إذاً سورية ومراكش ؟ وفي بغداد ذاتها نجد نفوراً من العرب القادمين من أقطار أخرى . عندنا اثنان من السوريين أحدهما من أسرة عبد الهادي التي اضطهدها الاتراك ويعمل مدير مدرسة والثاني لاجيء من حماة ويعمل في الجريدة المحلية ، ان كليهما يُعتبران غريبين هنا حتى ان رجلاً بارزاً وصاحب أفكار متحررة هو شكري الالوسي وصفهما في رسالة منه إلى صديق بأنهما سوريان ممقوتان يفرضان نفسيهما وآراءهما على أهل بغداد . وكما يُلاحظ في أي جزء من بلاد العرب ، فان الوطنية محصورة في نطاق محلي اذا خرج الأمر عن مجال تنميق العبارات ودخل في دور التطبيق العملي .. ان قوى الشقاق السائدة في المجتمع العربي سوف تحول بين الشريف وبين صهر الاقطار العربية في دولة وثيقة العرى ...[(١)]

أما الجنرال كلايتون فقد وصف في برقية له « الحماسة الحادة » التي استقبل بها الدمشقيون دخول القوات العربية إلى مدينتهم ، وكيف ان سكان سورية الشمالية ولبنان سارعوا إلى رفع العلم العربي ، ولكنه مضى إلى القول « بالنسبة إلى قوم متقلبين مثل عرب سورية ، وفي وقت ابتهاج عام مثل هذا ، فان الاحوال يمكن أن تتبدل بالسرعة ذاتها

---

(١) أرفقت جرترود بل هذا البحث مع رسالة منها بتاريخ ٢٥ ايار ١٩١٨ إلى اللورد هاردنج نائب الملك في الهند – (الملف .CAB. 27/31, E.C. 1217). ويقول أكرم زعيتر ان الشخصين المقصودين هما المحامي حسني عبد الهادي ونجيب الارمنازي (شقيق الشهيد علي الارمنازي) .

بحيث تجعل الانباء التي سردتها غير صحيحة هذا اليوم ... » [1]

هذا بينما وصف لورنس في مذكرته التي قدمها إلى اللجنة الشرقية ، جانباً آخر من جوانب الوضع العربي ، عندما قال « ان فقدان التلاحم بين الحركات العربية المتعددة — وهو العقبة العظمى التي واجهت الحركة العربية في أيام الحرب — أصبح حسنتها العظمى في زمن السلم . ان المنافسات المحلية في سورية والعراق وشبه الجزيرة ومصر ، جعلت من العسير علينا أن نعرف أين نبدأ ومع من نبدأ » .. [2]

وفي تشرين الاول ١٩١٨ توصل بيرن الاميركي إلى القول « الحقيقة هي ان السوريين منقسمون على أنفسهم إلى حدّ أنه لا توجد مجموعة من الناس تمثّلهم تمثيلاً حقيقيا » [3] .

وأخيراً وليس آخراً ، ربما نجد بيت القصيد في مفهوم السياسة البريطانية ، في رسالة من ونجت إلى حسين ذكّره فيها بما جاء في رسالة هوجارث من أنه لا بدّ للعرب من أن يسعوا « في اتحادهم من أنفسهم » ثم قال ان بريطانيا « ترحب بكل الدلائل الحقيقية على اتحاد العرب وهو الاتحاد الذي تسعى الحكومة البريطانية إلى تحقيقه . غير ان الحكومة البريطانية تعتقد بأن هذا الاتحاد يكون أتمّ وأرسخ قدماً اذا قام به العرب بأنفسهم وبمجرد رضاهم وأنه لا يجب حملهم عليه ، بمعنى أنه يُؤمل ان الشعور الوطني والاخلاص في القصد يؤديان إلى النتيجة التي يعزّ نوالها بالسرعة أو بالسيف [4] » . اي ان بريطانيا ترحب ترحيباً لفظياً باتحاد العرب ، وهي تعلم ان ذلك الاتحاد بعيد المنال .

قد يجد القارىء العربي في هذه الأقوال شيئاً من القسوة والتحامل . ولكن واجب كل عربي أن يتعرّف على آراء الآخرين وأن ينظر اليها

---

(١) من كلايتون إلى وزارة الخارجية ، برقية بتاريخ ٨ تشرين الأول ١٩١٨ — F.O. 882/17

(٢) « اعادة بناء بلاد العرب » — مذكرة بتاريخ ٤ تشرين الثاني ١٩١٨ — C.A.B. 27/36.

(٣) « تقرير عن رغبات السوريين » بتاريخ ٧ تشرين الأول ١٩١٨ — نقلا عن زين زين ، نضال العرب في سبيل الاستقلال ، ص ص ٢١١ — ٢١٢ .

(٤) رسالة بتاريخ ٢٤ حزيران ١٩١٨ — (أوراق الأمير زيد والملف .F.O. 882/19)

بجدية تامة ، حتى نكتشف من خلال ذلك مواطن الضعف فينا ولا نكون كالنعامة التي تدفن رأسها في الرمل كلما أحدقت بها الاخطار .

وقد حلّل فيصل وضع العرب في احدى رسائله فقال ان المفكرين العرب في النهضة الحديثة استهدفوا تحقيق الوحدة العربية ، تلك الوحدة التي كان من العسير تحقيقها في الأيام الغابرة بسبب تباعد أطراف الاقطار العربية وعدم وجود وسائط المواصلات التي تقربها بعضها من بعض وبسبب تحكّم الجهل . وعدّد فيصل أسباباً اخرى منها العصبية القبلية القائمة على الثأرات ، والغريزة الطبيعية في العرب « عدم الطاعة بعضهم لبعض وحب الحرية المطلقة ... جعلت أفراد الامة – بصرف النظر عن الزعماء – متفرقين متشتتين لا رابطة بينهم » . ووصف هذا بأنه « الداء الدفين » .[1]

وعن خلافات السوريين كتب فائز الغصين في مذكراته :

كانت ترد على الشريف فيصل كتب من أساطين السوريين وزعمائهم في مصر يطعنون على بعضهم ، وكل واحد يتهم الآخر بأشياء لا محل لذكرها ، مما يدل دلالة واضحة على صدق ما وصف نيوكب به العرب قبل سفره للمؤتمر من ان كلمتهم غير متفقة وان آراءهم متضاربة وأنهم في خلاف دائم وهم ساهون لاهون عن حق امتهم يضيعون الوقت بالجدل والمنازعات الحزبية السياسية قبل أن ينالوا شيئاً قليلا مما تصبو اليه الامة العربية . (٢)

وقد حدثني الامير زيد بن الحسين حول هذه المسألة فقال :

كان أبي يعتقد عندما فكّر باعلان الثورة ان الروح القومية عند العرب أقوى بكثير مما تبيّن له فيما بعد . وعندما جاءه الرسل وجاءته الرسائل من سورية عن الاستعداد للثورة ، تصور أن السوريين يستطيعون أن يقوموا بعمليات فعّالة ضد الاتراك . ولكن مع الأسف تبين ان ذلك التصور لم يكن صحيحا . لقد ظل نوري الشعلان يعطي مواعيد

---

(١) خواطر خصوصية كتبها فيصل في تشرين الثاني ١٩١٩ – (أوراق الأمير زيد) .

(٢) جريدة القبس ، ١٧ ايار ١٩١٧ (والمؤتمر الذي يشير اليه هو اجتماع سايكس وبيكو بالحسين وفيصل في جدة . وكان نيوكب قد ذهب من الوجه مع فيصل لحضوره .)

ويأخذ نقوداً حتى الشهر الأخير من الحرب . وعندما دخلنا دمشق اتضح لنا حال السوريين على حقيقتها : هذا شامي وهذا حلبي ، وهذا درزي وهذا بدوي . أضف إلى ذلك أن أهل دمشق أنفسهم كانوا يريدون الانفراد بالحكم ويقولون : هذا عراقي وهذا لبناني وهذا فلسطيني . وعندما ذهبنا إلى العراق وجدنا النعرة الضيقة ذاتها ، وجدنا الشيعة والسنّة والاكراد ... واكتشفنا ان اعادة بناء الكيان العربي أشقّ بكثير مما كنا نتصور في باديء الأمر .[1]

من هنا نرى أنه لا يكفي القول ان الوحدة العربية لم تتحقق نتيجة تنافس الامراء وتحاسد الزعماء ومطامح الاسر الحاكمة . ذلك ان الامراء والزعماء كانوا القادة الفعليين لسكان الاقطار التي كانوا يحكمونها ، ولم يكونوا سوى صورة حيّة لواقع شعوبهم . ولا شك في ان المثقفين العرب في تلك المرحلة كانوا يسبقون كثيراً في أفكارهم عامة الشعب العربي ولكنهم كانوا فئة قليلة العدد لا تستطيع التأثير الفعّال في مجرى الاحداث .

كان العرب ضعفاء . وكان ضعفهم واضحاً في تخلّفهم وتفرّقهم : وفي عدم التقائهم على هدف واحد . وفي جهلهم بأساليب الديبلوماسية الغربية ، وفي فقر بلادهم ؛ وفي ضعف قدرتهم الحربية . لقد اعتمد العرب في الثورة على المعونة الأجنبية من مال وسلاح ؛ وبعد انتهاء الحرب ظلوا بأشد الحاجة إلى المال والسلاح من عند الاجنبي . وفي تلك الحالة من الضعف لم يستطع العرب أن يكونوا الذئاب القادرة على حماية نفسها من الذئاب الجائعة . لقد أخفق العرب لأنهم كانوا « لا يملكون القوة المؤيدة والعزيمة الشديدة والبنية القوية مما هو وحده الذي يساعدهم

---

(١) مقابلة شخصية مع سمو الأمير زيد في منزله بلندن – يوم الخميس ٢٦ ايلول ١٩٦٨ . وبين أوراق الأمير زيد رسالة كتبها من الموصل في ٩ شباط ١٩٢٣ إلى ابن عمه جميل بن ناصر في مصر (وكان جميل قد كتب اليه يقول انه يريد المجيء إلى العراق) . وقد جاء في رسالة زيد قوله « ... أما هنا فغير ممكن لأن العراق للعراقيين كما كان مشاغبو السوريين يقولون سورية للسوريين ، حتى انه من الصعب تعيين بغدادي إلى الموصل أو موصلاي إلى بغداد ... »

على تحقيق ما أرادوه ... »[1]

ان الهدف الذي نهض الشريف حسين لتحقيقه ، قاده إلى القتال على جبهتين : داخلية وخارجية . ومع أن الخصم في الجبهتين كان أقوى منه سلاحاً الا ان عزيمة الحسين لم تهن وسيف ثباته لم يفل ، لأن ايمانه بحقه كان في نظره أقوى من أسلحة خصومه . لم يكن بمقدوره أن يتحوّل عن ذلك الموقف الا اذا تحوّل عن الهدف الأساسي . والتحول عن الهدف الأساسي لم يدخل قط في حساب الشريف حسين . لهذا كله نرى إخفاقه أعظم معنىً من انتصار خصومه ، لأنه كان يعمل في سبيل هدفٍ مثالي عظيم : بعث الامة العربية وحريتها ووحدتها .

(١) محمد عزة دروزه : حول الحركة العربية الحديثة ، دمشق ١٩٤٩ ، الجزء الأول ، ص ٥٩ .

فهرست الأعلام والأماكن

خ

د

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

هـ

و

انتهى

بعض أسماء الاعلام لم تسجل هنا ، مثل الملك حسين بن علي وابنه فيصل ، لكثرة تكرارها .

اعتمد مؤلف هذا الكتاب ، في اعداد هذه الدراسة التاريخية ، على وثائق وزارتي الخارجية والمستعمرات البريطانية التي أبيح الاطلاع عليها في لندن مؤخراً ، وعلى أوراق الأمير زيد بن الحسين وهي تضم عدداً مهماً من مراسلات الشريف حسين مع الساسة الانكليز ومراسلات الملك فيصل الأول ومذكراته ، وعلى وثائق أخرى عديدة من مصادر مختلفة . لذلك تعطي هذه الدراسة صورة واضحة عن الجوانب الداخلية للحركة العربية خلال فترة الحرب العالمية الأولى . ان هذا الكتاب يكشف عن اسرار وخفايا سياسية عن تطورات الاحداث بين بريطانيا وفرنسا من جهة وبين العرب من جهة أخرى ، مما لم يكن معروفاً من قبل . ومن هنا فهي جديرة باهتمام كل قارىء عربي يود التعرف الى الحقائق الاساسية لحقبة مهمة من تاريخنا الحديث .


دار النهار للنشر